د. المهدي بن محمد السعيدي

المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب
المدرسة الإلْغِيَّة بسوس نموذجا

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المملكة المغربية
1427 هـ - 2006م

المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب
المدرسة الإلغية بسوس نموذجا

عنوان الكتاب	:	**المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب**
النـاشر	:	**وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية**
الطبع	:	**مطبعة فضالة - المحمدية**
الحقوق	:	**جميع الحقوق محفوظة للوزارة**
رقم الإيداع القـانوني	:	**2006/1693**
ردمــك	:	**9954-0-5072-8**
الطبعة الأولى	:	**1427 هـ/ 2006 م.**

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

منذ دخل الإسلام إلى المغرب مع الفاتحين الأوائل انطلقت مسيرة بناء حضاري واجتماعي حثيث برزت فيه مظاهر العبقرية المغربية في الخلق والإبداع، وقد كان أساس هذه النهضة الحضارية نظام تعليمي ناجع أسست تقاليده التربوية على العقيدة الإسلامية التي آمن بها المغاربة واعتنقوها عن اقتناع وتبصر، وقد وفدت تقاليد هذا النظام التعليمي مع الفاتحين الأوائل حينما اتخذوا المساجد أماكن للتعليم والتكوين، وحينما وفدت البعثات التعليمية الأولى من الخلفاء المسلمين إلى المغرب لتعميق معرفته بالدين، وهكذا انطلقت حركة تعليمية حثيثة استمرت عدة قرون عملت على محورين أساسيين :

* محور التعليم الشعبي المرتكز على الوعظ والإرشاد لتفقيه عامة الناس في دينهم وتعليمهم أسسه العقدية والتعبدية.

* ومحور التعليم المتخصص المهتم بتكوين طلبة العلم وتعميق معارفهم في العلوم الإسلامية المتداولة من لغة وقرآن وحديث وفقه وفرائض وأدب. لكي يتسنى لهم تحصيل معرفة متينة تمكنهم من تأطير مجتمعهم من الناحية الدينية والاجتماعية والاقتصادية وضمان استمرار تداول هذه المعارف عبر نقلها إلى الأجيال الصاعدة.

وبسبب ما سلف، تنوعت المؤسسات التي قامت بمهمة التعليم والتكوين في تاريخ المغرب، فقد حملت المساجد راية الريادة في بداية الإسلام، ثم شاركتها الرباطات في مرحلة لاحقة عندما أصبحت مقاومة الأفكار الضالة صنو نشر العقيدة الصحيحة الصافية، ثم خفَت دور الرباطات لتحل محلها المدارس العلمية التي يرابط بها الشيوخ وطلبتهم للدراسة مع الوفاء بحاجات المجتمع في الوعظ والإرشاد والتوثيق والحفاظ على التوازن. وقد قام المجتمع والسلطة المركزية والجهوية بدعم هذه المدارس وتقويتها عبر القرون إلى أن ظهرت الزوايا لتجمع بين الوظيفتين التعليمية التكوينية والتربوية الصوفية، مع بقاء المدارس نشيطة في عملها وقد تدرجت أسلاك هذا التعليم ما بين الأولي المحلي في المدشر أو القرية والمتوسط والعالي الجهويان في مدارس إقليمية كبرى والنهائي الوطني في جوامع عتيقة كجامع القرويين بفاس وابن يوسف بمراكش.

وقد نجم عن هذا النشاط العلمي التعليمي الدائب بمختلف جهات المغرب لما يزيد على ثلاثة عشر قرنا بروز طائفة كبيرة من العلماء والفقهاء والوعاظ والمقرئين، وظهور آلاف المؤلفات في العلوم المختلفة عقلية ونقلية، نظرية وتجريبية، دون أن ننسى ما كان لهذه النخب العالمة من جهود في خدمة وطنها والحفاظ على كيانه والدفاع عن وحدته.

وقد كان لمنطقة سوس إسهام كبير في هذه الحركة التعليمية المغربية المستمرة بكثرة المدارس المنتشرة في مناطقها، إذ كانت أكثر المناطق البدوية في المغرب مدارسا، واشتهارا بالعطاء التربوي والعلمي منذ أول مدرسة علمية معروفة وهي مدرسة وكاك بن زلو باكَلو، واستمرت هذه المؤسسات في أداء مهامها وفي إمداد المنطقة والمغرب عامة بالعلماء المبرزين والفقهاء النوازليين والقراء الماهرين والحفاظ المستظهرين، وتشهد كتب التاريخ والتراجم والفهارس بمقدار عطائهم وتفوقهم، وإسهامهم في تنوير مجتمعهم وفتح آفاقه المعرفية والفكرية.

وقد مر التعليم بمنطقة سوس - كما في باقي مناطق المغرب - بمراحل كان فيها بين المد والجزر تبعا للأحوال الاجتماعية والاقتصادية، غير أنه تمكن من الصمود والاستمرار وتجاوز كافة العقبات، ويتعرض الكتاب الذي نقدم له لهذه الحركة التعليمية انطلاقا من نموذج متميز هو المدرسة الإلغية الواقعة في قلب بلاد جزولة - الأطلس الصغير - بوصفها وريثة التقاليد التعليمية التي شهدتها المنطقة منذ القديم، والمطعمة بالمؤثرات المغربية من الزوايا الكبرى قديما مثل زاوية تامكَروت بدرعة وحديثا مثل زاوية آل ماء العينين بالسمارة ثم بتزنيت، وبالمؤسسات العلمية الكبرى كجامع القرويين بفاس وابن يوسف بمراكش، والمؤثرات المشرقية من الجوامع الإسلامية الكبرى في القاهرة والحجاز والشام والعراق.

وإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وهي تهتم بترقية التعليم العتيق بالمغرب وتأهيله ليعود إلى سابق ازدهاره وتطوير مؤسساته والعناية بها، ليسرها أن تقدم هذا الكتاب ضمن منشوراتها ليكون دليلا على ذلك الماضي الحضاري المغربي المتألق، وحافزا على الجهود الحثيثة المبذولة الآن للنهضة بالتعليم العتيق، واستشرافا للمستقبل الزاهر المشرق الذي يمكن الوصول إليه بالعناية بالتعليم العتيق وأطره وطلبته وإدماجه في الواقع الحديث ليكون للمغاربة ظهيرا في الحفاظ على قيمهم الإسلامية المستمدة من الاعتزاز بالعقيدة والحفاظ على الثوابت الوطنية الراسخة.

نسأل الله تعالى أن يجعل ثواب هذا العمل في صحيفة أعمال مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأن يقر عين جلالته بسمو الأمير المحبوب ولي العهد مولاي الحسن، ويشد أزر عضد جلالته بشقيقه صاحب السمو الملكي الأمير الجليل مولاي رشيد ويحفظ جميع الأسرة العلوية المجيدة، إنه سميع مجيب، آمين والحمد لله رب العالمين.

أحمد التوفيق

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

المقدمة

أ - أسباب اختيار الموضوع :

يعد البحث في أدبنا المغربي ضرورة ملحة في الدراسات الجامعية، وذلك لأمرين إثنين:

* **الأول** : التعرف على هذا الأدب واكتشاف مجاهله، ومعرفة أكثر ما يمكن من مواده التاريخية ونصوصه الإبداعية، سعيا إلى إنقاذها من الضياع، ولأننا، كما قال أستاذنا الدكتور عباس الجراري، في حاجة إلى كشفها وإبرازها أكثر من حاجتنا إلى تحليلها ونقدها أو التعليق عليها.(1)

* **الثاني** : إن الكشف عن هذه الآثار، وضمنها مئات بل آلاف من النصوص القيمة، سيمكننا من الرد على الإتهامات الجائرة والأحكام المسبقة، التي طالما وصمت أدبنا المغربي بالجمود والتبعية، فجعلته ظلا للأدب المشرقي تارة، وتابعا للأدب الأندلسي تارة أخرى، دون أن تهتم بما فيه من سمات تمثل أصالته وشخصيته.

وقد تصدى للقيام بهذه المهمة ثلة من الباحثين الغيورين، الذين فتحوا لغيرهم آفاق البحث في هذا المجال والكشف عن خباياه، فانصبت الدراسة على التأريخ للأدب المغربي بطريقة التحقيب أو بدراسة الظواهر والقضايا، وعلى بعض الأعلام البارزين فيه، من كتاب وشعراء وعلى النصوص الإبداعية باختلاف أغراضها وأشكالها؛ ونادرا ما اتجهت جهود الباحثين، خاصة في الميدان الأكاديمي، صوب المؤسسات التعليمية التربوية التي كانت مهد هذا الأدب، ومنبت بذرته الأولى، إذ بها تلقى الطلبة والتلاميذ مواده، واحتكوا بنصوصه وإبداعاته، وأحيطوا بالتشجيع من قبل أساتذتهم على تداول فنونه.

وقد كثرت هذه المؤسسات التربوية بالمغرب عبر التاريخ، خاصة المهتمة بالأدب، في البوادي والحواضر، وخرجت أفواجا وأفواجا من حملة العلم ومتذوقي الأدب، أسهموا في إثراء أدبنا المغربي بإبداعاتهم وكتاباتهم، إلا أننا، ورغم أهمية البحث في هذا الجانب، لا نكاد نجد دراسات وبحوثا تعطي هذه المؤسسات ما تستحق من اهتمام وتوفيها حقها من البحث، لإبراز أثرها في تشجيع الأدب، إلا ما كان من دراسة واحدة حول أدب الزاوية الدلائية والجانب الشعري منه فقط للأستاذ عبد الجواد السقاط تحت عنوان : «الشعر الدلائي»(2) والتي اقتصرت على النظر في الناحية الفنية دون التركيز على أساليب تدريس الأدب وتعليمه وأسباب الإهتمام به في هذه الزاوية - المدرسة إلا بشكل عام.

---

1) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص : 6

2) صدر عن مكتبة المعارف، ط الرباط 1985م

وانطلاقا من هذا التصور، سعيت إلى تخصيص هذه الدراسة لإلقاء النور على إحدى هذه المؤسسات التعليمية، ودورها في الاهتمام بالأدب وتشجيعه ونشره، واخترت المدرسة الإلغية الواقعة في بسيط إلغ في قلب الأطلس الصغير بمنطقة سوس جنوب المغرب. ولست أزعم أنني صاحب هذه الفكرة أولا، وإنما اقترح علي الاشتغال بها أستاذنا المقتدر الدكتور اليزيد الراضي الذي خص هذه المدرسة بالإشارة في بحثه حول «شعر داود الرسموكي»(3) باعتبارها من المراكز الأدبية النشيطة بسوس في القرن الرابع عشر الهجري، ورأى أن حديثه في بحثه حولها، لا يكفي لإبراز أثرها الأدبي في محيطها القريب بسوس ومحيطها العام بالمغرب، وأن ذلك لاينهض به إلا بحث كامل يؤدي لها ما تستحق من دراسة وتحقيق.

ولا ينطوي اختيار هذه المدرسة ولا منطقتها على تعصب أو حمية، وإنما تكمن وراءه أسباب وجيهة تفرض نفسها على كل باحث.

أولها : حاجة هذه المنطقة، كغيرها من مناطق المغرب، إلى جهود الباحثين لأن علماءها وأدباءها، كما قال أستاذنا الدكتور اليزيد الراضي(4) قد أفرطوا في التواضع وهضم النفس، فلم يولوا آثارهم ما تستحق من اهتمام.

ثانيها : ظن الكثيرين أن منطقة سوس ما هي إلا بلد بدوي أعجمي تغلب على أهله الرطانة وتبعد عنهم الفصاحة، وأنها بسبب ذلك، لا علاقة لها بالعربية ولا بعلومها وآدابها، حتى ليعجبون إذا قيل لهم إن في شعابها وسهولها أدباء مفهوهين مبرزين في العربية، وهذا ما يجعلنا نتصدى لهدم هذا الظن، وإبراز جانب من الحركة الأدبية النشيطة في المنطقة.

ثالثها : وهو تابع للسبب الثاني، ويتمثل في اغترار بعض المثقفين بما يلاحظون من غلبة اللسان الشلحي على المنطقة، وقلة معرفة اللغة العربية بها، فظنوا أن لغة القرآن غريبة عنها وأنها ليست سوى عنصر دخيل. انسياقا منهم مع بعض الاتجاهات الاستعمارية المفتونة بإذكاء نار الفتنة القبلية، والتي لهجت بإدعاء وجود حضارة مغربية أصيلة مجانبة للإسلام مفارقة للغة القرآن... وغير ذلك من تلفيقات، فكانت هذه الدراسة ردا على كل ذلك، وإن بشكل عام، لتأكيد مسألة واحدة هي أن السوسيين لم يكن لهم أبدا وجود حضاري أو فكري خارج الإسلام واللغة العربية، ولا أدل على ذلك من نبوغهم الخارق في علومهما وآدابهما، وما مدرستنا الإلغية الأمثال بسيط على ذلك.

---

3) أنظر المبحث الثالث من الفصل الثاني.
4) المرجع نفسه، ص : 3

رابعها : ارتباطي بعلاقة القرابة والصداقة مع كثير ممن يحتفظون بمصادر ووثائق وشهادات حول المدرسة وأساتذتها وتلاميذها، مما يمكنني من الاستفادة منها واستثمارها في إثراء البحث.

خامسها : أهمية هذه المدرسة وإسهامها العظيم في الاهتمام بالأدب العربي ليس بين طلبتها ومن جاورها فقط، بل في سوس والحواضر المغربية الكبرى أيضا، ولا شك أن مقدار هذا الإسهام يتجلى لنا عندما نضع نصب أعيننا مسألة غلبة اللسان الشلحي على المنطقة، وانحصار العربية في أوساط العلماء والفقهاء والطلبة. إذ نطلع عند ذاك على مقدار الجهد المبذول بهذه المدرسة لتعلم العربية وتذوق آدابها فما بالك بالإبداع فيها.

هكذا كانت المدرسة الإلغية إحدى المؤسسات الفريدة التي تأسس عليها الاهتمام بالأدب العربي بسوس بفضل جهود مؤسسها محمد بن عبد الله الإلغي وخلفائه من بعده، وبفضل من درّس بها من الأساتذة وتعلم بها من الطلبة.

ومثل كل الباحثين لم أسلم من العقبات والصعوبات في إنجاز هذه الدراسة، خاصة في جانبها التاريخي، إذ يعتبر الحصول على الو ثائق والمصادر المخطوطة، ولقاء البقية الباقية من تلاميذ المدرسة للاستعانة برواياتهم الشفوية وإبداعاتهم المخطوطة، من الصعوبة بمكان، وهذا أمر لا يستغربه الباحث في أدبنا المغربي الذي لا يزال غالبه مخطوطا محفوظا بعيدا عن أعين الراغبين فيه. وقد أسهم في تذليل هذه العقبات تفهم ذوي الظن الحسن لمقصد البحث، بالإضافة إلى حدب ورعاية أستاذنا الدكتور علال الغازي الذي لم يبخل علي، كلما زرته أو لقيته أو هاتفته بتوجيهاته ونصائحه وتشجيعاته التي كانت تزيل ما يعلق بالنفس من شعور بالإحباط أو التعب، فله جزيل الشكر، داعيا الله عز وجل أن يجعله دائما مثالا للأخلاق العلمية الرصينة.

ب – خطة البحث ومنهجه :

يجد الباحث في مثل موضوعنا هذا المتعلق بدراسة جانب ما من جوانب المؤسسات التعليمية نفسه مدفوعا إلى تناول جانبين متكاملين، الأول تاريخي، والثاني خاص بالوظيفة التربوية، وإذا كان الجانب الأدبي هو الذي يهمنا من المدرسة الإلغية، فإنه يرتبط بالجانب التربوي، لهذا قسمت هذا البحث إلى ثلاثة أبواب ومدخل ومقدمة وخاتمة.

وقد تناولت في المدخل التعريف بالحركة التعليمية بمنطقة سوس منذ الفتح الإسلامي حتى وقتنا الراهن، وتطور مؤسساتها بدءا بالمساجد ثم الرباطات، فالزوايا، فالمدارس العلمية. مع تتبع العوامل المساعدة على انتشارها أو المعرقلة لسيرها، محاولا رصد عصور

ازدهارها وانحطاطها بتتبع تطور بناء المدارس واهتمام الناس بها، باعتباره تجليا للازدهار العلمي بالمنطقة. وقد اخترت التحقيب التاريخي، فربطت تطور الحركة التعليمية بسوس بتوالي الدول المغربية التي كان لها تأثير كبير عليها، إذ كانت تشجع العلماء المدرسين، إما بالعطايا أو ظهائر التوقير والاحترام أو الوظائف المخزنية. وقد تناولت تبعا لذلك نشأة التعليم بسوس منذ الفتح ثم في بدايات الحكم الإسلامي على عهد الأداسة، ثم المرابطين، وتطوره الإيجابي على عهد الموحدين ثم المرينيين، وازدهاره إبان حكم السعديين الذين كان لهم اهتمام خاص بمنطقة سوس، ثم العلويين. وتطرقت أخيرا لانهيار التعليم بعد الاستعمار بسبب التضييق عليه وتجاهله، وبسبب ما لحق منطقة سوس من جفاف رهيب أودى بموارد المدارس الاقتصادية.

وقد كان الهدف من كل ذلك، وضع المدرسة الإلْغية في إطارها التاريخي باعتبارها حلقة في سلسلة انتشار التعليم العربي الإسلامي بسوس، ووارثة معارف سابقاتها من المداس السوسية، إضافة إلى مناهج وطرق التدريس.

أما الباب الأول : فقد خصصته للحديث عن تطور المدرسة الإلْغية منذ بنائها حتى تدهورها مرورا بفترة ازدهارها،وذلك من خلال التعريف بالمؤسس محمد بن عبد الله الإلْغي، وجوانب من شخصيته العلمية. ثم التعرض لتأسيس المدرسة على يديه، وعمله فيها مع تلاميذه الأوائل، وذلك في الفصل الثاني. أما في الفصل الثالث فقد تناولت تطور المدرسة بعد وفاة مؤسسها، وتداولها بين ورثته، حيث تولاها أخوه علي بن عبد الله ثم أبناؤه من بعده. أما في الفصل الرابع فقد ربطت المدرسة الإلْغية بمحيطها العلمي السوسي، حيث تحدثت عن علاقاتها بمثيلاتها السوسيات من خلال المشيخة والتلمذة.

أما الباب الثاني : فذكرت فيه النظام الإداري والتعليمي، من خلال فصلين، ففي الفصل الأول تعرضت لهذا النظام في سوس عامة من خلال أركان العملية التعليمية : الأستاذ، والطالب، والمدرسة، والمنهج التربوي محاولا وضع كل منها في إطاره الصحيح. أما الفصل الثاني فقد قصرته على النظام الإداري والتعليمي بالإلْغية، حيث ذكرت كيفية إدارتها والقوانين المتحكمة في ذلك، وعلاقة التلاميذ بالأساتذة، مع تقديم جرد مدقق بالأساتذة الذين درّسوا بها. كما تعرضت للنظام التعليمي متتبعا مواد الدراسة ومناهجها، وهي في مجملها تحترم الأسس التربوية التي سار عليها التعليم بالمدارس العتيقة، فكانت تجمع بين التربية والتعليم والمراقبة المستمرة باعتبار الطالب مقيما دائما بالمدرسة، فكانت هناك أساليب الجزاء والعقاب المتفاوتة شدة ولينا، وهي كلها تصب في اتجاه تربية الطالب وتوجيهه نحو السلوك القويم.

وفي الباب الثالث : تعرضت للحركة الأدبية بالإلغية من خلال ثلاثة فصول، تناولت في الأول مظاهر اهتمام الإلغيين بالأدب، وتتجلى في دفع الطلبة إلى الاحتكاك بالإبداعات والمؤلفات الأدبية، وتلقينهم أهمية الأدب وفائدة محبته والولوع به، بالإضافة إلى اعتباره مسهما في إثراء الجانب الثقافي والفكري، أما الفصل الثاني فتعرضت فيه للإبداع الأدبي بالمدرسة وثماره النثرية والشعرية، ودراسة موضوعاتها وأشكالها وصيغها الفنية دراسة وافية، مع الاستشهاد بنصوص مختارة من المصادر والمراجع المتوفرة لي، مع الحرص على ربط هذه الإبداعات بواقعها الاجتماعي والبيئي، خاصة في تفسير غلبة الإخوانيات على أدب تلاميذ المدرسة، وظهور ألفاظ اللسان المحلي في قوافي أشعارهم وألفاظ منثوراتهم. أما الفصل الثالث فخاص بإشعاع المدرسة وأثرها في تحريك الاهتمام بالأدب بمنطقة سوس والصحراء والحواضر المغربية، وقد أثرى هذا الإشعاع وساهم في نشره، اتصال تلاميذ الإلغية بأقرانهم فيي كل مكان حلوا به مثل سوس والصحراء ومراكش وفاس والرباط والجديدة وسطات والصويرة ومكناس... وتداول الأدبيات معهم، واطلاع كل فريق على ما لدى نظيره من إبداعات بواسطة التزاور والتراسل، فلم يكن أدباء الإلغية منعزلين عن الأوساط الأدبية المغربية بل كانوا متصلين بها وبكبار أعلامها، وتجلى هذا الاتصال في المساجلات الشعرية والإعجاب المتبادل والتكوين الأدبي، وسعيت في الأخير إلى وضع فهارس متنوعة لهذا البحث تيسيرا على مطالعه، فجعلت فهرسا للآيات القرآنية ثم الأحاديث النبوية فالأعلام ثم الأماكن ثم القبائل والأسر والجماعات ثم فهرسا خاصا بالمدارس والمراكز العلمية نظرا لكونها محور البحث، ثم فهرسا للمصادر والمراجع، وأخيرا فهرسا للموضوعات، كما ألحقت بالبحث صورا تمثل المدرسة ومرافقها ومحيطها الجغرافي. بالإضافة إلى خريطتين، الأولى لقبائل سوس ومواطنها والثانية لمنطقة إلغ.

أما فيما يخص منهجية البحث فلم أتقيد فيها بمنهج معين محدد، وإن كان المنهج الوصفي هو الغالب، ولما كان المنهج خادم المادة وكانت مادة البحث متنوعة ما بين تاريخية وتربوية وأدبية، استعنت بمناهج أخرى كالمنهج التركيبي والتحليلي والتصنيفي سعيا إلى إبراز الأفكار التي استخلصتها، وتأكيد النتائج التي توصلت إليها.

هذه هي الخطوط العامة لهذه الدراسة المتواضعة التي أدين بفضل إنجازها لأستاذي الجليل الدكتور علال الغازي الذي فتح لي قلبه وبيته، راجيا الله عز وجل أن يجزيه على

ذلك أفضل الجزاء، كما أشكر كل من أسهم في إنجاز هذا الكتاب خاصة من الذين أمدوني بالوثائق وممن أرشدوني من الفقهاء والعلماء وعمداء المدارس العلمية العتيقة والأساتذة الباحثين والأقارب والأصدقاء من أصحاب الخزانات والوثائق، وكل الذين أمدوني بمعلومات وشهادات كانت لي خير سند، لكل هؤلاء أزجي خالص الشكر داعيا الله عز وجل أن يجزيهم عني خير الجزاء، ويتقبل منهم ويبارك في الأحياء ويرحم المتوفين ويزيدهم أجراً على أجر ورضى على رضى، والله تعالى أسأل أن يغفر لي زلة القلم وكبوة الفكرة، وأن يعصمني من ضلال القصد وسوء النية وأن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يجعله مفيدا نافعا آمين، والسلام.

د. المهدي بن محمد السعيدي

مـــــدخــــل : تطور التعليم العربي في سوس

تـــمـهـــيـــد :

المبحــث الأول : بوادر التعليم العربي في سوس

المبحث الثانــي : انتظام التعليم العربي في سوس

المبحث الثالث : ازدهار التعليم العربي في سوس

تمهيد :

تأسست المدرسة الإلغية أواخر القرن الثالث عشر الهجري، فكانت حلقة من السلسلة الذهبية لازدهار التعليم العربي في سوس. ولم يكن تأسيسها طفرة ثقافية أو تاريخية، وإنما نتيجة لتطور حركة التعليم منذ دخول الإسلام إلى سوس، وتصدي الدعاة لنشره وتعميم ما يتعلق به من معارف وعلوم في إطار التعليم العام بالمساجد، وحتى تاريخ بنائها لما تحددت مهمة المدارس، مرورا بأعمال الرباطات والزوايا وما قامت به في سبيل نشر العقيدة وحمايتها، كل ذلك بفضل القائمين على هذه الحركةوجهودهم في أصقاع سوس سهلها وحزنها، وكانت تستمد طاقة عملها من معاهد العلوم الاسلامية بالحواضر المشرقية والمغربية والأندلسية، ومن أثر هذا الاستمداد كانت تنشأ معاهد علمية كبرى تشع منها المعارف على ما حولها من مؤسسات تعليمية، ناقلة إليها بفضل التلمذة ما لديها من علوم وفنون. وهكذا تتوارث المعارف وتنشر، مع الاستمداد الدائم من معاهد العلوم الإسلامية الكبري، مما جعل هذه الحركة دائمة الازدهار محافظة على وجودها، لا تلبث أن تتجدد عندما تواجهها معوقات كالأوبئة والحروب والفتن، وحتى نكون على دراية بالسياق التاريخي والفكري لتأسيس المدرسة الالغية، لابد أن نتتبع تطور حركة التعليم العربي بسوس منذ بدايتها وحتى أواسط القرن الرابع عشر الهجري، وقد مرت خلال ذلك بمراحل ثلاث : الأولى بوادر قيام التعليم العربي بسوس، والثانية انتظامه ضمن مؤسسات خاصة به، ثم الثالثة ازدهاره. والتي توجت بظهور الالغية عام 1297 هـ ونشاطها في التخريج والتكوين مع تميزها بالاهتمام بالأدب، قبل أن يلحقها الانهيار العام إلى جانب مثيلاتها في سوس والمغرب عامة.

المبحث الأول – بوادر قيام التعليم العربي بسوس :

أ – فتح سوس وانتشار الاسلام به : (1) اهتمت المصدر العربية المؤرخة للفتح الاسلامي لسوس بالمعارك الحربية التي دارت رحاها في المنطقة وما نتج عنها من هزيمة السكان الأصليين وانتصار المسلمين وحصولهم على أنواع الغنائم والطرف،(2) ولم تلتفت إلى ما واكب هذا الفتح من دعوة إلى الإسلام، وتبشير بمبادئه بين صفوف الأمازيغ الوثنيين خاصة أن هذه الدعوة كانت الهدف الأول من الفتح، واكتفى المؤرخون بالإشارة إلى إسلامهم في عبارات مكررة، دون الاشارة إلى ما اتخذه الفاتحون من أسباب وما سلكوا من أساليب لنشر الاسلام وتعليم الناس مباده، فنحن لا نعرف – اعتمادا على المصادر المؤرخة لهذه المرحلة – أساليب الاقناع التي استعملها الفاتحون مع المغلوبين ولا الوسائل والتدابير الادارية التي اتخذوها لحفظ الدعوة ونشرها.(3)

ومهما يكن فإن الفتح الأول للمغرب عامة وسوس خاصة، لم يستهدف – كما يبدو من دراسات بعض الباحثين(4) – السيطرة على الموارد الاقتصادية للمنطقة باعتبارها موقعا وسطا بين الصحراء وباقي المغرب، بالإضافة إلى غناها ووفرة ثرواتها، وإنما كان هدفه الأول نشر الاسلام ولا أدل على ذلك مما أوردته كتب التاريخ،(5) من حوار دار بين عقبة ابن نافع الفهري ويوليان الغماري الذي أشار عليه بمحاربة كفار الأمازيغ ببلاد سوس، ويستشف من خلال هذه الرواية أن الهدف الذي حدا بعقبة إلى الاتجاه نحو سوس كان هدفا دينيا يرمي إلى نشر الإسلام بالمنطقة.

وقد سعى عقبة إلى نشر الاسلام بأيسر الأساليب ولم يعتمد على القتال دائما، فهو وإن قاتل قبائل المصامدة قتالا مريرا حتى هزمها بمعاونة زناتة،(6) فقد سالم قبائل جزولة التي أسلمت على يديه دون قتال بعد أن وفدت عليه وهو نازل بوادي سوس(7) كما أنه حرص على تثبيت الإسلام بالمنطقة حيث أشرف على بناء مسجد ماسة كما ذكره ابن عذاري بقوله :

---

1) انظر حول تحديد منطقة سوس عمر أفا – مسألة النقود بالمغرب، ص : 66 – 67.
2) انظر المرجع نفسه، ص : 81 حتى ص : 112.
3) محمد زنيبر – كيف نشأت التقاليد العلمية بسوس – مجلة البحث العلمي عدد : 3، ص : 120.
4) انظر : Jaques - Menié - Le Maroc saharien T 1/58
5) انظر الاستقصا 1/ 81.
6) ابن خلدون – كتاب العبر... 6/ 217.
7) ليفي بروفنسال – نص جديد عن فتح العرب للمغرب، صحيفة العهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد، عدد 1–2 المجلد الثاني، ص : 220.

«أخبرني الشيخ الصالح أبو علي صالح بن أبي صالح أنه لم يصح عنده أن عقبة - رضي الله عنه - حضر بنيان شيء من مساجد المغرب، إلا مسجد القيروان ومسجدا بالسوس الأقصى».(8)

إلا أنه ليس من المعقول اكتفاء عقبة ببناء مسجدين فقط بالمغرب كله بل ربما بنى مساجد أخرى أو بناها أصحابه أو ربما عمد إلى تحويل المعابد التي وجدها بالمنطقة، خاصة بالمراكز الحضرية كإيكَلي، إلى مساجد سواء كانت معابد الوثنيين المجوس، أو النصارى واليهود وقد وقع مثل هذا في مدينة أغمات حيث ذكر صاحب كتاب القبلة مسجدها وقال : «ذكر بعض الناس من أهلها أن المسجد إنما هو من بنيان الحواريين، ثم حولت قبلته في الاسلام...».(9)

ويعد عمل عقبة أول بادرة تعليمية إسلامية بسوس استهدفت تلقين الأمازيغ الإسلام والعربية، إلا أنه لم يقدر لها أن تؤتي أكلها إذ سرعان ما ارتدت قبائل سوس بعد فتك كسيلة وصحبه بعقبة ومن معه من المجاهدين،(10) فأظهر هذا الحدث أن الإسلام لم يستقر بعد في الغرب الاسلامي وأن «ما قام به عقبة بن نافع ما هو إلا مجرد غزو تعرف فيه الأمازيغ إلى العرب ودينهم وأخلاقهم ونظام حكمهم وتناقلوه فيما بين قبائلهم».(11)

ولما قدم موسى بن نصير حاول تأليف قلوب الأمازيغ على الإسلام فأشركهم في الولايات وأجزل لهم الصلات، واهتم بتأسيس المساجد أينما حل وارتحل، ووجه ابنه إلى سوس حيث واصل الخطة بتوزيع الفقهاء على المساجد لتعليم الأمازيغ القرآن وفرائض الإسلام.(12) وذلك شعورا منه بأهمية المنطقة، وكونها منطقة عبور تجاه الصحراء التي تقطن بها قبائل لم تعرف الإسلام بعد، وسكانها في حاجة ماسة إلى من يشجعهم ويثبتهم في عقائدهم ويحرضهم على الجهاد.(13)

ولم يكن الاهتمام بتعليم المغاربة دينهم خاصا بالولاة، بل شاركهم فيه الخلفاء أنفسهم، إذ ذكرت المصادر التاريخية أن الخليفة عمر بن عبد العرير وجّه عشرة من التابعين إلى الغرب الإسلامي، وذلك على عهد ولاية إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي كان مهتما بأمر الدعوة وتعليم الأمازيغ، حتى أسلم في عهده كثير منهم.(14) ويبدو أن الفقهاء

8) البيان المغرب، 1/ 27.
9) مرادي عبد الحميد الباعمراني - لمحات من تاريخ سوس... ص : 7.
10) ابن خلدون، كتاب العبر... 4/ 40.
11) المصدر السابق.
12) ابن خلكان - وفيات الأعيان... 5/ 320.
13) محمد زنيبر - كيف نشأت التقاليد العلمية بسوس، ص : 120.
14) الإستقصا... 1/ 101.

الذين بعثهم الخليفة كانوا موجهين أساسا لتكوين الدعاة والإشراف على إرشادهم إلى سبل الدعوة وطرقها خاصة من بين الأمازيغ أنفسهم، والذين سيقومون بهذه المهمة خير قيام، لما يتميزون به من معرفة اللغة الأمازيغية، إلا أن هذه الاهتمامات قد أصيبت مرة أخرى بنكسة جراء عدم اهتمام الولاة بعد اسماعيل بن عبيد الله، حيث اتجه بعضهم إلى استغلال المغرب عامة وسوس خاصة، بكل كان منهم من فرض الجزية على الأمازيغ المسلمين رغبة في جمع الأموال وأكثر من سلبهم وسبي نسائهم(15) فكان لهذه التصرفات أبلغ الأثر في نفوسهم، خصوصا وهم يرون الفاتحين ينتهكون مبادىء الدين الذي جاءوا به، مما مهد لدخول المذهب الخارجي وانتشاره السريع بالمنطقة، حيث مال الأمازيغ «إلى هذا المذهب الذي وافق طبيعتهم الاستقلالية، وميلهم إلى رفض كل سيادة تفرض عليهم سواء كانت عنصرية أو دينية، ولعلهم أفهموا من خلاله حقيقة الاسلام وحقيقة أسلوب الحكم فيه».(16)

واستلزم انتشار المذهب تبصير الناس بفقهه وآرائه وعقائده وقد اهتم رؤساء الخوارج بهذا الأمر خاصة بعد تأسيس مدينة سجلماسة عام 140هـ(17) فاختاروا بعض رجالهم وأوفدوهم في بعثة إلى البصرة للدراسة والتعمق في أصول المذهب وفروعه، عادوا بعدها حملة للعلم ثم قاموا بتدريس ما حصلوه بالمشرق في حلقاتهم التي انتشرت في جهات كثيرة من المغرب، ويذكر ابن حوقل أن الخوارج السوسيين أسهموا في هذه البعوث الدراسية التي استمرت مدة طويلة يقابلها قدوم فقهاء الخوارج ومحدثوهم إلى المغرب للتدريس والافتاء،(18) ولما كانت سجلماسة مركز الخوارج العلمي فقد توافد إليها السوسيون للتعلم وللأخذ عن علمائها الذين منهم من أخذ عن الامام مالك بالمدينة ورجع إليها ودرس العلوم بها.(19) ومن هذه المدينة انتشر مذهب الخوارج حاملا التأثيرات الثقافية المشرقية إلى سوس.

وقد دامت سيطرة الخوارج على سوس حتى سنة 197هـ حين انتزعها منهم ادريس الثاني، ووجد جبال المصامدة لازالت على وثنيتها فحارب أهلها وأرغمهم على الإسلام

---

15) الاستقصا 1 / 106.
16) الدكتور عباس الجراري - الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص : 45-46.
17) محمود إسماعيل عبد الرزاق - الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع، ص : 122 وما بعد.
18) صورة الأرض، ص : 90.
19) الدكتور عباس الجراري... أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره بالمغرب - ندوة الإمام مالك 1/ 172-173.

وقاتل من رفض منهم الطاعة.(20) ويبدو أن هذه الجبال لم تتأثر بالحملات السابقة، وأن الإسلام انحصر بالسهول المحادية لها. ولما كان الأدارسة يعتنقون المذهب المالكي فقد حاربوا الخوارج وبطشوا بهم وعملوا على استئصال مذهبهم ونشر مذهب مالك، فعزلوا فقهاء الخوارج من وظائف التدريس والإفتاء، وأرسلوا المالكية إلى مختلف الجهات لتقلد المسؤوليات(21)، إلا أن هذه الجهود تقلصت بعد ضعف دولتهم وتحول المغرب إلى ساحة صراع بين الأمويين الأندلسيين والفاطميين مما حد من انتشار الثقافة العربية الإسلامية، واشتدت المنافسة بين المذهبين الشيعي والمالكي وعمل كل منهما على طمس مبادىء الآخر وإقصائه وشجع الفاطميون المراكز الشيعية بالمغرب،(22) فكان من أثر ذلك في سوس ظهور الشيعة البجلية بتارودانت على يد علي بن عبد الله البجلي بمباركة من أبي عبد الله الشيعي وزعامة أحمد بن إدريس،(23) بينما احتفظت جبال جزولة بمذهبها المالكي، فترسخت العدواة المذهبية بين الفريقين حتى أفضت إلى القتال، وقد وصف ابن حوقل هذا الوضع بقوله : «وأهل السوس فرقتان إحداهما فرقة موسويون... والفرقة الثانية سنية مالكية حشوية، وبينهم القتال المتصل ليلا ونهارا والدماء الدائمة ولهم مسجد يصلي فيه الفريقان فرادى عشر صلوات، إذا صلى هؤلاء أتى هؤلاء، بعشر أذانات وعشر إقامات...».(24)

ولا شك أن هذا الصراع الدامي قد صاحبه صراع فكري يتزعمه «علماء دينيون، يقودون الأفكار، ويلحقونها بالأدلة لكل فريق، ولا يكون ذلك إلا بتعاطي العلوم الموجودة إذ ذاك».(25) فيجتمع حولهم الأتباع لتدارس المذهب ومبادئه وأصوله ومواضيع مخالفته للمذهب المنافس، مع ما يلزم ذلك من معرفة القرآن والحديث وعلوم اللغة العربية مما يؤدي إلى قيام حركة تعليمية مبكرة.

ب ـ المسجد مؤسسة تعليمية : ظل بناء المساجد مواكبا لحركة الفتح، حيث كان بناؤه أول ما يفكر فيه المسلمون عند إنشاء مدينة جديدة أو استيلائهم على مدائن غيرهم،(26) وذلك لكونه مجمع الصلاة ومقام الدعاة ومكان الدعوة والتعليم، ومركزا اجتماعيا للوفاء « بحاجات المسلمين الأخرى كاتخاذه مركزا للقضاء والاجتماع به

---

20) مرادي عبد الحميد - لمحات من تاريخ سوس، ص: 8.
21) محمود إسماعيل عبد الرزاق - الخوارج في بلاد المغرب، ص : 135.
22) الدكتور عباس الجراري ـ انتشار المذهب المالكي... ص : 184.
23) ابن حزم - الفصل في الملل والنحل 4/ 140 والبجلية من الشيعة الرافضية.
24) صورة الأرض، ص : 90.
25) محمد المختار السوسي، سوس العالمة، ص : 17.
26) محمد عبد الرحيم غنيمة ـ تاريخ الجامعات... ص : 33.

عند المشكلات الهامة»(27) ولهذا تبوأت المساجد مكانة مرموقة واكتسبت صفة التقديس والاحترام.

ومهمة الدعوة والإرشاد من بين المهام الكبرى للمسجد في هذه المرحلة، إذ قامت على فكرة التعليم العام فيصبح كافة الناس هدفا لتبليغ الإسلام ومبادئه الأساسية سيرا على هدي النبوة وهدي كبار الصحابة والتابعين،(28) وقد احتفظت لنا المصادر بذكر مسجدين وجدا في هذه المرحلة المبكرة ذكرناهما آنفا، وهما مسجد ماسة ومسجد سوس الذي ذكره ابن حوقل. ولتلافي قلة المساجد وقلة الفقهاء الدعاة كان بعضهم يرحل من مكان إلى مكان، للوصول إلى القبائل والجماعات التي التزمت الإسلام ظاهريا دون فهم واقتناع ليعلمهم مبادىء الدين... وقد استمر بعض الفقهاء السوسيين في انتهاج هذه الطريقة حتى العصور المتأخرة مثل محمد بن زكرياء الولتي(29) الذي كان «يطوف في البلدان مشمرا مخلصا في نصح المسلمين وتنبيه الغافلين وتعليم الجاهلين، فكان إذ دخل قرية نادى أهلها أن اخرجوا رحمكم الله لتعليم ما فرض الله عليكم فيخرجون بعد العشاء رجالا ونساء، ويضرب بينهما الحجاب، فيشرع في تعليمهم ما وجب عليهم من التوحيد والطهارة والصلاة والزكاة والصوم، وما حرم عليهم من الكبائر والصغائر وما يكره وما يستحب».(30)

وبفضل جهود الدعاة أمكن الوصول بالتعليم العام إلى أهدافه الأساسية التي هي: نشر الإسلام بالمنطقة وتفقيه المسلمين، وتعليمهم أصول دينهم ثم تعليمهم اللغة العربية، إلا أن هذا الهدف كان أكثر صعوبة لذلك تمت التضحية به لصالح الهدفين الأولين، إذ كانت لغة التعليم هي الأمازيغية نظرا لجهل السكان السوسيين العربية وغلبة العجمة على ألسنتهم، وكان هذا من الصعوبات التي واجهت الدعوة الإسلامية.(31)

---

27) محمد عبد الرحيم غنيمة، تاريخ الجامعات، ص : 33 .
28) انظر محمد بن عبد الله، ناظر الوقف... دعوة الحق عدد : 271.
29) انظر التعريف به عند عبد الرحمان الجشتيمي ـ الحضيكيون، ص : 36.
30) عبد الرحمان الجشتيمي ـ الحضيكيون، ص : 36.
31) انظر عبد الله العمراني ـ جامعة القرويين ـ مجلة البحث العلمي عدد : 11/ 12 ص : 160.

البحث الثاني - انتظام التعليم بسوس :

ظل الإسلام بسوس بين مد وجزر موزعا بين المذاهب المتصارعة حتى القرن الخامس الهجري، حيث قامت حركة توحيدية بكامل المغرب قبيل ظهور المرابطين، يقودها فقهاء مالكيون تتلمذوا للفقيهين الكبيرين ابن أبي زيد القيرواني وأبي عمران الفاسي، ثم تفرغوا لنشر المذهب ومحاربة المذاهب الأخرى من شيعة وبورغواطيين، ومن هؤلاء وكَاكْ بن زلو الذي بنى لهذا الغرض رابطته باكلوا، وكانت أول مؤسسة تعليمية معروفة تؤسس بسوس مؤذنة بانتظام التعليم في مؤسسات خاصة به، بعد أن كان جزءا من نشاطات المسجد.

أ - رباط وكَاكْ بن زلو بأكَلو : أصبح التعليم الإسلامي منتظما بسوس في مؤسسات علمية هي الرباطات، يقطنها علماء كبار حبسوا أنفسهم على التعليم. والفقيه الوحيد الذي نعرفه مستوطنا لسوس لهذا العهد هو وكَاكْ بن زلوا،(32) إلا أننا نستبعد أن يكون وحده من قطن هناك، إذ نعرف من السوسيين الآخذين من القيروان ثمانية فقهاء،(33) لا يبعد أن يكون بعضهم قد عاد إلى موطنه ونسج على منوال وكَاكَ، ففي الفترة التي أسس فيها رباط أكَلو، كان رباط ماسة مكانا مقصودا له موسم عظيم، ومجمع جليل وهو مأوى الصالحين. وتأسس في الفترة نفسها أيضا رباط أسا بناه «..شيخ صوفي توفي عام 500هـ.»(35) وفي فترة مقاربة أسس رباط هرغة الذي نسب المؤرخون بناءه للمهدي بن تومرت ومنهم ابن خلدون في قوله : ارتحل المهدي عنهم إلى إيكلين(36) من بلاد هرغة فنزل على قومه... وبنى رابطة للعبادة....».(37)

بينما قال قبل ذلك متحدثا عن أهل ابن تومرت الشرفاء (وكان أهل بيته نسك ورباط...)،(38) فالرباط قديم بالمنطقة بناه أحد أجداد المهدي ولم يكن عمله هو إلا إعادة البناء والتجديد.

1 - مؤسس الرباط محمد وكَاكَ بن زلو اللمطي : نسبة إلى قبيلة لمطة المنقرضة المستوطنة للصحراء، والمعروفة بالقوة وباستيلائها على منطقة وادي نون حيث عاصمتها لمطة التي استقر بها أحفاد الأدارسة من أبناء عبد الله بن إدريس أميرسوس.(39) وقد ولد

---

32) أوكَاكَ كلمة بربرية معناها ابن الطالب، والطالب في عرف السوسيين هو من قرأ القرآن وحفظه دون إلمام كبير بالعلوم، انظر التشوف، ص : 89 هامش 24.

33) انظر محمد المنوني ـ المؤسسات التعليمية الأولى بسوس ـ مجلة المناهل عدد 34، ص : 36.

34) البكري - المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص : 161.

35) عبد العزيز بن عبد الله ـ الزاوية المغربية منتدى للفكر والإشعاع العلمي، دعوة الحق عدد 243، ص : 78.

36) والصواب ايكَيليز، وما عند ابن خلدون تصحيف لهذه الكلمة، انظر ما يأتي في الحركة التعليمية في عهد الموحدين.

37) كتاب العبر... 6/ 469.

38) نفسه، ص : 465.

39) محمد المختار السوسي - خلال جزولة 3/ 87.

وكَـاكَ على الأرجح فيما بين 350 هـ و 360هـ، إذ أدرك ابن أبي زيد القيرواني المتوفى عام 386هـ وأخذ عنه،(40) فيكون عمر وكَـاكَ عندئذ ما بين خمسة وعشرين وثلاثين سنة وهذه هي السن التي يتيسر فيها لأمثاله حفظ القرآن، والتمكن من اللغة العربية، ومعرفة مبادىء الفقه وغيره من العلوم، فشد الرحال بعد ذلك إلى القيروان التي لقي بها شيخه القيرواني، ثم بعد وفاته تتلمذ لأبي عمران الفاسي فترة طويلة حتى بلغ من العلم مبلغا عظيما، ولما عاد وكَـاكَ أدراجه من القيروان في بداية القرن الخامس على الأرجح، عرج على أغمات وريكة،(41) حيث وجد من سبقه من زملائه ممن أخذوا من القيروان من أمثال يعلى بن مزلين، ويحيى بن ويدفا الزادي وداود بن يملول،(42) تحت إمرة الشيخ المتصوف أبي محمد بن تيسييت مجاهد البورغواطيين(43) الذي كان يتزعم ـ على ما يبدو - حركة المرابطة بأغمات، وكان يفرق مريديه على الرباطات القريبة منها لدعوة الناس إلى الخير، وكان من حظ وكَـاكَ الاستقرار برباط على وادي نفيس إلى الغرب من أغمات(44) حيث صار «يتعبد ويدرس العلم ويدعو الناس إلى الخير».(45)

وقد ظن كثير من الباحثين(46) أن المقصود بنفيس هو أكَـلـو نفسه إلا أن هذا مجانب للحقيقة، إذ استقر الشيخ وكَـاكَ بنفيس قبل انتقاله إلى سوس، واجتمع عليه عدد كبير من الطلبة، كان منهم عبد الله بن ياسين، وهناك زاره يحيى بن إبراهيم الكدالي وناوله رسالة أستاذه أبي عمران الفاسي وذلك في رجب عام 430 هـ، ويدل على ذلك قول أبي عمران للكدالي : «إني أعرف ببلد نفيس من أرض المصامدة فقيها حاذقا ورعا...»(47) فمقام وكَـاكَ كان إذن بنفيس قرب أغمات ثم انتقل إلى سوس لسبب ما، وبنى رباطه بأكلو، ويدل على ذلك قيام االمصامدة بزيارته هناك لما أصابهم القحط يستسقون به،(48) فمن أين اتصل بهم خبره مع بعد المسافة؟ ومن أين عرفوا صلاحه وفضله، حتى يستسقوا به لو لم يكن مستقرا بين أظهرهم زمنا طويلا يكفيهم لمعرفته والاطلاع على ورعه وصلاحه؟ نستنتج من هذا أن وكَـاكَ لم ينتقل إلى أكلو إلا بعد ذهاب تلميذه ابن ياسين إلى الصحراء عام 430هـ، ولا نعرف بالضبط سبب هذا الانتقال، إلا أنه لا يبعد أن يكون لتأسيس قاعدة

40) أبو علي صالح بن أبي صالح - كتاب القبلة، ص : 16.
41) نفسه، ص : 9.
42) نفسه.
43) نفسه، ص : 16.
44) انظر التشوف، ص : 90-91 هامش رقم 28.
45) ابن أبي زرع ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص : 123.
46) انظر مثلا المعسول 11/ 98. وترتيب المدارك لعياض 8/ 81 وما بعد.
47) ابن أبي زرع ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 123.
48) التشوف ـ ص : 89.

لمحاربة البجليين بتارودانت والبوغواطيين بجبال جزولة والقيام بتنظيم حركة جهادية على غرار ما في منطقة تامسنا.(49) وإن من يقف بموقع الرباط سيلاحظ تميز موقعه الإستراتيجي الحربي حيث يقع على سفح جبل مطل على بسيط اكَلو الممتد حتى مدينة تزنيت شرقا، وخلف الجبل غربا البحر المحيط، وتكمن أهميته في تمكن محتله من مراقبة كل المناطق المحيطة به.(50)

2 – **مكانته العلمية ودوره في نشر التعليم بسوس** : تعتبر شهادة أبي عمران الفاسي الوثيقة الوحيدة الدالة على مكانة الشيخ وكَاكَ العلمية حيث قال مخاطبا يحيى بن إبراهيم الكدالي : «إنني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيها حاذقا تقيا ورعا، لقيني وأخذ عني علما كثيرا وعرفت ذلك منه، واسمه وكَاكَ بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى وهو الآن يتعبد ويدرس العلم ويدعو الناس إلى الخير في رباط هنالك، وله تلامذة جمه يقرؤون عليه العلم..).(51)

ومن هذه الشهادة نخلص إلى أن وكَاكَ بن زلو كان متضلعا في علوم عصره من فقه وعربية وحديث وأصول.. تلك العلوم التي تلقنها من شيخيه القيروانيين خاصة أبا عمران الآخذ عن الباقلاني ببغداد، والقابسي بالقيروان.(52) كما أنه أول من عرف بإنفاذ التقاليد السنية المالكية إلى أقصى المغرب ببلاد سوس، حيث رابطته التي بناها هناك وكانت ذات وظيفتين مختلفتين : الأولى إيواء طلبة العلم والقرآن وتعليمهم. والثانية نشر الخير(53) والمقصود به الدعوة إلى الإسلام ونشر العقيدة الصحيحة بين الناس والسعي في قضاء حوائجهم الدنيوية الدنيوية، كإيواء المظلومين والتدخل بالصلاح بين القبائل المتصارعة. أما التعليم فقد أفنى فيه وكَاكَ عمره وكان له كثير من التلاميذ، كما أخبر شيخه الفاسي، لا نعرف منهما غير اثنين هما عبد الله ابن ياسين الجزولي وأبو القاسم بن عذري الفقيه،(54) ويمكننا أن نضيف إليهما أبناءه الثلاثة ياسين ويحيى وأبا علي،(55) إذا قدرنا أنهم لابد أن يكونوا أخذوا عنه؛ على عادة العلماء في تربية أبنائهم وتعليمهم.

---

49) ذكر المختار السوسي أن البورغواطيين وصلوا إلى سوس حتى قيل إنهم وصلوا ماسة انظر سوس العالمة ص : 16.
50) لاحظت ذلك أثناء زيارة للرباط أوائل الشهر التاسع من عام 1992م.
51) الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص : 123.
52) عبد الله كَنون ـ أبو عمران الفاسي ذكريات مشاهير رجال المغرب رقم 34 ص : 7.
53) انظر التشوف، ص : 89 والقاضي عياض في ترتيب المدارك 8/ 81.
54) محمد المنوني – المؤسسات التعليمية الأولى بسوس ـ مجلة المناهل عدد 34، ص: 36.
55) المعسول 11/ 48.

وقد قام رباط أكَـلو بمهمة نشر التعليم بسوس، ورغم أن المصادر التاريخية لا تحدثنا عن إنجازاته خاصة بعد وفاة مؤسسه عام 445هـ.(56) إلا أننا نظن أن تلاميذه انتشروا في جهات سوس يعمرون المساجد وينشئون المدارس. مثل ابنه ياسين الذي استوطن تَاوُودَانْتْ بقبيلة أيت صواب وربما انتقل إليها بتوجيه من والده للقيام بالإرشاد والتعليم،(57) ومثل العلماء والقضاة الذين كان عبد الله بن ياسين يسرب إليهم من الصحراء الأموال يعينهم بها على ماهم بصدده من علم وإرشاد، وإلى ذلك أشار صاحب روض القرطاس حيث قال: «وبعث بمال عظيم، مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة المصامدة وقضاتها...»(58) ولا شك أن هؤلاء الفقهاء استقروا بالمراكز التعليمية المنبثة في جبال جزولة مثل مركز سيدي مومن بكَسيمة الذي يقال إن المسمى باسمه من أهل القرن الخامس(59) ومركز أيت كين بقبيلة إداونضيف(60) ومركز تاغللو بقبيلة مجاط(61)... وغيرها من المراكز التعليمية التي كانت منبثة بسوس وغابت عنا أخبارها إلا ما كان من روايات تتوارثها الأجيال عنها.

ب - **الحركة التعليمية في عهد المرابطين**: توفي وكَاكَ بن زلو اللمطي قبيل التحاق تلميذه عبد الله بن ياسين على رأس قبائل صنهاجة بسوس وإتمام فتحه عام 449هـ(62) وكانت هذه الحملة فاتحة عهد جديد بعد القضاء على إمارة البجليين وعلى البورغواطيين وحلول مذهب مالك محل نحلهما.

إلا أننا لا نعثر في كتب التاريخ على ما يدل على تطور حركة التعليم بسوس في هذا العهد، بل لا نجد ذكرا للعلماء السوسيين إلا ما كان من ذكر القاضي عياض لسليمان بن عذري الجزولي باعتباره خليفة ابن ياسين على زعامة المرابطين،(63) إلا أننا لا نجد له ذكرا في التاريخ، فيكون قد أقصي عن هذه الزعامة.

ويرى الأستاذ مرادي عبد الحميد الباعمراني،(64) أن سبب هذا الركود ليس قلة المصادر وندرة أخبار هذه الفترة، بل استبعاد الفقهاء السوسيين من الميدان، إذ استأثر الصحراويون وحدهم بوظائف الدولة السياسية والإدارية والعسكرية(65) وتنازلوا للأندلسيين عن الوظائف القلمية من قضاء وحسبة وبريد وجباية وكتابة..

56) السوسي ـ خلال جزولة 1/ 77.
57) المعسول 11 / 48 .
58 الأنيس المطرب، ص: 126.
59) المتوكل عمر الساحلي - المعهد الإسلامي بتارودانت والمدارس العلمية العتيقة بسوس 4/ 97.
60) المرجع نفسه، ص: 61.
61) خلال جزولة، 2/ 10.
62) الإستقصا 2/ 12.
63) ترتيب المدارك 8/ 80.
64) انظر ترجمته بالمعسول 10/ 254.
65) لمحات من تاريخ سوس، ص: 12.

ومهما يكن فإن الحركة التعليمية استمرت بسوس ورحل الطلبة لأخذ العلوم بحواضر المغرب والأندلس وتجاوزوهما إلى المشرق خاصة مصر والحرمين والشام والعراق، وإذا كنا نفتقر إلى التحديدات التاريخية فإننا نستطيع التمثيل لهؤلاء بشخصية طالب سوسي عاش أواخر العصر المرابطي وهو المهدي بن تومرت.(66)

تلقى زعيم الموحدين تعليمه الأولي بمسقط رأسه هرغة حيث رباط أهله، وقد ذكرنا من قبل أن الرباط قديم،(67) وقد يكون المهدي تعلم به أولا بحفظ القرآن، ومعرفة مبادىء العربية، قبل أن يلتحق بالمراكز العلمية الكبرى، مثل مراكش التي كانت دار علم وقبلة طلبته،(68) والأندلس. ولم يكتف بما عند علماء الغرب الإسلامي، فرحل إلى المشرق ودخل الحرمين ثم الشام وبغداد، وقد لقي في رحلته هذه عددا من العلماء الكبار والأئمة العظام، أخذ عنهم أصول الفقه وأصول الدين والحديث وغير ذلك من العلوم. وعاد بعد ذلك إلى بلده وقد جمع إلى علوم مراكش والأندلس فقه المشرق وحديثه،(69) واستقر ببلده بجبل إيكَّليز، حيث تصدى للتعليم بمسجد بمسجد ماكنون(70) مدة ثلاث سنوات قبل أن يخوض غمار الصراع مع المرابطين.

يظهر من هذا أن العصر المرابطي شهد توسع السوسين في رحلاتهم العلمية فشملت المشرق ومعاهدة العلمية النائية، بعدما كانوا يكتفون بالأخذ من الأندلس والقيروان، وقد كان أغلب هؤلاء يعودون إلى سوس لعمارة مساجدها ورباطاتها، بعد أن يئسوا من احتلال المناصب والوظائف التي احتجنها الأندلسيون دونهم. ومن هؤلاء من احتفظت لنا كتب التراجم بأسمائهم مثل داود التجاجتي ومحمد الجزولي الثائر وإبراهيم بن يحيا المسكَيني، وهارون السملالي.(71)

ج - الحركة التعليمية بسوس في عهد الموحدين : تميز العصر الموحدي بمنطقة سوس بظاهرتين هامتين الأولى تتعلق بتوافد القبائل العربية المهاجرة من المشرق، والثانية تخص الأساليب التعليمية، وهي اتخاذ اللسان الأمازيغي أساسا لنشر التوحيد والمذهب الموحدي.

---

66) ومعنى تومرت في اللسان الأمازيغي : الفرح والسعادة انظر كتاب الحوض لمحمد بن علي الهوزالي تحقيق : عبد الله بن محمد الجشتيمي الرحماني، ص : 26.

67) انظر المبحث الثاني من هذا المدخل.

68) انظر أحمد حسن محمود - قيام دولة المرابطين. ص : 432.

69) انظر عبد الله علام الدعوة الموحدية بالمغرب، ص : 57 و 67.

70) ذكر ابن القطان في نظم الجمان أن ابن تومرت استقر بجبل إيكَليز وخطأه العلامة المنوني ظنا منه أن المقصود ايكَلي تبعا لعبد الواحد المراكشي. والصواب ما ذكر ابن القطان ولا عبرة بقول المراكشي الذي ألف كتابه بدار الغربة، كما تصحف اسم الجبل إلى ايكَلين عند ابن خلدون، وقد زار الأستاذ عبد الحميد مرادي المنطقة وتحقق من ذلك انظر لمحات من تاريخ سوس، ص : 17.

71) رجالات العلم العربي بسوس، ص : 9 - 10.

* **الظاهرة الأولى** : دخلت القبائل العربية إلى المغرب على عهد عبد المؤمن بن علي الكَومي خليفة ابن تومرت، ورغم ما عرف عن هؤلاء الأعراب من فساد وتخريب – وقد اشتهر في التاريخ ما فعلوه بمدينة القيروان، وكيف خنقوا روحها العلمية التي تشع منها على المغرب كله – فإن ما استفاد منهم السوسيون خاصة هو نشر اللغة العربية، فقد تخلصت هذه القبائل العربية من جهلها وهمجيتها بعد اختلاطها بالسكان الأصليين مما ساهم في «إيجاد تأثير متبادل بين العنصر العربي والعنصر البربري... فالعنصر البربري عمق إسلام العنصر العربي بينما هذا الأخير نقل إلى الآخر لغته العربية مما ممكنه من تحصيل ثقافة إسلامية أقل إيجازا، وتلك هي النتيجة الأشد وضوحا – اليوم – للغزو العربي الهلالي للمغرب في القرن الحادي عشر الميلادي».(72)

* **الظاهرة الثانية** : إتخاذ اللسان الأمازيغي أداة للتعليم وأول من اشتهر عنه ذلك المهدي بن تومرت واضع أساس الدولة حيث ألف عدة رسائل بالأمازيغية، بالإضافة إلى العربية، أوضح فيها أفكاره وعقيدته ككتاب الصلاة ورسالة العبادة وعقيدة التوحيد ورسالة الإمامة.... وعقيدة المرشدة، ولقن هذه الكتب بالأمازيغية وأمر أصحابه بتدريسها وشجع عامة الناس على حفظها، كما وضع تفسيرا للقرآن الكريم بذلك اللسان.(73) ويبدو أن ابن تومرت لجأ إلى هذه الوسيلة لأسباب ثقافية بالإضافة إلى الأغراض السياسة،(74) إذ إن المصامدة الذين نشأ بينهم تغلب عليهم العجمة حتى إنهم لا يفقهون من العربية شيئا، وذلك حال أغلب سكان سوس آنذاك، وقد سار الموحدون في ذلك على هدي الخوارج حيث «كان تسرب المذهب الخارجي إلى المغرب عاملا من عوامل تأخر حركة التعريب عن أن تساير نشر الإسلام والسبب أن أمر الدين والمذهب غلب على الخوارج وسيطر عليهم ولم يدع لهم مجالا لنشر اللغة فقد أغفلوا أمرها ولم يكونوا ينظرون إليها، سوى أنها لغة الكتاب المقدس ولغة العلم لا حاجة تدعوا إليها في الحياة العامة.(75)

ونتيجة لهذا نشأ التأليف بالأمازيغية وظهرت عدة مؤلفات فقهية ووعظية وعلمية، ونذكر أن محمد العثماني أورد في كتابه ألواح جزولة لائحة لحوالي سبعة عشر مؤلفا باللسان الأمازيغي في مختلف الفنون من فقه وطب وتاريخ وتفسير وفرائض ونحو وفلك وأشعار، وأغلبها مترجم عن العربية، مما يدل على أن «اللغة الشلحية قد دونت بها جميع العلوم والفنون المتداولة في ذلك الصقع»(76) ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن التدريس وتلقين العلوم العربية في سوس كان دائما، وحتى وقتنا الراهن، يتم بالأمازيغية.

---

72) محمد المنوني ـ إمارة بني يدر بالسوس، مجلة دراسات، عدد : 1، ص : 31.
73) مَحمد العثماني ألواح جزولة، ص : 49 .
74) انظرها عند د. عباس الجراري ـ الأمير أبو الربيع سليمان، ص : 54 وما بعد.
75) الدكتور عباس الجراري ـ القصيدة، ص : 87.
76) ألواح جزولة، ص : 29 وما بعد.

وبالاعتماد على اللسان الأمازيغي استطاع الموحدون نشر عقيدتهم ومذهبهم بواسطة فقهاء معدين لهذا الغرض سماهم ابن تومرت الطلبة وجعل لهم نظاما خاصا،(77) وكان مستندهم في التعليم مذهب الموحدين أي الاهتمام بمؤلفات الإمام المهدي وكتب الأصول الحديثية، ولا ندري مقدار تأثر السوسيين بهذا النوع من التعليم ولا إن كان طلبة الموحدين وصلوا إليهم لنشر العقيدة الموحدية، ومع ذلك فالواضح تأثر سوس بالنهضة العلمية والفكرية التي قامت في الحواضر الكبرى كمراكش وفاس، وتجلى هذا التأثر في مظهرين :

الأول : توافد بعض الطلبة السوسيين على هذه الحواضر للدراسة، ولعل أشهرهم أبو علي سالم بن سلامة السوسي،(78) وأبو موسى عيسى الجزولي،(79)

والثاني : ظهور عدة مراكز تعليمية بسوس احتفظت لنا بعض المصادر التاريخية بإشارات إلى بعضها واعتمدنا على نسبة أخرى إلى هذا العهد باتجاه محاريب مساجدها أو بعض القبور حولها نحو الجنوب، ومن المراكز التي تنتمي إلى القسم الأول :

1 - **مركز أنْسَا** : هي مدينة من مدن سوس في هذا العهد، نزلها عبد المومن بن علي الكَومي في جولته عام 552هـ،(80) وكانت مركزا للتعليم يؤمه الطلبة من كل حدب وصوب، حتى من حاحة من حيث وفد أبو سعيد الحاحي المترازي، الذي ذكر أن الرجل الصالح عمرو بن هارون المديدي المقيم هناك كان يدخل عليهم في الدرس فيقول : «لتهنكم عبادة القلوب والألسن والأيدي والأعين، يعني العلم».(81)

2 - **مركز جبل الْكَسْتْ** : في الكست نايت صواب(82) استقر علي بن سعيد الركَراكَي، ربما في قرية تاوريرت وانوا المشتهرة بأسرة علمية ركَراكَية عريقة،(83) وهناك تصدى للتعليم، وقد أشار إلى ذلك في تعليقه على كتاب تهذيب المدونة للبرادعي والذي سماه «منهاج التحصيل ونتائج لطائف التأويل» عند قوله : «سألني بعض الطلبة المنتسبين الينا ... الذين طالت صحبتهم معنا أن أجمع لهم بعض ما عليه إصطلاحنا في مجالس الدرس في مسائل المدونة من توضيح المشكلات وتحصيل وجوه الاحتمالات

---

77) انظر حسن التريكي الثقافة والفنون في القرنين الخامس والسادس بمذكرات من التراث المغربي 2/ 257.

78) انظر عباس بن إبراهيم المراكشي ـ الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام 10/ 33.

79) عبد الله كنون - ذكريات مشاهير المغرب رقم : 19.

80) خلال جزولة 3/ 177 وتقع أنسا أعلى وادي سوس قرب أولوز، شرق تارودانت.

81) محمد العبدري ـ رحلة العبدري ص : 7،8.

82) يطلق اسم الكست على ثلاث سلاسل جبلية من جبال الأطلس الصغير هي : الكست نايت صواب والكست نايت أوغان والكست واملن، انظر ديوان قبائل سوس تحقيق عمر آفا، ص : 25 هامش 116.

83) انظر حول هذه الأسرة المعسول 5/ 305.

وبيان ما وقع فيها من المحتملات».(84) وقد انتهى من تأليف هذا الكتاب عاشر ذي الحجة عام ثلاثة وثلاثين وستمائة للهجرة..(85)

3 - **رباط أَسْرِيرْ** : جنوب وادي نون بقبيلة لمطة،(86) حيث قطن أبو عبد الله محمد بن عمرو اللمطي البكري(87) بمسجد هناك، ولا تذكره المصادر التي ترجمت له بالعلم والتعليم وإنما اقتصرت على وصفه بالصلاح والفضل، غير أن العلامة المختار ذكر أنه وقف في مشجر أنساب أسرته المبتور على ذكر لإجازات تلقاها من أشياخه، دون أن يتعرض المشجر لها ولا للشيوخ الذين منحوها،(88) إلا أننا نستنتج منها أن اللمطي كان عالما كبيرا اتخذ رباطه لتعليم العلم كما لنشر الصلاح والتصوف.

4 - **مدينة نُـول لَمْطَة** : التي أسستها قبيلة لمطة في القرن الثالث الهجري،(89) جنوب سوس. وفي القرن السابع استقر بها الشيخ أبو سليمان داود بن علي الحيحائي يدرّس بها الحساب والفرائض والفقه، وممن أخذ عنه هناك عبد الله بن أبي بكر الكَدميوي الزودي نزيل الإسكندرية عام ثلاث وستين وستمائة.(90) كما ورد على لمطة في هذا العهد أبو يحيى بن محيو الصنهاجي المشهور بأبي يحيى السائح وهو معروف بالجولان في الأرض لتعليم عامة الناس شرائع الإسلام وحثهم على إقامتها.(91)

5 - **مركز أنْـزرنْ** : من قبيلة إيسافن نايت هارون حيث استقر أحمد بن عبد الرحمان الرندي الملقب ببوكَرزام (أبو النمر) وقد درس، كما يبدو، على والده سيدي وساي برباط ماسة ولازمه حتى توفي أواخر القرن القرن السادس الهجري، فرجع مع ابنه محمد إلى فاس حيث اشتغلا بطلب العلم سنين عديدة حتى صارا من المبرزين، ثم عادا أدراجهما إلى سوس وأسس هناك مدرسة واشتغل بالتدريس فيها حتى وفاته فخلفه ابنه محمد، وقد أقبر كلاهما هناك.(92)

وبالإضافة إلى هذه المراكز هناك أخرى وجهت محاريب مساجدها والقبور المجاورة لها جهة الجنوب، ونعتقد أن ذلك دلالة على إنشائها في عهد الموحدين وذلك « أن المغاربة كانوا غلطوا فحملوا حديث «مَا بَيْنَ الْـمَشْرِق قِبْلَةٌ»(93) على عموم البلاد، ولم يدروا أن ذلك إنما هو لمن كان في المدينة المنورة ومسامتهاَ من أهل الشمال، ولمن كانوا في مسامتتهم

---

84) المعسول 5/ 306 وانظر أحمد بابا السوداني ـ نيل الإبتهاج، ص : 316.
85) المصدر نفسه.
86) التشوف، ص : 344 .
87) ذكر المختار السوسي أن نسبه ينتهي إلى أبي بكر الصديق، المعسول 12 / 190 .
88) المرجع نفسه.
89) انظر : Jaques - Menié - Le Maroc saharien T : p : 194
90) أحمد باب السوداني – نيل الإبتهاج ص : 217.
91) التشوف، ص : 410.
92) المعسول 16/ 242.
93) حديث شريف رواه الإمام مالك في كتاب القبلة من الموطأ.

من الجـهـة الأخـرى من أهل الجنوب،(94) فـصــاروا يصلـون تجـاه الجنوب ويجـعلون مساجدهم إليـها. وفي نحـو القرن الرابع الهـجري اكتشفـوا هذا الغلط فجعلوا قبلتـهم إلى المشرق أسوة بالأندلسيين، واستمر الحال على ذلك في زمن المرابطين، ثم لما جاء الموحدون ردوا القـبلة إلى الجنوب... على عـادتـهم في مضـادة اللمـتونـيين في كل شيء فـأسسـوا المحاريب إلى الجنوب....(95)

وبتأثير من هذا الإجراء بنيت عدة مدارس ومساجد بسوس منها :

1 - **مدرسة إيسْقَالْ** : تقع بخمس تَرْوَا أُعيسَى بقبيلة إدَاوتَنَانْ، «بنيت مكان مسجد صغير غير أن تـاريخ جعله مـدرسـة غير مـعروَف إلا أن محَرابهـا الأصلي وجه إلى جهـة الجنوب، شأن محاريب المساجد في عصر الموحدين، كـما أن قبر باني هذا المسجد وجه جهة اليمين...».(96)

2 - **تيمَزْكَيدَا أوكَرْضْ** : تقع هذه المدرسة بفـخدة أيت عباس من قـبيلة مسكَينة، أوسط مقبرة كبيرَة وعتيقة كانت بعض قبورها منحرفة عن القبلة، كـما انحرف محراب مسجدها أيضا ولازال قائما على حاله».(97)

3 - **مدرسة تَارْكَانَتُوشْكَا** : تقع بقبيلة أيت صواب بأيت باحْمَانْ.(98)

4 - **مدرسة إمِكْوينْ** : بأيت صـواب أيضـا على هضبة إيسْلي أُمْزَالْ «وبإزائهـا ضريح سيدي أحـمد بن هاروَن ولم يـعرف تاريخـه ولا تاريخ المدرسَـة،َ وهذه المدرسة قـديمة بدليل كون محراب مسجدها مائلا إلي جهة اليمين».(99)

5 - **مدرسة سيدي بُومَزْكَيدَا** : بهشتوكة «وتاريخ المدرسة غير معروف، غير أن محراب مسجدها وقبر سيدي بومزكَيدا إلى جهة اليمين.»(100)

6 - **مدرسة أغيغَا** : بفرقة تمايلت بقبيلة إدا وكَنضيف.(101)

7 - **مدرسة سَيدي بوموسى** : بأولاد الكورة، بقبيلة هوارة «وهي قديمة جدا يدل على ذلك محراب مسجدها الذي لازال متوجها جهة اليمين... وفي وسط المدرسة قبة سيدي بوموسى وهو متوجه في الدفن إلى جهة اليمين ومن معه في القبة».(102)

---

94) خلال جزولة 1/ 76.
95) المرجع نفسه، ص : 77، والجدير بالذكر أن السوسيين لازالوا يعنون بالقبلة في حديثهم اليومي الجنوب لا الشرق.
96) عمر المتوكل الساحل - المدارس العلمية العتيقة بسوس 4/ 80.
97) المرجع نفسه،ص : 97.
98) نفسه، ص : 139.
99) نفسه، 139.
100) المرجع نفسه، ص : 236.
101) نفسه، ص : 145.
102) نفسه، ص : 272.

وعند هذا الحد نتوقف عن تعداد مراكز التعليم بسوس أيام الموحدين، دون أن يعني ذلك أن هذه الموجودة فقط في هذا العهد، فما أكثر المدارس والمساجد التي لم يعرف تاريخها ولا تاريخ أصحابها، وما أكثر العلماء الذين ضاعت أعمالهم ومآثرهم، ولم تبق إلا أسماؤهم مدونة في كتب التراجم أو متداولة في الروايات الشفوية مثل إبراهيم الدغوغي، وعبد الجبار بن يكليد التملي، وعبد الرزاق الجزولي، ومزال بن هارون الهشتوكي التّدْمَّانْتي، وأبي موسى المَسْكِّيني... وغيرهم ممن لا نعرف عنهم غير نتف لا تسمن ولا تغني.(103)

و - الحركة التعليمية في عهد بني مرين : شهد عصر المرينيين نهضة علمية هائلة وقد استأثرت الحواضر المغربية الكبرى خاصة فاس بالنصيب الأوفر من هذه الحركة، فأضحت مركزا عالميا يستقطب الطلبة من المشرق والأندلس فضلا عن طلبة المغرب، أما منطقة سوس فقد تميزت بوضعية سياسية أثرت على الوضع التعليمي إذ لم«تندرج ضمن السلطة المركزية بل احتفظت باستقلالها... رغم الحملات التي وجهها يعقوب بن عبد الحق... ويظهر أن كلتا الحملتين كانتا مجرد غزو، للاقتناع بالطاعة الاسمية للقبائل الواقعة على الطريق من الشمال إلى الجنوب كحاحة وهشتوكة، أما الجانب الشرقي من سهل سوس فقد بقي تحت إمارة بني يدر ولم يقض عليها إلا أبو الحسن المريني، وأما الجبال فإنها كانت تعيش في نظام قبلي تحت رئاسة شيوخها... ولهذا لم تخضع سوس لمرين خضوعها التام الكامل كما كانت في أيام المرابطين والموحدين».(104) ونتج عن هذا انعدام الإستقرار بكثرة الثورات أضف إلى ذلك ظهور العرب المعقليين ومزاحمتهم السوسيين في مجالات عيشهم مع صاحب ذلك من حروب وفتن.

وبسبب هذه الأوضاع، تباينت أحوال التعليم في سوس بين المناطق السهلية المضطربة والمناطق الجبلية الهادئة البعيدة عن فتنة الأعراب وسيطرة المرينيين.

* **الوضع في المناطق السهلية** : تعتبر أكثر تأثرا بالحالة السياسية للمغرب عامة، فساد فيها انعدام الأمن وكثرة الفتن،(105) مما أدى إلى تخلف التعليم، ولا أدل على ذلك مما وصف به عبد الله بن عمر المضغري سوس قبيل دولة السعديين إذ قال : «فقهاؤهم على ضعف الفتاوي، وفقراؤهم على كثرة الدعاوي، وعامتهم على كثرة المساوي».(106) ولا يدل ضعف الإفتاء إلا على ضعف التعليم وتخلفه وضيق آفاق القائمين عليه.

---

103) انظر محمد المختار السوسي رجالات العلم العربي في سوس، ص : 10-11.
104) مرادي عبد الحميد لمحات من تاريخ سوس، ص : 26.
105) انظر مثلا محمد المنوني إمارة بني يدر بالسوس مجلة دراسات، عدد 1، ص : 31.
106) عبد الرحمان التمنارتي الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، ص : 175 .

* **الوضع في جبال جزولة** : تمتعت هذه المناطق بهدوء نسبي أكثر من السهول، ولم تستطع الأحوال السياسية المضطربة ولا الفتن المدلهمة أن تغتال تطور الحركة التعليمية بها. وقد تجلى هذا التطور في ثلاث مظاهر هي :

أ - **استمرارية الرحلة العلمية** : رأينا فيما سبق أن العصور الخالية شهدت ارتحال السوسيين إلى المعاهد العلمية في القرنين الثامن والتاسع، وإن اقتصرت حسب علمنا على فاس التي أخذ منها أحمد بن سليمان المَزْوَارِي الرَّسموكي،(107) وأحمد بن عبد الرحمان المَسكْدَادي،(108) وحسين بن داود التِّغاتيني الرَّسموكَي(109)...والأندلس التي كان سعيَد بن سليمان الكُرَّامي آخر السوسيين أخذا من حاضرتها غرناطة».(110)

ب - **انتقال التقاليد العلمية إلى المدارس الجبلية** : لم تحل الأوضاع السياسية المتردية في سوس دون وصول النهضة العلمية التي شهدتها فاس حاضرة المرينيين إلى قلب جزولة. ومن مظاهرها الاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي اهتم به أمراء الدولة وعظموه، فنجد الأسرة التَّاغاتينية الرَّسموكَية(111) ينقل بعض أبنائها الآخذين من فاس هذه العادة إلى قبيلة رسموكة فأضحت تحمل اسمه؛ أي مدرسة المولود.(112) بينما تأخر الاحتفال به في تارودانت إلى أواخر القرن العاشر الهجري، وكان أول من قام به الخطيب العالم محمد بن أحمد التلمساني الملقب بابن الوقاد.(113)

جـ - **نشاط القبائل في بناء المدارس** : نشطت القبائل السوسية في هذه المرحلة في تشييد المدارس وتموينها والقيام بما يلزم أساتذتها وطلبتها حتى صار ذلك من الفرائض التي لامناص منها، وتذكر بعض الوثائق(114) أن أفخاذ قبيلة إيلالن اجتمعت وقررت أن يقوم كل واحد منها ببناء مدرسة والإشراف على إدارتها وتموين القاطنين بها، وهكذا بنيت سبع عشرة مدرسة فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين.(115)

---

107) المعسول 8/ 170.
108) المعسول 13/ 267.
109) المعسول 18/ 279.
110) انظر المعسول 7/ 23 وما بعد.
111) انظر حولها المعسول 18/ 278.
112) صحف الاسم حسب النطق السوسي من المولد إلى المولود، ولا تزال هذه المدرسة قائمة انظر الساحلي المدارس العلمية 4/ 250 وأيت بومهاوت محمد الوسخيني - منار السعود عن تافراوت المولود ومدرستها العتيقة ص : 277 .
113) التمنارتي - الفوائد الجمة، ص : 87 .
114) انظرها في : Jaques - Menié - Le Maroc saharien 1/354
115) ويقابلهما في التاريخ الهجري القرنان الثامن والعاشر.

ويعد هذا الإنجاز، الذي لا نجد له مثيلا في تاريخ التعليم بسوس، دليلا على المستوى التنظيمي والثقافي الرفيع الذي وصلت إليه القبيلة.(116)

وبفضل هذه الحركة النشيطة التي شهدتها منطقة سوس، خاصة بلاد جزولة، تأسست عدة مراكز تعليمية جديدة نذكر منها:

*** في قبيلة إيلاَلْنْ (هلالة).**

أربع مدارس بإيسافْن نايت هارون(117) وهي :

1 - مدرسة عبد الله بن داود : من أحفاد بو كَرْزَامْ بن عبد الرحمان الرّندي المذكور آنفا، اشتهر بالصلاح والتعليم وهو مؤسس هذه المدرسة وبجانبها قبرة. وقد توفي أوائل القرن التاسع.(118)

2 - مدرسة مُوشَدِّيرْ : بقرية تَاسوسْخْتْ : وردت في الوثيقة المذكورة، ويظهر أنها من بين أولى المدارس المؤسسة من قبل القبيلة حينما كانت منطقة سوس تحت تأثير بقايا الفكر الموحدي ولذلك وجه محرابها نحو الجنوب.(119)

3 - مدرسة تيمَزْكيدَا بقرية تَانْسُولْتْ بإدَاوْتنْسْتْ.(120)

4 - مدرسة تَيمَشْدُوكَّان بإدَاوْ مَرْتني.(121)

ثمان مدارس بإيلالن أوفلاَ :

5 - مدرسة مْرَايْتْ بإدَوْزكْري.(122)

6 - مدرسة تيمُولاَيْ بإدَاوْزَكُري.(123)

7 - مدرسة الشيخ ميرْزَتْ بإبْرْكَاكْ.(124)

8 - مدرسة سيديَ زَكْريَ بتُوفْلَعَزْتْ : وتنسب إلى أبي زكرياء الغازي مؤسسها والواقع ضريحه بجانبها ولم يعلم أي شيء عنه.(125)

---

116) Jacques - Menié - le Maroc Saharien I / p.355

117) انظر حول موقع القبائل الخريطة المرفقة.

118) المعسول 16/ 246 وذكر الساحلي أنه توفي عام 820هـ وليس ذلك بشيء لأنه تاريخ نسخ مناقبه، انظر المدارس العلمية... 4/ 57.

119) الساحلي، المدارس العلمية... 4/ 54 وقد تصحفت عند إلى مودشير.

120) Le Maroc Saharien

121) الساحلي ... 4/ 57.

122) المرجع نفسه.

123) ورد ذكرها في المعسول 9/ 290.

124) ورد ذكرها عند الساحلي مصحفا اسمها إلى المريزت 4/ 57.

125) الساحلي 4/ 71.

9 - مدرسة تُومْليلينْ بإدُوسْكَا أُوفَلاَّ : وقد بنيت بجانب حصن القبيلة وبجانبها «مقبرة قديمة يوجد فيها ضريحَ سيدَي عبد الله بن يبورك».(126) المجهول الأصل والتاريخ.

10 - مدرسة أسكَا : بأيت عبد الله.(127)

11 - مدرسة أيْتْ تَمْزْكَيدَا بإدَاوكْنضيفْ : وهي أقدم مدارسها كما يبدو من بنائها وهندستها.(128)

12 - مدرسة سيدي بُوبْكْرْ بأيْتْ عْلي : وتنسب إلى أبي بكر بن محمد الموجود مدفنه داخل مقبرة كبيرة حولها وقد ضاعت أخبَاره.(129)

خمس مدارس بإيلالن إيزدار :

13 - مدرسة سيدي عثمان بإمَزْدَاكْنْ : وبجانبها ضريح عثمان بن علي الذي تنسب إليه وربما كان مؤسسها.(130)

14 - مدرسة سيدي بومهدي بأيت أُفْرَا : «مدرسة قديمة... وحولها مدفن المنسوبة إليه وهو من المجاهدين الأولين ولا وارث له كما يقال».(131)

15) مدرسة بأيت واسُّو : وتوجد بهذه الفرقة مدرستان هما : مدرسة تُوبكَّالْ ومدرسة تيمَزْكَيدَا أُكَادَيرْ نَتْصَضْميْتْ،(132) وقد أسست كل منها بجانب أحد حصون الفرقة، ولا نَعرف أي منهما أقدم مَن الأخرى، كما أن المرجع الناقل عن الوثيقة التي تذكر الإيلالنيين وتأسيس مدارسهم اكتفى بالإشارة إلى مدرسة بأيت واسُّوا دون تحديد.(133)

16 - مدرسة إمي نْتَالاَتْ إنْكَارْنْ : بإدُوسْكَا نْتْسَيلاَ : وبقربها ضريح سيدي عبد الله بن يعزّى المجهول التَاريخ وربما كان مؤسسَها.(134)

17 - مدرسة أُكَاديرْ الْهْنَاء : «ويقال أن قبيلة تَسُوسْخْتْ المنتقلة من إسَافْنْ هي التي بنتها قبل مدشر أكاديرَ الهناء.»(135) وقد ذكر أن بناءها كان عام 1212هـ إلا أنها أقدم من ذلك، وربما هدمت ثم أعيد بناؤها في هذا التاريخ.(136)

---

126) الساحلي 4 / 72.
127) نفسه، ص : 69 وذكر أنها بنيت حوالي عام 1923م غير أن هذا ليس سوى تاريخ التجديد لا البناء من الأصل.
128) نفسه، ص : 146.
129) نفسه، ص : 70.
130) نفسه، ص : 162 - 163.
131) نفسه، ص : 159.
132) الساحلي 4/ 159.
133) انظر : Le Maroc Saharien. 1/354
134) الساحلي - المدارس العلمية... 4/ 162.
135) المرجع نفسه، ص : 197.
136) نفسه.

*** في قبيل إذا ويَعْقيلْ أربعة مدارس هي :**

18 - مدرسة أَفَا أَوْزُورْ : «وأول من أسسها علي ما قيل الشريف وَاسْلاَم جد الأسرة الواسلامية البعقيلية، الذي جاء إلى هذا المكان من تَامْدُولْتْ على ما قيل أيضا، وفي أَفَا أُوزُورْ توفي ودفن.»(137) وهو من أهل القرن التاسع الهجري.(138)

19 - مدرسة مُوزَايْتْ : يذكر أن مؤسسها هو أُوتْزَالَيتْ «صاحب الصلاة» القادم من تامدولت (أقا)،(139) وهي من المدارس الكبرى تعليما وإرشادا، إلا أن إنجازاتها تلاشت من يد التاريخ وقد ذكرها الشاعر البونعماني وقرنها في مجدها برباط أكلو بقوله:(البسيط):

أَكْلُو وَإِكْلِي وَآنْسَا وَمُزَايْتْ جَرَتْ   عُلُومُهَا فَتَجَاوَزَتْ رُبَى فَاس(140)

20 - مدرسة تَاكَاتَرْت : أخت سابقتها وقد «شاع وذاع أن مسجد موازيت ومسجد تاكاترت هما أول ما بني من المساجد في هذه البلاد، وأن موازيت وتاكاترت اسما امرأتين أسلمتا أولا وبنتا المسجدين، ثم أقيمت مدرسة علمية إزاء كل منهما زيادة على المكتب القرآني الذي يكون في كل مسجد كيف كان».(141)

21 - مدرسة إيكْضِي : بأسيف أدرار، ذكر المختار السوسي أنها قديمة يقال أن بناءها كان

في القرن السابع الهجري.(142)

*** في قبيلة إِنْداوْزَالْ أربع مدارس هي :**

22 - مدرسة زاوية سيدي صالح : والمنسوبة إليه من آل يعزّى ويهدى من أهل القرن الثامن أو السابع، وذكرها المختار السوسي فقال : «وقد كانت... مدرسة علمية انهدمت منذ أزمان بجانب الزاوية التي تنزل فيها القوافل المارة هناك.(143)

23 - مدرسة تينْزْلاَفْنْ : بنيت قبل القرن التاسع الهجري، ثم بعد مدة خرجت فنقلت إلى وُوْدَاشْتْ.(144)

---

137) الساحلي - المدارس العلمية 4 / ص : 113 وانظر حول الأسرة الواسلامية سوس العالمة، ص : 128.
138) المعسول 12/ 247.
139) المصدر نفسه.
140) الحسين آفا - شعر الحسن البونعماني جمع وتحقيق ودراسة - الديوان، ص : 454 .
141) المعسول 10/ 130 وخلال جزولة 2/ 18.
172) المعسول 17/ 214.
143) خلال جزولة 3/ 138.
144) الساحلي - المدارس العلمية. 4/ 65.

24 - مدرسة وُوْدَاشْتْ بقرية أفلاَ وَّسَيفْ : «وقد أسست حوالي القرن التاسع الهجري، وكان أصلها مدرسة أخرى موجودة بتينزلافن ثم حولت إلى مكانها الحالي، ويظهر في بنائها وهندستها أنها قديمة». (145)

25 - مدرسة سيدي سعيد بن أحمد : بموضع تِيرْكْتْ والمنسوبة إليه من آل يعزّى ويهدي وهو مدفون هناك حول المدرسة.(146)

*** في قبيلة رَسْمُوكَة مدرستان :**

26 - مدرسة تَاغاتينْ : في قرية تَاغاتينْ التي كانت تسمى رباط الصالحين من قبل القرن التاسع الهجري،(147) وقد هدمت المدرسة بسبب الحروب والنزاعات بين العشائر والأسر ولعل من ذيولها مقتل أحد علمائها وهو عبد السميح بن محمد بن بلقاسم «ظلما وحسدا على ما أوتي من فضل الله سنة خمس عشرة وتسعمائة».(148)

27 - مدرسة تافراوت المُولُود : أول مكان احتفل فيه بالمولد النبوي في سوس حوالي أواسط القرن التاسع الهجري، ولم يعرف تاريخ تأسيسها، وقد انتقلت إليها الأسرة التّاغاتينية بعد خراب مدرستها بتاغاتين.(149)

*** في قبيلة أمَّلْنْ :**

28 - مدرسة إمي أوكَّشْتيمْ : بأَفَلاَ وَّسيفْ ومؤسسها العلامة داود بن محمد بن علي التّملي التُّونْلي، تلمَيذ الشّوشَاوي، وهو غير داود بن محمد عبد الحق التّازولتي التّملي القاضي في عهد السعديين (ت نحو 1013هـ)(150) أخذعنه فيها من العلماء جماعة منهم حسين بن داود الرّسموكي التّاغاتيني وتوفي عام 899 هـ(151)

---

145) الساحلي ـ المدارس العلمية 4 / 65 .
146) المعسول 10/ 177 - 182 والساحلي... 4/ 63.
147) المعسول 18/ 278.
148) وفيات الرسموكي، ص : 26.
149) أيت بومهاوت محمد الوسخيني - منار السعود عن تافراوت المولود ومدرستها العتيقة، ص : 99 .
150) وقد خلط عند الساحلي بين الإسمين فذكر في التأسيس الثاني وفي الوفاة الأول انظر المدارس العلمية 4/ 173 وقارن بما في رجالات العلم العربي في سوس، ص : 14 و 46.
151) المعسول 6/ 169 وقد وضع اسم داود بن محمد بن عبد الحق بدل داود بن محمد بن علي خطأ.

* في قبيلة أَمَانُوزْ مدرستان :

29 - مدرسة أَكَرْسِيفْ : حيث استقر فرع من الأسرة الكرسيفيّة المستوطنة قرية تُوغْزيفْتْ بإِدَوْسَمْلالْ(152) من كبار علمائها المستقرين هناك خالد بن يحيا بن سليمان الكرَسيفي صَاحب القصائد النبوية والتخميس على البردة.(153)

30 - مدرسة إيزربي : أسسها فيما يظهر أحد أبنا الأسرة الكَرسيفيّة وهو عيسى بن صالح بن موسى العَثمَاني،(154) وذلك عام ثمانية وأربعين وثمانمائة للهجرة «كما وجد هذا التاريخ في أحد أعمدة مسجدها مكتوبا قبل ترميمه».(155)

31 - مدرسة تَازْمُوتْ : من أكبر المدارس السوسية، بناها أحفاد العلامة الإمام ابن العربي المعافري الأندلسي، وأول عالم معروف منه هو سعيد بن سليمان الكُرَامي خريج القرويين والمستقر هناك حتى وفاته عام 882.(156)

* وفي قبيلة مَجَّاطْ :

32 - مدرسة أَكْني إيعدَّانْ : تعرّب بهْوت عَدَّانَة في الوثائق، ذكرها العلامة المختار السوسي، فقال : «أكَنيَ إيعدان.... قرية مرَ فيها عَلماء وكانت فيها مدرسة قديمة تدرس فيها العلوم...»،(157) وتَعرض لذكرها أيضا القاضي عبد العزيز بن أبي بكر الرّسموكي، وجعلها في مرتبة مدرستي أفَلاً أُوكَنْسْ البعقيلية وتَازْمُوت السَّملاليّة من حيث القدم والمجد العلمي، وذلك بقوله مخاطبا أبا الحسن بودميعة السّملالي عند مبايعته بإيليغْ : (الطويل).

وَوَاسِ بأَعْلَى السَّفْلِ أهْلَ تَعَلُّم
وكَذَا أهْلَ هُوتَ ثُمَّ أهْلَ زَمُّوتَة(158)

بِأوْفَر حَق مِنْ زَكَاة الشَّعِير لا
تُقَصِّر فِيَ حُقُوق أهْلِ الثَّلاَثَة

فَهِي مَنْبَعُ العُلُوم قِدَماً فَإنَّهُمْ
لَهُمْ بَركَاتٌ واضِحَاتُ الإِنَارَة(159)

---

152) المعسول 17/ 45.
153) المرجع نفسه ص : 68.
154) انظر التعريف في المعسول 9/ 228 - 17/ 70.
155) السأحلي - المدارس العلمية.. 4/ 192.
156) المعسول 7/ 24.
157) المعسول 18/ 144.
158) أعلا السفل تعريب أفلا اوكنس وزموتة تعريب تازموت.
159) من قصيدة طويلة عدد أبياتها أربعة ومائة أنشأها عام 1022هـ مخطوطة خزانة أزاريف.

* في قبيلة إدَوْكَنْسُوسْ :

33 – مدرسة إمي إيخْفيسْ : بنيت في القرن التاسع الهجري حسب ما ورد في رسوم أملاكها، كما تدل عَلَى قدمهَا هندستها وطريقة بنائها.(160)

* وفي قبيلة أيْتْ حَامْدْ :

34 – مدرسة أزَرَيفْ : قطنت هناك أسرة علوية النسب، وأول نازل بها إبراهيم بن أفْلُولْ، منتقلا من قبيلة إدَا وْسَمْلاَلْ في القرن الثامن الهجري، وذكر العلامة المختار السوسي أنه عَاش إلى أوائل القرن التاسع، وربما كان هو مؤسس المدرسة.(161)

* وفي قبيلة أيْتْ وَادْرِيمْ :

35 – مدرسة نْكَارْفْ : بناها يحيى بن يعزّى ويهدى دفين زاوية أسّا، وقد وصف في بعض الوثائق بأنه العلم المحقق والقطب الواضح، وهو مدفون جوار المدرسة.(162)

* وفي قبيلة أيت سمْكْ شمال شرق تارودانت :

36 – مدرسة أيت مَعَلاَّ : تاريخها غير معروف... ويقولون أنها عمرت أزيد من خمسة قرون».(163)

* في قبيلة أيْتْ صْوَابْ :

37 – مدرسة أسَنَّاكَارْ : بتَاوْرِيرْتْ وانُّوحيث قطنت أسرة ركَراكيّة وجدها الأعلى علي ابن أيوب، وربما عاش حوالي القَرن السابع وهو مدفون بإيفَرْخْسْ حيث المدرسة،(164) وبجانبه دفن ولداه محمد والحسن ولا شك أنهم عمروا تلك المدرسة بالعلوم، وإن كنا نجهل عنهم كل ما يتصل بهذا الجانب.(165)

160) الساحلي ـ المدارس العلمية... 4/ 55.
161) المعسول 8/ 10.
162) المعسول 10/ 180.
163) المصدر نفسه.
164) انظر الساحلي... 4/ 10.
165) المعسول 4/ 309-310.

* في قبيلة إفْرَانْ بالأطس الصغير :

38 - مدرسَة تَانْكَرْتْ : وهي إحدى قرى هذه القبيلة، أسسها العلامة محمد أبَارَاغْ في قرية الْحَنْدَقْ مقرّه قبل أن تبنى في مكانها الحالي،(166) وقد اشتهر بمؤلفه في المبنيات، والذي لا يزال يدرس في مدارس سوس. (توفي بعد 558هـ).(167)

* قبيلة أيْتْ بْرَايِّمْ :

39 - مدرسة بُونَعْمَانْ : بنيت في تاريخ غير محدد واشتهرت بالدراسة والتعليم حتى وصل صداها إلى مسامع المؤرخ ابن خلدون الذي سماها زوايا بني نعمان(168) وذلك حوالي 765هـ، ومن هذا المنطلق نستنتج كونها مؤسسة أوائل القرن الثامن الهجري(169) على يد أحد أحفاد شيخ زاوية يعزّى ويهدى.(170)

* قبيلة الْمَنَابْهَة :

40 - مدرسة أولاد بَرْحيلْ : «وتاريخ بنائها غير معروف وأول من درس بها في علمنا، محمد بن علي الشّوشاوي المدفون بجوارها (تـ899هـ)».(171)

* بمنطقة وادي نون وجبل بَاني مركزان هامان :

41 - مدرس أقَّا : وهي من بناء الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي،(172) بعدما ضاقت قرية القصبة حيث مقامه بالطلبة، فبناها في محل عرف بالزاوية، وذلك أواخر القرن التاسع،(173) وقد عرف بمساندته السعديين في إقامة دولتهم، إلا أن ترجمته «...ضاعت في الحقيقة إلا بقايا لا تسمن ولا تغني من جوع، فلا مشيخة ولا تلاميذ، مع أنه استفاض أن له جيشا جرارا من التلاميذ؛ من الطلبة ومن الأصحاب والمريدين».(174)

42 - زاوية أسَّا : التي اشتهرت بالشيخ محمد إيعزّى ويهدى وينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق.(175) ولد عام 646هـ بمدينة مراكش في قصبتها ثم انتهى به المطاف إلى أسَّا،

166) خلال جزولة 2/ 239.
167) رجالات العلم العربي في سوس، ص : 16.
168) كتاب العبر... 6/ 138.
169) خلال جزولة 4/ 24.
170) نفسه.
171) سوس العالمة، ص : 160. وخلال جزولة 4/ 160.
172) انظر ترجمته بالمعسول 18/ 170.
173) محمد بن أحمد البعقيلي مناقب البعقيلي، ص : 27.
174) المصدر نفسه.
175) المعسول 10/ 172-173.

ويبدو أنه من بقايا الموحدين الفارين من المرينيين، بعد سقوط دولتهم، إذ إنه حفيد يعقوب المنصور الموحدي من ابنته،(176) وقد اشتهر بالصلاح ونشر العلوم في زاويته.(177)

هذه إذن بعض المدارس والمراكز التعليمية التي أسست في عهد المرينيين، الذي شهد فيه سوس حركة علمية دائبة رغم ما كان سائدا من حروب وفتن.

---

176) المعسول 10/ 175.

177) نفسه، ص : 174.

المبحث الثالث ـ إزدهار التعليم بسوس :

أ – عهد الدولة السعدية : شهد عهد الشرفاء ازدهارا منقطع النظير للحركة التعليمية بسوس، حيث بلغت أوجها وظهرت مراكزها في جميع أنحاء سوس ونتج عن ذلك نبوغ عدد من العلماء والفقهاء السوسيين، وظهور مؤلفاتهم المتنوعة على الساحة الفكرية المغربية،(178) وقد نتجت هذه النهضة العلمية عن أمرين :

الأول : بوادر هذه النهضة في القرن التاسع حيث «جاء ... بفاتحة خير، ففيه ابتدأت النهضة العلمية العجيبة التي رأينا آثارها في التدريس والتأليف وكثرة تداول الفنون...».(179)

الثاني : تشجيع الدولة السعدية الفقهاء والعلماء والطلبة السوسيين إذ كانوا «... أول من أقام عماد الدولة السعدية حوالي سنة 918هـ... فمدت عليهم... ظلا وريفا واتخذت منهم لحاشيتها كتابا وشعراء وقوادا وسفراء ورؤساء للشرطة... ثم كانت تتفقد غير هؤلاء بالصلات، فاستبحرت العلوم العربية في سوس استبحارا عظيما يلفت الأنظار...».(180)

وكان من أول ثمار هذه العناية نزول الحركة التعليمية السوسية من قلاعها في جبال جزولة، لما ساد الأمن بانبساط يد دولة السعديين على سوس، فتأسست مدارس جديدة ونشطت القديمة في تخريج الطلبة وتكوينهم تكوينا علميا أصيلا. ومن المراكز التي وقفنا على ما يدل على تأسيسها في هذا العصر :

*** في قبيلة إدَاوْبَعْقِيلْ :**

1 – مدرسة أَفَلاَّ أُوكَنْسْ : بناها الشيخ علي بن أحمد بن محمد الرَّسموكَي حوالي منتصف العقد الثالث من القرن الحادي عشر الهجري،(181) وكان أخذ من تارودانت قبل أن يعتكف هناك للتدريس حتى وفاته عام 1046هـ(182)

2 – مدرسة أدُوزْ : تأسست في القرن الحادي عشر الهجري على يد الأسرة اليعقوبيّة المستقرة أصلا بتازموت بعد انقراض الكرّاميّين المعافريين،(183) وبعد وفاة جد الأسرة

---

178) انظر الحركة الفكرية في عهد السعديين للدكتور محمد حجي ج 1.
179) سوس العالمة، ص : 20.
180) إيليغ قديما وحديثا، ص : 29 – 30.
181) المعسول 11/ 203، ووفيات الرسموكي، ص :16.
182) نفسه.
183) انظر سوس العالمة، ص : 157.

العلامة عبد الله بن يعقوب السّملالي عام 1052هـ انتقل ابنه محمد إلى أدوز حيث بني مدرسته ودرس بها حتى وفاته عام 1082هـ.(184)

3 – مدرسة آل عَمْرُو بأغَرَبّو : أسستها أسرة علمية منذ أوائل العاشر،(185) ويبدو أنّ ذلك تم في عهد أوّل رجالاتها وهو عمرو بن أحمد البعقيلي المقبور بفاس،(توفي 969هـ) وممن درس بها ابنه العلامة المؤقت عبد الرحمان بن عمرو البعقيلي المعروف بالجرادي (توفي 1006هـ).(186)

4 – مدرسة أيْتْ فَرْوِينْ : وهي مسجد عمّره العلامة النحوي المبرز محمد بن إبراهيم الشيخ التمنارتي بالتعليم والتدريس،(187) وقد نسب الدكتور محمد حجي مؤسس مدرسة آل عمرو إلى هذه القرية ولم نر ما يدل على ذلك في المصادر التاريخية التي أشار إليها.(188)

5 – زاوية سيدي أحمد بن موسى بتَازَرْوَالْتْ : أسسها صاحبها بعد رجوعه من سياحته الكبرى التي دامت حوالي ثلاثينَ سنة، أوائل القرن العاشر ولبث هناك ستين سنة قصده الناس خلالها، وقد اشتهر بكونه متصوفا ورجلا صالحا أكثر من كونه عالما مبرزا،(189) إلا أن الطلبة الملازمين للزاوية عوضوا انشغال الشيخ عنهم وقلة بضاعته في العلوم، بالأخذ عن مريديه من العلماء الوافدين عليه.(190)

6 – مدرسة تيزَرْكينْ : غير بعيد عن زاوية تازروالت استقر بها العلامة أحمد بن عبد الرحمان التّيزركينَي(191) بعد أن تخرج بفطاحل القرويين وبالحسن بن عثمان التّملي بمدرسة تييوت. وفي مدرسته قضى سنين عديدة مدرسا حتى وفاته عام 989هـ(192)

* قبيلة رسموكة :

7 – مدرسة تَمَالُوكْتْ : حيث المزواريون الرسموكيون خاصة العلامة محمد بن سليمان بن يحيى الرسموكي قاضي رسموكة (توفي 983هـ).(193) والذي ظهر بفضله اسم تَمَالُوكْتْ.

---

184) المعسول 5/ 48 – ومعلمة المغرب 1/ 286.
185) المرجع السابق.
186) التمنارتي – الفوائد الجمة، ص : 116 .
187) طبقات الحضيكي 2/ 251.
188) الحركة الفكرية في عهد السعديين 2/ 585-586.
189) انظر إيليغ قديما وحديثا، ص : 23.
190) انظر بعضهم عند د. حجي – الحركة الفكرية ... 2/ 603.
191) انظر التعريف به في طبقات الحضيكي ص : 254 المعسول 13/ 266.
192) المعسول 13/ 269.
193) المعسول 8/ 172.

8 - مدرسة أكَرْضْ نَتَكَنْفَلْ : استقر بهذه القرية محمد بن علي الرسموكي ابن المدرس بتاركَنين، بعد وفاة والده عام 1049هـ، وبنى مدرسته وقام فيها على ساق الجد في التعليم، وبسبب ذلك نالته عناية أمير إيليغ، وتدل ظهائر التحرير وصرف أعشار أهل بلده لمدرسته وطلبتها على ذلك.(194)

* **قبيلة أيت صواب :**

9 - مدرسة أزْكَرْ : الثّور) بنيت حوالي القرن العاشر على يد مسعود بن إبراهيم الشريف الإدريسي حسب مشجر أنساب بيد أحفاده، وهذا الفقيه مجهول في التاريخ ولم يرد اسمه في أي مصدر تاريخي معروف.(195)

10 - مدرسة أيت مَنْصُورْ : بناها الفقيه محمد بن منصور التودماوي وابتدأ بناءها عام 998هـ واستمر عامين كاملين، ويبدو أن مؤسسها قد درّس بها مدة، ثم بعد وفاته دفن داخلها وخلفه عليها أخوه عبد الله بن منصور المدفون هو الآخر بنفس المحل، ولا يعرف أي شيء عنهما ما عدا اسميهما.(196)

11 - مدرسة تيزي الْاثْنينْ : بأيت ويدمَّانْ، اشتهرت بتدريس القراءات، ويقال أن مشيدها هو المدفون بَجَانبها مَحمد بن مَسَعود بن إبراهيم إبن مؤسس مدرسة أزكَر الآنفة الذكر، وذلك أواسط القرن العاشر الهجري.(197)

12 - مدرسة تَاكُوشْتْ : بناها الشيخ سعيد بن الحسين الأوْجُبِّي، وتصدر للتدريس بها حتى وفاته 1047هـ، وكان الشيخ عبد الله بن سعيد التّهالي جد المرابطين السعيديين أعانه في بنائها وتموينها.(198)

13 - مدرسة دُوزَمُّورْ بأيت وَاغْزْنْ : بناها محمد بن أبي بكر الهشتوكي الملقب بأغزن أي الغول،(199) وذلك أواخر القرن العاشر الهجري بعد مقدمه من لدن أستاذه عبد الله ابن سعيد الحاحي نزيل زاوية إدَاوْزَدَّغْ قرب تارودانت.(200)

194) المعسول 11/ 207.
195) الساحلي - المدارس العلمية... 4/ 135.
196) الساحلي - المعهد الإسلامي والمدارس العتيقة 4/ 136.
197) المرجع نفسه.
198) انظر الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب.
199) انظر سبب تلقيبه بذلك بالمعسول 17/ 255.
200) المرجع نفسه.

* قبيلة إيلالن :

14 – مدرسة تَلاَتْ نَتْسَرْكي : في قبيلة إدَاوْكْنضيفْ، ويقال أن مؤسسها يعقوب بن يدير، أواخر القرن العاشر (توفي بعد 1011هـ)، مَجَهول النسب والتاريخ إلا ما كان من ذكر الحضيكي له باعتباره عابدا ناسكا...(201)

15 – مدرسة تَاكُرَّامْتْ : بإدُوسْكَا إيزَادَّارْ تنسب للمرابطة عائشة بنت محمد الوَافْتيني وكانت المدرسة في الأصل مَسجدا ثم حولت إلى مدرسة بمبادرة فرقة أيت ويزَلْنْ إبّان القرن الحادي عشر.(202)

* قبيلة إداوتنان :

16 مدرسة تيغَانمينْ : حيث مدرسة الشيخ إبراهيم بن علي الإيضيميني من أهل القرن العاشر (توفي 989هـ)، أخذ عن شيخ حاحة سعيد بن عبد المنعم الدَّاوْدَي، ثم لما عاد إلى مسقط رأسه دأب على التدريس والإرشاد، وشهرته بالصلاح أكثر من شهرته بالعلوم.(203)

17 – مدرسة أسيفْ يِّكْ : (وادي البَطْم) أسسها أحد أحفاد مؤسس التّيغانمينيّة في النصف الثاني من القَرن الحادي عشر الهجري، وهو عبد الله بن عبد الرحمان بن محمد بن إبراهيم.(204)

* قبيلة أيت وادريم :

18 – مدرسة يُوف تَارْكَا : وهي أصلا مسجد صغير بناه الفقيه محمد بن ييبورك الأسْغَارْكيسي وشارط فيه،(205) وقد حُول إلى المدرسة على يد ابن أخيه عبد الله بن إبراهيم بنَ ييبَورك.(206)

19 – مدرسة إكِّي وَاسْكَارْ وتقع بأيت فَلاَّسْ وبجانبها مشهد أحد كبار القراء بسوس وهو موسى بن ييبورك بن الحسن الوَاسْكَاري، ذكر الحضيكي أنه أول من أدخل وقف الهبطي إلى سوس، عاد إلى موطنه بعد رحلة علمية وبنى مدرستَه وعلم بها القراءات حتى توفي عام 1108هـ.(207)

---

201) طبقات الحضيكَي، ص : 11 .
202) الساحلي، المدارس العلمية... 4/ 162.
203) الساحلي – المعهد الإسلامي والمدارس العتيقة بسوس 4/ 76–79.
204) نفسه، ص : 154.
205) الساحلي المدارس العلمية... ص : 154.
206) المعسول 14/ 277.
207) المعسول 8/ 126 ورجالات العلم العربي....، ص : 64.

* قبيلة إدَاوْزَدَّغْ :

20 - زاوية زَدَّاغَة : استقر بها عبد الله بن سعيد المناني الحاحي وتقع بقرية تافيلالت وكان هذا الشيخ حريصا على تعليم الناس دينهم وتحفيظهم أمور عقيدتهم.(208)

21 - زاوية إيحْشَاشْ بتَالْكْجُونْتْ : ذكرها العلامة المختار السوسي ضمن زوايا المنانيين أبناء عبد الله بن سعيد بالمنطقة، وأنها لأبناء يحيى بن عبد الله فربما بناها يحيى أو أن أباه أرسله إليها للتعليم والإرشاد.(209)

22 - زاوية أيت دَاوْدَ بإدَاوكَايْسْ : من زوايا المنَّانيين السابقي الذكر وبجانبها مشهد علي بن منصور بُوتْكَشُّلِينْ (صاحب الشّكاوي) المديدي اشتهر بالصلاح والتصوف وأخذ عن شيوخ أجلة، وَلعله استقر هناك ودرس وعلم حتى أدركه الحمام.(210)

* قبيلة أيت جَرَّارْ :

23 - مدرسة بناها العروسي بن عبد الله الجراري بعد عودته من مراكش متخرجا على محمد بن سعيد الميرغتي،(211) ولا نعرف اسم المدرسة ولا موقعها وإنما ظفرنا بخبرها من رسالة أرسلها الميرغتي إلى تلميذه هذا.(212)

* قبيلة إينْدَاوْزَالْ :(213)

24 - زاوية إيرْسْ : بناها العلامة محمد بن أحمد بن محمد بن يعزّى التّملي وعمرها بالتعليم والصلاح، وهو جد الأسرة الهوزالية التملية نزح عن بلده واستقر هناك مشتغلا بالتعليم إذ «كان رضي الله عنه عالما من فحول علماء الإسلام من أكابر المشايخ وأشهرهم علما وعملا، محدثا صوفيا محققا من أولياء الله الصالحين وعباده المتقين المشهورين بالعلم والدين ماهرا في علوم الشريعة محبا لأهل الله تعالى».(214)

---

208) انظر الفوائد الجمة، ص : 150 .
209) الساحلي المدارس العلمية... 4/ 22 - والمعسول 19/ 71.
210) الساحلي المعهد الإسلامي والمدارس العتيقة 4/ 22.
211) كناش القاضي عبد الرحمان العوفي، ص : 8 وانظر نص الرسالة في الفصل الأول من الباب الثاني.
212) المصدر نفسه.
213) تقع جنوب شرق تارودانت وهناك قبيلتان تشبهانها اسما وهما إيندوزال - وإداوزال. (انظر الخريطة المرفقة بالمدخل. ص : 63).
214) عبد الرحمان التغرغرتي - مختصر طبقات الشعراني 4/ 1 وإيرس هذه غير الواقعة بإيداوكنضيف.

25 - زاوية تَافْهيمْتْ : ومؤسسها عبد الكريم بن عبد الله الشريف الأَوْدَاشْتي تلميذ التّملي الهوزالي المتَقدم، درس بزاويته القراءات التي تلقنها بفاس، وعند عودَته درس بزاوية ابن ويسعدن السّكَتاني أولا، قبل أن يستقر بتافهيمت حتى وفاته.(215)

*** قبيلة إيوزيونْ (هوزيوة) :**

26 - زاويَةَ عبد الله بن بُورْزْكْ :(216) وأصل أجداده من أرض الغرب، تصدى للتدريس بزاويته واجتمع عليه الطلبة والمريدون، قال عنه التَّغَرْغَرْتي : «كان رضي الله عنه من العلماء العاملين ومن أئمة المسلمين وأكابر أولياء الله المشهورَين بإغاثة الملهوفين، ما استغاث به أحد إلا أغاثه وما لجأ إليه أحد إلا أمنه الله...»(217) وقد توفي وسط القرن العاشر ودفن قرب أبيه بقرية بُوُّورْغْ.(218)

*** قبيلة سكتانة :**

27 - زاوية وَاويرْسْتْ : بناها الشيخ محمد بن ويسعْدن وهي من أكبر المدارس السوسية لهذا العهدَ بكثرة طلبتها الذين بلغوا سبعمائةَ طالب،(219) زيادة على الأرامل واليتامى والمساكين، وتدل الأبنية القائمة بهذه القرية على عمارة كثيرة.(220)

28 - زاوية إمي نْتَاتَلْتْ : أسسها العلامة الشيخ محمد بن يعقوب التَّاتلتي الصنهاجي (توفي 962هـ)(221) طغى صلاحه وتصوفه على علمه كما هو الحال بالنسبة لأمثاله في هذا العصر، وقد استفاد طلبته من العلماء والفقهاء الذين كانوا ينزلون بزاويته سواء في عهده أو بعد وفاته.(222)

29 - مدرسة تكَرْكُوسْتْ : قطنها حفيد الشيخ محمد بن يعقوب، أحمد بن عثمان، ثم ابنه إبراهيم بن أحمد (توفي 1090هـ) وعمَّرها بالتدريس وجعلا منها زاوية لتلقين الأوراد وتربية المريدين مثل جدهما.(223)

215) مختصر طبقات الشعراوي 4 / 41 والمعسول 18/ 236، وقد حرف اسم تافهميت فيه إلى تلهيمت.
216) ومعنى أرْزْكْ في اللسان السوسي : السعد والحظ، انظر كتاب الحوض للهوزالي مقدمة المحقق، ص: 24.
217) التغرغرتي - مختصر طبقات الشعراني 4/ 42.
218) خلال جزولة 3/ 169.
219) انظر الفوائد الجمة، ص : 79 .
220) المصدر نفسه، والمعسول 19/ 232.
221) انظر ترجمته بالمعسول 16/ 49 وما بعد.
222) انظر بعضهم في خلال جزولة 3/ 122.
223) انظر حولهما خلال جزولة، ص : 114.

* قبائل جنوب سوس بمنطقة وادي نون وروافد درعة :

30 مدرسة أكَرْضْ نَتْمَنَارْتْ : في الفائجة، استقر بها الشيخ الشهير محمد بن إبراهيم التَّمنارتي منتقلا إليها من أكادير نَتَرْسْوَاطْ إزاء وادي لكوسة من قبيلة أمانوزمشارطا بمسجدها «...وشدت إليه الرواحل لطلب العلم من جميع الآفاق السوسية، وعنه انتشر جل علوم بلاد جزولة، وجمع الله لهم بين علم الحقيقة والشريعة، وابتنى ببلده لطلبة العلم مساكن يأوون إليها...».(224)

31 مدرسة أكَرْضْ نَتْسكْدَلْتْ بتَمَنَارْتْ : حيث استقر العلامة محمد بن أحمد الجزولي الرْسموكي، لزم التدريس بهذه القرَية قريبا من عشرين عاما، قرأ عليه فيها كثير من الطلبة ومن بينهَم عبد الرحمان التّمنارتي الذي قال عنه : «وكنت أحضر درسه في الفقه والعربية والحساب والعقائد والتصريف متى وردت لبلد السلف هناك، وهو طالب عزير مثله في البادية».(225)

32 - مدرسة أمْسْرَا : توجد بمدشر تَازْرُوتْ على ضفة وادي أمسرا، وقد بنيت قبل عام 1040هـ، إذ عثر على رسم شراء أرض مجاورة ذكرت فيه، مؤرخا بالعام المذكور.(226)

* قبيلة هشتوكة :

33 - مدرسة سيدي بيبي : وتقع بأيت عْميرَة، وقد ذكر الساحلي أنها أسست في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، دون أن يَشير إلى المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة.(227)

34 - مدرسة إيمي نَسَّبْتْ تَاقْديمْتْ بأيْتْ ميلْكْ بنيت في القرن العاشر الهجري وتعتبر من أقدم مدارس هشَتوكة، واشتهرَت بالَقراءاتَ مثل سابقتها.(228)

35 - مدرسة أسْغَارْكيسْ : بأيت وَالْيَاضْ بنيت في القرن العاشر الهجري على يد يبورك بن حسين الهشتوكيَ (توفي 983هـ)،(229) وكانت أول أمرها كجل مدارس هذا العهد، لقي مؤسسها العلامة الصوفي محمد بن يعقوب التَّاتلتي وهو الذي أشار عليه ببناء الزاوية، قال صاحب شفاء القلوب : «يبورك بن حسين الهشتوكي، رضي الله عنه - وهو

224) الفوائد الجمة، ص : 169 وانظر أيضا طبقات الحضيكَي ص : 252 .
225) المصدر نفسه، ص : 41.
226) الساحلي - المدارس العلمية... 3/ 247.
227) المرجع نفسه، 4/ 229.
228) نفسه، ص : 222.
229) وفيات الرسموكي، ص : 30، وطبقات الحضيكَي ص : 473 .

جـد اليبيوركيين الأسغاركسيـين - قـال زرت الشيخ في صغري، فقـال لي يايبيورك إذا كـبـرت فـابــن زاويتك في الشـعـبـة الـتي تسـمى عندكم أسـغـاركـيس، فلمـا كـبـر بناها». (230)

* قبيلة أملن :

36 - مدرسة إيديكْلْ : حيث استقرت أسرة ركَراكَية منذ القرن السابع مشهورة بالصلاح والعلم ومن أشهر رجالاتها في هذه المرحلة يعزّى بن موسى الإيديكلي،(231) وسعيد بن محمد الذي ظل بمدرسة أسرته معتكفا على التدريس وأخذ عنه أولاده فيمن أخذ بها (توفي 1042هـ).(232)

37 - المدرسة الخضراء بتَهَالَة : بنيت أوائل القرن العاشر الهجري من قبل أبناء القبيلة، بعد ما ندبهم إلى ذلك علماء استقروا بين ظهرانيهم ويعرفون بأيت ييريغْنْ «وكان بعضهم يدرس فيها حياته إلى أن توفي 1008هـ... فدفنوا جميعًا في مغرب المدرسة». (233)

* قبيلة إداوْنضيفْ :

38 - مدرسَة أيت كُرْبَانْ : نسبة إلى واد تقع عليه وبجانبها ضريح مؤسسها محمد بن مسعود أفْلُوسْ،(234) ويتصل نسبه بالعلامة وكَاكَ بن زلو، وقد طغى صلاحه على علمه واكتفى أصحاب التراجم بالتحدث عن كراماته،(235) بينما أشار العلامة المختار إلى أنه وجد ما يدل على كونه عالما كبيرا (توفي 1052هـ).(236)

* قبيلة إسَنْدَالْنْ :

39 - مدرسة تيدْسي : ازدهرت على يد أسرة علمية أول من يعرف منها بركة بن محمد بن أبي بكر، وَلعلهَ هو الذي بناها (توفي 935هـ)،(237) ثم تداولها أبناؤه من بعده

230) أحمد بن إبراهيم الركني - شفاء القلوب ومواهب علام الغيوب في مناقب الشيخ محمد بن يعقوب، ص : 17.
231) انظر ترجمته بالمعسول 17/ 6.
232) المرجع نفسه، وسوس العالمة، ص : 172 ورجالات العلم العربي في سوس، ص: 46.
233) المعسول 3/ 288.
234) انظر سبب تلقيبه بذلك بالمعسول 11/ 56.
235) طبقات الحضيكي ص : 295 والفوائد الجمة، ص : 161 .
236) رجالات العلم العربي في سوس. ص : 15.
237) سوس العالمة، ص : 148.

ودرسوا بها، وقد تركوا خزانة حافلة تشهد على ما مر بتلك المدرسة من تدريس وتعليم.(238)

*قبيلة إسَافْنْ نَايْتْ هَارُونْ :

40 - مدرسة سيدي وَلْكَنَّاسْ : حيث اعتزل علي بن أبي بكر التَّزَخْتي مع طلبته بعد أن هجر بلده تيزْخْتْ منفردا للعبادة والإقراء، وهو من القراء المجيدين، لَازم التدريس حتى وفاته عام 1088هـ ودفن مكان إقرائه.(239)

* قبيلة أيت حَامْدْ :

41 - مدرسة تيلْكَاتْ : كانت تيلْكَاتْ مقر قيادة كبيرة في عهد السعديين، تعرف بالقصبة وبها مسجدَ واسع على نمط اَلمساجد الحضرية،(240) شهد إكباب الحامديين على التعليم، وأولهم علي بن محمد بن عبد العزيز التِّيلْكَاتي الذي استقر هناك مدة ثم غادر بعدها نحو أقَّا حيث توفي حوالي عام 920هـ.(241)

هذه بعض المراكز التعليمية التي ظهرت في القرنين العاشر والحادي عشر، عصر ازدهار الدولة السعدية وما بعده من انحسار ظلها عن سوس وظهور إمارة السملاليين بتازروالت، والتي كان لها الفضل في استمرار إنجازات الشرفاء حتى مطلع القرن الثاني عشر، ويعتبر مركز تارودانت ومركز إيليغ من أبرز المراكز التعليمية بسوس في هذه المرحلة وخير مثال على نشاط مدارسه وزواياه في نشر العلوم، فتارودانت من نتائج اهتمام السعديين بالفكر ورجاله، من حسنات الإمارة السملالية.

أ - مركز تارودانت : كانت هذه المدينة مركز الحكم ومفتاح سهل سوس وجبال جزولة، في عهود الدول المتعاقبة على المغرب حتى هذه الفترة. وقد لحقها الهدم والخراب نتيجة محاربة المرينيين ابن يدر وخلفاءه الثائرين في القرنين السابع والثامن،(242) وعندما أراد السعديون توطيد دولتهم أعادوا بناءها،(243) وقد ذكر في بعض التقاييد التاريخية أن بداية بنيانها كان يوم السبت عاشر محرم من عام 935هـ.(244)

---

238) انظر وصفها بسوس العالمة، ص : 178.
239) طبقات الحضيكي 473 ورجالات العلم العربي. ص : 46.
240) وفيات الرسموكي، ص : 27 - والمعسول 6/ 205.
241) محممد حجي - الحركة الفكرية في عهد السعديين 2/ 591.
242) انظر محمد المنوني - إمارة بني يدر بالسوس، مجلة دراسات كلية الآداب أكادير عدد 1، ص : 31.
243) انظر الفوائد الجمة، ص : 522 .
244) مجموع فوائد وأنساب مخطوطة ص : 22.

ويظهر مما لدينا من معلومات أن التدريس والتعليم نشط في المساجد الكبرى للمدينة وهي :

* مسجد الجامع الكبير : أقدم مسجد بالمدينة، وجد قبل السعديين، إلا أنه هجر وخرب فأصلحه محمد الشيخ السعدي ووسعه.(245)

* مسجد جامع القصبة : بني داخل القصبة المحصنة داخل الدينة والتي كان يقطن بها الأمراء والوكلاء.(246)

* مسجد جامع مفرق الأحباب : من محدثات السعديين(247) وهو المسمى بالجامع الجديد، وذكر في وثيقة حبسية أن بانيه هو السلطان عبد الله بن محمد الغالب الذي حبس عليه «... جميع الأجنة الثلاثة المعروفة... مع المصرف من الماء المعروف لسقيها من ساقية المحرزية في كل سبت بجميع منافعها ومرافقها... مع جميع الحوانيت المملوكة لبيت المال بسوق مفرق الأحباب داخل مدينة تارودانت المحروسة قرب الجامع الجديد، بمنافعها ومرافقها على الجامع الجديد، الذي انشأ بناءه داخل المدينة...(248) وقد أرخ هذا الرسم في أواخر شعبان عام ثمانية وسبعين وتسعمائة.(249)

وللمحافظة على سير التعليم بهذه المساجد حددت الجرايات للمدرسين كما جعل لهم نصيب من الأحباس يوزع بإشراف قضاة الجماعة، كما جعل للطلبة نصيبهم منها أيضا.(250)

وبفضل هذه الرعاية انثال الطلبة من جميع الجهات للقراءة بتارودانت سواء من القبائل القريبة منها كمنتاكَة وركَيتة وهشتوكة وإيندوزال، أو البعيدة كقبائل جبال جزولة مثل إدا وسملال وإدا وبعقيل وأملن وتمنارت... فنفقت العلوم وازدهر الطلب وتوالت الدروس.(251)

وقد درس بمساجد تارودانت مشايخ وعلماء أغلبهم من السوسيين وجمع بعضهم بين التدريس والقضاء ومنهم : محمد بن أحمد بن الوقاد التلمساني،(252) وسعيد بن عبد الله العباسي،(253) وعيسى بن عبد الرحمان السكتاني،(254) وعبد الرحمان بن محمد

---

245) خلال جزولة 4/ 148-149.
246) المصدر نفسه.
247) نفسه.
248) حوالة أحباس تارودانت، مخطوط خاص.
249) المصدر نفسه.
250) الفوائد الجمة، ص : 100 .
251) المصدر نفسه، ص : 198 .
252) انظر ترجمته في المصدر نفسه، ص : 85 وما بعد.
253) انظر ترجمته في المعسول 18/ 403.
254) المصدر نفسه، 5/ 15.

التمنارتي،(255) وقد درسوا بالجامع الكبير. وأبو عبد الله محمد البعقيلي المقرىء بجامع القصبة.(256) وأحمد بن يحيى السوسي بالجامع الجديد.(257)

وبالإضافة إلى الأساتذة السوسيين المستقرين بتارودانت، كان يرد على المدينة بعض العلماء من الحواضر المغربية الكبرى، فيخف الطلبة والفقهاء للأخذ عنهم واستجازتهم مثل محمد بن عبد الرحمان بن جلال التلمساني (توفي 981)،(258) ومحمد بن يوسف البطائحي المقدسي (توفي 999هـ) الذي زار حاضرة سوس فلقيه عبد الرحمان بن محمد بن الوقاد وسمع منه وأجاز له جميع مروياته عن مشايخه المشارقة.(259) وبفضل هذه الزيارات اتصل السوسيون بالأسانيد العليا،(260) وصاروا بذلك في مستوى نظرائهم من علماء الحواضر الكبرى، إلا أن بعض هؤلاء كانوا ينظرون إليهم نظرة استهانة واستخفاف، خاصة وقد انتشرت مقالة عبد الله بن عمر المضغري حين سئل عن حال أهل سوس إبان زيارته لتارودانت أوائل القرن العاشر،(261) ويتضح ذلك من خلال :

1 - استهانة العلامة عبد الواحد بن أحمد الحميدي بفقهاء تارودانت لما زارها «فكأنه صغّر شأن طلبتها فكتب [سعيد بن إبراهيم بن هلال].. إليه سؤالا عن مسائل بنظم رائق فعجز عن الجواب...».(262)

2 - ما ذكره التمنارتي من أن أحد فضلاء مراكش أكثر من إرسال الأسئلة لفقهاء سوس، وبلده عامرة بالعلماء،(263) والقصد من ذلك التعجيز والاستخفاف.

ويبدو أن سبب هذه النظرة غلبة البداوة على سوس وعلى حاضرته تارودانت، أما من الناحية العلمية فلم تكن تصورات فقهاء الحواضر الكبرى صحيحة أبدا إذ كانت تدرس بتارودانت المؤلفات نفسها التي تدرس في فاس، وبمقارنة بسيطة بين فهرسين من فهارس علماء الحضرتين يتضح لنا ذلك، مثل فهرس أحمد المنجور وفهرس التمنارتي فكلاهما يتضمن أسانيد العلوم العقلية والنقلية وأحاديث المصافحة والتشبيك والرحمة... بطرق متفاوتة مختلفة، كما أن المؤلفات التي درسها التمنارتي هي نفسها تقريبا التي درسها المنجور وأجاز فيها تلميذه أحمد المنصور الذهبي.(264)

---

255) ترجمة لنفسه في كتابه الفوائد الجمة، وانظر ليفي بروفنسال - مؤرخوا الشرفاء، ص : 180.
256) نفسه، ص : 145 .
257) نفسه، ص : 96 .
258) نفسه، ص : 138 .
259) المصدر نفسه، ص : 145 .
260) انظر الإجازات والأسانيد التي أورد التمنارتي في فوائده ص : 197 وما بعد.
261) انظر الفوائد الجمة، ص : 175 .
262) المصدر نفسه، ص : 123 والإستقصا 5/ 167-168.
263) المصدر نفسه، ص : 195.
264) انظر فهرس المنجور ص : 10 وما بعد، 21 وما بعد والفوائد الجمة ص : 92، 208، 222 وما بعد.

وقد استمر العصر الذهبي لتارودانت حتى بداية القرن الحادي عشر الهجري فتراجعت ريادتها العلمية وذلك لعدة أسباب منها:

1 - تفشي الطاعون الجارف الذي أصاب المغرب كله ودام عشر سنوات من عام 1006 - 1016هـ،(265) ومات بسببه كثير من الناس خاصة من طلبة العلم بمدينة تارودانت وعلمائها وتفرق الباقون فرارا منه.(266)

2 - وفاة المنصور الذهبي بسبب هذا الطاعون، وما أعقبها من اختلال أحوال الدولة بالفتن والحروب بين أبناء المنصور أنفسهم، والثوار الكثيرين في هذه الفترة.(267)

3 - التسلط على مقومات التعليم : وجد بعض الثائرين الطامعين في الإمارة الفرصة سانحة لتحقيق رغباتهم بعد زوال دولة السعديين، بالتسلط على الفقهاء والأحباس وبعض مؤسسات التعليم، ومنها :

* اعتقال أبي زيد عبد الرحمان التمنارتي ظلما من قبل صاحب شرطة تارودانت وواليها من قبل السعديين عام 1016هـ، وما نتج عن ذلك من توقفه عن التدريس بعد إطلاق سراحه، قال : «...ولما طلعت خرجت لجبل درن وعطلت مجلس الإقراء المعظم لما نالني من ذلك الظلم...».(268)

* ترامي يحيى بن عبد الله الحاحي على أموال الأحباس لصرفها في تجهيز جيشه، بعد ما عزل القاضي التمنارتي الذي كان قيما عليها لما رفض الموافقة على ذلك.(269)

* تسلط عبد الرحمان بن محمد بن الوقاد على أحد الكتاتيب القرآنية الحبسية عام 1030هـ «فهدمه وطرد منه نحو عشرين من صبيان المكتب ورمى بألواحهم وحصرهم خارجه، وغرقه بالماء لمجاورته ضيعة في حوزه يريد توسيعها به...».(270)

وتدل هذه الوقائع على التدني الملحوظ الذي لحق الحركة التعليمية بتارودانت منذ وفاة المنصور حتى استيلاء أبي الحسن السملالي عليها إثر وفاة يحيى الحاحي عام 1039هـ(271) وقد لخص القاضي عبد العزيز بن أبي بكر الرسموكي أحوالها الاجتماعية والثقافية في قصيدته التي هنأ بها الأمير أبا الحسن السملالي عند توليه إمارة إيليغ يحثه فيها على الإسراع بضمها إلى إمارته وإصلاح أحوالها الفاسدة بقوله : (الطويل).

---

265) الاستقصا... 5/ 192.
266) الفوائد الجمة، ص : 110 .
267) انظر إيليغ قديما وحديثا، ص : 31.
268) الفوائد الجمة، ص : 381 .
269) المصدر نفسه، ص : 365 .
270) نفسه.
271) نفسه، ص : 382 .

لَمَا قَدْ رَأيْتُ مِنْ فُجُورٍ وَظُلْمَةٍ
بِوَسْطِ مَدِينَةِ الْعُلُومِ رُذَانَةٍ
كَتَبْتُ إِلَيْكَ الشَّرْعَ فَاقْبَلْ نَصِيحَتِي
وَلاَ تَتَفَرَّطْ فِي أُمُورِ الشَّرِيعَةِ
بِهَا دِينُ خَيْرِ الْخَلْقِ ضَاعَ بِقَبْلَةٍ
بَبَغْيِ الزُّنَاةِ قَامَ فِي وَسْطِ قَصْبَةٍ
نِسَاءُ الْآنَامِ فِيهَا تُغْصَبُ قُهْرَةً
فَخُذْ بِمَقَالِي قَاصِداً نَحْوَ بُغْيَةٍ
بِهَا قَدْ بَغَى الْوَكِيلُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ
مُجَاذِبُ كَثْرَةَ الْفَسَادِ وَفِتْنَةٍ
فَشُغْلُهُ فِيهَا مَعْ جَمِيعِ صَحَابِهِ
فَتَوَاحَشُ عِنْدَ كُلِّ ذَاكَ بِسُرْعَةٍ
مَسَاجِدُ دِينِ اللَّهِ بَاكِيَةٌ بِهَا
وَصَوْمَعَةٌ بَكَتْ مَكَاتِبَ صِبْيَةٍ
وَضَجَّ دِينُ الرَّسُولِ وَتَشْتَكِي
عَلَى اللَّهِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَلَيْلَةٍ
وَخَلَتْ عُلُومٌ مِنْ مَسَاجِدِهَا فَلاَ
تَرَى بِهَا إِلاَّ الظُّلْمَ وَسْطَ الأَزِقَّةِ
عَلاَ بِهَا شَجَنُ الدِّينِ يَمْلَؤُ جَوْفَهَا
بِنَتْنِ الزُّنَاةِ يَا إِمَامْ، قُمْ بِعُجْلَةٍ(272)

وبعد استيلاء أبي الحسن على تارودانت، وإعادة القاضي عبد الرحمان التمنارتي إلى قضائها،(273) حاول ما أمكنه إصلاح أحوالها حتى استعادت بعض صفاتها، إلا أن الطلبة والفقهاء الذين هجروها لم يعودوا إليها. خاصة الذين نزلوا منهم إيليغ إذ فضلوا البقاء بها لما كانوا يلقونه من الرعاية والإكرام من قبل الأمير السملالي.

ب - مركز إيليغ : مدينة الإمارة السملالية في قلب الأطلس الصغير بناها الأمير أبو الحسن السملالي لتكون دار إمارته،(274) ووسطها شيد مسجدا جامعا أمّه الطلبة والعلماء من جميع جهات سوس بل ومناطق المغرب، بفضل ما خصهم به الأمير من

272) مخطوطة خزانة أزاريف.
273) الفوائد الجمة، ص : 364 .
274) إيليغ قديما وحديثا، ص : 61 - 66.

رعاية، فعين منهم الخطباء والقضاء والمدرسين، وقد رسم القاضي الرّسموكي الأسس العامة للسياسة الثقافية للإمارة السملالية، باعتبارها المحافظة على ما تبقى من إنجازات السعديين الثقافية، بعد أن عصفت بها الفتن والأوبئة بقوله :

وَسَلْ عَنْ قِرَاءَة الْعُلُوم وَسَيْرِهَا
تَقَصٍّ، وَقُمْ بِحَقِّهَا فِي الْقَبِيلَة
وَسَلْ عَنْ مَسَاجِد الْبِلاَد مُكَلَّفَا
عَلَى أَهْلِهَا بِالْكُرْه تَعْلِيمَ صِبْيَة
وَسَلْ عَنْ آذَان فِي سُطُوحِ الْمَسَاجِد
يَلِيه رِجَالٌ، وَاحْمِهِمْ مِنْ غَرَامَة
وَسَبِّبْ لِخَيْرٍ فِي حَيَاتك صَانِعاً
طَفَائِنَ مَاء فِي مَوَارِد شِدَّة(275)
وَحَبِّسْ لِجَامِعِ الْكَبِيرِ أَجِنَّةً
لإِقْرَاء عَلْم إِذْ دُفِنْتَ بِتُرْبَة
وَشَيِّدْ لِعِلْمٍ مَدْرَسَات فَإِنَّهَا
بِهَا اللَّهُ مُنْشِىءٌ مَصَابِيحَ مِلَّة...
وَعَزِّزْ أُولِي التَّعْلِيمَ أَنَّى وَجَدْتَهُمْ
وَزُرْ عُلَمَاءَ عَامِلِينَ بِنِيَّة
وَمِنْ سُخُرَات حَرِّرْهُمْ وَاعْلَمَنْ
بِأَنَّكَ تُدْعَى لِلْمَمَات بِبَغْتَة(276)

هكذا نرى هذا القاضي العالم يدعو أميره إلى الإشراف بنفسه على سير التعليم بإمارته، ليحث القبائل على العناية بمدارسها وفقهائها المشارطين، وليرغم الناس على إقراء أبنائهم ممن هم في سن الدراسة، وليوفر للتعليم العناية بتحبيس الأملاك لمدارسه، وبناء مدارس جديدة وتفقد القديمة وصرف الأعشار لها، وتمتيع العلماء المدرسين بظهائر التوقير والاحترام، وصيانتهم مما يواخذ به عامة الناس من خدمات وسخرات.

والمتأمل هذه الأبيات يعجب مما ورد فيها، خاصة طلب صاحبها فرض التعليم الإجباري على كل الصبيان، وإكراه ذويهم على ذلك، لأجل محو الأمية وتثقيف عامة الناس. وهذه أفكار نيرة لا يصل إليها في العادة ولا تصدر إلا عن كبار المفكرين الناشئين

275) الطفائن ج : طفينة وهي أماكن تخزين المياه.
276) مخطوطة خزانة أزاريف، زودني بنسخة منها الأستاذ الطيب عمري بتزنيت.

في بحبوحة الحضارة، كما تعبر عن طموح الفقهاء السوسيين وما يرجون لحركتهم التعليمية من انتشار وتأصل.

كما أن المتتبع لحالة التعليم بسوس إبان سيطرة الإمارة السملالية، يلاحظ عمل أميرها أبي الحسن بنصائح قاضيه الرسموكي واعتناءه بالعلماء في حاضرة ملكه لما اعتكفوا فيها على التعليم، فنشطت بها الدراسة حتى اشبهت تارودانت عند ازدهارها. ومن هؤلاء نذكر علي بن محمد التيلكَاتي (توفي 1043هـ) الذي كان أول من خطب بجامع إيليغ، وكان متخصصا في تدريس القراءات وتجويد القرآن،(277) وعبد العزيز بن أبي بكر الرسموكي (توفي 1062هـ) علامة إيليغ الكبير وقاضيها، وبها أخذ عنه العلامة الحسن اليوسي.(278) وبالإضافة إلى العلماء السوسيين وفد على عاصمة إمارة جزولة علماء من درعة والسودان وقد انضوى هذان الإقليمان ردحا من الزمن تحت لوائها، منهم عبد العلي بن عبد الرحمان الأنصاري (توفي 1057هـ)، استقدمه أبو الحسن ليؤدب أبناءه فاستقر بإيليغ حتى وفاته،(279) ومحمد السوداني، حلاه الحضيكَي بالشيخ الصالح العالم العلامة، استقر بمعية أولاده تحت كنف أبي الحسن،(280) وعلي بن عبد الرحمان بن يعقوب الدرعي أمين خزائن الأمير (توفي 109هـ.)(281) ومحمد بن أحمد بن تافياطت التلمساني نسبة إلى تلمسان المستقر بإيليغ مدرسا بها (توفي 1052هـ).(282)

ب - عهد الدولة العلوية : لم يكد يطل القرن الثاني عشر حتى كان العلويون قد سيطروا على المغرب بعد أن قضوا على من فيه من ثوار وأمراء الزوايا، وهكذا قضى السلطان الرشيد على إمارة إيليغ قبل أن ينصرم الحادي عشر، ودك بمدافعه عاصمتها وضم سوس إلى بقية مملكته

إلا أن سوس لم تلبث أن راجعت حالها من الإستقلال بعد وفاة السلطان إسماعيل، وفي ظل هذه الأحوال السياسية المتضاربة حافظت الحركة التعليمية على تطورها، وقد حظيت من السلاطين العلويين أحيانا بالرعاية لما كانت سلطتهم ترسخ هناك، وتمثلت هذه الرعاية في أمرين :

---

277) خلال جزولة 2/ 140، طبقات الحضيكَي 547، وفيات الرسموكي ص : 15.
278) المعسول 5/ 21، وفهرس اليوسي ص : 154 - 155.
279) إيليغ قديما وحديثا، ص : 92.
280) طبقات الحضيكَي 351 .
281) المصدر نفسه، ص : 476 وما بعد.
282) وفيات الرسموكي، ص : 45.

1 - ظهائر الإحترام والتوقير التي أنالوها العلماء والطلبة يحررونهم بها مما يواخذ به العامة من سخرات، ويأذون لهم في جمع الزكوات وإنفاقها على مدارسهم، ويلاحظ المراجع لهذه الظهائر أنها تكثر في مرحلتين :

الأولى : بداية الدولة على عهد السلاطين الرشيد وإسماعيل وابنه عبد الله ثم حفيده محمد بن عبد الله، حيث حرروا ظهائر للمشرفين على مدارس أَفَلاَ أُوكَنْسِ(283) وتَاكُوشْتْ،(284) وتَاسكْدَلْتْ...(285)

والمرحلة الثانية : خلال حكم السلطان الحسن الأول الذي زار سوس أكثر من مرة،(686) ولقي علماءها وطلبتها، كما كانوا يفدون عليه في المناسبات خاصة بمراكش.(287)

2 - إصلاح وبناء بعض المدارس والمساجد بسوس تنشيطا للعلم وذويه، حيث تم بناء قباب بالمسجد الجامع بتارودانت في عهد السلطان الرشيد عام 1082هـ كما هو منقوش في بعضها،(288) وبُني مسجد بأَقَّا بإذن السلطان إسماعيل،(289) كما أضيفت في عهده بناءات في مدرسة تَلاَتْ نَتْسَرْكِي،(290) ومدرسة بتِيمكّدْشْتْ على عهد السلطان محمد عبد الرحمان.(291)

وقد تواصل انتشار المدارس بفضل هذه الرعاية، حيث امتدت الحركة التعليمية إلى الجهات التي لم تصل إليها قط، واسترجعت المدارس القديمة نفسها من جديد وبرزت أخرى بشكل كبير، وكان للزاوية الناصرية بتَامكْرُوتْ الفضل الأكبر في إمداد هذه الحركة بدماء جديدة فمن «أوائل القرن الثاني عشَر صار تلاميذ تامكَروت يردون إلى سوس فيعمرونه بالعلم، لأنهم لم يتعودوا في زاوية تامكَروت إلا الدراسة والسعي في المصلحة العامة».(292) إلا أنه لم يقدر لهذه الحركة المباركة أن تنمو وتزهر، فقد إغتالها وباء 1214هـ الذي أفنى من العلماء الكثيرين، وقد وصف التّغرغرتي أثره فقال عند ذكر الشيخ علي بن سعيد الهلالي (توفي 1225هـ) «وكان من كبار أولياء الله الصالحين، منفردا في

283) انظر المعسول 11/ 206.
284) انظر المعسول 8/ 75.
285) انظر المعسول 6/ 164.
286) انظر الإستقصا 9/ 174 - 180.
287) انظر وفادة مؤسس الإلغية على السلطان الحسن الأول في الفصل الأول من الباب الأول.
288) نقش ذلك على أحد أعمدة القبة الخلفية إلى جوار الفناء.
289) خلال جزولة 3/ 55.
290) المعسول 17/ 226.
291) المعسول 6/ 265.
292) سوس العالمة. ص : 161 وانظر هؤلاء العلماء في رجالات العلم العربي، ص : 57.

زمانه بعد الوباء المحيط بالمغرب سنة 1214هـ، مات به الناس موتا ذريعا حتى لم يبق على وجه الأرض في مدائن المغرب وقراه إلا عشر الناس، فكل قرية فيها مائة نفس لم يبق منها إلا عشرة أنفس فأقل، وبقي الناس هملا لموت العلماء والصالحين والطلبة جملة إلا في النادر في بعض البلاد».(293) وقد عبر العلامة عبد الرّحمان الجشْتيمي عن مخلفات هذه المصيبة التي لحقت التعليم بسوس بنتفة شعرية يصف فيها خلوَ المَدارس والمساجد من الفقهاء بقوله : (البسيط) :

خَلَتْ قَبَائِلُنَا مِنْ كُلِّ ذِي أدَبِ
وَكُلِّ حَبْرٍ فَصَارَ الْغَرْبُ كَالْخَرِبِ
فَأَدْبَرَ الْعِلْمُ وَانْهَدَّتْ صَوَامِعُهُ
فِي سُوسِنَا فَاسْتَطَالَ الْجَهْلُ بِالْغَلَبِ
تَدَارَكَ اللَّهُ سُوساً وَمَدَارِسَهَا
بِنِعْمَةٍ وَجَمِيلِ اللُّطْفِ وَالْقُرَبِ
مَاتَ الْكِرَامُ فَصَارَ النِّكْسُ ذَا كَرَمٍ
قَدْ تَجْعَلُ الْمُرَّ حُلْواً شِدَّةُ السَّغَبِ
لِذَا ارْتَضَى النَّاسُ مِثْلِي لِمَدَارِسِهِمْ
إِذْ لَمْ يَرَوْا فِي جِهَاتِ الْقُطْرِ ذَا طَلَبِ
فَصِرْتُ عِنْدَهُمْ لِفَقْدِ سَادَتِنَا
فِي الْعِلْمِ رَأْساً وَكُنْتُ قَبْلُ كَالذَّنَبِ(294)

وهكذا ذهب الوباء بجهود عددَ من الأعلام ومدارسهم البارزة، غير أن مَراكز جديدة ما لبثت أن ظهرت محاولة استدراك ما ضاع إبانه، وبرز اسم تيمكَّدْشْتْ وإمي أُوكَشْتِيمْ بينها، يدرس بالأول الميمونيون التِّمكِّدَشْتيُّون،(295) ويعلم بالثاني الجَشْتيميُّون التمليون(296) وكان لهذه المدارس الفضلَ في إحياء موات العلوم بسوسَ، فَازدَهرت المدارس وكثر الطلبة واستفاض طلب العلوم حتى عام 1345هـ لما حلت المسغبة الكبرى وأخلى الناس قراهم وهاجروا طلبا للقوت فأقفرت «... تلك النواحي وخصوصا المدارس التي كان معولها على ما تستفيده من القبائل، فلما أسنت الناس كادت المدارس تصبح بلقعا يبابا».(297) وحتى بعد انجلاء هذه المسغبة بقي الضعف ملازما للمدارس لقلة من يؤمها

293) مختصر طبقات الشعراني 4/ 45.
294) الساحلي عمل المتوكل - الكناش الثاني، ص : 13.
295) انظر تراجمهم بالمعسول 6/ 170 وما بعد.
296) انظر المرجع نفسه، ص : 7 وما بعد.
297) المعسول 12/ 184.

بانحشار «الناس عامة وخاصة إلى المدن لتعاطي التجارات والتعليمات بأنواعها، وظهرت في السوس الأقصى... آثار الخراب المحسوسة... فبذلك كله تأخرت في السوس الأقصى، وغيره من سائر الأقطار، أنواع العلوم، فإذا قبض عالم فلا يخلفه إلا جاهل أو تاجر».(298) واستمرت هذه الأحوال متفاقمة. فلم يبزغ فجر الاستقلال حتى كانت مدارس سوس تحتضر،(299) وقد عبر الشاعر البونعماني عن معاناتها أحسن تعبير بقوله : (الوافر) :

أُصَيْلاَتُ الْمَدَارِسِ مِنْ جِبَال
نَبُثُّكَ مَا نُعَانِي مِنْ نَسِيسِ
مَعَاهِدُ مَالِك وَأبي زِنَاد
وَأَحْمَدَ وَالْجُوَيْني وَالْعَجِيسِ
وَعَيَّاضٍ وَسَالِمٍ وَابْنِ زَلُّو
وَأحْوَذِي الْمَعَافِرَةِ الْهَمُوسِ
ظَلَلْنَ حَدَائِقاً غُلْباً وَدُوحاً
وَأَلْفَافاً تَبَاهَتْ بِالْعَرُوسِ
فَأَصْبَحَ رَوْضُهَا الْأُنُفُ الْمُسَلِّي
هَشِيمَ الآبِّ آل الَى الْيَبِيسِ
غَزَتْهَا مُحْدَثَاتُ الْعَصْرِ لَمَّا
رَأَتْهَا ذَاتَ تَارِيخٍ نَفِيسِ
وَلَيْسَ لَهَا اقْتِرَافُ الْجُرْمِ إلاَّ
تَأَثُّلُ مَجْدِهَا الْعَجِبِ الشَّمُوسِ
فَتِلْكَ مَنَاهِلٌ لِلْجِيلِ لَكِنْ
فَلَيْسَ لَنَا لَدَيْهَا مِنْ مَسِيسِ
لِتُوحِشَ بَعْدَ إينَاسٍ طُلُولٌ
تلم وَلَسْتَ تَسْمَعُ مِنْ حَسِيسِ(300)

ولعل خير مثال للتخلف الذي لحق الحركة التعليمية بسوس هو مدينة تارودانت التي اندثرت بها مجالس العلم أو كادت، وخربت مساجدها ومنعت أحباسها من ورود

298) المعسول 3/ 273.
299) انظر الساحلي – المعهد الإسلامي بتارودانت الجزء الأول والثاني.
300) الحسين أفا – شعر الحسن البونعماني جمع، دراسة وتحقيق. الديوان. ص : 437 .

مقاصدها بأداء أجور العلماء الأساتذة ومنح الطلبة القارئين،(301) ومن مظاهر هذا الإنحطاط.

* انقطاع الأحباس عن مساندة الحركة التعليمية، فبعد أن كانت مستفاداتها تصرف على العلماء والطلبة وأماكن التعليم، صارت تكنز وتنفق في غير ما حبست لأجله، فتدهور التعليم وأسف أصحابه لاقتراب انقراضه، فقام جماعة من علماء المدينة وطلبتها بكتابة رسالة إلى السلطان محمد بن يوسف يطلبون منه إصلاح الأحوال وإعادة حاضرة سوس إلى ما كنت عليه. ولا بأس أن نورد نص هذه الرسالة المخطوطة هنا رغم طولها :

«الحضرة المولوية والسدة الشريفة العلوية. شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، دولة من رفع للعلم ميراث جده عليه السلام منارا وأفاض سجال عطاياه على العلماء، الجناب العالي بالله دام عزه وعلاه، الملك الهمام المؤيد أبا عبد الله سيدنا ومولانا محمد بن سيدنا ومولانا يوسف بن سيدنا ومولانا الحسن المقتفين خير منن.

سلام طيب مبارك على تلك الحضرة العلية ورحمة الله وبركاته تعم الأعتاب الزكية، ننهي لشريف علم سيدنا، أعز الله أمره وأعلى في فلك المجد قدره، أن تارودانت حاضرة هذه الأصقاع السوسية المنكودة الحظ التي طالما أخنى عليها الدهر بكلكله، وأجلب عليها بخيله ورجله، اندثر فيها - ولا حول ولا قوة إلا بالله - نشر العلم والتدريس، وانطمست أعلامه. فهو الآن يجود بنفسه الأخير النفيس. إن لم يتداركه سيدنا بوابل صلاته، ويلفت له النظر بغزير عطياته، صار - لا قدر الله - في خبر كان، واستحوذ الجهَل على النشء، فيذهب مستقبل الأمة ضحية الخسران وغير خاف على سيدنا حفظه الله - والتاريخ أصدق شاهد، ولا ينبئك مثل خبير - ما كان لملوك المغرب من الاعتناء التام بشأن هذه المدينة المسكينة المنحوسة السعد، خصوصا ما يتعلق منها بالعلوم، فلقد كانت جوامعها ومساجدها ومدارسها أيام حكومة أسلاف سيدنا ومن قبلهم من ولاة الأمر تضاهي كلية القرويين. ومنهلا يروي جميع العطاش الواردين. والعلماء فيها متوافرون، والطلبة إليها من كل حدب ينسلون، وأسواق العلوم نافقة، وأنواع البر على العلماء من الملوك متدفقة، لكل عالم مرتب يكفيه - على حسب معلوماته - من الأحباس، ورياض المعارف إذ ذاك عطرة الأنفاس، عم الجميع نوال السلطان والكل مغمور برداء الإحسان، هذه كانت سيرة أولئك العظام مع علماء هذه المدينة حفظها لهم التاريخ، وسجلها بين صفحاته، وما ذلك على همة ملكنا المفدى بعزيز.

301) انظر حول ذلك خلال جزولة 4/ 150.

ولما كانت الأم، مع عظيم شفقتها وغاية حنوها على ولدها، لا ترضعه ما دام ساكتا، وكان سيدنا سدده الله أعظم شفقة ورحمة منها، ونحن عجزة لا يجمل بنا السكوت ولا يزيدنا إلا إهمالا، قدمنا طلبنا هذا لحضرته، ورفعنا إليه شكوانا معشر علماء تارودانت، أن يلفت نظره السعيد نحونا، بتعيين رواتب العلماء وإعانة الطلبة طبق عادة أسلاف سيدنا ومن تقدمهم من السلاطين، مع ما كان عليه أمر الأحباس إذا ذاك من القلة وعدم الإنضباط. أما اليوم، والحمد لله، فأحباس المدينة بفضل ما أدخلت عليها الإدارة العليا من الإصلاحات والتنظيمات، لا يزداد وفرها إلا كثرة فشكرا لرجالها العاملين المخلصين.

هذا طلبنا ومرغوبنا قدمناه للأعتاب الشريفة، في سيدنا وفقه الله، جميل، أن يتلقاه بحسن القَبول وحاشا أن يخيب قاصده، وهو البحر لا تفني الدلاء مدده، فإنه لا بلاغ إلا بالله ثم بالمقام السامي بالله.

فحالة مدينتنا اليوم تفتت الأكباد، ويرثي لها بنو نوع الإنسان، وتخجل الأقلام عن تسطيرها، إذا أصبحت مشرفة على الزوال، قريبة الاضمحلال، انقطع فيها تعليم العلم بل - عياذا بالله - حتى القرآن، وتوالت سنون القحط على هذا القطر البئيس وأذهل أفكار العلماء والطلبة الشجاعة، وعادت بعد وصفها السابق بلقعاً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالْأَمْس،(*) فعلى أي حالة يشب النشء والأولاد إن لم ينقذهم سيدنا من هذه الورطة، ثم بَأي دينَ إن تعموا يتدينون، وإلى أي غاية إن دمنا على الضنك في العيش نحن سائرون.

فعطفا أيها الأمير وحنانيك يا ابن الرسول ورحماك بيت الكرم والجود فإنما نحن ورثة جدك الرسول عليه السلام، باسطين أكف الضراعة والإبتهال للجناب المولوي، اللهم أصلح وسدد وأعن سيدنا على ماوليته من أمور عبادك، ومهد له أتم التمهيد في أقطار بلادك، إنك يا مولانا على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير، وبتاريخ 21 شوال عام 1349هـ موافق 11 سنة 1931م.(302) علماء تارودانت وطلبتها أجرهم الله عنه».(303)

* ظهور آثار الخراب على أعرق مؤسسة تعليمية بالمدينة، مسجد الجامع الكبير الذي ضم، منذ تجديده وتوسيعه على عهد السعديين، مجالس العلوم ومجامع الطلبة فلم تمتد إليه يد الإصلاح منذ ترميمات السلطان الرشيد، كما مر، فظهرت عليه آثار الخراب بانشقاق جدرانه وتشعثه، وعدم الإهتمام بإصلاحه،(304) وقد عبر القاضي أحمد سكيرج،(305) عن أسفه لهذا الوضع حينما وقف على الجامع إبان رحلته إلى سوس بقوله :(الكامل)

---

*) 24 سورة يونس.
302) كذا بدون ذكر الشهر، وهو شهر مارس.
303) نسخة مصورة عرضت برواق باب الزركان بتارودانت. 3 مارس 1993/ 9رمضان 1413هـ.
304) انظر خلال جزولة 4/ 148.
305) انظر ترجمته في الشعر الوطني في عهد الحماية، ص : 237 وما بعد.

وَدَخَلْتُ جَامِعَهَا الْكَبِيرَ فَهَالَنِي
لَمَّا رَأَيْتُ دَعَائِمَ الْحِيطَان
وَتَشَابُكَ الْخُشُبِ الَّتِي بِسُقُوفِهِ
وَشُقُوقَهُ مِنْ سَائِرِ الْأَرْكَان
قَدْ غَيَّرَتْهُ يَدٌ تَظُنُّ بِأَنَّهَا
قَدْ أَصْلَحَتْ مَا فِيهِ مِنْ بُنْيَان
يَا لَيْتَهَا هَدَّمَتْهُ حَتَّى لَمْ يَضِعْ
مَالٌ بِهِ صَرَفَتْهُ فِي خُسْرَان
لاَ سِيَّمَا وَقَدِ اسْتَحَالَ لِصُورَةٍ
شَوْهَاءَ بَعْدَ جَمَالِهَا الْفَتَّان(306)

وقبل غروب شمس التعليم العربي في سوس أواسط القرن الرابع عشر الهجري شهد عهد الدولة العلوية ظهور عدة مراكز تعليمية جديدة في مختلف مناطق سوس نذكر منها :

*** في قبيلة هشتوكة :**

1 - مدرسة حمى الصوابي بماسة : حيث نزل أحمد بن عبد الله الصوابي بعد عودته من الزاوية الناصرية بتامكَروت مجازا من قبل شيخه أحمد بن محمد بن ناصر،(307) وكان محبا للتعليم مفنيا عمره فيه فبنت له قبيلة ماسة مدرسته التي استقر بها «...على ساق الجد في تدريس العلوم يعلم الناس دين الله صغارهم وكبارهم، وليس عنده أشهى وألذ من تعلمها وتعليمها للصغار...»،(308) حتى توفي عام 1149هـ.(309)

*** في قبيلة إنْدُوزَالْ :**

2 - مدرسة إكْبيلْنْ : بقرية القصبة تأسست على يد محمد بن علي الهوزالي حوالي عام 1111هـ(310) بعد عودته من تامكَروت آخذا عن الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر، فتصدر للتدريس بها وإرشاد العامة وتلقين الأوراد وقد اشتهر بمؤلفاته الأمازيغية وترجماته لبعض كتب الفقه المالكي والمواعظ.(311)

306) تاج الرؤوس بالتفسح في نواحي سوس، ص : 42-43.
307) انظر إجازاته بخلال جزولة 4/ 39.
308) رحلة الحضيكي، ص : 2.
309) المصدر نفسه، ص : 4.
310) الساحلي المدارس العلمية... 4/ 59.
311) انظر الحوض تحقيق : عبد الله بن محمد الجشتيمي الرحماني، ص : 15 وما بعد.

* قبيلة إدَا وبْعَقْيلْ :

3 – مدرسة توَمانار التازروالتيّة : حيث درس أبناء الأسرة العباسية المتأخرون بعد أن ملأ آباؤهم تارودانت وإيليغ علما ومعرفة،(312) ولعل أول من عرف بالتدريس بتومانار العلامة محمد العباسي (توفي 1144هـ)،(313) صاحب النوازل العباسية المشهورة، وصفه تلميذه الحضيكَي، فقال : «أفنى رحمه الله عمره في التدريس، وأعطى نهاره لطلبة العلم ولا ترى في بلاده متفقها ولا مدرسا إلا وهو تلميذه، ولقد نشر الفقه، رحمه الله تعالى، في بلاده وله عليهم منة ويد طولى».(314)

* قبيلة إنْدَاوْزَالْ :

4 – مدرسة إمي وَّادَيْ : بناها الشيخ إبراهيم بن عبد الله التَّغَرْغَرْتي(315) واشتهرت بابنه عبد الرحمانَ بن إبراهيم الذي تفرغ للتدريس بها حتى توفي عن سن عالية تناهز التسعين عام 1277هـ.(316)

5 – زاوية سَاوْلاَلاَ بإدَلْسْ : حيث استقر حفيد عبد الله بن عبد الرزاق بُورَزْكْ المذكور من قبل،(317) وهو علي بن سعيد الشريف البورزكَي، وصفه التْغرغرتي، فقال : «...كان عالما من علماء المسلمين ومن عباد الله الصالحين، زاهدا ناسكا جوادا مجاهدا في تعليم العلوم الشرعية، والإنفاق على طلبته من خالص ماله مدة حياته».(318)

6 – مدرسة أكَشْتيمْ : وهي غير مدرسة إمي أوكَشتيم التّملية. استقر بها الشيخ المجاهد محمد بن عبد الرحمان الأوداَشتي، قرأ بفاس عن شيوخها كالبناني ومعاصريه، وعن كبار علماء سوس كالحضيكَي ومحمد بن إبراهيم التاكوشتي، لازم مدرسته حتى وفاته عام 1191هـ.(319)

7 – مدرسة تيريت بأيت حميد : لا يعرف تاريخ تأسيسها، إلا أنه شهدت في هذه المرحلة تفرغ بعض أبناء الأسرة الأوداشتية للتعليم، ومنهم أحمد بن الحاج الأوداشتي المتخرج بأحمد التمكَدشتي وابنه الحسن.(320)

---

312) سوس العالمة ص : 162.
313) المعسول 18/ 413.
314) رحلة الحضيكَي، ص : 7.
315) الساحلي – المدارس العلمية.. 4/ 65 والمعسول 18/ 221 وخلال جزولة 3/ 172.
316) مختصر طبقات الشعراني 4/ 48 هامش 1، وفي المعسول 18/ 224 أنه توفي عام 1278هـ وفي رجالات العلم العربي ص : 219 أنه توفي عام 1279.
317) انظر المبحث الثالث من هذا المدخل.
318) مختصر طبقات الشعراني 4/ 43.
319) المصدر نفسه، ص 19.
320) المعسول 18/ 236-237.

* **قبيلة مَسْكِّينَة :**

8 - حصن المنكب (أكَادير إيغير) : المركز الساحلي المعروف بكونه محلا لنزول الجيوش المرابطة لأجل صد أطماع النصارى في العهد السعدي، وقد ذكر التمنارتي مرابطته هناك عام 1010هـ(321) ويبدو أن توافد الطلبة والعلماء على هذا الحصن استمر حتى القرن الثاني عشر الهجري، إذ ذكر الحضيكَي أن شيخه أحمد بن عبد الله الصوابي قرأ «... العقائد على بعض من عرف بها بحصن المنكب...».(322)

9 - مدرسة إيغيلاَلْنْ : بناها القارىء يحيى بن سعيد الهلالي المسكَيني بإذن أستاذه الشيخ محمدَ بن أحمد الحضيكَي، وكان استقراره أول مقدمه بمسجد قرية تيغْجْدْنْ قرب إيغيلالن ثم بنى المدرسة وتفرغ للتدريس بها حتى عام 1205هـ سنة وفاته.(323)

* **قبيلة إيغشان :**

10 - مدرسة أكْني إيكَدْمَانْ : بنيت بمبادرة أحفاد يعقوب بن إبراهيم الإيغشاني أوائل القرن الثاني عشر الهَجري،(224) وهما الفقيهان العالمان محمد بن علي وسعيد بن علي. أسساها بجوار مدفن أمهما ودرسا فيها الفنون والعلوم، وكانت صغيرة فوسعها الرئيس إبراهيم الإيغشاني حوالي عام 1329هـ.(325)

* **قبيلة رسموكة :**

11 - مدرسة دُودْرَارْ المحجوبية : استقرت بهذه القرية أسرة آل المحجوب الكُدسيِّين الرسموكيين(326) منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري وأول عالم معروف منهم محمد بن مبارك صاحب شرح الأجرومية وهو من أصحاب الشيخ الحضيكَي ومن تلاميذ العباسي، ويدل شرحه المذكور على معاناة التعليم، وربما يكون أول مدرس بمدرسة أهله وقد توفي أواخر الثاني عشر.(327)

---

321) الساحلي - المدارس العلمية... 4/ 65 والمعسول 18/ 221 وخلال جزولة 3/ 172.
322) الفوائد الجمة، ص : 380 .
323) خلال جزولة 4/ 67. وعبد الرحمان الجشتيمي - الحضيكَيون، ص: 48.
324) ذكر الساحلي أنها بنيت عام 1208هـ، وليس ذلك بشيء انظر المعسول 3/ 209 والمدارس العلمية... 4/ 189.
325) المعسول 3/ 209 وقد ذكر العم إبراهيم رحمه الله أن المدرسة بمدشر أنامر.
326) انظر حولها سوس العالمة، ص : 132.
327) المعسول 14/ 14 وما بعد.

* قبيلة إيزنّاكنْ (صنهاجة) :

12 - زاوية الرّحمة والأمان بقرية أمَانْ مَلُّولْنينْ : أسسها العلامة الشيخ حسين بن محمد الشرحبيلي أخذ عن الشيخ أحمد بن محمَد بن ناصر الدرعي بتامكروت، ثم إلى فاس حيث عمق معرفته، ثم عاد إلى سوس، فاستقر بهذه القرية وبنى بها زاويته حوالي عام 1139هـ متفرغا للتعليم وتلقين الأوراد حتى توفي عام 1142هـ.(328)

* قبيلة أمَّلن :

13 - مدرسة تهالة الحديثة : بناها العلامة عبد الله بن إبراهيم اليوفتركائي نحو عام 1290هـ ودرس بها مدة ثم تداولها بعده عدد من العلماء، وقد توفي عام 1314هـ.(329)

14 ـ مدرسة تافراوت : كانت في الأصل مسجدا ثم حولت إلى مدرسة عام 1262هـ بمبادرة القبيلة وكان أول من شاوط بها محمد بن أحمد الدّويَمْلاَلْني.(330)

* قبيلة الأخصاص :

15 - مدرسة علي بن سعيد : بنيت بمبادرة الصوفي الصالح مبارك البصير (توفي 1327هـ) عام 1292هـ،(331) قال المختار السوسي : «.... وهو الذي وقف حتى بنيت مدرسة سيدي علي بن سعيد الأخصاصية... ولم تكن هناك قبله مدرسة، فقد كان لكل أفخاد الأخصاص مدارس سوى أيت بوياسين فجمعهم يوما فصاروا يتعهدون له ببناء المدرسة».(332)

* قبيلة إيسي :

16 - مدرَسة أفيلال الحضيكَية : مؤسسها هو العلامة الشيخ محمد بن أحمد الحضيكَي(333) أحد كبار علماء سوس أخذ عنه عدد كبير من الطلبة والفقهاء والعلماء، حتى قل من لم يأخذ عنه أو عن أحد تلامذته، فكان من الذي بعثت بهم حركة التعليم بسوس لولا أن تلقاها وباء عام 1214هـ فأردى ثمرتها.(334)

328) المعسول 18/ 238 وما بعد، والحضيكَيون، ص : 53. ومادة زاوية الرحمة والأمان، معلمة المغرب 13 / 4313.
329) سوس العالمة، ص : 160، ومدارس سوس العتيقة، ص : 107.
330) المعسول 17/ 26.
331) المعسول 12/ 98.
332) المرجع نفسه.
333) ترجم لنفسه في رحلته الحجازية ص : 1 وما بعد وإجازته للتسكداتي وانظر أيضا الحضيكَيون ص : 1 وما بعد والمعسول 11/ 297.
334) انظر ما سبق في بداية هذا المبحث.

17 - مدرسة تيمكِّدْشْتْ : وارثة الحضيكية، كما قال العلامة المختار،(335) أسسها أحمد بن محمد الميموني (توفي 1274هـ)،(336) بعد أن نزل تيمكدشت بإيعاز من شيخه محمد بن عبد الكريم الشريف الحاحي الوايبغدي،(337) ثم توالى عليها أبناؤه حتى غدت من أكبر المدارس السوسية لاتدانيها إلا مدرسة إمي أكشتيم.

* قبيلة إيلالن :

18 - مدرسة تَالاَتْ أُكْنَارْ : ظهرت بين المراكز العلمية بفضل أسرة جعفرية النسب(338) وأول علمائها المعروفين علي بن سعيد الهلالي وربما يكون مؤسس المدرسة، أخذ عن كبار علماء وقته وعلى رأسهم الشيخ الحضيكي،(339) ثم تفرغ للتدريس ببلده وأخذ عنه كثير من الطلبة منهم عبد الرحمان الجشتيمي وأحمد بن محمد الميموني التمكدشتي توفي عام 1225هـ.(340)

19 - مدرسة سيدي مْزَالْ : بأيت تيفاوت بنيت عام 1140هـ(341) قرب ضريح أحمد بن محمد مزال المعروف بأبي درقة وهو إدريسي النسب من أهل القرن الثامن الهجري.(342)

20 - مدرسة إيرْغْ : بإدَاوكْنضيفْ بناها العلامة عمر بن عبد العزيز الكَرسيفي الذي انتقل من أكَرسيف بأمانوز إلى إيَرْغ،(343) أخذ عن الشيخ الحضيكي وعن غيره،(344) تصدر للتدريس وبث العلوم في مدرسته حتى توفي بالوباء عام 1214هـ.(345)

* قبيلة إدَا وْسَمْلاَلْ :

21 - مدرسة تَعَزَّى السّملالية : بنيت حوالي 1350،(346) بجوار مشهد السيدة الصالحة تعزى بنت محمد بن علي الوكَاكَي (توفي : 1059هـ) وينتهي نسبها إلى وكَاكَ بن زلو اللمطي.(347)

---

335) سوس العالمة، ص :162.
336) المعسول 6/ 182.
337) المعسول 6/ 238 ومختصر طبقات الشعراني 4/ 34.
338) انظر حولها سوس العالمة. ص : 147.
339) انظر المعسول 9/ 276.
340) الحضيكيون، ص : 44، وسوس العالمة ص : 163.
341) الساحلي - المدارس العلمية... 4/ 70.
342) عبد الله بن محمد المؤذن البودرقاوي، أنساب شرفاء أيت بودرقة، ص : 1.
343) المعسول 3/ 336.
344) المعسول 17/ 78.
345) الحضيكيون، ص : 46 - 47.
346) الساحلي - المدارس العلمية... 4/ 122.
347) المعسول 11/ 51.

* قبيلة أكَلو :

22- مدرسة إكْرَارْ : نزلت بإكَرار أسرة ينتهي نسبها إلى العلامة الكبير أحمد بن عبد الرحمان الْمَسْكْدَادي التِّيزَرْكيني(348) «وأول نازل منهم هناك محمد بن عبد الرحمان الإكَراري الذي كان يدرس العلوم حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجري حين توفي بالوباء عام 1214هـ».(349)

* قبيلة إدَاوْتَنَانْ :

23 - مدرسة ألْمَا : وأصلها مسجد صغير بمدشر ألما، حوّله الفقيه محمد بن علي بوعزّا الوَرْيالي التناني إلى مدرسة في العقد السابع من القرن الثالث عشر الهجري،(350) ثم التحق بها العلامة أحمد الكَشْطي ودرس بها حتى وفاته نحو عام 1376هـ.(351)

* قبيلة أرْغَنْ (هرغة) :

24 - مدرسة الجامع الكبير بإيرَزَانْ، وهي من بنات المدرسة التمكدشتية أسسها الشيخ أحمد بن محمد التمكَدشتي قبل عام 1270هـ(352) ثم أرسل إليها تلميذه الحسن بن أحمد التملي فلزمها مكبا على التعليم.

25 - مدرسة أيت إمَّلْ أسسها الحسن بن أحمد التملي سنة 1280 ولازم التدريس بها حتى وفاته سنة 1308هـ.(353)

* قبيلة أولاد يحيى قرب تارودانت :

26 - مدرسة الرَّكَادَة : بنيت أوائل القرن الرابع عشر الهجري (نحو 1300هـ(354) ولا يعرف أي شيء عن الأساتذة المارين بها.

27 - مدرسة أولاد تَرْنَهْ : بنيت حوالي عام 1143هـ، أو قبلها حسبما جاء في وثيقة صدقة للمدرسة يرجع تاريخها إلى هذا العام،(355) وهي مثل سابقتها في ضياع الأخبار.

---

348) انظر حول هذه الأسرة سوس العالمة، ص : 130.

349) المعسول 13/ 303 وما بعد.

350) الساحلي - المدارس العلمية... 4/ 75.

351) المعسول 15/ 90-91 وسوس العالمة، ص : 167.

352) مدارس سوس العتيقة، ص : 129 وقارن بما عند الساحلي 4/ 35.

353) المعسول 19/ 55 وذكر الساحلي أن المدرسة بنيت نحو 1285هـ وليس ذلك بشيء فقد بلغت في هذا التاريخ أوجها.

354) الساحلي - المدارس العلمية... 4/ 53.

355) المرجع نفسه، ص : 54.

* قبيلة أيت وَافْقَا :

28 - مدرسة أيت وافقا : أسسها بعض أبناء القبيلة من قرية دُوتْمَنْرُوتْ عام 1212هـ(356) وربما كانت أقدم من ذلك، وأول من درس بها على ما يظهر العلامة عبد الله بن محمد الكَرسيفي (توفي بعد 1260هـ).(357)

* قبيلة أيت أُومْرِيبْطْ :

29 - مدرسة أقَّا إيزُنْكَاضْ : غير بعيد عن أقا، درست بها أسرة الولتيّين،(358) وأبرزهم محمد بن أحمد الولتي، رحل لطلب العلم فأخذ عن أحمد بن محمد الأسّاوي،(359) ومحمد بن محمد بن زكرياء الولتي،(360) ومحمد بن أحمد التسكاتي،(361) ثم عاد إلى مسقط رأسه للتدريس والإفادة وكان له بالحديث وبعلومه ولع كبير،(362) تتلمذ له كثير من الطلبة وتوفي عام 1260هـ.(363)

هذه بعض المدارس التي وقفنا على ما يدل على تاريخ بنائها أو توصلنا إلى ذلك بالترجيح. ومن المعلوم أن هناك عشرات فعشرات من المدارس التي يجهل تاريخ بنائها والعلماء المارين بها تدريسا، وما ذلك إلا بسبب عدم الاعتناء بالتقييد.

ومن خلال كل ما سبق من مباحث نخلص إلى أن القرن الخامس الهجري شهد ظهور أول مدرسة علمية بسوس، فكان ذلك انطلاق انتظام التعليم العربي بعد استقرار الإسلام بالمنطقة، وظهور الرباطات ثمرة للصراعات بين المذاهب والنحل. ومع مرور الزمن تكاثرت المدارس والمراكز التعليمية حتى أضحت تؤسس بمبادرة القبائل منذ القرنين الثاني والتاسع، ثم انتشرت انتشارا واسعا في عهد السعديين الذين فتحوا أبواب المناصب المخزنية أمام طلبة سوس، فشملت حركة التعليم كل المنطقة. وقد واجهت عدة معوقات من فتن وحروب وأوبئة، ذهب ضحيتها العلماء والفقهاء إلا أنها بقيت صامدة حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري فصار سوس، كما قال العلامة السوسي : «دب إليه الفتور العام الذي دب إلى جميع المغرب، بعدما ولى صدر هذا القرن بعد 1311هـ فلم يصل 1330هـ حتى تضاءلت المدارس جدا وضعفت الهمم ضعفا عظيما، ثم جاءت أهوال يعرفها كل أحد من

356) الساحلي - المدارس العيمة... ص : 179.
357) المعسول 17/ 200 وانظر أحمد التجاجتي، مآثر السلف ومفاخر الخلف، ص : 24 وما بعد.
358) سوس العالمة، ص : 149.
359) انظر ترجمته في مختصر طبقات الشعراني 4/ 2.
360) المرجع نفسه، ص : 16.
361) انظر خلال جزولة 4/ 41.
362) انظر المرجع السابق، ص : 22.
363) نفسه.

جراء الاحتلال، زلزلت القلوب، فلم يكد يصل 1345هـ حتى قلت جدا المدارس العامرة، ثم جاءت المسغبة التي وقعت في هذه السنة وفي التي بعدها فأتت على الباقي، فانقضى كل شيء، وقدر مع ذلك وفاة كبار العلماء، ثم سرى ما سرى في كل أطوار الحياة المغربية، فتأثرت مجالس دراسة العلوم غاية التأثر، فلم تدخل سنوات 1350هـ حتى لا تكاد تجد مدرسة عامرة العمارة المعهودة، فلا ترى إلا البعض يكون فيها عشرة إلى عشرين، أو أدون من عشرة... وقد أقفلت أبواب الدراسة الجدية، ولا يرابط الأساتذة اليوم غالبا في المدارس، ولا الطلبة الذين معهم إلا للمعاش فقط، وقد يمضي أسبوع فشهر من غير معاطاة دوررس [فصار الأستاذ بالمدرسة].. بمنزلة الناطور للبستان يحرس سقوف المدرسة وأبوابها لئلا تمد إليها الأيدي».(364)

هكذا كان حال التعليم الأصيل في عهد الحماية، ثم لما جاء عهد الاستقلال - وكانت جمعية علماء سوس قد أسست من قبل وسعت لإصلاح المدارس العلمية - انطلق العمل منذ الأيام الأولى لعودة السلطان محمد الخامس، إذ وفد عليه علماء سوس مهنئين عارضين مطالبهم ومن أبرزها إصلاح التعليم العتيق والعناية بمدارسه.(365)

وقد انطلقت جهود جمعية علماء سوس في عدة محاور إلا أن أبرز منجزاتها تأسيس المعهد الإسلامي بتارودانت وفروعه الكثيرة في مختلف مدن المغرب وقراه، وتمكين طائفة كبيرة من حفاظ القرآن الكريم وطلبة المدارس العلمية العتيقة من الالتحاق به وتحصيل الشهادات الرسمية منه.(366)

أما المدارس العلمية العتيقة فقد بقيت على حالها من الإهمال والتهميش حتى أوائل القرن الخامس عشر للهجرة حين بدأت في سوس والمغرب عامة موجة من العناية بالمساجد والمدارس العتيقة إصلاحا لمبانيها واعتناء بأساتذتها وطلبتها وقد أسهم في ذلك المحسنون بطريقة مباشرة أو في إطار الجمعيات المحلية، كما عاد الاهتمام إلى هذه المؤسسات العلمية بفضل جهود طائفة من العلماء المدرسين الذين رابطوا بها وبفضل خريجيها المتميزين الذين برزوا في مهام الإمامة والخطابة والتدريس تلك المهام التي لم يستطع خريجو مؤسسات التعليم الرسمي الوفاء بها بسبب طبيعة تكوينهم وطبيعة مؤسساتهم في انقطاعها عن المجتمع وحاجاته الوجدانية والنفسية والدينية.(367)

---

364) سوس العالمة، ص : 57 - 58.

365) أنظر المعهد الإسلامي، 1/ 31 ومنجزات جمعية علماء سوس في عهد محمد الخامس ص : 14 ـ 15.

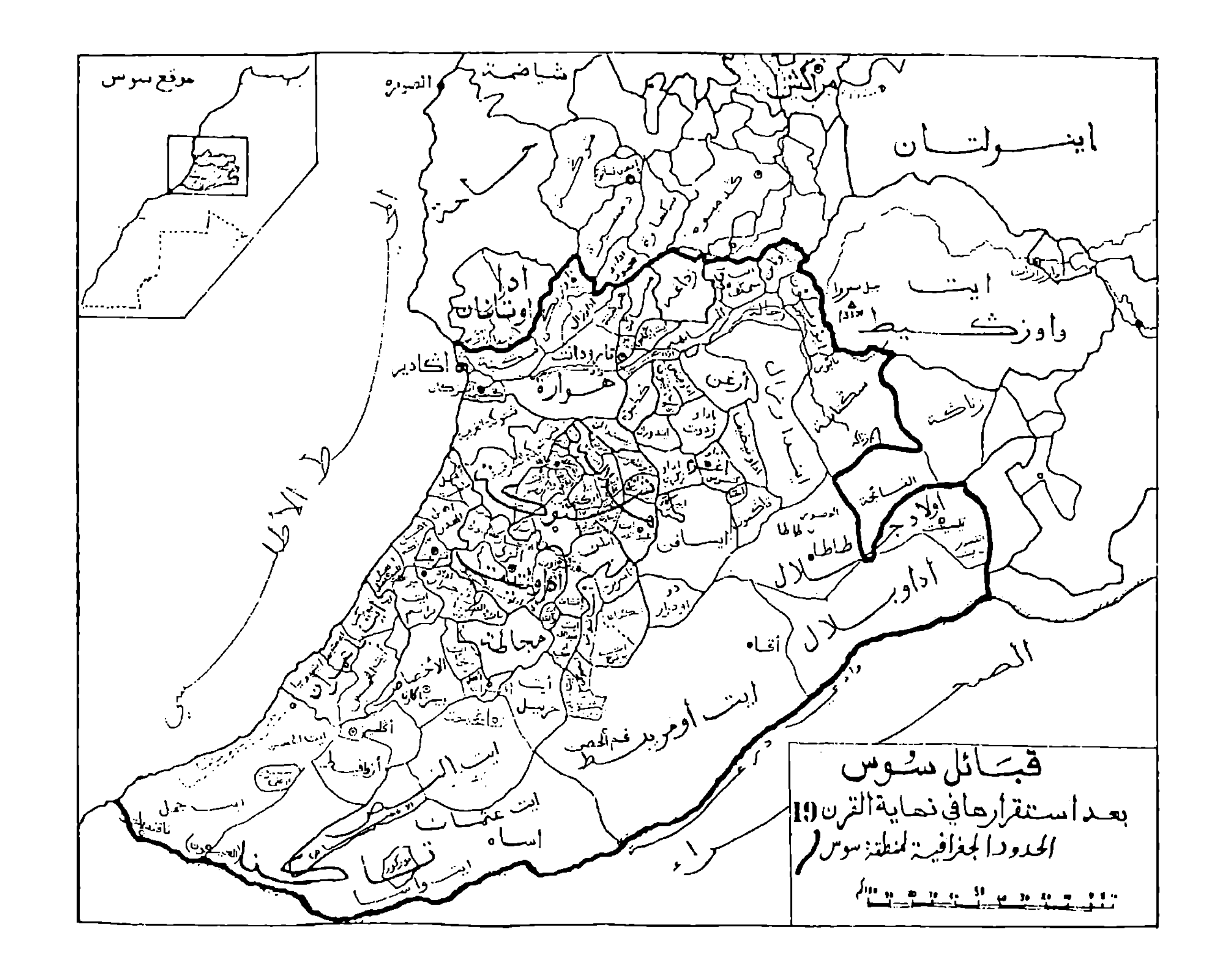
366) انظر المعهد الإسلامي الجزءان 1 و 2.

367) التراث التربوي والإداري للمدارس العلمية الأصلية ومستقبل التعليم بالمغرب، المهدي بن محمد السعيدي، ملحق الفكر الإسلامي لجريدة العلم، عدد 17885 السنة 53، الجمعة 20 محرم 1420 موافق 7 ماي 1999

هكذا فرضت المدارس العلمية العتيقة نفسها من جديد بفضل ارتباطها بالمجتمع وحاجته الشديدة إليها وبفضل جد أساتذتها واجتهادهم وصبرهم وبفضل تميز خريجيها وتفوقهم، ومشاركتهم إلى جانب مؤلفين وباحثين آخرين(368) في إبراز أهمية هذه المدارس، والتفكير في دعمها وتطويرها دون الإخلال بسماتها الخاصة مثل كونها مؤسسات شعبية ومدارس علمية شرعية وقرآنية ومراكز تربوية خلقية، لأن هذه السمات الخاصة هي أساس وجودها، وسبيلها للحفاظ على القيم الإسلامية والشخصية العلمية المغربية المتميزة بانفتاحها على المجتمع وخدمته والحفاظ على وحدته وتماسكه وتشبته بالعقيدة وقيم الأصالة في مواجهة عواصف العولمة العاتية.(369)

368) ظهرت مؤخرا كتب ومؤلفات كثيرة حول المدارس العلمية العتيقة نذكر منها : مآثر السلف ومفاخر السلف لأحمد يحيي التجاجتي ومنار السعود عن تافراوت المولود ومدرستها العتيقة لمحمد بومهاوت وإتحاف ذوي النظر بسيرة الشيخ يحيى بن عمر، له أيضا والمدارس العتيقة نظامها وأساتذتها لمحمد المختار السوسي والمدرسة الأولى لصالح بن عبد الله الصالحي الإلغي وإطلالة تعريفية على المدرسة النضيفية للحسين أيت بو الحسن السكتاني...

369) خريجو المدارس العلمية العتيقة والآفاق المستقبلية، المهدي بن محمد السعيدي، ص : 63، ضمن المدارس العلمية العتيقة وآفاق إدماجها في واقعها المعاصر منشورات جمعية أدوز 1996.


قبائل سوس
بعد استقرارها في نهاية القرن 19
الحدود الجغرافية لمنطقة سوس
موقع سوس
اينولتان
مراكش
شياضمة
الصويرة
حاحة
ادا وتنان
أكادير
هوارة
تارودانت
أرغن
ايت واوزكيط
زناكة
اولاد جرار
أداو بلال
طاطا
أقاه
ايت أومريبد
هشتوكة
اساكا
ايت عمان
ايت بعمران
أكلو
أقا
الصحراء
المحيط الأطلسي

تـمـهـيـد :

عرفت قبيلة أيت عبد الله أوسعيد بالصلاح والمسكنة التي تصاحب المرابطة عادة. ورافقت هذا الصلاح أمية توارثها الآباء عن الأجداد، وكان أول فقيه في القبيلة هو سليمان بن محمد الإلغي (1130 - 1199هـ) من الجيل الثالث،(1) لكنه اقتصر في حياته على قسمة التركات والفصل بين الخصوم ولم يتجاوزها إلى التدريس، ولعل ذلك راجع إلى قلة معلوماته «يتبين ذلك من ثنايا عباراته المهلهلة التي يتعثر فيها اليراع عثرة بعد عثرة، وأما منزلته في عصره، فهي منزلة متوسطة لأنه لا يدلي... لا بالإفتاء ولا بالتدريس...».(2) وهكذا كان فقهاء القبيلة بعده.

لقد كان محمد بن عبد الله بن صالح أول من تصدر من أبناء القبيلة لنشر ما اكتسب من معارف بين أهله بالخصوص. وجعل من قرية دوكادير مركز إشعاع علمي وأدبي، بفضل تأسيس المدرسة الإلغية. وبذلك فتح لإلغ والإلغيين آفاقا علمية تحولت بفضلها القبيلة السعيدية من جماعة أمية مستكينة. اشتهرت بالصلاح، إلى مجتمع من الفقهاء والعلماء والأدباء، يسعى إليهم أبناء القبائل ليتتلمذوا على أيديهم، حتى إذا ارتدوا إلى مواطنهم صاروا منائر للعلم والمعرفة. فكان أن انتشر إشعاع هذه المدرسة المتواضعة الحديثة العهد إلى جميع أنحاء سوس، حتى زاحمت المدارس العتيقة الشهيرة، بل تجاوز هذا الإشعاع سوس إلى الحواضر المغربية الكبرى كمراكش وفاس ومكناس والرباط والجديدة...(3)

---

1) انظر المعسول 1/ 138.
2) نفسه، ص : 139.
3) انظر الفصل الثالث من الباب الثالث.

المبحث الأول – أصله :

ينتسب محمد بن عبد الله الإلغي إلى الفرع الصالحي من الجذم الأحمدي نسبة إلى أحمد بن عبد الله بن سعيد لقبيلة أيت عبد الله أوسعيد، والذي استوطن قرية دوكادير إلغ وقد ساق المختار السوسي نسبه في المعسول كما يلي : محمد بن عبد الله بن صالح بن عبد الله بن صالح بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن سعيد.(4)

وحتى نتعرف عن قرب على أصله لابد أن نلقي نظرة مفصلة على هذه القبيلة التي ينتسب إليها وعلى تطورها منذ بدايتها.

نشأت قبيلة أيت عبد الله أوسعيد، وبالخصوص الجذم الأحمدي الذي استوطن منطقة إلغ،(5) منذ ما يزيد على ثلاثمائة سنة. وقد بدأت هذه القبيلة أسرة بسيطة، سرعان ما تحولت إلى جماعة كبيرة العدد بمرور الزمن وسنحاول التعرف فيما يلي على أهم مميزات هذا التجمع السكاني ذي الصبغة الدينية والوظيفة المرابطية.

أ – الأصل العرقي :

يتأسس الأصل العرقي لقبيلة أيت عبد الله أوسعيد على الاشتراك في الانتساب إلى جد واحد مشترك هو عبد الله بن سعيد بن حسين دفين أيمور والمتوفي بعد عام 1051هـ،(6) وهو من رجال أواخر القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر. وقد اختلف المؤرخون في أصله ونسبه، فقد نسبه الرسموكي(7) إلى قبيلة سموكَن وتابعه الحضيكَي،(8) وتشير روايات حفدته إلى أن أصله من تامدولت أقا.(9)

وقد ناقش العلامة محمد المختار السوسي هذه الأقوال، واستنتج أن عبد الله بن سعيد من تامدولت أقا، خرج منها أحد أجداده بعد خرابها أواخر القرن التاسع الهجري، وولد هو في قرية أكَادير نتبسيست في أحواز وادي سموكَن حوالي سنة 955هـ.(10) وهناك نشأ وشب ثم اتصل بالشيخ الصوفي يحيى بن عبد الله الركَراكَي بدُوِيْمَلاَلْنْ بقبيلة أمَّلْنْ

---

4) المعسول 1/ 160.

5) يخلط كثير من الباحثين بين بسيط إلغ ومنطقة إيليغ التي كانت منطلق إمارة أبي الحسن السملالي ومقر زاوية جده أحمد بن موسى، والواقعة شرق تيزنيت على بعد حوالي 65 كلم. ولعل تقارب الإسمين، ووقوع زاوية ومدرسة في كلا الموضعين، وقيام محمد المختار السوسي بدراسات عنهما سبب هذا الخلط، انظر معلمة المغرب 2/ 643 و652.

6) المعسول 1/ 80.

7) وفياته ص : 25.

8) الطبقات 224.

9) مدينة سوسية قديمة خربتها الحروب القبلية انظر خلال جزولة 3/ 86.

10) المعسول 1/ 102 وما بعد.

(توفي 999هـ)،(11) فتتلمذ له وتربى على يديه في الطريقة الصوفية، ثم انصرف بأمره للسكنى بأيمور بتهالة،(12) فأسس هناك زاوية لإرشاد الناس وتربية المريدين المنضافين إليه على نفس المبادئ التي تلقنها من شيخه سماعا، إذ كان أميا تعلم شؤون الدين وأصول التصوف دون أن يلم بالقراءة والكتابة، وذلك واضح من استنتاجات العلامة المختار السوسي بعد أن تفحص عددا من الوثائق الخاصة بالشيخ التهالي حيث قال :

«نعلم من هذه التحليات التي يحلى بها صاحب الترجمة في هذه الوثائق... أنه أمي لا يحفظ القرآن فضلا عن أن يلم بالعلوم لأن هؤلاء إنما يصفونه بالفقير المرابط، ولا يوصف بذلك على العادة إلا من كان له مقام في الصلاح... ثم ليس له من حفظ القرآن ولا من العلوم شيء وإلا فيوصف بالطالب إن حفظ القرآن لا غير أو بالعالم إن كانت معه علوم، هذه هي العادة المستمرة قلما تتخطى عند التحليات، فكون هؤلاء لا يصفون صاحب الترجمة إلا بالفقير المرابط الصوفي نتحقق به... من أنه أمي لم يشرف إلا بالصلاح فقط».(13)

وقد عرف الشيخ واشتهر بأعماله الإصلاحية التي اقتفى فيها أثر سلفه في التصوف محمد بن إبراهيم الشيخ التمنارتي،(14) حيث عكف على بناء النطفيات في القفار، وإصلاح الطرق، وإقامة المساجد والمدارس وذلك بمعية مريديه فشيد اثنتي عشرة نطفية(15) وبنى مسجد أيت بومريم، وأعان الفقيه سعيد بن الحسن الأوجويي(16) (توفي 1047هـ) على بناء مدرسته وخصص لها نصيبا من الحبوب يؤديه كل سنة لإعالة الطلبة والأساتذة،(17) وأغلب الظن أن هذه الحبوب من مداخيل زاويته بأيمور.

وعرف أيضا بسياحاته التي كان يطوف فيها البلاد «... بطائفة من مريديه لتعليم الدين، وإرشاد العباد، وإعلان كلمة التوحيد، والتزهيد في زهرة هذه الحياة الدنيا الفانية»،(18) بالإضافة إلى قيامه بالسعي في حاجات الناس وقضاء مآربهم حيث كان «يفزع إليه من كان

---

11) من أحفاد الركَراكيين الصوفيين الذين وفدوا على سوس من حاحة وأولهم عبد الرحمان بن عاصم. دفين تادارت وقد عرفوا بنشر الدين والاشتغال بالأذكار والقيام بالمصالح العامة. مناقب البعقيلي ص: 24 وانظر المعسول 5/ 307.

12) وفيات الرسموكي ص : 29 – 30.

13) المعسول 1/ 96.

14) من كبار الشيوخ السوسيين انظر ترجمته وأعماله في المعسول 7/ 5.

15) ذكرها العلامة المختار السوسي بتفصيل في المعسول 1/ 81 – 82.

16) انظر التعريف به في طبقات الحضيكي 587 .

17) المرجع السابق، ص : 96.

18) نفسه، ص : 9.

ملهوفا فيغيثه، ومكسورا فيجبره، ومن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته يداويه، ويصلح بين عامة الناس...».(19)

وقد نتج عن هذا النشاط الدائب للشيخ التهالي أن نمت شهرته إلى الجهات المخزنية التي كانت لها «نظرة خاصة إلى أمثال هؤلاء المتزنين بالصلاح والتصوف، فإن رجال الحكومة إذ ذاك ينظرون إليهم نظرا شزرا أدى بكثير منهم إلى أن يلاقي التنكيل والهوان...»(20) إلا أن الشيخ عبد الله بن سعيد لقي من المخزن السعدي ما لاقاه أشياخه الركَراكَيون حيث صدر له ظهير بالاحترام والتوقير عام 999هـ وجدد بظهير آخر عام 1007هـ،(21) ولعل هذا التقدير ناتج عن هذه الأعمال الإصلاحية التي قام بها الشيخ خاصة بناءه للنطفيات في القفار، ويذكر أحفاده أنه قد سقى بعض الملوك وجيشه الكثير من إحدى نطفياته، إذ قال : «... الملك لمن حضر : من يقدر أن يسقيني أنا وجيشي؟ فلم ينتدب أحد، فكرر ذلك فمثل بين يديه عبد الله بن سعيد وهو مشتمل برداء، فقال له : أنا أسقي الجميع، فقال له : أو تقدر على ذلك يا صاحب الشملة ؟ فقال له سترى، فمال بالجيش إلى نطفية له كان قبل بناها هناك فصار الجند يمر بها فيصدر ريا...».(22)

وقد علق العلامة المختار السوسي على هذه الرواية قائلا : «وما يدرينا لعل السلطان الذهبي نفسه هو الذي رأى منه تلك الكرامة في دْرَاوُوغْ... والسلطان الذهبي الذي نعرف من هو في التاريخ لا نظنه ممن يتنازل إلى احترام ذي زاوية من جديد، وإعلان تحريره ومحاشاته من بين أرباب الزوايا الذين سامهم ما سامهم، بعد أن سد هذا الباب وأحكم إجافته، إلا بباعث آخر جديد يحفزه، فلذلك نرى أنه صاحب هذه القصة أو الكرامة، وأنه هو الذي مر بمعطشة دْرَاوُوغْ حيث يتعرف به هناك الشيخ بما يحمله على أن يلتفت إليه التفاتا خاصا، وقد قرأنا في الوثيقة...(23) أن إلغ من منازل أحمد الذهبي إذ ذاك وقد مانه الوفقاويون والإيغشانيون والحربيليون، ولا يزال محل في بسيط إلغ يضاف إلى السلطان ويقال له إغَرْمْ أوكَـليدْ...».(24)

---

19) من شهادة طائفة من علماء المنطقة حول الشيخ عبدالله بن سعيد التهالي وعلى رأسهم أحمد بن علي بن إبراهيم التويتي وهي مؤرخة في رجب عام 1091هـ انظر المعسول 1/ 85.
20) المعسول 1/ 92.
21) انظر نصي هذين الظهيرين بالمعسول 1/ 84.
22) المعسول 1/ 81.
23) يقصد ديوان قبائل سوس الذي قيد فيه كل ما يتعلق برحلة المنصور الذهبي إلى سوس. وقد ذكر فيه نزوله بإلغ بين قبائل إداوككمار وأيت حربيل وإيغشان، انظر ديوان قبائل سوس تحقيق عمر أفا ص : 228، والمعسول 1/ 93.
24) المعسول 1/ 93.

ولا شك أن تقدير السلطان السعدي للشيخ عبد الله بن سعيد زاده احتراما عند مجاوريه، فصارت زاويته بأيمور قبلة القصاد والزوار يؤمونه للتبرك، وإلى ذلك أشار محمد بن أحمد المرابط البعقيلي في مناقبه بقوله : «المرابط الخير الدين سيدي عبد الله بن سعيد الساكن بموضع تهالة، فهو رجل صالح، تضرب إليه الرحلة للزيارة في بلدته».(25)

وقد عمر الشيخ حوالي مائة سنة وتوفي بعد عام 1051هـ وهذا يخالف ما ذكره الرسموكي حيث حدد تاريخ وفاته بيوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الثاني عام أربعين وألف،(26) وتابعه الحضيكي أيضا في ذلك،(27) وقد أورد العلامة محمد المختار السوسي رأي أستاذه عبد الله بن محمد الإلغي الذي خطأ الحضيكي متعللا باطلاعه على وثائق تشير إلى بقاء الشيخ حيا بعد عام 1051، وذلك في حاشية له على ترجمته في الطبقات حيث يعتبر أن «ما قاله الحضيكي رحمه الله في تاريخ وفاة سيدي عبد الله بن سعيد كذب محض لا شك فيه إن صح هذا النقل، فقد رأيت بعيني رسم تصيير سيدي عبد الله بن سعيد لزوجته خمس ماله مؤرخا بسبع وأربعين وألف، ورسم موافقة أولاده في ذلك مؤرخا بواحد وخمسين وألف...(28)

وقد ترك الشيخ أربعة أبناء ذكور هم :

محمد : (نحو 980هـ - نحو 1060هـ) الإبن البكر للشيخ، غادر مسقط رأسه أيمور بعد وفاة والده، واستوطن قرية أكادير إيزري جنوب غرب إلغ ثم قرية كاوْرْ حيث مدفنه.(29)

أحمد : (نحو 1000هـ - نحو 1080هـ) غادر هو الآخر مسقط رأسه ونزل قرية دوكَادير إلغ، ويستوطن أبناؤه أغلب بسيط إلغ، وانفردوا من بين أعمامهم بالزعامة الدينية والعلمية والسياسية.(30)

بلقاسم : وذريته قليلة، وتقطن قرية تيدْلي إيغشان بقبيلة إداو سملال، ويبدو أن بلقاسم غادر كذلك أيمور بعد وفاة والده واستقر بهذه القرية حيث مدفنه.(31)

موسى : بقي بمسقط رأسه أيمور حيث توفي بلاعقب عام 1098هـ.(32)

---

25) المعسول : 1 / 23 .
26) الوفيات ص : 25.
27) المناقب 2/ 224.
28) السوسي - المعسول 1/ 90.
29) نفسه ص : 121. وانظر أيضا : Jean CHAUMEIL p. 200
30) نفسه 1/ 117 .
31) نفسه.
32) المرجع السابق 1/ 112.

وكما يظهر، تفرق أبناء الشيخ في القبائل متباعدين بعضهم عن بعض بعد وفاة والدهم، وربما يكون هذا التباعد نتيجة لما يحصل عادة بين أمثالهم من منافسة على تركة والدهم التي هي الزاوية، فيكون تفرقهم أدعى إلى أن يؤسس كل واحد منهم زاويته الخاصة.

وقد تكونت قبيلة أيت عبد الله أوسعيد من ذرية الشيخ بعد تفرقهم في البلاد، غير أن هذا لا يعني كون كل المقيمين بمواطن القبيلة منتسبين إلى أصل واحد بل هناك مصدران آخران أمدا القبيلة وساهما في تكوينها.

الأول : يتكون من العناصر الأصيلة في المناطق التي تستوطنها ذرية الشيخ، مثل قرية دوكَادير التي يشكل الحربيليون أغلبية سكانها.(33)

الثاني : يتكون من عناصر لجأت إلى مواطن القبيلة المرابطية، وهي ذات أصول مرابطية أيضا ومن هؤلاء ذرية الولي الصالح محمد بن أحمد المرابط التهالي الذين أقاموا في قريتي تِّيوْتْ وأغُوديدْ، ثم ذرية المرابط الحاج بلقاسم البعقيلي الذين استوطنوا قرية تَاغْشّيتْ.(34)

والظاهر أن العناصر المكونة لقبيلة أيت عبد الله أوسعيد ليست منسجمة كما يبدو لأول وهلة، بل تشكلت من أصول مختلفة تجمعت حول ذرية الشيخ التهالي على مر الأيام، محتمية بالوظيفة المرابطية في أزمنة غلب عليها التوتر والصراع.(35)

ب - تكوّن القبيلة واستيطان منطقة إلغ :

يرتبط تكون قبيلة أيت عبد الله أوسعيد(36) باستيطان قرية دّوكَادير إلغ حيث نزلها أحمد بن عبد الله بعد مغادرته لأيمور، ويذكر العلامة المختار السوسي أن القبائل القاطنة إذ ذاك في المنطقة تسابقت إلى دعوته للإقامة بين ظهرانيها وهي : أيت وفقا، إيغشان، أيت حربيل، أيت تكَانزا من حربيل(37) وكانت كل قبيلة ترغب في استضافة الشيخ المرابط بغية تقوية نفوذها بإضافة النفوذ الديني الصوفي الجديد إلى صولتها الحزبية وعصبيتها القبلية، ولا يتأتى لها ذلك إلا باحتواء المرابط السعيدي واستغلال سمعته وشهرة والده بالصلاح والسعي في مصلحة الناس، وإقبال الناس على زاويته بأيمور بالإضافة إلى تقدير

---

33) Jean CHAUMEIL p. 200.

34) Ibid.

35) Ibid.

36) ونقصد بالخصوص الفرع الأحمدي القاطن بقرية دوكَادير إلغ.

37) السوسي - المعسول 1/ 117.

السلطات المركزية له، لهذا : «صارت كل قبيلة تقترح عليه أن يشرفها بالنزول بين ظهرانيها، وأنها قائمة به أحسن قيام... فصار رؤساء القبائل يتجاذبون الحديث حول ذلك، وكل يريد أن يستبد بالشيخ، ولكنهم حين لم يتفقوا بمجاذبة الكلام، شاور بعضهم بعضا، وكادوا يميلون إلى امتشاق الحسام».(38)

ويبدو أن الشيخ أحمد بن عبد الله شعر بما في نفوس زعماء القبائل، ففضل استيطان قرية دوكَادير، بعد وفاة أحد المرابطين المقيمين بها، وباعتبارها واقعة وسط القبائل المستضيفة،(39) وكان لوفادة الشيخ على هذه القرية البسيطة صداه في نفوس السكان الذين تلقوه «واستهلوا فرحا باختياره قريتهم الضئيلة دون تلك القبائل التي كادت تتناحر دونه، فقاموا بقضهم وقضيضهم فبنوا داره وأفسحوا له في مزارعهم وحقولهم فعينوا له مواضع منها... وجمعوا له صرمة من غنم ساقوها إليه».(40)

وبعد استقراره بالقرية اشتغل الشيخ بما يشتغل به المرابطون في مثل هذه البيئة من إرشاد الناس ووعظهم والفصل في نزاعاتهم والسعي في حاجاتهم. ولم يهتم أحمد بن عبد الله بجمع المال مكتفيا بما ورثه عن أبيه وبهبات الناس له.(41) ومن الغريب أنه لم يعمد إلى بناء زاوية في موطنه الجديد، ويبدو أنه حافظ على نصائح والده الذي نهى أولاده «أن يسلكوا طرق أبناء الزوايا الذين يألفون التكفف وجمع الزيارات، مع نبذهم شارة الدين، وتنكبهم محجات أسلافهم المرشدين».(42)

غير أن هذا الانصراف عن بناء الزاوية لم يدم طويلا إذ قام علي بن أحمد بن عبد الله بتشييدها(43) بعد وفاة والده، وبذلك رسخ التقاليد المرابطية بالمنطقة. حيث أقبل المريدون على زيارتها، وصرفت لها القبائل أعشارها، وهباتها، واتفقت على حمايتها واحترام أهلها، وكتبت ذلك في أعرافها حسب رسم نصه : «اتفقت جماعة أهل الجرفة الخربيليون - وهم آل تاكَانزا وجماعة بني وفقا، وجماعة آل إيغشان - على المصالح في زاوية الشيخ الولي الصالح المرحوم بالله السيد أحمد بن عبد الله بن سعيد المرابط بتضاهرين أصلا ووجارا، وفي دار ابنه السيد علي بن أحمد بن عبدالله على أمر السراق وغيرهم مما لا يليق بين المسلمين، فجميع من سرق شيئا في هري الشيخ وفي دار ابنه المذكور يعطي لضمان قبيلته اثنى عشر مثقالا كما يعطي السارقون من الحصون. ومن سرق شيئا أيضا في حوزة

---

38) المعسول 1/ 117.
39) نفسه ص : 118.
40) نفسه.
41) نفسه ص : 119.
42) نفسه ص : 94.
43) نفسه ص : 123.

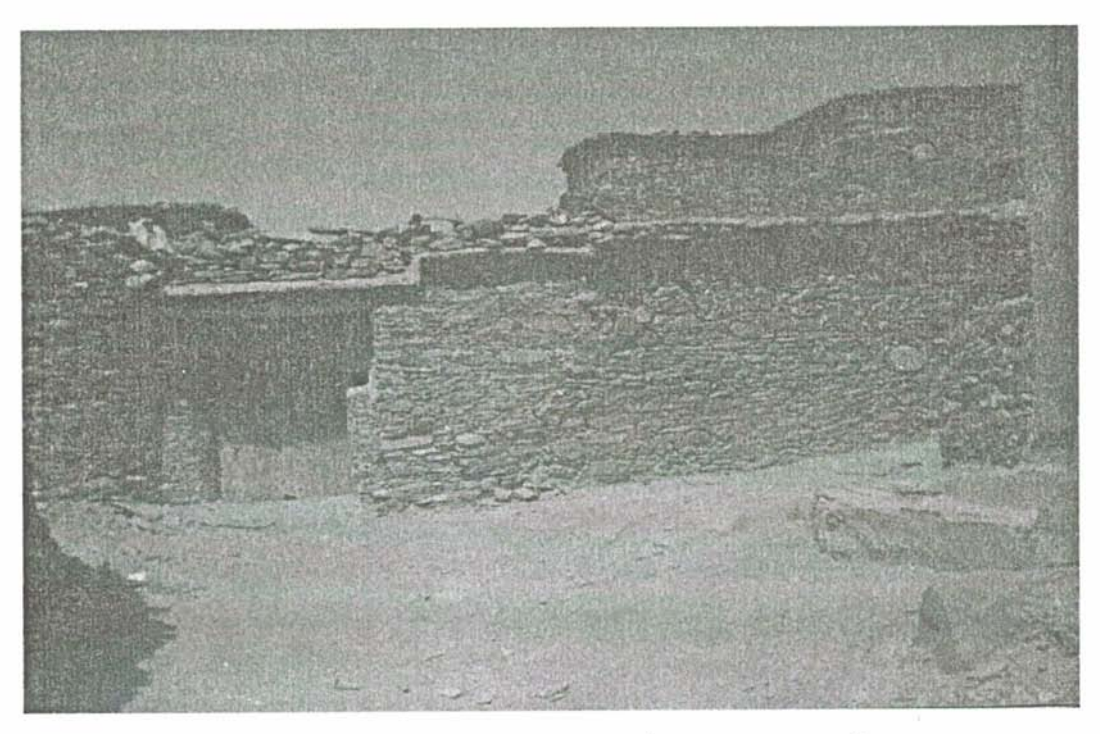
حرم الشيخ وساحته وفي حرم الدار يعطي أيضا مثقالا واحدا، اتفقوا كلهم على ذلك اتفاقا كليا برضاهم رضا تاما، فكل من حام حول ذلك الحمى فلا يلومنّ إلاّ نفسه، في رجب 1130هـ».(44)

ولم يكن اعتناء القبائل بحماية الزاوية إلا بسبب مالها من أهمية في البيئة القبلية لتلك الفترة، حيث السعي بين المتنازعين والتشفع للمنهزمين من أهم وظائف المرابطين، بالإضافة إلى التحكيم في الصراعات، فالزاوية كانت وسيلة للحفاظ على التوازن في المجتمع القبلي، ووجود شخص المرابط ضامن لهذا التوازن، وفي هذه الفترة قام علي بن أحمد (1050هـ - 1130هـ) بهذه المهمة خير قيام حيث وضع أكَادير نايت علي لأيت أمريبط تحت حمايته، كما استرد آل تاكَانزا إلى مواطنهم التي طردوا منها بعد أن تشفع لهم.(45)

غير أن رؤساء الزاوية بعد علي بن أحمد بن عبد الله لم يستطيعوا المحافظة على الوظيفة الهامة التي حددها مؤسس الزاوية، إذ انشغلوا بتأثيل الأموال والأملاك، مما أدى إلى مزاحمة القبائل الحامية في مجالاتها الاقتصادية، كما أن تحول المرابطين من مجرد أسرة محدودة إلى جماعة كبيرة تسعى لضمان مصادر عيش أكثر اتساعا، أدى إلى تدهور مكانة الزاوية وانحصار نفوذها، بل إن رؤساء الزاوية أصبحوا متورطين في الصراعات القبلية، وصاروا أطرافا فيها بعد ما كان آباؤهم محايدين مقصودين للتحكيم.(46) كما شهدت هذه الفترة مضايقة القبائل المجاورة لقبيلة أيت عبد لله أوسعيد خاصة في المجالات الحيوية كمنابع المياه والأراضي البورية(47) ومن ثم لم يعد المرابطون موضع احترام وتوقير، وتزامن ذلك مع توسعهم في السيطرة على الأراضي ببسيط إلغ بطرق أربع، هي :

---

44) المعسول 1/ 123.
45) نفسه ص : 122.
46) انظر موقف أحمد بن علي بن أحمد (1100 - 1152هـ) من صراع قبيلتي بعقيلة ومجاط في المعسول 1/ 128.
47) المعسول 1/ 132 ـ136 ـ 137.



منزل جدّ المرابطين الإلغيين أحمد بن عبد الله التهالي لازال قائما على حاله بعد مرور أزيد من 370 سنة على بنائه

1 - الهبات والصدقات التي تلقاها أجدادهم من القبائل وخاصة من السكان الأصليين في قرية دو كادير إلغ.

2 - شراء الأراضي، إما بصفة نهائية أو عن طريق الرهن، حيث يستغلون أراضي المدينين حتى استيفائهم لديونهم.(48)

3 - التحالفات العائلية بواسطة علاقات المصاهرة - خاصة مع المجاطيين - مما أدى إلى الحصول على أراض جديدة بالإرث أو الوصية.(49)

4 - طلب الحماية والمساعدة،(50) إذ كان المرابطون يعمدون إلى تقديم ذبيحة - بكيفية خاصة متعارف عليها - لجيرانهم طلبا لحمايتهم فيحصلون على الحماية وحق استغلال بعض الأراضي الزراعية أو الرعوية في مقابل إتاوات يفرضها الحامي، ويكون غالبا من قبيلة مجاط، ويسمى بـ «أمَغْرُوسْ»(51) مشتقا من تغَرْسي أي الذبح. ولنأخذ مثال إبراهيم بن أحمد بن محمد السعيدي من الجيل الثامن، وكان حاميه من مجاط، وتقدم أسرة المرابط له أفضل ما لديها من مأكل وملبس، ويحتفظ الحامي المجاطي بحق رعي ماشيته في أراضي محميه حتى الزراعية منها.(52)

وبهذه الطرق الأربع حصل المرابطون على الأراضي اللازمة لمعاشهم، وسعى أبناؤهم بنفس الطرق إلى زيادتها، بعد أن انقسمت تلك التي ورثوها، إلا أنهم واجهوا مشكلا جديدا تمثل في طمع القبائل المجاورة، فقد كان عدد ممن باعوا أراضيهم للمرابطين يعودون للاستيلاء عليها بالقوة خاصة الحربيليين، لهذا كانت علاقة القبيلتين دائما متوترة.

ويمكننا التمييز بين ثلاثة أطورا في تاريخ القبيلة واستيطانها لمنطقة إلغ :

*** الطور الأول :**

فترة تكون الأسرة المرابطية والتي شهدت استقرار أحمد بن عبد الله بدوكادير وتمتعه بهبات القبائل واحترامها، وتوجت هذه المرحلة بتأسيس الزاوية العليا وتثبيت تقاليد المرابطة بالمنطقة، وكان المرابطون يقومون بالحفاظ على التوازن في الوسط القبلي.

---

48) Jean CHAUMEIL p. 204.

49) Ibid.

50) Ibid

51) Ibid

52) رواية شفوية للوالد محمد بن أحمد السعيدي حفظه الله عن جده.

* **الطور الثاني :**

فترة التوسع من أسرة قليلة العدد إلى عائلة كبيرة، وشهدت ضعف تأثير الزاوية وانصراف المرابطين عن تعميرها، وإلى مزاحمة مواطينهم الحربيليين في مجالاتهم الاقتصادية، وفيها بدأ تطاول القبائل المجاورة على القبيلة حديثة التكوين وظهرت الصراعات حول الأراضي. وتميزت هذه المرحلة بازدياد عدد أفراد القبيلة وتكاثر الأسر، وتحول الأراضي إلى ممتلكات مجهرية بفعل التقسيم بالإرث خاصة، فأصبح من الضروري على كل المرابطين توسيعها لضمان محصول زراعي كاف للعيش، ويمتد هذا الطور من فترة زعامة أحمد بن علي بن أحمد للزاوية (قبل 1100هـ - 1152هـ)(53) إلى تجديد الزاوية على يد الحاج عبد الله بن صالح (1145هـ - 1322هـ)،(54) وقد شهدت هذه الفترة ظهور الطرق الصوفية وبروزها قوة جديدة في المجتمع المغربي عامة، وتنافس مختلف الزوايا في استقطاب الأتباع والمريدين، في مقابل تدهور زاوية دوكَادير وموتها بموت الطريقة الركَراكَية التي قامت على مبادئها.(55)

كما أن هذه الفترة شهدت توسع القرية وانقسامها إلى ثلاثة أقسام :

* الزاوية العليا : الموجودة حول الزاوية التي بناها علي بن أحمد بن عبد الله، وتقطنها الأسر المنتسبة إلى صالح بن عبد الله من الجيل الرابع.

* أيت سليمان بن عبد الله : أخو صالح المتقدم ويتوزع هذين القسمين أبناء الشيخ أحمد بن عبد الله بن سعيد.

* دوكَادير : يقيم به السكان ذوي الأصول الحربيلية وبعض العبيد.

الطور الثالث :

فترة استعادة النفوذ في المحيط القبلي، وقد بدأت بتجديد الزاوية العليا على يد الحاج عبد الله بن صالح بتلقيه الورد التيجاني في محاولة لاستعادة الدور المندثر لأبناء القبيلة،(56) وقد تلا تجديد الزواية العليا تأسيس زاوية جديدة بأيت سليمان، وهي الزاوية الدرقاوية وظهور الشيخ علي بن أحمد الدرقاوي زعيما روحيا للطريقة الدرقاوية بجنوب

---

53) السوسي المعسول 1/ 128.
54) نفسه ص : 156.
55) Jean CHAUMEIL p. 205.
56) المعسول 1/ 156.

المغرب كله،(57) بالإضافة إلى ظهور المدرسة الإلغية في الفترة نفسها تقريبا على يد محمد بن عبد الله بن صالح التجاني طريقة، وقد تميزت هذه الفترة بانقسام القبيلة إلى قسمين متنافسين : الزاوية العليا بزعامة آل عبد الله بن صالح أصحاب الزاوية التجانية والمدرسة العتيقة، وأيت سليمان بزعامة آل الطالب أحمد السعيدي الملتفين حول الزاوية الدرقاوية.

وكانت الزاوية العليا العتيقة هي السباقة إلى بسط نفوذها بعد تجديدها وتحويلها إلى زاوية تجانية على يد عبد الله بن صالح، كما ألمحنا من قبل، وقد عزز ابنه محمد مكانتها بتأسيس المدرسة عام 1297هـ،(58) فانحصر النفوذ بذلك في الأسر الصالحية، إلا أن تأسيس الزاوية الدرقاوية على يد علي بن أحمد 1302هـ(59) حقق للمرابطين نفوذا واسعا في ظرف وجيز شمل الجنوب المغربي كله من تخوم الصحراء جنوبا حتى أحواز مراكش شمالا، وصارت زاوية دوكادير الدرقاوية تقاسم الزاوية الأم بأمجوط النفوذ في المغرب كله.(60)

وقد قدر مريدو الشيخ علي بن أحمد «وأتباعه بعشرين ألفا وقدرت زواياه بأكثر من مائة وخمسين زاوية»(61) وكان يحضر الموسم السنوي للزاوية حوالي أربعة آلاف مريد(62) وفي مقابل ذلك كانت الزاوية التجانية خاوية لا يلجها إلا بعض الزوار من أهل البلد أو من القرى المجاورة من فينة لأخرى، غير أنها احتفظت بصلات قوية مع ممثلي الطريقة التجانية خارج المنطقة خاصة مع أقطابها مثل القاضي أحمد سكيرج يعضدها في ذلك نفوذ المدرسة العلمية وإشعاعها العلمي.(63)

ج - علاقات القبيلة الداخلية والخارجية :

تأسست قبيلة أيت عبد الله أوسعيد بتناسل أبناء هذا المرابط فتحولت إلى قبيلة كبيرة، والوحدة الأساسية فيها هي «أفوس» الذي يعني مجموعة من الأسر المنتمية إلى جد

---

57) المعسول 1 / 184 وما بعدها وانظر أيضا معلمة المغرب 2/ 646.
58) المرجع السابق 1/ 160 وما بعدها.
59) المعسول 1/ 223.
60) Jean CHAUMEIL p. 208.
61) عبد الله الدرقاوي - مادة علي بن أحمد - معلمة المغرب 2/ 646.
62) Op. cit.
63) السوسي - المعسول 7/ 137. وقد وقفت على وثيقة ضمن أوراق محمد بن الحسين الصالحي تشير إلى إرسال الصالحيين التيجانيين الهدايا والأموال لمقر الزاوية الأم بفاس.

واحد،(64) فإذا نظرنا إلى مدشر أيت سليمان الذي يسكنه قسم من المرابطين السعيديين نجدهم يشتركون في جد واحد هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن سعيد ثم ينقسمون بعد ذلك إلى أربعة أقسام «إفاسن» وكل «أفوس» يتكون من عدة أسر.(65)

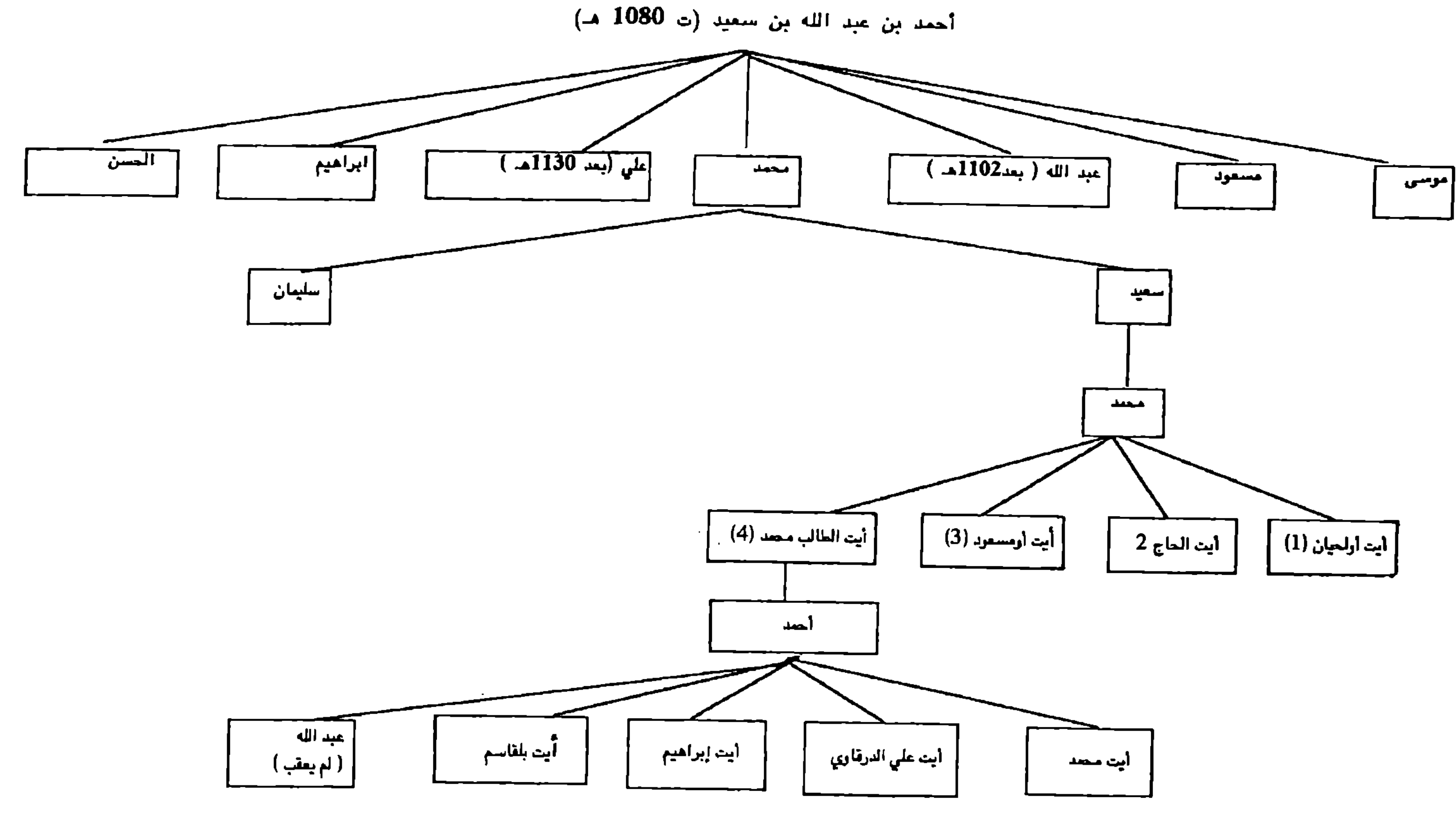
وتتعاون الأسر المكونة لهذه الوحدة فيما بينها لتحقيق الأهداف الكبرى للقبيلة إلا أن الملاحظ في قبيلة أيت عبد الله أوسعيد انحصار وحدتها وتعاونها في إطار الإنتاج المعاشي الزراعي، ويتجلى ذلك في أمرين :

أولا : الاشتراك في امتلاك بعض الأراضي التي اشتراها الجد الأعلى «لأفوس» ما، أو حصل عليها هدية أو صدقة، ويعود عدم تقسيمها إلى صغرها واستحالة الاستفادة منها بعد تقسيمها بين الورثة، فقد يحدث أن تشترك الأسر في امتلاك نخلة واحدة فقط.(66)

ثانيا : التعاون في الأشغال الزراعية، قال العلامة المختار السوسي : «أدركنا الإلغيين اعتادوا أن يتعاونوا على أشغالهم - كالعادة في كل تلك النواحي - بل ينظمون كل أشغالهم العامة بنظام خاص؛ وقد جعلوا غرامة معلومة لكل من تعدى ذلك النظام؛ فلا يمكن أن يذهب أي إنسان لجني اللوز من حقله إلا متى أذن ذلك الإذن العام؛ وكذلك يحافظ على الحقول والمزارع، فلا يزال الحراس الذين يجعلون لذلك في تيقظ وجولان... حتى الحصاد والدراس لا يفتتحان إلا متى أعلن ذلك بالنداء فوق المسجد؛ ومن تأخر في الحصاد لكثرة مزروعاته، يتداعى إليه الناس فيعينونه؛ وعليه الإطعام؛ ثم لا يفتتح الدراس حتى يتم الحصاد، وتنظم كيفية الدراس بالتتابع فاليوم لفلان ثم لفلان؛ والدراس يكون بالبهائم المجتمعة من كل أهل القرية، أو ممن يلتئمون على ذلك، وكل من سخطت عليه القرية، فإنه ينبذ من هذا النظام...».(67)

---

64) انظر محمد الكَير مادة أفوس، معلمة المغرب 2/ 565.
65) انظر شجرة أسر أيت سليمان ووحداتها الأساسية : إفاسن في ص : 66.
66) أخبرني بذلك العم عبد الله السعيدي الإلغي لما جالسته بمنزله بتزنيت ليلة الجمعة 31/ 7/ 1992.
67) المعسول 1/ 35.



يتكون مدشر أيت سليمان من أربع وحدات "إفاسن" أيت أولحيان، أيت أومسعود، أيت الطالب محمد، وتنقسم كل واحدة منها لأسر متعددة فمن بين أبناء الطالب محمد، أحمد والذي تفرعت عنه بدوره أربع أسر:أيت محمد أُحمد، أيت علي الدرقاوي، أيت إبراهيم أُحمد ، أيت بلقاسم أُحمد.

المرجع : جلسة مع العم عبد الله بن أحمد السعيدي،والوالد محمد بن أحمد . المسول ج : 1 .

وفي هذه الوحدة التعاونية يتجلى تضامن مجموعة السكان في تحصيل معاشهم، إلا أنهم يتصرفون بشكل منفرد، كل أسرة على حدة في علاقاتهم الخارجية، حيث لا تتوفر القبيلة على جهاز سلطوي عرفي - إنفلاس - بل إنها تلجأ أحيانا إلى المؤسسات العرفية للقبائل الأخرى وغالبا إلى تحكيم الفقهاء المبرزين،(68) ولعل انبناء القبيلة على أسس دينية مرابطية حال دون وجود مثل هذه المؤسسات العرفية، قال محمد المختار السوسي : «وقد عرف الإلغيون بأنه لا عرف عندهم يذكر، إن هناك إلا الشرع فبه يحكمون، وإليه يتحاكمون، وعادتهم أن من له دعوى يرفعها مع خصمه إلى بعض الفقهاء...».(69)

أما علاقات القبيلة الخارجية بالقبائل المجاورة فكانت علاقة احتماء وخضوع؛ لا يحملون السلاح «من ذوي عصبية تناصر أخاها ظالما أو مظلوما... صارت تكأة كل قوي ومرعى لكل سارح، فلذلك كان لكل أسرة مجاطيها وبعقليها يذوذ عن حماها ويرد لها حقوقها...»(70) باتخاذه حاميا وهرارا(71) يدافع عن أراضيها وقوافل تجارتها.

وقد حاولت القبيلة استخدام نفوذها الصوفي والعلمي للحفاظ على مصالحها، فحاول كل من الشيخ الدرقاوي والأستاذ علي بن عبد الله الإلغي صد محاولات القائدين سعيد المجاطي ومبارك البنيراني للتسلط على المرابطين، وإثقال كواهلهم بالإتاوات والمغارم، غير أن نفوذهما لم يستطع حماية مجموع أبناء القبيلة، بل اقتصر على أسرتيهما، كما أشار العلامة المختار السوسي بقوله : «إن القائد سعيد المجاطي كان يراعي مع ذلك الوالد(72) أتم مراعاة لما كان بين أسرتيهما من قديم المؤاخاة، فلذلك لا يحوم حوله، ثم لا يحوم أيضا حول الأستاذ... وأشقائه بالمغارم...».(73)

ولم يكن بوسع المرابطين المستضعفين تشكيل قوة محاربة، لأنهم قليلو العدد، ثم إن قبيلتهم مؤسسة على مبادىء المرابطة التي تعني الصلاح والسكينة، مما يتعارض وحمل السلاح، كما أن القبيلة ظلت منقسمة، فلم تتمكن من دمج كثير من العناصر الحربيلية المقيمة بقصبة دوكادير عند استيطان أحمد بن عبد الله بن سعيد، إذ كان هؤلاء يتخلصون من أراضيهم بالبيع ويرحلون إلى مناطق أخرى. فالمرابطة عرقلت اندماج العناصر الخارجية في القبيلة من أجل تكوين قوة تصد القبائل المتربصة.(74)

---

68) المعسول 1/ 137.
69) نفسه ص : 43.
70) نفسه.
71) الهرار : الحامي وفي المثل هلك من لا هرار له. انظر لسان العرب مادة (هـ ر ر).
72) يقصد الشيخ علي بن أحمد الدرقاوي. انظر ترجمته بالمعسول 1/ 184.
73) المعسول 1/334.
74) J. CHAUMEIL, p. 205.

وفي مقابل الضعف تجاه الخارج تميزت العلاقة بين الأسر بكثير من العنف والقوة، خاصة بين المتقاربة منها أي المشكلة لوحدة «أفوس»، حيث تدور الصراعات حول الأرض، ويسعى كل طرف إلى الاستيلاء على الأراضي المشتركة أو توسيع أراضيه على حساب الآخرين، وقد يتدخل الهرارون في النزاعات فيصبح الصراع الداخلي بين أبناء القبيلة فرصة أمامهم لتصفية حساباتهم القديمة إن كانوا من نفس القبيلة، أو فرصة للقبائل للانتقام من بعضها البعض إذا كان الهرارون من قبيلتين متعاديتين.(75)

هكذا نلاحظ أن المعادلة التي وضعها «كيلنير» لوصف التعارض والتوازن بين مكونات المجتمع الجبلي بالأطلس المتوسط، والتي يوالي بمقتضاها البدوي القريب فالأقرب، لقتال البعيد فالأبعد، انطلاقا من المثال التالي : «أنا ضد إخوتي مثلا عندما يقع نزاع حول إرث حقل من الحقول، وأنا ضد أعمامي الموازين المباشرين مثلا، بسبب استعمال قناة ري بين حقول كل منا، أعمامي الموازون المباشرون وإخوتي وأنا ضد الموازين الأبعدين، نحن جميعا ضد العشير الغريم في القرية مثلا بسبب تسوية نزاع... القرية بأكملها ضد القرية المجاورة مثلا بسبب استعمال المراعي...»(76) هذه المعادلة أضحت قاصرة حيث يجب تعويضها بأخرى تكون على الشكل التالي : أنا وأمغروس (البعيد) ضد جميع الأعداء سواء كانوا أقرباء أو جيرانا أو غرباء، وهذا يدل على تفكك القبيلة إذ أصبحت مختلف أسرها ووحداتها الكبرى «إفاسن» تابعة للقبائل المجاورة حسب انتماء الهرارين.

75) انظر مثالا لذلك في المعسول 2/ 353.
76) أحمد التوفيق مساهمة في دراسة مجتمع القرن التاسع عشر، إينولتان ص : 108.

المبحث الثاني – نشأته، ثقافته وأعماله :

أ – نشأته : ولد محمد بن عبد الله بن صالح عام 1255هـ،(77) في قرية الزاوية العليا بدوكَادير إلغ، الواقعة في : «هذا البسيط الأفيح المتسع الذي زويت عنه زهرة الحياة الدنيا، ولم يحظ بالرياض الأريضة والجنان الخضراء، والحدائق الغناء، والمزارع المخصبة، والألفاف الغلب ومتنوع الأشجار، والجداول المطردة، والأنهار الفياضة، والمراتع التي تفيض حينا بالعشب النضر، وحينا بالغثاء الأحوى، كل ذلك منعته يد الطبيعة، وحرمت أهله من الاستمتاع به، فما هناك إلا أعاصير شمالية أو قبولية أو دبورية تصرصر في هذا البسيط الأجرد فتثير زوابع تتدافع متتابعة وهي قائمة ممتدة من الغبراء إلى القبة الزرقاء، كأنها صفوف نخيل متدافع، وصرير الجواء يصك الآذان، وتلاطم مختلف الرياح كأنه صفير الجنة في أوديتها».(78)

وتعد أسرته من أيسر أسر قرية الزاوية العليا، وأوسعها عيشا بسبب ما عرف عن والده عبد الله بن صالح من أنه لم يرث عن والده «ذلك الانزواء الذي أزجى به حياته بل تملص هو من الخمول الذي صاحب آباءه منذ الجد الأعلى سيدي عبد الله بن أحمد فجاء بهمة عالية في كل النواحي، ففلح وكسب وأثل وتاجر، فلم تتوسط العشرة الثامنة من الماضي(79) حتى كانت له ماشية كثيرة».(80)

كان أغلب المرابطين ذوي خمول وانزواء قانعين بما لديهم، لا تنقصهم الشجاعة للتغيير بل الرغبة فيه،(81) فخالفهم عبد الله بن صالح و«صار يعمل لكل جانب حركة... فاتصل بالناس وتعرف بأهل عصره وشاد بذلك من جديد ذكر آل عبد الله بن سعيد مع إمعان فيما يعود عليه بفائدة دينية أو دنيوية»(82) فاتصل بزعماء المنطقة من أمثال أمغار محمد المجاطي والشيخ أحمد أبلاغ الأساكي.(83)

كما دفعته همته إلى تجديد الزاوية العليا التي بناها جده علي بن أحمد بن عبد الله بن سعيد، إذ حوّلها إلى زاوية تيجانية بعد تلقيه الورد التيجاني، وقد كانت أضحت منسية باندثار التقاليد الصوفية الركَراكَية وبذلك حقق لنفسه نفوذا وسط قبيلته أولا، والقبائل المجاورة ثانيا، خصوصا بعد أدائه فريضة الحج، فأقبل الناس على زيارته طلبا لدعائه وتبركا

---

77) المعسول 1/ 158.
78) المصدر نفسه وانظر أيضا الإطار المكاني للمدرسة في الفصل الثاني من هذا الباب.
79) يقصد القرن الثاني عشر الهجري.
80) نفسه ص : 157.
81) J. CHAUMEIL, p. 205.
82) المعسول 1/ 160.
83) نفسه، ص : 157.

به. في حضن هذه الأسرة نشأ محمد بن عبد الله طموحا إلى المعالي ساعيا إلى تحقيق نفوذ جديد لأسرته وقبيلته، غير قانع بما توصل إليه والده من جاه وسمعة.(84)

كان المترجم الابن البكر لوالده، يرجو أن يكون له عونا في شؤون المعاش وتدبير أمور الأسرة، والولد في هذه البيئة قوة للأهل وعضد لأبويه في زراعة الأرض وحصادها ورعي الماشية. لهذا وجه عبد الله بن صالح ابنه إلى هذا المجال، بينما كان الأطفال في مثل سنه يتوجهون إلى الكتاب خاصة الذين يستغني آباؤهم عن خدماتهم.

يخرج الطفل إلى رعي الماشية فجرا في قفار إلغ الواسعة الجرداء، فيقضي ضحى يومه وأصيله هائما في تلك الفلوات، ويعود مساء خلف قطيعه مكدودا، ويتراءى له بعض أطفال قريته في مثل سنه يتقافزون حول دورهم، يرتلون بين الحين والحين بضع آيات مما تلقوه في الكتاب، فيحس بغصة في حلقه وهو جاهل بما ينطقون.

وفي اليوم التالي يهرب الفتى من مهمته ويدلف إلى الكتاب حيث طالب ركَراكَي من دويملالن(85) يلقن الأطفال ما سطّر بألواحهم، وما أن يعلم أبوه بالأمر حتى يأتي إليه ويخرجه من الكتاب وفي نفس الفتى أسى وأصرار على تكرار المحاولة، ويتكرر الأمر ست مرات،(86) وهو في تلك البيئة شيء غريب انعكست له القضية «لأننا لا نشاهد إلا من يهرب من المسجد لا من يهرب إليه».(87)

أدرك الحاج عبد الله بن صالح وجهة ولده، فطابت نفسه بتوجيهه إلى الكتاب الذي كان «كأنه موقوف على طلبة دويملالن أحفاد الشيخ سيدي يحيا بن عبد الله شيخ جدنا عبد الله بن سعيد... وكان في تعليمهم نقص فاستحيا منهم أهل القرية الزاوية أن يستبدلوهم بغيرهم فمن عند أحدهم افتتح صاحب الترجمة ثم لما رأى والده أن القراءة بالمسجد عرجاء، شارط له في داره الأستاذ سيدي محمد بن بلقاسم أفكَان»(88) وبه تخرج في القرآن حفظا وقراءة وذلك عام 1280هـ.(89)

ولما رأى أبوه ما هو بصدده من جد في التحصيل واهتمام بالتعلم وجهه إلى مدرسة تانكرت وقد نمى إليه جد أستاذها محمد بن إبراهيم الإفراني التمنارتي(90) وإخلاصه في نشر العلم وكان هذا الأستاذ «من مشاهير العلماء المدرسين... ومن المفتين الكبار لاحظته

---

84) انظر المختار السوسي : مترعات الكؤوس، ص : 100.
85) المعسول، 1/ 158.
86) المعسول، ص : 162.
87) نفسه.
88) نفسه.
89) نفسه.
90) انظر التعريف به في رجالات العلم العربي في سوس ص : 196.

السعادة فتفوّق بين أقرانه وواتاه البخت فجمع إلى العلم العمل»(91) وهو من المتخرجين بالأسرة الجشتيمية عن عالميها الفذين عبد الله وأحمد وقد عرف أجدادهما بالاجتهاد في نشر العلوم بسوس منذ القرن الثاني عشر الهجري، وبعد أن نال مطلبه من مدرسة إمي أكشتيم،(92) التحق بفاس حيث استتم معلوماته وخالط الشيوخ الحضريين واستفاد منهم(93) وحين عاد إلى سوس توجه إلى تانكرت نحو عام 1280هـ(94) «فأقبل بالجد والاجتهاد على التدريس حتى زاحمت مدرسة تانكرت، بسببه المدارس العامرة إذ ذاك، وهو مع ذلك يؤاخذ الطلبة بعزم وحزم تسبب عنهما أن انفتل من بين يديه طلبة كثيرون، تلقوا رايات المعارف بالأيمان فنبغوا.(95) ومن بين هؤلاء محمد بن عبد الله الذي أخذ عن أستاذه معارف إمي اكشتيم وعلوم الفاسيين ثم رغب في الالتحاق بشيوخ أستاذه للأخذ عنهم لولا أن صرفه أستاذه عن ذلك.(96)

عاد محمد بن عبد الله إلى قريته الزاوية العليا عام 1291هـ(97) وذلك بعد أن قضى عشر سنوات بين يدي أستاذه الإفراني، عاد منبهرا باجتهاد شيخه معجبا بما رأى فيه من حرص شديد على نشر العلم، وبما يحيط به من إجلال العامة والخاصة له، فرجع «وقد حمل بين يديه مهمة عظيمة؛ جعلها كل مناه في الحياة، فعزم على أن يمضي فيها عمره كله وما تلك المهمة التي جعلها نصب عينيه إلا بث العلم ونشره».(98)

ب – ثقافته : يجدر بنا حتى نعلم مبلغ ابن عبد الله الإلغي من العلوم، أن نرجع إلى الأصل الذي استقى منه علومه بواسطة أستاذه الإفراني التمنارتي، تلك هي المدرسة الجشتيمية التي عرف عن أساتذتها الاهتمام بالعلوم تدريسا وتأليفا.

ومن جملة الفنون التي نبغوا فيها الفقه واللغة والتاريخ والتفسير والسيرة والأصول والمنطق والعروض والبيان والأدب.(99) وبفضل اجتهادهم صارت مدرسة إمي اكشتيم بسفح جبل الكست مركزا إشعاع علمي وفكرى في سوس لمدة تزيد عن المائتي سنة،(100) وظهر اهتمامهم بالأدب خاصة حتى «أتقنوا إلى حد كبير تحصيل الفنون

---

91) المعسول 7/ 60.
92) انظر حول هذه المدرسة المدخل .
93) المصدر نفسه.
94) المعسول 7/ 60 وما بعده.
95) المعسول 7/ 61.
96) نفسه.
97) المعسول 1/ 162.
98) نفسه.
99) انظر سوس العالمة ص : 34 وما بعد.
100) المعسول 6 / 7 – 169 .

الأدبية كعلم من العلوم التي اتجهوا إلى كثير منها فبذوا فيها سواهم»(101) وكان رائدهم في ذلك عبد الرحمان بن عبد الله «أكبر أديب في سوس في أواسط القرن الماضي، وأعظم معتن بالأدب وأهله، ونساخة الأدبيات حتى كان مجدد الأدب العربي بسوس وأريحيته غريبة، مع نباهة شأن ونبل أسرة وتضلع عظيم في العلوم، وصوغ في النثر مستجاد وأقوال مقبولة في الشعر».(102)

عن هؤلاء العلماء العظام أخذ محمد بن عبد الله بواسطة أستاذه الإفراني الفنون التي تضلعوا منها، وعلى رأسها الأدب والاهتمام به، وعدم الاقتصار على العلوم الجامدة كالفقهيات حتى لا يستطيع كثير من الطلبة والفقهاء المتخرجين من أمثال هذه المدارس، التي طرحت الأدب جانبا واعتبرته من سقط المتاع، كتابة رسالة أو نظم أشطار، من هنا تلقن الطالب الإلغي الاهتمام بالأدب وحبه حتى أضحى بعد ذلك شعار مدرسته.

حصل محمد بن عبد الله علوم الآلة من نحو وصرف وعروض وبلاغة، كما أكثر من حفظ النصوص الأدبية «كالمقامات وبانت سعاد ولامية العجم والدريدية والدالية لليوسي والمعلقات السبع والشقراطيسية والبردة والهمزية».(103)

بالإضافة إلى التمرس في التعامل مع القواميس والمعاجم اللغوية حيث «يؤاخذ التلميذ باستحضار الألفاظ الغريبة منها، كما يؤاخذ بمعرفة قاعدة القاموس والمصباح والمختار، وكيفية اكتشاف أية لفظة يريدها منها»(104) والاهتمام بمطالعة كتب التاريخ التي امتزجت بالأدبيات كتاريخ ابن خلكان.(105)

أما مكانة محمد بن عبد الله الأدبية، فلأجل التعرف عليها نستعرض بعض أعماله الشعرية والنثرية، ففيهما تتجلى شخصيته الأدبية، ومقدار معارفه، فمن إنتاجه قوله يذكر مدرسة تانكرت بإفران ويتشوق إلى شيخه الإفراني :(106) (الوافر)

إِذَا مَــــا هَــبَّ مِــنْ إِفْــــرَانَ رِيــحٌ ... هَــفَــا بِالْـقَلْـبِ مِـنْ صَـــدْرِي جُنُـوحُ

يَشُـمُّ بِهَــاأَرِيجــاً مِنْ حِــمَــاهُـمْ ... فَــيَــبْــدُو مِنْهُ نَحْــوَهُـمُ جُـمُــوحُ

---

101) المعسول 6 / 118.
102) السوسي - مترعات الكؤوس في بعض آثار طائفة من أدباء سوس 2/ 44.
103) السوسي - مدارس سوس العتيقة، نظامها - أساتذتها. ص : 67.
104) نفسه.
105) نفسه ص : 69.
106) السوسي - المعسول 1/ 178 - 179 ومترعات الكؤوس ص : 110.

فَــأصْــبِــرُ مَــا أطِيقُ فَــيَــرْتَمِي بِي
تَـفَكُـرُهُمْ، فَــأزْفُــرُ أوْ أصِــيحُ

أبِيتُ عَلَى التَّــمَلْمُلِ فِي فِــرَاشِي
كَــأنَّ الْجِــسْمَ عَــمَّــتْــهُ جُــرُوحُ

وَذَلِـكَ كُـلُّـهُ مِـنْ أجْلِ شَــوْقِي
إلَى مَنْ وَجْــهُــهُ الْأسْنَى صَــبِــيحُ

أبِي الثَّــانِي وَشَــيْــخِي مَنْ حَــبَــانِي
فَــأغْــدُو فِي جُــدَاهُ كَــمَــا أرُوحُ

مُــحَــمَّــدُ نَجْلُ إبْرَاهِيمَ مَــجْــدٌ
عَـظِـيمٌ مِـنْ أبِـي بَـكْـرٍ صَــرِيحُ

تَـأزَّرَ بِـالسِّــيَــادَةِ وَارْتَـدَاهَا
كَــمَــا يَغْــدُو الْــمُــرَبِّي وَالنَّصِــيحُ

غَــذَانَا بِالْـعُلُومِ وَلَـيْسَ يَغْــدُو
بِرُسْلِ الْعِلْمِ مِكْسَــالٌ شَــحِــيحُ

جَــزَاهُ اللَّهُ مَــا يَجْــزِي عَلِيــمًا
لَهُ عَــمَلٌ بِمَــعْلَمِــهِ صَــحِــيحُ

ثم قوله في باب النصح والتوجيه :(107) (الرجز)

تَـكَلُّـفُ الأسْــفَــارِ لِلْأوْطَـارِ
فِي شِــدَّةِ الْحَــرِّ وَفِي الأمْـطَارِ

مِنْ عَــادَةِ الأكْــيَــاسِ فِي الرِّجَــالِ
بِشَــرْطِ أنْ تَكُـونَ فِي الْحَــلاَلِ

وقوله يعاتب أحد إخوته : (الطويل)(108)

أمَــرْتُكَ شَــرِّقْ ثُمَّ غَــرِّبْ فَــإنْ تَجِــدْ
أخَــاً كَــأخِـيكَ الْيَـوْمَ فِي النَّاسِ فَـانْفُضِ

وَإلاَّ فَــأقْــصِــرْ عَنْ عِــمَــايَتِكَ الَّتِي
تُرِيكَ الْقَذَى فِي صَفْحَةِ الْقَمَرِ الْمُضِي

107) مترعات الكؤوس ص : 111، المعسول 1/ 180.
108) محمد بن إبراهيم معتصم الباعمراني – الكناشة ص : 3.

فَــــــــإنِّـي أنَـا الْـخلُّ الَّـذي لَـمْ يَـزَلْ وَإنْ
جَــفَـــوْتَ وَرَنَّقْتَ الْمَــسَـــرَّةَ يَرْتَضِـي

ومن كتاباته النثرية نختار رسالة كتبها لتلاميذه حينما أزمع التوجه إلى مراكش في الرحلة التي توفي فيها عام 1303هـ.(109)

«من محمد بن عبد الله بن صالح، السلام والرحمة والبركة على جميع الإخوان المذاكرين معنا، وجميع من تعلق من الإخوان لله بنا، وقصد الانخراط بسمطنا.

وبعد : فإن الله تبارك وتعالى قد شرع الاستخلاف لمصلحة الائتلاف، وجعل انتظام الأمر مقصورا على الاتحاد، ووعد على الاجتماع وواعد على الإلحاد، فقال : ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾،(110) ولذلك استخلفنا عليكم أخانا عليا، سدده الله فيما كان له وليا فاتخذوه أبا، وتوقيره دينا وأدبا، وأوصيه بجميع الإخوان : أن يحلم عن جافيهم ويشكر سعي وافيهم، وينصحهم جهده ويوطيئ لجميعهم ما يحبه ويرضاه وأوصي الجميع الأمير والمأمور، أن يلاحظوا الله تبارك وتعالى في جميع الأمور، وأن يعلموا أن أعظم الصدقة في عصرنا هي الصبر والكظم، وأحق الناس به الأقارب بالدم والعظم، ثم المجاورين والمحاورين، مع مراعاة خدمة الله تعالى في ذلك كله، واعلموا قطعا أن حقيقة العلم هو العمل بالمعلوم، ومن تعلم ولم يعمل فهو مذموم ملوم، وأنا أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه وأبضع تعليمكم في سفر الأرجاء إلى النبي ﷺ فإنه لا تكسد بضائعه، ولما حان إعمال ذي الظفر والحافر أنشأت لكم مودعا في بحر الوافر :

أوَدِّعُ جَمْعَكُمْ وَنِظَامَ أمْرٍ   بِــهِ سُدْتُـمْ،ألاَ الْعَالَمِينَا

وقد علق العلامة محمد المختار السوسي على أشعار محمد بن عبد الله بن صالح بقوله: «مؤسس المدرسة... كان يقرض قرضا، هو إلى شعر الفقهاء أقرب منه إلى شعر الأدباء، ولكنه مع ذلك مولع به عند كل مناسبة»،(111) وهو في هذا الرأي يستند إلى رأي شيخه الشاعر الكبير الطاهر الأفراني،(112) إلا أنه أعاد النظر في هذا الرأي في كتاب مترعات الكؤوس حيث قال : «إننا كنا علمنا أن الشاعر الإفراني لما سئل عن مرتبة شعر

109) مترعات الكؤوس، ص : 101 ـ 102 والمعسول 1/ 177.
110) الآية 46 من سورة الأنفال.
111) السوسي مدارس سوس، ص : 69.
112) مترعات الكؤوس ص : 1/ 113.

شيخه هذا قال إن شعره شعر الفقهاء، فأردنا أن نتثبت في ذلك بكثرة درس آثاره وعرضها في الأنظار فها نحن قمنا بذلك، فهل حقا شعره شعر فقيه لا أظن! وهذا رأي سنح لي اليوم فقط، إن في هذا الحكم بعض إجحاف، فإننا مع إقرارنا أن من بين ما فكرته فكرة فقهية، نرى من بين آثار أخرى أن له فكرة تتعالى إلى أدب الأدباء وإن كانت تكبو دون المدى لأن صناعة الشعر، وانتقاء الألفاظ يعوزانها، وأقول إنني اليوم أعرف بقدر هذا الأديب وكانت دراستي لما فات في مختلف النواحي قصيرة ناقصة، فحين كانت اليوم طويلة تامة ازداد عندي نجمه تألقا، ولا ريب أن نثره أعلى من شعره كما لا ريب أنه لو تهيأ له وسط يعينه في الناحية الأدبية لكان في أفق أعلى من هذا الأفق الذي هو فيه الآن، وأيا كان فذلك النشاط الفكري الذي رأيناه في مجموع ما قاله، وذلك الاهتبال بالشعر حتى يكون عنده بمثابة أن ينسيه الشعر (جام راح) وكونه شديد الإيمان بالأدب ومنفعته في تفتح الأفكار كل ذلك ما يرتفع به إلى مقام محمود لا يشاركه فيه أحد من معاصريه إلا قليل».(113)

هكذا يعد العلامة السوسي رأي شيخه الطاهر بن محمد الإفراني في شعر مؤسس المدرسة غير صائب، فليس كله نظما وإنما هناك بعض أشعاره التي تتعالى إلى مستوى الشعر الصحيح، إلا أن النقص يأتي من ضعف الصناعة الشعرية والتباس الشعر بألفاظ التعليل المباشر التي تغلب على المنظومات التعليمية، فيصبح النظم مجرد تواصل مباشر أشبه بالحديث اليومي منه بالشعر الذي من صفاته الإيحاء والتصوير.

ولعل قيمة أشعار الأستاذ الإلغي مؤسس المدرسة الإلغية نابعة من دورها في إذكاء روح الاهتمام بالأدب بين طلبته وتشجيعهم على معاناة النظم والكتابة لأجل التمرس بالصناعة الأدبية، وبهذا الأسلوب التربوي تخرج من المدرسة شعراء بارزون أمثال الطاهر الإفراني والكوسالي والبوزكارني... وغيرهم، وبذلك كان : «الأستاذ محمد بن عبد الله هو الذي وضع بفكرته البذرة الأولى لعلم الأدب بين ما يلقيه من المقطعات والقصائد لتلاميذه، ثم ما زال نبغاء أصحابه ونبغاء تلاميذهم ينتهجون منهجه؛ حتى صاغوا لإلغ خاصة؛ ولسوس عامة بل وللجنوب المغربي أجمع تاجا من الأدب مرصعا؛ يتلألأ فوق هامات هذا العلم العالي الذي لا يتعالى إليه إلا المصطفون الأخيار، فلئن كان شعر الأستاذ ليس بما بلغ به المدى، فإن من بعده ممن سار في طريقه؛ حازوا به خصل السبق وتلك سنة النمو والتدرج والترقي».(114)

---

113) مترعات الكؤوس، ص : 131 – 114. الجام : الكأس.
114) السوسي – المعسول 1/ 161. وانظر الفصل الأول من الباب الثالث من هذا الكتاب.

ج - أعماله :

1 - **التعليم** : عاد محمد بن عبد الله من مدرسة تانكرت ممتلئا علما فكان «أول من ذاق العلم... ذوق من أدرك منه أنه أساس السيادة الدينية والدنيوية»(115) من الإلغيين، فعزم على الاقتداء بأستاذه ونشر العلم بقريته بين أهله وعشيرته، وبدأ بتحويل مسجد الزاوية إلى مدرسة بعدما أضاف إليه أبنية أخرى حتى يستكمل مقومات المدرسة المعروفة في سوس، فبنى غرفا لإقامة الطلبة، وهريا للتخزين ومطبخا ومغسلا للوضوء، وساحة للحطب،(116) وما لبث الطلبة أن توافدوا عليه فتولى إيواءهم، والإنفاق عليهم بالإضافة إلى تعليمهم، والظاهر أن أستاذه محمد بن إبراهيم الإفراني كان مثله الأعلى ونموذجه المحتذى في عمله التعليمي، ولبث الأستاذ الإلغي على حالته هذه ثلاث سنوات من عام 1291 حتى 1293هـ، أتت على كل إمكانياته المادية للمحافظة على تسيير مدرسته الناشئة فاضطر إلى المشارطة بمدرسة بومروان الواقعة في مواطن قبيلة إدا وسملال(117) ومن حسن حظه أن انتقاله هذا صادف سنوات الجذب الكبرى في سوس، انطلاقا من عام 1295هـ، التي أهلكت الناس وشتتت شمل الأسر والقبائل وخربت القرى، فاعتصم منها محمد بن عبد الله بالمدرسة البومروانية وبذخائرها من الزرع لمدة سنتين (94 - 1295هـ)(118) ويبدو أن الأستاذ استفاد من تجربته السابقة، فصار يدخر أجرة شرطه، يضيفها إلى ما فضل من شرط مسجد الزاوية «فكان زرعا كثيرا، فصار يشتري الأملاك في تلك المسبغة، والأملاك من أرخص ما يكون، والمدخرون للحبوب قليلون، والجهد يحمل الناس على بيع نفائس ما يملكون برخص، فحاز لذلك أملاكا كثيرة في قريته وما إليها»،(119) ضمنت له عائدا زراعيا كبيرا، يمكنه من تسيير مدرسته المسجدية بتموين الطلبة المتعددين الوافدين عليه كما قوى ذلك من طموحه إلى تأسيس مدرسته الخاصة المستقلة.(120)

2 - **القضاء** : يذكر المختار السوسي أن محمد بن عبد الله انتصب للقضاء وذلك عند قوله : «الأستاذ محمد بن عبد الله هو أول من ذاق العلم من أهالينا ذوق من أدرك منه أساس السيادة الدينية والدنيوية... فأقبل عليه وعلى تعليمه إقبالا غريبا حتى لا يحول بينه وبين تعليمه منصب القضاء الذي انتصب فيه بين هذه القبائل»(121) والمقصود بالقضاء

---

115) المعسول 1 / 161 .

116) مصطفى ناعمي. مادة إلغ. معلمة المغرب 2/ 643.

117) السوسي - المعسول 1/ 136.

118) المعسول 1/ 164.

119) نفسه.

120) نفسه.

121) نفسه ص : 161.

ليس ما قد يتبادر إلى الذهن من حصول الأستاذ الإلغي على تعيين من لدن السلطة المركزية بظهير سلطاني، وإنما ما عرف في تلك الفترة من تصدي بعض الفقهاء للحكم بين الناس والفصل في نزاعاتهم وهذا لا يستلزم التوفر على إذن مخزني، خصوصا وأن سوس وجبال جزولة كانت مستقلة عن مركز السلطة.(122)

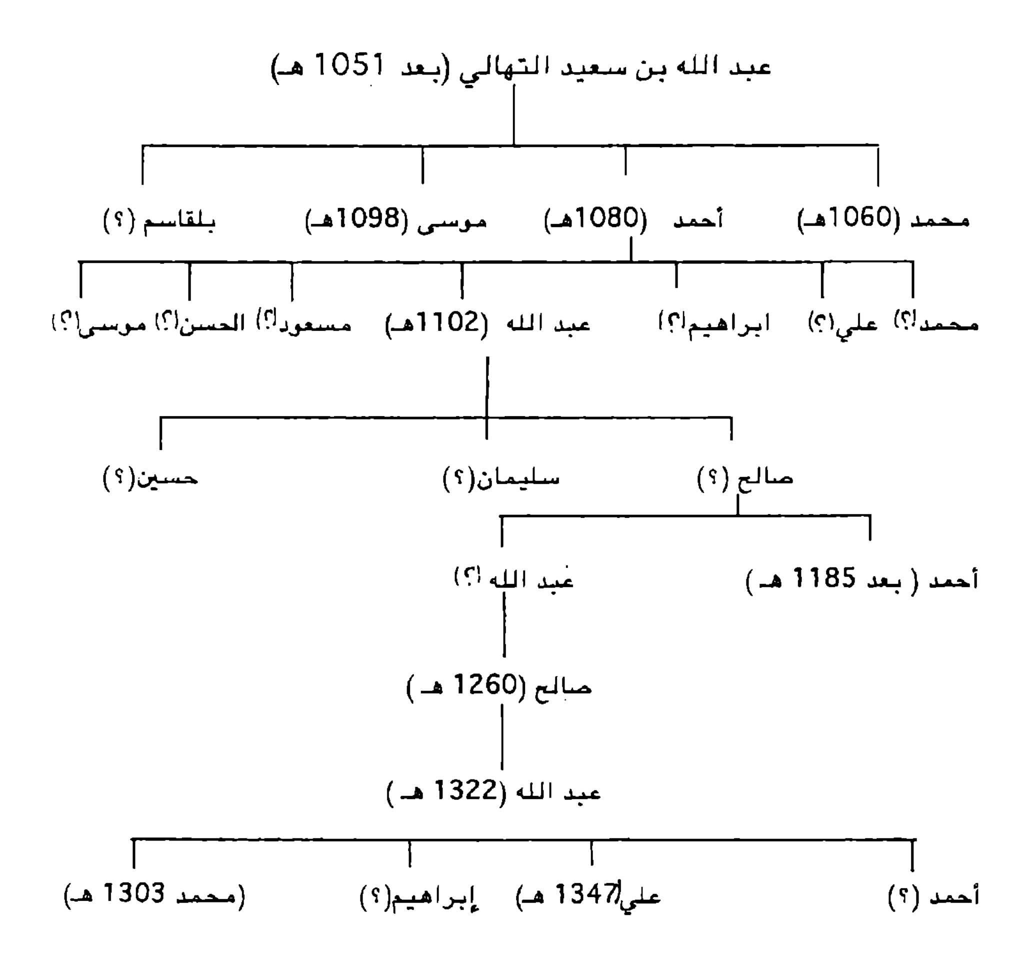
3 - **ملاقاته الزعماء والسلطان** : اكتسب الأستاذ مجدا جديدا بنشاطه في التدريس والقضاء فنمت شهرته إلى زعماء القبائل فكان في ذلك مثل والده عبد الله بن صالح، يتصل بوارث مجد إيليغ الحسين بن هاشم وكان هذا «مولعا بكل ما يزيده في المعالي لبنة، فيزيد إلى أرباب الصوارم والعوالي، أرباب الدفاتر والأقلام، فكان منهم هالة كبيرة، من بينهم الأستاذ المترجَم الذي يفد إليه منذ كان بمدرسة تانكرت تلميذا في الرمضانات لدرس البخاري»(123) كما صاحب أصدقاء والده من الرؤساء خاصة أحمد أبْلاَغْ الاسَاكي الذي قدم المترجَم للسلطان الحسن الأول عند زيارته لسوس عام 1303هـ قائلا : «إن والد هذا، سيدي الحاج عبد الله، شيخنا».(124)

أما ملاقاته السلطان فكانت أول مرة سنة 1299هـ عندما نزل إزاء تزنيت فزاره الأستاذ الإلغي رفقة طلبته، ثم عام 1300هـ رفقة القائدين سعيد المجاطي والحسن البنيراني، فلقى منه كل اعتناء وإكرام وأناله ظهير احترام وتوقير لكل أبناء قبيلة أيت عبد الله أوسعيد،(125) وعاد الأستاذ إلى زيارة السلطان عام 1303هـ وفي سفرته هذه توفي إثر مرض لازمه مدة.(126)

هكذا انتهت حياة الأستاذ الإلغي ولما يتم العقد الرابع من عمره إذ كان عمره يوم وفاته ثمانية وثلاثين سنة، توفي غريبا بعيدا عن موطنه حيث أسس لأسرته وقبيلته مجدا طريفا، وفتح لهم الباب على مصراعيه للخروج من الأمية إلى العلم والأدب، وترك فيهم المدرسة الإلغية عامرة بالطلبة مائجة بالحركة، فحقق في عمره القصير ما يعجز المعمَّرون عنه في أعمارهم الطويلة، وبفضل جده واجتهاده واتباع خلفه لخطاه، فاقت المدرسة الإلغية الحديثة العهد بالتأسيس نظيراتها العتيقات شهرة وإنجازا، كما تميزت عنها باهتماماتها الأدبية، واستطاعت أن تخرج «كثيرين ينيفون على المائة، يندر فيهم من لم يرم بسهم في الأدب، فضلا عن محبته وقدر قدره».(127)

---

122) انظر حول مهنة القضاء عند الفقهاء. الفصل الأول من الباب الثاني.
123) المعسول 1/ 171.
124) نفسه ص : 157.
125) نفسه ص : 170.
126) نفسه ص : 171.
127) سوس العالمة ص : 100.



نسب أستاذ المدرسة الإلغية ومؤسسها محمد بن عبد الله الصالحي.

المرجع : المعسول 80/1 ، 117 ، 125 ، 145 ، 156 ، 160

الفصل الثاني
تأسيس المدرسة الإلغية

المبحث الأول : الإطار المكاني للمدرسة الإلغية
أ - الموقع
ب - التضاريس
ج - المناخ
د - السكان ونشاطاتهم

المبحث الثاني : بناء المدرسة ومواردها الاقتصادية
أ - المحاولات الأولى لتأسيس المدرسة
ب - مشاورة العلماء
ج - بناء المدرسة
د - الموارد الاقتصادية

المبحث الأول - الإطار المكاني للمدرسة الإلغية :

تقع المدرسة الإلغية بقرية دوكادير في بسيط إلغ، وترتبط برباط وثيق بموقعها الجغرافي وإمكانياته ومؤهلاته الاقتصادية. فهو الذي حدد بناءها وقيامها بدورها التعليمي، واستمرارها تارة وتوقفها أخرى، عندما تضطرها الأزمات الاقتصادية إلى ذلك. ولن نستطيع فهم كل هذه الجوانب دون الإلمام بموقعها وخصائصه الجغرافية، بالإضافة إلى استقرار السكان ونشاطاتهم بوصفهم المصدر الأول لمواردها.

الموقع : يقع بسيط إلغ في قلب الأطلس الصغير، وبالضبط عند جزئه الغربي في منطقة منعزلة ومجانبة لجميع الطرق الكبرى الرابطة بين جنوب الأطلس وشماله، ويبعد هذا البسيط عن مدينة تزنيت بحوالي 84 كلم في جنوبها الشرقي، وعن فم الحصن جنوبا بحوالي 100 كلم، ويتوسط منطقة توزيع المياه بين الأودية الثلاثة الكبرى بالجنوب المغربي: وادي ماسة بواسطة رافديه أسيف أوليلي، وأسيف نتزرولت. ثم وادي نون بواسطة رافده وادي صياد، وأخيرا وادي درعة بواسطة رافده أسيف نتمنارت،(128) وتحيط بالموقع الجبال من كل الجهات فتشكل عازلا طبيعيا يعزلها عن المناطق المحيطة بها، فمن الجنوب فائجة تمنارت ومن الشمال الشرقي حوض تافراوت، ومن الشمال مرتفعات إيغشان، ومن الغرب جبال مجاط،(129) ويصل ارتفاع البسيط إلى 1200م عن سطح البحر، ويمتد على مساحة تتراوح ما بين 250 إلى 300 كلم2.(130)

وتنتشر بالمنطقة عدة قرى يقطن أغلبها أبناء قبيلة أيت عبد الله أوسعيد، ويشاركهم في استيطانها أبناء القبائل الآتية : أيت وافقا في الشمال الغربي، إيغشان في الشمال الشرقي، أمانوز في الغرب، أيت سموكَن وأيت حربيل في الجنوب، ومجاط في الغرب، ويبلغ عدد القرى إحدى وعشرين قرية يستوطن المرابطون السعيديون سبع قرى منها.(131)

---

128) Jean CHAUMEIL - Histoire d'une tribut maraboutique de l'Anti-Atlas... Hesperis T. p. 39-197.

129) ملاحظات شخصية إبان زيارة لعين المكان.

130) المرجع السابق، ص : 198.

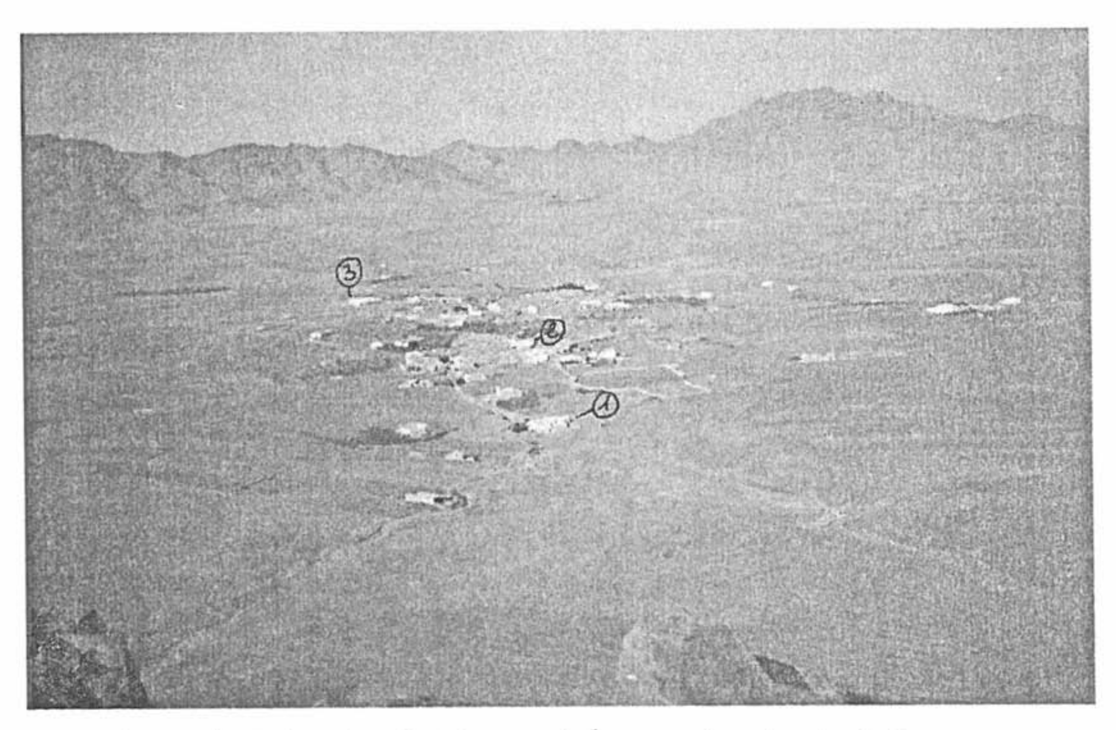
131) المعسول 1/ 28.

سبل الراجلين.
طرق معبدة.
طرق غير معبدة.
أهم التجمعات القروية
1 : الزاوية الدرقاوية
2 : قرية أيت سليمان
3 : قرية الزاوية العليا
4 : موقع المدرسة الإلغية
: الجبال

السلم :

المصدر: عمرانا ضمن محمد المختار السوسي، الذاكرة المستعادة ص: 188، مع زيادة وتصحيح منا.

خريطة منطقة إلغ والقبائل المستقرة بها.



* بسيط إلغ كما يشاهد من أعلى جرفة تاكنزا وتظهر المؤسسات الصوفية والعلمية بدوكَادير مرقمة :

1 - المدرسة الإلغية

2 - الزاوية التيجانية التي حولت إلى مسجد

3 - الزاوية الدرقاوية

ب - **التضاريس** : يمتد بسيط إلغ على مساحة واسعة، حيث تتدرج التضاريس وتتنوع انطلاقا من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، فالطرف الشمالي مكون من تقطع تضاريسي متصل بالبسيط المكون من قاعدة صخرية قديمة تغطيها في أغلب الأماكن طبقة رقيقة من التربة الحمراء الصالحة للزراعة، أما الجنوب الغربي فينتهي بجرف صخري عال ذي قمة حادة يصل ارتفاعها إلى حوالي 200م وعليها يقوم الحصن القديم، ويسمى هذا الجرف بتاكَانْزَا.(132)

وتتصل بتاكانزا جبال أخرى في مثل ارتفاعه إلى وادي أكَجْكَالْ في الجنوب الشرقي مكونة حزاما جبليا متصلا من جبل الخلوة، فأكُني والبْانْ (1317م) فأمَالُونَتْمَغُّورْدِينْ، ثم جبل أقَسْتُورْ، فوينْ تيكوينْ، ثم جبل أكجكال حيث منجم النحاس المتصل بجبلَ أزرار (1508م)، فتيزيَ أومَانوَزَ (1542م)، فالجبل الكبير : أدرار أومقسو (1670م)، ثم جبل توكالْ، فأدرار إيَغشَّانْ بالغ العلو (1974م)، ثم إيغيرْ الْخَميسْ، وأخيرا إيمي أكْني نايت وافقا المستند إلى جرف تاكنزا.(133) وتتكون هذه الجبال منَ كتل صخرية صلبة قديمة من صخور الكرانيت التحولية والمنتمية إلى عصر ما قبل الكامبري.(134)

ويكاد بسيط إلغ يكون مستويا إلا ما كان من بعض التلال والكدى الصغيرة الموزعة على مواقع مختلفة تتفاوت في العلو، وأعلاها كدية أسايَاكْ الواقعة في الشرق.(135) وتخترق إلغ عدة أودية صغيرة ومجاري مائية تجتاحها السيول الجبلية في موسم الأمطار، وتتجمع في وادي سْمُوكَنْ عند قرية دوكادير الذي يمر باتجاه الشمال الغربي مخترقا قرية سوق الخميس لأيت وافقا ليصب آخر المطاف في روافد نهر ماسة في موطن قبيلة إداوسملال.(136)

ويتميز بطن الوادي عند قرية دوكادير بتجمع تربة بيضاء من رواسب السيول، مما يجعلها صالحة لزراعة الخضروات والأشجار المثمرة، ويلاحظ المتأمل لأراضي البسيط كثرة الحجارة والصخور فيها كما هو حال أغلب أراضي الأطلس الصغير والسهول المحادية له، وتبرز في بعض مناطق إلغ قطع من القاعدة الصخرية التي تكون المنطقة، ولما كانت غير قابلة للاستغلال فإن السكان يقيمون عليها مساكنهم أو يستخرجون منها قطع الحجارة للبناء.(137)

---

132) ملاحظات شخصية وانظر أيضا .J. CHAUMEIL, p. 199

133) ملاحظات شخصية، وانظر أيضا خريطة دوكَادير في ص : 80 من هذا الفصل.

134) ES-SAAIDI. Précis de géologie p. 205.

135) المعسول 1/ 26.

136) معلومات قيدتها عن بعض المطلعين من أبناء المنطقة.

137) ملاحظات شخصية أثناء زياراتي لعين المكان.

ج - المناخ : يسود إلغ مناخ صحراوي - متوسطي وتتنازعها التأثيرات الصحراوية والمحيطية، حيث الجفاف شبه دائم يستمر حوالي ثمانية أشهر في السنة بسبب الرياح الصحراوية، كما أن القمم الجبلية العالية تعترض سبيل التأثيرات المقبلة من ناحية البحر مما يحول دون استفادة المنطقة من رطوبتها.(138)

ويعد فصل الصيف أطول الفصول، وفي نهايته عندما يقترب موسم الأمطار تنخفض درجة الحرارة فجأة في بضعة أيام، وهكذا ينتهي الصيف ويحل الخريف فتنفجر الأعاصير وتتساقط الأمطار بكثافة تحدث أحيانا فيضانات مدمرة للأرض الجافة العارية.(139) وتنخفض درجة الحرارة إلى أن تبلغ الصفر، ويتسلط «البرد القارس الشديد المشهورة به إلغ الفقيرة من كل شيء إلا من الأعاصير الهوجاء... في فصل الشتاء، والسماء تجود في كل صباح ببرد شديد، وجليد تصبح بها الأرض الإلغية الجرداء ووهادها وبسائطها، كأنها كسيت إزارا أبيض. فتأتي القواصف العاصفة مع هذا الذي ينتشر في كل صباح بما لا يمكن لأي حي لا يألفه أن يخرج معه لمقابلة الجو، فتأثير القر يتخلل الجسوم والزوابع تصفر صفير الجنة حول الجدران».(140)

وبعد انقضاء موسم الأمطار، تأتي فترة أكثر جفافا تتخللها تساقطات قليلة، وعند شهري فبراير ومارس تعود الأمطار للهطول، وقد تمتد حتى شهر أبريل، إلا أن مقاييسها لا تتجاوز المائة ملم،(141) ورغم ذلك فإن الفلاحين ينتظرونها بفارغ الصبر، إذ يعد هطولها ضمانا لموسم كثير الخصب، وهذا ما عبر عنه الشاعر محمد المختار السوسي بقوله في إحدى قصائده : (مجزوء الرجز)

الْغَيْثُ فِي مَارِسَ بَعْـ ـدَمَا انْقَضَى الصَّبْرُ الْجَمِيلْ
كَالْوَصْلِ جَاء بَغْتَةً مِنْ بَعْدِ هُجْرَانٍ طَوِيلْ
بَيْناً تَرَى الْجَفَافَ يَسْـ ـتَوْلِي عَلَى زَرْعِ الْحُقُولْ
وَالْوَرَقُ الرَّقِيقُ سِيـ ـمَ بِاصْفِرَارٍ وَذُبُولْ

---

138) D. Jaques-Meunié, le Maroc saharien... T1 p. 86.
139) Ibid, p. 92.
140) المعسول 9/ 130.
141) Jean CHAUMEIL - Histoire. p. 199.

وَلَفْـــحَـــةُ السَّـــمُــــوم تَرْ
مُـــضُ الْـبِــطَــاحَ وَالــتُّـلُـــولْ
وَصَـــرْصَـــرُ الإعْـــصَـــار يُهْـ
ـشِمُ الْـفُـــــرُوعَ وَالأصُـــــولْ
وَالْـيَـــــــــأس يُـرْسِـلُ عَـلَـى
أهْـلِ الْفَـــــلاَحَـــــةِ الـذُّهُـولْ
إذَا بِـمُــــــــــزْنٍ هَـــامِـعٍ
مُـــسْــتَـــرْسَلُ الْغَــيْث الْهَطُولْ
يُـحْـــــيِي الْبِـــــلاَدَ وَالْقُـلُو
بَ بِتَـــمَـــوُّجِ الـسُّـــيُـــولْ
فَــتَــسْــتَــرِدُّ الأرْضُ زَهْـ
ـوَهَـا مِـنَ الـزَّهْـرِ الْـبَـلِـيـلْ(142)

وبانقضاء أمطار الربيع يبدأ من جديد فصل الجفاف وعندئذ تهب الرياح الشرقية (الشركَي) بصفة فجائية، خاصة فترة ما بعد الزوال من كل يوم، فيأتي على المزروعات التي تجف بسرعة، أما الثلوج فإنها نادرا ما تتساقط على المنطقة، وغالبا ما تقتصر على السنوات المخصبة، ولا تدوم غير يومين أو ثلاثة وذلك في ارتفاعات يزيد علوها على 1500م.(143)

ويعد الماء المشكلة الأساس في هذه البيئة الجافة، فالتساقطات الموسمية غير كافية، ولهذا يتم اللجوء إلى استخراج المياه الجوفية بواسطة العيون والآبار. أما العيون فهي قليلة ولا يوجد منها إلا اثنتان، الأولى في سفح جبل أكَجكَال، والثانية في سفح جبل تاكَنزا، وهي قليلة الماء ويقال أن إعصارا هائلا أدى سقوطه إلى حفرها.(144) أما الآبار فهي موجودة في أغلب أطراف البسيط بفضل فرشات مائية باطنية على عمق أزيد من عشرين مترا، إلا أن كميات الماء تتفاوت حسب المواسم؛ فقد يحدث أن تجري المياه من الآبار فتسيل في الجداول ولكنها سرعان ما تغيض متى انتهى موسم الأمطار.(145)

أما النباتات فتنتشر في الجبال والمرتفعات وهي نباتات صحراوية شوكية غالبا، إلا أنها لا تلبث أن تذوي بسبب استمرار الجفاف فتصبح عندئذ صلبة وصالحة للاستعمال وقودا

142) المعسول 1/ 68.
143) D. Jacques-Meunié T.1, p. 93.
144) من الروايات التي يتداولها أبناء المنطقة.
145) المعسول 1/ 26.

لأفران المطابخ، أما الأشجار فهي منعدمة إلا ما كان من أشجار الزيتون واللوز والتين والعنب في المناطق الزراعية المسقية؛ ويظهر أن اختفاء الأشجار الغابوية يعود إلى أمرين : قلة التساقطات وارتفاع نسبة الجفاف مما يحول دون تكون غابات كبيرة، ثم اجتثات الأشجار المكونة للغابات القليلة التي وجدت بالمنطقة من لدن السكان لاستخدامها في البناء والطبخ؛ وقد أخبرني بعض سكان المنطقة(146) أنه ربما استخرج بعض جذوع الأشجار من تحت الأرض، وهذا يدل على وجود أشجار الغابات بالمنطقة ثم انقراضها وبقاء الأراضي المنبسطة والجبلية عارية إلا من نباتات صحراوية قليلة.

د - **السكان ونشاطاتهم** : يبلغ عدد سكان إلغ بقراه السبع والعشرين حوالي ألفين وأربعمائة نسمة حسب إحصاء تم إجراؤه سنة 1950م.(147) واستنادا إلى نتائجه فإن الكثافة تبلغ ثمان نسمات في كلم2، ويبلغ معدل التزايد الطبيعي 0.5%(148) وهي نسبة ضعيفة جدا، إذا أضفنا إليها سوء الأحوال الصحية، وقلة العناية الطبية نستنتج ارتفاع معدل الوفيات بين الأطفال حديثي الولادة، فلا يكاد يبقى على قيد الحياة إلا القليل، وزيادة على ما سبق، فإن المجاعات التي شهدتها المنطقة والأوبئة قد أدت إلى هلاك كثير من السكان، خاصة مجاعة 1294هـ/ 1877م الناتجة عن القحط والجفاف.(149)

ويتمركز السكان في المنخفضات بجوار الأودية حيث يتوفر الماء على عمق بسيط، وتنشط زراعة الخضراوات والأشجار المثمرة في تربتها الرسوبية البيضاء. وتبنى المساكن فوق الأجزاء البارزة من القاعدة الصخرية القديمة بهدف الحفاظ على الملكيات الضيقة الصالحة للزراعة والتي ترعاها كل أسرة.

ويشتغل سكان بسيط إلغ - وخاصة أبناء قبيلة أيت عبد الله أوسعيد - بعدة أنشطة أهمها الزراعة والتجارة، ففيما يخص الزراعة توفر التربة الجرداء مجالا لجني محاصيل هزيلة أو وافرة حسب كثرة الأمطار أو قلتها، ويمكن التمييز بين نوعين من الزراعة بالمنطقة :

الزراعة البورية : والشعير محصولها الأساس، وتتجلى أهميته في كونه القوت الوحيد للسكان كما أن منه علف ماشيتهم(150) «وقلما يحرث بعض الأغنياء من أصع القمح أو من العدس أو من الحمص».(151)

---

146) هي إحدى المسنات من قريباتي رحمها الله.
147) أجري من قبل إدارة الحماية بتافراوت انظر : Jean CHAUMEIL p. 199.
148) المرجع السابق.
149) إضافة إلى المجاعات هناك أيضا الأوبئة، انظر حول ذلك المعسول 2/ 76.
150) لازال المرابطون الإلغيون حتى الآن يحافظون على هذا النمط في المعيشة.
151) المعسول 1/ 26.

الزراعة المسقية : وتنحصر في بقع صغيرة بجانب الآبار تسمى (تَارْكَا) حيث تتم زراعة الخضروات في قطع أرضية مجهرية، كاللفت والجزر والبصل والفول والباذنجان والفلفل الحار والقرع بأنواعه،(152) بالإضافة إلى أنواع الأشجار المثمرة، وتسقى هذه الزراعات بجلب المياه من الآبار.

ويغلب على النشاط الزراعي الهزال والضعف، إذ إن «أرض إلغ لا تخصب كثيرا حتى إنها قلما تفي صاع محروثة في الإخصاب إلا بنحو عشر إلى اثنتي عشرة، ولهذا يتعذر الاتساع في المعيشة بإلغ».(153)

وللتعويض عن هذا الضعف يهتم السكان بتربية الماشية، حيث ينتجعون منتجعات إسافن «وهو خلاء يباب متسع أفيح في الجنوب من بسيط إلغ، إذا أخصب يكون كنزا للمواشي الإلغية»(154) وهناك تنمو النباتات الشوكية والأعشاب البرية، ويتم هذا الانتجاع في فصل الشتاء عندما تكون المزروعات البورية قد نمت، وصار من المتعذر إيجاد أماكن للرعي في البسيط كله، ويستغل الإلغيون خصب بعض السنين للذهاب إلى حوض تمنارت جنوبا حيث يحرثون الأراضي الواقعة على ضفاف روافد وادي نون، إلا أنه كثيرا ما تتعرض المزروعات عند نموها للآفات كالجراد المقبل من الصحراء فتكون المزروعات الإلغية من أول ما يصادف في طريقه.(155)

أما التجارة فهي نشاط تكميلي للزراعة ويشتغل بها بعض المرابطين، فيرتحلون إلى الأسواق المجاورة وفق مواعيد دورية ثابتة؛ فخلال الشتاء يتجرون في التمور، يأتون بها من الجنوب من تَمَنَارْتْ وطاطا وأَقًّا وفَمْ الحْصَنْ وإيشْتْ، في قوافل من الجمال ثم يرتادون بها الأسواق الأسبوعية القريبة كسوق الخميس بأيت وافقا، والجمعة بإداوسملال، والأحد بتَاهَلَة والأربعاء بتافراوت، أما في الصيف فيتجرون في الحبوب خاصة الشعير، يبيعونها في سوق الأحد لكل من تاهلة وإيسي.(156)

ويزاول السكان نشاطات معاشية أخرى بعد الفراغ من الأشغال الزراعية، وتنفرد النساء ببعضها دون الرجال، كغزل الصوف وحياكة الملابس والأغطية، وجمع الحطب والنباتات الجافة من الجبال للتدفئة والطبخ، وقد يختص بعض الناس بصناعات وحرف معينة كالحدادة والنجارة والدباغة والإكافة،(157) غير أن غالبهم يصنعون حاجاتهم

---

152) نفسه وقد لاحظت الشيء نفسه في زياراتي العديدة لعين المكان.
153) المرجع السابق.
154) المعسول 1/ 26. وانظر موقع إيسفان على خريطة إلغ ص : 106.
155) من الروايات التي استقيتها من زياراتي لإلغ.
156) أخبرني بهذا العم عبد الله بن أحمد السعيدي الإلغي لما جالسته بتزنيت، الجمعة 31/ 7/ 92.
157) المعسول 1/ 35.

بأيديهم لما في ذلك من اقتصاد في النفقات التي يكلفها اقتناؤها من الغير، ولهذا «ترى أهل إلغ يجدون ويجتهدون في كسب المعيشة ويقتصدون غاية الاقتصاد، ثم لا ترى واحدا منهم خاليا من أي شغل من أشغاله حتى إذا جلس إليك، أو كان أمام المسجد ينتظر إقامة الصلاة بعد أن يتوضأ، يشتغل بإبرام حبل، أو إصلاح دلو أو وطبة، أو بخرز نعله، أو بخياطة ثوبه أو رفوه أو ترقيعه...».(158)

نلاحظ من خلال ما سبق أن بسيط إلغ منطقة جافة جرداء، تتميز بمناخ قاس، سواء في موسم الحرارة أو البرودة؛ بالإضافة إلى أن إمكانية العيش فيها ضيقة للغاية؛ فالأرض ضعيفة المردود شحيحة الموارد. وقد لخص الإلغيون معاناتهم بقولهم: «إن كل بلدة تسعى على أهلها إلا إلغ فإن أهلها هم الذين يسعون عليها... ثم إن إلغ لا يطيق أن يمد الساكن فيه إلا بوجبة الغذاء فقط، هذا إن دام فيه الخصب، وأما الهجوري فمن تمنارت - يعني التمر - وأما العشاء فمن ماسة - يعني ذرة ماسة التي تجعل منها العصيدة».(159)

158) المعسول 1/ 27. وقد انقرض الآن كل هذا بعد وصول المستلزمات الحضارية لكل الجبال السوسية، وبعد هجرة أغلب السكان خاصة الشباب منهم إلى المدن الشمالية.

159) نفسه ص: 27.

المبحث الثاني – بناء المدرسة ومواردها الاقتصادية :

يعد بناء المدرسة الإلغية امتدادا للحركة التعليمية بجبال جزولة التي انطلقت منذ القرن العاشر الهجري، وتمخضت عن تأسيس مجموعة من المدارس بالمنطقة، كالمدرسة الجشتيمية ومدرسة تانكرت وبومروان وإيزربي وأيت وافقا وإيغشان وتارصواط وتهالة...(160) وتوجت بتأسيس هذه المدرسة أواخر القرن الثالث عشر الهجري.

ويشكل تأسيس هذه المدرسة حدثا هاما في التطور التاريخي للقبيلة، في اتجاه استقلالها عن القبائل المجاورة، وسعيها الحثيث لتصبح موقعا مركزيا بالمنطقة، بعد أن كانت تدور في فلك الزعامات المجاورة، كما رأينا من قبل، وتجلى هذا السعي في ظهور مؤسستين قبليتين في زمن متقارب : الزاوية والمدرسة.(161)

أ – المحاولات الأولى لتأسيس المدرسة :

حمل محمد بن عبد الله همَّ نشر العلم في بلده، ولم يكن بوسعه القيام ببناء مدرسة علمية لأول وهلة، بسبب ما يقتضيه هذا المشروع من جهد ومال لا يتوفران لشخص واحد منفرد مثله. ولم يكن بوسعه أيضا الإستعانة بقبيلته لتحقيق الهدف، لانقسامها على نفسها، وكونها مجموعة أسر «إفَاسَّنْ» تدور كل واحدة منها في فلك قبيلة مجاورة، فليست هناك وحدة حقيقية تفرز جماعة مكلفة برعاية شؤون القبيلة العامة والنظر في مصالحها الكبرى، فإذا كانت القبائل الأخرى تهتم ببناء مراكزها التعليمية وتموينها ورعاية طلبتها وأساتذتها والمحافظة على استمراريتها، فإن قبيلة أيت عبد الله أوسعيد لم تكن تولي هذا الجانب أية أهمية، إذ كانت تكتفي بالاستفادة من مبادرات القبائل الأخرى دون أن تحدو حدوها، بل كان أغلب أبنائها يرون أن تأسيس مدرسة مضيعة للجهد والمال، مادامت في الجوار مدارس عديدة مفتوحة أبوابها لجميع الطلبة لا يردهم عنها أحد، ومادامت مثل هذه المدارس تحتاج إلى نفقات لا تستطيع تحملها إلا القبائل الكبيرة.(162)

هكذا وجد محمد بن عبد الله نفسه وحيدا في مواجهة مشروعه الفذ، فقرر الاعتماد على إمكانياته الذاتية والأسرية، خصوصا وأن والده كان متوسعا في معيشته، فاستطاع بفضل مساعدته، تحويل مسجد القرية إلى مدرسة بعد إضافة بنايات أخرى، وتحمل نفقات الطلبة الأوائل الذين توافدوا عليه. إلا أن هذه الخطوة كانت تسير نحو الفشل بسبب تجاوز

---

160) انظر حول هذه المدارس، سوس العالمة ص : 156 ومدارس سوس ص : 93 والمدخل.
161) المعسول 1/ 164 و223. أسست المدرسة عام 1297هـ والزاوية الدرقاوية عام 1302هـ.
162) المعسول 1/ 156.

تكاليفها قدرات الأستاذ، فأضحت المشارطة في مدرسة بومروان حلا مؤقتا لتلك الأزمة المادية الأولى التي جابهت المشروع.(163)

وخلال سنوات الجذب التي تلت المشارطة في المدرسة السملالية استطاع الأستاذ الإلغي امتلاك مساحات واسعة من الأراضي، حتى أصبح بمقدوره جمع محصول سنوي يقدر بحوالي ألف غرارة،(164) وهو قدر كبير جدا مقارنة بمتوسط الإنتاج العام وبالنظر إلى طبيعة المنطقة المجذبة.

وقد مكنته حيازة هذه الأراضي الشاسعة من تطوير مشروعه التعليمي كما وكيفا، وذلك بتجاوز مرحلة المدرسة المسجدية إلى تشييد مدرسة قائمة بذاتها بعيدا عن القرية، وإعالة عدد أكبر من الطلبة الآفاقيين. وبذلك تجاوزت مدرسته محيطها القبلي الخاص لتنفتح على القبائل المجاورة وحتى البعيدة كأيت باعمران وأيت جرار...

ب - مشاروة العلماء :

لما توافرت لمحمد بن عبد الله الإمكانات المادية التي تؤهله لتأسيس مدرسته الخاصة، اتجه أولا إلى مشاورة بعض القائمين على المدارس المشهورة، من كبار العلماء كالحاج الحسين الإفراني عميد الطريقة التيجانية بسوس،(165) ومسعود بن محمد البونَعْماني رئيس مدرسة بونعمان، والحسن بن أحمد بن محمد التِّمْكِّدْشْتي رئيس مدرسة تيمْكَدْشْت وزاويتها.(166) ولعله كان يبحث في مشاوراته هذه على سَند نفسي لمشروعهَ الطموح، وعلى تزكية زملائه الفقهاء المدرسين. وقد وقف هؤلاء موقفين متباينين : فهناك من شجعه على تحقيق أمنيته، كالشيخ الحاج الحسين الإفراني الذي استخار الله له، فقال : «لعل سر تيمكَدشت في العلم ينتقل إلى إلغ...»(167) وفي الجانب الآخر كان من شك في قدرة الأستاذ الإلغي على تحقيق طموحه كالتمكَدشتي «... لما رآه من ضؤولة جسده، ونحافة قوامه فظن أنه رجل أقوال لا رجل أفعال...».(168)

ويظهر أن سبب استغراب التيمكَدشتي إنما يعود إلى معرفته بشؤون المدارس، وعلمه أنها لا تقوم إلا بمساعدة قبيلة وافرة المال، واسعة الجاه، في حين أن محمد بن عبد الله لا

163) المعسول 1/ 163.
164) نفسه : 168.
165) انظر ترجمته بالمعسول 4/ 26 وما بعد.
166) المرجع السابق ص : 164.
167) المعسول 11/ 164 وانظر أيضا المعسول 5/ 277، ومترعات الكؤوس ص : 233 - 234.
168) المرجع نفسه ج : 1 ص : 164.

يمتلك من ذلك شيئا، بالإضافة إلى كون بلده منطقة مجذبة لا تفي إلا بوجبة واحدة في اليوم إن دام فيها الخصب.(169)

غير أن طموح الأستاذ الإلغي وهمته تكلفا بتزييف رأي المتشككين، كما زيف رأي أخيه علي عندما شكك في جدوى بناء المدرسة فأجابه قائلا : «ما بنيت هذه المدرسة إلا لأجرب هممنا لأعرف أنحن رجال مقتدرون أم لا ؟ ولكي يعرف الناس من أنت، هل أنت رجل مقتدر نهاض بالعظائم أو أنت خائر العزيمة ممن يردهم خيال ويرهبهم ظل، ويتطايرون بنفخة واحدة أدراج الرياح؟».(170)

ج - بناء المدرسة :

قرر الأستاذ الإلغي بناء مدرسته وهو لا يزال في مدرسة بومروان السّملالية مشارطا، ولأجل التفرغ لمشروعه، استدعى الشيخ عليّاً الدرقاوي(171) ليخلفه فيها، ثم انطلق إلى قريته للشروع في البناء، وذلك أواسط عام 1297هـ، ولم يدم العمل فيه غير بضعة شهور، فالتحق الأستاذ بمدرسته الجديدة في شهر رمضان من نفس العام؛(172) ولعل من الأسباب المساهمة في التعجيل بإنجاز المدرسة ما تذكره الروايات الشفوية من استنكاف سكان الزاوية مخالطة الطلبة الآفاقيين، ناظرين إليهم بعين الشك والريبة، ومثل هذا معتاد في أمثال هذه البيئة المحافظة، فألحوا على الأستاذ أن يبني مدرسته خارج القرية حتى يكون الطلبة في منأى عنهم وعن أهلهم.(173)

وكيفما كان الأمر، فإن ما يميز المدرسة الإلغية عن مثيلاتها السوسية كونها أسست على يد فرد واحد فقط، وهذا ما لم يعهد مثله بسوس «فالمعهود في كل المدارس السوسية المنبثة بين القبائل أنها تؤسس على أيدي أهل القبيلة الذين يجمعون من عندهم أجرة أساتذتها، ومن أعشارهم للطلبة الغرباء المنقطعين فيها».(174) لقد كانت القبائل تقوم ببناء المدارس

---

169) انظر المبحث الأول من هذا الفصل.
170) المعسول : 1 / 171.
171) من أغرب ما يكون أن نرى الأستاذ ناعمي يدعي في تعريفه بإلغ ومدرستها أن الشيخ عليا الدرقاوي ابن لمؤسس المدرسة محمد بن عبد الله الإلغي، رغم أنهما متقاربان سنا، ورغم أن الأستاذ العلامة محمد المختار السوسي أطنب كثيرا وأوضح، بما لا مجال فيه لأي لبس، أنساب الإلغيين بالضبط التام فالشيخ الدرقاوي هو علي بن أحمد بن محمد، والأستاذ الإلغي هو محمد بن عبد الله بن صالح، فياليت شعري أين يلتقيان ؟ انظر معلمة المغرب 2/ 643 - 644 وقارن بالمعسول 1/ 160 و184.
172) المعسول 1/ 166.
173) أحمد رزقي الصالحي في مقابلة معه قبيل رمضان 1412هـ.
174) المعسول 1/ 165.

لتوفير الأطر اللازمة لتسيير مؤسساتها، كإيجاد الأئمة للمساجد، والقضاة للتحكيم، والمفتين للنظر في النوازل، والأساتذة لعمارة المدارس، أما قبيلة أيت عبد الله أوسعيد بأسرها المنقسمة المتنافسة في ميدان المعاش، فلم تكن تعير أي اهتمام لإقامة المدارس بل اكتفت بالمساجد دون أن يقوم أبناؤها بعمارتها مثل مسجد الزاوية الذي كان مقصورا على طلبة دويملالن.(175)

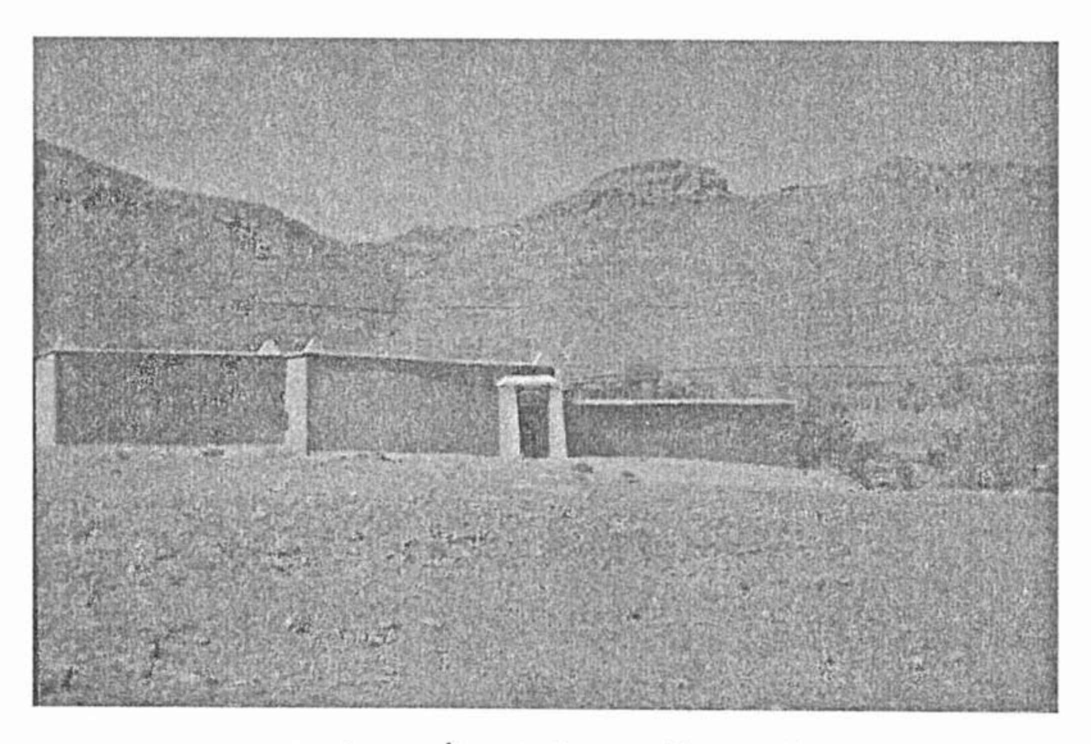
لهذا كانت مبادرة محمد بن عبد الله الإلغي محاولة لتوجيه قبيلته وأبنائها نحو الوجهة السليمة، وهم الذين عرفوا بأن الآية الكريمة : ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾(176) شعارهم، لا يلتفتون للعلم والتعلم إلا نادرا، حتى إن أول فقيه في القبيلة إنما نزع به إلى تعاطي العلوم أخواله العلماء التَّوْيِيتيون،(177) ورغم توالي المتعلمين من أبناء القبيلة، فلم يكن أحد منهم يطمح إلى نشر مَعَارفه بل كانوا يتجهون إلى ميدان القضاء أو النوازل لعلهلم يصيبون منها ما يتعيشون به.

د – الموارد الاقتصادية :

تعتمد المدارس السوسية عموما على إسهامات القبائل وأبنائها خاصة الأغنياء منهم، في تموين الطلبة والأساتذة، دون أن يكون للسلطة المركزية، أي المخزنية، يد في ذلك، وتتوقف قدرة المدرسة عادة على مواردها الاقتصادية التي تكفل للمقيمين بها الاستمرار.

---

175) المعسول 1/ 162.
176) الآية 54 من سورة طه، وانظر المعسول 3/ 109.
177) المعسول 1/ 139.



منظر عام للمدرسة الإلغية بعد الإصلاح الأخير حوالي عام 1990م

لما كانت المدرسة الإلغية مؤسسة تعليمية قائمة بجهود فردية من حيث التأسيس والتموين، فقد تعرضت لهزات عنيفة كادت تؤدي بها، إذ تكفل المؤسس أول الأمر بإيواء الطلبة وإطعامهم، إلا أن الاستمرار في هذا الاتجاه كان ينذر بالنهاية، لولا أن كانت هناك مصادر أخرى ساعدت على بقاء المدرسة واستمراريتها. ويمكن تقسيم هذه المصادر إلى قسمين :

المصادر الداخلية : ونعني بها تلك التي يدفعها أبناء القبيلة عامة وأسرة المؤسس خاصة، وقد ذكر الأستاذ المدني بن علي أن المرابطين السعيديين حيثما كانوا التزموا بدفع ربع أعشارهم للإلغية،(178) سوى المتبرعين والمتطوعين، بينما يذهب ما تبقى من الأعشار إلى الزاوية والمدرسة المقامتين على ضريح جد القبيلة عبد الله بن سعيد التهالي.(179)

المصادر الخارجية : ونقصد بها الإعانات التي تتلقاها المدرسة من خارج القبيلة، أي من القبائل المجاورة، كآل تاكَانزا الذين التزموا بدفع سدس أعشارهم، وآل تاجرمونت ثمن أعشارهم(180) التزاما كتابيا،(181) أما آل أغوديد وأسيف مقورن فقد قاموا بإمدادها بالحطب، كما كان الإيغشانيون يمدونها بين الفينة والأخرى بإعانات مختلفة.(182) وبالإضافة إلى الأعشار والإعانات هناك محصول بعض الجولات التي كان يقوم بها الأستاذ الإلغي بمعية تلاميذه، كقيامه بزيارة مدرسة تانكرت بإفران عام 1301هـ(183) «فحين حلوا دار الشيخ(184) طلب منهم رؤساء قبيلة تانكرت أن يتتبعوا قراهم بياتا فأسعفوهم، وكان الزيت مخصبا جدا في تلك السنة حتى كاد يكون بلا ثمن، فصار أهل القرى يجمعون للأستاذ والطلبة قبضة - نحو كيلو - من الزيت لكل دار، ثم اتبعوا سيرهم يتقرون أيضا قرى إداوشقرا إلى أن حلوا بتيمولاي أسفل إفران... ثم رجع الأستاذ ومن معه إلى إلغ يحتقبون خيرا كثيرا وأجرا حافلا».(185)

هذه هي الموارد الاقتصادية للمدرسة الإلغية،(186) فإلى أي حد استطاعت المحافظة على سيرها والقيام بأمر قاطنيها ؟

---

178) رسالته إلى القبطان فلورني مصورة من خزانة خاصة مؤرخة في جمادى الثانية عام 1357هـ.
179) من حديث العم عبد الله السعيدي بتزنيت 31/ 7/ 92.
180) رسالة المدني بن علي إلى القبطان فلورني بتاريخ جمادى الثانية 1375هـ.
181) أخبرني الأستاذ محمد بن الحسين بن علي الإلغي أنه رأى بعض هذه الالتزامات الكتابية في إحدى الخزانات.
182) المعسول 1/ 125.
183) المرجع نفسه ص : 169.
184) المقصود الشيخ المدني الناصري رئيس مدرسة تانكرت انظر ترجمته بالمعسول 10/ 39.
185) المعسول 1/ 169.
186) انظر موارد أخرى ثانوية في الفصل الثالث من هذا الباب.

لقد ارتبط اقتصاد المدرسة ارتباطا مباشرا بالمحاصيل الزراعية، المتعلقة بدورها بالتساقطات، حيث يتفاوت الخصب بتفاوت الأحوال الجوية والأمطار؛ لذا صار مصير المدرسة مرتبطا بالأرض ومحاصيلها الزراعية؛ فما أن تجذب الحقول حتى يصبح استمرار الدراسة مستحيلا.

فإذا كانت مسغبة 1294هـ قد منحت محمد بن عبد الله إمكانية تأسيس مدرسته، فإن قحط عام 1297هـ قد اضطره إلى إعادة تنظيمها سعيا إلى تحمل أدنى قدر من الخسارة فقد «طعن الأستاذ هذه الطعنة، فلم يجد لها دواء إلا أن يجيل على تلاميذه نظرة فيستبقي منهم من تقدم في التعلم وظهرت نجابته، ثم يودع سواهم ويواعدهم يوم يعود الدهر بخيره».(187)

فهشاشة البنية الاقتصادية للمنطقة خلقت بعض الاضطراب في تسيير المدرسة فلم يكن إنشاء هذه المؤسسة استثمارا «يستهدف الإبقاء على التجهيزات وتعويض المدفوعات بعد أن تتكفل فصائل إلغ بتحمل النفقات»،(188) كما عبر أحد الباحثين إذ إن مساهمات القبيلة وحتى القبائل المجاورة، خاصة في المرحلة الأولى من عمر المدرسة لم تكن تكفي لسد حاجات الطلبة، والأساتذة الذين كانوا ينوبون عن المؤسس في تسيير الدروس إبان غيابه،(189) وقد كان الطلبة يعيشون على الزاد القليل صابرين محتسبين خاصة الآفاقيين منهم المعتمدين اعتمادا كليا على طعام المدرسة الذي لم يكن يتعدى في أحسن الأحوال وجبتين يوميا.(190)

---

187) المعسول 1/ 168.

188) ناعمي مصطفى مادة إلغ معلمة المغرب 2/ 643.

189) المرجع السابق ص : 169.

190) صالح بن عبد الله الإلغ المدرسة الأولى ص : 23 .

الفصل الثالث
المدرسة بعد وفاة مؤسسها

المبحث الأول : مرحلة ازدهار المدرسة.

أ - علي بن عبد الله على رأس المدرسة.

ب - علي بن عبد الله يشارط تلميذه التاجرمونتي.

ج - مغادرة التاجرمونتي وتعثر المدرسة.

د - عودة علي بن عبد الله للتدريس ثم وفاته.

المبحث الثاني : مرحلة انهيار المدرسة

أ - المدني بن علي خليفة أبيه في المدرسة.

ب - الحسن بن علي وأخوه الطاهر يتكلفان بالمدرسة.

ج - المدرسة في مرحلتها الأخيرة.

تـمـهـيـد :

لم تكد تمر خمس سنوات على بناء المدرسة، وإقبال الطلبة عليها بعدما اشتهرت بالجد في الدراسة، حتى اختطفت يد المنون مؤسسها محمد بن عبد الله بن صالح، عند عودته من رحلته إلى مراكش لزيارة السلطان الحسن الأول.

وبموت المؤسس انهد ركن أساسي من أركان المدرسة، وطويت صفحة مرحلة التأسيس. لتبدأ مرحلة جديدة؛ إما أن يكون فيها ازدهار هذه المؤسسة الفتية، أو اندثارها وهي لازالت في بدايتها.

والآن، وبعد مرور أزيد من مائة سنة على التأسيس، نلاحظ من خلال المعطيات المتوافرة أنها مرت بمرحلتين رئيسيتين بعد وفاة مؤسسها :

مرحلة الازدهار : على يد أخيه وخليفته، علي بن عبد الله الإلغي، الذي قضى على رأس المدرسة ما يقارب نصف قرن.

مرحلة الضعف : وهي التي تلت وفاة الأستاذ أبي الحسن الإلغي، حيث تداولها أبناؤه، وتميزت بظهور معطيات سياسية واجتماعية وثقافية جديدة بوصول الحماية الفرنسية إلى جبال جزولة.

المبحث الأول : مرحلة ازدهار المدرسة :

شهدت هذه المرحلة تطور المدرسة الإلغية، وبروزها بين قريناتها السوسية؛ بفضل جهود صاحبها الأستاذ علي بن عبد الله ومشارطه بلقاسم التاجرمونتي؛(191) واستطاعت تجاوز العقبات والأزمات التي مرت بها، والقيام بدورها التعليمي.

أ - علي بن عبد الله على رأس المدرسة :

ارتحل الأستاذ محمد بن عبد الله إلى مراكش رفقة بعض قواد قبيلة مجاط لزيارة حضرة السلطان الحسن الأول، كما هي عادة العمال والوجهاء في كل عيد مولد،(192) وترك رسالتين؛ الأولى لصهره ورفيقه الشيخ علي بن أحمد الدرقاوي، يوصيه فيها أن يقوم بالمدرسة لحين عودته من رحلته، أما الثانية فبعث بها إلى طلبة المدرسة وعلى رأسهم أخوه علي، حيث عينه مكلفا بشؤونهم،(193) ولم يلبث نعي الأستاذ محمد بن عبد الله أن دهم إلغ؛ فاستمر الشيخ الإلغي في إلقاء الدروس مهتما بإعداد أخي الفقيد لتسلم مقاليد الأستاذية، وحذاه ذلك إلى التفرغ له، بعد أن قدم الأستاذ الحاج محمد اليزيدي إلى المدرسة مشارطا ليحافظ على سيرها وعلى قراءة الطلبة المعتكفين بها،(194) فكان علي بن عبد الله يلازم دروس اليزيدي نهارا، ومراجعات الشيخ الإلغي ليلا وكان يقضي معه جل الليل في إعداد دروس الغد، باستفتاح المغلقات واستيضاح المشكلات.(195)

وقد لبث سير المدرسة على هذا النحو مدة تسعة أشهر كانت فترة إعداد وتدريب للأستاذ الجديد، فلما «أحس من قوادمه وخوافيه بقوة يقتدر بها على مطايرة أقرانه في المدرسة، بل يبذهم بذا حتى يصلح أن يكون أستاذهم بالاستحقاق، وأن يسموا تلاميذه بكل جدارة»(196) ودّع مشارطه اليزيدي أواسط عام 1304هـ، ثم تصدر للإقراء والمحافظة على المدرسة حتى تبقى على ما كانت عليه أيام مؤسسها، ويبطل تنبؤ أحد الفقهاء(197) الذين شيعوا جنازة أخيه حين أنشد : (الطويل)

إِذَا غَابَ مَلاَّحُ السَّفِينَةِ وَارْتَمَتْ بِهَا الرِّيحُ يَوْماً ضَيَّبَتْهَا الضَّفَادِعُ

191) انظر ترجمته بالمعسول 9/ 5.
192) محمد المختار السوسي - الترياق المداوي في أخبار الشيخ سيدي الحاج علي السوسي..، ص : 25.
193) انظر الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب
194) محمد المختار السوسي الترياق المداوي... ص : 25.
195) المعسول 1/ 327.
196) نفسه.
197) هو الفقيه أحمد بن عبد الله الوكَاكَي، انظر ترجمته بالمعسول 11/ 54.

استمر تعاطي العلوم بالإلغية، وبقي بها طلبة بعدما آنسوا من أستاذهم الجديد علما ومعرفة ومقدرة على التدريس توازي مقدر أخيه الفقيد، بل إن بعض الطلبة الذين غادروا المدرسة بعد تصدره للتدريس فضلوه على الأساتذة الذين تتلمذوا لهم بعده، يقول أحد هؤلاء : «للدرس واحد آخذه عن الأستاذ أكثر فائدة من عشرة آخذها عن فلان...».(198)

كما حاول الأستاذ علي بن عبد الله توسيع مدارك طلابه العلمية بتمكينهم من إتقان العلوم التي لا يدرسونها إلا قليلا، مما لا يتيسر لهم معها إتقانها إتقانا تاما كالعلوم الرقيقة،(199) والحساب والفرائض، ولأجل ذلك يقوم الأستاذ إما :

* بإرسال طلبته للدراسة بالمدارس المعروفة بإتقان هذه العلوم ومداومة تعاطيها، مثل : المدرسة الأدوزية، ومدرسة أفلاّ وكَنس، والمدرسة البوعَبدلية... وغيرها.(200)

* باستدعاء بعض العلماء المتقنين لتلك الفنون، للإقراء بالإلغية لفترة معينة بصفتهم أساتذة زائرين، كمحمد بن علي الرسموكي، وبوضاض الأخْصاصي،(201) ولتشجيع طلبته على اغتنام فرصة حضور هؤلاء العلماء كان يجلس معهم في الدروس يتمرن على عمل الفرائض والحساب.(202)

ومن هذه الأعمال يظهر حرص الأستاذ الإلغي على تعليم طلبته كل ما يروج في سوس من العلوم، فـ«أين نظير الأستاذ في مثل هذا الصنيع، حين لا يستنكف أن يأخذ تلاميذه الأخصاء عن غيره، مع ما نعهده من غالب معاصريه من اعتداد كل واحد منهم بنفسه وبعلومه وبمدرسته الخاصة، فلا يكاد يسلم للآخرين مكانتهم في المعارف من بعيد، فضلا عن أن يتنازل حتى يبعث إليهم أصحابه أو يستقدمهم، فيجلس مع تلاميذه بين يديهم فيأخذ عنهم هو أيضا كما يأخذون...».(203)

وبالإضافة إلى الاهتمام بالتحصيل العلمي للطلبة، صرف الأستاذ علي بن عبد الله همه لضمان الموارد الاقتصادية للمدرسة، وهي الأعشار والإعانات التي يدفعها المرابطون وجيرانهم، وذلك من خلال السعي للحصول على ظهائر التوقير والاحترام ومراسيم تنفيذ الأعشار من قبل السلطة المخزنية أولا، ثم الإمارة المعينية ثانيا :

1 - استغل الأستاذ الإلغي فرصة بسط الحكومة المخزنية سلطتها على سوس؛ بإرسال الوزير أحمد بن موسى عاملين على المنطقة، أحدهما القائد سعيد بن محمد الكَيلولي.

---

198) المعسول 1/ 328.
199) هي البيان والأصول والمنطق، انظر المعسول 13/ 323.
200) انظر المعسول 1/ 344، 2/ 207 ـ 231.
201) انظر لائحة الأساتذة الزائرين للمدرسة في الباب التالي في فصل النظام الإداري.
202) المرجع السابق ص : 344.
203) المعسول 1/ 344 - 345.

فاتصل بهذا القائد بعد أن عينه إخوانه المرابطون رئيسا لهم؛(204) مقدما بين يديه الظهائر التي حصل عليها من السلطان الحسن الأول، والتي تنص على تحرير المرابطين وعلى تعيينه قاضيا على إلغ وقبائلها.

رجع الأستاذ من عند القائد، بتجديد الظهائر من خلال مرسوم تحرير المرابطين «تمييزا لهم من العوام، وتنزيها لساحتهم المطهرة عمن سامها بضد ذلك أو رام، وامتثالا لأمر الله بتعظيم حرماته التي هتْكها من كبائر الاجترام، وتنفيذا لحكم ما تضمنه ما بأيدهم من ظهير سيدنا المقدس من أنهم لا يساموون بأدنى تكليف، ولا يضامون بأقل توظيف...».(205)

وقد خص المرسوم الأسرتين الصالحية والدرقاوية بمزيد احترام وتوقير خاصة «السيد البركة سيدي الحاج عْبَلاّ بن صالح بزاوية تحت الحصن، وولده الشيخ صالح العلماء وعالم الصلحاء الفقيه سيدي علي بن عبد الله، وحاشيته القريبة. وكذلك قدوة السالكين ومربي المريدين الشيخ سيدي علي بن أحمد الدرقاوي وحاشيته كذلك، فإن هؤلاء ممن وجب... القيام على ساق الجد في خدمتهم بحسب الاقتدار، لما خصوا به من حلية العلم وزينة الوقار ونشرهم في الناس بضاعتهم من النصح والعلم والأسرار...».(206)

كما حصل الأستاذ الإلغي على مرسوم بتنفيذ الأعشار للمدرسة نصه : «فحامله الفقيه الأديب العلامة النجيب والمدرس الأريب، سيدي علي بن عبد الله الإلغي، أذنا له في قبض أعشار من اشتمل عليهم الظهير المكتوب له على أيدينا، وصرفها على طلبة العلم المستفيدين بمدرسته المحروسة بالله، عمرها الله بدوام ذكره، وصرفها في مصالح زاويته، إعانة على البر والتقوى، وعليه أن لا ينسانا في صالح دعواته في خلواته وجلواته. وانصدر منا الإذن بذلك لعشر بقين من ذي الحجة عام 1315هـ.(207)

وقد سعى الأستاذ علي بن عبد الله لنيل هذين المرسومين؛ مؤملا ردع قائدي مجاط سعيد المجاطي ومبارك البنيراني، عن التسلط على المرابطين؛ ينزعان منهم أعشارهم ويطحنانهم بالمغارم والإتاوات المتتابعة، تحت ستار الحماية(208) كما كانا يفعلان بأبناء قبيلتهم المجاطية، فكانت تلك المراسيم المخزنية تزكية لما ألف المرابطون القيام به من دفع أعشارهم للمدرسة، وحجر عثرة أمام أطماع المجاطيين التي يحاولان إلباسها صفة

---

204) انظر المعسول 1/ 331 وكان من أوائل من دفعوه لتلك الرئاسة الشيخ علي الدرقاوي.
205) المرسوم المؤرخ في 24 ذي الحجة عام 1315هـ انظر المعسول 1/ 114، والظهير رقم 1 من الملحق.
206) انظر الظهير رقم 1 من ملحق الوثائق والظهائر.
207) المعسول 1/ 331.
208) انظر الفصل الأول حول علاقة المرابطين بجيرانهم.

المشروعية، متحينين الفرص للحصول على إذن مخزني لضم المرابطين إلى إيالتهما. وفي انتظار ذلك كانا يمدان أيديهما إلى بعض الإلغيين يختلسان ماشيتهم. فكان الأستاذ علي بن عبد الله يوالي الشكاوى على القائد الكَيلولي، فيكتب إلى المجاطيَين ينهاهما عن غيّهما، فكانا يرتدعان ولكن إلى حين.(209)

توفي الوزير أحمد بن موسى فتغير الوضع في سوس بتغير الوزارة وعين القائد محمد ابن إبراهيم أنفلوس على سوس بدل الكَيلولي، فسارع إليه القائد سعيد المجاطي «فتقرب إليه فطلب منه أول ما لاقاه بسط يده على المرابطين السعيديين، فمكنه من ذلك فسقط في يد الأستاذ وخاف من بطش المجاطي... فربض القائد ينتظر الفرص بالأستاذ، ويهدده أشد تهديد من بعيد، ويقول للناس لابد أن يؤدي كل تلك الأعشار التي أدخلها في أيام الكَيلولي...».(210)

تسلط المجاطيون على الإلغيين، فوالوا عليهم المغارم، إلا أنهم لم يستطيعوا مس المدرسة وصاحبها بأدنى سوء،(211) وما لبث ظل السلطة المخزنية أن تقلص عن سوس، فرجعت الأحوال إلى سابق عهدها. ثم ما لبث الصحراويون أن ظهروا في الميدان، فكان الأستاذ علي بن عبد الله من أول الوافدين عليهم.

2 - اتصل الأستاذ علي بن عبد الله بالشيخ الهيبة بن ماء العينين منذ أعلن قيامه لمجاهدة قوات الحماية عام 1330هـ، مثلما وفد عليه العلماء والفقهاء والطلبة وكل ذي جاه وسلطة، خاصة بعد مبايعته أميرا.(212) فكان أول ما فعل الأستاذ الإلغي الحصول على ظهائر التحرير وتنفيذ الأعشار والتعيين للقضاء من قبل الأمير الجديد.(213) وقد نص ظهير التحرير على أن «أولاد الولي الكامل والمربي الواصل السيد عبد الله بن سعيد دفين أيغور، يعاملون بالإجلال والاحترام والتبجيل والإكرام، ولمن سكن من بينهم كآل تحت الحصن، وأولاد سيدي محمد بن أحمد(214) مالهم من ذلك، مراعاة لحق الجوار بحيث يستثنون مما تكلف به العامة من الأمور المخزنية في كل شيء، وبلا تخصيص أو محاشاة أمر يحتاج إلى التنصيص، سوى ما فرض عليهم من أداء الأعشار بالكتاب تطهيرا للرقاب، ودفعا لمعاناة العقاب، وقد عينا حامله الفقيه الأرضى السيد علي بن عبد الله بن صالح الإلغي يكون واسطة بيننا وبينهم، فيما لعله يعرض لهم من ذلك، وعيناه لقبض أعشار من

209) المعسول 1/ 332 - 333.
210) نفسه ص : 334.
211) نفسه.
212) انظر المعسول 4/ 105 وما بعد.
213) تمت البيعة للهيبة آخر جمادى الآخرة، والظهائر مؤرخة بآخر رجب 1330هـ.
214) المقصود بآل تحت الحصن، الخربيليون من غير المرابطين.

ذكر، وصرفه على طلبة العلم بزاويته المحروسة(215) بالله، فإن حصل من ذلك فوق الكفاية فيدفع لبيت المال. وعليه بتقوى الله في ذلك ومراقبته فهو المسؤول عنه، ومن تعرض لهم بغير مقتضى هذا الرقيم فقد تعدى الحدود، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ والواقف عليه من جيرانهم يعمل به ولا يحيد عن كريم مذهبه، صدر به أمرنا المعتز بالله في 3 بقيت من رجب الفرد عام 1330هـ».(216)

وبواسطة هذه الظهائر والمراسيم، سواء منها السلطانية العلوية أو الأميرية الصحراوية، استطاع الأستاذ علي بن عبد الله حيازة أعشار المرابطين بشكل رسمي لصالح مدرسته والطلبة المقيمين بها، وكان يخشى تسلط هؤلاء العمال المخزنيين عليها بدعوى أنها من حق بيت المال، إلا أن هذا التسلط صدر من بعض المرابطين الذين أنفوا من دفع أعشارهم لابن عمهم الأستاذ إثر حصوله على مرسوم الكَيلولي،(217) فقاموا ببناء مدرسة أخرى بأيمور وذلك عام 1317هـ حسدا من أنفسهم، كما وصفهم العلامة المختار إذ قال : «... أصبحوا ممن يتخبطهم الشيطان من المس، تتآكل قلوبهم مما ينفسونه على أخيهم فيما آتاه الله من فضله، فأوحى إليهم حسدهم ما أوحى، فأقبلوا يؤسسون بزعمهم مدرسة أخرى بأيمور إزاء مشهد الجد سيدي عبد الله بن سعيد، فصاروا يدفعون إليها بقبضة من أعشارهم فكانت مدرستهم كمسجد الضرار...».(218)

وبعد امتناع هؤلاء المرابطين عن دفع أعشارهم للإلغية، سعى رئيس الزاوية الدرقاوية لدى الأمير الهيبة للحصول على ظهير بتنفيذ أعشار المرابطين الإلغيين لزاويته عام 1334هـ، وكان الأستاذ علي بن عبد الله حصل على هذا الظهير منذ عام 1330هـ فكاد عدم تنظيم الصحراويين لأمورهم، يحدث فتنة بين الأسرتين المتنافستين لولا تداركهم الأمر وانتهاء الأزمة ببقاء الأعشار تحت تصرف المدرسة.(219)

ب - الأستاذ علي بن عبد الله يشارط تلميذه التاجرمونتي :

انشغل الأستاذ علي بن عبد الله بخطة القضاء التي قلده إياها السلطان الحسن الأول منذ عام 1303هـ.(220) ولم يكد يحل عام 1312هـ حتى انصرف كلية عن إقراء الطلبة

215) المقصود المدرسة والمعلوم أن الأستاذ علي بن عبد الله يشرف على زاوية آله التيجانية.
216) الظهير رقم 3 بالملحق، والآية الأولى من سورة الطلاق.
217) هم المرابطون المقيمون في منطقة أكادير إيزري جنوب غرب إلغ انظر خريطة إلغ. ص :
218) المعسول 1/ 165 ورسالة المدني بن علي إلى القبطان فلورني.
219) المعسول 2/ 241.
220) المصدر السابق ص : 329.

وهم كثيرون. وخشية تعطل الدراسة استدعى تلميذه بلقاسم التاجرمونتي ليتكلف بإقراء المبتدئين ويقتصر هو على إلقاء الدروس العليا.(221)

وبلقاسم التاجرمونتي من تلاميذ المدرسة المتخرجين منها دون أن يلتحق بمدرسة غيرها، وكان من أوائل الوافدين على محمد بن عبد الله بعد سنة من التأسيس، ولازمها مجدا حتى غادرها عام 1310هـ، وقد نال «مقاما كبيرا في التحصيل وشفوفا ساميا على غالب أقرانه، خصوصا في العربية التي أتقنها إتقانا عجيبا لغة وتصريفا، فيستحضر في ذلك العجب العجاب، كما أحكم متون الفقه المتداولة : العاصمية والزقاقية والمختصر والعمل الفاسي والرسالة. وأما النحو واللغة فهو قطب رحاهما...».(222)

أتقن التاجرمونتي جميع الفنون التي تروج في المدرسة، حتى أضحى نموذج الطالب الإلغي المحصل الطموح. لذلك استدعاه أستاذه ليعينه في التدريس، ثم صار يحيل عليه المهام وبوصول السلطة المخزنية إلى جبال جزولة، وظهور الشيخ الهيبة في الميدان، قام بالتدريس وحده ولم يعد صاحب المدرسة متفرغا لإلقاء الدروس حتى العليا منها، فتصدى تلميذه لتنظيمها حيث عيّن للمبتدئين من يراجع لهم ألواحهم من النجباء، وجعل في كل طبقة من يناسبها من الطلبة(223) وهم يقاربون يومئذ الخمسين؛ منهم أحد عشر طالبا في الطبقة العليا، وثمانية عشر في الوسطى، وخمسة عشر في الأولى. غالبهم نجباء وهم الثابتون المثابرون الصابرون على لأواء إلغ وعلى شدة ضنكه وصبارة برده.(224)

أقبل التاجرمونتي بمعية طلبته على الدراسة بحماس وجدّ كبيرين مدة ثلاث وعشرين سنة، قضاها في الإلغية يلازم فيها «ملازمة الطلبة، وعاكف نظيرهم في كل أيام السنة، إلا في العواشر المعهودة، فتأتى له بهذه المواظبة الغريبة التي لا تعرف تقطعا، ولا بطالة، ولا مغادرة إلا إلى مشارفة أهل أو مال، أو إلى تسوق موسم أو سوق إلا ما قل؛ أن خرج طبقات كثيرة من نجباء التلامذة المتقنين إتقانا كثيرا كل ما أخذوه...».(225)

وقد تأتى له ذلك بليونة أخلاقه وكثرة صبره وحسن معاملته للطلبة؛ إذ كان يتواضع لهم، وينصحهم ويخفض لهم جناحه، حتى كان يؤاكلهم ويعاشرهم، ويجيب داعيهم إذا

221) المعسول 9/ 9.
222) نفسه، ص : 8.
223) المعسول 9/ 9.
224) المعسول 10/ 158 – 159.
225) المعسول 9/ 10.

استضافوه في بيوتهم، ملقيا جمود الفقهاء جانبا، لابسا رداء الأريحية؛ فاستحق لذلك تنويه العلامة المختار السوسي به، إذ قال «حقا إن الأستاذ التاجرمونتي سحاب منهمر القطر، صاب ما صاب في إلغ، حتى غادر الحدائق ممرعة، والكؤوس مترعة، والأفكار متدفقة، والأزهار متفتقة، فكانت له يد عظيمة لا تنسى على الإلغيين، بإعانته إعانة تقوم في تشييد المجد الإلغي بل كان هو اليد العاملة فيه وحده سنوات فسنوات، أفلا يحق لإلغ وأبناء إلغ بدورهم أن يعرفوا مكانة الرجل المكينة، ومقدار عمله الخالد؟».(226)

وبفضل هذا العمل الدائب مدة ما يقرب من ربع قرن، خرّج الأستاذ التاجرمونتي ما يزيد على مائة طالب، موزعين على القبائل المجاورة والمناطق البعيدة، كقبيلة أيت باعمران وماسة وحاحة وغيرها...(227)

وقد شهدت المرحلة الأخيرة من مقام الأستاذ التاجرمونتي بالمدرسة، قيام ابن المؤسس عبد الله بن محمد مطالبا بمدرسة أبيه، ووقوع صراعات بين المرابطين كان من نتائجها مغادرته المدرسة، وذلك عام 1335هـ، وإضعافها وانحسار أهميتها حينما صادف ذلك الانحسار العام للتعليم العربي في سوس عقب مسغبة 1345هـ.(228)

1 – قيام عبد الله بن محمد مطالبا بالمدرسة :

تخرج الأستاذ عبد الله بن محمد من المدرسة الإلغية ومن مدرسة تانكرت، ثم شارط تباعا في مدرستي أداي وإيغشان حتى عام 1333هـ،(229) حين رجع إلى قريته مطالبا بمدرسة والده، زاعما أنه أحق بها من عمه الأستاذ علي بن عبد الله، الذي سارع إلى عرض القضية على الأمير الهيبة بن الشيخ ماء العينين، باعتباره سلطان البلاد إذ ذاك، أثناء إحدى زياراته،(230) فوعده خيرا. غير أن المسألة لم تنته عند هذا الحد، إذ يبدو من إحدى رسائل الهيبة أن هناك شخصا ثالثا متدخلا في القضية بإعانة ابن المؤسس فيما هو بصدده، مما حدا بالأستاذ الإلغي إلى إعادة الاتصال بالشيخ الهيبة مكاتبة طالبا منه :

– نهي ذلك الشخص عن التدخل في القضية لعرقلة تسويتها، فأجابه الهيبة برسالة قال فيها : «وقد كتبنا إلى من أشرت إليه، وذكرت أنه يريد السعي في الخوض بأن يكف عن كل ذلك ولا يسعى إلا في الخير والإصلاح كما هو المناسب، لا سيما بين ذوي الأرحام

---

226) المعسول 9/ 7.
227) انظر لائحتهم بالمرجع نفسه من ص : 27 حتى 31.
228) انظر المعسول 3/ 272.
229) المعسول 2/ 158 – 159.
230) انظر رسالة الشيخ الهيبة إلى الأستاذ الإلغي المؤرخة بـ 10 رمضان عام 1333هـ من أوراق عبد الله بن الحسن الصالحي رقم 8 من الملحق.

الأخيار، أبناء السادة الكرام، المحمولين على كاهل المبرة والإكرام، فكن مطمئن البال بذلك بارك الله فيك وعليه وأقر عينيك في كل ما لديك...».(231)

- إبداء رأي نهائي في قضية المدرسة؛ وقد أجاب الشيخ عن هذا الطلب بقوله في رسالة أخرى: «... أما ما ذكرت من أمر المدرسة، فالكلام فيه هو الذي قدمنا وقلنا بين يديك، بحضرة جم غفير من الناس لا يتبدّل ولا يتغير بحول الله...».(232)

وقد استعان الأستاذ الإلغي بصديقيه محمد بابا الصحراوي(233) والقائد الناجم الأخصاصي(234) للوقوف بجانبه في هذه القضية، ويبدو ذلك من خلال تذييل الشيخ الهيبة لرسالته السابقة بما يلي: «... وجزى الله الفقيه السيد محمد بابه عنا وعنك أحسن الجزاء، فقد بلغ عنك من الوقوف، وبصرنا فيه من أمورك الجميلة بما لا مزيد عليه حسنا، دمت كذلك مسرورا مرضيا هنا وهناك. ولا تنسنا من صالح أدعيتك، جزيت بأنواع السرور في دوام الحبور...»(235) ومن خلال رسالة بعثها القائد الناجم إلى الأستاذ الإلغي يبلغه فيها وقوفه إلى جانبه يقول فيها: «محبنا الأرضى الأفضل المرتضى، الفقيه الأجل الأكمل الأمثل، سيدي علي بن سيدي عبد الله الإلغي. سلام على سيادتك ورحمة الله وبركاته عن خير مولانا أيده الله، أما بعد فالأحوال لله الحمد كلها بخير وفيما تحب، وسيدنا أيده الله كما عرفت. وقد تشافهنا معه، وسيصلك كتاب سيدنا الشريف أعزه الله.(236) وادع الله لنا بخير ولا تنسنا بالتمام وعلى المحبة والسلام في فاتح رمضان المعظم عام 1333هـ الناجم بن مبارك وفقه الله».(237)

وقد انتهت هذه القضية بارتضاء الطرفين الأمير الهيبة حكما بينهما فاصدر حكمه لصالح الأستاذ علي بن عبد الله محتجّا بأنّ:

* المدرسة بشهادة العلماء محبسة على طلبة العلم وعلى العلماء وكل من له نية في خدمة العلم، فهي لذلك لا تورث بل يتولاها القادرون على تسييرها.

---

231) رسالة الشيخ الهيبة الثانية المؤرخة بـ 10 رمضان عام 1333هـ أوراق عبد الله بن الحسن الصاخي رقم 9 من الملحق.
232) الرسالة رقم 8 من الملحق.
233) كان محمد بابا ضيف علي بن عبد الله بإلغ بضعة سنوات قبل أن يصبح كاتب الشيخ الهيبة الخاص انظر ترجمته بالمعسول 3/ 29.
234) جمع الجهاد بجانب الشيخ الهيبة بين الأستاذ الإلغي والقائد الناجم الاخصاصي انظر في ذلك ترجمة القائد بالمعسول 20/ 5 - 174.
235) أوراق عبد الله بن الحسن الصاخي الرسالة رقم 7 من الملحق.
236) يقصد الأمير الشيخ الهيبة.
237) أوراق محمد بن الحسين الصاخي.

* الأستاذ علي بن عبد الله أكثر علما وأكبر سنا من ابن أخيه لذلك استحق إسناد أمر المدرسة إليه.

* الأستاذ الإلغي أكثر اهتماما بأمور المسلمين؛ ويعني ذلك مبايعته الشيخ الهيبة، وسعيه لجمع القبائل على أمره، ومرافقته في حملاته، بينما حافظ الأستاذ عبد الله بن محمد على بيعته الحفيظية كما يظهر من رسالته التي بعثها إلى أحد إخوانه الواردين على الهيبة بتزنيت لمبايعته عام 1330هـ، والتي يتنبأ فيها بذهاب ريح الصحراويين وفشل أمرهم.(238) وقد وردت كل هذه الحيثيات في الحكم الذي أصدره الشيخ الهيبة ونصه : «يعلم من مسطورنا هذا الشريف أسمى الله قدره، وخلد في الصاخات طيه ونشره، أننا بعدما تحاكم لدينا : الفقيه السيد علي بن عبد الله الإلغي، وابن أخيه الفقيه السيد عبد الله بن محمد في أمر مدرستهما. فثبت عندنا وقفيتها باتفاق علماء ولتيتة، تأقررناها بيد الفقيه السيد علي المذكور، وأسندنا إليه النظر في جميع أمورها جلبا ودفعا وإقراءا وغير ذلك لوفور علمه وورعه واهتمامه بأمور المسلمين، ولقوله ﷺ : «البركَةُ أعْلَمَنَا اللهُ من الأكابرْ» وأمرنا السيد عبد الله المذكور بالكف عنها. أصلح الله الجميع والسلام. صدر به أمرنا المعتز بالله تعالى في 7 شوال عام 1333هـ».(239)

2 – ظهور صراعات بين المرابطين :

تتميز قرية دوكادير إلغ حيث يقيم المرابطون بانقسامها إلى ثلاث تجمعات سكنية : قرية الزاوية العليا حيث المدرسة والزاوية التجانية، وقرية أيت سليمان حيث الزاوية الدرقاوية، وبينهما قرية دوكادير مقر السكان الأصليين من الخربيليين.

وقد نشأت منافسة قوية على الزعامة بين الزاويتين بعد وفاة الشيخ علي الدرقاوي عام 1328هـ،(240) بين رئيس المرابطين الأستاذ علي بن عبد الله وخليفة الشيخ الدرقاوي، محمد بن علي(241) وقد كادت هذه المنافسة تؤدي إلى وقوع فتنة بين المرابطين، بعد مقتل أحمد بن علي بن عبد الله الإلغي، على يد بعض من كانوا بالزاوية الدرقاوية من الغرباء.

---

238) انظر الرسالة في الباب الثالث من هذا الكتاب.

239) أوراق عبد الله بن الحسن الصاخي الظهير رقم : 9 في الملحق، وما نسب إلى الرسول ﷺ ليس حديثا بل هو من شواهد «أعلم وأرى» في النحو، انظر شرح ابن عقيل 4/ 65. أما الحديث الصحيح فهو «البركة مع أكابركم» رواه ابن حبان والحاكم، انظر المقاصد الحسنة لمحمد السخاوي تحقيق عبد الله محمد الصديق مكتبة الخانجي 1956 ص : 144.

240) المعسول 1/ 312.

241) انظر ترجمته بالمعسول 2/ 233.

وقد أورد العلامة المختار السوسي تفاصيل هذه الحادثة(242) حينما تعرض لذكر القتيل إذ قال: «وقدر الله أن كان يختلف إلى قرية دو كادير لقضاء أغراض، فكان يلتقي هناك بثلاثة رجال من كسيمة وهشتوكة كانوا عندنا في الدار، حين رجع الأخ سيدي محمد من قبيلة إدا أوزيكي أول عام 1331هـ فكان يجاذبهم الحبال، يتحكك بهم ويتحككون به وفي ليلة - لسبب من الأسباب - ثاور بعضهم بعضا أواسط الليالي في أزقة القرية، فسقط برصاصة أحدهم فكانت فتنة مشتعلة حفظ الله من نارها مرابطينا».(243)

وقد سبب هذا الحادث توترا دائما بين الزاويتين كاد يتحول إلى حرب ضروس بعد تدخل حماة الجانبين من مجاطيين وبعقليين، لولا توسّط بعض تلاميذ المدرسة مثل الأستاذ الطاهر بن محمد الإفراني وجيران القرية مثل الإيغشانيين وغيرهم،(244) حتى ارتضى الطرفان رفع القضية إلى الشيخ الهيبة الذي حكم فيه بالاقتصاص من القاتلين،(245) واقترح على الأستاذ الإلغي استلام دية ولده إلا أنه كان يكاتب الأمير رافضا العرض مشتكيا مما أصابه، من ذلك رسالة يقول فيها:

«مَلِكَ الْمُلُوكِ أَسَامِعٌ فَأُنَادِي أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوَادِ

السلطان الكبير المقامَ، والإمَام العظيم المقدام، أبو العباس سيدي أحمدَ الهيبة ناصر المظلوم، ومداوي المكلوم. أما بعد السلام الأطيب الأعذب أكرر على مسامع سيدي أنني في كدر مخيم، وفي حزب الثكلى الأيم، فقد قتل ولدي وفلذة كبدي، عدوانا وغيلة، فليترك سيدي قال الغير وقيله، فليس ولدي بعبد آخذ ثمنه، ولا ببقرة فأطيب إن جزر المعتدون بدنه، فقد دفعتم لي أمس من دفعتم ممن قلتم أنهم وحدهم من القاتلين، فهرب منهم واحد فصرت موضع شماتة الشامتين، وقد بقى القاتل حقيقة يمد لي الأصابع، فإني والله لذلك جازع، فقد نفد الصبر، وتجرعت ما تجرعت من الصبر، فلابد أن يؤخذ الثأر، وأن لا يقال للعاثر العثار...».(246)

وقد أدى هذا الصراع إلى خروج الأستاذ بلقاسم التاجرمونتي من المدرسة الإلغية، منهيا بذلك جده واجتهاده فيها، بعد أن طرد الأستاذ صاحب المدرسة الطالب أحمد بن محمد الصالحي الذي يروي سبب طرده قائلا: «.... وقع ما وقع بين الفقيه سيدي علي بن عبد الله وجيرانه، بعدما قتل ولده أحمد، وقد كان والدي من المناوئين للفقيه فأحسست بأن

---

242) انظر ملابسات أخرى للحادثة بالمعسول 2/ 353.
243) المعسول 1/ 387.
244) أخبرني بذلك العم عبد الله بن أحمد السعيدي الإلغي في مقابلة بتاريخ 28/ 7/ 1992 بمنزله بتزنيت وانظر المعسول 3/ 147.
245) المعسول 1/ 387.
246) المعسول 4/ 221.

موقفي حرج، فأردت أن أغادر المدرسة، وقد قلت بيدي لا بيد عمرو، فاستأذنت الأستاذ سيدي بلقاسم فقال : أمكث حتى نعلم هل المدرسة لله أو الوجهيات ؟ ثم طردني الفقيه رحمه الله... فأتيت ببغلتنا فحملت متاعي، فذهبت بكتب كنت استعرتها من كتب زاوية الشيخ الإلغي يعطيها لي سيدي سعيد التناني،(247) كما كان يعينني ببعض دراهم فينة بعد فينة، ثم قال لي لا تتأخر عن متابعة دراستك... فقلت له إنني سأزور شيخي سيدي بلقاسم لأشاوره، وكذلك فعلت فقال لي الآن نودع كلنا المدرسة،(248) فكان ذلك آخر عهده أيضا بها».(249)

وبخروج الأستاذ التاجرمونتي من المدرسة انتهت فترة مزدهرة من حياتها العلمية والأدبية الفائقة لتدخل فترة خمود وضعف.

جـ - مغادرة التاجرمونتي وتذبذب المدرسة :

غادر الأستاذ بلقاسم التاجرمونتي المدرسة عام 1335هـ، بعدما حاول الأستاذ الإلغي استبقاءه،(250) فتوقفت الدراسة وغادر عدد من الطلبة، الذين خيرهم التاجرمونتي بين المقام في الإلغية أو مرافقته إلى الإيغشانية حيث قرر الاستقرار.(251) ولملء الفراغ والمحافظة على استمرار الدروس، استقدم علي بن عبد الله بعض الأساتذة من تلاميذه كعلي بن صالح الأوفقيري الإلغي الذي «أرسل إليه... ليعلم سيدي الطاهر وسيدي الحبيب ولديه القرآن ثم يدرس بعض أنصبة في المدرسة»،(252) والأستاذ أحمد بن الحاج محمد اليزيدي، وقد استدعاه لما غادر الأوفقيري المدرسة عام 1337هـ،(253) فكتب إليه رسالة يستحثه فيها على القدوم، قال فيها «أصلح الله أعز الأحبة لذاته، وسيد لداته، سيدي أحمد بن الحاج محمد، وسلام عليه ورحمة الله وبعد، فأشركني من الأدعية المرضية وقد علمت حال هذا العبد، وما كلفه به الوقت من الأمور الدينية والدنيوية : (الوافر)

تَكَاثَرَتِ الظِّبَاءُ عَلَى خِدَاشٍ فَمَا يَدْرِي خِدَاشٌ مَا يَصِيدُ

على أنه لا خير فِي علم لا ينشَر، وجّاه لا يذكر، وقد أمر الله بالتعاون على البر والتقوى، وقصر فلاح العبد على التواصي بالحق والصبر، وقد أعطيت ما يغني عن هذا

---

247) صهر الشيخ الدرقاوي انظر التعريف به في المعسول 15/ 5.
248) انظر سببا آخر لمغادرة الأستاذ التاجرمونتي بالمعسول 9/ 11.
249) المعسول 2/ 346.
250) المرجع السابق.
251) نفسه ص : 12.
252) المعسول 2/ 69.
253) نفسه.

كله، لكنه كما قيل : «قد رأينا التأكيد خطة عجز» فطر على جناح الشوق والتوق، متحليا من شكر النعم بأجمل طوق، والسلام».(254)

وقد عضَد طلب الأستاذ الإلغي تلميذه الطاهر الإفراني برسالته إلى تلميذه اليزيدي،(255) يدعوه فيها إلى إجابة الدعوة حيث قال : «... ثم إن شيخنا الإلغي أرضاه الله وأطال بقاءه، استدعاك للمذاكرة في المدرسة المنورة لتحصيل نفع الدنيا والأخرى، لما رآك أحق بذلك وأحرى، فلبِّ نداء السعد إذ دعاك، فما كل من طلب السعادة نالها : «خذ النصيحة قبل الفوت من لدني» فمن طُلب ولم يُجب، طَلب فلا يُجاب، واغتنم فرصة التدريس في نعمة الصحة والفراغ، فلا ترغ عنها في جملة من راغ،(256) فالعمر متجر الربح والخسران، والعاقل لا يعطل الأيام في خصوص الحطام الفان...».(257)

غير أن هؤلاء الأساتذة لم يطل مقامهم بالمدرسة فلم يقض بها الأوفقيري سوى سنتين، واليزيدي ثلاث سنوات. ولذلك لم يستطيعوا المحافظة على مستواها العلمي والأدبي الذي بلغته بفضل جهود أساتذتها السابقين المجدين وآخرهم التاجرمونتي، ويمكن اعتبار هذه المرحلة بداية ضعف المدرسة، بدءا من عام 1335هـ حين حلّ فيها الأوفقيري لتصل إلى ذروتها عام 1345هـ(258) لما غادرها اليزيدي إبان المسبغة الكبرى في سوس. وفي هذه الفترة انخفض عدد الطلبة من سبعة وأربعين عام 1330هـ(259) إلى حوالي ثلاثة عشر طالبا عام 1340هـ،(260) وسبب مغادرة الطلبة عدم انتظام الدروس، فتدهورت حالة المدرسة بقلة طلبتها وتذبذب مسيرتها وتجسد ذلك في مظهرين اثنين :

الأول : إبطال تطبيق القوانين المدرسية التي كانت مطبقة بدقة لمعاقبة الطلبة المتكاسلين، فصار القارئون بالمدرسة أحرارا في حضور الدروس والصلوات وقراءة الأحزاب القرآنية، وكل واحد يفعل ما يحلو له دون حسيب أو رقيب.(261)

254) المعسول 9/ 174.
255) انظر في ذلك المعسول 9/ 170 - 171.
256) يظهر مما ذكرنا هنا أن الأستاذ استدعى بعض طلبته للإقراء بمدرسته فامتنعوا.
257) المعسول 9/ 173.
258) المعسول 9/ 174.
259) المعسول 1/ 158 - 159.
260) حدثني بذلك الفقيه القاضي محمد الكثيري أثناء جلسة معه بعد عصر الثلاثاء 22 شتنبر 1992 بضيعته بأولاد داحو بهوارة.
261) المصدر نفسه وانظر الفصل الثاني من الباب الثاني حول النظام الإداري للمدرسة.

الثاني : اندثار عادة حضور الطلبة في المواسم والحفلات السنوية للتباري مع أقرانهم في المدارس السوسية، فقد أخبرني الفقيه محمد الكثيري الذي قضى بالمدرسة ما يزيد على أربع سنوات(262) أنه لم يحضر مع الطلبة إلا موسما سنويا واحدا.(263)

د - عودة علي بن عبد الله للإقراء بمدرسته :

رأى الأستاذ الإلغي ما حل بمدرسته من ضعف بسبب عدم استقرار الأساتذة بها، فحاول تدارك الأمر بتصديه للإقراء بنفسه، إلا أن طلائع مسغبة 1345هـ لم تلبث «أن طلعت على أهل هذه الجهة، فعركت الناس عركا ولاقوا منها عرق القربة، وقد نال الأستاذ منها بعض جهد... وقد خلت الأهراء ونفدت الذخائر وأعوز المعينون...»(264) فكان ذلك سبب خلو المدارس السوسية من طلبتها بما فيها الإلغية، واضطر الأستاذ الإلغي لتوديع بعض طلبته وإبقاء قلة ممن يستطيع تموينهم، فزاد ذلك المدرسة ضعفا إلى ضعف، ثم لم تكد هذه السنة الشهباء تنقضي، وينثال بعض الطلبة على المدرسة من جديد، حتى مرض الأستاذ مرض موته فاستخلف ابنه المدني لتسيير شؤون المدرسة، ثم ما لبث أن لفظ نفسه الأخير يوم الجمعة سادس ربيع الثاني عام 1347هـ.(265)

انتهت حياة الأستاذ الإلغي، وانتهت معها مرحلة مزدهرة من حياة المدرسة، بانتظام الدروس، وجدية الأساتذة المشارطين واستقرارهم، وتحمس الطلبة، ووفرة المواد التموينية، إلا ما كان من سنوات المساغب، بفضل سعي الأستاذ لضمان الموارد الاقتصادية لمدرسته التي اشتهرت بين نظيراتها السوسية بقيامها على الجد والمثابرة، حتى شرق ذكرها وغرّب، وظهر تلاميذها بين أقرانهم السوسيين.

كما صارت المدرسة مركزا علميا وناديا أدبيا يجتمع فيه الفقهاء والعلماء والأدباء من كل الجهات، فيقضون عدة أيام في ضيافة أصحابها يراجعون فتاوي فقهية، أو يتناظرون في مسائل لغوية، أو ينشدون قصائد شعرية، ومن بين الذين ضمهم هذا النادي العلمي والأدبي من السوسيين : الشيخ العلامة أبو العباس أحمد الجشتيمي،(266) والأستاذ بوضاض الأخصاصي،(267) ومحمد بن علي الرسموكي،(268) والعلامة محمد بن

---

262) من عام 1339هـ حتى عام 1342هـ أخبرني بذلك عند زيارتي له.
263) جلسة مع محمد الكثيري، والموسم كان بأنزي بقبيلة إدا وبعقيل.
264) المعسول 1/ 374.
265) المعسول 1/ 375.
266) انظر المعسول 6/ 105.
267) انظر المعسول 8/ 134.
268) انظر المعسول 8/ 176.

العربي الأدوزي...(269) وغيرهم. ومن الصحراويين : محمد بابا الصحراوي،(270) ومحمد الإمام،(271) وابن العتيك،(272) وسيديا الصحراوي،(273) ومحمد سالم الصحراوي(274) ... كما توثقت صلات الإلغيين بغيرهم من سكان الحواضر المغربية من العلماء والأدباء، كالرباط، وسطات، وفاس، بواسطة تلميذ الإلغية البارّ الأستاذ الطاهر الإفراني.(275)

وخلال هذه المدة التي قضاها الأستاذ علي بن عبد الله على رأس المدرسة، أخذ عنه طلبة كثيرون وبلغ عددهم اثنين وثلاثين ومائة، موزعين على خمس عشرة قبيلة ومنطقة.(276) وبهؤلاء الطلبة خاصة الأدباء منهم انتشر صيت المدرسة وإشعاعها في سوس والصحراء، وتجاوزها إلى حواضر المغرب الشمالية.

---

269) انظر المعسول 5/ 149.
270) انظر المعسول 3/ 29.
271) انظر المعسول 4/ 284.
272) انظر المصدر نفسه ص : 294.
273) انظر المعسول 3/ 26.
274) انظر المصدر نفسه، ص : 35.
275) انظر ذلك في الفصل الثالث من الباب الثالث.
276) انظر لائحة هؤلاء الطلبة في المعسول 1/ 967 - 372.

المبحث الثاني – مرحلة انهيار المدرسة :

ابتدأ ضعف المدرسة منذ مغادرة التاجرمونتي وتعثرت مسيرتها لما تداولها عدة أساتذة في زمن يسير، وقد حاول صاحبها تدارك الأمر إلا أن مسغبة 1345هـ ثم وفاته سنة 1347هـ حالا دون الإصلاح المأمول، الذي سيعيد المدرسة إلى مجدها السابق لو أمهلت الأقدار الأستاذ.

أ – المدني بن علي خليفة أبيه على المدرسة :

كان علي بن عبد الله مهتما بتربية أولاده اهتماما كبيرا حتى يجعل منهم نموذجا يحتذى لدى أقرانهم من تلاميذه وكان مهتما أكثر بإعداد ابنه المدني للقيام بشؤون المدرسة، ولأجل ذلك استخلفه عليها في آخر أيام حياته، ثم لما احتضر «أحاط به أبناؤه، كالنجوم تحيط بطفاوة البدر في علياء السماء ليلة الصحو، فكان مما أوصى به الحاضرين أن يسلموا مقاويد المدرسة لسيدي المدني، فإنه أحق بها، لأنه كريم سمح جواد...».(277)

وكان أول ما فعل الأستاذ الجديد الاتصال بحضرة الأمير الصحراوي محمد المصطفى مربيه ربه الذي خلف أخاه الهيبة المتوفى عام 1337هـ،(278) ليحصل منه على تجديد الظهائر التي حصل عليها والده من قبل، والتي تنص على رئاسة المرابطين وتنفيذ أعشارهم لمدرسته، ويبدو أن رئيس الزاوية الدرقاوية المنافسة حاول الحصول على الرئاسة بعد وفاة الأستاذ علي بن عبد الله، لكن دون طائل كما في الظهير الأول الذي يتضمن إبقاء الأعشار تحت تصرف المدرسة ونصه : «أما بعد فليعلم من نظر فيه أننا جددنا لحامله ابننا المدرس الفقيه السيد المدني بن المرحوم بالله الفقيه السيد علي بن عبد الله ما بيده من ظهائر من قبلنا من السلاطين والعمال من قبض أعشار خدام زاويته التي هي تحت الحصن وصرفها على الكيفية المرضية في الشرع لاستحقاقه لذلك وأنزلناه منزلة والده فيها، ومن زاحمه على هذه المرتبة التي جعلناها له فدعواه باطلة. والله وكيلنا عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل. صدر به أمرنا القائم بالله تعالى في أربعة من جمادى الأخيرة من عام 1347هـ،(279) أما الظهير الثاني فينص على تجديد ظهير الرئاسة وإبقاء جميع ما كان بيد الأستاذ علي بن عبد الله بيد خليفته المدني بن علي ونصه :

«يعلم من مسطورنا هذا أسمى الله قدره وخلد في الصالحات طيبه ونشره، أننا أنزلنا ابننا البركة المدني... منزلة والده، وجددنا له ما بيده من الظهائر وأسندنا إليه النظر في جميع

277) المعسول 2/ 128 – 129.
278) المعسول 4/ 242.
279) أوراق عبد الله بن الحسن الصالحي انظره في الملحق تحت رقم : 10.

أمور ما احتوت عليه ظهائر أبيه جلبا ودفعا، وأقررناه نظيرا على الزاوية الإلغية،(280) لوفور علمه، وقد أوصيناه كأنفسنا بالتقوى، لأنها السبب الأقوى. يسر الله علينا وعليه جميع المطالب، وقصده من طلاب العلم أنجح طالب، صدر به أمرنا المعتز بالله في أربعة من جمادى الأخيرة عام 1347هـ».(281)

وبحصول المدني بن علي على هذين الظهيرين صار «يظهر بمظهر والده في المجامع وفي منتديات الرؤساء وفي مجالات الجيوش المدافعة...»(282) للحماية الفرنسية التي كانت تزحف إذ ذاك على جبال جزولة، ثم لما تم الاحتلال النهائي للمنطقة «واستسلم كل من فيها وأنزل الله اللطف بالناس فلم ير من المحتلين أي عنت ولا عناء ولا مغرم ولا أسر. فإذ ذاك برز أناس وظهر رجال، وقبع رجال وكان ممن قبع في عقر بيته، والتزم خويصة نفسه كل من ينتمي إلى علم أو مرتبة ما، فأوى كل إلى شغله الخاص...»(283) وكان المدني بن علي أحد هؤلاء بسبب ما كان له ولوالده من مساندة لثورة الصحراويين، وخوفا من مؤاخذة القوات المخزنية، ولتفادي ذلك، وفد على حضرة السلطان محمد بن يوسف متطلبا تجديد ظهائر أجداده التي حصلوا عليها من السلاطين العلويين، راغبا في نيل الأمان والمحافظة على رئاسته للمرابطين.(284)

إلا أن رئيس الزاوية الدرقاوية استغل فرصة التغيير السياسي، فكان من أوائل المستقبلين للجيش المخزني الزاحف على المنطقة،(285) فلم يلبث أن عين رئيسا على المرابطين أينما كانوا، بعدما أجيب طلبه بأن لا ينضموا إلى غيرهم وأن يعتبروا قبيلة على حدة،(286) وبذلك أقصي صاحب المدرسة عن الرئاسة، وأضحى في هذه المرحلة الجديدة مضايقا من قبل السلطات المخزنية، حتى إنه سجن مدة في مركز تافراوت.(287) «ذلك بعض ما كان يصيبه... من ضيق وعنت وحرج صدر، وقد رأى أن ما كان يتمتع به أهله الصالحيون قبله من امتداد اليد، ووطء العقب، وطروق الوفود ليل نهار، يتضاءل شيئا

---

280) المقصود المدرسة الإلغية.
281) أوراق عبد الله بن الحسن الصالحي انظره في الملحق تحت رقم : 11.
282) المعسول 2/ 129.
283) المصدر نفسه.
284) نفسه.
285) ذكر محمد خليل أن رئيس الزاوية الدرقاوية محمد بن علي الدرقاوي كان رئيس المرابطين عند مبايعة الشيخ الهيبة، انظر محمد المختار السوسي دراسة لشخصيته وشعره ص : 63 وليس ذلك بشيء كما يظهر من الظهائر الملحقة، والمعسول 2/ 247.
286) نفسه ص : 247.
287) نفسه ص : 139.

فشيئا...»(288) لذلك آوى إلى مدرسته بعدما رأى تبدل الأحوال، يقضي الأيام في إقراء من يأوون إليه من الطلبة، وقد بلغ عددهم عشرة فقط، ويذكر الأستاذ أحمد بن زكرياء السكال الباعمراني أن المدني بن علي خف حماسه كثيرا بسبب ما لقيه من مضايقات حتى إن الإقراء يتوقف أحيانا، فتتعثر الدروس، وتضيع من الطلبة أوقات ثمينة، فقد احتاجوا لسنة كاملة لأجل قراءة أبواب الألفية من بابل الإسم الموصول حتى باب النداء، بينما كان اختتام المنظومة في هذه المدة ديدن الأساتذة المجدين.(289)

كما أن هناك عوامل أخرى أدت إلى تعثر الدروس وتقهقر سير المدرسة في هذه الفترة وهي:

* انشغال الطلبة بحرث وحصاد أراضي ومحاصيل الأستاذ، كما هو المعتاد في سوس من خدمة الطلبة أساتذتهم. إلا أن قلتهم بالإلغية في هذه الفترة جعلت مدة هذه الخدمات تطول حتى تبلغ الشهر والشهرين، وربما أكثر.(290)

* عدم استقرار الطلبة بالمدرسة، فما أن تحل فيها فئة حتى تنقطع أخرى، فيضطر الأستاذ إلى إعادة الدروس من أولها للجدد، مما يؤدي إلى ضياع الجهود والأوقات.(291)

* عدم ضبط طبقات الطلبة «فلكل طبقة منهم دروسها الخاصة بها حسب فهمها وقدميتها، وفي بعض الأحيان يتفرغ الأستاذ لطالب واحد ليقرىء له درسه وحده، لأنه في طبقة عليا أو أولية، وذلك حرصا من الأستاذ على أن لا تضيع لكل طالب مكانته، ويسبب له ذلك انقسام الفكر وتعدد الدروس وتعطيل بعض منها».(292)

* انقطاع أعشار المرابطين عن المدرسة، فقد عانت الإلغية من الوضعية الجديدة التي أصبحت عليها المنطقة بحلول سلطة الحماية، إذ فقدت مواردها الأساسية، وهي أعشار المرابطين، حيث صار رئيس القبيلة يحضهم على دفعها لمدرسة أيمور، قاصدا صرفهم عن دفعها للمدرسة الإلغية. ويتضح ذلك من رسالة كتبها الأستاذ المدني إلى القبطان فلورني الحاكم الفرنسي بمركز تافراوت، مشتكيا من الحالة التي صارت إليها المدرسة، بعد امتناع المرابطين عن تموينها. بينما حافظ المجاورون من أهل تَاكَانْزَا وتَاجَرْمُونْتْ وأسيفْ مَقُّورْنْ على نصيبهم من الإعانة، وذلك في قوله: «... وأما إخواننا المرابطون المكلفون بها، صاروا منذ دخل المخزن ينحرفون عنها، لكوننا لا نخالط مكلفيهم، ولا نسألهم عن شيء. لكون

---

288) نفسه، وأخبرني الفقيه أحمد بن عمر رزقي أن سبب سجن الأستاذ المدني قدحه وشتمه للسلطات الجديدة، خاصة شيخ القبيلة علانية، وقد أشار العلامة المختار إلى ذلك عند قوله، إن الأستاذ المدني يقول في كل مجلس ما في صدره فلا يقدر على الكتمان، انظر المعسول 2/ 130.

289) جلسة مع الأستاذ الشاعر أحمد بن زكرياء السكال ببيته أوائل أكتوبر 1992 بتارودانت.

290) المعسول 2/ 224.

291) المصدر نفسه.

292) المصدر نفسه.

الكلام عند الشيخ سيدي محمد؛(293) فسألناه أن يعمر المدرسة على العادة، ولاطفناه وأحسنا إليه فلم يبال بنا، بل صار بضد ذلك. حتى أعيانا الأمر... والمرابطون جمعوا أعشارهم لمدرسة أيمور التي بتهالة،(294) وصرفوها عن مدرستنا قصدا وحسدا، واتباعا لهوى الشيخ، بل بمشاورته سرا. وعولوا على تخريب هذه المدرسة، ولو تركوا الأعشار بالكلية صبرنا، فحيث جمعوها لمدرسة لم تكن لها، وتركوا مدرسة كانت الأعشار لها، لا نصبر بل نشتكي على حاكمنا ومخزننا، لينظر من الحق له ويسأل القبائل والجيران عن هذا الأمر...».(295)

هكذا صارت المدرسة تعتمد على أعشار التاكَنزيين، والتاجرمونتيين وعلى إمكانيات أستاذها الذاتية الضعيفة، وقد تدفعه قلة ذات يده إلى الاستدانة، كما ذكر في رسالته إلى القبطان بقوله : «... فصرنا نتداين للمدرسة لئلا تخرب إلى الآن...»(296) وقد تأثر العلامة محمد المختار السوسي لذلك غاية التأثر، إذ كان في هذه المرحلة منفيا بإلغ حيث قال : «وقد كنت أحس بلاذع في نفسي كلما سمعت بأن كرمه الجارف، قد يتركه أحيانا بلا ممضوغ، فأقول أهكذا يعيش العلماء في هذا البلد الذي خوى فيه نجم العلم، وخر سقفه على عرشه...».(297)

وقد أثر هذا الوضع على سير المدرسة فقل الطلبة بها، لقلة مواردها، إلا أن الدراسة استمرت رغم ذلك بفضل تضحيات الأستاذ(298) ولجوئه إلى الاتصال بالقبائل المجاورة، حيث يرسل أحد طلبته المتفوقين ليحث الناس على تزويد المدرسة بما يستطيعون من مؤن، وعلى إرسال أبنائهم للقراءة بها،(299) كما أنه كان يراسل الرؤساء والوجهاء الذين كانت لهم صلة ما بوالده طالبا منهم إعانته،(300) وممن كاتبهم قائد قبيلة أيت جرار عبد الله بن عياد الجراري الذي استجاب للطلب، فعاد الأستاذ المدني لشكره في رسالة قال فيها : «جناب الأجل المحترم، الأعز الأفخم، سر أس الكمال، ومركز الفضل والأفضال، رب الفضائل والفواضل، وإكسير المآثر الجمة بإطباق الأواخر والأوائل، والحبّ بن الحبّ، سيادة القائد عبد الله بن عياد الجراري أمّنكم الله وحرسكم ورعاكم وحاطكم،

293) هو رئيس المرابطين محمد بن علي الدرقاوي.
294) تهالة قبيلة تقع شمال إيغشان، انظر خريطة القبائل، ص : 63.
295) رسالة المدني بن علي إلى القبطان فلورني (مخطوطة في حوزتي).
296) نفسه.
297) المعسول 2/ 192.
298) أخبرني الوالد محمد بن أحمد السعيدي أن الأستاذ ربما باع حلي أهله للإنفاق على الطلبة محافظة على المدرسة من الخراب.
299) حدثني بذلك العم عبد الله بن أحمد السعيدي في جلسة ببيته بتزنيت 28/ 7/ 1992.
300) حدثني بذلك الفقيه أحمد بن عمر رزقي بمنزله بإلغ أواخر غشت 1992، وانظر ترجمة القائد عبد الله الجراري بالمعسول 19/ 200 وما بعدها.

وسلامه الأتم الأعبق ينتاب جنابكم، هذا، ولا زائد على العهد والأخوة السرمدية والمنة الإلهية الأبدية. وننهي لجانبكم الأعز وصول كتابكم إلينا، فاستفدنا منه سلامة أحوالكم السنية وابتهاجكم بتلك النتفة القطعة الشعرية.(301) ومثلكم يبتهج لسلامة ذوقه وطبعه، وارتياحه لما ترتاح إليه الأدباء أمثالكم. وكثير من إخواننا ممن يدعي التفوق لا يعرف لذلك معنى، ولا يجد له ذوقا لكدورة البواطن، واستيلاء الهمجية على جلهم. فالله المسؤول أن يوقظهم من سنتهم الغفلة لينتبهوا للأهم، وإنما زففناه إليكم لعلمنا بارتياحكم للأدب وطربكم برائحته، أبقاكم الله كذلك وزاد في معناكم، وأيّد بكم هذا الدين كأسلافكم. وما كان من حقكم أن تتكلفوا لنا، فإننا أحببناكم لله، وللأخوة السالفة لأسلافنا مع أسلافكم، لا سيما والدكم المقدس صب الله عليه شآبيب رحماه.(302) تقبل الله لكم ونمى، وبارك لكم فيما آتاكم، وأبقاكم ملجأ للضعفة، وكبت لكم كل حسود، بجاه الواسطة العظمى ﷺ وعلى العهد بالتمام، والسلام. في 10 ربيع الثاني عام 1364هـ المدني بن علي أمنه الله».(303)

ورغم هذه المثبطات سار الأستاذ المدني بن علي على نهج والده في التدريس، فقد كان «أحسن الناس مجالسة وأفضلهم استماعا... ملازما للتؤدة والوقار، فلا يجادل ولا يصاول بالبحث، يقبل ويرد بالأدب...»(304) كما كان رحب الصدر مثل والده يظهر ذلك في شرح الدروس، حيث يصبر على توضيح المشكلات، وحل المسائل بما له من سعة معارف وحسن إدراك،(305) بالإضافة إلى حماسه وعلو همته العجيبين لو ساعده الدهر،(306) وكانت أقصى أمانيه المحافظة على المدرسة من الخراب والاندثار ولأجل تحقيق هدفه بقي مرابطا بها حتى وفاته عام 1365هـ.(307)

بلغ عدد التلاميذ الآخذين عن الأستاذ المدني، مدة ثمانية عشر عاما التي قضاها في التدريس، سبعة وسبعين طالبا(308) منهم علماء وأدباء وشعراء، فمن الشعراء نذكر أخويه الطاهر والحسن ابني علي الإلغي،(309) والشاعر المقاوم أحمد بن زكرياء السكال

301) إشارة إلى قصيدة مدح بها الأستاذ المدني القائد الجراري كما حدثني الفقيه أحمد بن عمر رزقي.
302) يشير إلى والدي القائد عبد الله عياد الجراري انظر ترجمته بالمعسول 19/ 172 وما بعد.
303) أوراق الفقيه أحمد بن عمر رزقي الصالحي.
304) المعسول 3/ 130.
305) المعسول 2/ 130.
306) المصدر نفسه.
307) حدثني الفقيه أحمد بن عمر رزقي أن همة الأستاذ المدني وحماسه كانا عجيبين تجاه المدرسة، لولا أن أعوزته المسائل المادية.
308) انظر لائحتهم بالمعسول 2/ 150.
309) انظر ترجمتهما بالمعسول 2/ 204 - 213.

الباعمراني،(310) والأستاذ الفقيه الأديب محمد بن أحمد العتيق السليماني الإلغي،(311) والعلامة أحمد بن الحسن أبناو الإيغشاني،(312) والعلامة أحمد بن سعيد الأكَماري(313) والمقاوم أحمد الجبلي،(314) وغيرهم من الفقهاء المحصلين الذين تخرجوا من المدرسة.

ب - الحسن بن علي وأخوه الطاهر يتكلفان بالمدرسة :

توفي الأستاذ المدني وترك المدرسة في يد أخويه الحسن والطاهر،(315) إلا أن انشغال الأخير بمزاولة الشرعيات بمحاكم الحماية أبعده عن التدريس، فتكلف بها أخوه الحسن حتى تأسيس المعهد الإسلامي بتارودانت،(316) وفتح فرعه بتاليوين(317) فالتحق به،(318) فخلفه أخوه بعد أن أعفي من مزاولة الأحكام بحلول فجر الاستقلال، وما لبث هو الآخر أن انخرط في سلك موظفي المعهد بانتقاله للعمل بفرعه في تامكَروت سنة 1379هـ(319) فشغرت المدرسة إلى أن التحق بها ابن مؤسسها عبد الله بن محمد، وهو الذي نافس عمه عليها منذ ستة وأربعين سنة فجمع إليه «ثلة من الطلبة يجول معهم في الدروس على ما يستطيعه ابن الثمانين»(320) ثم تولاها غيره لما غادرها وتوالى الأساتذة عليها(321) بعد أن فقدت الكثير من أهميتها وقيمتها العلمية وأصبح الطلبة القارئون بها من قرى دّوكَادير يحفظون القرآن والمتون الأولية خصوصا بعد الاستقلال، حين نظّم التعليم، وانثال الناس على المدارس الحكومية وعلى الهجرة إلى المدن، فخربت لأجل ذلك مدارس كثيرة، وخلت الباقية منها من التلاميذ أو كادت، كالإلغية التي لم يبق بها في الرابع عشر من شعبان عام 1377هـ عند إقراء الطاهر بن علي بها سوى أربعة عشر طالبا من المبتدئين.(322) وفقدت المدرسة في هذه المرحلة مقومات الدراسة الجادة بسبب فتور همم أصحابها، ولا أدل على ذلك من رسالة بعث بها أحمد بن الطاهر الإفراني إلى أستاذها

---

310) انظر ترجمته بالمعسول 10/ 241.
311) انظر ترجمته بالمعسول 2/ 370.
312) المصدر نفسه، 3/ 165.
313) نفسه 11/ 106.
314) نفسه 11/ 331 ومسقط رأسه جبالة المجاورة لتريف.
315) المعسول 2/ 217.
316) المصدر نفسه، ص : 208.
317) وذلك عام 1958م، انظر عمر الساحلي - المعهد الإسلامي بتارودانت... 2/ 17.
318) المرجع نفسه.
319) الساحلي - المعهد الإسلامي بتارودانت... 2/ 33.
320) المعسول 2/ 217.
321) انظر أسماءهم في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.
322) توجد أسماؤهم بورقة ضمن أوراق محمد بن الحسين الصالحي انظرها في الملحق تحت رقم : 13.

آنذاك الحسن بن علي حيث يقول : «وبعد فاعلم أني أردت أن توافقني وتتبعني في أمور : فمن جملة ذلك أن الطلبة تحرضهم على القراءة، وعلى نوبة الماء وعلى تشطيب أي تكنيس المدرسة، وعلى قراءة الحزب، وتوقظهم من نومهم بنفسك كل صباح وتوبخ الصغير، وتكرر لهم ألواحهم صباحا ومساء، ويلزم عندك سرد كتب الأدب من أراد من الطلبة ليلا ونهارا... سواء كان قليلا أو كثيرا فعن قريب ترى إن شاء الله عاقبة ذلك. عند الصباح يحمد القوم السرى... فإن من كان في عين الكبار لا يسعى إلى عين الصغار، فقد أردنا أن نكلف على أنفسنا مكارم الأخلاق حتى تكون قميصنا وسلهامنا وجبتنا».(323)

وتدل هذه الرسالة على ما وصلت إليه المدرسة من اتكاء الطلبة على الخمول، وتزجية الأوقات بادعاء الدراسة، مع الإخلال بأركانها الأساسية، التي منها الاستيقاظ باكرا للصلاة والقراءة، ثم الحرص على نظافة المدرسة، والجدّ في الدراسة، ومراقبة الأستاذ طلبته وغير ذلك... كما أن الإهمال لحق المدرسة في بنائها، حيث انهارت بعض بيوتات الطلبة وتداعت الباقية منها للسقوط؛ وقد مر على بنائها ما يزيد على ثمانين عاما بلا تجديد ولا إصلاح، فانبرى أحد طلبتها وهو محمد بن أحمد العتيق السليماني(324) لإصلاحها، وإعادة بناء ما انهد من أركانها، وراسل لأجل ذلك عددا من تلاميذ المدرسة وأبناء المنطقة طالبا منهم التبرع لصالح المشروع،(325) وكان من بين المستجيبين الأوائل العلامة محمد المختار السوسي الذي كتب إلى صاحب المبادرة الإصلاحية رسالة هامة تعبر عن نظرته الثاقبة إلى حاضر المدرسة الإلغية، وتصوره الصحيح لمستقبلها، حيث يقول :

«الحمد لله وحده : وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أواسط رجب 1381هـ.

الأستاذ الصبور سيدي محمد بن أحمد السليماني(326) وعليك السلام، قد وصلت رسالتك في شأن المدرسة الإلغية، التي منها مجد إلغ الخالد، فذكرت أنها محتاجة للإصلاح، وأنه ينبغي أن يكون الاكتتاب لذلك ممن يقدرون تلك المدرسة قدرها، فرأيت أن أكون أنا أول المكتتبين، فها أنذا أجيبك.

* **أولا** : إنني مستعد بكل ما في إمكاني، وحين لا أجد معي منذ اشتغلت بطبع كتاب المعسول درهما فاضلا، فإنني أقدم عددا من الأجزاء : من المعسول ومن كتاب خلال جزولة، فتتولون أنتم بيعها على ذلك الحساب، ومتى عزمتم فكاتبوني فإنني مستعد.

* **ثانيا** : إن المدرسة لا ينقصها اليوم الإصلاح في هيكلها فحسب، بل ينقصها القيام بما ألف منها، وهذا لا يتأتى إلا بالمنقطعين إليها، وأين هم ؟ بل سمعت اليوم أن شيخنا بركة

---

323) أوراق محمد بن الحسين الصاخي في بطاقة صغيرة كثيرة التصحيف.

324) هو الفقيه الشاعر محمد بن أحمد العتيق السليماني الإلغي وذلك عام 1381هـ.

325) توجد لائحة المتبرعين بدفتر بخزانة العتيق السليماني، ومن المتبرعين أحمد بن زكرياء السكال الباعمراني، عبد الحميد مرادي الباعمراني ومحمد مصلوت الهواري...

326) انظر ترجمته بالمعسول 2/ 370.

إلغ سيدي عبد الله بن محمد غادرها مغاضبا،(327) وحتى لو بقي فيها ماذا عسى أن يصنع حين لا يجد الطلبة، فإذن يكون الإنفاق بالمادة على هيكلها من باب تشغيل العاطلين من العملة والبنائين الذين يجاورونها، والوسائل لا تتخذ حيث لا مقاصد محققة، أفهمت مغزى ما هنالك ؟

* **ثالثا** : إن الزمان استدار على كل المدارس، وما الإلغية إلا إحداها، فالمستقبل للمعهد وما إليه إن وجد أنصارا يهتمون به، فكل ما ينفق عليه اليوم فإنه ينفق كوسيلة إلى مقصد محقق، وأفعال العقلاء تصان عن العبث، والمعهد معهد كل سوسي مفكر، ففيه مستقبل السوسيين من جهة المحافظة على هذه العلوم ولو إسما.(328) وأما هذه المدارس فأين من يضحّون فيها غدا، كما يضحي فيها اليوم أمثال سيدي الحاج الحبيب،(329) وسيدي إبراهيم بن عبد العزيز.(330) وكما ضحى فيها أمس آباؤنا وأشياخنا رحمهم الله. محمد المختار السوسي».(331)

د - المدرسة في مرحلتها الأخيرة :

دار الزمان دورته، ولفظت المدرسة الإلغية أنفاسها الأخيرة، بعد أن غادرها الأساتذة الكبار، الذين شهدوا عهدها الزاهر، حيث انتهى العقد السابع من القرن الرابع عشر الهجري بوفاة هؤلاء الشيوخ، مثل العلامة عبد الله بن محمد الإلغي ومحمد بن علي بن عبد الله...(332) فأقفرت المدرسة، وأضحت مشرعة الأبواب، تلجها الوحوش والبهائم، ويسكنها الطير، ويأوى إليها من شاء متى شاء، بل اتخذها المارة سبيلا،(333) بعد أن توالى عليها بعض المشارطين المتكسبين.

ثم في المدة الأخيرة لما ظهر التنافس بين السوسيين في بناء المساجد وتجديد المدارس، أصلحت المدرسة،(334) واهتم أصحابها الصالحيون بعمارتها وبمشارطة الأساتذة فيها، كما فرضت لها وزارة الأوقاف بعض المنح للطلبة.

---

327) بسبب خلاف بينه وبين المكلفين بها وهما الحسين بن علي الإلغي وعبد الله بن اليزيد الإلغي.
328) قد حيل بين المعهد وأهدافه، انظر عمر الساحلي - المعهد الإسلامي بتارودانت... الجزء 1، 2.
329) هو الحاج الحبيب البوشواري من علماء سوس الكبار المعمرين، انظر ترجمته بالمعسول 17/ 282.
330) هو إبراهيم بن عبد العزيز الأدوزي، انظر ترجمته بالمعسول 5/ 99.
331) أوراق محمد بن أحمد العتيق السليماني، زودني بها ابنه الأستاذ عبد الغفور العتيق.
332) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا البحث، ص : 232.
333) أخبرني بذلك الوالد محمد بن أحمد السعيدي والأستاذ الحسن بن الحبيب الصالحي، وقد كانت فترة الخلاء فيما بين عامي 75 - 1976.
334) وذلك بمبادرة جمعية إليغ للتنمية والتعاون حوالي عام 1990م.

الفصل الرابع
علاقة المدرسة بغيرها من المدارس السوسية

تمهيد :

المبحث الأول : علاقة المشيخة والتلمذة

أ - مشيخة الإلغية من المدارس السوسية

ب - تلاميذ المدرسة وإعمارهم المدارس السوسية

المبحث الثاني : المراسلات العلمية والأدبية

أ - المراسلات الأدبية

ب - المراسلات العلمية

المبحث الثالث : منافسة الإلغية غيرها من المدارس السوسية

أ - منافسة تلاميذ الإلغية لأقرانهم في المواسم السنوية

ب - التنافس بين الإلغية والتمكَدشتية يتحول إلى صراع

تـمـهـيـد :

المدرسة الإلغية واحدة من المدارس العتيقة المنبثة في نواحي سوس، وترتبط هذه المؤسسات في ما بينها بعلاقات متعددة. فلم تكن الإلغية منقطعة عن غيرها، بل كانت منفتحة عليها : إما بواسطة التلمذة أو المشيخة، أو المنافسة العلمية والأدبية، أو المراسلة والتساجل بالنثر والشعر. وقد مكن هذا الانفتاح المدرسة من الاتصال بمحيطها الثقافي، والتميز بطابعها الأدبي، وتوسيع دائرة إشعاعها، فكان تلاميذ باقي المدارس يصلهم قبس من الأريحية الأدبية المنبثقة عن البسيط الإلغي، مثل محمد بن أحمد المانوزي بمدرسة تهالة،(335) كما تصلهم أخبار اجتهاد الأساتذة الإلغيين، مثل المتوكل عمر الساحلي الذي يقول متحدثا عن جدية أستاذ الإلغية المدني بن علي : «... وقد كان آخر من درس بجد واجتهاد في هذه المدرسة، الأستاذ السيد المدني بن علي الإلغي، الذي تصلنا أصداء جهاده في الخمسينات، ونحن في مدرسة سيدي بوعبدلي، وفي أوائل الستينات الهجرية».(336)

---

335) المعسول 3/ 290.

336) المتوكل عمر الساحلي ـ المعهد الإسلامي بتارودانت والمدارس العتيقة بسوس 3/ 295.

المبحث الأول : علاقة المشيخة والتلمذة :

أ – مشيخة الإلغية من المدارس السوسية :

المدرسة الإلغية ثمرة من ثمار الشعبة الجشتمية، التي تنافسها الشعبة التمكَدشتية، فبين هاتين المدرستين الكبيرتين انقسمت مشيخة المدارس السوسية، لما لهما من تأثير كبير في إحياء العلم العربي بسوس، وإمداد مراكزه بالأساتذة والفقهاء، فكان لكل منهما تلاميذ يشيدون بمجدهما ويذوذون عن حياضهما.(337)

وترتبط الإلغية بالجشتيمية بواسطة مدرسة تانكرت الإفرانية حيث درس محمد بن عبد الله الإلغي على الشيخ محمد بن إبراهيم التمنارتي الإفراني، الآخذ عن الأستاذ العلامة الشيخ أبي العباس الجشتيمي، وينتهي سند هذه المشيخة إلى الزاوية الناصرية بتامكَروت. إذ تتلمذ الجشتيمي للهوزيوي بمدرسته الهوزيوية الرودانية،(338) الذي درس على الشيخ محمد بن أحمد الحضيكَي بمدرسة أفيلال،(339) والذي تتلمذ للعلامة أحمد بن عبد الله الصوابي، الآخذ من الزاوية الناصرية بتامكَروت.(340)

وتتجلى أهمية هذا السند في انتقال الاهتمامات الأدبية خاصة من الشيوخ إلى التلاميذ. إذ عرف عن هذه المدارس اهتمامها بالأدب وتشجيع الطلبة على تعاطيه.(341)

وتندرج أيضا ضمن مشيخة الإلغية تلك المدارس التي قرأ بها أساتذة المدرسة بعد المؤسس، مثل الأستاذ علي بن عبد الله الذي درس قليلا بالأخصاص(342) وعبد الله بن محمد الذي أخذ بالإيغشانية والإيلالنية، ومحمد بن علي بالبومروانية(343) والطاهر بن علي مثل أبيه بالأخصاص، ثم بمدرسة إيكُونْكا الهشتوكية، ثم مدرسة أفلا أوكَنس، والحسن الآخذ بالإضافة إلى هذه بمدرسة الجمعة الباعمرانية...(344)

وقد انتقلت إلى المدرسة الإلغية بسبب مشيختها هذه، الاهتمامات العلمية والأساليب التربوية والطرق التعليمية، كما انتقلت إليها نزعة المنافسة بين الشعبتين الجشتيمية والتمكَدشتية، فكانت تنافس الأدوزيين في الفتوى والأدب، وتزاحم التمكَدشتية نفسها في

---

337) سوس العالمة، ص : 98، والمعسول 6/ 57 وما بعد.
338) انظر ترجمته بالمعسول 6/ 25.
339) توجد هذه المدرسة بإيسي غير بعيد عن إلغ، بقبيلة أمانوز، انظر المعسول 11/ 298.
340) إجازة الحضيكي لتلميذه محمد التسكدلتي، مخطوط، ص : 69 .
341) سنتطرق لهذا الموضوع في الباب الثالث من هذا البحث.
342) انظر المعسول 8/ 134.
343) انظر المعسول 2/ 126، 192.
344) المصدر نفسه، ص : 206، 215.

مجالاتها العلمية مستقطبة الطلبة من المناطق التي تدين لها بالولاء عادة، حتى أدى ذلك إلى نشوء صراع بينهما.(345)

ب – إعمار تلاميذ المدرسة للمدارس السوسية :

خرّجت الإلغية عددا هاما من الطلبة الذين نهلوا من معارفها، وارتووا من معين علومها. ثم انطلقوا ينشرون ما حصلوا في المدارس السوسية التي حلوا بها، وإذا كان بعضهم قد ألقوا ما تعلموه وراء ظهورهم بعد مغادرتها، وأقبلوا على كسب عيشهم بطرق أخرى غير التدريس، مثل الطيب بن عبد الرحمان،(346) والحاج بلقاسم الزاوي الإلغي(347) وعبد الله بن محمد بَاوْلاَ.(348) واقتصر آخرون على المشارطة في المساجد دون أن تسمو هممهم إلى التدريس بالمدارس، رغم تمكنهم من العلوم، مثل محمد بن عبد الله اليزيدي،(349) وعلي بن صالح الأوفقيري.(350) فإن أكثر هؤلاء التلاميذ مجدون، أضحت المدارس التي عمروها، معاهد لنشر العلوم والآداب العربية، وتمكنوا من إعادة الحياة إلى بعضها بعد أن تعثرت أغلب المدارس بما فيها الإلغية نفسها، ويمكن أن نمثل لذلك بنموذجين :

* **المدرسة الوفقاوية** : ملأها الأستاذ العلامة أحمد بن الحاج محمد اليزيدي فيما بين سنتي (1355 - 1359هـ) علما وتدريسا، ورأى الناس «كيف خفقت فيها أعلام المعارف بجد الأستاذ واجتهاده، وإمعانه في حفز الهمم إلى الشفوف، فقيل إن هذه المدرسة ماتت حين حييت المدارس، ثم هاهي ذي اليوم تحيا حين تلفظ المدارس نفسها الأخير...».(351)

* **المدرسة الإيغالألنيَّة** : بلغت بالأستاذ الحاج مسعود الوفقاوي مبلغ الشفوف بين مدارس سوس؛ فهو كما قال العلامة المختار : «أحد مفاخر إلغ الخالدة والفذ المبرز في التدريس والتخريج في عهد أقفر فيه من التدريس ساحله، وعريت أفراسه ورواحله، يتبل كل علماء سوس الباقون على خويصتهم وقد لووا الرؤوس تحت الأجنحة، فيقبل هو على محافل التعليم العربي وفنونه المتعددة بهمم مرفرفة الأجنحة...».(352)

345) انظر البحث الثالث من هذا الفصل.
346) انظر المعسول 9/ 163.
347) انظر المعسول 2/ 13.
348) المصدر نفسه، ص : 18.
349) انظر المعسول 9/ 164.
350) انظر المصدر السابق، ص : 69.
351) انظر المعسول 9/ 176.
352) المعسول 3/ 59.

وقد تحولت تلك المدارس إلى فروع للمدرسة الإلغية بعد أن نقل إليها تلاميذها طرق التدريس ومواده، وأساليب التلقين واختيار المواد وكتب المطالعة الحرة، تلك المطالعة التي كان لها أثر عميق في تثقيف الطالب وتقويم لسانه وسعة اطلاعه،(353) وزاد من ارتباط هذه الفروع بأصلها العلمي الأصيل المراسلات الأدبية والعلمية التي كانت تتم بين الطلبة والأساتذة، يتناولون فيها مسائل علمية أو شؤونا إخوانية.

وكان من برور بعض الطلبة بمدرستهم، تصديهم للتدريس بها بدعوة من أصحابها، مثل الأستاذ بلقاسم التاجرمونتي الذي قضى بها أزيد من عشرين عاما مدرسا بجد لا يعرف الكلل، والأستاذ أحمد بن الحاج محمد اليزيدي الذي ألم بها مدة ثلاث سنوات.

وقد بلغ إجمالي المدارس التي عمرها طلبة الإلغية بالتدريس أزيد من ثمانين مدرسة،(354) كلها في سوس، بالإضافة إلى ثلاثة أخرى خارجه في مراكش وأحوازها.(355)

ويحرص أساتذة الإلغية على توجيه طلبتهم بعد التخرج، حيث يتوسطون للمجدين منهم للمشارطة في المدارس، مثل الأستاذ الحاج مسعود الوفقاوي الذي شارط في مدرسة بووابوض(356) بإشارة من الأستاذ الشيخ علي الدرقاوي،(357) والأستاذ العربي الساموكَني(358) الذي شارط في مدرسة أداي بمساعدة الحاج عبد الله بن صالح والد الأستاذين محمد وعلي الإلغيين،(359) والأستاذ المدني بن علي الذي أرسله والده للمشارطة في مدرسة الأخصاص.(360) كما كانت المدارس القريبة تحت تصرف الإلغيين عند فراغها، يرسلون إليها من يصطفون من تلاميذهم النجباء، بل إن بعضها صارت لكثرة تداول الإلغيين وتلاميذهم كأنها موقوفة عليهم مثل المدرسة الوفقاوية والبومرؤانية والأيمورية، والإيغشانية التي غادرها الأستاذ الطاهر بن علي الإلغي فكتب إليه شيخ

---

353) محمد العثماني ـ محمد المختار السوسي في حياته الخصبة بين انطلاق وقيود. مجلة المواهب ص:10 (يصدرها معهد محمد الخامس بتارودانت).

354) اقتصرت في هذا الإحصاء على التلاميذ الذين ذكرهم العلامة المختار السوسي في أجزاء المعسول والتي خصصها لطلبة المدرسة وهي الأجزاء 8 ـ 9 ـ 10 ـ 11 وتراجم أخرى لبعضهم في باقي الأجزاء، والمعلوم أن إحصاءات المعسول تنتهي عند العام 1963 وإذا أحصينا المدارس التي درس فيها هؤلاء الطلبة بعد هذه السنة ستتجاوز رقم المائة بلا شك.

355) انظر لائحة هذه المدارس والتلاميذ المشارطين فيها الملحقة بهذا الفصل.

356) توجد هذه المدرسة بقبيلة متوكَة في حوز مراكش.

357) المعسول 3/ 60.

358) انظر ترجمته بالمعسول 9/ 43.

359) المعسول 9/ 45.

360) المعسول 2/ 127.

الإيغشانيين طالبا منه العودة إليها في رسالة يقول فيها مشيرا إلى تداول الإلغيين لهذه المدرسة : «جناب الأجل الأرضى، الفقيه الأعز الأرضى، سيدي الطاهر بن الفقيه سيدي علي بن عبد الله أمنكم الله والسلام عليكم. هذا، ثم إنه لجأ إلينا أعيان قبيلتنا وطلبوا منا أن نراك على الشرط في مدرستهم، وعليه فما قلته من أنك تقرىء بمدرسة تحت الحصن،(361) واستعذرت به وجعلته عذرا، فما قلته كان الحال، ولكن بارك الله فيك لابد أن توافق الأعيان في ذلك، لأن المدرسة الغسانية(362) ومدرسة تحت الحصن كلهما لكم ولأسلافكم، لا فرق بينهما، وبه الإعلام ودمتم بخير والسلام، محبكم علي بن أحمد الغساني(363) لطف الله به».(364)

---

361) انظر لائحة المدارس الملحقة بهذا الفصل.
362) تحت الحصن تعريب لكمة : دوكَادير.
363) الأصل الغشانية ولكن بعض أبناء هذه القبيلة يرفعون أصولهم إلى قبيلة غسان العربية ولا أصل لذلك. انظر المعسول 18/ 389 و392.
364) انظر ترجمته بالمعسول 3/ 162.

المبحث الثاني - المراسلات الأدبية والعلمية بين الإلغية وغيرها من المدارس السوسية

نتج عن ازدهار الحركة العلمية والأدبية بالمدرسة الإلغية، وتخرج الطلبة منها، واتجاههم إلى تأسيس فروع جديدة، ازدهار في التبادل الأدبي والعلمي، بين المدرسة الأم وفروعها، فقد أصبح التلاميذ المتخرجون لا يتركون مراسلة أساتذتهم الأولين، تمتينا للصلة العلمية وتجديدا لعهد المشيخة، فصارت تلك المراسلات تنتقل بين إلغ ومناطق سوس وحتى خارجها.

ولم تقتصر هذه المراسلات على التلاميذ، بل تجاوزتها إلى الأساتذة المدرسين في المدارس الكبرى من الأدباء والعلماء المحبين للأدب والمناظرة العلمية، والذين بلغ إلى مسامعهم ما تزخر به هذه المؤسسة من اهتمام بالعلوم والآداب.

ويمكن تقسيم هذه المراسلات إلى قسمين :

أ - **المراسلات الأدبية** : النثرية والشعرية، حيث صار ديدن الإلغيين، وكل من يحوم حولهم، التراسل بالأساليب الرفيعة والأشعار القيمة حتى في شؤونهم الخاصة، يتراشقون بها بينهم عتابا أو موادة أو مساجلة.(365) ومن هذه المراسلات تكونت ثروة أدبية هامة.(366)

ب - **المراسلات العلمية** : وهي محاورات فقهية حول الفتاوى والنوازل والأحكام، يتداولها الأساتذة والعلماء المنتصبون للقضاء والتوثيق، وتدور حول المحاور الآتية :

1 - **استشارة الطلبة الشيوخ الإلغيين** : يتخرج الطلبة من مدرستهم ويتجهون إلى معترك الحياة، ويمتهن عدد منهم فض النوازل والفصل في الخصومات، وبسبب عدم تضلعهم في هذا المجال يحرصون على عرض أحكامهم على أساتذتهم ذوي المعرفة العميقة والتجربة الطويلة في هذا الميدان، خوف الزلل وخشية الغلط، وهذا ما يعد في حالة وقوعه، قدحا في تحصيلهم وإلمامهم الفقهي، مما يعرضهم للتهميش. ومن هؤلاء الطلبة الحريصين على استشارة الأساتذة الإلغيين :

* أبو بكر الإيكَيوازي(367) الذي كتب إلى أستاذه أبي الحسن الإلغي يطلب منه تصحيح حكم، قال : «... وهاك اليوم ياسيدي حكمي في القضية الذي حكمت به. فما

365) أوراق محمد بن الحسين الصالحي الإلغي.
366) سوس العالمة ص : 102.
367) انظر ترجمته بالمعسول 9/ 130 .

زلّت فيه قدمي، وخرج فيه عن الحق الذي تعرفه قلمي، فليبين لي فيه سيدي الصواب، وليردّ لي الجواب. ثم لا أقف إلا حيث يريده الفقيه مثلك، وما أنا ياسيدي هنا إلا ظلك «فَمَا لَنَا إِلاَّ اتّبَاعُ أَحْمَدَ»(368) وما لنا على ذلك إلا أن نحمد».(369)

* الحسين الإيموكَاديري(370) الذي كتب إلى أستاذه ملتمسا عونه ما يلي : «سيدي وسندي، ومن هو في المعضلات عضدي ومتشبث يدي، الفحل الذي لا ينازع، والإمام الذي لا يضارع، أبو الحسن سيدي علي بن عبد الله الإلغي، أعطانا الله ببركته كل ما نبغي. هذا فبعد السلام أوجه إلى سيدي هذا الحكم الذي حررته في هذه النازلة، ليدلني على ما عسى أن أخطئ فيه، فإنما أنا سهمك، ولسانك وفهمك، وتلميذك الصغير، وخادمك الحقير أطال الله عمرك، وأطال فينا نظرك...».(371)

ولا تقتصر الاستشارات على خريجي الإلغية بل تطلّبها خريجو المدارس المجاورة العارفون برسوخ قدم الإلغيين في القضاء والفتوى، مثل عبد الله الإيموكَاديري خريج المدرسة البونعمانية. وكانت له معرفة بهم يستنجد بهم إن توقف في حل معضلة أو مسألة فقهية.(372)

2 - **استشارة أساتذة الإلغية غيرهم من العلماء** : في النوازل الفقهية دعما لأحكامهم، خشية تصدي منافسيهم لنقضها. وكان الأستاذ علي بن عبد الله «يشاور كثيرا في النوازل حتى إن عادته المعهودة - وقلما يخرج عنها - أنه لا يبث في نازلة حتى يشاور آخرين، وكان سيدي الحاج أحمد بن محمد اليزيدي رحمه الله، والأستاذ سيدي الطاهر الإفراني أطال الله عمره، والعلامة سيدي الحاج أحمد الجشتيمي،(373) والفقيه سيدي عبد العزيز الأدوزي،(374) والفقيه سيدي محمد الجراري الأساكي المجاطي(375) ممن يشاورهم، وهم كثير، زيادة على من وجد في حضرته من العلماء الذين لا تخلو منهم، فلابد أن يذاكرهم في كل نازلة يزاولها فتأتى له بذلك أن سار بقدم آمنه من العثار، فلم يعهد أنه حرر نازلة فقام من معاصريه من يردها عليه بحق، لكنه هو كثيرا ما يرد نوازل غيره وينقضها بالنصوص...».(376)

---

368) شطر البيت التاسع والعشرين بعد المائة من الألفية أوله : وخبر المحصور قدم أبدا...
369) المعسول 9/ 135.
370) انظر ترجمته بالمعسول 9/ 120.
371) نفسه ص : 121.
372) المعسول 16/ 250.
373) انظر ترجمته بالمعسول 6/ 83.
374) انظر ترجمته بالمعسول 5/ 75.
375) انظر ترجمته عند السوسي رجالات العلم العربي في سوس ص : 182.
376) المعسول 1/ 348.

ومن أمثلة هذه الاستشارات رسالة كتبها الأستاذ محمد بن عبد الله الإلغي إلى الحسن بن أحمد التَّمكّدْشْتي(377) يسأله فيها : «عن مسألة كثيرة الوقوع في سنة المجاعة، وذلك أن الرجل يعرض فدَانه لآخر بالبيع بالثنيا فقال الآخر الثمن ليس عندي الآن، ولكن عندي الشعير؛ فلتأخذ مني مائة صاع بمائة مثقال؛ و آخذ منك فدّانك بمائة مثقال، فتعاقدا على ذلك، وتقاصّا في الأثمان أو سكتا. وعُرف العامة يجري بأن يدفع الثمن المسمى عند الافتكاك دون الزرع المدفوع. والفقهاء يفتون بأن البيع فاسد لأن الزرع بيع لأجل مجهول وهو يوم الافتداء، ولأن الصفقة إذا جمعت حلالا وحراما بطل الجميع. فهل للعامة في عرفهم مسند شرعي يسوغ لهم ذلك وتمضي هذه العقدة فيرد فيها الثمن دون الزرع أم لا؟»
فأجابه بقوله : (الطويل)

عَلَيْكُمْ تَحِيَّةُ اسْتِمَاعٍ إلى الخَبْرِ
وَبَعْدُ فَمَا فِي الذِّكْرِ يَمْضِي بِلاَ نُكْرِ
لأَنَّهُمَا عَلَى المُقَاصَّةِ حُمِّلاَ
فَيَنْتَفِي مَا بِالْجَهْلِ يُتَّقَى مِنْ شَرٍّ
كَذَاكَ حَلاَلٌ مَعْ حَرَامٍ بِصَفْقَةٍ
فَلَيْسَ عَلَى الإطْلاَقِ فِي الْمَنْعِ وَالضُّرِّ
فَتِسْعٌ مِنَ الأَقْوَالِ تَفْصِيلُ جُلِّهَا
يُجَوِّزُ عُقْدَةَ السُّؤَالِ بِلاَ ضَيْرِ
وَأَعْرَافُ ذِي الْبُلْدَانِ أَمْضَتْ نُفُوذَهُ
فَكَانَ إِلَى التَّرْجِيحِ أَوْلَى مِنَ الْغَيْرِ
كَمَا ذَكَرَ ابْنُ لُبٍّ الشَّيْخُ مُرْشِداً
فَطَالِعْ فَكُلُّ الدِّينِ يُرْشِدُ لِلْيُسْرِ(378)

3 - **احتكام الفقهاء من طلبة الإلغية إلى شيوخهم :** يلجأ بعض الفقهاء المتجاذبين في النوازل إلى حكم أساتذتهم، بعد أن لا يجدوا إلى الاتفاق سبيلا. ومن ذلك ما كتبه أبو بكر الإيكيوازي إلى مجاذبه أحمد بن محمد الإيغيري، أثناء مناقشتهما لنازلة ذهب فيها كل واحد منهما مذهبا مخالفا لصاحبه، يخبره بأنه كاتب شيخه الحسين بيبيس الأخصاصي،(379) وعلي بن عبد الله الإلغي يطلب رأيهما، فصوّبا رأيه وصحّحاه وذلك

---

377) انظر ترجمته بالمعسول 6/ 262.
378) المتوكل عمر الساحلي. كناش الساحلي الثاني، ص : 105.
379) انظر ترجمته بالمعسول 8/ 135.

عند قوله لصاحبه : «... إنكم اقتحمتم على ذلكم قبل أن تنخلوا رسوم القضية، فبادرتم بحكم الزلل فبنيتم على ما بنيتم من ظن وتخمين، وأما أنا فقد أكثرت التأمل فيها، وسألت كلا الجانبين، ووقفت على حدود الأراضي المتخاصم فيها. ولذلك لم أعجل حتى استوفيت كل ما يتعلق بها، فارجع البصر ياسيدي واعذرني عذر الكرام وبادر باسترجاع حكمك.. وقد كتبت إلى شيخنا الأخصاصي فبينت له كل ما أعرفه عن القضية فوافقني فيها فظهرت الشمس من السماء لذي عينين، وكذلك إلى شيخنا الإلغي...».(380)

4 - مناقشات أساتذة الإلغية لغيرهم من العلماء والفقهاء : تتعلق أغلب هذه المناقشات باستئنافات الأحكام التي يرفعها أصحابها من المتحاكمين إلى علماء آخرين، ليعيدوا الحكم فيها بنقض أحكام من سبقهم، خاصة إذا كانت ضعيفة، لا تستند إلى أدلة فقهية كافية. وكان الأستاذ علي بن عبد الله يتصدى كثيرا لإبطال أحكام أقرانه الفقهاء. من ذلك رسالة كتبها إلى الأستاذ المحفوظ الأدوزي(381) وكانا كثيرا ما يتناقشان حول الأحكام(382) يقول فيها : «حامل راية التحقيق والتدقيق، ومن أقرّ له بالسبق في ميدان المناظرة كل حر ورقيق. (الكامل)

عَلاَّمَةُ الْعُلَمَاء وَاللُّجُّ الَّـذي   لاَ يَنْقَضِي، وَلِكُلِّ لُجٍّ سَاحِـلُ

سيد السادات، والكبير الفوائد والاستفادات، لولا ما به من الجماح في ميدان الإفادات، وما جبل عليه من إنشاء ما منشؤه المعاداة، المحفوظ بن عبد الرحمان الأدوزي، جعل الله رضوانه الأكبر محوزه ومحوزي. والسلام عليه ورحمة الله وبركاته. وبعد فأشركنا في صالح الأدعية، وقد وصل كتابك الراحة فحال بيني وبين الراحة. أنّبت فيه أخا لا يرى لك إلا الوفاء، ولا يعتقد فيك إلا غاية الكمال والصفاء. وزننته بما كان منه بريئا براءة الذيب من دم ابن يعقوب. فإني ما نقضت مبرمك، ولا عزمت فيه بشيء من تصحيحه ولا إبطاله. ومازلت أستخير الله أن يوفقني، ويلهمني إلى ما فيه سلامة الدين والعرض، وعدم الدرك يوم الحساب والعرض، على أن جميع ما رقمته في كتابك إلي، دليل عليك لا لك، وحجة تشد على عنق تقصيرك أغلالك. فقد حكمت وبنيت على أساس واه حين لم تستدع المحكوم عليه حتى تعلم ما يجيب به عن ذلك، ولم تعجزه ولم تعذر إليه ولم تنظره. فالحكم منقوض ومنبوذ بذلك كما ذكرت، ولا يجوز لك أن تستند فيه إلى علمك ولا تجد جوابا في هذا إلا إن اختلقته وافتريته من عندياتك، وهذا كله على فرض وتقدير أن لو أجيز

380) المعسول 9/ 136.

381) انظر ترجمته بالمعسول 5/ 229.

382) سبب مجاذبتهما التي تطرقت لها الرسالة قيام الأدوزي بنقض حكم أستاذه وشيخه الشيخ العلامة عبد العزيز الأدوزي فرد عليه الأستاذ الإلغي ينهاه عن ذلك.

لك التعرض والتصدي لذلك شرعا، والأمر بخلاف ذلك، فإنك لم تحكم إلا في أمر مخصوص، علمته وأدى به كاتب التحكيم، ودلت عليه قرائن الأحوال، وقد علم وظهر ظهور نار على علم، على أن دائرة المحكم دائرة تقييد ودائرة القاضي دائرة إطلاق، ولا ينبغي للمستبرئ لدينه وعرضه أن يتعرض لما أسند إلى نظر العلماء المتبصرين، وأبرموا فصله على وجه يحتمل صحته، بل يتركه كذلك والعهدة عليهم، و«الفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ اللَّهُ مُوقِظَهَا»(383) إلا أن يسأل عنه بالخصوص، وأسند تعقيبه بالخصوص إلى نظره فلا بأس أن يَتعرض له بما ظهر له. وهذا الباب الذي فتحته يؤدي إلى أن لا تبقى قضية على فصل أبدا، كما نص عليها القرافي في فروقه.(384) وأما ما ذكرت من مخالفتي فيما مضى، وأن الحامل لي على ذلك جاه المتبوع وهيبته وجبر خاطره، فالذي أراه لك وأرضاه لكامل دينك ووفور علمك، أن لا تتعرض لسخط الله وغضبه، بإسخاط من ربّاك وعلّمك ونصحك، وقدّمك على أولاده وهو في القبر تحت الرجام. أم ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾(385) وقد نصوا على أن علامة قبول ولاية الولي، زيادة هيبته وتعظيمه، واتفاق القلوب عليه بعد موته، وهذا السيد كذلك فاتق الله في حق والدك واتهم رأيك (الكامل)

وَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي وَالنُّصْحُ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

قال تعالى : ﴿وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾(386) أقول وحليي عطل، ونطقي خطل، «مكره أخاك لا بطل»، وما ذكرت أخيرا فإني فيه تابع لك ولأمثالك من كبار العلماء، فما ظهر فيه أنه مصلحة للإسلام فإني مساعد عليه ولا ملام، والسلام. غبار نعلك العبيد الجهول علي بن عبد الله بن صالح، جبر الله كسره. وحل بفضله من أيدي الغفلات أسره. آمين».(387)

في هذه المجالات كانت تدور المراسلات العلمية بين الأساتذة الإلغيين وزملائهم وتلاميذهم لانشغالهم بفض النوازل ومعالجة الأحكام. حرفة ابتلوا بها بعد تصدرهم في مجامع القبائل بوصفهم فقهاء مدرسين وقضاة متمرسين.

---

383) رواه الرافعي في أماليه عن أنس، انظر كشف الخفاء ومزيل الإلتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس. لإسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة القدسي ـ القاهرة 1352هـ، ج 2/ 83.

384) هو كتاب «أنواع البروق في أنوار الفروق» لشهاب الدين أحمد القرافي انظر ترجمته بالأعلام 1/ 90.

385) الآية الأولى من سورة التكاثر.

386) الآية 79 من سورة الأعراف.

387) المعسول 1/ 353 ـ 453.

المبحث الثالث - منافسة الإلغية غيرها من المدارس :

أ - المنافسة بين تلاميذ الإلغية ونظرائهم من المدارس الأخرى في الحفلات السنوية (المواسم) :

هذه المواسم فرصة للطلبة لإظهار تفوقهم ونجابتهم. وذلك بالتنافس في حفظ القرآن وتلاوته دون لحن، والتصدي للمسائل العلمية ودقائق قواعدها، ولحفظ الأشعار المتنوعة القوافي والأغراض.

وقد أدلى طلبة الإلغية بدلوهم في هذه المنافسات منذ عهد محمد بن عبد الله المؤسس، حيث كان أخوه علي بن عبد الله يتزعم طلبتها(388) في هذه المواسم، وكانوا فحول الإنشاء وفرسان الميدان كما وصفهم أحد المؤرخين.(389) وقد كانت للطلبة عادات متبعة استعدادا لهذه المناسبات، فيجتمعون «فأول ما يصنعون... أن يقسموا بينهم نحو ثلاثة آلاف بيت من الشعر العربي على أنواعه تغزلا وفخرا وهجوا وأخوة واعتذارا وألغازا وعلى حسب مفتتح الأبيات نحو (ألاَ لَيْتَ شعْري) أو (سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ) ومثل ذلك مما يعتبر في أول كل بيت، والكل على وزن الطويل فيَكبَ كل فريق على نوع من ذلك...»(390) ثم ينتخب الطلبة من بينهم بعض النجباء يتصدرون للمطابقة بين معاني الأبيات(391) «فمثلا إذا افتخر مفتخرون عليهم ببيت ماذا عسى أن يكون جوابه وكذلك الهجو وكذلك في الأخوة وحسن الارتباط، وكذلك في التغزل...».(392)

ولا يتكل طلبة الإلغية على حفظهم وحده، بل يختارون من يقولون الشعر منهم سجية وبديهة، يضمنونه المعاني التي يتطلبها المقام إن أعوزتهم المحفوظات عن مسايرة الأقران.(393)

ومن أهم المواسم التي كان طلبة الإلغية يحرصون على حضورها : تَازَرْوَالْتْ وأرْبعَاء دُّوْدرَارْ، وَبُومَرْوَانْ وَلَلاَّتَعزَّى السَّمْلاَلَيَّة، وأسيفْ مَقُورْنْ، وَتَارْصَواطْ، وَأكَجْكَالْ(394)

---

388) انظر الدكتور اليزيد الراضي شعر داود الرسموكي ص : 59، والمعسول 10/ 157.

389) هو الحسن البونعماني أيام عكاظ بتازروالت القسم الثاني مجلة الثقافة المغربية عدد دجنبر 1942 ص : 99.

390) المعسول 10/ 155.

391) ذكر محمد المقدم السلامي أن لجنة الطلبة تكونت مرة منه ومن البشير بن أبي بكر الأغوديدي وأحمد بن الحاج محمد اليزيدي انظر المعسول 10/ 155.

392) نفسه.

393) المعسول 10/ 155.

394) نفسه.

وأنْزي(395) وأهمها جميعا موسم تازروالت الذي يحضره غالب طلبة المدارس المجاورة وحتى البعيدة للتباري والمنافسة. وتتمثل موضوعات هذه المباريات في ما يلي :

أ - **قراءة القرآن** : حيث يتلو كل فريق ربع حزب قر آني والآخرون ينصتون مترصدين اللحن في القراءة والغلط في الألفاظ والأوقاف والمطوط،(396) فإذا أخطأوا أو غلطوا تصايح بهم أقرانهم وكل الحاضرين وربما تجاوزا ذلك إلى الترامي عليهم ضربا.(397)

ب - **المسائل العلمية** : وتكون فقهية أو نحوية، حيث يلقى أحد الفريقين المسألة منظومة على الفريق المنافس. مثل قول الطلبة الإلغيين وقد جمعهم موسم أسيفْ مَقُورْنْ بطلبة مدرسة تَهَالَة الذين أنشدوا أولا معرضين بمنافسيهم : (الطويل)

فَإنَّ أهَيْلَ الْحِصْنِ(398) لاَ عِلْمَ عِنْدَهُمْ
بِجَيِّدِه إلاَّ كَعِلْمِ الأبَاعِرِ

فرد عليهم الإلغيون... بمسألة نحوية منظومة بقولهم : (الطويل)

ألاَ أيُّهَا الإرْغِيُّ زِنْ لِي كُلَيْمَةً وَهَا هِيَ «ادَّارَيْتُمُ» إنْ دَرَيْتُمُ

فعجز طلبة مدرسة تهالة عن الجواب، فقال لهم الإلغيون متهكمين على لسان جامع المجاطي :(399) (الطويل)

وَأنْتُمْ بِحَمْدِ اللّه أجْدَرُ قَائِلٍ بِتَصْحِيحِ مَوْزُونٍ وَمَا الْغَيْرُ يَعْلَمِ

ج - **المساجلة الشعرية** : يستعد لها الطلبة كما أشرنا من قبل بالحفظ لمقابلة إنشادات منافسيهم بما يناسبها، ينشدها «القائلون بكل ما فيهم من جهارة صوت، بغنة خاصة وبصوت واحد، يتداولون ذلك طائفة فطائفة، طائفة من كل مدرسة. وقد تدور النوبة على الطوائف الحاضرة التي قد تكون أكثر من عشرين، خصوصا في المواسم الكبرى... وقد يكثر شعراء يقولون الشعر بأنفسهم، فيتركون المحفوظات، فيتخاطبون بأبيات هي بنت وقتها...».(400)

---

395) أخبرني الفقيه محمد الكثيري أنه حضر هذا الموسم مع الطلبة عند قراءته بالإلغية.
396) المعسول 3/ 270.
397) المعسول 10/ 157.
398) المقصود بأهيل الحصن طلبة الإلغية وفي وسمهم بذلك تحقير وتهوين من شأنهم.
399) انظر ترجمته بالمعسول 10/ 152.
400) المعسول 10/ 156.

ومن هذه المباريات التي شارك فيها الإلغيون ما يحكيه محمد المقدم السلامي(401) إذ قال : «... ذهبنا إلى موسم أربعاء دوأودرار من رسمركة، فتقابلنا حينا مع طلبة أزاريف، وعلى رياستهم سيدي الحسن بن محمد(402) ... فقلنا لهم بيتا، فأجابونا بجواب غير مطابق، فقلنا لهم على لسان سيدي أحمد بن محمد اليزيدي : (الطويل)

إذَا قُلْتَ شعْراً فَالْتَمسْ لمُوَافق   ببحْر وَبالْمَعْنَى وَلاَ تَتَضَخْضَخ

ومقصوده بالتضخضخ : التنكيت باستثقال الكلمة وحوشيتها، ثم أرتج عليهم فقلنا لهم - وأنا هو القائل - : (الطويل)

أجِيبُوا أو اتْرُكُوا الْجَوَابَ فَمَا
تَنَاضُلُ أبْنَاء الْعُلُوم التَّجَاوُبُ»(403)

ومنها أيضا مهاجاة بين الإلغيين والتهاليين في موسم تارسواط إذ أنشد طلبة مدرسة تهالة معرضين بمنافسيهم : (الطويل)

وكُنْتُ أرَى زَيْداً كَمَا قِيلَ سَيِّداً
إلاَّ أنَّهُ عَبْدُ الْقَفَا وَاللَّهَازِمِ

فأجابهم الإلغيون بقولهم : (الطويل)

أيَا مَنْ رَمَانَا بالْيَرَاعَة وَاخْتَفَى
ولَمْ يَتَعَرَّضْ للْقَنَا وَالصَّوَارِمِ
هَلُمَّ إلَى الْمَيْدَان إنْ كُنْتَ صَادقاً
ليُعْلَمَ مَنْ عَبْدُ الْقَفَا وَاللَّهَازم(404)

د - **الألغاز** : وهي الطريقة الناجعة لتعجيز الخصم وإفحامه، ولإظهار البراعة والذكاء، ونمثل لذلك بقول الإلغيين لطلبة أزاريف في موسم تازروالت ملغزين، ببيتين هما : (الطويل) :

ألاَ أيُّهَا الشَّبِيُّ إنْ كُنْتَ بَارِعاً
وَكُنْتَ لأقْوَال الْعُلُوم تُفَصِّلُ
فَمَا الْفَرْقُ في تَفْسِير مَيْت وَمَيِّت
فَنَحْنُ لِذَا التَّفْصِيل منْكَ نُعَوِّلُ

---

401) هو محمد المقدم السلامي المذكور آنفا.
402) المعسول 10 / 156 .
403) نفسه.
404) نفسه.

فأجاب الأزاريفيون بقولهم : (الطويل)
فَمَنْ كَانَ ذَا رُوحٍ فَسَمِّهِ مَيِّتاً
وَمَا المَيْتُ إِلاَّ مَنْ إِلَى الْقَبْرِ يُحْمَلُ(405)

وقد كانت المشاركة في مثل هذه المسابقات الموسمية مزدهرة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري. وكان يرأس كل فريق طلبة نجباء صاروا بعد ذلك من كبار العلماء، مثل الأستاذ علي بن عبد الله، والأستاذ الفقيه المحفوظ الأدوزي، والعلامة محمد بن مسعود... وغيره.(406) إلا أنه سرعان ما دبّ الانحلال إلى هذه المشاركات، خاصة بعد المساغب التي عركت المنطقة في «حدود الخمسة والثلاثين بعد الثلاثمائة والألف، فجعلت شمس تلك الأعصار المضيئة تركض في مغرب أفولها، إلى أن غابت أضواء تلك المطالع بالكلية في ظرف خمس سنين... وتبدلت بالكلية «كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْس» تلك الأخلاق بانسداد أبوابها... فانغمس الناس في أوحال المعايش، لما اجتمع عليهم من تعاقب السنين المجدبة».(407) وانصرف الطلبة عن القراءة، فدب الضعف إلى مثل هذه النشاطات الثقافية عامة، كما دبّ إلى المدارس نفسها، إذ خلت وخرب أكثرها. وقد عانت الإلغية من هذا الوضع فانقطع طلبتها عن المشاركة في المواسم، ولم يعد يرابط بها إلا فئة قليلة بعد أن كان طلبتها يقاربون الخمسين إبان ازدهارها.(408)

ب - التنافس بين الإلغية والتمكَدشتية يتحول إلى صراع :

تأسست المدرسة الإلغية في تاريخ متأخر نسبيا عن بناء المدارس الكبرى بسوس مثل البونعمانية،(409) والأدوزية،(410) والجشتيمية(411) والتمكَدشتية.(412) وما كان لها أن تظهر وسط هذه المعاهد إلا بالجد والمثابرة؛ فقد كان كل أستاذ وصاحب مدرسة يعمل جاهدا لأن يتبوأ تلاميذه المرتبة التي تجعل مدرسته في المرتبة الأولى بين مثيلاتها.

وقد اشتدت المنافسة في سوس بين مدرستين كبيرتين منذ أواسط القرن الثالث عشر الهجري. الأولى بزعامة عبد الرحمان بن عبد الله الجشتيمي،(413) والثانية برئاسة أحمد

---

405) المعسول 10/ 157.
406) المرجع نفسه ص : 157 - 158.
407) المعسول 3/ 272 والآية 24 من سورة يونس.
408) انظر الفصل الثالث من هذا الباب.
409) أسست قبل 1279هـ انظر سوس العالمة ص : 165.
410) أسسها إبراهيم الأدوزي اليعقوبي المتوفى 1160هـ انظر سوس العالمة 157.
411) عمرها عبد الله بن محمد الجشتيمي (توفي 1198هـ) انظر سوس العالمة ص : 165.
412) بنيت أوائل القرن الثالث عشر الهجري انظر المعسول 6/ 174 وما بعد.
413) انظر ترجمته بالمعسول 6/ 7.

بن محمد التمكَدشتي.(414) وشملت المنافسة جميع الميادين التي تنشط فيها المدارس السوسية؛ فقد أضحت كل منهما تتزعم شعبة أدبية تنافس أختها في الاهتمام بالأدب وإصدار الطلبة المتأدبين.(415) فانتشر لكل منها تلاميذ ينافحون عن مجد أساتذتهم، ويشيدون بمدرستهم ردا على المنافسين. فنتج عن ذلك أن انتقلت هذه المنافسة إلى التلاميذ، فصار الإفرانيون والإلغيون والتمنارتيون واليزيديون المنضوون تحت لواء الجشتيمية، يجابهون الأدوزيين والبونعمانيين والاكَراريين المستظلين بمجد التمكَدشتية.(416)

هكذا انغمست المدرسة الإلغية في خضم هذه المنافسة في مواجهة الشعبة الأخرى، خاصة المدرسة الأدوزية، فكان ما بين الأستاذين علي بن عبد الله الإلغي والمحفوظ الأدوزي غير ملتئم، حيث كان كل منهما يتصدى لنقض فتاوي الآخر كلما وجد إلى ذلك سبيلا.(417) وحدث أن تجاذبا مرة مسألة فقهية، فما كان من المحفوظ الأدوزي إلا أن سافر إلى إلغ وقد «أتى بالكتب المتعلقة بتلك المسألة، فطرق باب سيدي علي بن عبد الله، فقال: لا أدخل بل أخرج أنت إلى هذا البيدر لنتفهم المسألة».(418)

كما تندرج ضمن هذه المنافسة تلك المجاذبة الشهيرة بين المؤرخ محمد بن أحمد الإيكَراري(419) والرئيس إبراهيم الإيغشاني،(420) حيث كان الأخير يحط من قدر التمكَدشتيين أشياخ الإيكَراري، ويرفع من شأن أصحابه الإلغيين حتى جعلهم من الشرفاء. وقد أورد المؤرخ هذه المجاذبة في كتابه «روضة الأفنان»، عندما تحدث عن زيارته للرئيس الإيغشاني مقدمه من تمكَدشت قائلا: «فلما حللنا داره وتوسطنا وجاره، شرع يسألنا ويهضم من حق أشياخنا. وقال: إن أولئك الآن يدّعون الشرف، لما يجدون من الترف وأسلافهم كسيدي أحمد ممن سلف، لا يدعي مدعى هذا الخلف، فسقط في أعيننا وندمنا على ما فعلنا، فجعل يتبجح بآل تحت الحصن. فكدر علينا البيات، وزرينا ما أعجبنا من النبات، وسقط الذباب في الشراب، ولات حين مناص عن تراب. فندمنا ندامة الكسعي حين استبان النهار، والفرزدق لما أبان النوار. فلم نر إلا أن نكايله بكيله وأن نغمز فيما تبجح به بخيله ورجله. فقلت له في أي شعب آل تحت الحصن، قال من الشرفاء. فقلت له: إنهم ساموكَنيون، على ما نص عليه الحضيكَي في المناقب. فقال إنه موجود، أرينه

---

414) انظر ترجمته بالمعسول 6 / 174.
415) سوس العالمة ص: 98.
416) المرجع نفسه ص: 99.
417) انظر نقض الأدوزي أحد أحكام الإلغي بالمعسول 3/ 67.
418) المعسول 5/ 231.
419) انظر ترجمته بالمعسول 13/ 316.
420) انظر ترجمته بالمعسول 3/ 129.

كالنجم الثاقب. فقلت له استسعيت يعبوبا، واستمطرت أسكوبا. فلما سردته عليه أجاب : إنهم لم يقبلوا ذلك وإنهم بمراحل عمن هنالك. فقلت له إن الخضيكَي علامة هذه الآفاق بالوفاق، فقد ذكر أيضا المسعودي أن ساموكَن وحربيل أخوان من ولد جالوت. فسكت عن غيض وبات وفي قلبه حر القيض، فافترق المجلس عن كدر، وليس الوقت وقت السفر...».(421)

وتعد هذه المناقشات من ذيول المنافسة بين المدرسة الإلغية والأدوزية، ومحاولة كل منهما الإزراء بالأخرى بالريادة والرئاسة العلمية،(422) كما تدل على المنافسة بين الإلغيين والتمكَدشتيين والتي تحولت إلى صراع مستفحل، خصوصا بعد أن بسطت الإلغية ظلها العلمي على بعض المناطق التي كانت تابعة لتمكَدشت، مثل أقَا وفَمْ الْحصْن وتَاغَجِّيجْتْ وإيسِي... بإقبال أبنائها على الأخذ بدُّوكَادِيرْ ومن مظاهر هذا الصراَع بينَ المدرستين :

* استقطاب الإلغية الطلبة من المناطق المجاورة لتمكَدشت بعد أن اشتهرت بجديتها وعلو كعبها في إقراء العلوم. وقد صادف نهوضها تضاءل شأن تمكَدشت بسبب كثرة نزاعات أهلها على الرئاسة، خاصة أيام الهاشم بن الحنفي،(423) الذي قام بالزاوية أول الأمر أحسن قيام «وأمكن للمدرسة في أيامه كلها أن تستمر على عمارتها بالطلبة، ما شاء الله، وبالزوار، ثم وقع الخلاف بينه وبين الطلبة، فأمرهم جميعا بمغادرة المدرسة. فصار شأن الزاوية التمكَدشتية في الدراسة يتضاءل شيئا فشيئا في أيامه كلها... وقد طلق المواظبة على التدريس بعدما جال فيها حينا... وحين انقشعت السحب التي كانت تنهل بالمعارف من آل الزاوية، صارت الوجوه تميل عنها يمينا وشمالا...».(424)

* خلاف حول بعض الكتب التي اشتراها الأستاذ علي بن عبد الله الإلغي من محمد المحفوظ التمكَدشتي برسم شراء نصه : «وبعد فقد اشترى شيخنا سيدي أبو الحسن بن عبد الله بن صالح الإلغي من الشريف سيدي محمد بن المحفوظ التمكَدشتي الميموني جميع التفسير المسمى روح البيان بأجزائه الستة، والأخلاق المتبولية بسفريه، والدماميني على التسهيل في سفريه، وابن عقيل عليها في سفر، اشتراء صحيحا قاطعا أبديا، بخمس وعشرين ريالة قبضها قبضا وافيا، وكتبه من إشهاد البائع آخر ربيع الثاني عام 1313هـ عبد ربه العربي بن محمد الساموكَني لطف الله به».(425)

421) محمد بن أحمد الإيكَراري - روضة الأفنان في تراجم الأعيان ص : 139 .
422) الإكَراريون من تلاميذ الأدوزيين، انظر مشيخة الإيكَراري المؤرخ المعسول 13/ 320.
423) انظر ترجمته بالمعسول 6/ 170.
424) المعسول 6/ 311 - 312 وانظر المعسول 3/ 360 فما بعد.
425) المعسول ص : 313.

وقد طالب رئيس الزاوية التمكَدشتية الهاشم بن الحنفي الأستاذ الإلغي برد تلك الكتب فأبى متعللا «بأنه اشتراها شراء صحيحا من مالكها، فعاوده سيدي الهاشم بأن الكتب للزاوية، وليست في ملك البائع، فأصر الأستاذ الإلغي على أنه توصل بها توصلا شرعيا، وما كان ليسلم في حق أباحه له الشرع. والبائع من الورثة في الزاوية فليكن الكلام معه. ثم مازال جرح هذه القضية ينغل شيئا فشيئا حتى أدى إلى المقاطعة التامة».(426)

وقد تشبث كلا الطرفين بموقفيهما، وليس ذلك بغريب إذا عرفنا القيمة المعنوية لتلك الكتب، إذ يشكل خروجها من التمكَدشتية فقدانا للمجد العلمي وللصولة المعرفية، وانتقالا للسر العلمي من تيمكَدشت إلى إلغ، وقد ذكر العلامة المختار السوسي أن شيخ مؤسس الإلغية، الحاج الحسين الإفراني قد دعا له عند بناء المدرسة فقال: «لعل سر تيمكَدشت في العلم ينتقل إلى إلغ».(427)

* نزع الإيشتيين أملاك الإلغيين بإيعاز من التمكَدشتيين، وهذه الأملاك كانت رهنا لدى الإلغيين(428) نظير أموال قبضها الإيشتيون.(429) ثم ما زال الدائنون يدفعون لمدينيهم الأموال حتى أتموا لهم أثمان أراضيهم بالشراء القطعي. إلا أن أهل إيشت لم يلبثوا برئاسة علي وأحمد إبني الخليل(430) أن نقضوا البيع «فأول ما فعلاه... أن تنكرا لأهل إلغ، فقد أتتهما الدراهم من تمكَدشت لينزعا أملاك الإلغيين وإن بيعت بيعا باتا».(431)

وهذه المسألة من ذيول الخلاف حول الكتب المذكورة آنفا، أثارها التمكَدشتيون انتقاما من الإلغيين.

وقد تجذرت العداوة بين هاتين المدرستين، إلا أنها لم تلحق الميدان العلمي، خاصة في المرحلة الأخيرة، نظرا لاضمحلال القيمة العلمية لتمكَدشت وتحولها من مدرسة علمية إلى زاوية للزيارة والتبرك.(432)

---

426) نفسه.
427) المعسول 11/ 164.
428) المقصود بالإلغيين الشيخ علي الدرقاوي والأستاذ علي بن عبد الله الإلغي، انظر المعسول 19/ 263.
429) إيشت قرية تقع بفائجة تمنارت غير بعيد عن فم الحصن جنوب إلغ.
430) انظر ترجمتهما في المعسول 19/ 263.
431) المعسول 19/ 263.
432) المعسول 6/ 238 وما بعد.

لائحة المدارس السوسية
التي شارط فيها تلاميذ الإلغية
من خلال كتاب المعسول

ر.ت	المدرسة	إسم المشارط فيها من تلاميذ الإلغية	المصدر المعسول
1	مدرسية إبركاك بإسافن نايت هارون	محمد بن سعيد الأكَناري	288/9
2	مدرسة أباينو بأيت باعمران	عبد الله بن الحسين الموسكناوي الباعمراني	228/10
3	مدرسة إثنين أولاد التايمة	علي بن إبراهيم الأخصاصي	288/11
4	مدرسة أداي نايت حربيل	عبد الله بن محمد الإلغي	160/2
5	مدرسة إد غزال بالأخصاص	محمد بن عبد الله أوبلوش	163/10
6	مدرسة أفلاوكنس البعقيلية	أحمد بن سعيد الأكَماري	107/11
7	مدرسة افيلال الحضيكَية	أحمد بن الحسن أبناو الإيغشانى	171/3
		عبد الله بن أحمد السملالي	113/11
		محمد بن الحنفي الحضيكي	330/11
8	مدرسة أكَادير مقورن بتاغجيجت	محمد بن مبارك أولموش التاغجيجتي	114/9
9	مدرسة إكَبيلن بإندوزال	محمد بن الحنفي الحضيكَي	330/11
10	مدرسة أكَرض بتمنارت	محمد بن الحسن الإيموكَاديري	126/9
11	زاوية أكَلميم	أحمد الإهرييي التاجرمونتي	37/9
12	مدرسة أكنس واسف التملية	أحمد الإهرييي التاجرمونتي	36/9
13	المدرسة الإلغية	محمد بن محمد الكثيري	258/9
		بلقاسم التجارمونتي	9/9
		أحمد بن محمد اليزيدي	173/9
		علي بن صالح الأوفقيري	69/2
		المدنى بن علي الإلغي	124/2
		الطاهر بن علي الإلغي	210/2
		الحسن بن علي الإلغي	217/2
		محمد بن علي الإلغي	202/2
		عبد الله بن محمد الإلغي	189/2

ر.ت	المدرسة	إسم المشارط فيها من تلاميذ الإلغية	المصدر المعسول
	المدرسة الإلغية	محمد بن الحسن أبناو الإيغشانى	172/3
		عبد الله بن إبراهيم السعيدي الإلغي	338/2
14	مدرسة أمسرا الإفرانية	عبد الله بن محمد الإلغي	160/2
		البشير بن أبي بكر الاغويديدي	8/3
		محمد بن الحاج الإفرانى	10/10
15	مدرسة إيمي أوسكا التملية	محمد التيقي السملالي	20/11
16	مدرسة إمي نتاتلت اليعقوبية	محمد بن الحسن الإيموكَاديري	126/9
17	مدرسة أيت وفقا	موسى بن الطيب السليمانى الإلغي	38/2
		محمد بن علي الإلغي	203/2
		مبارك بن محمد الوفقاوي	87/3
		مبارك بن أحمد الوفقاوي	101/3
		أحمد الإهريي التاجرمونتي	35/9
		محمد بن الحسن الإيموكَاديري	126/9
		أحمد بن محمد اليزيدي	175/9
		محمد بن أحمد اليزيدي	239/9
		الحسن بن محمد الكوسالي	62/11
		محمد بن أحمد المارسي المعدري	280/10
18	مدرسة إيسك الباعمرانية ...	محمد بن أحمد المارسي المعدري	281/10
19	مدرسة إيغري بإداوتنان ...	محمد بن أحمد المارسي المعدري	69/2
20	المدرسة الإيغشانية	علي بن صالح الأوفقيري	160/2
		عبد الله بن محمد الإلغي	207/2
		الطاهر بن علي الإلغي	12/9
		بلقاسم التاجرمونتي	46/9
		العربي الساموكَني	172/9
		أحمد بن محمد اليزيدي	60/3
21	مدرسة إيغيلالن الهشتوكية	الحاج مسعود الوفقاوي	60/3
22	مدرسة إيكونكا الهشتوكية	الحاج مسعود الوفقاوي	37/9
23	مدرسة أيت بوبكر الباعمرانية	أحمد الأهريي التاجرمونتي	152/10
		محمد المقدم السلامي	
		محمد بن أحمد السملالي	163/10

ر.ت	المدرسة	إسم المشارط فيها من تلاميذ الإلغية	المصدر المعسول
24	مدرسة أيت بوياسين بالأخصاص	محمد بن محمد بيشوارين الساحلي	271/10
25	مدرسة أيت الحاج برسموكة	صالح بن محمد الزعنونى	197/11
26	المدرسة الأيمورية	عبد الله بن محمد الإلغي	164/2
		الطاهر بن علي الإلغي	209/2
		عبد الله بن إبراهيم السعيدي الإلغي	337/2
		أحمد بن الحسن الإيغشانى	171/3
		المكي بن محمد اليزيدي	160/9
		محمد بن الحاج الإفرانى	10/10
		أحمد بن صالح التاوريرتى الإفرانى	81/10
27	مدرة إيليغ	أحمد بن صالح التاوريرتى الإفرانى	82/10
28	المدرسة البيزكارنية	العربي الساموكني	47/9
		عبد الرحمان البوزكارنى	95/10
		أحمد بن صالح التاوريرتى الإفرانى	82/10
29	مدرسة بنكَرير بعبدة	محمد بن نصر الزاوي الإلغي	127/2
		إبراهيم بن أحمد الإلغي	360/2
30	المدرسة البومروانية	عبد الله بن محمد الإلغي	160/2
		الطاهر بن محمد الإفرانى	78/7
		أحمد الإهرييي التاجرمونتي	36/9
		أحمد بن محمد اليزيدي	174/9
		عبد الله بن محمد السملالي	25/11
31	مدرسة بوكَرفا الباعمرانى.	أحمد بن زكرياء السكال الباعمرانى	262/10
32	مدرسة بوابوض المتوكية ...	الحاج مسعود الوفقاوي	60/3
33	مدرسة سيدي بيبي الهشتوكية	محمد بن أحمد المارسي المعدري	281/10
34	مدرسة تاجاجت المجاطية ..	عبد الله بن محمد السملالي	25/11
35	مدرسة تازموت السملالية	عبد الله بن محمد السملالي	25/11
		إبراهيم التازيلالتي الرسموكَي	190/11
36	مدرسة تازروالت	محمد بن الحاج الإفرانى	10/10
37	مدرسة تاسريرت الأمانوزية	أحمد بن محمد اليزيدي	172/9
		الحسن بن الحنفي الحضيكَي	330/11
38	مدرسة تاغلولو المجاطية	أحمد بن صالح التاوريرتى الإفرانى	82/10
39	مدرسة تافيلالت الكثيرية ...	أحمد بن محمد الكثيري	274/9

ر.ت	المدرسة	إسم المشارط فيها من تلاميذ الإلغية	المصدر المعسول
40	مدرسة تالعينت بأيت جرار	علي بن إبراهيم الأخصاصي	288/11
41	المدرسة التانكرتية الإفرانية	الطاهر بن محمد الإفرانى	78/7
		محمد بن الحاج الإفرانى	10/10
42	مدرسة تافراوت التملية	محمد بن أحمد اليزيدي	239/9
		إبراهيم التازيلالتي الرسموكي	191/11
43	مدرسة تكاترت البعقيلية	محمد بن ناصر الزاوي الإلغي	227/2
		أحمد بن سعيد الأكَماري البعقيلي	107/11
		عبد الله بن أحمد بن سعيد الأكَماري	113/11
44	مدرسة تكَانت	علي بن إبراهيم الأخصاصي	288/11
45	مدرسة توملين الإيلالنية	محمد بن سعيد الأكَناري	288/9
		محمد بن الحاج الإفرانى	10/10
46	مدرسة تيدلي الكثيرية	أحمد بن محمد الكثيري	274/9
		محمد التيقي السملالي	20/11
47	مدرسة تيزكين الرسموكية	إبراهيم التازيلالتي الرسموكي	191/11
48	مدرسة تيغانيمين إيداونتان	محمد بن محمد بيشوارين الساحلي	271/10
		أحمد بن محمد بيشوارين الساحلي	273/10
		علي بن إبراهيم الأخصاصي	288/11
49	مدرسة تيتركَيت	محمد بن الحنفي الحضيكي	330/11
50	مدرسة تيمولاي إداوزكري	محمد بن سعيد الإكَناري	290/9
51	مدرسة تيوت	محمد بن الحاج الإفرانى	10/10
52	مدرسة الثلاثاء أوفلا الأخصاصية	علي بن إبراهيم الأخصاصي	288/11
53	مدرسة الجمعة الساحلية	محمد بن محمد بيشوارين الساحلي	271/10
54	المدرسة الجشتيمية التملية	محمد بن علي الإلغي	202/2
		مبارك بن أحمد الوفقاوي	101/3
		أحمد بن محمد اليزيدي	175/9
		محمد بن أحمد اليزيدي	239/9
55	مدرسة حسين أوحسين الكَيلولية بحاحة	عبد الله بن إبراهيم السعيدي الإلغي	337/2
56	مدرسة دودرار الرسموكية	علي بن الطاهر المحجوبي الرسموكي	53/14
		عبد الرحمان البوزكارنى	96/1

ر.ت	المدرسة	إسم المشارط فيها من تلاميذ الإلغية	المصدر المعسول
57	مدرسة دوتكَاديرت الإيلالنية	محمد بن سعيد الإكَناري	288/9
58	زاوية الرميلة بمراكش	إبراهيم بن أحمد الإلغي	358/2
59	مدرسة علي بن سعيد الأخصاصية	المدنى بن علي الإلغي	127/2
		عبد الله بن محمد الإلغي	160/2
		محمد بن الحاج الإفرانى	10/10
60	المدرسة الشيشاوية الهشتوكية	محمد بن أحمد العتيق السليمانى الإلغي	374/2
61	مدرسة عبد الرحمان بأيت آمر	عبد الله بن إبراهيم السعيدي الإلغي	377/2
62	مدرسة فوكرض بأيت صواب	أحمد بن محمد اليزيدي	173/9
63	مدرسة فيلالت المجاطية الإفرانية	أحمد الإهريي التاجرمونتي	
64	مدرسة قصبة أولوز	محمد بن الحاج الإفرانى	10/10
65	مدرسة سيدي علي بوحاجة	علي بن إبراهيم الأخصاصي	288/11
66	مدرسة المسايديرة بالساحل	محمد المقدم السلامي	152/10
67	مدرسة المولود الرسموكية	أحمد بن محمد اليزيدي	175/9
68	مدرسة ميرغت الأخصاصية	عبد الله بن إبراهيم السعيدي الإلغي	337/2
		عبد الله بن محمد السملالي	25/11
69	مدرسة محمد الشريف الأخصاصية	محمد بن إبراهيم المانوزي	287/11
70	مدرسة لالاتعزى السملالية	البشير بن محمد السليمانى الإلغي	26/2
		موسى بن الطيب السليمانى الإلغي	38/2
		محمد بن سعيد الأعضيائي	11/11
		الحسين الأخصاصي السملالي	22/11
		عبد الله بن محمد السملالي	25/11

ر.ت	المدرسة	إسم المشارط فيها من تلاميذ الإلغية	المصدر المعسول
71	مدرسة سيدي وكَاك بأكَلو	محمد بن خالد الرسموكَي	216/11
72	مدرسة يعقوب بوحاجة بأيت آمر	إبراهيم التازيلالتي الرسموكَي	191/11

ملاحظة :

هذه اللائحة لا تستقصي كل مشارطات تلاميذ الإلغية، بل تقتصر على ما ذكر المعسول، وإلا فإن هناك مدارس أخرى شارط بها بعضهم، دون أن يذكرها العلامة المختار، مثل عبد الله بن إبراهيم السعيدي الإلغي الذي شارط بمدرستي إفرض أوطاها وتمنار بحاحة، ومدرسة الكريفات بالشياظمة (أخبرني بذلك تلميذه الوالد محمد بن أحمد السعيدي حفظه الله) وانظر أيضا سر الصباح للفقيه أحمد بن الحسن أبناو ص : 133 وما بعد.

البـــاب الثـــاني
النظام الإداري والتعليمي

الـــفصـل الأول
النظام الإداري والتعليمي في مدارس سوس عامة

المبحث الأول : موارد عيش الفقهاء
المبحث الثانـي : المدرسة مؤسسة قبلية
المبحث الثالث : وضعية الطلبة السوسيين
المبحث الرابـع : مؤلفات سوسية حول نظم التعليم

تمهيد:

قبل أن نتطرق للنظام الإداري والتعليمي بالمدرسة الإلغية، وحتى نتبين أهميته ونفهمه في إطاره البيئي والمعرفي العام. نتعرض أولا لبعض ملامح هذا النظام بالمدارس السوسية بوصفها مؤسسة تربوية ثم الفقيه أستاذها والقائم بالتعليم، فالطالب بوصفه تلميذا مرابطا بها للاستفادة، وأخيرا المناهج التعليمية المستعان بها في التعليم ممثلة في بعض المؤلفات التي لخص فيها بعض السوسيين النظريات التربوية المستقاة من الفكر التربوي العربي. فحول هذه الأركان سيدور الحديث حول النظام الإداري والتعليمي في مدارس سوس، في ارتباطه بالمجتمع عامة، مقدمة تجلياته في نظام المدرسة الإلغية، واكتشاف مواطن التوافق والاختلاف فيهما.

المبحث الأول : موارد عيش الفقهاء :

الفقيه حامل لواء الشريعة في المجتمع، وعماد التعليم، والعارف بالعربية وحامل علومها. فهو لذلك ملجأ الناس لفض خصوماتهم، وكتابة وثائقهم، ومقصد مرضى النفوس والأجساد لشفاء أسقامهم، يأتيه الطالب فيعلمه، والخصيم فيفتيه، والضال فيرشده، فتبوأ بذلك بين الناس أعلى المراتب؛ يشير فيقفون عند إشارته، أو يحدّث فيستمعون حديثه. حكمه العدل، وقوله الفصل، ورأيه الحق. وليست هذه المرتبة لكل الفقهاء. فلا يتسنمها إلاّ من كان غزير العلم، بالغ الزهد فيما بين أيدي الناس، مفنيا أيامه ولياليه في قضاء مآربهم. فتعددت لهذا مهام الفقهاء، وتعددت معها موارد عيشهم فهي المشارطة والقضاء وكتابة الرسائل والعقود والتطبيب...

وغير ذلك :

أ - المشارطة : في سوس ما يزيد على سبعين قبيلة،(1) في كل منها مدرسة أو أكثر، وفيها قرى كثيرة يتجاوز عددها سبعة آلاف قرية(2) لا تخلو كلها من مسجد. وتحتاج هذه المدارس والمساجد إلى من يشرف على سيرها وأداء وظيفتها. وتنقسم هذه المهمة إلى قسمين :

* الشؤون الخارجية لهذه المؤسسات، ويشرف عليها أعيان القبيلة والقرية (إينفلاس) وتنحصر في إصلاح بنائها، وجمع الأعشار وأنواع المؤن لها، وتعيين من يشرف على إقامة وظائفها الدينية والتعليمية.

* الشؤون الداخلية : وهي من مسؤوليات الفقيه أو الطالب المشارط، فيختص بإقامة الصلاة والتعليم وغير ذلك، مما لا دخل فيه لجماعة العرفاء.

وأصل المشارطة أن يلقى أصحاب المدرسة أو المسجد من يرتضون للإشراف على مؤسستهم ويعرض كل طرف شروطه على الطرف الآخر، ويتم الاتفاق على مقدار الأجرة التي تدفع للطالب أو الفقيه، حيث يشارط الطالب في المساجد الصغرى، وهو من حفظ القرآن وزاد على ذلك بقراءة يسيرة للعلوم. أما الفقيه فيختصّ بالمدارس، ويكون متعمقا في دراسة العلوم ومعرفتها. وتختلف الأجرة «بحسب القرى وبقدر السكان وبمقدار ثروتهم، وباعتبار ما يملكون وما يستنتجون منه معاشهم ويجولون في معتركه الحيوي...»(3) إلا أنها تشمل عادة قدرا معينا من الحبوب خاصة الشعير، والإدام سمنا أو

---

1) أنظر خريطة القبائل في المدخل، ص : 63.

2 - أنظر : Le Maroc, Horizon 2000 Agenda 1990 Réalisé par : Aguerd Mustapha et OURARA Mohamed.

3) محمد المختار السوسي مدارس سوس العتيقة ص : 12.

زيتا وغير ذلك من منتجات فلاحية كالصوف والخضر بالإضافة إلى قدر من المال والطعام اليومي وأضحية العيد.(4) وقد يشترط بعض الفقهاء على الجماعة حرث أملاكه وحصادها وإمداده بما يلزم من كسوة ونعال.(5)

ويتمتع المشارطون في المدارس والمساجد الكبرى بعيش رغيد يغبطهم عليه أقرانهم، تحتد المنافسة عليها، ويلتمس الفقهاء الوسائل للوصول إليها، خاصة تلك التي تخدمها قبائل غنية، مثل تزكيات كبار العلماء والصلحاء ووساطتهم، كما فعل محمد بن الحسين بوكرع الباعمراني(6) الذي قال مخاطبا أحد الفقهاء من ذوي الجاه طالبا مساعدته للمشارطة في إحدى المدارس : (الطويل)

أَيَا سَيِّدِي إِنِّي إِلَيْكَ لَمُلْتَجِ ... وَمَنْ يَعْتَلِي ظَهْراً عَلَى الْبَازِ قَدْ يَسْمُو

أُرِيدُ بِجَاهِكُمْ تَوَسُّطَكُمْ لِكَيْ ... أَفُوزَ بِنَحْبٍ طَالَمَا سَامَهُ الْهَمُّ

لِتَنْتَظِرَ لِي الشَّيْخَ الْكَبِيرَ عَلَى الْقَبِيلِ ... لِلشَّرْطِ كَيْ يَنْزَاحَ عَنْ ذِهْنِهِ غَمُّ

وقد يلجأ بعض الفقهاء إلى الكيد لمن سبقوهم إلى احتلال تلك المدارس حتى يخرجوهم منها، كأن يدفع بعضهم لنفاليس القبيلة رشوة لصرف المشارط وإحلالهم مكان،(7) أو يتربصون به الدوائر ليفتكوا به كالمحفوظ التيغرمتي الذي ابتغى المشارطة بمدرسة أيت عمرو الهشتوكية التي كان بها الأستاذ محمد بن أحمد الكَطيوي، فلا زال به حتى أزاحه عنها بقتله بالسم.(8)

هكذا اشتدت المنافسة على احتلال المدارس الكبرى في سوس، إلا أ ن عامة الناس وعلى رأسهم النفاليس كانوا يضعون شروطا معينة لقبول الفقهاء في مدارسهم ومساجدهم وتختلف هذه الشروط حسب الفترات التي شهدها التعليم العربي بسوس. فقد كان الناس يشترطون كون الفقيه متضلعا في العلوم إبّان نشاط المراكز التعليمية. ثم أهمل هذا الشرط لّما دبّ الإهمال والضعف إلى هذه الحركة، فاقتصروا على اشتراط بعض المظاهر الجسمانية، مثل كون الفقيه ضخم الجسم، فظ الملامح، عابس الوجه، متذللا للعرفاء. ويكون ذا لحية، وإلا فإنه لن يجد فرصة للمشارطة حيث لا يقبل إلاّ الملتحون

4) مدارس سوس العتيقة ص : 12.
5) المعسول 10/ 213.
6) أنظر ترجمته المعسول 10/ 224.
7) المعسول 5/ 320.
8) المعسول 16/ 188.

وكثيرا ما يرد غيرهم مثل أحمد آل الامين الذي أرسله أستاذه إلى مسجد إداوعيسى بهشتوكة «وقد كان كالنساء لا لحية له، فردوه على أنه صبي، فقال لهم : إنني رجل، فإن أردتم الملتحين الكبيري الشعور في الأذقان فعليكم بملاح تَامَليحْت حيث اليهود، وكان اليهود مشهورين بطول اللحي».(9)

وقد لخص أحد الشعراء السوسيون(10) الذين ذاقوا مرارة الشرط هذه الشروط في قوله (الخفيف)

شَــرَطَ الْجَــاهِلُونَ شَــتَّى شُــرُوط
لَمْ تكُنْ فِي مَــذَاهِبِ السَّــابِقِــينَا
أَنْ يَـكُـونَ الإِمَـــــامُ فَـظاً غَـلِـيظاً
سَــافِلَ الْقَــدْرِ إِنْ رَأَوا فِـــيـــهِ لِينَا
عَـابِسَ الْـوَجْـهِ مُـشْـمَـئِـزاً خَـبِـيـثاً
يَبْـــعَثُ الرُّعْبَ فِي نُفُـــوسِ الْبَنِينَا
فَــإِذَا سَــارَ فِي حِــمَى مُــقْـتَــدِيه
مَــلاَ الْحَيَّ هَيْـــبَـــةً وَسُكُونَا
لِحْــيَــةٌ كَــثَّــةٌ وَقَـــدٌّ طَوِيلٌ
وَمِنَ النَّدْبِ أَنْ يَكُونَ سَــمِــينا(11)

ويرتبط الوضع الاقتصادي للفقيه بالوضع العام لجماعة مشارطيه المعتمدين في معيشتهم على الفلاحة، فتتوقف أجرته على خصب أو جفاف السنة. فإذا كان الخصب وفي له أجره كاملا أما إذا ساد الجفاف والجدب فعليه الانتظار إلى العام اللاحق قانعا بكتابة أجره دينا على مشارطيه،(12) حريصا علي استيفائه حتى لا يألف الناس عدم دفعه أو يتهاونوا فيه. فيكون ذلك بداية الاستهانة بالمسجد أو المدرسة، وقد كان بعض الفقهاء حريصين على جمع هذا الأجر كاملا، لا يتركون منه شيئا مثل سعيد بن محمد التَّناني(13) الذي تحدث عن ذلك قائلا : «حتى إذا لم يبق إلاّ تين يابس يعطون عادة منه لإمام المسجد،

---

9) المعسول 18/ 114.

10) عبد الله العاطفي التتكي ولد عام 1949م بجماعة تازمورت قرب تارودانت، تلقى دراسة العلمية في كل من مدرسة عين المديور، وإدا ومنوا، والمعهد الإسلامي بتارودانت. وتنقل بعد ذلك في المشارطات وفي عام 1979م عمل بإذاعة أكادير ثم المحكمة الإبتدائية بتزنيت فأكادير عام 1983م، أنظر منار السعود عن تافروات المولود ومدرستها العتيقة ص : 76 .

11) آمال وآلام، عبد الله التتكي العاطفي، ديوان شعر، ص : 183 .

12) المعسول 16/ 109.

13) أنظر ترجمته في المعسول 15/ 5.

تطلبته منهم وقد كانوا يظنون أنني لا أواخذهم به، لكنني ألححت حتى جمعوه لي، فطلعت به إلى سطح المسجد، فقسمته قسمة، ثم أمرت الحاضرين من الرجال والصبيان فطلعوا فاستدار كل فريق بقسمة فأكلوا، فقيل لي مادمت لا تريده لنفسك لماذا ألححت علينا في جمعه، فقلت لهم : لا مقصود عندي في جمع الشرط كله إلا أن أربّيكم على أن تألفوا تأديته لأئمة المسجد، ولا يفسد الشرط إلا من يسامحون فيه».(14)

وفي مقابل الفقهاء والعلماء الذين يشارطون نظير أجر سنوي وجد آخرون اختاروا نشر العلم وتدريسه احتسابا بلا أجره، لاستغنائهم عنه بما يتوصلون به من مهن أخرى ، أو بمالهم من أموال كبلقاسم بن عبد الله الإيديكلي(15) الذي «أقبل على نشر العلم مجانا بلا مشارطة في مدرسة،وذلك في المسجدين الموجودين في إيديكل ينتقل بينهما»(16) وقد جمع إلى التدريس الفصل في الفتاوي والنوازل بالإضافة إلى ثرائه. وكالعلامة الكبير محمد بن أحمد الحضيكي الذي «لم يقبض قط من القبيلة شرطا على تدريسه، وإنما قامت زاويته في مدته بما يفتح الله عليه من الفتوح».(17) بل إن بعضهم بلغ الورع مرتبة الامتناع عن التمتع بما يأتيه من هدايا مثل أبي محمد عبد الله بن محمد الودريمي(18) الذي «كان... لا يأكل هو ولا أهله مما يأتي به الناس من الهدايا والصدقات، بل يأكل هو وأولاده من خالص كسبهم وحلال ملكهم. ثم يعطي الناس ما جاء به الناس».(19)

وكما يتفاوت الفقهاء في موقفهم من الشرط، يتفاوتون أيضا من حيث إخلاصهم في التدريس. فإذا كان بعضهم يقبل على التدريس بهمة وحماس عجيبين حتى في أكثر الأحوال شدة كالشيخوخة والمرض،(20) فإن البعض الآخر كان يقيم بالمدرسة دون إقراء ولا تدريس.(21)

وخلاصة الأمر أن المشارطة كانت الحرفة الأولى لغالب الفقهاء والطلبة، إلا أن بعضهم يأنف من مزاولتها لأنها حرفة الذل والانكسار وميدان العاجزين عن العمل في ميدان التكسب.(22) ويرى أن حراثة يوم أو يومين أفضل من شرط عام.(23) كما أن قلة الأجرة

---

14) المعسول 15/ 20.
15) أنظر ترجمته في المعسول 17/ 12.
16) المعسول 17/ 12، وإيديكل من قُرى قبيلة أملن أنظر سوس العالمة، ص : 172.
17) عبد الرحمان الجشتيمي - الحضيكيون ص : 17.
18) نفسه، ص : 58.
19) نفسه ص : 58.
20) المعسول 17/ 36 - 37.
21) المعسول 14/ 98.
22) المعسول 11/ 152.
23) نفسه ص : 6.

من أسباب انصراف الكثيرين عن المشارطة إلى طرق أخرى للكسب «فإحضارات المعلمين(24) قرآنا وعلما في غاية القلة وكل مسألة آلت لأضعاف القيمة إلاّ الإحضار لا يزيد لنباهة ولا ينقص لبلادة، فبقي المعلمون في «عش لا تمت». وإذا دخل ربّ الدار لداره فوجد اللبن في القدر قال للعيال: هلا أكلتموه، فقالوا له شبعنا فقال: ادفعوه للكلاب فقالوا: أبَوه، فقال اذهبوا به للطلبة في المسجد كي لا يخسر فلكم الأجر...».(25)

ومن أصحاب هذا الموقف نذكر مَحمد بن محمد الكثيري الذي أنف من مزاولة الشرط، وغادر سوس إلى الحواضر الشمالية حيث احترف التجارة. وقد أخذ عليه بعضهم ذلك معتبرا التجارة مهنة العامة وحرفة الذّل، فقال الكثيري يردّ عليه مبيّنا أسباب عزوفه عن سبل عيش أمثاله من الفقهاء في قصيدة: (مجزوء الرجز).

وَعَاذل عَنَّفَني
لَمَّا انْتَحَيْتُ الْمَتْجَرَا
وَقَالَ لَوْ مِلْتَ إلى
الشَّرْط لَكَانَ أجْدَرَا
في الشَّرْط عِزٌّ لِلْفَتَى،
وَالتُّجْرُ فِيه مَا تَرَى
وَمَا دَرَى الْمِغْرَارُ أنّي
كُنْتُ مِنْهُ أبْصَرَا
دَرَيْتُ مِنْ حَالِي وَحَا
ل الَدَّهْر فَوْقَ مَادَرَى
اَلْحُرُّ لاَ يَشِينُهُ مَا
بَاعَهُ أو اشْتَرَى
وَالشَّرْطُ عِنْدي هُوَ رَأْ
سُ الَذُّلِّ لَو استَبْصَرَا
قَدْ عُجْتُ نَحْوَهُ
فَمَا حَمِدْتُ مِنْهُ الْمَخْبِرَا
قَضَيْتُ فِيهِ زَمَناً
شَرَّدَ عَنْ جَفْني الْكَرَا

24) الإحضار: أجرة المشارطة.
25) محمد بن أحمد الإكَراري - روضة الأفنان في وفيات الأعيان ص: 146 - 147.

وَذُقْتُــــــهُ مُـــــراً وَمَــنْ
يَذُقْـــهُ مِـــثْلي اسْـــتَظْهَـــرا
هُـــوَ الَّـــذي أَنْـــحَـــلَـــنــي
هُوَ الَّذي قَـــــدَّ الْقَـــــرا
فَلَمْ يَـرُقْنـي عَـــــصَـــرُهُ
(كَـــفَى اللَّيْثَ مَـــا جَـــرَى)(26)
اَلْيَـــوْمَ قَلْبِي قَـــدْ سَـــلاَ
عَنْ شَـــرْطِه وَأَقْـــصَـــرا

ب : **القضاء** : امتهن الفقهاء بالإضافة إلى التعليم، الفصل بين الناس فيما يقع بينهم من خصومات : سَواء نالوا ظهائر تسند إليهم القضاء أم لم ينالوها. وذلك بسبب حالة سوس السياسية، إذ كانت هذه المنطقة مستقلة غالبا عن السلطة المركزية، فإذا بسطت سلطتها كانت فرصة سانحة لبعض الفقهاء لنيل ظهائر التعيين. أما إذا تقلص ظلها فإن هؤلاء وغيرهم ينتصبون في الأسواق للفصل بين المتداعين، أو يقبل عليهم المتخاصمون في دورهم أو مدارسهم، ليبثوا في خصوماتهم حسب مقررات الشريعة. ومقابل ذلك يتقاضى النوازلي أجرته ممن ظهر أنه صاحب الحق بعد الاتفاق على مقدارها.

وقد ثارت مناقشات عدة حول القضاء وفض النوازل، وانقسم الفقهاء حول ذلك إلى فريقين :

الفريق الأول : وهو الذي يفضل الفصل بين المتخاصمين، حتى لا تبقى الخصومات معلقة دون تطبيق حكم الشرع فيها. إلا أنه مع اتفاق فقهاء هذا الفريق على فض النوازل، فإنهم اختلفوا حول أخذ الأجرة على كتابتها حيث عده بعضهم رشوة وأكلا لأموال الناس بالباطل،(27) خاصة من الذين يأخذون على الحكام قدرا كبيرا من المال، ولا يحكمون لصاحب الحق إلا إذا كان بمقدوره دفع ما يطلبون من أجر(28) بينما ذهب آخرون إلى أن أخذ الأجرة لا حرج فيه إذا أنصف النوازلي، وحاز ما استحق بلا إجحاف. لأن ذلك تعويض له على ما استحق من بيت المال لانتصابه للفصل بين الناس، ولما لم يتيسر له حقه هذا جاز له أخذ الأجرة على الأحكام، كإبراهيم بن محمد الظَّريفي(29) الذي «كانت ترد عليه الفتاوي وأحكام الخصومات فيكتب فصلها، وكان يأخذ الأجرة من

26) كناش الكثيري، ص : 96.
27) المعسول 18/ 38.
28) المعسول 6/ 58.
29) أنظر ترجمته عند الجشتيمي – الحضيكيون ص : 37.

الخصمين على ذلك ربما أخذ خمسين مثقالا دفعة واحدة، ولما اعترض عليه بعض فقهاء وقته في ذلك أجاب بأن له حقا في بيت المال ولم يصل إليه، وبأن ما يأخذه من الخصوم ما فيه كفايته».(30) وانفرد بعض الفقهاء المتورعين برفض كتابة الأحكام فإذا سئلوا عن نازلة أجابوا عنها مشافهة فقط، وربما عاهد بعضهم بعضا على عدم الكتابة.(31)

الفريق الثاني : وهو الذي يذم القضاء والبث في النوازل ويرى أن ذلك لا يتولاه إلا الطامعون في أموال الناس، مما يجلب الترامي في الباطل خصوص وأن هذا القضاء لا سند شرعي له، فيتولاه الفقهاء دون أمر السلطان الذي إليه تولية القضاء وعزلهم، واختيار منصفهم والانتصاف من ظالمهم. كما ذكر عبد الله بن إبراهيم الرسموكي(32) في رسالة إلى أحمد بن محمد العبّاسي(33) حيث قال : « ... والقضاء في أمثالهم مما لم يكن فيها والعادل مبسوط اليد أتم البسط، يتتصف من القاضي والمتقاضي،...فيه من الشرّ الدنيوي والأخروي مما لا يخفى عليك. منحصرا غالبا في أمرين : إما جور القاضي، وإما جور المتحاكمين. أما جور القاضي فهلاك وإهلاك لا نفع فيه البتة. وأما جور المتحاكمين فشغل المرء بالقضاء معه إنما هو لعب ولهو وزينة وتفاخر في الحياة الدنيا. لا فائدة فيه غير الإثم.»(34)

وقد بلغ التورع ببعض الأساتذة من العلماء منع طلبتهم من دراسة متون المعاملات والأحكام، باعتبارها كتبا لا يتعلمها الطلبة إلا ليطلبوا بها الدنيا،(35) ومن هؤلاء العلامة أحمد بن عبد الله الصّوابي الذي كان «يحذر من القضاء بين الناس، ويتعوذ بالله من أن يكون من قضاة زمانه. لكثرة فسادهم ونذور السلامة ممن تولاه».(36) ومحمد بن أحمد الحضيكي الذي كان يطرد أهل الخصومات، «وينهي تلاميذه عن الحكم بينهم، فقيل له : من يفصل بين المسلمين إذا امتنع منه الطلبة؟ قال : لو تركهم الطلبة لا نفصلوا بلا حكم».(37)

ولعل سبب تنائي هؤلاء الفقهاء عن الأحكام راجع إلى ما يعانيه النوازليون من بطش وفتك من قبل المحكوم عليهم، الذين لا يتورعون عن قتلهم انتقاما مما صدر ضدهم من أحكام،(38) حتى كان الفقهاء يرفضون البث في النوازل طلبا للسلامة وفرارا من معاداة

---

30) الحضيكيون، ص : 37 .
31) أنظر المعسول 17/ 208.
32) لم أقف على ترجمته.
33) أنظر حوله وحول مدرسته المدخل.
34) كناش العوفي مخطوط ص : 35.
35) عبد الرحمان التغرغرتي - مختصر طبقات الشعراني مخطوط 4/ 3.
36) رحلة الحضيكي مخطوط ص : 2 - 3.
37) التغرغرتي - مختصر طبقات الشعراني 4/ 13، وانظر أيضا المعسول 6/ 29.
38) أنظر المعسول 12/ 296، 13/ 26، 4/ 11، 16/ 10، 17/ 18 ...

الناس. وكان هذا حال محمد بن أحمد الإيديكلي التّملي الذي «كان يتهرب من الحكم بين الناس، ولا يحب إلا أن يصالح بينهم، وكان يعلل كراهته للحكم... بالخوف على نفسه من المحكوم عليه ويقول: إنني أريد أن أنام على السطوح مطمئنا من غير خوف من أحد».(39) بل فضل آخرون أخذ الزكاة على أخذ أجرة الأحكام والجلوس لأصحابها.(40) ولا شك أن أصحاب الخصومات من عامة الناس لم يكن يهمهم معرفة حكم الشريعة في قضاياهم بقدر ما كان يعنيهم الحكم لصالحهم، فيتطلبون ذلك من النوازلي، لا يمكن أن يقبله إلا من كان غير متحرز ولا متورع. وقد وصف عبد الله بن إبراهيم الرّسموكي حال المتخاصمين، ومن يجلس للحكم بينهم، منكرا ما يجري في تلك المجالس من حياد عن الحق، وهزل في الدين، مشبها الخصمين بالأنعام التي تتهارش على أشياء غير ذات قيمة. وذلك في قصيدة قال فيها: (الطويل)

قَضَى اللَّهُ ألا أقضي الدَّهْرَ بَيْنَ ذَا
وَذَا، غَيْرَ أَنْ يُقْضَى بِمَلك عَادل

فَعَدْلاً وَعَزْلاً مَنْ تَوَلَّى ولاَيَةً
بغَيْر مُول عَنْ سوَى الْحَقِّ عَادل

وكُلُّ قَضَاء دُونَ مُلْك فَإنَّهُ
لَجُورٌ وظُلْمٌ، أو فُضُولُ الْمَهَازل

أَيَا وَيْحَ مَنْ يَرْجُو الأَجُورَ بجُوره
أو الهَزْلَ في الدِّين الْعَليِّ الْمَنَازل

إذَا اخْتَلَفَتْ آرَاءُ الأَوْبَاش بَيْنَهُم
فكُنْ أَنْتَ عَنْهُمْ في بَعيد الْمَعَازل

فَهُمْ نَعَمٌ حَالَ اغْتلاَم فُحُولهَا
تَصَادُمُهُمْ مثْلَ اصْطدَام الْبَوَازل

فَهُمْ بَعْدُ لَيْسُوا أَهْلَ عَقْل فَيَفْهَمُوا
مَقَالَةَ حَقٍّ في الْفُرُوع النَّوَازل

أَذُو الْعَقْلَ يَرْضَى بالولاَيَة أَمْرَهُمْ
مَتَى اخْتَلَفُوا اصْطَكُّوا اصْطكَاكَ الْجَنَادل

ليَقْتُلَ بَعْضٌ منْهُمُ الْبَعْضَ غيرَةً
عَلَى حَبَّةٍ أَدْنَى حُبُوب الْخَرَادل

39) المعسول 17/ 12.
40) نفسه ص: 142.

وَلاَ تَغْـتَـرِرْ إنْ سَلَّمُـوا الْحَقَّ ظَاهِراً
فَبَاطِنُهُمْ جَحْدٌ وَضَعْنُ الْمَجَادِل
فَمَنْ كَانَ عَنْ فِلْسٍ وَفِلْسَيْنِ حُزْنُهُ
يَثُورُ فَذَاكَ الثَّوْرُ، ثَوْرُ الْمَهَامِلِ
مَتَى رُمْتَ قُرْباً مِنْهُ يَنْطَحْكَ جُهْدَهُ
فَعَقْراً وَذَبْحاً ذَاكَ لَيْسَ بِعَامِل(41)

ج – كتابة الرسائل والعقود... ينفرد الفقيه أو يكاد بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة، في وسط أعجمي أمي لا رابطة بينه وبين لغة القرآن إلا يسيرا. ولما كانت كتابة العقود والرسائل وما شابهها تحرر بالعربية، صار الفقيه مقصودا لذلك الغرض. وربما كانت تلك الكتابة هدف الجماعة أو القبيلة من المشارطة، لا إقامة شعائر الدين ولا التعليم والإرشاد. ونسوق مثالين على ذلك :

* **الأول** : إشارة عبد الرحمان التمنارتي إلى ظاهرة إهمال الناس مسائل الاحضار والمشارطة وإقامة صلاة الجماعة، بقوله : «وقد جرى الأمر بالتهاون بذلك في كثير من القرى لا سيما أهل الجبال، حتى معظم إن قصدهم في أخذ الطالب للمسجد إنما هو قراءة العقود وكتبها وكتب الدعوات فتهمل عندهم صلاة الجماعة وتعليم الصبيان وهي غفلة شنيعة».(42)

* **الثاني** : زيارة جماعة سكان ميرغت للعلامة محمد بن سعيد الميرغتي(43) بعدما علا شأنه بمراكش «... فاسترجعوه إلى بلدهم لأنهم أولى بعلومه، لينتفعوا به، على ما زعموا، فشارط في مدرسة ميرْغْتْ. فكان كل واحد منهم متى أراد أن يكتب رسما يأتيه إليه ويناديه : يا ابن عَدِّي أريد كاغدا لتكتب لي فيه شهادة، فيعطيه الكاغد من عنده ويكتب له مجانا وربما ينزل عليه ضيفا. وحين أكثروا عليه بجفائهم قال كلمته المشهورة : يا مراكش يا كبدي، أما في ميرغت فأين كاغدك يا ابن عدّي...فأقلع إلى مراكش حيث استقر إلى أن لاقى ربه...».(44)

وليس من عادة الفقهاء كتابة هذه الوثائق مجانا بل يأخذون علي ذلك أجرة، وربما فضلها أحدهم على أجرة الأحكام كعبد الله بن محمد الكَرسيفي(45) الذي «كان ...

41) كناش العوفي ص : 36 – 37.
42) الفوائد الجمة ص : 511 ـ 512 .
43) أنظر التعريف به في المعسول 10/ 185.
44) المعسول 10/ 201 – 202. وعَدِّي الترخيم الشلحي لاسم سعيد.
45) أنظر ترجمته في المعسول 14/ 140 وما بعد.

يكتب عقود البيع والإبراءات والأنكحة والديون ونحو ذلك ويأخذ عنها الأجرة، وربما قال للمعطي زد لا يكفيك هذا، إذا علم منه طيب نفسه بالزيادة».(46)

د – التطبيب : كان الطب فيما قبل القرن الثالث عشر الهجري من المواد المتدارسة في بعض المدارس السوسية، اعتمادا على كتب المشارقة والأندلسيين كالأنطاكي والزهراوي وابن سينا وابن رشد،(47) وقد ألف الفقهاء السوسيون عدة كتب في هذا المجال، سواء باللغة العربية ومن أولها مجموعة حسين بن علي الشوشاوي الطبية.(48) أو باللسان السوسي ككتب عبد العزيز بن أبي بكر الرّسموكي.(49) أسسوها على قراءتهم لكتب كبار علماء الفن وعلى التجربة. وكان هذا الطب مبنيا «في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصّح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعي، ولا على موافقة المزاج».(50)

ويأخذ عامة الفقهاء أجرة على التطبيب، وليست محددة المقدار بل هي على قدر أريحية المتداوي أو المسترقي، وقد يتغالى أصحاب الشعبذة فيها، فيطلبون المال الكثير لعلمهم أن زائريهم لن يبخلوا بما لديهم لنيل مآربهم. أما المتورعون من العلماء فلا يقبضون الأجر إلا بعد شفاء المريض وتحسن حاله، مثل محمد فتحا بن أحمد التَّمْلي الإرْسي(51) الذي كان «أكثر معاملته المرضى احتسابا للآخرة، وإذا أخذ الأجرة يقولَ : هذَا أقرَب إلى الحلال من كتابة الوثائق والأحكام».(52)

هـ – موارد أخرى : بالإضافة إلى ما سبق من موارد نضيف انشغالات أخرى يشتغل بها الفقهاء للكسب، ويمكن أن نقسمها إلى قسمين :

القسم الأول : سبل المعاش الطبيعي. وهي الطرق الصحيحة للكسب كالفلاحة والتجارة والنساخة وغير ذلك؛ فمن المشتغلين بالفلاحة نذكر العلامة عبد الرحمان التَّغَرْغَرْتي المهتم بالزراعة لا تفارقه الفأس والمسحاة، يعتني «بغرس الأشجار بيده، كاللوز وأكناريَ – التين الشوكي – وتعدله أزيد من ألف شجرة، أدركت كلها، وتؤتي أكلها تحت

46) الحضيكَيون ص : 28.
47) سوس العالمة ص : 53.
48) نفسه، وقد أحصى العلامة المختار السوسي أربعة عشر كتابا في الطب من تأليف السوسيين، أنظر سوس العالمة من ص : 177 حتى 207.
49) خلال جزولة 4/ 18.
50) ابن خلدون – المقدمة ص : 88.
51) انظر ترجمته عند التغرغرتي، مختصر طبقات الشعراني 4 / 1 .
52) نفسه : 2 .

بصره.»(53) ومن المتاجرين اليزيد الروداني يتعيش من تجارة الكتب يعرضها في المواسم والأسواق.(54) كما كان الفقهاء يتقنون الخياطة «حتى إن... السوسيين الذين يشاطرون في الحوز وما وراءه، يتخذهم من يشارطونهم خياطين رسميين في القرية فينتفع بالأجرة الأستاذُ، زيادة على أجرة المشارطة.(55)

أما النساخة فكان المشتغلون بها كثيرين وكان الناس يقبلون على منسوخات ذوي الخط الجيد، ومنهم محمد التملي الإرْسي المتعيش «من نسخ الحديث والسير وكتب التصوف للعلماء العاملين للتبرك بخطه، مَبينة حسنة لا تصحيف فيها، ويحسنون معه في الأجرة».(56)

القسم الثاني : سبل المعاش غير الطبيعي. يلجأ إليها العاجزون عن طلب المعاش بالطرق الطبيعية للكسب، من تجارة وفلاحة وصناعة، فيركنون إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله.(57) ومن هذه السبل : صنعة الكيمياء، والاشتغال بطلب الدفائن والأموال المكنوزة واحتراف الشعوذة والتدجيل.

ويظن محترفو الكيمياء إمكانية تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، بمعالجتها بواسطة مواد تختلف باختلاف طرق التحويل وأساليبه،(58) وقد ذكر العلامة ابن خلدون أن أكثر من يعنى بهذه الحرفة الفقراء العاجزون عن الكسب، وذكر أن «معظم هذا الصنف في ... المغرب من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار. ويأوون إلى مساجد البادية، ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة. والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما. فيحصلون من ذلك على معاش، ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون إلى موضع آخر».(59) ولا نظن إلاّ أنه يعني بكلامه بعض طلبة سوس العاجزين عن الكسب، الساعين وراء سراب الاغتناء. ومنهم الحاج ياسين الوَاسْخيني الذي كان مولعا بهذه الصنعة حتى اتصل لأجلها بالسلطة المخزنية، وقد علق العلامة المَختار السوسي على ذلك بقوله «ترك الحاج ياسين الكيمياء الحقيقية، والكنوز الظاهرة، بين أيدي أقرانه الذين استغلوا مكانتهم العلمية، فدرت عليهم أموالا لا يزال ورثتهم فيها إلى الآن مترفهين. فتتبع هو ذلك المحال عند أصحاب الإدارة الذين لا ينال منهم إلا دون ما ينالون منه».(60)

---

53) المعسول : 18 / 222 .
54) المعسول 2 / 166 .
55) نفسه : 1 / 39 .
56) التغرغرتي، مختصر طبقات الشعراني 4 / 2 .
57) المقدمة : 690 .
58) نفسه : 989 .
59) نفسه : 990 .
60) المعسول : 8 / 246 _ 247 .

أما المشتغلـون بطلـب الدفائـن والأمـوال المكنوزة، فيعتقدون أن كنوز الدول المنقرضة مخزونة في باطن الأرض، محروسة بطلّسمات سحرية لا تستخرج إلا بكيفية معلومة حسب زعمهم. فـ «يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرمة الحواشي، إما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن، بإعطاء الأمارات عليها في أماكنها، يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحفر والطلب. ويموهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات، وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه، وهو بمعزل عن السحر وطرقه. فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول. فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل بالطِّلَّسْمِ الذي ختم به ذلك المال...».(61)

وقد تنبه العلامة مَحمد بن سعيد الميرغتي إلى ما يقع فيه هؤلاء المغترون بطلب الأموال من الدفائن والكيمياء، من إضاعة الأعمار في غير ما نفع، ومن الانصراف عن الطريق السوي للعيش رجاء الكسب بلا تعب ولا نصب، فقال يسفه أعمالهم وينصحهم :(62) (الطويل).

خَلِيلِي إنَّ الرِّبْحَ فِي الْعِلْمِ فَاتْرُكَنْ
سَبِيلَ الْكُنُوزِ الْبَاطِلاَتِ الْكَوَاذِبِ

فَذَلِكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ لِلْفَتَى
يَصُدُّونَهُ عَنْ كُلِّ نَدْبٍ وَوَاجِبِ

وَتَاللَّهِ يَا مِسْكِينُ لَوْ عِشْتَ مُدَّةً
كَمُدَّةِ نُوحٍ لَمْ تَعِشْ غَيْرَ تَاعِبِ

وكَمْ مُغْرَمٍ بِالْكَنْزِ يَلْهَثُ إثْرَهُ
فَمَاتَ بِبِيرٍ أَوْ كُهُوفِ الشَّنَاخِبِ

فَمَاتَ مَمَاتَ السُّوءِ مُتَشَهِّدًا
عَلَى حُبِّهِ، كَمْ مِنْ فَقِيرٍ وَطَالِبِ

---

61) المقدمة : 695 .

62) مخطوط خزانة المختار السوسي بتزنيت رقم 280 .

وَلاَ تَلْتَفِتْ لِلْكِيمِيَاءِ وَأَهْلِهَا
فَمَا تَمَّ إِلاَّ الْغِشُّ دَعْهُ وَجَانِبِ
وَلاَ تَكُ مُغْتَراً بِزُخْرُفِ قَوْلِهِمْ
فَذَلِكَ إِفْكُهُمْ لِقَصْدِ التَّجَارِبِ
وَبَعْضُهُمُ يُدْلِي بِذَلِكَ حِيلَةً
وَكَيْداً لأَخْذِ الْمَالِ مِنْ كُلِّ رَاغِبِ
وَكَمْ طَالِبٍ قَدْ ضَاعَ فِي ذَاكَ عُمْرُهُ
غَرِيبٍ فَقِيرٍ تَائِه فِيهِ غَائِبِ
وَأَقْرَانُهُ نَالُوا الْعُلُومَ وَبَعْضُهُمْ
بِتُجْرٍ وَحَرْث نَالَ خَيْرَ الْمَكَاسِبِ
إِذَا شِئْتَ كَنْزاً لَيْسَ يَنْفَذُ فَاقْتَنِعْ
وَبَادِرْ إِلَى دَرْسِ الْعُلُومِ وَوَاظِبِ

أما احتراف الشعوذة والتدجيل وادعاء معرفة السحر فيحترفه غالبا بلداء الطلبة ومن سقطوا دون المدى في دراسة العلوم، فيريدون الظهور في هذا السبيل طلبا للمعاش وإظهار معرفة الأسرار يغرون بذلك العوام الجهال منتسبين إلى العلم والفقه، حتى صارت صفة الفقه بسبب هؤلاء المنحرفين منسحبة على كل من يتداول كتابة الأحجبة والوصفات والطقوس السحرية، وقد اتخذ بعضهم ذلك سببا للكسب، بعد أن ألقوا وراءهم بقية السبل. فصاروا يهتمون بكل ما يوصلهم إلى كسب المال من «جداول، وأوفاق وطلاسم، وعلوم السيمياء، والكيمياء وأنواع الأزياج، والاستخراجات، والخدمات، والاستنزالات، والعزائم، والنيرنجات وتعاطي أسرار الحرف، والأوضاع والتوفيقات، إلى أن تعدى أكثرهم إلى تعاطي السحر بأنواعه، والنفث والزناتي والرمل...»(63)

وقد كثر إقبال الناس على أمثال هؤلاء في البادية السوسية وحتى الحواضر المغربية، يتطلبون منهم قضاء مآربهم وحتى حاجاتهم المنحرفة، كما أشار الشاعر بقوله:(64) (الخفيف)

---

63) المعسول : 3 / 271 .
64) هو الشاعر عبد الله عاطفي التتكي، تقدمت ترجمته.

وَاسْـتَـحَـبُّـوا، بَلْ أَوْجَـبُـوا كَـوْنَهُ الْكَا
هـنَ يَشْـفِي مَطَامِعَ الطَّامِـعِينَ
فَـإِذَا مَـا هَوَوْا حَلِيلَةَ مَـرْءٍ
وَحَـمَتْ نَفْـسَهَـا مِنَ الْفَـاسِـقِينَ
قَـدَّمُـوا لِلْفَـقِـيـه مَـا يَشْـتَـهِـيـه
كَيْ يَصِـيـدَ بِالسِّـحْـرِ مَنْ يَشْـتَـهُـونَ
فَـإِذَا «بِالْفَـقِـيـه» قَـدْ - وَهْوَ مَـغْـبُـو
نٌ - رَأَى أَنَّـهُ مِـنَ الـرَّابِـحِـينَ(65)

65) آمال وآلام، عبد الله التتكي العاطفي، ديوان شعر، ص : 183 .

المبحث الثاني ـ المدرسة مؤسسة قبلية :

كان المسجد يجمع بين الوظيفة التعبدية والوظيفة الوعظية التعليمية. إذ كان الفقهاء يؤمون الناس في الصلوات ويتصدرون لإرشادهم وتوجيههم، كما يخصون طلبتهم بأوقات معينة يلقنونهم العلوم النقلية والعقلية.

ولما رسخ الإسلام وثبتت أصوله، وتطورت العلوم وتعمقت الدراسات، لم يعد المسجد يفي بمهمة التعليم، فأصبح إيجاد أماكن خاصة للتدريس وإقامة الطلبة وأستاذهم حاجة ملحة، فظهرت لأجل ذلك المدارس مؤسسات متخصصة تفي بالغرض.(66)

ولما كان لسوس وضع خاص في التاريخ، حيث لا تلبث السلطة المركزية التي تبسط عليه نفوذها أن تنجلي عنه ولم يكن بمقدورها المساهمة بفعالية أكبر في تنشيط الحركة التعليمية بتأسيس المدارس وتعيين الأساتذة وصرف العطايا، لذلك أضحى كل هذا من شأن القبيلة، فهي التي تقوم ببناء المدارس والإشراف عليها.

وقد تنافست القبائل السوسية في بناء المدارس ورعايتها خاصة إبان ازدهار الحركة التعليمية بمبادرة كبار العلماء والصلحاء الذين كانوا يرسلون طلبتهم إلى أماكن معينة لتأسيس المدارس منتدبين العرفاء وعامة الناس لمساعدتهم.(67) كما أن الفقهاء غالبا ما يتولون بأنفسهم بناء مدارسهم والتدريس بها، أو تحويل مساجد قراهم إلى مدارس. وفي خضم تنافس القبائل على بناء المدارس أضحت هذه من مظاهر التفوق والتطور في الوسط القبلي، وصارت القبائل التي لا مدرسة لها موضع السخرية والتهكم.(68) كما أن أقوى القبائل تحرص على رعاية أكبر عدد من المدارس ويظهر ذلك من وجود كثير من مدارس سوس لدى تجمعين قبليين كبيرين هما إيلاَلْنْ وَإدَ وَلْتيتْ.(69) وبالإضافة إلى كل ما سبق شجعت بعض المعتقدات بناء المدارس، فكان من الشَائع في بوادي سوس ذات الاقتصاد الزراعي المعاشي أن عدم بناء المدارس يسبب القحط والجفاف.(70) لذلك حرصت كل قبيلة مهما بلغت قوتها أو ضعفها على بناء مدرسة على الأقلّ ورعايتها.

ولا تختلف المدرسة في بنائها على أبنية القرية من حيث المواد المستعملة ولا طريقة البناء. إذ تتكون غالبا من مجلس للقراءة ومسجد لإقامة الصلاة، ومحل لسكنى الأستاذ، ثم بيوت لإيواء الطلبة، ومخزن لحفظ المؤن، ثم مطبخ ومكان لإقامة أمة المدرسة أو

66) أنظر المدخل.
67) أنظر مثلا إرسال أحمد التمكدشتي تلميذة الكثيري إلى هشتوكة لبناء مدرسة إداومحمد في المعسول 3/ 304.
68) أنظر سخرية الإيلالنيين من التمليين في المعسول 17/ 26.
69) تشمل إداولتيت قبائل : إِدَاوبَعْقيلْ وَإِدَا وْسَمْلاَلْ وَإِدَاوكَرْسْمُوكْ.
70) المعسول 3/ 304.

خادمها، ويغلب الضيق والسذاجة على البناء؛ ويقف المرء متعجبا من هؤلاء العلماء والطلبة الذين أفنوا أعمارهم في الإقامة بين هذه الجدران المتقاربة والسقوف الواطئة صابرين على لأواء المعيشة وقساوة الجو، لأجل نشر العلوم. وكان هذا شعور العلامة المختار السوسي لما زار المدرسة التي درّس بها محمد بن إبراهيم الشيخ التمنارتي بقرية أكَّرْضْ بتَمَنَارْتْ،(71) حيث قال : «... وإزاء المدخل الخارجي مراق إلى المحل الذي يدرسه فيه الشيخ أحيانا، وهو مبني غرفا عليا واطئة السقف، لا يكاد يستقيم فيها الواقف... وحوالي ذلك بيوت قليلة للطلبة المجاورين من الغرباء، وكأني أحد هذه البيوت كان مسكنا للعلامة الشيخ عبد الله بن يعقوب السملالي... فقد فكرت هناك يا سبحان الله من ذا الذي يظن أن هذه الأمكنة الساذجة وهذه السقائف البسيطة كانت ميادين فسيحة لأولئك الفطاحل المدرِّسين العظام».(72)

أما تموين المدارس فيختلف من مدرسة لأخرى حسب غنى أو فقر القبيلة التي تشرف عليها، ونمثل لذلك بمدرستين :

أ – مدرسة سيدي إبراهيم بن علي بأيت وادْرِيمْ :

وكانت فرقة أيت تُوزُّومْتْ المشرفة عليها قليلَة المؤونة فكانت مدرستها ضعيفة لا تقدر على تموين الطلبة الكثيرين الذين اجتمعوا على الأستاذ محمد بن إبراهيم الركراكي، فكانوا يتزودون من أهاليهم حتى يتمكنوا من متابعة الدراسة.(73)

ب – مدرسة إدَاوْ مَحَمْدْ : وتشرف عليها قبيلة «... كبيرة، وهي تنيف عن اثنتي عشرة مائة كانون، مع مالَها من الغنى الناشئ عن أرض طيبة صالحة للزراعة، ومركز سهل معتدل الهواء حرارة وبرودة، متوفرة فيه أشجار الهرجان وغيره... فلهذا توفرت خيراتها، وكثرت أعشارها وزكواتها، حتى إن مطاميرها الواسعة الكثيرة تملأ قمحا وشعيرا، وعدد المطامير التي بداخلها وخارجها إلى جهة السوق، أزيد من ثمانين مطمورة، كلها مملوءة زرعا. ومن تلك المطامير ما يكفي زرعها وحده لقوت الطلبة في السنة كلها لكبرها وسعتها».(74)

ولتنظيم العلاقة بين القاطنين بالمدرسة، اعتاد الأساتذة وضع قوانين تحدد لهم الواجبات والحقوق، والعقوبات للمذنبين من الطلبة، وكانت هذه العقوبات، **على** غرار

71) تحدثنا عنها في المدخل.
72) خلال جزولة 3/ 16.
73) المعسول 5/ 313.
74) المعسول 3/ 305.

القوانين القبلية، بالمال، حيث جعل لكل ذنب مقدار. غير أن بعض الأساتذة كانوا يحاربون هذه العقوبات المالية استمرار لمحاربتهم القوانين القبلية كأحمد بن محمد اليزيدي وتلميذه محمد الكثيري الذي أنشدني مستدلا على رأيه بيت منظومة العمل الفاسي :(75)

وَلَمْ تَجُزْ عُقُوبَةٌ بِمَال
أَوْ فِيهِ عَنْ قَوْلٍ منَ الأَقْوَال

كما حكى أن أحد طلبة اليزيديَ المذكور، بالمدرسة الإِلْغية، حضر مرَة قراءة حزب المساء القرآني بإحدى المدارس، وبعد الختم طلب أستاذها من أحد طلبته تقييد أسماء الطلبة الغائبين، فسأله طالب الإلغية عن ذلك فأجاب بأن الغائبين يؤدون خمسين سنتيما عقوبة الغياب، وعندما يجتمع ما يكفي من المال يقيم به الطلبة حفلة على عادتهم، فعقب الزائر بقوله : إن في عملكم هذا ثلاث مسائل، الأولى أنكم استرخصتم قراءة القرآن بمعاقبة المتأخرين عنه بخمسين سنتيما. والثانية أن المعاقبة بالمال غير جائزة شرعا فيما هو مشهور والثالثة أنكم تأكلون المال الحرام المجموع من العقوبات.(76)

وقد حاول أساتذة آخرون تعويض العقوبات المالية بالتعزيز البدني، فلكل ذنب عدد معين من الضربات، ولعل أطرفها قانون مدرسة أبي البركات التنانية(77) حيث نظم أستاذها محمد أَبَنْدُو التَامْري بنوده في ثمانية وثلاثين بيتا يقول فيها: (البسيط)

اَلْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ قَضَى
بِالْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ لاَ يَبْغِي بِه عِوَضَا

سَنَّ الْعُقُوبَات ضِدَّ الْمُجْرِمِينَ لإِصْـ
لاَح الْعِبَادَ منَ الشَّرِّ الَّذي بَهَضَا

وبَعْدُ فَالْقَصْدُ نَظْمٌ لِزَوَاجِرَ تَرْ
دَعُ الْمُخَلَّ بِمَا مِنْ نِظَامٍ فُرِضَا

فِي مَعْهَدِ الْعَبْدَرِيِّ يَوْمَ كَانَ بِه التَّـ
مْرِيُّ وَهُوَ الَّذي لِسَنِّهَا نَهَضَا

مَنْ كَانَ لاَ يَحْفَظُ الدَّرْسَ الَّذي كَتَبَا
يُضْرَبُ عَشْرًا إِذَا لَمْ يُفِتْ غَرَضَا

75) المجموع الكبير من المتون ص : 214.
76) في جلسة معه بعد عصر الثلاثاء 22 شتنبر 1992 بضيعته بأولاد داحُو بهوارة.
77) أنظر حولها الساحلي المدارس العلمية ... 4/ 105 وما بعد.

فَإِنْ أَفَاتَ يُزَادُ مِثْلَهُ أَدَباً
عَلَى الْجُهُود الَّتِي ضَيَّعَهَا وَمَضَى

وَإِنْ يَكُنْ مُهْمِلاً كُلَّ الدُّرُوس فَقَدْ
أَمْسَى لِخَمْسِينَ بَعْدَ عَشْرَةَ غَرَضَا

وَمَنْ يَكُنْ لاَ يَعِي اللَّوْحَ الَّذِي كَتَبَا
فَلْيَسْتَعِدَّ لِضَرْبٍ مُحْدِث أَرَضَا

وَمَنْ لِمَا قَدْ وَعَى مِنْ سُور وَمَنْ أَحْـ
ـزَاب، يَضِيعُ بِالنِّسْيَان فَانْتَفَضَا

يُشْبَعُ ضَرْباً بِلاَ عَدٍّ لِتَضْيِيعِه
مَحْفُوظَهُ وَلِحَبْلِ الْجِدِّ قَدْ قَرَضَا

مَنْ نَامَ عَنْ دَرْسٍ يُضْرَبُ عَشْرَ وَخَمْـ
ـسَ ضَرَبَات عِقَاباً ضِعْفُهُ فُرِضَا

لِكُلِّ مَنْ لاَ يُصَلِّي الصُّبْحَ وَهْوَ فَتَى
لاَ يَشْتَكِي جِسْمُهُ فِي لَيْلِه مَرَضَا

يُنْقَصُ عَشْراً لَدَى صَيْف، خَرِيفَ إِذَا
قَصُرَ لَيْلَ وَطُولُ صَنْوِه عَرَضَا

وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْ صَفِّ الصَّلاة فَذَا
يُضْرَبُ تِسْعاً وَإِنْ عن ذاك قد مَضَضَا(78)

مَنْ كَانَ يَضْحَكُ عِنْدَ الْحِزْب سَوْفَ يَرَى
فِي جِلْدِه أَثَرًا لِلْبُرْءِ قَدْ رَبَضَا(79)

وَكُلُّ مَنْ لاَ يُبَالِي بِالنَّظَافَةِ أَوْ
يُوَسِّخُ الأَفْنِيَاتَ وَسَخًا حُمِضَا

يُضْرَبُ عِشْرِينَ بَعْدَ أَنْ يَصِحَّ لَدَيْـ
ـنَا أَنَّهُ تِلْكَ لِلتَّوْسِيخ قَدْ عَرَضَا

وَمَنْ يَكُنْ قَدْ أَخَلَّ بِالنِّظَام فَذَا
لاَ يُكْتَفَى مِنْهُ إِلاَّ بِالْمِئِينَ قَضَا

---

78) مضض ومضّ: تألم وتوجع انظر المعجم الوسيط.
79) ربض: كثر، أنظر لسان العرب إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي.

حَسَبَ جُرْمٍ أَتَاهُ وَهْوَ مُنْتَهِكٌ

لِحُرْمَةِ الأَمْنِ بِالْفَوْضَى الَّتِي فَرَضَا

وَمَنْ يُسَافِرْ بِلاَ إِذْنٍ فَأَوْلَى لَهُ

أَلاَّ يَعُودَ إِذَا مَا عَقْلُهُ حَرَضَا(80)

أَمَّا إِذَا عَادَ غَيْرَ مُظْهِرٍ أَسَفًا

وَلاَ اعْتِذَارًا صَحِيحًا أَنَّهُ مَا مَضَى

إِلاَّ لِعُذْرٍ جَلِيٍّ فَالْعِقَابُ لَهُ

يَشْتَدُّ وَهْوَ الَّذِي لِسَيْفِ ذَاكَ نَضَى

وَمَنْ تَعَدَّى عَلَى الْجِيرَانِ فَهْوَ إِلَى

السُّلْطَةِ يُبْعَثُ مَا عَلَيْهِ عِنْدِي قَضَا

كَذَلِكَ مَنْ بِجُرُوحٍ أَوْ كُسُورٍ أَتَى

- لاَ قَدَّرَ اللَّهُ - فِي غَيْرِهَا مَرَضَا

وَمَنْ غَدَا سَارِقاً شَيْئاً وَلَوْ تَافِهاً

فَالْغُرْمُ وَالضَّرْبُ وَالطَّرْدُ وَلَوْ بِقَضَا

وَمَنْ بَدَا كَاذِباً يَوْماً وَقَدْ سُئِلاَ

أَنْ يَصْدُقَ الْقَوْلَ فَائِدًا وَقَدْ غَمَضَا

وَمَنْ يُصَلِّي بِلاَ طُهْرٍ سَيُضْرَبُ حَتَّـ

ـى يَقْتَدِي جِلْدُهُ كَأَنَّهُ بَعُضَا(81)

تِلْكَ قَوَانِينُ لِلزَّجْرِ وُضِعْنَ لِمَنْ

لَمْ يَكُنِ الْقَلْبُ فِيهِ بِالْحَيَاءِ أَضَا

فَلاَ عِقَابَ وَلاَ خَوْفَ عَلَى أَحَدٍ

مَادَامَ بِالتَّقْوَى وَالْحَيَاءِ قَدْ غَرِضَا(82)

وَاللَّهُ يَهْدِي الْجَمِيعَ لِلْمَحَجَّةِ حَتَّـ

ـى لاَ يُرَى أَحَدٌ لِلضَّرْبِ قَدْ عُرِضَا

---

80) حرضا : ضعف.

81) بعضا : لسعه البعوض.

82) غرض : امتلأ.

هَـذَا وَلِـلْـكُـلِّ حـق فـي الأمَـــــــــان وفـي
حـــمَـــايتي عـــرْضَـــهُ وَالْوَقْتُ وَالْعَـــرَضَـــا
وَالـنَّـفْسَ مِـنْ كُلِّ هُـون أوْ ضَـــــيَــــاع أوَ الـنَّـ
ـهْبَ وَشَبْـهٍ، وَفِي النُّصْحِ الَّذى مُـحـضَـا(83)
عَلَـيَّ ألاَّ يَطَـا أرْضَ الْـمَـــــحَلِّ سَـــوَى
مَنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ أوْ بِالدَّرْسِ قَـدْ حُـمِـضَـا(84)
وَكُـلُّ مَـنْ جَـــــاءَهُ لِغَـــــيْـــــر ذَيْـنَ فَطَرَ
دَا ثُـمَّ لِلضَّـــرْبِ يُمْـــسِي جِلْدُهُ غَـــرَضَـــا
وَعْــدٌ وَعَـــدْتُهُ وَالرَّحْـــمَـــانُ أسْـــألُ عَـــوْ
نَـهُ عَلَى أنْ أفِي وَفَـــاءَ مَنْ غَـــرِضَـــا(85)
وَاشْـــتَـــاقَ لِلعَـــدْلِ أنْ تَرْسَى قَـــوَاعِـــدُهُ
بَيْنَ تَلاَمِـــيــذه وَالرَّأيَ قَــدْ مَـــحَـــضَـــا
كُـلٌّ لَـهُ غَـــــرَضٌ يَسْـــعَى لِيُــــدْرِكَــــهُ
وَالْـحُــــرُّ يَـجْـــعَلُ إدْرَاكَ الْعُـــلاَ غَـــرَضَـــا
ثُـمَّ الـصَّـــــلاة عَلَى خَـــيْــــر الْوَرَى وَعَلَى
أصْـــحَـــابه الآخِـــذِينَ عَنْهُ رِضَـــا(86)

وإلى جانب مهمة المدرسة التعليمية، كانت مكان نزول الطلبة والفقهاء الغرباء أثناء أسفارهم،(87) ومجتمعا رسميا لرؤساء القبيلة وأعيانها للتداول في شؤون قبائلهم،(88) ومحل لحفظ أمانات الناس التي يخشى عليها الضياع «مخافة إغارات العدو ونهب الديار، لا سيما عند استحكام السنين الممحلة ذوات القحط والجوع، لكون المدارس وفقهائها في غاية الاحترام، وذلك من ذهب وفضة ولبان ورسوم وأنواع الأمتعة»(89) كما يتوارد عليها الناس لعرض خصوماتهم علي أستاذها أو لطلب فتوى أو دواء لمرض جزاه الله خيرا.

83) محض النصح : أخلصه وصدق فيه، أنظر معجم الوسيط.
84) حمض : اشتهاه.
85) غرضا : إشتاق.
86) سلمني نسخة من هذه القصيدة الأستاذ أحمد أبو القاسم بتزنيت جزاه الله خيرا.
87) أنظر مواضع متفرقة من مذكرات أحمد المانوزي بالعسول 3/ 288، 311، 312، 344....
88) المعسول 19/ 176.
89) المعسول 3/ 281.

المبحث الثالث ـ وضعية الطلبة السوسيين :

الطلبة هم عماد حركة التعليم ومادتها، يؤمون المدارس بعد حفظ القرآن واتقانه، ويهتم غالبهم بتحصيل الفقه والفرائض والحساب وبعض اللغة لما يبتغون وراء ذلك من العيش الحسن.(90) وقد سأل أحد الطلبة أستاذه أن يريه إكسيرا يتعيش منه، فأراه متن مختصر خليل وقال له : «أتقن فهمه تتعيش من ورائه».(91)

ولتحقيق المرتبة العلمية يتصل الطلبة بالأستاذ بصفته الشيخ المربي، وبالمدرسة باعتبارها المسكن والمأوى لغاية انتهاء الدراسة. ومن خلال هاتين العلاقتين تتحدد وضعيتهم، وفرص نجاحهم في مقاصدهم العلمية والعملية.

أ – **وضعية الطلبة في المدارس** : كانت حياة الطلبة عند إقامتهم بالمدارس محفوفة بالمكاره، خاصة الفقراء منهم المعتمدين على مؤونتها، وكانت الأحوال تضيق عليهم أيام المساغب حين لا يجدون ما يتقوتون به فيضطرون إلى الاقتصار على ما يسد الرمق، بينما كان الأغنياء يتزودون من لدن أهاليهم. وكان الطلبة يفضلون المدارس السهلية الغنية حيث الاقوات متوفرة والأحوال المناخية ملائمة، متجنبين قدر الإمكان المدارس الجبلية الشحيحة المعاش القاسية الطقس.(92)

ولتجاوز الفاقة وليتمكن الطلبة من متابعة دراستهم كانوا يلجؤون إلى :

– الاشتغال ببعض الحرف كالتجارة والجزارة، فيردون الأسواق القريبة يتاجرون أو يعملون بها، لعلهم يكسبون ما يمكنهم من مواصلة التعلم.(93)

– المشارطة لفترة معينة، في مسجد من المساجد القروية الصغرى، تبلغ عادة السنة، يحصل بعدها الطالب على أجرته فيعود إلى مدرسته للقراءة.(94)

وكان طلبة رأس الوادي(95) في غنى عن مثل هذه الانشغالات، إذ كانوا يتلقون ما يكفيهم من قوت من السكان و «العادة في كل مدارس تلك النواحي أن تعطي الأسر الرتيبات للطلبة الغرباء، يتنافس الناس في ذلك في كل تلك القبائل، وبذلك عمرت

90) المعسول 13/ 134.
91) المعسول 17/ 220.
92) أنظر المعسول 9/ 130، و 10/ 161.
93) المعسول 15/ 132 و 18/ 45.
94) المعسول 18/ 340.
95) هي المنطقة الواقعة أعلى وادي سوس شرق تارودانت حيث قبائل المنابهة، إيرحالن، هوزيوة سكتانة أنظر خلال جزولة 3/ 176 وما بعد.

مدارسهم ومساجدهم بالطلبة الغرباء من الجبليين والبعمرانيين والفائجيين ممن يرتحلون للعلم أو القرآن.» (96) ويعنون بالرتيبة أن تتكلف كل أسرة بطالب فتزودوه يوميا بما يلزمه من طعام. وقد تمتع طلبة هذه المنطقة بوضع معيشى جيد إذا قارنّاهم بزملائهم في المناطق الأخرى، ولا أدل على ذلك مما أشار إليه العلامة المختار السوسي من وجود حفرة كبيرة بجانب إحدى مدارس المنطقة، كان الطلبة يطرحون فيها ما يفضل عليهم من أطعمة، فكانت تمتلئ بها.(97)

ولما كان التعليم في سوس مرتبطا بالحالة الاقتصادية فقد تأثرت حالة الطلبة بذلك، وكثيرا ما تتوقف الدراسة إبان المساغب أو تسير عرجاء بعد أن يودع الأساتذة غالب طلبتهم لعدم استطاعة المدرسة القيام بهم مجتمعين.(98) ويبدو أن حال طلبة تارودانت كان أحسن خاصة إبان وصول السلطة المركزية إليه؛ ففي العصر السعدي كانوا يحصلون علي جرايات من الأوقاف من يد ناظرهم العلامة سعيد بن علي الهوازالي، وكان «له عطف عام على طلبة العلم بتوسعه العطاء مما إلى نظره من أحباس حاضرة السوس، وكان يرى أن توفير مستفادها ذريعة التسلط عليه...».(99)

ولم يكن سوء الأحوال والمعاناة يفارق الطلبة السوسيين المرتحلين للأخذ بالحواضر المغربية الكبرى، بل كان أشد لبعدهم عن الأهل والأوطان، وقد وصف علي بن إبراهيم السملالي(100) حال أمثاله من الطلبة الغرباء بفاس في رسالة كتبها إلى أهله بسوس يعبر فيها عما يكابد من فاقة، حتى ليعرض كتبه بل وملابسه للبيع، قال : «... انقضى ما عندي قبل كتبي هذا بخمسة أشهر أو أكثر، فوالذي بعث بالحق محمدا ما كان في ملكي حين الكتْب ما أشرب به عند السقاء في السكة، ولا ما اشترى به خبزة واحدة فضلا عن غيرها، ومن كَذب فعليه ما يلزمه، وترتب في ذمتي سلفا نحو ثمانية مثاقيل أو أكثر... وأنتم تعرفون ما نحن فيه فإن رأيت جوابكم في قريب فنعم وإلاّ فشيخاي الفقيه المرنيسي والفقيه الكردودي طلبا مني أن أبيع لهم القاموس بسبعين مثقالا مرارا بعد مرارا، ثم بعد ذلك راودني عليه أيضا الفقيه الشريف مولاي أحمد الصقلي بالعدة المذكورة فعزمت على البيع وموافقته على ما طلب مني، ومنعني من البيع أخونا سيدي محمد بن بلقاسم وتركته. والآن فلا تستهزءوا في إرسالكم إلينا ما هو مقصودنا منكم فوالله ما بعث إلا حاشية

---

96) المعسول 16/ 157.
97) خلال جزولة 3/ 186.
98) المعسول 1/ 168.
99) التمنارتي الفوائد الجمة ص : 101 .
100) أنظر ترجمته بالمعسول 12/ 301.

العبادي التي عندي لأشتري بها حائكا نحتاج إليه غاية، وبعت الذي كان على ظهري بأربع آواق ونصف وما ملكت غيره...».(101)

وقد كانت المدرسة في نظر الطلبة، خاصة إبان ازدهار التعليم العربي، الباب المفتوح على المجد والرقي الاجتماعي في مجتمع لا بروز فيه إلا بالتصوف أو الفقه،(102) فكان أحدهم يأتيها جاهلا إلا ما كان من حفظ القرآن وبعض المتون، فيرابط بها عقدا من الزمن أو أقل أو أكثر، فينصرف عنها وقد احتقب من المعارف والعلوم ما يجعله عند الناس في أعلى عليين. غير أن هذا الوضع تغير بالكلية، لما هُمِّش التعليم العتيق وإنثال الناس إلى المدارس العصرية. وشعر المقيمون بالمدارس العتيقة بما هم فيه من تعب ومعاناة بلا طائل، في زمن احتقر فيه التعليم الأصلي وأهله، وسدت في وجوههم أبواب العيش، فلا يطمع أحدهم بعد تخرجه إلاّ في المشارطة بأحد المساجد القروية، أو على أحسن حال في إحدى المدارس. بينما كان المجال فسيحا أمام الطلبة في القرون الخالية، فيختارون التدريس أو القضاء أو كتابة الوثائق والعقود...(103)

وقد دفعت هذه الوضعية الطلبة إلى اليأس والتشاؤم من المستقبل وعبّر عن هذه النظرة السوداوية الشاعر عبد الله التتكي فوصف مقامه بمدرسته العتيقة ومعاناته فيها، حتى شبهها بالسجن الذي ما بعده إلا ذل الشرط الذي يشترط فيه العالم والجاهل والمجد والكسول، راجيا من الله الارتحال عنها، فإن لم يكن فالموت أولى، وذلك في قصيدة نصها :(104)

«مجزوء البسيط»

مَلِلْتُ مَدْرَسَتِي الْمُقَامَا
الَى مَتَى أَبْلَغُ الْمُرَامَا
ضَحَّيْتُ فِيك بُثْلث عُمْرِي
سَعْيَ امرى بالنَّجَاحِ هَامَا
أَبَعْدَ سَبْعِ السِّنِينَ أَبْغِي
لِيَ خُطَّةً فِيك واغْتِنَامَا؟
آلَيْتُ أَنْ لاَ أَزَالَ حَتَّى
أَنَالَ مَرْغُوبِي أَوْ حِمَامَا

---

101) المعسول 12 / 301 .

102) أنظر أحمد توفيق - التاريخ في الزمن المعسول، أعمال ندوة «محمد المختار السوسي، الذاكرة المستعادة» ص: 66.

103) أنظر موارد عيش الفقهاء فيما مر من هذا الفصل.

104) القصيدة مؤرخة في 20 محرم 1395هـ، وقد زودني بها الأستاذ أحمد الراضي وعنونها صاحبها؛ إلى مدرستنا العتيقة»، وقد عدل الشاعر في القصيدة عند نشرها، أنظر ديوان آمال وآلام، ص: 213-214 .

إنْ صَحَّ حِنْثُ الأُولَى فَــــأُخْــــرَى
يَا عُـــمْـــرُ، فَلْتَنْقَضِ انْصِــرَامَـــا
شَـــقَـــاؤُنَا فـــيك مِنْ أَهَال
ذُنُوبُهُمْ فَـــينَاً كَـــالْجِـــبَـــال
قَـــالُوا لَنَا حِينَ وَدَّعُـــونَا
هُـنَـاكَ جَـــــدْوَى وَرُوحُ بَـال
هُنَاكَ مَـــجْـــدٌ هُنَاكَ فَـــخْـــرٌ
هُنَاكَ فَلْتَـــبْـــتَـــغُـــوا الْمَـــعَـــالِي
مَـــا الْعِلْمُ إِلاَّ الْعَـــتِـــيقُ فَـــادْأَبُ
وَلْتَـــحْظَ بِالسَّـــبْقِ ف الْمَـــجَـــال
فَـــقُلْتُ لَمَّـــا بَلَوْتُ أَمْـــرِي
أَخْطَأْتُمُ و الْحَقَّ فِي الْمَـــقَـــال
لَعَلَّ فِي غَـــابِرِ الزَّمَـــانَ
مَـــا قُلْتُمُ لاَ فِي ذَا الأَوَان
قَـــرَأْتُ فِي ذِي الرِّحَـــاب سَطْرًا
الْجُـــوعُ وَالْفَـــقْـــرَ وَاجِـــبَـــان
فَـــهَلْ مَـــدَارِسُنَا الْعَـــتِـــيـــقَـــا
تُ – صَـــاح – إِلاَّ دُورُ الْهَـــوَان
فَـــمَـــا أَرَاهَا إِلاَّ سُـــجُـــونَاً
مُـــؤَبَّـــدَاتٍ لِـــكُـــلِّ وَان
إِنْ حَلَّهَـــا الْمَـــرْءُ وَهْوَ شَـــابٌّ
فَـــالنُّجْحُ إِنْ شَـــابَ فِي ضَـــمَـــان
مَـــا الْعِلْمُ إِلاَّ الْحَـــدِيثُ فَـــاخْـــتَلْ
لِلْفَكِّ، كَمْ ذَا وَأَنْتَ عَـــان(105)
إِنْ كَـــانَ غَـــايَةُ مُـــشْـــتَـــهَـــاكَـــا
شَـــرْطاً فَـــقَـــدْ جُـــزْتَ مُنْتَـــهَـــاكَـــا
كَمْ مِنْ جَـــهُـــولٍ أَضْـــحَى إِمَـــامَـــا
لَمْ يَدْنُ شِـــبْـــراً مِنْ مُـــسْـــتَـــوَاكَـــا

---

105) هذه القصيدة كما نرى تعبر عن النظرة السلبية للتعليم العتيق في مقابل تقدير العصري الرسمي وفي هذا تصوير للإهمال الذي عانته المدارس العتيقة.

وَالـذُّلُّ شَـرْطٌ فـي كُـلِّ شَـرْط
فَـذلَّ أنْ تَـلْـتَـقِـي مُـنَـاكَـا

وَالْجَـهْلُ أوْلَـى مِـنْ عِلْـمِ مَـرْء
مُـقَـيَّـدٌ لَمْ يُطِقْ حَـرَاكَـا

لاَ هُمَّ ضِـقْنَا ذرْعـاً فَـيَـسِّـرْ
إمَّـا ارْتِحَـالاً، إمَّـا هَلاَكَـا

ب - **علاقة الطلبة بشيوخهم** : تَختلف هذهَ العلاقة باختلاَف الطلبة والأساتذة، إلا أنها في الغالب علاقة أبوية تنم عن العطف الذي يحظى به المتعلمون، ويظهر ذلك في محافظة الأستاذ علي مدرسته، فلا يقبل بها إلا من تبين له أن جاء إليها لطلب العلم؛ ويطرد منها من يسبب الفوضى. مما يكفل للباقين التفرغ للدراسة؛(106) وفي تفقده طلبته؛ فيواسي الفقراء، خاصة المجدين منهم فيزودهم بالطعام من عنده. ومن ذلك ما حكاه محمد بن عبد الله الزِّيكي(107) لما كان يأخذ بمدرسة بونعمان على أستاذها الشيخ محمد بن مسعود،(108) وما كان يحيطه به من عناية إذ اقال : «وكان الأستاذ يعنى بي أنا خاصة من بين رفقتي لما آنس من أحوالي التي يراها تخالف أحوال الطلبة، فكان يوصي لي خادمه بأطعمته الخاصة التي يقدمها لأضيافه، وقد أصابتنا هناك سنة مجذبة، فأمرها أن تتفقدني في ظلمات اللّيالي فتعطيني من هري المدرسة سرا، فأطحن أنا بعيدا عن المدرسة خفية عن الطلبة وذلك لأن غالبهم مكفي المؤونة».(109)

كما يمنع بعض الأساتذة طلبتهم الأغنياء من التظاهر بما يميزهم عن غيرهم من الفقراء، مثل عبد الله بن محمد خرباش(110) الذي «منع شرب الأتاي في المدرسة إلا في المناسبات التي يكون فيها شربه عاما للطلبة كلهم، ومن عادته أن يعطيهم كل يكفيهم من السكر والأتاي في أمسية الخميس...».(111)

واعترافا بالفضل والجميل، وطمعا في التفوق، يحرص الطلبة على خدمة أساتذتهم سواء في المدرسة أو في البيت، وقد وقر في أذهانهم أن «الناصح منهم في أشغاله تظهر البركة في حفظه وفهمه وعمله وغير الناصح وإن كان حاذقا فطنا ينعكس أمره...»(112)

---

106) أنظر قصيدة التامري في المبحث الثاني الأبيات العشرة الأخيرة.
107) أنظر ترجمته بالمعسول 15/ 176.
108) أنظر ترجمته بالمعسول 13/ 38 وما بعد.
109) المرجع السابق ص : 178.
110) أنظر ترجمته بالمعسول 14/ 201.
111) نفسه ص : 203.
112) التغرغرتي - مختصر طبقات التغرغرتي 4/ 37.

ولا يقتصر الأمر على مجرد الخدمة بل يشمل الاحترام والتوقير إلى حد يصل أحيانا إلى انتقاء شخصية التلميذ، مما يجعله مجرد أداة طيعة في يد الشيخ بلا مراجعة ولا تفكير؛ وقد خصص الحضيكي حيزا هاما من رسالته حول آداب التعليم لتأدب الطالب مع شيخه، قال فيا: «والضابط مراعاة الأدب، وحفظ قلب الشيخ، فللعبارة أثر وللنظرة وللجلسة، وأن لا يسبق إلى شرح معنى أو جواب سائل، أو يعيده بد ذكر الشيخ إظهارا منه لمعرفته، ولا يقطع كلام الشيخ بسؤال أؤ حكمة وغير ذلك، بل يصبر حتى يفرغ الشيخ، وإن تصدر الشيخ لقصة أو حكاية أو أخبار ثم فرغ منه، فلا يذكر التلميذ قصة أخرى أو حكاية تشبه تلك، فيؤدي ذلك إلى انقطاع حديث الشيخ وصيرورة الكلام بينه وبين التلاميذ مناوبة فهذا من سوء الأدب، وحق التلميذ أن يغمد لسانه ويفتح أذنيه ويدع معلومه مطويا لسماع الشيخ. ومن الحكم إنما خلق للإنسان لسان واحد وأذنان ليكون سماعه أكثر. ولا يقل عند سماع قصة أو فائدة قد ذكرها ونص عليها فلان في كتابه أو هكذا سمعناه وحفظناه أو رأينا، بل يظهر من نفسه أنه ما رأى شيئا من ذلك ولا سمعه قط لحفظ قلب الشيخ، إلا أن يعلم أن الشيخ يحب ذلك. وإن ناوله الشيخ شيئا تناوله باليمنى والفرح، وإن ناوله هو رسالة أو فتوى أو رسالة أو سؤالا ناوله باليمنى أيضا منشورة لئلا يتكلف الشيخ نشرها إلا أن يخشى وجود سر لا يجب الاطلاع عليه، وليقم بين يدي الشيخ، ولا ينبذ الشيء إليه... ولا يحوجه إلى أن يمد يديه، بل إن علم من الشيخ ثقل إخراج يديه أمسك المكتوب له حتى يقرأه. وإن احتاج إلى كتاب هيأه له، أو مسألة منه في محل فليره المحل ولا يحوجه إلى التفتيش؛ وإن ناوله قلما فليمده أولا، أو دواتا فليفتحها ويهيئها، أو سكينا فلا يرد إليه حدها، وإن احتاج سجادة لصلاة أو جلوس فرشها له، وإذا قام بادر إلى أخذها. وكذا النعل يقدمها ويهيئها، وكذا سائر الخدمة مما فيه حفظ قلب الشيخ. ومن أنف من خدمة المشايخ أو استحيى فهو محروم...».(113)

ولا تنتهي علاقة الطالب بأستاذه بمغادرته المدرسة بل تبقى متصلة دائمة، خاصة وأن الشيخ يختار طلبته المجدين المطيعين فيبعثهم لعمارة المدارس التي يأتي إليه أهلها طالبين إرسال من يقوم بالتدريس فيها، وذلك جزاء لهم لتفوقهم في الدراسة واحترام شيوخهم.(114) فيحرص الشيخ على رعاية تلميذه المتخرج وتوجيهه فيما يعرض من شؤون الحياة عامة ومسائل الدراسة خاصة، إذ إن التلميذ لا يأخذ العلوم فقط بل يتلقن أساليب الحياة وطرق التفكير، ومن مظاهر هذه الرعاية المراسلة بين الشيخ وتلميذه يسدي له النصح سواء طلبه أم لا، ونمثل لذلك برسالتين :

113) رسالة في آداب التعليم ص : 5 – 6.
114) أنظر مثلا المعسول 18/ 253.

الرسالة الأولى : للعلامة محمد بن سعيد الميرْغْتي وقد بلغه أن تلميذه العروسي بن عبد الله الجرَّاري،(115) قام ببناء مدرسة لنشر العَلوم، فكتب إليه معبرا عن رؤيته للتعليم، مرشدا تلميذَه إلى بعض نواقص المدارس السوسية، نادبا إياه إلى تجنبها وحسن اختيار الطلبة من الحريصين على تعلم الدين للعمل به، خاصة العقيدة والفقه، لا الذين ينفقون أيامهم في حفظ القرآن ومعرفة قراءاته، ومصطلحاتها ودقائق أسرارها، وقد جمعوا إلى ذلك ضعف الإيمان والجهل بالدين وسوء الأخلاق، ونص الرسالة :

«... بلغني أنكم بنيتم المدرسة للطلبة لتتعارفوا معهم على طاعة الله تعالى فحمدنا الله لكم على ذلك عملتم بقوله تعالى : ﴿ **وتَعَاونوا عَلَى البرِّ وَالَّقْوَى ولاَ تَعَاونُوا عَلَى الإثْم وَالْعُدْوَان** ﴾(116) فَنَسْأَل الله لكم الكمال بجاه نبيه ﷺ؛ ولكن أريد أن أنصح لكم، فإنَ الدين النصَيحة وهو سهم بيني وبينكم، وذلك أن المسافرين(117) الذين يسكنون فيها إن لم تأمرهم بالمعروف وتنههم عن المنكر، فكل ما وقع منهم من المنكر فأنتم شركاء فيه، لكونكم أعنتموهم عليه بالغذاء والعشاء والبيوت؛ فما فائدة المدرسة إن كانت على هذا الوجه إلا بالزيادة بذنوبهم على ذنوبكم، إن كنتم تأمرونهم بالمعروف وتنهونهم(118) عن المنكر فقد صدق عليكم قوله تعالى : ﴿ **وتَعَاونُوا عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى** ﴾، وإلا صدق عليكم قوله تعالى : ﴿ **ولاَ تَعَاونُوا عَلَى الإثْم وَ الْعُدْوَان** ﴾ وها أنا أبين لكم بعض ذلك، لأنه يخفى عليكم وكثير من الناس إلا مَن أيده الله بنوَر العلم والفهم، نسأل الله تعالى أن يجعلنا إياكم منهم آمين.

وبيانه أن طلبة هذا الزمن يشتغلون بدارس كتاب الله وأحكامه من الضبط والخط سنين كثيرة، وهم في تلك المدة كلها في معصية الله تعالى لأنهم تركوا الفرض يعني فرض العين الذي كلفهم الله به، ويسألهم الله عنه يوم القيامة، ثم اشتغلوا بالنوافل التي لن يكلفوا بها ولا يسألوا عنها؛ فضاع الدين الذي هو المقصود في القراءة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، والعياذ بالله، فتراهم إذا ذكروا الحذف والإثبات، والنقطة الحمراء والخضراء، والزائد الملحق(119) نشطوا لذلك. وإذا ذكروا التوحيد الذي يعد العبد به من المسلمين، وفرائض الوضوء والغسل والتيمم، وفرائض الصلاة وتفسير الحلال والحرام، وتقوى الله وعبادته، والجنة والنار، وغير ذلك مما هو فرض عين على العبد المكلف البالغ. فروا من

115) أنظر ترجمته في رحالات العلم العربي في سوس ص: 40.
116) الآية الثالثة من سورة المائدة.
117) المسافرون في عرف السوسيين هم الطلبة الغرباء المرتحلون لطلب العلم.
118) في الأصل المخطوط : تامروهم، تنهاهم.
119) هذه التعابير من مصطلحات القراءات.

ذلك وبعدوا من ساحته. وإذا ساقهم القضاء والقدرة بالحضور عنده، نعسوا في المجلس سهوا لا يردون عقولهم بحفظ شيء منه. وإذا طرحوا الألواح شغلوا أنفسهم بما تهوى وتحب؛ من اللهو واللعب والصياح والجري وقلة الحياء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحاصل من لا يشتغل بالتوحيد وبالفقه بعد التوحيد فلا يسكن مدرستكم، ولا تعاونوه على مراده من قراءة القرآن قبل قراءة التوحيد والفقه الذي يلزمه. فإذا استحييتم من طرده أو إخراجه فما ضررتم إلا أنفسكم، والله أحق أن يستحيى منه، وهذه نصيحة لكم ولغيركم من الطلبة ونؤكد على مؤدبكم الذي يسلك عليه الطلبة إذا جاءه طالب فليختبره، فإن وجده عرف الله ورسوله وحصل عقائده وفرض عين منه فليجود لوحته، وإلا فليهرب(120) منه، ويقول له اقرأ ما فرض الله عليك وإلا فإذهب عني والسلام، وينبغي له ولغيره أن يحب كل من يقرأ التوحيد والعلم ولو يحمله على ظهره، لأنه حبيب الله وحبيب رسوله. وأن يكره غيره ويطرده ولو كان أباه لأنه عدو الله ورسوله والسلام».(121)

الرسالة الثانية : أرسلها العلامة محمد المختار السوسي إلى تلميذه محمد بن أحمد العتيق السّليماني(122) المدرس إذ ذاك بمدرسة سيدي محمد الشِّيشَاوي بهَشْتُوكَة،(123) وتخالف هذه الرسالة سابقتها في كونها لا تتناول مسائل التعليم ولا مناهجه وطرقه، بل تتعلق بشخصية الأستاذ والنموذج الأمثل الواجب عليه اتباعه، فالعلامة المختار ينصح تلميذه بالإخلاص في مهمته والثبات عليها وعدم الجري وراء المكاسب شأن كثير من اللاهثين خلف جمع الأموال، مستغلين لأجل ذلك بضاعتهم العلمية المزجاة، ومصطنعين مظاهر التقى والتصوف، وهم يسرون حسوا في ارتغاء غافلين عن واجبهم التعليمي الإرشادي. ونص الرسالة :

«من المختار، الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه، الأستاذ النفاعة سيدي محمد بن أحمد السليماني، وعليكم السلام ورحمة الله أما بعد :

فقد وصلت رسالتك وفهمت كل ما ترمي إليه فاعلم ثم اعلم ثم اعلم أنّ رأس مالك أمران اثنان لا غير :

120) في أصل المخطوط «بل يهرب» والعبارة بذلك فاسدة ولعل ما أثبتنا هو الصحيح.
121) عبد الرحمان العوفي - كناش العوفي ص : 8.
122) أنظر ترجمته في المعسول 2/ 370.
123) أنظر حولها الساحلي - المدارس العلمية ... 8/ 228.

* **أحدهما** : حسن السمعة في التعليم؛ وهذا لا يكون لك ولا يصح ولا يثبت حتى لا يتصل أبدا، إلا بالثبات في محل، حتّى يتمكن لك ناموس العلم، وتتم لك بين الأساتذة والتلامذة السمعة الكافية، التي لا تتزلزل ولا تتحول، وإن تحولت من مكان إلى آخر. فامعن نظرك في ذلك، و «من ثبت نبت.»

* **وثانيهما** : قصد وجه الله وحده في تعليم أولاد المسلمين؛ في قطر نضب فيه التعليم، وانقشعت سحبه، وخلت معاهده؛ حتى لا مطلب من متطلبة(124) الوقت إلا المادة وحدها والسمعة بين الجهلة؛ فيعتمدون على مثل التقدم في إحدى الطرق ليظهروا بالناموس المصطنع الخلاب، وصاحب هذا الحال سرعان ما يفتضح أمام الناس كما افتضح بادئ ذي أمام نفسه، وكل مالم يؤسس على الإخلاص فسرعان ما ينهار. فمن قصد من أمثالك وجه الله في التعليم فإن المادة لابد أن تميل إليه فإن لم يكن إلا الكفاية ففيها، ويكفي من غنى شبعٌ وريٌّ، وأخوف ما أخاف عليك هو انحلال أمرك، ودبيب الارتياب إلى عقيدتك فَي المجد العلمي الخالص، قبل أن يتمكن بسبب ترددك إلى من نهيت عن التردد إليهم مرارا، مع أن الواجب هو تعظيمهم وصمودك إلى ما أنت بصدده، ثم لا تلتفت إلي قادح أو مادح».(125)

124) في مقابل الفقهاء والطلبة والفقراء المتصوفة، وضع العلامة المختار المتفقهة والمتفقرة والمتطلبة وهم طوائف من مدعي الفقه وطلب العلم والفقر، مع قصد أمر آخر دون إخلاص النية لله، كالجاه أو المال أو السلطة.

125) خزانة الأستاذ محمد بن أحمد العتيق، وقد زودني بالرسالة ابنه الأستاذ عبد الغفور جزاه الله خيراً.

المبحث الرابع ـ مؤلفات سوسية حول نظم التعليم :

واكب الحركة التعليمية بسوس اهتمام بنظم التعليم وطرقه ومناهجه، فكان المدرسون والأساتذة يطلعون على كتب المشارقة في الموضوع، سواء في كتب الحديث والفقه التي تعرضت لذكر العلم والتعلم أو الكتب الخاصة به مثل «تعليم المتعلم طريق التعلم «لبرهان الدين الزّرنوجي(126) وقد اختصره أحد المطلعين وسماه «عمدة الطلبة»، وقد تجاوز السوسيون الاطلاع إلى التأليف، وتدوين ما يعن لهم من ملاحظات خلال ممارستهم للتعليم واشتغالهم به، ومن جملة ما وقفت عليه في هذا الباب من المؤلفات، أربعة كتب هي :

* كتاب «تمام النصيحة في إرشاد الطلبة» ليبورك بن عبد الله السّملالي.
* كتاب «المدرسة الأولى» لصالح بن عبد الله بن محمد الصالحي الإلغي.
* «رسالة في آداب التعليم» للعلامة محمد بن أحمد الحضيكي.
* «رسالة في تعليم الصبيان» للشيخ أبي عبد الله محمد بن يدير الحامدي الجزولي.

وأول ملاحظة نسجلها اهتمام كتابي السملالي والحضيكي بطلب العلم وآدابه، أي الدراسة العليا المتمركزة في المدارس العلمية. بينما يعالج المؤلفان الآخران التعليم الأولي، الذي يتطرق لتعلم حروف الهجاء وحفظ القرآن، ومحل ذلك الكتاتيب الملحقة بالمساجد.

أ - كتاب «تمام النصيحة في إرشاد الطلبة».

درَس هذا المؤلف وحققه الأستاذ المرحوم عبد السلام الخَلْد(127) لنيل شهادة المركز الوطني لتكوين مفتشي التعليم، ويوجد مرقونا بخزانة المركز بالرَباط في 91 صفحة بما فيها نص الكتاب والدراسة والفهارس وعلى هذه النسخة اعتمادنا.

ومؤلفه يبورك بن عبد الله بن يعقوب السّملالي ولد في شهر محرم من عام 1027 هـ ونشأ بين يدي والده العلامة الكبير الآخذ عن محمد بن إبراهيم الشيخ التمنارتي وأبي مهدي عيسى السكتاني وعبد الرحمان البعقيلي(128) وغيرهم، والمستقر بمدرسة تازموت حيث تفرغ للتدريس،(129) فأخذ عنه كثير من الطلبة ومن جملتهم ابنه يبورك الذي ظهر نبوغه المبكر، وتحصيله العجيب للعلوم في زمن يسير.(130) ولما توفي والده عام 1052هـ

---

126) أنظر التعريق به عند د. مروان قباني . تحقيق : كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم ص : 18.
127) من الأسرة الخالدية الرسموكية التي ترجم العلامة المختار لعلمائها في المعسول 11/ 201 وما بعد. عمل مدرسا بالتعليم الثانوي ثم التحق بمركز التفتيش وتخرج منه عام 1987 وتوفي رحمه الله عام 1988م. (إفادة من صهره الأستاذ محمد بن الحسين الصالحي بتزنيت).
128) المعسول 5/ 15.
129) نفسه ص : 18 وما بعد.
130) نفسه ص : 46.

جلس مجلسه وخلفه في التدريس وعمره لا يتجاوز خمسا وعشرين سنة. وحين توفي هام 1058هـ عن واحد وثلاثين سنة، ترك عدة مؤلفات، ظهر فيها نبوغه وعددها خمسة وعشرون مؤلفا.(131) وقد حار معاصروه في تعليل نبوغه، وكثرة مؤلفاته مع قصر عمره، حتى قالوا إنه محفوظ من الشياطين.(132) وتنقسم كتبه إلى ثلاثة أصناف؛ ثمانية مختصرات، وثلاثة عشر شرحا، وأربع مؤلفات.(133)

ومن مختصراته الكتاب الذين نحن بصدد تناوله، وهو مختصر من كتاب «عمدة الطلبة» الذي اختصره صاحبه من كتاب «تعليم المتعلم طريق التعلم «لبرهان الدين الزرنوجي،(134) ولم يقتصر العلامة يبورك على الاختصار بل أضاف وعلق وناقش مبديا رأيه؛ مع متابعة صاحب العمدة في تقسيم الكتاب إلى ثلاثة فصول، ومقدمة تناول فيها موضوع التعلم والتعليم على النحو التالي :

* **مقدمة** : إفتتح السملالي كتابه بذكر اسمه مشيرا إلى أنه مؤلف الكتاب باختصار كتاب آخر بقوله : «...فهذه أوراق اختصرتها من كتاب وقفت عليه سماه مولفه عمدة الطلبة وأنا أزيد عليه فوائد وذلك كله في آداب تعليم المتعلم والمعلم وغيرهما، وجعلت لزيادتي علامة : «قلت».(135)

* **الفصل الأول** : في النية في حالة التعلم، واختيار المعلم...والثبات وتعظيم العلم وأهله والشريك وغيرها.

تطرق المؤلف في هذا الفصل لفضل الاشتغال بطلب العلم خاصة الفقه الذي هو أصل الدين؛ يعلم به الحلال والحرام، ثم تحدث عن النية وإخلاص الأعمال لله، وعدم طلب العلم لأجل الدنيا. وإلاّ ضاع الجهد الكبير في تحصيله مستشهدا بالأحاديث النبوية والأقوال المأثورة لكبار العلماء كسفيان الثوري، وعبد الله بن المبارك، وابن وهب.(136)

ثم ذكر العلوم التي يجب على الطالب البدء بها؛ وهي علم التوحيد، حتى يعرف الله بالدليل، ثم علم النحو والمنطق. كما ذكر كيفية اختيار الشيخ وتحري الأعلم والأورع وتعظيمه ومعاملته بما يليق؛ حتى لقد رجّح حقه على حق الوالدين، فعلى الطالب الحرص على عدم إيذائه وإلاّ حرم العلم، ومثل احترام الشيخ احترام الكتب وتعظيمها، فلا تؤخذ إلاّ بطهارة، ولا تمد إليها الأرجل. ووضعها فوق بعضها بالترتيب الذي ذكره المشايخ

131) المعسول 5/ 48.
132) نفسه ص : 46.
133) تمام النصيحة في إرشاد الطلبة – تحقيق عبد السلام الخلد ص : 10.
134) نفسه، ص : 21.
135) نفسه، ص : 52.
136) نفسه، ص : 53.

«فاللغة والنحو نوع يوضع فوق بعض، والتعبير فوقها، والكلام فوق ذلك، والفقه فوق ذلك، والأخبار والمواعظ والدعوات المروية فوق ذلك، والتفسير فوق ذلك، والتفسير الذي فيه آيات مكتوبة فوق ذلك، ثم كتب القرآن».(137)

ثم تطرق المؤلف لاحترام الشركاء والتلاميذ واعتبره تعظيما للعلم وأضاف على المختصر ذكر ما يجب على المعلم تجاه تلميذه، فلا يعنفه ولا يحقره مستشهدا بأقوال الرسول(صلى الله عليه وسلم) وحكايات مأثورة حول الرفق بالمتعلمين.

* **الفصل الثاني** : في الجد والمواظبة والهمة، وبداية السبق وقدره ووقت التحصيل، والشفقة والنصيحة والتوكل.

تعرض هذا الفصل لما يجب عل الطالب من الجد في التعلم، والمواظبة على القراءة والصبر عليها؛ دون إجهاد النفس ، حتى لا تضعف وتنقطع عن الطلب، أسوة بالرسول ﷺ ووصاياه بالتدرج في الأمور، وإذا اقترنت همة الطالب بجده نال ما تمنى من تحصيل العلوم، وهي أفضل ما ينفق الإنسان فيه عمره، لا الاستسلام للكسل والخمول .(138)

وبعد هذا انتقل المؤلف إلى الحديث عن بداية السبق أي أيام الابتداء في الدراسة، فأورد آراء بعض العلماء، فمنهم من يجعله يوم الأربعاء باعتباره يوما مباركا في حق المسلمين. أما قدر السبق فيختلف حسب المستويات، فهناك المبتدئ الذي ينبغي له الابتداء بما يقرب من فهمه، فيجمع بين السماع والحفظ والفهم لأنه كما قيل : «حفظ سطرين خير من سماع وقرين، وفهم حرفين خير من حفظ وقرين ».(139) كما ينبغي الاهتمام مع ذلك بالمذاكرة والمطارحة والتأمل في جميع الأوقات في دقائق العلوم، والاستفادة من جميع الأوقات والأحوال، وإذا مل من علم انتقل إلى غيره. كما يجب على المتعلم تقييد الفوائد، واغتنام وجود الشيوخ والاستفادة منهم بلا تسويف.

* **الفصل الثالث** : في الورع في حالة التعلم وفيما يورث الحفظ وما يورث النسيان ويجلب الرزق وما يمنعه وما يزيد في العمر وما ينقصه.

ذكر المؤلف في هذا الفصل وجوب تورع المتعلم، وأن من الورع الاحتراز من الشبع «وكثرة النوم، وكثرة الكلام فيما لا ينفع، وأكل طعام السوق لأنه أبعد عن ذكر الله تعالى وأقرب إلى الغفلة، وليس فيه بركة ولا يخلو من النجاسة».(140)

---

137) تمام النصيحة، ص : 56.
138) نفسه، ص : 59.
139) نفسه، 60.
140) نفسه، ص : 65.

ثم تعرض لما يورث الحفظ أو النسيان ويمكن تقسيم ذلك إلى قسمين :

أولا : الأخلاق والآداب والتصرفات التي تصدر عن المتعلم.

ثانيا : أنواع المأكولات والمشروبات المؤثرة على التحصيل زيادة أو نقصانا. فمما يورث الحفظ التخلق بالآداب الإسلامية واجتناب المعاصي؛ كما يزيد ذلك في العمر والصحة ليتفرغ الطالب العلم . أما ما يورث النسيان والفقر والكسل فـ «النوم عريانا، والبول عريانا، والأكل جنبا، والتهاون بسقطات المائدة، وحرق قشر البصل والثوم، وكنس البيت بالليل وترك القمامة فيه، والمشي أمام المشايخ، ونداء الوالدين باسميهما، والتخلل بكل خشبة، وغسل اليدين بالطين والتراب، والجلوس على العتبة والاتكاء علي إحدى زوجي الباب، والتوضوء في المطهرة وخياطة الثوب على بدنه، وتجفيف الوجه بثوبه، وترك بيت العنكبوت في البيت، والتهاون بالصلاة، وإسراع الخروج من المسجد بعد صلاة الصبح والابتكار بالذهاب إلى السوق، والإبطاء في الرجوع منه، وشراء كسرات الخبز من الفقراء، والسؤال والدعاء بالشر على ولده، وترك تخمير الآواني،(141) وإطفاء السراج بالنفس. والكتابة بالقلم المعقود، والامتشاط بمشط مكسر، وترك الدعاء للوالدين ، والتعمم قاعدا والتسرول قائما، والبخل والتقتير والإسراف...».(142)

ثم ختم المؤلف كتابه بقوله : «هذا اخر الكتاب الذي اختصرته وزدت له فوائد جمة وعلامتها (قلت) وآخرها لفظ (انتهى)، إلا ما قل يظهر لمن وقف عل ذلك الكتاب، وما ذلك إلا لأمر اقتضاه، وسميته «تمام النصيحة في إرشاد الطلبة» نفعنا الله به وجميع من اعتنى به، وغفر لنا جميع ذنوبنا ولوالدينا إلى منتهاهم في الإسلام. وغفر لجميع المسلمين والمسلمات وحشر جميعنا في أعلى الفردوس... على يد ناسخها لنفسه قبل الزوال، يوم السبت السابع والعشرين من رجب الفرد عام 1327 هـ خالد بن الحاج إبراهيم الهرجاني من أعلى الأسفل. لطف الله به في الدارين أمين».(143)

ولعل أول ما يستوقف النظر في هذا الكتاب حديث صاحبه عن مسائل بعيدة عن ميدان التعليم ومناهجه، كالرزق والفقر والغنى والصحة والعمر، وهو بهذا لا يكتفي بإرشاد الطالب إبان حياته التعليمية بل يتخطى ذلك إلى توجيهه طوال حياته مادام يقضيها كلها في الاستزادة من العلم، والانتفاع والنفع به.(144)

ولتأكيد آرائه يستدل المؤلف بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وأقوال العلماء والأمثال والحكايات والأشعار وحتى المرائي المنامية. ولم يكتف في

141) تخمير الأواني : ستراها بخمار إن كان بها طعام، المرجع نفسه ص : 84 .

142) تمام النصيحة، ص : 68 .

143) نفسه، ص : 72.

144) نفسه ص : 20.

تلخيصه بترديد أقوال صاحب «عمدة الطلبة» بل واكبها بالإضافة أو المناقشة. والإضافة تكون إما بالاستدلال على أقوال الأصل كما هو الحال في الفصل الثالث، عند ذكر الورع في حال التعلم؛ ومنه عدم طمع العالم في ما بين أيدي الناس حتى لا تنجلي عنه حرمة العلم، وقد أورد يبورك بن عبد الله للاستدلال على صحة هذا الرأي بيتين هما : (البسيط)

لاَ تَخْضَعَنَّ لِمَخْلُوق عَلَى طَمَعٍ
فَإِنَّ ذَاكَ مُضِرٌّ مِنْكَ بِالدِّينِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّهُ لَمْ يُعْطِكَ خَرْدَلَةً
إِلاَّ بِإِذْنِ الَّذِي سَوَّاكَ مِنْ طِينِ(145)

وإما بالتوضيح، كما جاء في الفصل الأول لما تحدث صاحب «عَمدَة الطلبة» عن ترجيح حق المعلم علي حق الوالد، فأضاف المختصر موضحا : «ماقاله من ترجيح حق المعلم على الوالد عزاه بعضهم لأكثر الحكماء قائلين : لأن الأب سبب لأن جعلنا عوارض للتلف، والمعلم أبو الروح لا أبو النطفة».(146)

أما المناقشة فرد فيها على الآراء التي رأى أنها تخالف معتقده، ونمثل لذلك بما جاء في الفصل الأول، عند ذكر وجوب تعلم العلم والبدء بعلم التوحيد ليعرف الطالب ربه بالدليل في قول صاحب العمدة : «وإن كان إيمان المقلد صحيحا إلا أنه أثم بترك الاستدلال».(147) فعلق السّملالي بقوله :«الخلاف في صحة إيمان المقلد، معلوم في المطولات فالمختار أنه لا يصح فيما بينه وبين ربه».(148) وفي الفصل الثالث أثناء الحديث عن مورّثات الفقر فذكر منها صاحب الأصل الأكل جنبا، فقال المؤلف مناقشا : «روي أن الأكل في حال الجنابة من الحرام مورث الفقر وأما من الحلال فيجوز الأكل والشرب بلا إخافة».(149)

ب - «كتاب المدرسة الأولى»

مخطوط في ستة وأربعين صفحة من الحجم الصغير مقياس 18x25 سم تتراوح سطور صفحاته بين 18 و 25 سطرا، وهو بخط مؤلفه الذي أتمه في الشهر الثاني من عام 1990م وأصله محاضرة أعدها بدعوة من المجلس العلمي بتزنيت أواخر عام 1989م.

145) تمام النصيحة ص : 72.
146) نفسه ص : 20.
147) نفسه ص : 62.
148) نفسه ص : 55.
149) نفسه ص : 53.

ومؤلفه العلامة صالح بن عبد الله بن محمد الإلغي حفيد مؤسس المدرسة الإلغية، وأحد المشارطين بها؛ ولد عام 1343هـ ونشأ تحت رعاية والده العلامة عبد الله بن محمد، قرأ القرآن ببلده وتنقل لأخذ العلم بين المدرسة الوفقاوية والأيمورية والجشتيمية حيث تتلمذ للأستاذ أحمد بن محمد اليزيدي، ووالده المذكور،(150) وصفه العلامة المختار السوسي فقال : «له تحصيل تام، ومشاركة استحق بها أن يكون خير خلف لسلفه الماجد المحصل، الذي يبتدئ من جده محمد بن عبد الله، ثم يتوسط بوالده إمام هذا الجيل في (إلغ) وما إليه، وقد شهد له أقرانه بالتفوق والاستحضار حتى والده، فإنه كثيرا ما يشيد باستحضاره ويقول إنه يستحضر من المسائل ما لا أستحضره... وقد رأيناه يزاول التأليف في فنون شتى، فلئن زاد قدما ليكونن غدا علامة إلغ الفريد».(151)

وقد صدق ظن العلامة المختار في الأستاذ صالح بن عبد الله فكان آخر الآساتذة الإلغين الكبار، بل إنه انفرد بينهم بالتآليف إلى جانب العلامة المختار السوسي، ومن مؤلفاته بالإضافة إلى كتاب المدرسة الأولى تحقيق الشرح الصغير لفرائض أحمد بن سليمان الرسموكي سماه «دليل الفارض ومفتاح الفرائض وشرح متن الأجرومية بعنوان، الحقائق المكللة والدرة الإلغية والمنقع بتحقيق المطلع... وغيرها.

ويتناول الكتاب الذي نتحدث عنه التعليم الأولي في البادية السوسية، غير قاصد التوجيه والإرشاد وإنما التأريخ وتسجيل طرق التعليم ومناهجه التقليدية التي بدأت تنقرض بعد أن صار غالب صبيان سوس يقبلون على التعليم الرسمي، وشمل الأفول أيضا الكتاتيب القروية الصغيرة، ومعها العادات العتيقة كتموين المعلم والاحتفال بختم القرآن، وصناعة المداد، ولا أدل على ذلك من قول المؤلف عند ذكر الطعام الذي يعده القرويون لمشارطهم «وهو على ما ألف في قريتنا الإلغية قديما أي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، أما الآن فقد انقلب كل شيء رأسا على عقب».(152) بالإضافة إلى حرصه على ذكر الأطعمة التقليدية بتفاصيلها، وذلك شعورا منه باقترابها من الزوال في مجتمع انتشرت به آثار الحضارة، ويظهر ذلك في قوله عند ذكر العصيدة : «وكيفية عصيدة الدقيق التي لم يبق اليوم إلا اسمها أو اندَرس رسمها واسمها معا».(153)

---

150) المعسول 2/ 218.
151) نفسه ص :219.
152) المدرسة الأولى ص : 23 .
153) نفسه، ص : 35 .

ولم ينظّم المؤلف كتابه في فصول ولا أبواب، وإنما ترك لقلمه العنان ليخط بسجية كل ما يعرف من أحوال التعليم الأولي العتيق. وقد افتتحه بتقديم نص من مختصر حاشية الشيخ الرهوني لمحمد كَنون يدور حول قول الرسول ﷺ : «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرآنَ وَعَلَّمَهُ»(154) وتفسير معنى الخير، والإشارة إلى فضل المؤدب وما وعد به من خير الدنيا والآخرة. ثم ذكر أهمية تعليم الصبيان، واعتبر الخليفة العادل عمر بن الخطاب «أول من بنى مدرسة في الإسلام وجمع فيها أولاد المؤمنين وشارط عامر بن عبد الله الخُزاعي رضي الله عنه على رزق معلوم يأخذه من بيت المال ليلازمهم للتعليم».(155) وذكر انتقال تلك التقاليد التعليمية إلى سوس بحرص سكان القرى والمداشر على إحداث كتاتيب بمساجدها، وإقامة المؤدبين بها على أجرة سنوية معلومة وطعام مرتين في اليوم. وقد استغل المؤلف فرصة التحدث عن الطعام لوصف أنواعه المتداولة قديما من عصيدة وحساء، أو سخينة أو تلبينة ... وصفا دقيقا مع استعراض طرق إعدادها مستعينا في ذلك بمعرفته اللغوية المعمقة».(156) ثم تطرق بعد ذلك لشؤون التعليم ومراحله من خلال الأفكار التالية :

* **كيفية تعليم القرآن في سوس** : تطرق المولف إلى طرق تعليم القرآن في سوس قديما وشروطه، مثل عمر الصبي الذي يجب أن يبلغ سبع سنوات، وسبب ذلك قلة فائدة إقراء من هو أدنى عمرا. وطريقة إلحاق الصبيان بالمكتب، والهدايا التي يتحف بها وليه المؤدب حتى يفتح له الإقراء.(157)

* **المرحلة الأولى من التعليم** : وهي مرحلة التهجي، تحدث المؤلف فيها عن معاملة المؤدب للصبيان، وتعليمهم مبادئ اللغة بتلقينهم الحروف الهجائية؛ يكتبها لهم في ألواح صغيرة بكيفية معلومة ليحفظوها، وعندما يتقنون ذلك ينتقل بهم إلى معرفة حركات الإعراب من نصب ورفع وجر وجزم وغير ذلك، ثم إذا استوعبوها انطلق بهم المؤدب إلى التدرب على التهجي، ثم إلى السور القصار من القرآن كالفاتحة والمعوذتين ليحفظوها واعتبر المؤلف مرحلة التهجي من أصعب المراحل على الصبي، وتنتهي بتقدمه في حفظ القرآن شيئا فشيئا حتى الحزب الخامس(158) لتبدأ المرحلة التالية :

---

154) حديث شريف رواه البخاري عن حجاج ابن منهال في كتاب فضائل القرآن من صحيحه.
155) تمام النصيحة ص : 3.
156) أنظر المدرسة الأولى : ص : 31 حتى 42 .
157) نفسه ص : 45 .
158) نفسه ص : 50 .

* **مرحلة الكتابة** : وهي العقبة الثانية أمام التلميذ، ويبدأ بأن «يخط له الطالب على لوحه بعود أو بالرأس الغير المبري من القلم أو بظفره... كلمات مشكولة أو مجرورة، تكون نموذجا يحذو الصبي حذوها بأخذ يخط على نفس خط الطالب، بالطرف المبري من القلم بعد أن أمده من الدواة، ويكرر هذا الفعل أياما، وبعد أن ارتاض وتدرب عليه يأمره الطالب أن يكتب تحت الخط محاكيا له، ويبقى على هذا أياما أيضا، ثم يكتب مستقلا»،(159) وعندما يتقن التلميذ الكتابة، يكتب لوحه بنفسه ويعرضه على معلمه ليصحح له ما أخطأ كتابته؛ فيتلوه عليه مرة أو مرتين ثم يبتدئ الحفظ وبيده المحك «وهو عود من غصن الزيتون أو نحوه في غلظ الأصابع وطول الفتر(160) ونحوه ينحته من كل جهة حتى تكون له حروف وسطوح أربعة غالبا، وقد يزوقه بنقوش تحفر فيه بالموسى أو يخط بها اسمه عليه ويحرف أحد رأسيه بالنَّحْت، حتى يكون له صدور كرأس الإبهام ليمكنه أن يحك به لوحه إذا أكب على قراءته ويُزعم أن ذلك المحك يعينه على حذقه بسرعة، فإن لم يجد ذلك العود حكّه بنواة أو بالأسفل من جمع كفه».(161)

وإذا أسرع التلميذ بحذق لوحته، سرحه الطالب إلى بيته وقت الغذاء، أما إن أبطأ في ذلك فجزاؤه البقاء بالكتاب إلى أن يقرب الزوال. ويتحقق المؤدب من ذلك بعرض التلاميذ ألواحهم متناوبين، ويلزم كل من وصل حفظه إلى الحزب الراتب المتلو يوميا بعيد المغرب بقراءته جماعة «ويتسمع الطالب قراءة كل واحد منهم، فمن همهم أو لم يفصح ألقاه على قفاه؛ أو جرده من دثاره أو نحو ذلك».(162)

* **ختم القرآن** : يداوم التلميذ على قراءة لوحه في أوقات معينة هي «ما قبل الفجر، وما بعد الحزب إلى الطلوع وما بعد كتابة الألواح إلى نحو الساعة الحادية عشرة أو ما بعدها بقليل، وما بين الظهرين وقبيل المغرب وبعد العشاء»،(163) حتى يحفظ القرآن ثم يعيد حفظه مرات لكي يتقنه إتقانا تاما وعلامته «أن يكتب من عند نفسه بدون إملاء من غيره ولا نظر في مصحف، أو أن يتقن رسمه وقواعد كتابته، لأن ذلك لا يتقنه إلا الماهر الحاذق به».(164) فيحتفل به لأجل ذلك معلمه وزملاؤ وأهله احتفالا خاصا.

* **العطل والهدايا والتعزيزات** : يتمتع التلاميذ بعطل أسبوعية وأخرى سنوية وثالثة طارئة، وهذه العطل «أسبوع أو أسبوعان حول كل من الأعياد الثلاثة الفطر، الأضحى

159) المدرسة الأولى، ص : 55 .
160) الفترة مقدار ما بين الابهام والسبابة. أنظر المدرسة الأولى ص : 48 هامش رقم 84 .
161) نفسه ص : 49 .
162) أنظر المصدر نفسه، ص : 66 .
163) نفسه ص : 61 .
164) نفسه ص : 60 .

والمولد الشريف، وعطل الأعياد يسمونها العواشر، وتنقضي مدتها سابع يوم العيد. وأما عاشوراء فإنما لهم فيه يومان ونحوهما... وعندهم العطل الطوارئ أيضا وهي ذوات سبب غير عادي والأكثر أن لا تزيد على يوم، وهي إما لفرح عند الطالب مثل دخول كبير عنده لزيارته وحده أو مع التلاميذ، فيقول لهم الطالب بعد دخوله علقوها، مرجع الضمير معهود عندهم وهو الألواح، أو لفرح عند بعض أهل القرية كالعرس أو قدوم مسافر أو نحو ذلك فيدعوهم لداره أو يأتيهم بما يسرهم به، ويسمون ذلك اليوم يوم السُنّة، أو لفرح عند بعض التلاميذ إذا ختم القرآن أو بلغ بعض أحزابه، وكان وَلَد غني أو كريم يحسن إليهم وإلى الطالب أو نحو ذلك. وهناك أيضا عطلة نصف نهار أو نحوه كما إذا تصدق عليهم بلحم مع ما يصحبه من الخضر والإدام والسكر والخبز، أو بثمن ما ذكر فاشتروه فيطبخونه ويجتمعون على أكله ويسمونه الزردة...».(165)

أما الهدايا فهي ما يقدمه أولياء الطلبة للمؤدب نظير اجتهاده في تربية أولادهم وإقرائهم القرآن ومبادئ الدين والعقيدة، وتعرف بالحذاقة؛ والمعروف لدى السوسيين إهداء الطعام كلما وصل التلميذ رأس حزب ويسمى لديهم «تَانَعْريفْتْ»؛ بالإضافة إلى دراهم عند بداية عطل الأعياد، وتسمى العواشر، ومأدبة عند ختم القَرآن.

أما التعزيرات وأنواع العذاب التي يسامها التلميذ فهي أكثر من أن تحصى؛ وقد عدد المؤلف أنواعها : كالقرص والعضّ والرّكل واللّكز والرّفس والضرب بالعصي والحبال... ويسام التلاميذ أنواع العذاب لأدنى سبب كالتشويش أو عدم حفظ اللوح أو السهو عن ذلك... وتتوقف شدة العقاب على نفسية المؤدب، فمنهم من يرى أن الضرب ضروري للتعليم، ومنهم من يقدم الرأفة. وربما غلا بعضهم في ذلك مما يؤدي إلى إصابة تلاميذه إصابات خطرة أو حتى وفاتهم مثلما نقل المؤلف عن بعض طلبة المدارس العتيقة قوله : «إن تلاميذ بلدتهم استداروا ذات ليلة بعد العشاء على «أغاد»(166) المشتعل كأتون الحمام، كل مكب على لوحه يقرؤه بجد واجتهاد كالمعتاد، فلم يرعهم إلا الطالب أخذ برأس صبي منهم تواني أو أخذته نعسة فدسه على وجهه في رماد موقد تلك النار الجهنمية؛ كأن رأسه طرموس(167) أودع ملّته، فركض الصبي برجليه ركضة أو ركضتين فلفظ نفسه الأخير قبل أن ترفع عنه يد الطالب، وأمثالها كثيرة...».(168)

---

165) المدرسة الأولى، ص : 99 .
166) أغاد : وهو النار التي يشعلها الطلبة ليلا ليقرؤوا على ضوء نارها ألواحهم.
167) الطرموس : خبز الملّة، والملة وهي الرماد، أنظر المدرسة الأولى ص : 34 .
168) نفسه، ص : 107 .

وينتهي مقام التلميذ بالكتاب إذا حفظ القرآن وأتقنه بقراءة ورش، فيغادره إلى المدارس، وهي نوعان مدرسة القراءات وفيها يستكمل معارفه القرآنية، ومدرسة العلوم حيث يدرس الفقه واللغة والحساب ومختلف العلوم.

* **خاتمة** : ختم المؤلف كتابه بذكر سبب التأليف وتاريخه كما ذكر أن سبب اقتصاره على الحديث عن التعليم الأولي صدور كتاب العلامة المختار السوسي «مدارس سوس العتيقة نظامها أساتذتها» قال : «وبعد اطلاعي عليه اكتفيت بما أبديت، وأحلت المتعطش لكيفية نظام التعليم العلمي في تلك المدارس على كتابه المذكور. فرحمه الله رحمة واسعة فقد كفانا الكلفة وخفف العبء...».(169)

ويحفل كتاب الأستاذ صالح بن عبد الله الإلغي بمعلومات متعددة متفرقة في ثناياه، ساقها للاستدلال أو ذكرها مستطردا.

* **الاستدلال** : وذلك بالرجوع إلى نصوص فقهية مالكية، كإيراده قولا للشيخ الدردير شارح مختصر خليل عند ذكر الحذاقة،(170) ونصا من «اللآلئ السندسية في الفضائل السنوسية»(171) لما تعرض للتعزيزات وأنواع العقوبات.(172)

* **الاستطراد** : استغل المؤلف الفرص للحديث عن بعض المسائل المرتبطة بالتعليم في منطقة سوس، فعندما تعرض لتلاوة التلاميذ الحزب الراتب، ذكر طريقة قراءة أولاد العلامة عبد الله بن يعقوب السملالي،(173) ولما تحدث عن إصلاح المؤدب ألواح التلاميذ، أورد حكايات تدور حول تشديد النكير على المخطئين في كتابة القرآن،(174) ثم لما ذكر انصراف التلاميذ للوضوء استطرد بوصف مكان تسخينه وطريقته وأوانيه.(175)

جـ - رسالة في آداب التعليم :

مخطوطة في خمس عشرة صفحة من القطع المتوسط، مقياس 1622 X سم، يتراوح عدد سطور صفحاتها ما بين 22 و 24 سطرا بدون تاريخ ولا اسم الناسخ، وتقع هذه المخطوطة ضمن مجموع أوله كتاب «الشمائل النبوية» لمحمد بن سورة الترمذي وقد كان من ممتلكات الخزانة الصالحية الإلغية.

169) المدرسة الأولي، ص : 112 .
170) نفسه ص : 101 .
171) نفسه ص : 105 .
172) نفسه.
173) نفسه ص : 78 .
174) نفسه.
175) نفسه ص : 15 .

ومؤلف الرسالة هو العلامة محمد بن أحمد الحضيكي المولود عام 1118هـ والمتوفى عام 1189هـ، مؤسس المدرسة الحضيكيَة بأفيلال على ضفاف وادي إيسي، أخذ عن عدة مشايخ كبار ممن عاصرهم بالمغرب والمشرق ثم عاد إلى مسقط رأسه حيثَ تفرغ للتدريس مدة طويلة،(176) ويعتبر محيي الحركة التعليمية بسوس في القرن الثاني عشر الهجري، وقد خصه أحد تلاميذه وهو عبد الرحمان بن عبد الله الجشتمي بكتاب ذكر فيه مناقبه وأحواله وأحوال تلاميذه،(177) يظهر للمطلع عليه مدى أهمية مدرسة أفيلال في تاريخ التعليم العربي بسوس. وإلى جانب التعليم ساهم الحضيكي في التأليف فخلف أزيد من ثلاثين مؤلفا في مختلف الفنون والعلوم،(178) أشهرها «الطبقات» و «الرحلة الحجازية»، و«الحاشية على صحيح البخاري».

ويتحدث الحضيكي في مؤلفه هذا عن آداب التعليم الواجب على الطالب اتباعها حتى يتوفق في دراسته. وتغيب عنده المقومات المنهجية، فلم يقسمه إلى فصول أو أفكار مرتبة؛ وإنما قيّد بحريّة تلك الآداب التي يريد أن يلتزمها طلبته، بل إن هذا المؤلّف يخلو من مقدمة أو توطئة؛ إذ تناول صاحبه موضوعه مباشرة بقوله : «ومن آداب التعليم...(179) وقد يظن المطالع أن هناك حذفا قبل هذا الكلام؛ إلا أن الأمر ليس كذلك، فقد عرف عن المؤلف إهمال التقديم لأغلب مؤلفاته، ويزكي ذلك قولُ الجشْتيمي مشيرا إلى عادته : «وكان رحمه الله بريا من التكلف، بعيدا من مظان الرياء والعجبَ،َمتفطنا لدقائق دسائس النفس والشيطان، لا يكاد يذكر اسمه في شيء من تآليفه، وقلما يضع لها خطبة، فرارا من الدعوى، وحذار من العجب والرياء، وإمعانا في الصدق والإخلاص اللذين بهما يقبل العمل».(180)

وقد بدأ المؤلف رسالته بالحديث عن ضرورة تصحيح النية في حال التعلم، وتنظيف النفس من كل وصف ذميم، «لأن العلم وعاؤه القلب فلابد من تنظيفه».(181) كما يجب على الطالب طلب العلم لامتثال أوامر الله تعالى، لا للمباهاة وطلب الدنيا، ثم ثنى بذكر الجد في التعلم، والمبادرة فيه وعدم التسويف؛ حتى تفوت الفرصة بالعوائق، مثل إقبال الدنيا أو ضيق الحال أو كثرة المشاغل.

---

176) تعرضنا لترجمته ومصادرها في المدخل لما ذكرنا مدرسته.
177) هو كتاب عبد الرحمان الجشتيمي الذي سماه العلامة المختار الحضيكيون أنظر سوس العالمة ص : 212.
178) أنظرها في سوس العالمة ص : 193.
179) ص : 1.
180) الحضيكيون ص : 14.
181) رسالة في آداب التعليم ص : 1.

وتحدث المؤلف بعد ذلك عن آداب الطالب مع شيخه، فأفاض في ذكرها، مثل التواضع له، والانقياد في الأمور، حتى يكون كالميت بين يدي غاسله أو المريض بين يدي الطبيب. بالإضافة إلى خدمته ومحبته والتذلل له، والتحرز من الإساءة إليه، خاصة عند مجالسته ... ويعتبر الحديث عن احترام الشيخ من أهم المحاور التي تناولها الحضيكَي في رسالته، حيث استغرقت صفحات، ولا عجب مادام المؤلف أستاذا يرشد تلاميذه إلى طرق التعامل معه وأمثاله من المشايخ.

ثم انتقل إلى الحديث عما يجب للطالب البدء به في دراسته فنصحه بالافتتاح «بالقرآن العظيم حفظا وإتقانا وفهما، لأنه أم العلوم وأهمها؛ ولرجاء بركته وتنوير القلب».(182) ثم يدرس علم الحديث ويأخذ في قواعد اللغة، وليحرص على الأخذ من كل علم «أحسنه وما لابد منه، لأن العلوم كثيرة لا يسمح العمر بالتبحر فيها كلها، كما عليه التدرج في قراءتها والبدء بما يطيق من الصغير للكبير...».(183)

وعدّد المؤلف بعد ذلك آداب مجلس العلم، مثل تحية الجالسين، وتخصيص الشيخ بمزيد تحية، والجلوس حيث انتهى المجلس، وعدم تخطّي الرقاب والانتقال، والتأدب مع الحاضرين والرفاق، وعدم الاستحياء من السؤال، والصلاة على الرسول ﷺ، والتّرجم على مؤلف الكتاب، والدعاء للشيخ عند القراءة وغير ذلك.

أما المذاكرة بين الطلبة فقد حبّذ المبادرة إليها عقب افتراق المجلس، قبل وقوع النسيان وخمود القرائح، ثم حدد أوقاتها، ففضل الليل؛ وأكد أهمية الرفيق فيها بقوله : «ومن سعادة الطالب وتباشير نجحه أن يرزقه الله تعالى من يذاكر معه ومن يتعلم منه فهما».(184)

وانتقل الحضيكَي إلى الحديث عن الرحلة في طلب العلم مشيرا إلى حرص الناس عليها لما فيها من فوائد جمة منذ عهد الرسول ﷺ؛ وأورد أمثلة لذلك ارتحال الشافعي إلى المدينة للتفقه على الإمام مالك ويحيى بن يحيى وابن القاسم وغيرهما.(185)

ثم تحدث بعد ذلك عن طلب العلم في الصغر وهو أفيد من طلبه في حال الكبر، والصبر على الطلب مع ما فيه من المشقة والعناء لعظم أجره، مع تجنب المعوقات كطول الأمل والاغترار بالذكاء؛ مما يؤدي إلى التراخي والانتقال من علم إلى آخر دون تحصيل المراد...

182) 183) رسالة في آداب التعليم، ص : 7.
184) نفسه، ص : 10.
185) المصدر نفسه.

وانتقل المؤلف إلى الحديث عن فضل الحفظ والاعتماد على الذاكرة، ثم حكم إعارة الكتب وحفظها ونسخها، وكيفية معاملتها بصيانتها من التلف والماء والنار والسارق والفئران وكل الآفات، لأن تضييع الكتب تضييع المال وذلك حرام.

ونصح المؤلف الطلبة بتجنب المدارس التي بناها الملوك ونحوهم تورعا «لأن مراعاة المسكن كالمأكل والمشرب والملبس لابد أن يكون طيبا؛ وأن يكون بناؤها لقصد الإعانة على طلب العلم، ويبقى العلم دائما مستمرا لا لغرض آخر..».(186)

ثم ختم المؤلف رسالته بإيراد فوائد وفتاوى أولها قوله أن تفسير القرآن موقوف على إثنا عشر فنا أحدها النحو، والثاني قوله بعدم جواز قراءة الحديث مع اللحن فيه؛ ناقلا ذلك عن أبي علي اليوسي.(187)

بعد هذا العرض السريع لرسالة الحضيكي، نلاحظ أنها ليست تأليفا بالمعنى الدقيق وإنما هي مجموعة مقيدات وفوائد جمعها المؤلف باعتباره نصائح وتوجيهات، ويظهر ذلك من الملاحظتين التاليتين :

* انتقاله من موضوع إلى موضوع دون أن يوصل بينهما، مثل انتقاله المفاجئ من الحديث عن فائدة المذاكرة، إلى الحديث عن أهمية الرحلة في طلب العلم، ثم تحوله بعد ذلك إلى ذكر فضل التعلم في الصغر...(188)

* التكرار، إذ بدأ الرسالة بذكر النية في حال طلب العلم ثم عاد إلى الموضوع نفسه قال في الصفحة الأولى : «ومن آداب التعليم أن يجتهد في تطهير باطنه من كل غل وغش وحسد وكبر... ولا يقصد استجلاب حظوظ الدنيا ولا مباهاة...» ثم قال بعد ذلك «ومن آداب العالم والمتعلم مراعاة الإخلاص في التعليم والحذر من الرياء وقصد الحظوظ العاجلة...»(189)

كما تحدث عن معوقات طلب العلم في الصفحة الأولى، فقال : «ولا يغتر بالتسويف، فإن المسوف لا يحصل على حاصل، وهو أن يطول أمله ويغتر بالزمان المستقبل، فتزيد الشواغل والعوائق، أو يغتر بذكائه، وأن يسخط، أو يتنقل من علم إلى علم قبل تحصيل مقدار ما يكفي منه، أو من كتاب إلى كتاب قبل تكميله...» ثم قال بعد ذلك : «... ومن آفاته للمتعلم طول الأمل «سيحصل» والإغترار بالذكاء فيتراخى، والإنتقال من علم إلى علم قبل أن يحصل منه المراد ومن كتاب إلى كتاب...».(190)

186) رسالة في آداب التعليم ص : 14.
187) نفسه، ص : 15.
188) نفسه، ص : 10.
189) نفسه ص : 15.
190) نفسه ص : 12.

د - **رسالة في تعليم الصبيان.**

مخطوط في أربع صفحات من القطع المتوسط مقياس 14 X 18 سم يتراوح عدد سطور صفحاتها ما بين 32 و 34 سطرا بدون تاريخ النسخ ولا صاحبه، وقد وجدت هذه النسخة أواخر مجموع بخزانة الحاج عبد الرحمان الرملي الهواري رحمه الله بأولاد تايمة بإقليم تارودانت.

ومؤلف الرسالة كما في أولها، الشيخ التقي الورع المقرئ أبو عبد الله سيدي محمد بن يديرْ الجزولي ثم أضاف في آخر المؤلف نسبة الحَامدي، وقد بحثت في مصادر ومراجع اَلتَاريخ والعلم العربي بسوس، فلم أقف على صاحبَ هذا الإسم، وهو كما نرى موصوف بالتقي والورع والإقراء مما يدل على اشتغاله بتعليم القرآن مدة طويلة، ويظهر من أسلوبه في الكتابة عدم تضلعه في العربية، فيورد أحيانا تعابير دارجة؛ فهو لذلك من جملة المؤدبين الذين قضوا أعمارهم في تعليم كتاب الله، ولم تظهر أسماؤهم في كتب التراجم السوسية التي كانت تهمل كل من لم يشتهر بالمناصب العلمية أو بالصلاح الصوفي وشطحاته، وعندما نرجع إلى كتاب رجالات العلم العربي في سوس نجد ذكر ثلاث شيوخ ممن سموا بالإسم نفسه أي محمد بن يدير أولهم التغلولويي المجاطي من أصحاب أحمد بن موسى السملالي،(191) وثانيهما السملالي التكضرانتي الواعظ،(192) وثالثهم العمري الساحلي(193) بينما ينتسب مترجمنا إلى أيت حامد، وإذا راجعنا تراجم الحامدين في المعسول نجد رجالاتهم الأوائل يحمل نفس الاسم نفسه أي محمد بن يدير، ويعرف بالغازي وقد عرف في التاريخ بجهاده للبرتغال أوائل قيام دولة السعديين (توفي : قبل 970هـ)(194) ولو كان هو المقصود لوصفه ناسخ الرسالة بالغازي عوض القارئ الورع التقي.

قسم المؤلف رسالته حول تعليم الصبيان إلى مقدمة وتسعة فصول خص كل منهما بموضوع معين كالتالي :

* **مقدمة** : تحدث فيها عن أسباب التأليف فقال : « قد سألني بعض أصحابنا عن تعليم الصبيان القرآن الذي لا يحيط به معلم له؛ وإنما نذكر لكم من ذلك إن شاء الله ما علمني الله منها لاجتهادنا مع توفيق الله...»،(195) ثم ذكر شروط التصدي للتعليم وهي : النية والإخلاص والنصيحة والالتزام والتسوية بين الصبيان والاجتهاد.

---

191) رسالة في آداب التعليم ص : 54.
192) رجالات العلم العربي في سوس ص : 55.
193) نفسه ص : 137.
194) المعسول 8/ 25.
195) رسالة في تعليم الصبيان ص : 1.

* **الفصل الأول** : في ابتداء تعليم الصبيان، أي تحديد السن التي يمكن فيها افتتاح التلاميذ القراءة، وطريقة معاملتهم حتى يألفوا الكتّاب ويحبوا القدوم إليه؛ ويكرهوا البقاء في الدار. وأول ما يتعلمون البسملة والصلاة على الرسول ﷺ، ثم أحرف الهجاء حتى سن السابعة، وحينئذ يتم التدرج في القراءة. وقد قسم المؤلف تربية الصبيان إلى «ثلاثة أقسام : ثلث منها أمير وهي تربية أمه وهي سبع سنين؛ وثلث وزير وهي التي يرشد فيها عقله ويشاوره أهله في أمر قراءته؛ وثلث أسير وهي تربية معلمه الأدب والعلم وهي سبع سنين».(196)

* **الفصل الثاني** : في بيان شروط تعليم الصبيان. عدد المؤلف في هذا الفصل ما يجب على المعلم التحلي به من أخلاق وآداب ومعاملات تجاه تلاميذه؛ كالانعزال عنهم وعدم مضاحكتهم وعدم تسخيرهم لقضاء الحوائج حتى يهابوه. كما يجب عليه أن يعزلهم عن خلطة الناس، وعن الأكل والشرب أطول زمن ممكن حتى يحفظوا ألواحهم؛ وعلل ذلك بقوله : «ليكون ذلك عندهم عادة ويسبقون بحفظهم لذلك الوقت، وأما إن تعلقت قلوبهم بالأكل والاستراح قبل تحصيل الفائدة، فكان ذلك شريكا للقراءة، والقراءة ضرة لا تتحمل الضرة».(197)

* **الفصل الثالث** : في بيان ما يصلح للصبيان من الضرب والشتم وما لا يصلح. ميز المؤلف بين الطباع المختلفة للمتعلمين بحيث تجب معاملة كل منهم بما يناسبه؛ فمن ناسبه الضرب ضرب، ومن ناسبه الشتم شتم. كما أشار إلى اختلاف الصبيان في صلاح الأوقات للقراءة، فهناك من تصلح له القراءة ليلا وهناك من تصلح له نهارا، وعلى المعلم تيسير كل لما يوافقه... ويختم المؤلف هذا الفصل بتحذير المعلم من : «... كثرة النوم، وتصريف الهمة لأشغال الدنيا لأن ذلك يؤدي إلى التفريط فيما أنت عليه أجير، وإنك تزعم الوفاء بالعهد بحضورك مع تضييع ما اشترط عليك بل قد غررت وغششت والله ما استأمنك فيما لا يجوز فيه الغش والغرر من وجهين من قراءة القرآن وكسب الحلال وانتفاض العهد، (إن العهد كان مسؤولا) فهذا شرط من الشروط اللازمة في تعليم الصيان».(198)

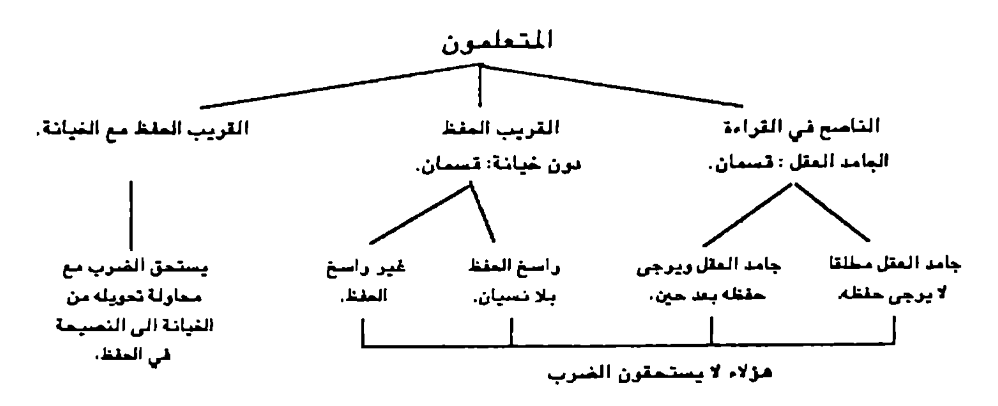
* **الفصل الرابع** : في اختبار كيود الصبيان والكسل عند قراءة القرآن. ينصح المؤلف المعلم بامتحان المتعلمين والتفريق بين الناصح وغير الناصح، والتفرغ للأخير الذي يظهر منه التقصير والكيد وذلك أنه :«يبدأ أولا في قراءته أولا بالترتيب ثم يجري... بغير ترتيب إلى تمام اللوح، ولا ينظر إلى الجواب إن وقفت له آية ... وينكس القراءة كيفما أمكن له ولا

---

196) رسالة في تعليم الصبيان، ص : 2 .
197) نفسه ص : 2.
198) نفسه، ص : 2، والآية 34 من سورة الإسراء.

يلتفت لما غيّر من النصب والخفض والرفع وغير ذلك مما لا يجوز فعله من اللّحن والتقديم والتأخير في الألفاظ»،(199) وقد سمى المؤلف أمثال هذا المتعلم بالخوّانين أصحاب الكيود وندب المعلم إلى الاهتمام بهم حتى لا يغلب كيدهم كيده.

* **الفصل الخامس** : في بيان من يستحق الضرب من الصبيان ومن لا يستحقه، عاد المؤلف إلى تناول الموضوع الذي طرق في الفصل الثالث بتفصيل، فقسم التلاميذ إلى ثلاثة أقسام على الشكل التالي حسب استحقاقهم الضرب :



* **الفصل السادس** : في ترتيب أوقات قراءة الصبيان ألواحهم بين الليل والنهار. ذكر المؤلف في هذا الفصل الأوقات التي يجب أن يقرأ فيها التلاميذ ألواحهم ويحفظوها فيبدؤون يوم الجمعة إلى غدوة السبت بحفظها جيدا من الوجهين، لأن ذلك أساس حفظ الألواح في الأيام الخمسة المستقبلة إلى يوم الخميس؛ وفي كل يوم يقرؤون صباحا وبعد الظهر حتى العصر، فيستريحون فترة ثم يعاودون حتى المغرب، ثم بعده إلي قرب ثلث الليل، فينامون ثلثه الأوسط ويستيقظون ثلثه الأخير.

ولتنشيط الصبيان نصح المؤلف بتغيير أماكنهم فلا يجلس أحدهم في مكان معين دائما، وإنما يجلس كل مرة في مكان أمام المعلم فتارة عن يمينه وتارة عن شماله.(200)

* **الفصل السابع** : في بيان الاستخلاف لتعليم الصبيان لقراءة القرآن. بعد أن أطنب المؤلف في الحديث عما يجب على المعلم أن يقوم به تجاه تلاميذه، يتحدث في هذا الفصل عن واجبه تجاه مهنته؛ والمقصود بالاستخلاف استنابة المعلم خلفا يقوم مقامه عند غيابه عن الكتّاب لسبب ما، ونبه إلى ضرورة محافظة المستخلف على شروط التعليم، بأن يكون سالما

---

199) رسالة في تعليم الصبيان، ص : 2 .
200) نفسه.

من اللحن في قراءته. ومطلعا على سياسة الصبيان لاختلاف طبائعهم وإلا أدى استخلاف من لا علم له إلى تضييع الأمانة، والتفريط في المهمة.(201)

* **الفصل الثامن** : في بيان ما يؤخذ من يد الصبيان الصغار وما لا يؤخذ، ويتعلق الأمر بالهدايا التي قد يأتي بها التلاميذ لمعلمهم، وينصح المؤلف بتنزيه النفس عن أخذ ما يأتي به الصبيان ولو كان شق تمرة، لأن ذلك رشوة، ولأنه لا يجوز قبول هدية الصبي. أما ما يجوز أخذه منهم فهو ما يأتي به التلميذ «من قبل أبويه إذا جرى به العرف أو الشرط كطعام النوبة أو اللبن، أو كانت عادتهم أن ياتوك به في بعض الأوقات».(202)

* **الفصل التاسع** : في بيان الاستفتاح. ويعني توقف المتعلم في بعض الآيات أو نسيها عند عرض الألواح على المعلم، فينصح المؤلف بعدم مساعدته، بل بتركه والتثريب عليه حتى يجتهد في تذكر ما توقف فيه، وإن لم يتذكر فعلى المعلم تنبيهه مع شتمه وضربه، مع اجتناب الكلام الفاحش وسب الأباء والأمهات، ويختتم هذا الفصل بنصح المعلم بالمساواة بين تلاميذته فلا يلهيه بعضهم عن بعض، ولا يفضل أحدهم على الاخر، مشيرا إلى صعوبة تعليم الصبيان بقوله : «لأن ذلك أصعب من كل صعب وذلك بأن ترضى بخدمة بالفأس في صخرة صمّاء، أولى من تعليم الصبيان لما فيه من التعب والنصب والصعاب، فإن كنت تشك في ذلك فجربها عشرة أيام باستيفاء الشروط المذكورة والتزام الأوقات من غير فترة كما ذكرناه لك أولا، وإنما في ذلك لمن قدر عليه خير الدنيا والاخرة ولو اتخذ عليه أجرة».(203)

ونلاحظ من خلال هذا العرض أن المؤلف اعتمد في رسالته على تجربته الخاصة في ميدان التعليم التي يبدو أنها استمرت طويلا، فقد انعدمت عنده الاستدلالات بالنصوص كيفما كانت، فجاءت الرسالة ثمرة لمعاينة يومية لنفسية التلاميذ وتصرفاتهم، وتجلى ذلك في تمييزه بين أصنافهم وتحذيره من كيودهم، كما تجاوز الاعتقاد بأن العقاب أولى وسائل التعليم، وهو ما كان سائدا عند عامة المودبين والمعلمين، ورأى أن الأفضل الاحتيال في معاملة الصبية، فيذكر في الفصل الأول كيفية تحبيب الكتّاب لهم، بإهدائهم من الطرّف كالثمر والزبيب واللوز، وبصرفهم منه مبكرا حتى تتعلق قلوبهم بالجوع إليه، وفي الفصل الخامس يتناول تعليم جامد العقل بالحيلة فيقول : قد يدرك بالحيلة ما لا يدرك بالجهد.(204)

201) رسالة في تعليم الصبيان، ص : 2 .
202) نفسه ص : 4.
203) نفسه، ص : 4.
204) نفسه، ص : 2.

ومن أفكاره الفذة أيضا زرع الثقة في نفوس الصبية جامدي العقل مطلقا بأن يشكر لهم المعلم حفظهم، ويمتدح أعمالهم في القراءة فيما بينه وبينهم، بحيث لا يسمعه بقية التلاميذ حفاظا من سخرية زملائهم واستخفافهم.

يضاف إلى ذلك نصحه المعلمين بالورع والابتعاد عن الحرص والطمع، وعدم معاملة التلاميذ حسب غنى أوليائهم أو فقرهم، فكل من أتاه بهدية اهتم به وأقصر عن ضربه وأحسن إقراءه، وقد قال المؤلف عن أمثال هذا المعلم : «فصارت معاشرتك كمعاشرة الكلب، فمن يأتيك بلقمة تعرفه ومن لم يأتك بها تنكره».(205)

ومن هذه الأفكار يظهر تورع المولف وعمق تجربته في ميدان التربية وهو القائل لما ذكر مسألة تعليمية «فهذا مما جربناه فوجدناه صحيحا...»،(206) وعلى أكتاف أمثال المؤلف قامت الحركة التعليمية السوسية حيث كانوا يزودون المدارس العلمية بخلاصة عملهم من الطلبة حافظي القرآن الطامحين إلى الاستزادة من العلوم.

205) رسالة في تعليم الصبيان، ص : 4.
206) نفسه ص : 3.

الفصل الثاني
النظام الإداري والتعليمي في المدرسة الإلغية

المبحث الأول : النظام الإداري.

1 – علاقة الأساتذة بالمدرسة.

2 – علاقة التلاميذ بالمدرسة وأساتذتها.

المبحث الثاني : النظام التعليمي.

1 – العلوم والفنون المتدارسة بالإلغية.

2 – المناهج الدراسية بالإلغية.

المبحث الأول : النظام الإداري :

انفردت المدرسة الإلغية بين أغلب المدارس السوسية بتأسيسها على يد فرد واحد، بعكس ما هو معتاد من تأسيس المدارس برعاية القبيلة وإشراف النفاليس؛ المكلفين بمصاريفها وبمشارطة الأساتذة وبمؤونة الطلبة.

ولما كانت قبيلة أيت عبد الله أو سعيد لا تتوفر على نظام النفاليس العرفي ولا على باقي الأنظمة العرفية بسبب طبيعتها المرابطية، فإن قيام فرد واحد من أفرادها بإنشاء المدرسة، باعتبارها مؤسسة قبلية، عمل خارق للعادة، إذ إن مثل هذه المؤسسة لا يمكن أن يقوم بها فرد واحد «من غير أن يحتاج فيها إلى من يعينه ... لقلة المال ولكزازة النفوس...».(207)

إلا أن محمد بن عبد الله إستطاع بفضل طموحه الواسع وإصراره أن يقيم مدرسته ويحافظ عليها بضع سنين حتى أناءه الحمل، فأعانه إخوانه المرابطون وجيرانهم بالأعشار والصدقات والهدايا، ولم يكن لهم بعد ذلك أي إشراف أو تدخل في إدارة المدرسة وتسييرها لأن ذلك موكول إلى صاحبها، الذي يدفع للطلبة مؤونتهم ويوفر لهم السكن ويقوم بالتدريس. وقد يشارط بعض الأساتذة حرصا منه على استمرار الدراسة عند انشغاله عنها.

1 - علاقة الأساتذة بالمدرسة :

تتكون هيئة التدريس بالإلغية كما في باقي المدارس السوسية من أستاذ يشرف على إقراء الطلبة، وربما اتخذ معينين إن كان عدد تلاميذه كبيرا. وكان أصحاب المدرسة من الأسرة الصالحية يشرفون على التدريس بمدرستهم ويلجؤون إلى مشارطة الأساتذة إن شغلتهم المشاغل عن الدراسة، كما أن أساتذة اخرين ينتابون بين حين وآخر المدرسة فيدرسون بها، باعتبارهم أساتذة زائرين. فهذه الفئات الثلاث هي التي تصدرت للإقراءات بالإلغية، وسنتطرق لكل واحدة على حدة لنتبين أثرها في الحفاظ على سير المدرسة.

أ - الأساتذة من أصحاب المدرسة :

بنى الأستاذ محمد بن عبد الله الإلغي مدرسته، وتفرغ للتدريس بها، بعد أن جمع حوله بعض صغار الطلبة الإلغيين يعلمهم القرآن، ثم تدرج بهم في قراءة العلوم. وعند ذلك التحق به الطلبة الأفاقيون من القبائل المجاورة، فسار معهم بجد واجتهاد في

---

207) محمد المختار السوسي مدارس سوس العتيقة. نظامها - أساتذتها ص 57.

التدريس. ولما توفي أخذ أخوه علي بن عبد الله الإلغي مكانه، وتوالى أولاده بعده على المدرسة. ويعتبر الأستاذ صاحب المدرسة ذا سلطة مطلقة في مباشرة شؤونها الخارجية الخاصة بالموارد الاقتصادية؛ أو الداخلية المتمثلة في التدريس وتنظيم الطلبة؛ فله وحده النظر في قبول الطلبة الحالين بالمدرسة، أو صرف المرتحلين عنها؛ وافتتاح الدراسة للطلبة الجدد، وتنظيمهم وفق طبقات الدراسة؛ كما أنه هو الذي يعيّن الطلبة المعاونين في إقراء المبتدئين؛ حتى يتفرغ للدروس العليا ويكتفي بالإشراف من بعيد. كما أنه المسؤول عن حل خلافات الطلبة فيما بينهم وتوفير المؤونة والسكن لهم، فيحتفظ بمفتاح هُري المدرسة الذي يحفظ فيه المؤن، وهكذا يجمع الأستاذ إليه كل المسؤوليات مستبدا بكل الشؤون الإدارية والتعليمية.

ومن الأساتذة الإلغيين الذين جمعوا بين الإشراف على المدرسة والتدريس بها :

1 - محمد بن عبد الله بن صالح الإلغي (1265 - 1303هـ) مؤسس المدرسة(208) والمشرف عليها مدة سبع سنين.

2 - علي بن عبد الله الإلغي (1275 - 1347 هـ) تولى أمر المدرسة بعد وفاة أخيه مدة خمس وأربعين سنة (209) وصلت فيها الإلغية إلى مقامها العالي بين المدارس السوسية، وقد قضى في الإقراء بها بنفسه إحدى عشرة سنة (1304 - 1318 هـ) قبل أن ينشغل عنها بحروب الكفاح والمجاذبات بمعية الأمراء الصحراويين، وبالقضاء وفض النوازل، ثم(210) عامين آخرين بعد مغادرة التاجرمونتي.

3 - المدني بن علي الإلغي (1312 - 1365 هـ) أسند إليه أبوه أمر المدرسة من بين إخوته الستة بوصية منه قبيل وفاته وكان أحق بها؛ رابض بها صابرا مجدا متحمسا للتعليم؛ في زمن خربت فيه المدارس؛ حتى وفاته،(211) وكان أبوه يعده لخلافته، إذ أسند إليه أمر المدرسة في أيامه الأخيرة.

4 - الحسن بن علي (1328 - 1408هـ)(212) : درس بالإلغية على محمد أولموش الباعمراني الذي كان يعين الأستاذ أحمد اليزيدي المشارط هناك في تلك الفترة، ثم قرأ بمدرسة اْفَلاَّ اوكُنْسْ بإذن والده عند خريج الإلغية أحمد بن سعيد الاكماري، ثم راجع مدرسة أهله لدى أخيه المدني ولما توفي آلت إليه المدرسة، فقام بالتدريس بها من سنة 1365 هـ حتى انتقاله للعمل بأحد فروع المعهد الإسلامي بتارودانت عام

208) أنظر ترجمته بالفصل الأول من الباب الأول.
209) المعسول 1/ 326.
210) أنظر ترجمته بالمعسول 325 وما بعد.
211) أنظر ترجمته بالمعسول 2/ 124.
212) أنظر ترجمته بالمعسول 2/ 213، وتاريخ وفاته بشعر داود الرسموكي لليزيد الراضي ص : 426.

1378هـ..(213) وفي عـهـده أفل نجم المدرسـة وخلت من مظاهر الدراسـة الجادة التي حافظ عليها سلفه.(214)

5 - الطاهر بن علي (1326 - 1390هـ) :(215) قرأ بالإلغية على أحمد اليزيدي ثم صحب أخاه المدني إلى مدرسة الأخصاص؛ وانتقل بعد ذلك إلى تانكرت عند الأستاذ الشاعر الطاهر بن محمد الإفراني وابنه محمد؛ ثم عاد إلى الإلغية؛ وبعد تخرجه تنقل في المشارطات والمهام الإدارية في المحكمة العرفية بمركز تافراوت(216) وبعد الاستقلال عاد إلى مدرسة سلفه يعين أخاه الحسن فيها وذلك عام 1376هـ يزجون الأوقات بتعليم القرآن ومبادئ العلوم؛ وقد خلت المدرسة من طلبة الطبقة العليا وحتى المتوسطة ولبث هناك إلى عام 1379هـ لـمّا انتدب للتدريس بفرع المعهد الإسلامي بتامكَروت.(217)

ب - الأساتذة المشارطون :

بنيت المدرسة الإلغية من أول يوم على أساس قيام أصحابها بالإقراء فيها؛ إلا أن انشغالهم بالقضاء وبالشؤون السياسية المحلية خاصة الأستاذ علي بن عبد الله الإلغي، حتّم عليهم مشارطة أساتذة يقومون عنهم بعبء التدريس، وكان هؤلاء الأساتذة المشارطون يتلقون من أصحاب المدرسة أجرة سنوية نظير خدماتهم التعليمية(218) كما يخصص لهم مكان للإقامة؛ ويشاركون الطلبة طعامهم الساذج الخشن(219) صابرين علي اللاواء؛مثل الأستاذ أحمد اليزيدي الذي «... تأتي إليه خادم المدرسة بكسكسو في صفحة عود؛ ولم يستتم الكسكسو النضج بعد؛ وقد تراكم عليه ما تيسر من الخضر؛ لفتا أو أوراقه أو بصلا، فلا يزيد على أن يتناول شيئا قليلا من إناء السمن الذي ترسله إليه زوجه من داره فيدهن به الخضرة، فيتناول من ذلك قليلا...».(220)

---

213) المتوكل عمر الساحلي - المعهد الإسلامي والمدارس العتيقة بسوس 2/ 217.
214) راجع الفصل الثالث من الباب الأول.
215) أنظر ترجمته بالمعسول 2/ 204 وتاريخ وفاته بالمعهد الإسلامي والمدارس العتيقة 2/ 33.
216) المعسول 2/ 207.
217) المعهد الإسلامي والمدارس العتيقة 2/ 33.
218) الأجرة السنوية عبارة عن كمية من محصول البلد (الشعير) وقدر من الإدام (السمن) وتتراوح كمية الشعير ما بين خمس غرارات وهي كانت أجرة الأستاذ أحمد اليزيدي؛ كما حدثني الأستاذ الفقيه عبد الرحمان الرسموكي الجعفري، وخمس وعشرين غرارة كما جاء في المعسول 1/ 233 وهي أجرة مشارطة الشيخ علي الدرقاوي، والغرارة وحدة قياس تحوي واحدا وعشرين صاعا، وهي لغة الجواليق.
219) أنظر المبحث الثاني من هذا الفصل.
220) المعسول 2/ 345.

ويكتفي الأساتذة بهذا الطعام القليل، وربما استدعاهم بعض طلبتهم الأغنياء إلى طعام يستطيبونه لهم،(221) أو يستضيفهم صاحب المدرسة في بيته فينة بعد فينة. وحينما تنقضي السنة المتفق عليها يجدد المشارط عقدته أو يصرف له أجره إن رغب في المغادرة.

وبسبب ضيق عيش هذه البلاد وقلة مواردها وغلبة الجفاف على مناخها، لا يستطيع صاحب المدرسة في بعض الأحيان، خاصة أثناء المساغب، دفع أجرة الأساتذة في وقتها المحدد، كما وقع للأستاذ علي بن عبد الله مع مشارطه أحمد اليزيدي حينما شارط بالإلغية للمرة الثانية عام 1345 هـ ثم لما أراد المغادرة طمع«... أن يتوصل بأجرته ليقيم بها أوده، ولم يجد عنها مناصا، والأستاذ أبو الحسن ربما عراه ضيق، لا يقدر معه على أداء ما وجب، فظن ... أنه مليء؛ ومطل الغني ظلم، فأعلن أنه مظلوم، فقابله الأستاذ بما قابله به، حتى حضر مجاطيون إلى الفريقين تقوية واستعانة، فكانت مجاذبة أدت إلى مقاسمه الصبر، فأعطى أبو الحسن البعض، وصبر الأستاذ في البعض تأجيلا إلى أن يخصب الناس...».(222)

وبحلول الأستاذ المشارط بالمدرسة يتخلى صاحبها عن بعض مسوولياته؛ فهذا علي بن عبد الله الإلغي لما شارط تلميذه التاجر مونتي اكتفى بالنظر في أمر الطلبة الحالين والمرتحلين عن المدرسة وفي ألا يكون افتتاح الدراسة من أول يوم إلا بإذنه الخاص.(223) أما غير ذلك ففوضه لمشارطه الذي «استقل إذ ذاك بكل ما في المدرسة من الدراسة العليا، فاتخذ معينين له من نجباء الطلبة، وكان إليه المرجع في تنظيم طبقات التلاميذ وهو الذي يتكلم فيهم وإليه مقاويدهم، فيهذب ويؤدب، ويرشد ويعظ...».(224)

وبقي لصاحب المدرسة إلقاء بعض الدروس العليا كلما وجد متسعا من الوقت.

وقد بلغ عدد المشارطين بالمدرسة الإلغية منذ تأسيسها ستة عشرة أستاذا وهم :

1 - الحاج محمد اليزيدي(225) (قبل 1250 - 1309 هـ) : درس على الشيخ العلامة أحمد الجشتيمي وعليه تفقه وبه تخرج، شارط في الإلغية مرتين : الأولى عندما انشغل المؤسس محمد بن عبد الله بالقضاء وذلك عام 1301هـ وبقي بها سنتين حتى

221) أنظر المبحث الثاني من هذا الفصل.
222) المعسول 9/ 346.
223) المعسول 9/ 174.
224) نفسه 9/ 9.
225) المصدر نفسه.

راجعها صاحبها؛ والثانية عام 1303هـ لما استدعاه الأستاذ علي بن عبد الله بعد وفاة أخيه، للأخذ عنه، وقد ذكر ذلك أحمد بن محمد اليزيدي فقال : «... كان الشيخ أبو الحسن له محبة خاصة زائدة في الوالد ولما مات أخوه شيخ الشيوخ العالم العلامة القدوة سيدي محمد بن عبد الله؛ ذهب إلى والدي فقرأ عليه بعض العلوم بداره ببلدنا كالحساب والميراث، فرجع فأتى به إلى مدرسة تحت الحصن بإلغ فلازمه هو وجّل طلبة أخيه...».(226)

2 - الشيخ علي بن أحمد الدرقاوي(227) (1286- 1328هـ) شيخ الطريقة الدرقاوية بسوس ومؤسس زاويتها بإلغ، قرأ العلوم بمدرسة تنالت والمولود وتازروالت وتانكرت، ثم لقي شيخ الطريقة الدرقاوية بسوس سعيد المعدري فتلقن منه ورْدها، وعاد إلى قراءة العلوم بمدرسة أدوز ولبث بها حتى تخرجه ثم تقلب في فض النوازَل والتجارة والمشارطة،(228) غير أنه مالبث أن انقضت عليه الطريقة الصوفية ثانية، فطلق كل مشاغله وانصرف للسياحات في سوس وجبالة حيث زار ضريح شيخ الطريقة بالمغرب مولاي العربي الدرقاوي وذلك أواسط 1299هـ، ثم إلى فاس وسلا وغيرها من الحواضر(229) وبعد وفاة شيخه رجع إلى بلده وأسس به زاويته وتصدر لتربية المريدين؛ والسياحة في مناطق سوس والحوز والصحراء للإرشاد وتصحيح العقيدة؛(230) وفي هذه المدة شارط في المدرسة الإلغية بطلب من مؤسسها المرتحل إلى مراكش حيث توفي؛ فبقي الشيخ الدرقاوي بها حتى استطاع علي بن عبد الله القيام بها، فكان للشيخ الفضل في المحافظة على المدرسة من الاندثار.

3 - بلقاسم التاجرمونتي(نحو 1284 -1364هـ) : من تلاميذ المدرسة الأوائل التحق بها بعد تأسيسها بسنة واحدة، وأخذ معارفه عن محمد بن عبد الله وأخيه علي؛ ولما تخرج حاول مزاولة النوازل فكبا،(231) لذلك التحق بالمدرسة مشارطا أوائل عام 1312هـ بدعوة من أستاذه، فكان أولا يدرس بصفة معين؛ يعلم بعض الطبقات الابتدائية؛ ثم لم تزل تتسع دائرة تدريسه والأستاذ الإلغي يحيل عليه مهام الإقراء شيئا فشيئا إلى أن توسطت

226) والد العلامة المختار السوسي أنظر ترجمته بالمعسول 1/ 184 وما بعد وأجزاء كتاب من أفواه الرجال، وكتاب الترياق المداوي وكلها لابنه المختار السوسي.
227) أنظر ترجمته بالمعسول 6/ 306 وما بعد.
228) المعسول 1/ 196 - 197 - 198.
229) المصدر نفسه : ص 210 وما بعد.
230) نفسه، ص : 226 وما بعد.
231) أنظر تفاصيل ذلك في المعسول 9/ 9.

سنة 1314هـ، فاستقل إذ ذاك بتدريس جميع الطبقات.(232) ولهذا الأستاذ الفضل الأكبر فيما بلغته الإلغية من ظهور وشفوف علمي بين المدارس السوسية.(233) وقد تخرج منها على يديه نحو سبعين طالبا.(234)

4 – أحمد بن الحاج محمد اليزيدي (1303 – 1364 هـ) : من تلاميذ الإلغية أيضا وأبوه كان مشارطا بالمدرسة أول أمرها، التحق بالمدرسة طالبا عام 1318هـ، وتنقل بينها وبين عدة مدارس حتى استتم معارفه، ثم ندبه أستاذه أبو الحسن للمشارطة بإلغ بعد أن غادر الأوفقيري المدرسة، فبقي بها سنتين (1338 – 1340هـ) ثم غادرها ليعود إليها عام 1345هـ ويقضي بها تلك السنة.(235)

5 – علي بن صالح الأوفقيري (1307 – 1364هـ) من تلاميذ الإلغية إلتحق بها عام 1327 هـ وغادرها عام 1333 هـ متخرجا، ثم طلب منه الأستاذ علي بن عبد الله الالتحاق بها لتعليم ولديه الطاهر والحسن وإقراء بعض الأنصبة للطلبة بعدما رحل التاجرمونتي عام 1335هـ ولبث الأوفقيري هناك سنتين (1335 هـ – 1337هـ) غادر بعدها.(236)

6 – عبد الله بن إبراهيم السعيدي (1309 – 1384هـ)(237) من تلاميذ المدرسة أيضا في مبادئ أخذه، استتم على تلاميذ المدرسة الكبار من أمثال الشيخ عبد الله بن محمد الإلغي بمدرستي أدَايْ وَإِيغشَّانْ، وبعد تخرجه اشتغل بالمشارطات وكان أحد تلاميذ الإلغية القلائل الذين درسوا فيَ مدارس خارج سوس وقد شارط بالإلغية وصاحبها حينئذ الأستاذ المدني بن علي ولبث بها سنة واحدة (1352هـ).(238)

7 – عبد الله بن محمد بن عبد الله الإلغي (1298 – 1384هـ).(239) شغرت المدرسة الإلغية بعد مغادرة أبناء الأستاذ علي بن عبد لله الإلغي لها، فانتقل إليها ابن مؤسسها عام 1379 هـ بعدما يقرب من نصف قرن من قيامه مطالبا بها. وقد قال العلامة المختار في هذا الصدد : «ثم إنه اتصل بمدرسة والده بعدما غادرها سيدي الطاهر بن علي بن عبد الله إلى تامكَروت، فهو يوالي الدراسة مع ثلة من الطلبة يتناوبونها، على ضعف في

232) المعسول 9/ 10.
233) أنظر في ذلك، المصدر نفسه ص : 7.
234) مترعات الكؤوس ص : 365.
235) أنظر ترجمة اليزيدي المفصلة في المعسول 9/ 167 وما بعد،
236) أنظر ترجمة الأوفقيري بالمعسول 9/ 167 وما بعد.
237) أنظر ترجمته بالمعسول 2/ 335 تاريخ وفاته بكناشة الجد أحمد بن إبراهيم السعيدي مخطوطة،ص: 80.
238) المعسول 2/ 338.
239) أنظر ترجمته بالمعسول 2/ 156 تاريخ وفاته بكناشة الجد ص : 76.

جسم الشيخ...»(240) غير أنه ما لبث أن غادر المدرسة مغاضبا بسبب خلافه مع أصحابها.(241)

8 - محمد بن علي بن عبد الله الإلغي(1306 - 1386 هـ):(242) الملقب بابن الفقيه الأديب النابغة صاحب الكناشة الأدبية،(243) بدأ الدراسة العليا بالمدرسة الإيغشانية نحو 1321هـ، ثم انتقل عام 1326 هـ إلى أَدَايْ رفقة أخيه لأمه عبد الله بن محمد المتقدم الذكر، ثم انتقل إلي بومروان عند الشيخ العلامة الطاهر الإفراني وصاحبه بعد ذلك إلى تانكرت عام 1331 هـ ثم انتقل إلى الإلغية «وكل حياته بعد ذلك إنما هي في إدارة الشؤون والقيام على العبيد والسفر معهم، والمراقبة على الدخل والخرج، إلى أن توفي والده سنة 1347هـ، فأقبل على المشارطات في المدارس كالجشتيمية التملية والوفقاوية ثم الإلغية أخيرا بعد أن غادرها أخوه عبد الله بن محمد».(244) وبقي بها حتى وفاته. وكان الأستاذ محمد بن علي يعين أخاه المدني عند قيامه بالتدريس.(245)

9 - المحفوظ بن محمد بن علي : درس على أبيه في المدرسة الجشتيمية حيث تدرج في المتون وبعد وفاة والده شارط في الإلغية ثم غادرها إلى أَدَايْ.(246)

10 - صالح بن عبد الله بن محمد (1343هـ) : حفيد مؤسس المدرسة والبقية الباقية من العلماء والشيوخ الإلغيين ، افتتح المبادئ على أبي العباس أحمد اليزيدي في المدرسة الوفقاوية، ثم لازم والده حتى تخرج به، وانقطع بعد ذلك للمشارطة في المدارس؛ فكان بتاسريرت وتازموت السملالية(247) وغيرهما إلي أن انتقل لمدرسة جده فبقي بها حوالي أربع سنوات (1387 - 1390هـ) ثم غادرها بعد أن منعه أصحابها أجرته إلى مدرسة سيدي وكَاكَ بأكَلو، ثم إلى مدرسة دُودْرَارْ الرسموكية التي غادرها عام 1412هـ وكان آخر الإلغيين تدريسا بالإلغية.

11 - البشير بن الطاهر بن محمد الإفراني(1364هـ) : قرأ بمدرسة أسلافه بتانكرت على أخيه محمد وابن أخيه المدني مدة خمسة عشر عاما تصدى بعدها للمشارطة، فبدأ بمدرسة أفيلال الحضيكية، ثم مسجد تغجيجت، فبيزكارن، ثم أمسرا،

---

240) المعسول 2/ 189 - 190.
241) أنظر الفصل الثالث من الباب الأول.
242) أنظر ترجمته بالمعسول 2/ 191 تاريخ وفاته بكناشة الجد ص : 73.
243) ذكر المختار السوسي هذه الكناشة وقال أنه استفاد منها كثيرا في مؤلفاته، المعسول 2/ 203.
244) المعسول 2/ 202.
245) حدثني الأستاذ أحمد بن زكرياء السكال أنه استفاد من الأستاذ محمد بن علي أثناء أخذه بالإلغية خاصة عند انشغال الأستاذ المدني بمجاذبة شيخ المرابطين حول الأعشار.
246) المعسول 2/ 202.
247) المصدر نفسه ص : 218.

فـالمدرسـة الإلغـية، حـيث بقي بضـعـة أشـهـر، ثم غـادرها إلى مـدرسـة تيـمـولاي عـام 1393هـ.(248)

12 - الحاج امحمد أبناو الإيغشاني (1318 - 1415هـ) : من تلاميذ الإلغية أيضا أخذ فيها عن الأستاذ أحمد بن محمد اليزيدي، ثم بعد تخرجه جال في ميدان المشارطات، وكان كثير التنقل بين المدارس والمساجد(249) حتى ألقت به الأيام إلى الإلغية زمان موتها، يزجي فيها الأيام مع ثلاثة طلبة أحدهما ولده، وقد لبث بها سنة واحدة حوالي عام (1394هـ).(250)

13 - الحاج ابراهيم أوسايًا الإيموكَاديري (1343هـ - 1406هـ) المقاوم : درس مع أخيه على والده في مبادئه، ثم انتقل معهاَ إلَى مدرسة أيت رخا حيث أخذ، وهو دون أخيه القاضي محمد بن الحسن في معلوماته،(251) لانشغاله بأمور المقاومة ومكايدة سلطات الحماية.(252) وبعد الاستقلال انغمس في غمار المجاذبات السياسية؛ شارط في المدرسة الإلغية سنة واحدة، بعد ما شغرت من الأساتذة سنتين متواليتين وذلك حوالي عام 1397هـ.

14 - الحاج علي بن سعيد الإكْمَاري (1372) : ولد بانكران إحدى قرى إدَاوْكَكْمَارْ وأخذ المبادئ عن الشيخ محمد بن أحمَد التَّضكُوكْتي الأكَمَاري وأخيه محمدَ بن خالد التضكوكتي، استتم حفظ القرآن على الشيخ محمَد بن عبدَ الله التَّالُوسْتي، ثم ابتدأ الدراسة العلمية على الأديب الفقيه داود الرسموكي بالمدرسة نفسها، وانتقلَ بعدها إلى مدرسة علال بهشتوكة لدى الشيخ محمد بن محمد البُوشيكْري، كما أخذ عن الشيخ الحاج عيسى بمدرسة فُوكَرْضْ بأيت صواب، والفقيه علي بنَ الحَسين الكرموني المجاطي بتازروالت، وتوج أخذه بالتخرج علي يد العلامة أحمد بن محمد بن الحسن البوشواري بمدرسة سيدي عبلا بأيت وادريم، ثم وجهه شيخه هذا للمشارطة بمسجد بإدَاوْزكي عام 1396، ثم تحول إلى الإلغية حيث قضى أحد عشر عاما من عام 1397هـ-1977م حتى 1408هـ- 1988م، ثم انتقل إلى مدرسة أمسرا بإفران خلفا لأستاذها العلامة محمد بن أحمد الأمسراوي (يونيو 1988).(253)

248) المعسول 7/ 236 والمعهد الإسلامي والمدارس العتيقة بسوس 4/ 255.
249) أخبرني بذلك الأستاذ الحسن بن الحبيب بن علي الإلغي عندما قابلته بمنزله بتارودانت.
250) تواريخ المشارطات الأخيرة تقريبية اعتمدت فيها على المدد التي قضاها المشارطون بالمدرسة لانعدام تقييدات مضبوطة إلا ما كان من ورقة زودني بها الأستاذ محمد بن الحسين الصالحي المقيم بتزنيت جزاه الله خيرا سجل فيها أسماء الأساتذة مرتبة حسب مشارطاتهم.
251) المعسول 9/ 127.
252) أنظر المعهد الإسلامي والمدارس العتيقة بسوس 3/ 172.
253) رسالة أبي الوفاء يحيى أحمد بن علي التجاجتي فقيه مدرسة أيت وفقا بتاريخ 13/ 11/ 92.

15 - الفقيه عمر المراكشي فقيه شاب درس بمدرسة إداوّمَنُّو الهشتوكية ومنها تخرج على يد الحاج عبد الله بن الحسين الرَّبَوي الصوابي(254) وقد قضى بالإلغية شهرين فقط من عام 1409.هـ

16 - الفقيه الحسن بن عبد الله الوردي السملالي (1960): ولد بقرية أزازر من قبيلة إدا أوسملال درس المبادئ وأتم حفظ القرآن عام 1386هـ ـ 1966م، ثم انتقل عام 1389هـ ـ 1969م إلى قبيلة إداوكَنضيف لدى أحمد بن ياسين السملالي حيث استتم اتقان القرآن، انتقل بعد هذا إلى مدرسة إرس عام 1396هـ ـ 1976م فأخذ على أستاذها الشيخ أحمد بن الحسين الربوي الصوابي الركراكي خريج مدرسة تنالت العلوم، وتخرج على يديه عام 1404هـ ـ 1984م. التحق عام 1408هـ ـ 1988م بالمدرسة الإلغية مشارطا مع جماعة من طلبته لبث بها مدة عامين وأثناء مقامه بها تم ترميمها وإصلاحها، وقد غادرها منتصف أكتوبر عام 1990م ـ 1410هـ.(255)

17 - الفقيه أحمد البحري البعقيلي (1386هـ ـ 1966م) ينتهي نسبه إلى العلامة إبراهيم أعجلي صاحب القراءات،(256) قرأ القرآن عند خاله خالد بن عبد العزيز الأغْرَبوئيِّ البعقيلي مدة ست سنوات، والعلوم عند خاله محمد ابن عبد العزيز بمدرسة أوخريبَ بأيت بلفاع(257) من عام 1397هـ ـ 1979م حتى عام 1410هـ ـ 1990م تاريخ التحاقه بالمدرسة الإلغية مشارطا وقد جمع حوله بعض الطلبة وتدرج معهم في المبادئ(258) ولبث هناك حتى أواسط عام 1413هـ ـ 1993م حين غادر إلى إحدى مدارس هشتوكة.(259)

18 - الفقيه عبد الله بن صالح خطاب البعقيلي (1384هـ - 1964م) ولد بقرية أكَرض إيفرض بدائرة أنزي بإقليم تزنيت بدأ دراسته بالتعليم العصري ثم انتقل إلى الكتاب فحفظ القرآن الكريم ثم التحق بمدرسة إيكضي فأجاد القرآن على مولود الرسموكي والعلوم على الفقيه ابراهيم بن علي الرايس، ثم انتقل إلى مدرسة بومروان عند الفقيه إبراهيم أيت همّاد حتى تخرج، ثم التحق بالمدرسة الإلغية مشارطا بها سنة 1993 ومايزال بها إلى الآن.(*)

---

254) رسالة أبي استجاجاتي، بتاريخ 13 / 11 / 92 .

255) ترجمته بخط يده بتصرف مني، توصلت بها بواسطة الشريف العدل مولاي عبد الله بن محمد البودرقاوي ضمن رسالة مؤرخة في 30 مارس 1993.

256) أنظر ترجمته بالمعسول 5/ 292.

257) أنظر العهد الإسلامي والمدارس العتيقة بسوس 4/ 225.

258) جلسة معه يوم الاثنين 24 غشت 1992 بالمدرسة الإلغية العتيقة.

259) أخبرني بذلك الأستاذ الحسن بن الحبيب الصالحي الإلغي أواسط شهر يوليوز 1993.

*) اتحاف ذوي النظر بسيرة الشيخ يحيى بن عمر، محمد أيت بومهاوت ص : 131، هامش 1، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 2003.

جـ - الأساتذة الزائرون :

ما كانت المدرسة الإلغية تؤسس وتستمر فيها الدروس بجد، حتى برزت وظهر أساتذتها في الميادين، خاصة القضاء والرئاسة، وصارت مركزا علميا، يؤمه الفقهاء والعلماء من كل حدب وصوب؛ وكان أصحاب المدرسة من الأساتذة يستغلون فرصة زيارة بعض هؤلاء، فيقترحون عليهم تدريس بعض العلوم التي لا يهتم الإلغيون بتدريسها، أو التي لا يتقنونها، بل ربما استدعوا بعضهم لهذا الغرض ذاته خاصة المتقنين الحساب والفرائض والأصول والبيان، فينزلون عليهم أضيافا مددا يسيرة يستفيذ منهم خلالها طلبة المدرسة ما ينقصهم من علوم، وهؤلاء الأساتذة الزائرون هم :

1 - عبد الرحمان السالمي الإيسي(260) (1244 - 1326 هـ) : علامة جليل أخذ القراءات على شيخها محمد أعجلي أولا، ثم ألحقه بالجشتيميين لدراسة العلوم، سافر إلى فاس وقرأ بها زمنا ثم عاد إلى سوس واشتغل بالتدريس وكان «يختلف إلى إلغ كثيرا فينزل على الأستاذ علي بن عبد الله، وعلى الشيخ الإلغي، خصوصا في أوقات رفع المحصولات في الصيف وكانا يكرمانه بالزرع لأن إيسي قليل الخصب».(261) وكان خلال وفداته يأوي إلى بيت بالمدرسة فيقبل عليه الطلبة لقراءة المنطق والأصول والبيان وهي العلوم التي أتقنها وبرز فيها كثيرا.(262)

2 - محمد بن علي الرسموكي الملقب بإيكَيكَ(263) (نحو 1260 - 1342هـ) أخذ بالمدرسة الأدوزية عن الأستاذ العربي بن إبراهيم الأدوزي، وباليعقوبية الإيلالنية عند الأستاذ محمد بن علي اليعقوبي، ثم سافر إلى فاس 1301هـ فأخذ عن بعض علمائها وعاد إلى سوس وشارط في عدة مدارس(264) وقد أخذ عنه الإلغيون الحساب والفرائض حين كان يفد عليهم «وينقطع إليهم أزمانا كانوا يأخذونهما عنه، فليس منهم ولا من تلامذتهم من لم يأخذهما عنه و... كان الأستاذ علي بن عبد الله يلين له الجانب كثيرا، ويغضي له عن كل ما يراه منه ليستأنس وليألف إلغ لينتفع به الطلبة،(265) فكان ذلك هو سبب النجاح على يده كثيرا في هذين العلمين، أخبرني الأستاذ سيدي عبد الله بن إبراهيم ... أنهم في سنة يأخذون عنه في المدرسة، فكان الأستاذ علي بن عبد الله نفسه يجلس مع

260) أنظر ترجمته بالمعسول 9/ 154 - 155.
261) المعسول 9/ 154.
262) نفسه.
263) أنظر ترجمته بالمعسول 8/ 176. وايكَيكَ معناها : الرعد وقد لقب بذلك لمكانته من تحصيل العلوم.
264) المعسول 8/ 177.
265) كان هذا الأستاذ ضيّق الخلق، غريب الأطوار، صريح القول، كثير الإنتقاد، تحتاج معاشرته إلى حلم كبير وصبر كثير، لذلك قل المنتفعون بعلمه رغم نباهته أنظر المعسول 8/ 178.

الطلبة بين يديه، فيعمل عمل الحساب والفرائض إيناسا له، واستنهاضا لهمم الطلبة، فبذلك وحده أمكن أن ينتفع الإلغيون بهذين العلمين من الأستاذ إيكيك، وأما من سواهم فقلما يصبر لما يشاهد منه».(266)

3 - علي بوضاض الأخْصَاصي البُوجَلْبَاني (1265 - 1340هـ) : درس على الشريف الكثيري بمدرسة إدا ومحمد الَهَشْتُوكيَّة، أتقَن الفرائض والحساب وقصده لأجل ذلك الطلبة ومنهم الأستاذ علي بن عبدَ الله إبان أخذه في بعض عواشر عام 1300هـ(267) ثم لما «استقل بعد صنوه بالمدرسة الإلغية استقدمه إليه، فبقي في إلغ ما شاء الله يتعلم عليه تلاميذ المدرسة ذلك العلم.(268)

4 - محمد بن يحيا الولاتي (1260هـ - 1330هـ) : ينتسب إلى قبيلة ولاته في الحوض جنوب شنقيط، أخذ عن علماء بلده ثم زاول التجارة والتدريس، وعند ارتحاله للحج مرّ بإلغ حيث مكث بالمدرسة مدة درّس خلالها البيان لّما وجد الإلغيين مشرئبين إلى معرفته،(269) وقد أشار إلى ذلك في رحلته فقال «... فآوانا الليل إلى بيت سيدي علي(270) ففرح بنا ورحب، وأنزلنا في مكان وطيء طيب، فأقمنا عنده ست عشرة ليلة فوجدناه يدرس علم المعاني والبيان لبعض طلبته وهو لا يحسنهما، فأصلحنا له بعض ما اختل عليه في نصاب الدرس الذي يفسر لطلبته فأقبل إلينا يدرسه وصار يتعلم هو وطلبته منا علم المعاني، فتعلموا منا ما أمكنهم تعلمه في المدة المذكور».(271)

5 - محمد بن أحمد المنوزي (1306 - 1365 هـ) : الأديب المؤرخ صاحب التأليف التاريخي المفيد،(272) أخذ عن محمد أعبّو بمدرسة إداومحمد بهشتوكة وكان يتردد إلى إلغ، ويأوي إلى بيت المدرسة، فيأخذ عنه الطلبة بعض العروض.(273) كما كان ينوب أحيانا عن الأستاذ المدني بن علي، وقد ذكر ذلك في تأليفه حيث قال، بعد أن ذكر خزانة الأسرة الصالحية الإليغية : «وقد اطلعت عليها كلها في حياة الشيخ أبي الحسن لكثرة مخالطتي إيّاه وترددي إليهم، كما أنهم يصلونني كثيرا، وربما أتولى التدريس في تلك المدرسة إذا حصل مانع يشغلهم عنه».(274)

266) المعسول 8 / 177 - 178.
267) المعسول 8/ 134.
268) المعسول 8/ 134.
269) نفسه ص : 281.
270) يقصد الأستاذ علي بن عبد الله الإلغي.
271) رحلة الولتي - مخطوط مصور على شريط رقم 343 الخزانة العامة للوثائق بالرباط ص : 31 - 32 وكانت إقامته بإلغ في النصف الأخير من صفر عام 1312 هـ.
272) نشره المختار السوسي مع تعليقات وحواشي مفيدة أنظر المعسول 3/ 241.
273) المعسول 3/ 334 هامش 2.
274) نفسه.

6 – عبد الرحمان البُوزَكَارْني (1306 – 1380هـ) : من تلاميذ الإلغية، درس أولا بمدرسة الأَخْصَاصْ ومدرسة إيَغْشَّانْ لدى الأستاذ العربي الساموكني، فإلى مدرسة تانكرت عند الطاهر الإفراني وأخيرا إلى إلغ حيث تخرج على يد أبي الحسن الإلغي سنة 1345هـ،(275) وقد كان إبان إقامته بالمدرسة، واحدا من أعمدة حركتها الأدبية، قال عنه تلميذه العلامة المختار : «على أن شهرة المولى عبد الرحمان إنما هي بالفنون الأدبية، فهي التي فاق فيها علما وذوقا سليما، فهو نحوي ماهر، ولغوي كبير، وبياني عبقري، ثم له وراء ذلك كله سليقة عجيبة، وذوق سليم من المواهب التي يختص بها بعض الأدباء عن البعض».(276) وقد كان الطلبة خلال مدة إقامته بالإلغية فيما بين عامي 1338هـ و 1345هـ يسردون عليه الكتب الأدبية التاريخية.(277)

2 – علاقة التلاميذ بالمدرسة وبأساتذتها :

يقضي الطالب بالمدرسة غالب مرحلة الشباب للدراسة والتعلم بعد أن قضى طفولته بالكتاب لحفظ القرآن، ولا يتم دراسته إلا وهو مشرف على الثلاثين، وتحكم علاقته بالمؤسسة التعليمية التزامات وأعراف معينة، تنظم التحاقه وإقامته وعلاقته بأساتذته وبزملائه الطلبة.

أ – التحاق الطلبة بالمدرسة :

تعتبر الرغبة في التعلّم الشرط الوحيد لالتحاق الطالب بالمدرسة الإلغية، وأول ما يفعل عند قدومه، أن يعرض نفسه على الأستاذ ليختبره في معلوماته، خاصة حفظ القرآن وقراءاته؛ فهذا أحمد اليزيدي لما التحق بإلغ رفقه خاله، اختبره الشيخ الإلغي؛ يقول حاكيا عن نفسه «...فأمرني الشيخ بافتتاح سورة البقرة بحرف المكي، فذهبت أقرأ حتى وصلت ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ فقال : كفى كفى، ثم قال: لخاليَ ألحقه منذ الآنَ بالمدرسة الإلغية، فإنه وصل إبان افتتاح العلوم».(278)

وإذا قبل الطالب في المدرسة افتتح له صاحبها القراءة بها ثم أوكله إلى أحد الطلبة النجباء المعينين ليقرئ له دروسه،(279) أما إذا كان الطالب قد قرأ من قبل بإحدى المدارس، فإن الأستاذ يختبره ثم يلحقه بالطبقة التي تناسبه من طبقات الدراسة الثلاث، كما

---

275) 276) المعسول 10/ 94.
277) أخبرني الفقيه القاضي الكثيري أنه كان يقرأ عليه المتون الفقهية وكتب الأدب.
278) المعسول 9/ 169.
279) محمد المختار السوسي مدارس سوس ... ص 76.

يتوقف قبول الطالب على وجود مكان لإيوائه في البيوت الأربعة عشر التي تتوفر عليها الإلغية،(280) وعليه إحضار كل ما يلزمه من فرش وأغطية وأدوات تعليمية كالألواح والأقلام والمداد الصمغي.(281)

وتوفر المدرسة للطلبة بالإضافة إلى المسكن، الطعام وهو وجبتان يوميا ويصفه الأستاذ صالح بن عبد الله الإلغي بتفصيل إذ يقول : «... وهو على ما ألف في قريتنا الإلغية(282) ... ما يتعشى به بعيد العشاء وما يتغذى به قبل الزوال، إما أن يوتي به إلى بيته الذي يسمى حانوته، وإما أن يدعى إليه الطالب في الدار،(283) فغذاؤه الواجب عليهم أكلتان لا غير في ذلك الدهر، واحدة في الليل وواحدة في النهار... والفطور يتبرع به من ابتغى الثواب من أهل القرية كبعض أغنياتها، وهو إما حساء أو سخينة(284) أو تلبينة وقليل أن يكون خبزا أو نحوه مما يقوم بنفسه. والعشاء هو العصيدة غالبا وتتخذ إما من دقيق الذرة أو الشعير أو من جريشهما ... وأما الغذاء فالغالب فيه أن يكون كسكسا، وقلما يكون خبزا مع ما يسيغه من مرق، أو إدام؛ أو نضيج بلس(285) أو باقلاء، أو خضرة بتوابلها، ولشضف عيش البلد وعدم رفاغته لا يوضع فوقه إلا الخضرة التي تنتجها البلد بدون لحم ... من بصل أو مع قثاء، أو باذنجان، أو جزر رطب أو يابس أو لفت، كذلك أو بأرضه، وهو أوراقه أوّل ما نبتت، أو نحو ذلك».(286)

280) بيوت المدرسة واطئة ضيقة وعند مشاهدتها يحس الزائر بالجهد الذي يبذله الطلبة للقراءة والتعلم في هذه الأماكن البسيطة بصبر وثبات أنظر الصور الملحقة.

281) أنظر طريقة صنع المداد عند : صالح بن عبد الله المدرسة الأولى ص :

282) قديما أي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري أنظر المدرسة الأولى ص : 23 .

283) يصف الأستاذ صالح عبد الله طعام الطالب المشارط بالمسجد، إلا أنه لا فرق بين طعام المسجد وطعام المدرسة، بل لا فرق بين طعام القرية كلها لغلبة الفقر وشحة الموارد الاقتصادية للمنطقة، واقتصاد المرابطين في معيشتهم أنظر: الفصل الثاني من الباب الأول.

284) السخينة : عصيدة رقيقة لقلة دقيقها تعير قريش لإكثارهم منها فلقبوا بها، قال حسان رضي الله عنه:

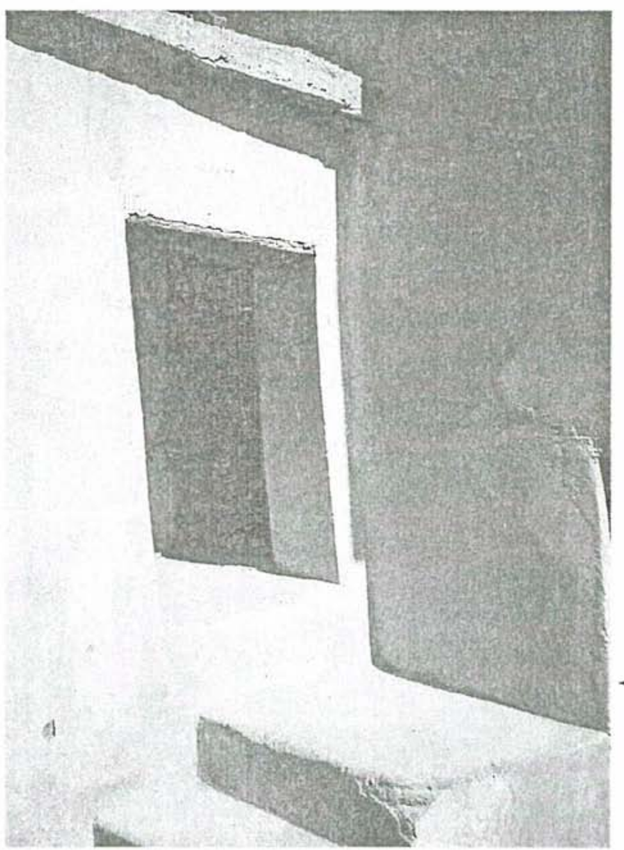
زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الْغَلاَّبِ

المدرسة الأولى هامش ص : 24 و 25 .

285) البلس : العدس.

286) صالح بن عبد الله الإلغي – المدرسة الأولى ص : 24 – 25 .

مساكن الطلبة بالمدرسة الإلغية وهي كغيرها في مدارس سوس ضيقة الأبواب واطئة السقوف كما في الصورة العليا



البيت الذي أقام فيه الأديب الشاعر الطاهر الإفراني مدة دراسته

ولقلة أطعمة المدرسة وخشونتها، فإنها لا تكفي الطلبة فيعمد أملياؤهم إلى إعداد ما يحتفظون به من أزواد يطعمونها، وقد يستدعون لها أستاذهم الذي يتقوت أيضا من طعام المدرسة.(287) أما الطلبة الفقراء فإنهم يعيشون في تقشف وضنك عيش مثل أحمد الإهريبي التاجرمونتي الذي تحدث عن مرحلة دراسته بالإلغية، وما عاناه فيها من شدة قائلا: «وقد مرت علي سنوات عجاف وأوقات شديدة، وأيام سوداء لا أملك فيها بلغة، ولا أجد في جرابي مضغة - كما قال الحريري - وقد أضطر فأتقمم النفاية مما يلقيه أملياء الطلبة، وطالما تبلغت بأوراق الأتاي التي تلقى بعد شرابه أمام بيوت الطلبة في أواني الكناسات والقمامات، والإعواز يسدل علي ذيوله والإقلال مع عزة النفس أعظم ما يقاسمه الطالب المعوز المسكين».(288)

وقد تتاح للطلبة الإلغيين فرص التزود بالطعام، خاصة عند الحفلات السنوية التي تقام حول بعض الأضرحة، كضريح أحمد بن عبد الله وضريح سيدي سليمان. كما أن بعض الناس يزورون أحيانا قبر مؤسس المدرسة يصحبون معهم هدايا تكون من نصيب الطلبة الحاضرين هناك.(289) وبالإضافة إلى ذلك يشتغل الطلبة الفقراء ببعض الحرف أيام العواشر خاصة يوم الخميس، وهو يوم التسوق عند الإلغيين يرتحلون فيه إلى سوق قبيلة أيت وافقا المجاورة، مثل محمد بن عبد الرحمان الصغير الذي كان يشتغل بالجزارة حتى يعيل نفسه.(290)

أما في أيام المساغب حين تقل المؤن فإن الأستاذ يقوم بتسريح الطلبة، مبقيا منهم من يستطيع القيام بهم، مرسلا الآخرين إلى مدارس أخرى متسعة المعيشة.(291) وما أكثر السنوات الشهباء إذذاك بسوس مثل سنة 1328هـ التي أسنت الإلغيون فيها «كما أسنت كل من في نواحي سوس فأرسل الأستاذ علي بن عبد الله إلى طلبة المدرسة المكتظة أن يستهموا فيما بينهم، فمن قال سهمه فليوسع على إخوانه حتى تنجاب هذه السنة العجفاء...».(292)

وبسبب ضيق المعيشة وقسوة مناخ البلاد وشدة أحوالها الطبيعية، يغادر إلى المدارس السهلية، حيث الجو دافئ والطعام وفير والسكن متسع؛ مثل أبي بكر الايكَيوازي الذي كان

287) أنظر المعسول 2/ 346.
288) المعسول 9/ 36.
289) أخبرني أحمد بن زكرياء السكال الباعمراني أنه عند مقامه بالإلغية أتى بعضهم بماعز وطاف به حول قبة مؤسس المدرسة والطلبة حوله، وهو يردد الأدعية فلما انتهى دفعه إليهم فذبحوه وطعموا لحمه.
290) أخبرني بذلك الفقيه الفقيه القاضي محمد الكثيري عندما قابلته يوم 22 شتنبر 1992.
291) أنظر المعسول 2/ 231.
292) المعسول 2/ 238.

بالمدرسة إثر تأسيسها وما حمله على مفارقتها إلا «البرد القارص الشديد المشهورة به إلغ، الفقيرة من كل شيء إلا من الأعاصير الهوجاء التي إذا احتفلت في فصل الشتاء، والسماء تجود في كل صباح ببرد شديد أو جليد تصبح به الأرض الإلغية الجرداء ووهادها وبسائطها كأنما كسيت إزارا أبيض، فتأتي القواصف العاصفة مع هذا الذي ينتشر في كل صباح، بما لا يمكن لأي حي لا يألفه، أن يخرج معه لمقابلة الجو، فتأثير القر يتخلل الجسوم، والزوابع تصفر صفير الجنة حول الجدران».(293)

ولهذا قل طلبة الإلغية في مقابل المدارس السوسية الكبرى، فكان طلبتها في أوج ازدهارها «لا يتجاوزون خمسين ولم تدرك شأو المدارس القديمة العهد التي تزخر إذ ذاك بما فوق المائة لكل واحدة؛ كالمدارس الأدُوزيَّة والبُونَعْمَانية، وَالبُوعَبْدَلِيَّة، وَالتَّمكِّدَشْتيَة، وَالأَرْزَانيَة الرَّاسَلْوَادِيَة؛ والمحمدية الهَشْتُوكيَّة».(294) إلا أن قلة الطلبة لم يكن يعني ضعف المدرسة، إذ كان الجد والاجتهاد هو دَيدن الإلغيين، في حين أن المدارس الأخرى مكتظة بالطلبة ولا يشتغل منهم بالدراسة إلا ربع عددهم أو أقل من ذلك. وكان عبد الرحمان البوزكاني إذا سمع من يتحدث عن قلة طلبة الإلغية وكثرة سواهم يقول إن طلبة الإلغية طلبة حقا أما غيرهم فمجرد شباب يزجون أوقاتهم في المدارس بلا طائل،(295) ورغم كل هذه المشاق التي تحف بالدراسة في الإلغية، فإن الطلبة يرابطون بها، بل إن بعض من غدروها لم يلبثوا أن عادوا إليها، بعد أن أدركوا الفرق بينها وبين غيرها؛ ومن هؤلاء محمد بن أحمد اليزيدي الذي كتب إلى أستاذه أبي الحسن الإلغي معتذرا بعد عودته : (البسيط)

فِـرَاقُكُمْ سَادَتِي صَعْبُ الْمَذَاقِ فَمَا
قَلْبِي الْعَهُودُ عَلَى بُعْدِ الْمَدَى نَاسِ
وَقَدْ تَذَكَّرْتُ، وَالشَّوْقَ أُكَابِدُهُ
وَعِلَّتِي مَا لَهَا غَيْرُ اللِّقَا آسِ
لَوْلا الضَّرُورَةُ مَا فَارَقْتُكُمْ أَبَداً
وَلاَ تَنَقَّلْتُ مِنْ نَاسٍ إِلَى نَاسِ
هَذَا وإِنِّي أُعَانِي الشَّوْقَ بَعْدَكُمْ
وَالْبَيْنُ عَضَّ بِأَنْيَابٍ وَأَضْرَاسِ

---

293) المعسول 9/ 130.
294) المعسول 1/ 166.
295) «قيل للبوزكاري إن في المدرسة التمكدشتية ستين طالبا، فقال بل ستون رجلا». مقابلة مع محمد الكثيري القاضي بضيعته بأولاد داحو بهوارة يوم 22 شتنبر 1992.

قَلْبي رَمَـــاهُ النَّوَى فَـــذَابَ منْ كَـــمَـــد
وَمنْ مُـــعَـــانَاة أحْـــزَانٍ ووَسْـــوَاسِ
أضْنَى الْهَوَى جَسَدي، فَلْيَهْنَ ذُو حَسَدي
أوْهَى البُـــعَـــادُ قُـــوَايْ بَلَه أنْفَـــاسِ
لاَ تَحْـــسَـــبُـــوا أنَّني أنْسَى مَـــوَدَّتَكُمْ
بَعْـــدَ الْفـــرَاق وَحُـــبِّي رَاسِخٌ راسِ
وَهَكَذَا الدَّهْرُ إنْ حَـــبَـــا الْوصَـــالَ فَـــمُـــو
لَعٌ بتَـــشْـــتـــيت إخْـــوَانٍ وَجُـــلاَّسِ
يَا قَلْبُ أبْشِـــرْ بلُقْـــيَـــانَا أبَا حَـــسَنٍ
تَاجُ الْفَـــخَـــارِ، إمَـــامُ سَـــائرِ النَّاسِ
غَـــيْثُ الأنَام، إذَا شَحَّ الْغَـــمَـــامُ بَدَا
فَـــتَى الْبَـــلاَغَـــة وَالْعَلْيَـــاء وَالْبَـــاسِ
عَلَيْـــه منِّي سَـــلاَمُ اللّه مَـــا طَلَعَتْ
شَـــمْسٌ وَمَـــا طَرْزُ الطُّرُوس بإمْـــعَـــاس(296)

وتوفر المدرسة، بالإضافة إلى الطعام والمأوى، لطلبتها الكتب اللازمة للدراسة والمطالعة، خاصة للفقراء منهم، الذين لا يملكون مالا لشرائها أو نسخها، فيستعيرونها من مكتبة الأسرة الصالحية صاحبة المدرسة؛ وقد وصفها أحمد بن محمد المانوزي في مذكراته فقال : «ومن المكاتب العلمية مكتبة الشيخ العالم العلامة الرئيس الأجل أبي الحسن علي بن عبد الله بن صالح الإلغي ... فإنه جمع هو وأخوه شيخ الجماعة في وقته السيد محمد بن عبد الله من الكتب خزانة حافة من أول نبوغ العالم الثاني أعوام تسعين من المائة الثالثة عشر ... وتولاها أخوه أبو الحسن المذكور، وأضاف إليها كتبا كثيرة من الخزائن السوسية، وقد تقدم أن فيها من الخزانة الكَرسيفية من المخطوطات شيئا كثيرا ومن الإيليغية أيضا وغيرهما».(297)

وقد حرص الأساتذة الإلغيون على إغناء مكتبتهم تيسيرا على الطلبة وتوفيرا للكتب يطالعها من أراد، وينسخها من استطاع، ومن الطرق التي سلكوها لذلك :

296) المعسول 9/ 242.
297) المعسول 3/ 334.

* إرسال الطلبة الحذقين لنسخ الكتب من لدن أصحابها، فقد وجه الأستاذ محمد بن عبد الله الإلغي تلميذة العربي الساموكني إلى مدرسة تانكرت الإفرانية لينسخ له مؤلفا حول «البيع إلى أجل زمن المجاعة؛ بأزيد من ثمنه المعتاد» من تأليف العلامة محمد بن العربي الأدوزي.(298)

* شراء الكتب من العلماء والفقهاء أو ممن ينتمون إلى الأسر العلمية؛ وقد مر بنا شراء علي بن عبد الله الإلغي كتبا من محمد المحفوظ التمكَدشتي.(299)

* استِعَارة الكتب برهن من أصحاب المكتبات المشهورة،(300) كالمكتبة الإيليغية التي استعارَمنها الأستاذ المدني بن علي جملة من الكتب ذكرها صاحب المكتبة علي بن محمد الإليغي من رسالة قال فيها : «... البركة الفقيه العلامة، والدرّاكة الفهّامة : سيدي المدني ابن القطب العرفاني والغوث الصمداني المغفور له، المرحوم بعناية الله تعالى، من لا تأخذه في الله لومة لائم؛ سيدي علي بن عبد الله، نفعنا الله وإياكم ببركاته آمين. السلام على حضرتكم، وجميع من تعلق بأذيالكم الكريمة، ورحمة الله وبركاته، تعم الجميع. وبعد : وصلنا كتابكم الرائق وخطابكم الفائق، فملأ بشهادة الله العين نورا، والقلب سرورا، جعل الله المحبة خالصة لوجهه الكريم إلى لقاء الله العظيم هذا، وما طلبته سيدي من توجيه الكتب المشار إليها، فهي صحبة حامله بتمامها : وفيات الأعيان أربعة أسفار، المناقب الحُضيكيَة بتمامه سفر، المرهفات القطاع سفر، ثم المقصود من جانبكم الشريف أن تعلمونا بكم هو عندكم كتابنا تاج العروس من الدّراهم بالرهن لنصير من ذلك على بصيرة، ونطلب منكم صالح الدعاء. وعلى دوام العهد والأخوة والمحبة...دمتم بخير والسلام في 25 رمضان الأعظم عام 1356هـ).(301)

ب - واجبات التلاميذ :

يقطن الطلبة بالمدرسة للدراسة مجانا دون أجر؛ ومقابل تفرغ الأستاذ لإقرائهم يلتزمون بخدمته، وقضاء أغراضه ، وخدمة المدرسة واحترامها واحترام قوانينها، التي وضعت للمحافظة على النظام داخلها وخارجها.

ويتداول الطلبة مناوبة خدمة أساتذتهم اعتقادا منهم أن تلك الخدمة معينة للطالب على ما هو بصدده من طلب العلم، وأن من يخدم أستاذه بصدق وحسن نية يفتح عليه أكثر من الآخرين،(302) لذلك يتنافسون عليها فيتركها الأخ لأخيه كما فعل محمد بن أحمد

298) محمد المختار السوسي - خلال جزولة 2/ 245.
299) أنظر الفصل الرابع من الباب الثاني.
300) أنظر استعارة علي بن عبد الله الإلغي كتابا من التمكدشتية بالمعسول 6/ 313.
301) أوراق محمد بن الحسين الصالحي الإلغي.
302) المعسول 2/ 357.

الصالحي الذي كان يزاول مؤونة الأستاذ التاجرمونتي، ولما فارق المدرسة خلفه فيها أخوه إبراهيم.(303)

وتتمثل هذه الخدمة في غسل ملابس الأستاذ، وإعداد طعامه وإن كان من المشارطين، وحرث أراضيه وحصاد محاصيلها، وحمل رسائله وغيرها مما يحتاج إيصاله إلى أصحابه، والقيام بالخدمة في داره،(304) بالإضافة إلى مراعاته داخل المدرسة وأثناء الدرس.

وقد يندب الأستاذ طلبته للقيام بأعمال أخرى تطوعية كإعانة البنائين في داره، ومن ذلك نتفه شعرية كتبها علي بن عبد الله لطلبته «يطلب ممن وفقهم الله منهم أن يقرب أحجاراً إلى بنائين ... (البسيط)

أُرِيدُ مِنْ خَيْرَ إِخْوَانِي وَصَفْوَتِهِمْ
حَمْلَ حِجَارٍ غَدَتْ تَضُرُّ بِالْعَمَلَهْ
لاَ زَالَ فِي صَالِحَاتِ السَّعْيِ سَعْيُكُمُ
وَلاَ بَرِحْتُمْ هُدَاةً جِلَّةً كَمَلَهْ
بِجَاهِ خَيْرِ الْوَرَى صَلَّى الإِلَهُ عَلَى
مَقَامِهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْفُضَلَهْ»(305)

وإذا كان بعض الطلبة يقبلون على خدمَة أستاذهم بحماسَ، فإن هناك آخرين يفضلون الراحة على العناء؛ خاصة عند حصاد المحاصيل، زمن الصيف حين يشتد الحر؛ فتلفح الشمس الطلبة بحرارتها، وتدمي السنابل أيديهم، ولصبرهم على ذلك كله يوليهم الأستاذ مزيد عناية؛ فينفذ لهم من الزاد ما يكفيهم، ويشكر صنيعهم مؤنبا المتكاسلين، كما قال علي بن عبد الله في قصيدة له : (الطويل)

جَزَى اللَّهُ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ بِكُلِّ مَا
يُجَازِي بِهِ أَحْبَابَهُ وَسَطَ الْقَبْرِ
وَأَعْطَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ الْغَمْرِ كُلَّ مَا
يُحِبُّونَهُ، بَلْ فَوْقَهُ دُونَمَا حَصْرِ
كَفُونِي مَؤُونَاتِ الْحَصَادِ وَظَلَّلُوا
بِأَوْجُهِهِمْ وَجْهِي كُفُوا أَزْمَةَ الدَّهْرِ
وَعِنْدَ امْتِحَانِ الْمَرْءِ يَظْهَرُ فَضْلُهُ
أَوِ النَّقْصُ وَالرُّجْحَانُ فِي كَفَّةِ الصَّبْرِ

---

303) المعسول 2_357 .
304) أنظر الفصل الأول من هذا الباب.
305) المعسول 1/ 365.

أَلاَ هَكَذَا الإِيثَـارُ، لاَ كَـالأُلَي تَغَـ
ـيَّبُـوا، عَنْ صَنِيعِ قَـائِدِ الْمَرْءِ لِلْخَيْـرِ

كَذَلِكَ تَقُـومُ السُّـوقُ وَالنَّاسُ بَيْنَ مَنْ
يُـرَاجُ لَهُ وَالدَّالِجِينَ إِلَى الخُسْـرِ

وَلَـو لَـمْ تَـحُـفَّ بِالْمَكَارِهِ جَنَّـةُ الْـ
ـخُلُودِ، تَسَـاوَى الْخَبُّ مَعَ الْبَرِّ

عَلَيْكُمْ سَلاَمُ اللَّهِ يَا خَيْـرَ مَنْ سَعَـوْا
لِتَحْصِيلِ مَا يُولِي الْهَنَا سَاعَةَ الْحَشْرِ(306)

وفي مقابل هذه الخدمات يقابل الأستاذ الطلبة بالرأفة عليهم، والتواضع لهم والاهتمام بهم عند الدروس ونصحهم وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم، مثل بلقاسم التاجرمونتي الذي كان «خافض الجناح لهم غاية يعاشرهم ويواكلهم ويجيب داعيهم إلى بيوتهم، وربما باسطه أحدهم عند استدعائه، فيرسل إليه أن يأتي من عنده بشيء من السكّر والأتاي، فيصاحبه معه فرحا منشرحا، وهو يعد ذلك من ميادين الفكاهة والأريحية».(307)

أما الخدمات التي يكلف بها الطلبة في المدرسة فتتمثل في تنظيفها، وفي تسخين ماء الوضوء في محله المعتاد؛(308) بالإضافة إلى إعلام الطلبة بموعد تناول الطعام بواسطة التصفيق؛ والحفاظ على مصالح المدرسة عامة؛ كما يتحتم على الطلبة احترام مواعيد الصلاة؛ وقراءة الحزب القرآني اليومي؛ وقراءة الختمة القرآنية عند قبر مؤسس المدرسة، وحضور مجلس الصلاة على النبي ﷺ عشاء كل جمعة وغير ذلك.(309)

وللحفاظ على هذه الواجبات؛ سنت العقوبات التي تردع المتقاعسين وتعاقب المذنبين، وتوجه الطلبة إلى الجدية في الدراسة والمحافظة على ناموسها، ومن هذه العقويات تشكل قانون المدرسة الذي وصفه العلامة المختار، بأنه من أصعب قوانين المدارس بسوس(310) وهذه هي بنوده :

306) المعسول 1 / 365 .
307) المعسول 9/ 14.
308) يسمى أَخُرْبِيشْ وَمَّانْ وهو غرفة علق في سقفها مرجل نحاسي بواسطة سلسلة حديدية وتحت هذا المرجل تشعل النار ويغرف الماء بمغرف كبير أنظر صالح بن عبد الله، المدرسة الأولى ص : 19.
309) المعسول 10/ 154 - 155.
310) المعسول 1/ 58.

ـ كل من فاته الركوع من الركعة الأولى كل صلاة.......	يعاقب ببسيطة حسنية
ـ كل من لم يدرك الوقف الثالث من الحزب القرآني.....	يعاقب ببسيطة حسنية
ـ كل من طلع عليه الفجر ولم يسخن الوضوء في نوبته	يعاقب ببسيطتين.
- كل من لم يحضر الختمة القرآنية في القبة عند قبر سيدي محمد بن عبد الله مؤسس المدرسة.............	يعاقب بأربع بسيطات.
-ـ كل من فاته مجلس الصلاة على النبي ﷺ ليلة الجمعة بعد الحزب إلى صلاة العشاء............	يعاقب بأربع بسيطات.
ـ كل من لم يسبق إلى مجلس سرد البخاري في شعبان ورمضان ممن عندهم نوبة التلاوة....................	يعاقب بأربع بسيطات ويحرم التلاوة ذلك النهار.
ـ كل من تخلف عن خدمة معتادة في دار الأستاذ علي بن عبد الله أو مكان الحصاد........................	يعاقب بأربع بسيطات.
ـ من لم يستجب إذا ندب الطلبة لقضاء حوائج الأستاذ من بعث رسول أو خدمة خاصة....................	يعاقب بأربع بسيطات ويعيد يوما آخر.
ـ كل من قارب نساء أهل تاكَانرا عند إتيانهن بالحطب للمدرسة...	يعاقب بأربع بسيطات.
ـ كل من قطع الدلو أو حبله اللذين يستقى بهما من بير المدرسة عمدا...	يعاقب بأربع بسيطات ويصلح ما أفسد.
ـ كل من سرق النعناع من حوض من أحواض الطلبة	يعاقب بأربع بسيطات وثمن المسروق لربه.
ـ من سرق من بيت آخر شيئا نهارا.................	بالجلد خمسين جلدة بحضور الطلبة.
- من سرق من هري المدرسة شيئا.................	بالجلد خمسين جلدة بحضور الطلبة.

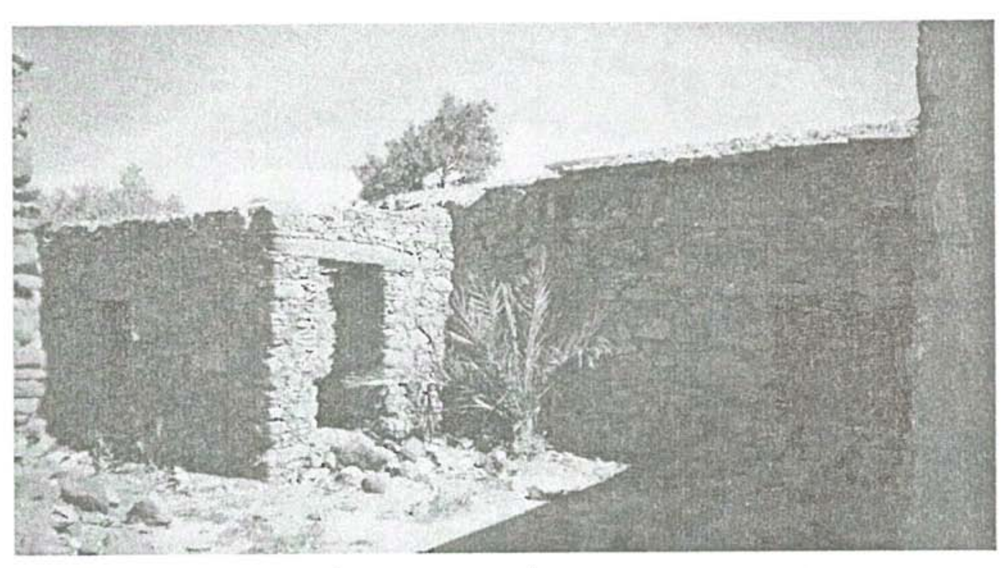
وبهذه القوانين الحازمة سارت المدرسة الإلغية بجد واجتهاد، فكان ضعاف التحصيل والعزيمة يغادرونها لعدم صبرهم علي هذه العقوبات، حتى دبّ إليها الفتور بضعف المدرسة، وقلة الطلبة خاصة أيام مشارطة الأستاذ أحمد اليزيدي الذي كان يكتفي من طلبته باعتزال العامة، أما في غير ذلك فهم أحرار لا يواخذون بعقوبة ولا تعزير.(311)

311) حدثني بذلك الفقيه القاضي امحمد الكثيري، وقال إن الطلبة قليلا ما يجتمعون عند الصلاة وقراءة الحزب القرآني.

جـ - علاقة الطلبة ببعضهم :

يجمع التعلم والانقطاع للدراسة بين طلبة المدرسة، كما يجمع بينهم الصبر على لأواء إلغ وشظف عيشه وقساوة جوّه، لذلك كان غالبهم يجد ويجتهد لينال بغيته من حفظ المتون وإتقان العلوم، في أقل مدة، فيعمرون أوقاتهم بالمراجعة والمطالعة، ولا يجتمعون إلا عند قراءة الدروس على الأستاذ، أو عند تناول الطعام، أما في غير ذلك فإنهم يتفرقون لمراجعة دروسهم مثنى وثلاث.

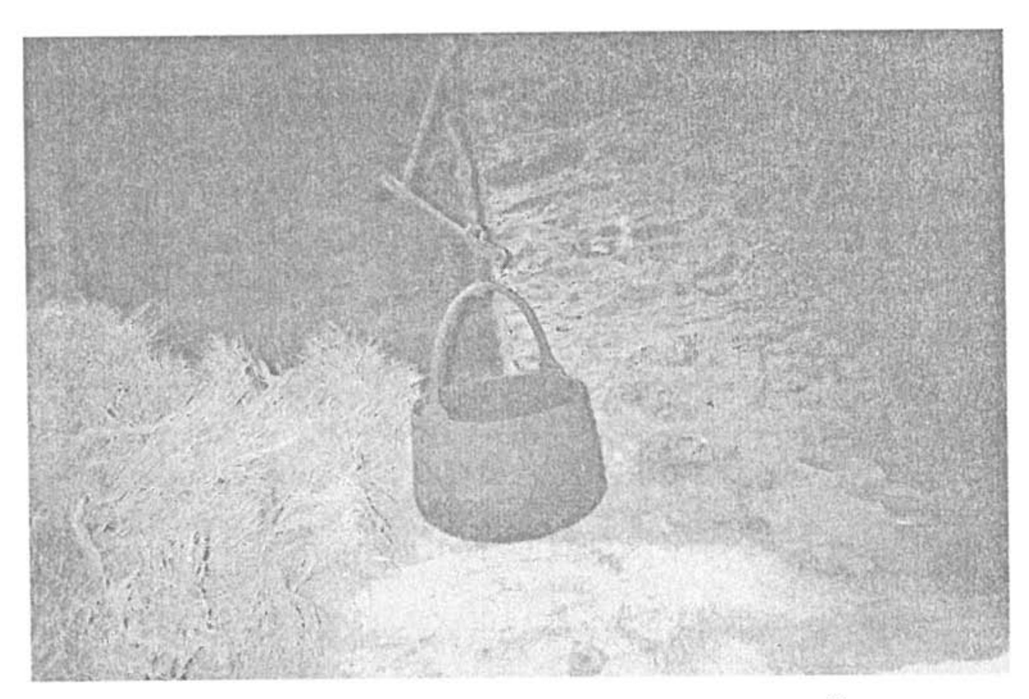
وتغني المنافسة الطلبة عن الاشتغال بما عدا الدراسة، وقد يبلغ بهم الأمر حد العداوة؛ فتراهم عند المناظرة يكثرون من الاستطرادات والاستنباطات والاعتراضات، والبحث في الشواهد والتفريعات،سعيا إلى إسكات المنافس، واستظهار المعلومات، وإظهار التفوق. وخشية الإخفاق في مثل هذه المناظرات؛ وطمعا في الشفوف على الأقران؛ يتفرغ الطلبة للمذاكرة ليلا ونهارا.(312) حتى إن منهم من يصبر على الكي بالنار ولا يصبر على اللمز بالجهل والقصور.(313)



مطبخ المدرسة حيث كان يعدّ الطعام الساذج للأساتذة والطلبة وبجانبه محلّ إقامة الخادم، وقد خرب الكل منذ زمن

312) أخبرني الفقيه الكثيري أنه ربما جلس مع ثلة من أقرانه يراجعون الدروس على ضوء قنديل فإذا تعبوا خرجوا من بيتهم، فيجدون بيوت بعض الطلبة مضاءة، فيعودون للقراءة خشية أن يتفوقوا عليهم في التحصيل.

313) محمد المختار السوسي، مدارس سوس ص : 80.



أخربيش وإمان في المدرسة الإلغية محل تسخين ماء الوضوء في مرجل النحاسي المعلق بسقفه

ويذكي الأساتذة أوار تلك المنافسة بمساءلة الطلبة كل آن وحين وكلما زار أستاذ من الضيوف الذين لا تخلو منهم حضرة الأساتذة الإلغيين المدرسة، إلا وكان طلبتها هدفا لأسئلته ومباحثاته، ويحرص الإلغيون على ذلك أكثر من غيرهم. وربما أتى بعض هؤلاء بأحد طلبته يعقد له مناظرة مع من يوازيه من طلبة الإلغية كما فعل الأستاذ عبد الله بن إبراهيم السعيدي الذي كان مشارطا إذ ذاك بحاحة وعنده محمد بن عبد الله الصالحي يقرأ لديه، وقد أتم دراسة لامية الأفعال في النحو، فحضر إلى المدرسة، وطلب عقد مناظرة بين تلميذه وأحد تلامذها الذين قرؤا اللامية، فأحضر عبد الرحمان البوزكارني مَحمد الكثيري وجرت المناظرة وصار كل طالب يسأل قرينه ويباحث.(314)

كما أن أي طالب بالإلغية لا يلقى من دونه في الدراسة إلا وباحثه فيما يقرأ من دروس، والى عليه الأسئلة فإما أن يجيب عنها أو يستفيدها «وهذه العادة في الإلغيين هي

314) حدثني بذلك القاضي الفقيه محمد الكثيري بتاريخ 22/ 9/ 1992 بضيعته بأولاد داحو قرب أولاد تايمة بإقليم تارودانت.

التي تذر تلاميذهم سيوفا مرهفة براقة، ويعابيب مضمرة طفارة، لا يهابون أحدا ولا يسلمون إلا للفريد الذي لا يعلى عليه».(315)

ولا يشتغل الطلبة بالدراسة طول أيام السنة، بل يتحينون الفرص للاجتماع والترويح عن أنفسهم في حفلات يقيمونها، كما تيسر لهم ما يقيمونها به، كأن يأخذوا بعض الحبوب من مخزن المدرسة يبيعونها ويشترون بثمنها ما يلزم حفلتهم وقد تحدث أحمد بن محمد الصالحي عن ذلك بقوله : «كان الوقت وقت الدارس في الصيف؛ ففي ذلك الصباح صار الفقيه يرسل من أعشار إلي هري المدرسة على العادة ... فأراد الطلبة أن يأخذوا شيئا من الحبوب يشترون بثمنه سكرا ... فعمد السيد الوَرْحَمَاني السَّمْلاَلي، فملأ من الشعير حجر ثوبه بنحو صاع من شعير فذهب به... فبه اشترينا سكرا، فاجتَمَعنا عليه نحن الطلبة في المدرسة الإلغية على عادتنا كلما وجدنا ما نشتري به السكر».(316) وفي هذه الجلسات يتداول الطلبة الأدبيات والأشعار؛ وينشدون ما يستطرفونه منها تغليبا للأريحية واستراحة من أوقات الدراسة المتعبة.

أما النزهة السنوية التي يحتفل بها طلبة المدارس السوسية كثيرا، فلا ذكرلها لها عند الإلغيين إذ يلزم الطلبة مدرستهم كل أيام السنة ما عدا أيام العطل، ولم تعرف هذه النزهة بالمدرسة إلا إبان عهدها الأول، حينما كان مؤسسها محمد بن عبد الله يتقرى قرى إفران بمعية طلبته دون انقطاع الدراسة،(317) أما في غير ذلك، فإن بعض الطلبة الباعمرانيين برئاسة الحسن أُبُلُّوش هم الذين يرتحلون إلى القبائل المجاورة، لجمع ما تيسر من مؤن يستعينون بها على دراستهم.(318)

ولعل الإلغيين تبع في ذلك لإبراهيم بن عبد العزيز الأدوزي، الذي ذمّ النزهة، واعتبرها مضيعة للوقت بلا فائدة عندما قال : (الكامل)

بِأَبِي وَأُمِّي وَالطَّرِيفِ وَتَالِدِي
أَفْدِيَ الَّذِي شُغُفًا بِلَوْحَتِهْ اجْتَبَا

أَحْسِنْ بِمَنْ جَعَلَ الْقِرَاءَةَ هَمَّهُ
وَأَزَاحَ كُلَّ الشَّاغِلاَت وَجَنَّبَا

وَأَجَلُّ بُرْهَانٍ عَلَى مَنْ قَدْ سَهَى
تَرْكُ الْقِرَاءَةِ لِلنَّزَاهَةِ طَالِبًا

---

315) محمد المختار السوسي – مدارس سوس ص : 81.

316) المعسول 2/ 352.

317) أنظر المعسول 1/ 169.

318) أخبرني الفقيه الكثيري أن الحسن أوبلوش كان يقتسم ما جمع من هذه النزه مع أخيه محمد يعينه لقلة ذات يدهما، أنظر ترجمتيهما في المعسول 10/ 230 و 239.

فَـــهِيَ النَّدَامَـــةُ لاَ النَّزَاهَةُ سَلْ بِهَـــا
مَنْ كَـانَ قَـبْلُكُمُ الْمَـسَـائِلَ جَـرَّبَا
تَرْكُ الصَّـلاَةِ وَغَـيْـبَـةٌ وَسَـفَـاهَةٌ
ضَـحِكٌ كَـثِـيـرٌ أَمْـرُهَا قَـدْ جُـرِّبَا
وَمَنْ اَلْـعِنَـايَةِ لِـلْـفَـتَى مِـنْ رَبِّه
تَأهِيلُهُ لِعُلُومِـهِ فَـتَـأَدَّبَا
أَحْـرَى الَّذِي قَـرَنَ التَّـأَدُّبَ بِالْهُـدَى
مُـتَـأَزِراً بِيَـقِـينِه مُـتَـجَلْبِـبَا
أَقْـبِحْ بِمَنْ يُمْـضِي السِّنِينَ وَمَـالَهُ
فَـهْمٌ بِه يَحْـوِي الْعُلُومَ تَكَسُّـبَا
وَيُفَـتِّتُ الأَزْوَادَ كُلَّ سُـوَيْعَـةٍ
وَيَظُنُّهُ الأَهْلُونَ أَنْ كَـانَ طَـالِبَـا
لاَشَكَّ أَنَّ طَعَـامَـهُ وَلِبَـاسَـهُ
سُـحْتٌ إِذَا تَرَكَ الْقِـرَاءَةَ جَـانِبَـا(319)

د – مغادرة الطلبة للمدرسة :

يقضي الطلبة فترات متفاوتة في المدرسة، فمنهم من يرابط بها من أول عهده بالدراسة حتى التخرج،(320) ومنهم من يفتتح بها المعارف ويغادرها بعد ذلك،(321) ومنهم من يلم بها إبان أخذه، فتكون مرحلة من حياته التعليمية(322) ومنهم من تكون خاتمة دراسته فيغادرها متخرجا.(323) وتتفاوت المدد التي يقضيها الطلبة بالمدرسة، حيث يلم بها البعض بضعة شهور، ومنهم من يبقى بها أزيد من عشر سنين،(324) والقلة القليلة من الطلبة هم الذين يبقون حتى يودعهم شيوخهم راضين عنهم مثل عبد الرحمان البوزكارني الذي «جمع له عميد المدرسة سيدي علي بن عبد الله كل من فيها من الطلبة، فمشوا معه على العادة حين يودع الأستاذ متخرجا حتى ودعوه غربي المدرسة، فوق بئر أيت عيس في جمع حافل، خفقت فيه القلوب، وترقرقت فيه الجفون...»(325) وهذه عادة الأساتذة

319) المعسول 5/ 106.
320) مثل بلقاسم التاجرمونتي أنظر المعسول 9/ 8.
321) مثل عبد الله بن الحسين الساموكني أنظر المعسول 9/ 90.
322) مثل الفقيه القاضي محمد الكثيري أنظر المعسول 9/ 256.
323) مثل الطاهر الإفراني انظر المعسول 7/ 72. وما بعد.
324) أحمد الإهريي التاجرمونتي لازم المدرسة سبع عشرة سنة، أنظر المعسول 9/ 36.
325) المعسول 10/ 94.

الإلغيين في توديع طلبتهم المتخرجين محتفلين بهم غاية الاحتفال، بعد أن أصدروهم علماء متفقهين. وقليل من هؤلاء الطلبة المتخرجين يصدر بإجازة من أشياخه، وهم من يتعالى لتحصيل الأسانيد، مثل الحاج مسعود الوفقاوي والطاهر الإفراني، وقد حفظ لنا علامة سوس نص إجازة المذكورين،(326) وتتسم الإجازتان بالسمة الغالبة على المدرسة الإلغية وهي الصبغة الأدبية، حيث ضمنها الأستاذ علي بن عبد الله أبياتا منظومة، بالإضافة إلى أسلوب السجع الذي يعتبر الأسلوب العالي في الكتابة عندهم، وتجمع إجازة الوفقاوي بين الإجازة في العلوم والإجازة في الطريقة الصوفية التيجانية.

وقد استجاز الطاهر الإفراني أستاذه بقصيدة بائية في ثلاث وعشرين بيتا يقول فيها متخلصا من مدح شيخه إلى غرضه : (الطويل)

فَيَا سَيِّدي جُدْ بالرِّضَا وأَتِمَّ مَا
بَدَأْتَ بإذْنٍ يَطْمَئِنُّ لَهُ اللُّبُّ

وَثَنِّ الَّذي أوْلَيْتَهُ بإجَازَةٍ
وإنْ كَانَ مِثْلي لاَيُبَاحُ لَهُ الشَّيْبُ

وَقَدْ عَلِمَتْ نَفْسِي بأنَّ طلاَبَ مَا
عَدَا قَدْرَهَا مَا كَانَ أعْظَمَهُ ذَنْبُ

وَمَا اجْتَرَأَتْ نَفْسِي عَلَيْهِ جَهَالَةً
ولَكِنَّ شَأْوَ الْعَفْوِ مِنْ سَيِّدِي رَحْبُ

فأجابه أستاذة قائلا : (الطويل)

أَتَى طَالِباً مِنِّي إجَازَتَكُمْ وَمَا
أَرَانِي لَوْلاَ الظَّنُّ أهْلاَ لِذَا الأَمْرِ

وَمِثْلِي يُجَازُ مِنْكُمْ غَيْرَ أنَّهُ
عَلَى قَدْرِ ظَنِّ الْمَرْءِ يُعْطِي مِنَ الْخَيْرِ

---

326) انظر المعسول 7/ 74 ـ 75. سنتطرق لدراسة الإجازات في الفصل الثاني من الباب الثالث.

أَجَـــرْنَاكَ يَابْنَ الشَّـــيْخِ في كُلِّ مَـــا تَرَى

كَطَلٍّ أَمَـــدَّ الْبَـــحْـــرَ بِالوَشَلِ النَّزْرِ(327)

إلا أن أغلب الطلبة لا يطلبون الإجازة لاعتقادهم بأنهم لا يستوفون شروطها مثل الأستاذ محمد بن عبد الله أبلوش الباعمراني(328) تلميذ أبي الحسن الإلغي الذي كتب إلى من استجازه(329) رسالة يبدي فيها رأيه في الإجازة قائلا : «... وأما ما أشرت إليه من الإجازة، فإن ذلك يحتاج لشروط ولم أستوفها يا أخي لقلة علمي كما لا يخفاكم، وانتظام أمثالي في سلك المجيزين من المحال، ففي أمثالهم السائرة لكل عمل رجال، ومن أين لي ذلك وبضاعتي في العلم قدر منزور و«الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَي زُورٍ»(330) فانظر الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر أبا محمد سيدي الطاهر بن محمد أطال الله بقاءه، أو نجله المرتضى سيدي محمد، وأشباههما على أن ذلك غير مشروط في الامتحان وإن أمكنك ترك ذلك فالسلامة في الساحل، وإلا فانظر لنفسك ما تيسر ولا تتعسر... وقد جربنا ذلك فألفيناه كسراب ولا ينبئك مثل خبير».(331)

وهكذا نرى أن كثيرا من طلبة الإلغية لا يتطلبون الإجازة من شيوخهم ظنا منهم أنهم ليسوا من العلوم بمرتبة يستحقون بها نيل هذه الشهادات، فالإجازة لا تمنح، في اعتقادهم إلا لمن تعمق في الإلمام بالعلوم وكال تراب الأرض بالقدم للقاء العلماء البارزين والأخذ عنهم، بالإضافة إلى المشاركة في أغلب الفنون، ومن لم يكن في هذا المستوى من الإطلاع فإن مطالبته بالإجازة وحصوله عليها ليس إلا تزويرا وتلبيسا طالما لم يستند إلى علم واسع ومعرفة عميقة.

ومن هذا الموقف يظهر تورع الطلبة، فغالبهم يرى أن من يطلب الإجازة إما أن يقصد الاتصال بالأسانيد العالية وإضفاء الشرعية على تحصيله العميق بتزكية أشياخه له، وإما أن يقصد الظهور في المجامع وتسنم المراتب بادعاء العلم، جاعلا تلك الاجازات دليلا. وأمثال هؤلاء سرعان ما يفتضحون عند أدنى مباحثة فيسقطون من الأعين، وربما نال اللوم أساتذتهم الذين منحوهم تلك التزكيات دون وجه حق.

---

327) المعسول 7/ 74 - 75.

328) أنظر ترجمته بالمعسول 10/ 163

329) هو أحمد أبو الخير التاغجيجتي أنظر المعهد الإسلامي والمدارس العتيقة بسوس 3/ 337.

330) من حديث نبوي رواه البخاري عن سليمان بن حرب في كتاب النكاح من صحيحه.

331) المتوكل عمر الساحلي - المعهد الإسلامي والمدارس العتيقة بسوس 3/ 338.

الفصل الثاني
النظام التعليمي

تـمـهـيـد :

المبحث الأول : العلوم والفنون المتدارسة بالمدرسة.

أ - العلوم المقررة في النصاب.

ب - العلوم المقررة خارج النصاب.

ج - العلوم التي تدرس أحيانا بالإلغية.

المبحث الثاني : المناهج الدراسية بالمدرسة الإلغية.

أ - تنظيم الطلبة في طبقات.

ب - اليوم الدراسي بالمدرسة.

ج - الحفظ والاستظهار.

د - المراجعة والمباحثة.

هـ - السرد.

و = المكافآت والتعزيرات.

تمهيد :

اكتملت العلوم العربية الإسلامية منذ بلغت الحضارة الإسلامية أوجها، وتحول المؤلفون إلى التعليق على مؤلفات أسلافهم، واختصارها ونظم المختصر وشرح المنظوم، وتحشية الشروح، فمات الاجتهاد والابتكار، وابتلي طلبة العلم بالاجترار والتكرار، وأضحت قراءة العلوم مقتصرة على الإلمام ببضعة متون في كل علم مع الاستعانة بشروحها وحواشيها. وبمرور الأيام رسخت هذه الأساليب في جامعات الشرق العربي، وانتقلت إلى المغرب.

وفي سوس صارت هذه الأساليب التعليمية تتخذ صبغة محلية باتجاه الأساتذة وطلبتهم إلى الاقتصار على دراسة الكتب السوسية، كما انصحرت اهتماماتهم في العلوم الضرورية في الحياة العلمية «فالنحو وقليل من اللغة والفقه والفرائض والحساب، وإلقاء نظرات سريعة على ما سوى ذلك من الفنون،هي التي يقبل عليها كل التلاميذ أو يجعلونها مدى أخذهم لعلهم يعيشون وراءها ... والغالب متأثر ببيئة سوس، ولا يطالب البدوي، أيا كان، إلا بما تقتضيه بداوته وتظهر به سرعة مكانته، ثم يعد ما وراء ذلك من الفضول».(332)

---

332) المعسول 13/ 143.

المبحث الأول : العلوم والفنون المتدارسة بالإلغية.

اهتمت المدرسة الإلغية بتدريس العلوم المعروفة من خلال نظام معين منبثق من نظرة خاصة إلى أهميتها، حيث قسموها إلى قسمين :

الأول : يشمل العلوم الضرورية لعامة الطلبة من خلال أنصبة معلومة في المتون وشروحها.

الثاني : ويتكون من العلوم التكميلية وهي التي لا يلتزم بها كل الطلبة، فيدرسها من أراد منهم أيام العطل الأسبوعية والسنوية. وهناك علوم من هذين القسمين لا يدرسها الطلبة إلا عند حلول أساتذة زائرين بالمدرسة.

أ - العلوم المقررة في النصاب اليومي :

حدد الإلغيون العلوم التي تلزم كل الطلاب قراءتها وجعلوا لكل علم متنا، وقسموا هذه المتون على أيام السنة، بحيث تتم دراستها في مدة معينة؛ في كل يوم قسم.(333) ويسيرون في بعض العلوم على أنصبة الأستاذ سعيد الشريف الكثيري(334) مثل الألفية ومختصر الشيخ خليل بن إسحاق.(335) والعلوم التي يدرسها الإلغيون يوميا هي :

1 - النحو : اعتنى الإلغيون به رغبة في إتقان الطالب اللغة العربية واستبطان قواعدها، وتدرجوا في تدريسه وبدؤوا بالسهل فالصعب ثم الأصعب، وقد درسوا هذا العلم من خلال المتون التالية :

* مقدمة ابن آجروم(336) المعروفة بالأجرومية وتشتمل على أبواب النحو الأساسية بلغة مختزلة منطقية سهلة، لذلك يبتدئ الطلبة بدراستها وقد مدحها عبد العزيز الرسموكي(337) بقوله : (الطويل)

أَفَادَ ابْنُ أَجَرُّومَ قُدِّسَ سِرُّهُ مُقَدِّمَةً بِهَا يَرْقَى سَمَا النَّحْوِ
فَاعْجَبْ بِهَا مَا إِنْ سَمِعْنَا بِمِثْلِهَا بَيَاناً بِفَنِّهَا، فَرِدْ حَوْضَهَا تَرْوِي
أَلاَ قُلْ لِمَنْ يَرُومُ نَحْواً وَمَا ابْتَدَا بِهَا، قَدْ ضَلَلْتَ سُبْلَهُ حُدْتَ عَنْ نَحْوِ

---

333) يسمون هذه الأقسام اليومية الأنصبة.
334) أنظر ترجمته بالمعسول 8/ 221 وطريقة تدريسه وأنصبته بـ 3/ 303.
335) حدثني بذلك الفقيه القاضي امحمد الكثيري.
336) أنظر التعريف به ذكريات مشاهير رجال المغرب رقم 20 للشيخ المرحوم عبد الله كنون.
337) شيخ اليوسي وقاضي الإمارة الإليغية أنظر ترجمته برجالات العلم العربي في سوس ص : 35.

فَــهَــلاَ بِهَــا فَــتَــحَتْ مُــغْلَقَ بَابه
فَـتُـبْـصـرُ عَنْ قُـرْبٍ فَـصِـيـحًـا وَمَـا يَلْوِي
وَمَـاهِيَ حَـقـاً غَـيْـرُ مِـفْـتَـاحِـه فَلُذْ
بِشَـيْخٍ فَـهِـيم نُصْـحُـهُ عَنْكَ لاَ يَطْوِي(338)

ويدرس الإلغيون هذا المتن بشرح محمد بن مبارك الرسموكي(339) وقد فضلوه على غيره من الشروح لأن مولفه حشر فيه كل ما يحتاج المبتدئ إلي حفظه واستظهاره في منبثق تعلمه للنحو.(340)

* منظومة الجمل لأبي عبد الله محمد السلوي المجرادي،(341) نظم فيها كتاب الجمل لأبي القاسم الزجّاجي،(342) ويدرس هذا المتن بشرح علي بن أحمد الرسموكي.(343)

* نظم إبراهيم بن فائد الزواوي(344) كتاب قواعد الإعراب لابن هشام الأنصاري(345) ويدرسه بشرح يحيي بن أحمد البعقيلي(346) الذي تحدث عنه فقال «وسميته بالمرشدالآوي ومعين الناوي لفهم قصيدة الزواوي، وقد بالغت في حل الألفاظ ليتضح غاية الوضوح، ويروا بحسن بيانه من هو بالإنصاف ممدوح، على أني لا أدعي فيه مطابقة الشرح للمشروح، وإنما هو على حسب فهمي وعلى قدر مبلغ علمي، إذ لم أعثر على شرح أهتدى بمناره، وأستضي ببيان أنواره، واعتمد على إيراده وإصداره أو إحضاره. لكني مع ذلك جمعت فيه بفضل الله ما يوضح المقاصد، ويسهل المعاني والفوائد، لينتفع به البادي ويستحسنه الشادي».(347)

* لامية الأفعال لابن مالك بشرح يبورك بن عبد الله بن يعقوب السملالي(348) قال في آخره : «... هذا آخر الشرح المبارك إن شاء الله تعالى الموضوع على لامية الأفعال بتوفيق الله تعالى الكبير المتعال، زائد على غيره، بنكت تظهر لناظره بالعيان منها ما ألهم الله إليه بمحض الفضل والاحسان، وربما خالف بعض الشراح في إعراب أو تقييد أو نحو ذلك...».(349)

---

338) صالح بن عبد الله الإلغي – شرح الأجرومية ص : 3.
339) أنظر ترجمته بالمعسول 14/ 28.
340) المصدر نفسه.
341) أنظر التعريف به عند عمر رضا كحالة – معجم المؤلفين 11/ 286.
342) أنظر السيوطي – بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص : 297.
343) أنظر التعريف به عند محمد المختار السوسي – رجالات العلم العربي في سوس ص : 34.
344) أنظر التعريفية بمعجم المؤلفين 1/ 73.
345) أنظر السيوطي – بغية الوعاة ص : 293.
346) أنظر ترجمته في المعسول 12/ 254.
347) المنهل العذب الحاوي في شرح أرجوزة الزواوي ص : 148.
348) أنظر ترجمته بالمعسول 5/ 45.
349) كتاب تمام النصيحة في إرشاد الطلبة تحقيق عبد السلام الخلد ص : 14.

* منظومة المبنيات حول البناء في النحو وهي لمحمد أبراغ الإفراني،(350) وتدرس بشرحه عليها.

* الألفية لابن مالك المنظومة المشهورة الشاملة لأبواب النحو وتدرس بعدة شروح، حسب طبقة الطالب ومكانته في التحصيل، فهناك المكودي والسيوطي والأشموني والصبان وابن هشام المسمى «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك».(351)

2 - الفقه : إهتم السوسيون بهذا العلم حتى صاروا يتقنونه إتقانا كبيرا، وكان أول ما يلقنونه طلبتهم المبتدئين:(الوافر).

إِذَا مَــــا اعْــــتَــــزَّ ذُو علْم بعلْم
فَــعلْمُ الْفـِـقْــهِ أَوْلَى باعْــتِــزَاز(352)

فَكَمْ طِيبٍ يَطِيبُ وَلاَكَـــمِسْــكَ
وكَمْ طَيْـــرٍ يَطِيـــرُ وَلاَ كَــبَــاز

كما أن بعض الأساتذة يحثون طلبتهم على الفقه وَلو مصحفا(353) أسوة بشيوخهم. وقد درسوه من خلال المتون التالية :

* «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين»، لابن عاشر(354) وهو منظومة المبتدئين في الفقه كما قال ناظمه : (الرجز)

وَبَعْدُ فَالْعَوْنُ منَ اللَّه الْمَجيدْ   في نَظْم أَبْيَات للأُمِّيِّ تُفيدْ

وهذه المنظومة تشمل قواعد الفقه الميسر في سبعة عشر وثلاثمائة بيت، وقد لقيت من اهتمام المغاربة عامة ما حدا المجاهد محمد بن أحمد العياشي أن يقول :(الطويل)

عَلَيْكَ إذَا رُمْتَ الْهُــدَى وَطَرِيقَــهُ
وَبِالدِّينِ لِلْمَــوْلَى الْكَرِيمِ تَدِينُ

بِحِــفْظِ نَظْمِ كَالْجُــمَــان فُــصُــولُهُ
وَمَــاهُوَ إلاَّ مُــرْشِــدٌ وَمُــعِينُ(355)

وتدرس هذه المنظومة بشرح محمد بن أحمد ميارة(356) المسمى الدر الثمين والمورد المعين».

---

350) أنظر ترجمته برجالات العلم العربي في سوس ص : 16 وخلال جزولة 9/ 239.
351) أنظر هذه الشروح في مدارس سوس العتيقة للسوسي ص : 63.
352) محمد المختار السوسي - سوس العالمة ص : 45.
353) أنظر المعسول 6/ 24.
354) أنظر التعريف به بالدر الثمين والمورد المعين لميارة ص : 4 - 5.
355) أنظر التعريف به في المصدر نفسه، ص : 4 - 5.
356) أنظر ترجمته عند الزركلي - الاعلام ... 6/ 238.

* رسالة ابن أبي زيد القيرواني.(357) تتميز بالوضوح في إيراد المسائل، مع اشتمالها على أربعة آلاف مسألة وأربعمائة حديث حتى قال فيها مؤلفها: «... ينتفع به إن شاء الله من رغب في تعلم ذلك من الصغار ومن احتاج إليه من الكبار، وفيه ما يؤدي الجاهل إلى علم ما يعتقده من دينه، ويعمل به من فرائضه، ويفهم كثيرا من أصول الفقه وفنونه. ومن السنن والرغائب والآداب...»(358) وتدرس هذه الرسالة بشرح أبي الحسن علي بن محمد المنوفي(359) المسمى «كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني»، قال عنه: «هذا تعليق لطيف لخصته من شرحي الوسيط والكبير على رسالة ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله... تلخيصا حسنا، مجتنبا فيه التطويل الممل والاختصار المخل، لينتفع به إن شاء الله تعالى المبتدئ لقراءتها والمنتهى لمطالعتها، اقتصرت فيه على حل ألفاظها وذكر ما يحتاج إليه من القيود، والتنبيه على ما فيها من غير المشهور..».(360)

* منظومة تحفة الحكام بمسائل التداعي والأحكام لعلي بن القاسم التجيبي المشهور بالزقاق؛(361) وتتضمن هذه المنظومة ما يحتاجه الطالب في مستقبل حياته إن تصدى للنوازل والفتاوى، من معرفة الأحكام، يقول في مطلعها:

ثَنَائي عَلَى الْمَوْلَى أُقَدِّمُ أوَّلاَ
وَلَكِنْ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً فَذُوا الْعُلاَ(362)
تَعَالَى كَمَا أثْنَي عَلَيْه، وَبَعْدَهُ
عَلَى أحْمَدَ الْهَادِي صَلاَتِي عَلَى الْوَلاَ

وتدرس هذه المنظومة بشرح التّاودي الفاسي.(363)

* منظومة تحفة الحكام في نُكت العقود والأحكام لابن عاصم محمد بن محمد الأندلسي(364) وهي مثل منظومة الزقاق تخص فقه الأحكام وتقرأ بشرح التسولي والتاودي.

357) أنظر ترجمته في ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة: أحمد سحنون - ابن أبي زيد ورسالته ج 3، ص: 31 مطبوعات وزارة الأوقاف.
358) الرسالة ص: 170.
359) أنظر ترجمته في حاشية علي الصعيدي العدوي على شرحه 1/ 3.
360) أبو الحسن المنوفي - كفاية الطالب الرباني بهامش حاشية الصعيدي 1/ 4،5،6.
361) أنظر ترجمته عند الزركلي - الأعلام ... 5/ 135 وفهرس المنجور - تحقيق محمد حجي ص: 57.
362) المجموع الكبير من المتون ص: 164.
363) أنظر ترجمته عند الزركلي - الأعلام 7/ 40.
364) أنظر ترجمته أبي الحسن علي بن عبد السلام التسولي - شرح منظومة ابن عاصم ص: 3 - 4.

* **مختصر الشيخ خليل** : كتاب فقهي يختزل الأحكام الفقهية في عبارات موجزة ألفه خليل بن إسحاق المصري،(365) في مسائل الفقه المالكي وهو من الكتب التي اهتم بها المغاربة كثيرا وتصدى لشرحه والتعليق عليه غير واحد منهم إلا أن الشروح المعتمدة في سوس والمدرسة الإلغية لمصريين كالدّردير والخّراشي والزّرقاوي وحواشيها.

3 - **الحديث** : جرت العادة في مدارس سوس أن يقرأ صحيح البخاري في رمضان من كل سنة، مع تفسير قليل لبعض أحاديثه، بعد مراجعة شرح القسطلاَّني،(366) إلا أن المدرسة الإلغية انفردت بدراسة الحديث دراسة دقيقة، إذ يتتبع أساتذتها الأحاديث بالدراسة كما يدرس المختصر فلا يتمون الصحيح إلا في عدة سنوات.(367)

ب - العلوم المقررة خارج النصاب :

حصر الإلغيون في النصاب اليومي العلوم ذات الأهمية الكبرى بينما خصّوا أيام العطل (العواشر) بباقي العلوم التي لا يتسع الوقت لدراستها يوميا، انطلاقا من فهم خاص يعتبر هذه الأيام فرصة لزيادة التحصيل وإضافة بعض المعارف إلى قائمة المحفوظ والمدروس، وهذه العلوم هي :

* **العروض** : ويدرسه الإلغيون بمنظومة أبي محمد عبد الله بن محمد الخزرجي(368) المعروفة لدى السوسيين والمغاربة بالخزرجية وهي «... قصيدة مقصورة من الضرب الثاني من بحر الطويل في علمي العروض والقافية جامعة لزبدة الفن مع الإيجاز الذي يوشك أن يعد من الإعجاز أكثر تصريحا بالرمز الحرفي على اصطلاح أبجد، فصارت لذلك تسمى بالرامزة».(369)

* **التفسير** : يهتم الطلبة بمطالعة كتبه دون الاجتماع لدراستها ويهتمون بالكتب الآتية : «روح البيان في تفسير القرآن» لأبي الفداء إسماعيل حقي»(370) وروح المعاني «لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي»(371) وتفسير القرآن العظيم» الذي بدأ تأليفه جلال الدين محمد المحْلي(372) وأتمه جلال الدين السيوطي، وهو تفسير مبسط

365) أنظر ترجمته عند الزركلي - الأعلام ... 2/ 364.
366) المختار السوسي - مدارس سوس، ص : 73.
367) المرجع نفسه.
368) أنظر ترجمته عند حاجي خليفة - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون 2/ 113.
369) أحمد بن المامون البلغيثي، الابتهاج بنور السراج 1/ 184.
370) أنظر ترجمته بالاعلام 1/ 309.
371) أنظر ترجمته بالاعلام 8/ 53.
372) أنظر ترجمته بالاعلام 6/ 235.

مختصر يليق بالمبتدئين لما فيه من «الاعتماد على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه، وتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة على وجه لطيف، وتعبير وجيز، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية...».(373)

* **الفلك والتوقيت** : يدرسهما الإلغيون كبقية السوسين بمنظومة محمد بن سعيد الميرغتي(374) «المقنع في اختصار نظم أبي مقْرَع» وهي اختصار لمنظومة مطولة لأبي عبد الله محمد بن عبد الحق البطيوي(375) في هذا العلم، وقد شرح الميرغتي مختصره بشرحين الأول مفصل سماه الممتع في شرح المقنع والثاني سماه المطلع على مسائل المقنع يقول في ديباجته : «... فهذا تقييد مختصر على نظمنا المسمي المقنع في اختصار علم أبي مقرع، سأله مني بعض المبتدئين الراغبين في الدين ، بعدما كنت قبل هذا وضعت عليه شرحا طويلا كان بجل ما تعلق بهذا الفن كفيلا، فكانت الهمم اليوم مولعة بالاقتصار على الاختصار، فلذلك التزمت في هذا التقييد صورة المسألة لينتفع به ويفيد. ومن أراد الطول الكثير، فعليه بشرحنا الكبير المسمى بالممتع في شرح المقنع».(376)

* **السيرة** : يطالع الطلبة الإلغيون بعض كتب السيرة مثل «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلاني، والسيرة النبيوية لابن هشام المعافري، وذكر العلامة المختار أن مما يسهل على الإلغيين دراسة الحديث معرفتهم التامة بالسيرة «لأنهم يتدارسونها بينهم ... ولا شك أن مفتاح الحديث لمن أراد أن يخوضه إنما هو إتقان السير ومزاولة رجال الصحابة في معاجمها».(377)

* **اللغة** : وهي إتقان التصريف وحفظ المعجم ومعرفته بطول مراجعة القواميس حتى يتقن ضبط الكلمات الإسمية والفعلية(378) لذلك أكب تلاميذ الإلغية على مراجعة «القاموس المحيط» للفيروزبادي و «الصحاح» للجوهري، «ومختار الصحاح» للرازي، «والمصباح المنير» لأحمد الفيومي، «وتاج العروس» للمرتضى الزبيدي ...(379) كما

---

373) تفسير القرآن 1/ 2.
374) نسبة إلى قرية ميرغت بالأخصاص بإقليم تزنيت، وأنظر ترجمته بالمعسول 101/ 185 وما بعد.
375) الممتع في شرح المقنع ص : 5 ولقب بأبي مقرع لأنه كان يحمله دائما والمقرع : وعاء التمر. وتوجد من كتاب البطيوي نسخة مخطوطة بالخزانة العامة للوثائق بالرباط في مجموع رقمه 985.
376) الممتع في شرح المقنع، ص : 2.
377) مدارس سوس ص : 73.
378) المرجع نفسه ص : 40.
379) أنظر هذه المصادر كلها عند الدكتور أمجد الطرابلسي - نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، 7 وما بعدها.

اهتموا بدراسة مقدمة القاموس المحيط»، وحفظ منظومة «نيل الأرب في مثلثات العرب» المعروفة عندهم بمثلث قويدر،(380) بالإضافة إلى نظم ابن المرحل(381) لفصيح ثعلب،(382) ومثلثات قطرب البصري بشرحها لعبد العزيز المغربي.(383)

جـ - العلوم التي تدرس أحيانا بالإلغية :

ذكرنا فيما سلف أن بعض الأساتذة يحلون بالمدرسة الإلغية، يقيمون لدى أستاذها وصاحبها، ويدرسون بها لمن شاء من الطلبة، بعض العلوم التي لا يتقنها الإلغيون بتعمق وتدقيق؛ كالعلوم الرقيقة(384) أو التي لا يدرسونها دائما مثل الحساب والفرائض اللّذين يدرسان في رمضان فقط.

* **الحساب** : علم هام يحتاجه الفقهاء لتحرير الفرائض خاصة، ويدرسه الإلغيون من خلال منظومة تعرف لدى السوسيون بالسّملالية(385) بدأ نظمها إبراهيم السملالي،(386) وأتمها العلامة الحيسوبي أحمد بن سليمان الرّسموكي يقول في أول شرحه الصغير عليها : «... فأعلم أيها الراغب في تحقيق المطالب أن علم الحساب من أجل العلوم النافعة، لكونه ينتفع به في مهمات المسائل الواقعة، وقد ألف في ذلك العالم النبيل، أبو سالم سيدي إبراهيم بن أبي القاسم السملالي القبيل، قصيدة فيها أربعة وثلاثون بيتا، مشتملة على عمل الأعداد الصحيحة ثم ذيلتها بما يكمل مائة وعشرين بيتا، قاصدا الانتفاع والنصيحة؛ وسميت مجموعها «الرغاب في معرفة الفرائض والحساب». فشرحتها شرحا كبيرا فيه إطناب، لا يليق إلا بالمنتهي من الطلاب، فلخصت منه شرحا ثانيا بالسبك قصد الانتفاع، ثم ظهر لي أن فهمه ربما يصعب على مبتدئ قصير الباع، فأردت أن أختصر منها هذا الشرح الثالث الصغير، لينتفع به كل طالب قصير، وسميته «مفتاح أجنحة الرغاب في معرفة الفرائض والحساب...».(387)

* **الفرائض** : هي جزء من الفقه المختصري إلا أن الحاجة إلى التمرس فيها تحذو الطلبة إلى دراستها منفردة حتى لا يكونوا من الذين يقال فيهم «من لم يستطع تحرير مسألة من

---

380) أنظر ترجمته بالأعلام 2/ 224.

381) مالك بن المرحل الشاعر الموحدي المعروف أنظر ترجمته عند محمد بن تاويت - الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى. 1/ 338.

382) أنظر حول هذا الكتاب الدكتور أمجد الطرابلسي - نظرة تاريخية ... ص : 76

383) أنظر حولها مقالا لعبد الله كتون مجلة المناهل عدد 3 يونيو 1975 ص : 5.

384) هي البيان، الأصول والمنطق انظر المعسول 13/ 323.

385) أنظر المختار السوسي مدارس سوس ص 64.

386) المختار السوسي رجالات العلم العربي في سوس ص:15.

387) الصفحة الأولى من مخطوط خزانة الإمام علي بالمعهد الإسلامي بتارودانت تحت رقم : ك 52. الأول في مجموع .

المناسخات بديهة في وسط السوق، وهو يقايض في بضاعته فإنه لا يستحق أن يكون ممن يحملون اسم الفرضي».(388)

وتدرس الفرائض بمنظومة أحمد بن سليمان الرسموكي بشروحها الكبير والصغير والأوسط(389) الذي يقول في مقدمته «... فاعلم أن علم الفرائض علم شريف من أجل علوم الدين وأعلاها وأهمها بالبحث والنظم وأولاها، دلت أيات الكتاب على شرفه وعظمته ووردت الأخبار النبوية بالحض على تعليمه وتعلمه، وحذرت مما سيقع من دروس معالمه السنية وذهاب أعلامه الشرعية، ومع ذلك أعراض عنه أهل هذا الزمان حتى أشرف على الدروس والنسيان، وقد كنت قبل هذا الأوان صارفا همتي لتعلمه تعلم إتقان، حتى أطلعني الله على ما شاء؛ من فروعه الفقهية. ولواحقها الحسابية، وتأملت تآليفه، المنظومة والمنثورة المتداولة المشهورة، فلم يظهر لي فيها تأليف متوسط؛ جامع لما يحتاج إليه من الفقه، والأعمال المقصودة فألفت في ذلك أرجوزة سهلة مفيدة، فأردت أن أشرحها شرحا متوسطا يكمل به المرغوب، لكل طالب حبيب وسميته «إيضاح الأسرار المصونة في الجواهر المكنونة في صدق الفرائض المسنونة...»(390)

* **الأصول** : يدرس هذا العلم انطلاقا من كتاب جمع الجوامع لتاج الدين السّبكي(391) بشروح محمد بن أحمد العبادي(392) وإبراهيم اللقاني(393) ثم كتاب ورقات إمام الحرمين(394) وأخيرا المنهج المنتخب إلى أصول المذهب للزقاق بشرح محمد بن علي اليعقوبي : شفاء الغليل من ظمأ العليل(395) وهذا العلم لا يتداول لدى الإلغيين إلا قليلا.

* **البيان** : لا يهتم بدراسته إلا الطلبة المحبون للأدب المتطلعون لفنونه بتوجيه من أساتذتهم كالأدوزيين والبونعمانيين والإلغيين،(396) وأهم كتبه «التلخيص في علومه البلاغة» للإمام القزويني(397) لخص فيه القسم الثالث من كتاب «مفتاح العلوم»

388) المختار السوسي سوس العالمة، ص : 51.
389) ذكر العلامة المختار السوسي في كتابه سوس العالمة أن لأحمد بن سليمان الرسموكي ثلاثة شروح على منظومته ص : 192 وقال صالح بن عبد الله الصالحي الإلغي في تحقيقه للشرح الصغير «دليل الفارض ومفتاح الفرائض» ص : 4. أنه لم يوجد إلا شرحان صغير ووسط.
390) الصفحة الأولى من مخطوط خزانة الإمام علي بالمعهد الإسلامي بتارودانت تحت رقم كـ 52 الثاني في مجموع.
391) أنظر ترجمته في الأعلام 4/ 335.
392) أنظر ترجمته في المرجع نفسه، 6/ 206.
393) أنظر ترجمته في المرجع نفسه، 1/ 21.
394) أنظر ترجمته في المرجع نفسه، 4/ 306.
395) أنظر ترجمته في المرجع نفسه، 17/ 223.
396) محمد المختار السوسي – مدارس سوس العتيقة ص : 64.
397) أنظر ترجمته بالأعلام 7/ 66.

للسكاكي وقد أشار إلى ذلك في مقدمته إذ قال : «...لما كان القسم الثالث من مفتاح العلوم، الذي صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي أعظم ما صنف فيه(398) من الكتب المشهورة نفعا لكونه أحسنها ترتيبا وأتمّها تحريرا وأكثرها للأصول جمعا، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلا للاختصار مفتقرا إلى الإيضاح والتجريد، ألفت مختصرا يتضمن ما فيه من القواعد ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ولم آل جهدا في تحقيقه وتهذيبه ورتبته ترتيبا أقرب تناولا من ترتيبه، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريبا لتعاطيه، وطلبا لتسهيل فهمه على طالبه، وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت في بعض كتب القوم عليها وزوائد لم أظفر في كلام أحد بالتصريح بها، ولا الإشارة إليها».(399)

ويدرس هذا الكتاب بالاستعانة بمختصره لسعد الدين التفتازاني :(400) وهو كتاب شرح فيه الغوامض وقيد الشوارد. كما يدرس علم البيان في كتاب «الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون» لعبد الرحمان الأخضري الجزائري(401) ومنظومة الإستعارات لمحمد بن الطيب بن كيران.(402)

* **المنطق** : لا يهتم بدراسته إلاّ أساتذة قليلون من السوسيين مثل الإلغيين ويدرسونه بمنظومة السّلم للأخضري الجزائري التي «قبست منه قبسة، فاكتفى الناس بذلك، وهم أخوف الناس أن يصطدموا والسيوطي الذي حرمه مع طائفة من المحدّثين كثيرة، ولاشك أن هذه النقطة التي خطفها الأخضري من ذلك البحر لا تحرم، ولكنها أيضا لا تسمن ولا تغني من جوع».(403)

---

398) يقصد علم البيان.
399) القزويني - التلخيص في علوم البلاغة ص : 22 - 23.
400) أنظر ترجمته في الأعلام 8/ 113.
401) أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 4/ 108.
402) أنظر ترجمته في الأعلام 7/ 47.
403) المختار السوسي - مدارس سوس العتيقة ص : 65.

المبحث الثاني : المناهج الدراسية بالمدرسة الإلغية :

أسست المدرسة الإلغية من أول يوم على التدرج في إقراء الطلبة من أسهل المتون حتى أصعبها وذلك بتقسيمهم إلى طبقات ثلاث، كل طبقة دروسها الخاصة بها، ولا يرتقي الطالب إلى الطبقة التالية إلا إذا استحضر كل ما قرأ، أو حفظه حفظا لا نسيان بعده، وقد استعمل الأساتذة لتدريس الطلبة طرقا تركز على الحفظ أولا، ثم الفهم ثانيا، مع تشجيع التلاميذ وتحفيزهم للمشاركة في النشاط التعليمي وعدم الاكتفاء بالاستماع فقط، وهذا ما جعل طلبة الإلغية ينفردون بين أقرانهم السوسيين بالجرأة والشجاعة الأدبية بالإضافة إلى أن الطالب المجد لا تكاد تمر عليه عشر سنوات حتى يبلغ مناه من العلوم مستحضرا متفهما لكل ما مر بين يديه من كتب وشروح ونصوص(404) وما ذلك إلا نتيجة لذلك النظام التعليمي المجدي الذي سار عليه الأساتذة الإلغيون،

أ - تنظيم الطلبة في طبقات :

بدأ محمد بن عبد الله خطته التعليمية قبل تأسيس مدرسته بشكلها المستقل أي منذ حوّل مسجد قريته إلى مدرسة، وجمع إليه بعض الطلبة الصغار فبدأ بتحفيظهم القرآن، ولما افتتح مؤسسته الجديدة وتوارد عليه الطلبة المبتدئون في العلوم بدا له أن يجعل للمدرسة طريقة دراسية منظمة يرتب فيها الطلبة ترتيبا يجمع كلا منهم إلى قرينه في المعارف ولتتم بذلك فائدتان :

* تعاون الطلبة من الطبقة نفسها فيما بينهم وتنافسهم تنافسا يدفعهم إلى الجدية والاجتهاد في الدراسة.

* تيسير مراعاة الطلبة علي الأستاذ فبدلا من إقراء كل طالب على حدة(405) مع ما في ذلك من جهد وضياع وقت، يتم إقراء كل الطلبة ذوي المستوى الواحد بأيسر جهد وفي أقل مدة.

لهذا قسم محمد بن عبد الله(406) المستويات الدراسية إلى ثلاثة :

الأول : مستوى المبتدئين وينتظم فيه الطلبة الذين أتموا حفظ القرآن في مساجد قراهم الصغرى. وزادوا عليه معرفة بعض القراءات، ثم طمحوا بعد ذلك إلى إتقان العلوم، ولا يقبل هؤلاء المبتدئون إلا إذا امتحنهم الأستاذ ليتأكد من إتقانهم حفظ القرآن فيتلونه بلا تهدج ولا تلعثم، عندئذ يفتتح لهم صاحب المدرسة(407) الدراسة بأول ما يقرأ

404) مثل بلقاسم التاجرمونتي والطاهر الإفراني .. وغيرهما.

405) كما كان يفعل العلامة عبد الله بن محمد الجشتيمي. أنظر المعسول 6/ 15.

406) هو واضع المنهج الدراسي للمدرسة الإلغية والذي سار عليه خلفاؤه من بعده وتلاميذه وقد أخذ هذا النظام من الشيوخ الجشتيميين بوساطة أستاذه محمد بن إبراهيم الإفراني، التمنارتي أصلا وهذا النظام كان معمولا به في أغلب مدارس سوس.

407) يختص الأساتذة من أصحاب المدرسة بافتتاح القراءة للتلاميذ المبتدئين إن تم قبولهم. أنظر المعسول 9/ 10.

في هذه الطبقة، وهو متن الأجرومية، فيكتب في اللّوح الخشبي «بسم الله الرحمان الرحيم، الصلاة والسلام على النبي(صلى الله عليه وسلم) وسلم الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع... اللّهم افتح البصيرة، ونور بفضلك السّريرة»(408) ثم يشرح له معنى النصاب أو يأمر أحد الطلبة المعينين أن يقوم عنه بذلك.(409) ويقضي الطلبة في حفظ هذا المتن وشواهده ثلاثة أشهر أو أربعة وقد يختمها بعضهم في أقل من ذلك، لأن من عادة بعض المؤدبين كتابة ما تيسر منها أسفل اللوح عند إقراء القرآن فيحفظونها قبل التحاقهم بالمدرسة.(410)

ويقرأ الطالب بالإضافة إلى الأجرومية منظومات الجمل للمجرادي وقواعد الإعراب للزواوي ولامية الأفعال لابن مالك، والمبنيات لأبراغ الإفراني وهي كلها متون نحوية. ويقتصرون في هذا المستوى على متن فقهي واحد هو نظم ابن عاشر مما يدل على اهتمام الإلغيين بقراءة اللغة ولهذا دلالته إذا قرن بالاتجاه الأدبي للمدرسة.

ويقضي الطالب في هذا المستوى أزيد من سنتين «هو غير مشتغل إلا بهذه المبادئ ... بهذا التدرج ... والكتْب في اللوحة ... لا تكفي فيها المرة الواحدة، بل تعاد حتى ترسخ بكل تلك التفاصيل والشواذ التي في بحرها...(411)

الثاني : مستوى الشّادين(412) ويضم الطلبة الذين تجاوزوا المستوى الأول وأتقنوا جميع متونه بامتحان الأستاذ لهم، ويواصلون دراستهم بالتمرس في النحو والفقه، فيحفظون الألفية في ألواحهم الخشبية مستعينين على فهمها بشروح أولية مثل «البهجة المرضية في شرح الألفية» للسيوطي وشرح المكودي(413) ولأجل تذوق بلاغة اللغة العربية، وجمالياتها البيانية، وتجاوز دراسة قواعدها وتطبيقها في أمثلة وشواهد جافة يدرس الطلبة مقامات الحريري، ويحفظونها مستعينين بشرحها، للشريشي. كما يدرسون الفقه في رسالة ابن أبي زيد القيرواني، والحساب والفرائض في منظومتيهما(414) بشرحي الرسموكي الصغيرين، وذلك في رمضان مع قراءة الحديث في صحيح الإمام البخاري. فإذا أتم الطالب كل هذه المتون في سنتين أو ثلاث(415) حسب فهمه واستيعابه امتحنه أستاذه تمهيدا لنقله إلى المستوى الثالث.

408) المعسول 11/ 11.
409) محمد المختار السوسي مدارس سوس ص : 76 ويسمون ذلك الشرح التقرير.
410) المعسول 10/ 22.
411) المختار السوسي مدارس سوس العتيقة، ص : 76.
412) الشادي الذي تعلم شيئا من العلم، أنظر مادة شدا من لسان العرب لابن منظور.
413) المعسول 1/ 167.
414) أنظر المنظومات التي يدرس بها هذان العلمان في المبحث الأول من هذا الفصل.
415) مدارس سوس العتيقة ص : 76.

الثالث : مستوى النجباء حيث الدراسة العليا التي تتضمن المتون والكتب الموسعة والتكميلية دون إهمال العلوم الأساسية، إذ تعاد قراءة بعض المتون المدروسة من قبل بشروح أكثر عمقا واستيعابا للتفاصيل والشوارد، فتقرأ الألفية بشروح الأشموني والصبان، وتدرس منظومات الحساب والفرائض بشرحي الرّسموكي الأوسط والأكبر، ويتم إعداد الطالب للتخرج بتعميق معرفته في الفقه فيطلع على المختصر وشروحه وحواشيها وعلى منظومتي ابن عاصم الأندلسي والزقاق الفاسي ويحفظ من ذلك ما استطاع، كما يلم ببعض علوم أخرى كالأصول والبيان والعروض والتفسير والمنطق والفلك والتوقيت، ويتمرن على سرد كتب الأدب وحفظ نصوصه النثرية والشعرية وحتى يتدرب الطلبة النجباء على التدريس، يكلفهم الأستاذ بإقراء المبتدئين والشادين يشرحون لهم مدروساتهم بإرشاد ومراقبة منه. وقد آتت هذه الطريقة التي اعتمدها مؤسس المدرسة أكلها بتدرج الطلبة من مستوى إلى آخره وبسيطرة الأستاذ على زمام الدراسة بإيتاء كل طبقة حقها من العناية، فالنظام والتؤدة والرفق والتدرج شيئا فشيئا هي ميزات طريقة الإلغية في الدراسة.(416)

ب - اليوم الدراسي بالمدرسة :

يبدأ اليوم الدراسي بالإلغية كما في بقية مدارس سوس في الثلث الأخير من الليل حين يستيقظ الطلبة لمطالعة دروسهم «قبل الفجر بحوالي ساعتين أو أقل أو أكثر للاستعداد المادي والأدبي، فلا تسمع حينئذ إلاّ دويّ القراءة والمطالعة، ولا تبصر إلا بصيص المصابيح في البيوت».(417)

ثم بعد الصلاة وقراءة الحزب الصباحي يجتمع أصحاب الطبقة الثالثة ليقرؤا نصاب المختصر، فيجلس الأستاذ في المجلس وحوله الطلبة وبين أيديهم ألواحهم التي كتبوا فيها النصاب من قبل. وبجانبه طالب يسمى القارئ، بين يديه كتاب المختصر وعندما يفتتح الأستاذ الدرس يأمر بتلاوة أوّل النصاب فيتلوه بصوت مسموع، ثم يقرأ الأستاذ الدرس والطلبة منصتون وعندما يتمه يعود لشرحه «يتتبع الصور، صورة صورة في كل صورة قررها يسرد عليها الدّردير، ويراجع الدسوقي، ثم إن حصل إشكال يراجع الزرقاني والخراشي(418) وحواشيهما وهكذا حتى يتم الدرس».(419)

---

416) المعسول 1/ 167.
417) المعسول 3/ 309.
418) المقصود بأسماء هؤلاء الأعلام شروحهم على المختصر.
419) محمد المختار السوسي مدارس سوس، ص : 78.

وبعد الانتهاء من المختصر يأتي دور رسالة ابن أبي زيد فمنظومة ابن عاصم الغرناطي بنفس الطريقة، ولا تنتهى هذه الدروس حتى يكل الطلبة، فيميل بهم الأستاذ قبيل الزوال إلى المقامات ترويحا عن نفوسهم التي أتعبها دقائق الفقه، فيتلوها أحد الطلبة والشرح بين يدي الأستاذ يتلو منه أيضا(420) ولا ينتهي الدارس إلا بعد الزوال فيختم الأستاذ المجلس بالدعاء وينفض الطلبة من حوله.(421)

وبعد الظهر يجتمع الطلبة الشادون والمبتدئون الذين بدؤا حفظ الألفية في النحو لدراستها، وعند ما يجلسون يفتتح الدرس بأبيات من عادتهم البدء وهي : (الرجز)

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ... ذَاكَ الرَّجِيمُ عَدُوُّ الإِنْسَانِ

أَوَّلُ مَا نَقُولُ بِاسْمِ اللَّهِ ... وَخَيْرُ مَا نَذْكُرُ حَمْدُ اللَّهِ

مُحَمَّدٌ بَشَرٌ لاَ كَالْبَشَرِ ... بَلْ هُوَ كَالْيَاقُوتِ بَيْنَ الْحَجَرِ.(422)

وتنشد بعدها أبيات النصاب السابق التي درسها الطلبة من قبل، ثم يفتتح القارئ النصاب بتلاوة أوله بصوت مسموع، فيقرأ الأستاذ الدرس مستعينا بشرح السيوطي في تقريراته وكلما أتم مسألة «يسرد أحد المبتدئين المكودي ويسرد أحد الشادين الموضح(423) بالمناوبة، ثم ينتقلون الى مسألة أخرى، هكذا؛ حتى يتم الدرس»(424) بإعلان القارئ نهاية النصاب بقوله : «وصلى الله»، وفي أثناء الدرس يمرّن الأستاذ طلبته على الإعراب فيلقي إليهم الكلمات والجمل فيتنافسون في إنزالها محلاتها منه».(425)

وبعد الألفية يأتي دور الفقه من خلال رسالة ابن أبي زيد وشرحها للمنوفي بنفس الطريقة السابقة في دراسة المختصر والألفية، ويستمر هذا الدرس حتى العصر. ويجتمع المبتدئون على الأستاذ بعده فيعرضون عليه محفوظاتهم من المتون الابتدائية كالأجرومية والجمل والزواوي والمبنيات والمرشد المعين، حتى يقف على تقدمهم في الدراسة، فيشجع

---

420) أخبرني بذلك للفقيه القاضي امحمد الكثيري.
421) المرجع السابق ص : 78.
422) محمد المختار السوسي مدارس سوس العتيقة ص : 78.
423) المقصود كتاب أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هاشم الانصاري أنظر بغية الواعاة ص:293.
424) المرجع السابق ص : 77.
425) وذلك عكس المعتاد في الحواضر الكبرى حيث يعرب الأستاذ الشواهد والأبيات والطلبة يستمعون إليه دون مشاركة منهم، أنظر مدارس سوس ص : 78.

المجدين ويؤنب المتكاسلين.(426) ثم يدرسون نصاب النحو على نحو ما سبق، مغيرين الأبيات التي ترجز أولا إذ ينشدون في مدح الرسول(ص) :

لَهُ هِمَمٌ لاَ مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا
وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ
لَهُ رَاحَةٌ لَوَ أَنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا
عَلَى البَرِّ كَانَ الْبَرُّ أَنْدَى مِنَ الْبَحْرِ
عَلَيْهِ صَلاَةُ اللَّهِ ثُمَّ سَلاَمُهُ
وَآل لَهُ مَعَ صَحْبِهِ السَّادَةَ الْغُرِّ(427)

ويتبعونه بدرس الفقه في متن ابنً عاشر، وعند انتهاءَ الدرس باقتراب صلاة المغرب وحلول الليل، ينفض الطلبة من حول الأستاذ، ولسان حالهم ينشد :

يَا أَيُّهَا النَّاظِرُ فِي الْمَسَاطِر ... إِذَا أَتَتْكَ سَاعَةُ الْمَسَاطِرْ(428)

ويحضر الطلبة قراءةَ حَزب القرآنَ بعد صَلاة المغرب ويندبهمَ الأستاذ عقبه لإعراب أوائله خاصة المبتدئين منهم حتى يتمكنوا من تطبيق القواعد التي درسوها.

وفي الليل يتفرق الطلبة لمراجعة دروسهم فترى الثلاثة أو الأربعة منهم يجتمعون لذلك(429) يعيدون الأنصبة التي درسوها ذلك اليوم، كما أن لكل طبقة مراجعاتها العامة يتصدر فيها الطلبة مناوبة لتقرير الدروس وتوضيح ما غمض من جزئياتها قبل أن يقرئها الأستاذ في اليوم التالي.(430) وتستمر هذه المراجعات حتى الثلث الأول من الليل يسهرها المجدون صابرين على التحصيل مستجبين لقول الشاعر :

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بَاشِرِ الْوَرَعْ
وَبَايِنِ النَّوْمَ وَاهْجُرِ الشَّبَعَ
وَدُمْ عَلَى الدَّرْسً لاَ تُفَارِقُهُ
فَالْعِلْمُ بِالدَّرْسِ قَامَ وَارْتَفَعْ(431)

---

426) اعتمدت في تحديد المواد المدروسة في كل الفترات اليومية على المعسول 1/ 167 و57 ومدارس سوس العتيقة ص : 75 ـ 82 والرواية الشفوية للفقيه امحمد الكثيري والأستاذ عبد الرحمان الرسموكي الجعفري والأستاذ أحمد بن زكرياء السكال الباعمراني والوالد محمد بن أحمد السعيدي.

427) مدارس سوس العتيقة ص : 78.

428) المعسول 11/ 62.

429) أخبرني الفقيه القاضي امحمد الكثيري أنه كان يجتمع للمراجعة بأحمد بن سعيد الاكماري، ومحمد بن الحاج أحمد اليزيدي، ومحمد بن عبد الرحمان اليزيدي، والمدني بن علي الالغي.

430) محمد المختار السوسي – مدارس سوس العتيقة ص : 80.

431) يبورك بن عبد الله السملالي ـ تمام النصيحة في إرشاد الطلبة ص : 58.

جـ - الحفظ والاستظهار :

يعتبر الحفظ والاستظهار من الطرق التعليمية الأكثر إنتشارا في المناهج التعليمية، وقد ترسخت منذ القرن الثامن حيث بلغت العلوم العربية مداها وصارت تتدرج نحو الجمود بموت الاجتهاد، وظهر القول الشائع ليس بالإمكان أبدع مما كان»، كما أصبح العلم شيئا محددا معينا يمتلكه العلماء الذين يحفظون متونه ويتسابق الطلبة لأخذه عنهم والحصول على شهادة اتقان الأخد : «الإجازة» ليتمكنوا بدورهم من تبليغ المحفوظ وليصبحوا أعمدة ترتكز عليها الثقافة.(432)

وفي سوس حيث رسخت هذه التقاليد التربوية قبل القرن العاشر الهجري(433) صارت المؤلفات التربوية تلح على الحفظ ، كقول محمد بن أحمد الحضيكي:(434) «وليعتمد على السماع والحفظ والفهم لا على الكتب متكلا على الله تعالى في أن يعلمه بفضله وهو على ذلك وليتعلق بفضل الله وأنه لا يخيب وأنه إذا أعطى علما فسيعطى كتابا»(435) كما صارت تبحث في ما يزيد الحفظ ويقوي الذاكرة كقول يببورك بن عبد الله السملالي : «...وأقوى أسباب الحفظ الجد والمواظبة وتقليل القرآن نظرا، والسواك وشرب العسل وأكل الكندر مع السكر وأكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء كل يوم علي الريق يورث الحفظ... وكل ما يقلل البلغم والرطوبات يزيد في الحفظ...»(436)

وبشيوع الحفظ واعتماد العملية التعليمية عليه غلبت دراسة الأراجيز «ليسهل ويتيسر الحفظ .. فلا يصعب ولا يتعسر علي جميع الطلاب القارئين ... وإنما كان الرجز أدعى للحفظ وأحظى من النثر لأنه أحد أنواع الشعر الذي ركب الله عز وجل في جبلة كل ذي طبع سليم، التلذذ بسماعه والاستطابة بألحانة، بخلاف النثر؛ فإن اللفظ إذا كان منثورا نبذا بالاسماع وتدحرج عن الطباع ولم يستقر منه إلا اللفظة المفرطة في اللطف...».(437)

إلا أن للحفظ فائدة عظيمة في بيئة المدرسة الإلغية الأعجمية التي لا تروج فيها العربية إلا قليلا جدا. إذ هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة لغة القرآن، وإن كانت هذه المعرفة تتم في محيط مدرسي مخالف للمحيط اللغوي الطبيعي، الذي يتم فيه تعلم الطفل للغة «بالاستناذ إلى عدد من العمليات الذهنية التي ترتبط بنموه الإدراكي... من خلال التفاعل مع المادة اللغوية المحيطة، فيتخطى مستوى الملاحظة ويتسنى له بناء قواعده الخاصة في

432) عبد الفتاح كيليطو - الأدب والغرابة ص : 16.
433) السوسي مدارس سوس العتيقة ص : 58.
434) الإمام العلامة صاحب الطبقات ومجدد العلوم بسوس في القرن 12 هـ أنظر ترجمته بالمعسول 11/ 300.
435) محمد الحضيكي - رسالة في آداب العلم ص : 13.
436) يببورك بن عبد الله السملالي تمام النصيحة في إرشاد الطلبة ص : 66.
437) يحيى بن محمد البعقيلي - المنهل العذب الحاوي في شرح أرجوزة الزواوي من : 7 - 8.

ممارساته اللغوية للتواصل مع بيئته»(438) بينما يصطدم الطالب الأعجمي بالمادة اللغوية العربية عند حفظ القرآن الكريم، ثم المتون العلمية ويتكون لديه بسبب ذلك تصور ينص على اعتبارها مجرد رموز غريبة غير مفهومة، ويستمر هذا التصور بترقي الطالب في دراسته، صابرا على ذلك الاستظهار الحرفي المشوب بشذرات من الفهم، مؤمنا بأن «القراءة في جميع المدارس المحلية لا يذوق فيها المتعلم حلاوة إلا بعد فترة، لا تقل عن خمس سنوات»...(439) إلا أن الحفظ يجعل الطالب من خلال احتكاكه بالنصوص العربية، يتعرف على المعجم العربي ويستبطنه باعتباره وسيلة لتكوين الكفاية اللغوية إذ «يتقدم اكتساب المعجم لدى المتعلم بتقدمه في التعلم الضمني للمباني والمعاني والصرفية».(440)

وقد اهتمت المدرسة الإلغية أساسا بتحفيظ الطالب المتون النحوية واللغوية في مرحلتين الأولية والمتوسطة، حتى يتعمق أكثر من معرفة قواعد العربية. فمقابل متنين فقهيين يتلقن الطلبة ستة متون نحوية، وهذا ما يدل على الاهتمام باللغة في المستويات الأولية بالمدرسة اهتماما كبيرا يجعل الأساتذة يحفظون الطالب بالإضافة إلى هذه المتون، الشواهد والحقائق وتفريعاتها بحجة أنها ستنفعه في المستقبل ويتم هذا الحفظ بالتكرار، حيث تقرأ الأجرومية مرتين أو ثلاثا، والألفية والمختصر كذلك.(441) وبترقي الطالب في التعلم يعيد دراسة محفوظاته بشروح أكثر عمقا لاستثمارها. وفي هذه المرحلة ينتقل من الحفظ الآلي إلى الاستظهار الذي «يتطلب منه... توظيف ما اخترته من معلومات ومعارف لغوية وذهنية قصد الإجابة عن سؤال أو التعبير عن رأي خاص أو من أجل تطبيق لمجموعة من القواعد والمعايير أو المبادئ والمقاييس النظرية».(442)

ويعتبر الاهتمام بتدريس الآداب، ومختاراتها الشعرية والنثرية، فرصة لاطلاع الطلبة على الجانب الجمالي للغة، وتفتح أذهانهم على معانيها، ليستطيعوا تذوق بلاغتها، وتنمية اهتماماتهم البيانية، فتنموا عندئذ أفهامهم، وتتفتح عقولهم على تلك الرموز التي قضوا عدة سنوات في استيعابها، ولا يكادون يصلون إلى هذا المستوى، وقليل ماهم، حتى يرسلوا أنفسهم على سجيتها. وفهمهم على عواهنه، بعد أن ضجروا من الحفظ، وأعيادهم بأعبائه الثقيلة(443) فيتفرغون للمطالعة في كتب الأدب والتاريخ خاصة، وإذ ذاك يستفيدون مما في جعبتهم من أراجيز بعد أن بدأوا تحصيل طرق استغلالها واستثمارها بفضل كثرة المراجعة والمباحثة.

---

438) ميشال زكرياء الألسنية التوليدية ،والتحويلية وقواعد اللغة العربية، النظرية الألسنية ص 62.
439) المعسول 2/ 224.
440) المصطفى بن عبد الله بوشوك – تعليم وتعلم اللغة العربية وثقافتها ص : 140.
441) السوسي مدارس سوس العتيقة ص : 76.
442) المصطفى بن عبد الله بوشوك – تعليم وتعلم اللغة العربية وثقافتها. ص : 161.
443) المرجع السابق ص : 80.

د - المراجعة والمباحثة :

لم يقتصر أساتذة المدرسة الإلغية على تحفيظ الطلبة المتون العلمية والأدبية بل حرصوا على إفهامهم ما يقرؤون، وإن كان الفهم مرحلة لاحقة للحفظ، ولتحفيز الطالب لاستيعاب مدروساته استيعابا لا نسيان بعده جعل الإلغيون أوقاتا معينة للمراجعة وقسموها إلى قسمين :

* **المراجعة الجماعية** : يجتمع فيها الطالب بزملائه من نفس الطبقة لإعادة قراءة النصاب الذي سيدرسه الأستاذ، بعد أن راجعه كل واحد منهم منفردا؛ (444) يتناوبون ذلك فيما بينهم، ويحرصون على التعرض في مراجعاتهم لكل الجزئيات والشواهد والاشكالات والمسائل، بل يتجاوزون دراسة نصاب الغد إلى إعادة الأنصبة السابقة كلها فيبدئون «مثلا من أول الألفية إلي النائب على الفاعل في ظروف ثلاث ساعات أو أربع،(445) من غير أن ينخرم لهم شاهد، أو يشذ عنهم بيت أو معنى، لكثرة ما يكررون ذلك كل ليلة، ثم إن طال عليهم يتركون من أوله أبوابا بالتدريج بقدر ما يزدادون آخرا، فلا يصلون باب فعل التفضيل حتى يذروا ما قبل النائب على الفاعل، وهكذا حتى تتم الألفية».(446) وفي هذه الجلسات تشتد المنافسة بين الطلبة ويلاقي صاحب النوبة عنتا كبيرا في إقناع زملائه بحسن تناوله للدرس لذلك يستعد بكل ما في جهده مستعينا بمن هو أعلى منه مستوى، ثم يلقي الدرس «بما أوصلته إليه مداركه وقرناؤه مستديرون به ويجاذبونه الأبحاث ويثيرون الاشكالات، وقد تهيأ لكل ذلك لقتله الدرس معرفة وخبرا، خوف أن يتخذ ضحكة».(447)

* **المراجعة الفردية** : وهي خاصة بمراجعة الأنصبة التي ألقاها الأستاذ في ذلك اليوم، فينفرد الطالب بنفسه، ليحفظ ما شذ عن ذهنه ويراجع ما أفلت من فهمه. وقد يجتمع بطالب أو طالبين من طبقته يتعاونون فيما بينهم. بالإضافة إلى هذه المراجعات يؤاخذ الأستاذ طلبته خاصة المبتدئين بالتوطئة وهي إعادة كل ما حفظ في الدروس المتقدمة من الشروح والشواهد والقواعد،(448) ونظرا للمنافسة الشديدة بين الطلبة يحدث أحيانا أن تتجاوز المستوى التربوي، لتصبح صراعا يطبعه العنف والاستهزاء، والسخرية من المقصرين، وتغذي هذا الصراع إرادة التفوق حيث يترقب المراجعون أي خطأ أو زلة لسان من صاحب النوبة لكي يعنفوه ويحطوا من قدر فهمه وإدراكه وربما تجاوز الأمر إلى المضاربة «فتثور الكراريس، ويصطدم القنديل الذي يستحضره صاحب النوبة وتدور ملاكمة ومصارعة في الظلام قلما تحمد عقباها».(449)

---

444) المعسول 1 / 57 .

445) السوسي مدارس سوس العتيقة ص : 79 - 80.

446) يراجعون في هذه الجلسات ما مقداره ستة عشر باب من الألفية.

447) المرجع السابق ص : 77.

448) نفسه ص : 79.

449) نفسه ص : 80.

ورغم كل ذلك تؤدى المراجعات دورها المتمثل في ترسيخ المعلومات في ذاكرة الطالب ومساعدته على فهمها بتكرار النظر في الشروح والحواشي وباستثمار المعارف في الاستدلال والتوضيح والمناقشة وبذلك أضحت المراجعة خير مسنّ للطالب النجيب.(450) واهتم الالغيون أيضا بالمباحثة التي تأخذ شكل المحاورة وإدلاء كل طرف برأيه، وبما يعضده من شواهد وأمثلة، ويمكن تقسيم هذه المباحثات الإلغية إلى قسمين :

* **المباحثات المدرسية** : وتقترن بالدراسة حيث يتجاوز الأستاذ الطريقة التلقينية التي يبقى فيها الطالب عنصرا سلبيا يسمع ما يلقى إليه، إلى محاورته خاصة إن كان له رأي مخالف لما يلقى إليه. وقد كان الأساتذة الإلغيون يتميزون برحابة الصدر والصبر على الطلبة فلا ينصرفون عنهم إلا راضين؛ مثل أبي الحسن الإلغي الذي «يرخى العنان كل الإرخاء، ولا يجْبه من يخالف رأيه في مسألة بل يسايره حتى يتجلى الحق للجانبين، فيقف المباحث عن عسفه إن كان هو الذي اعتسف عن الصراط السوي، وإن كان هو الأستاذ فسرعان ما يرجع...».(451)

ومن أمثلة هذه المباحثات محاورة نحوية أوردها الفقيه صالح بن عبد الله بن محمد الصالحي الإلغي فقال : (452) «... وصورة محاورتهم - رحمهم الله - عند التعليم لأن ذلك هو المقصود الأعظم، أن يقول الشيخ في أين الاستفهامية مثلا بعد أن أعربها التلميذ ما نصه : أين؛ اسم أو فعل أو حرف؟ الجواب : اسم معرب أو مبني؟ الجواب مبني، هل في بنائه سؤال أولا سؤالا فيه؟ الجواب فيه أسئلة ثلاثة : لماذا بني؟ الجواب لشبه بالحرف، فيماذا أشبه الحرف؟ في المعنى، ما حد الشبه المعنوي؟ أن يكون الاسم متضمنا معنى من معاني الحروف سواء وضع لذلك المعنى حرفا أم لا. ما الدليل؟ «والمعنوي في متن وفي هنا»(453) أي حرف أشبه؟ همزة الاستفهام. ولماذا خالف أصله ولم يبن على الذي هو الأصل في كل مبني؟ مخافة التقاء الساكنين. ما الدليل أن الأصل يخالف لذلك؟ الجواب :

فَالْحَرَكَاتُ لالْتِقَاء سَاكِنَيْن
وَالابْتِدَاء وَالْفَرْقُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنْ
وَسَبَبُ التَّمْكِين وَالتَّقْوِيَهْ
وَشِبْهِ مَا مُكِّنَ وَالْمَزِيَّهْ(454)

---

450) سماها العلامة المختار المعاركة لما يشوبها من عراك لفظي إن لم يكن بدنيا. المرجع نفسه، ص : 81.

451) المعسول 1/ 345.

452) الحقائق المكللة والدرة الإلغية ص : 28 - 29.

453) من ألفية ابن مالك.

454) من مبنيات أبراغ الافراني نسخة مرقونة ص : 42.

ولماذا كانت فتحة ،لم تكن ضمة أو كسرة؟ طلبا للتخفيف ما الدليل؟

فَـــالْفَـــتْحُ لِلاتِّبَـــاعِ وَالْمُـــوَافَـــقَـــهْ
وَالأَصْلُ وَالتَّـــخْـــفِـــيفُ وَالْمُـــفَـــارَقَـــهْ
وَكَـــــونُـهُ فِي مِـــــثْلِ مَـــــافِي كَـنَفَ
هَاء الْمُـــوَنَّث كَـــمَـــا فِي النَّيْف(455)

قال ابن مالك في باب التقاء الساكنين من التسهيل : «وأصلَ ما حركَ منهما الكسر، ويعدل عنه تخفيفا قال ابن عقيل في الشرح : «نحو أين وكيف»، لأنهم كسروا الثقل لأجل الياء، ومنه «المّ الله»،بفتح الميم ولم يسمع فيه الكسر ولا قرئ به وحكى قطرب. قم الليل بالفتح مطردا فيما ثانيه لام التعريف» ولعل مثلها في ذلك التي للمح الأصل جاز في الدعاء «وسلم الله» بالفتح، ومثل هذا يقال في غير أين من كل مبني ولكن الجواب يختلف قليلا.

وحد الشبه الوضعي الذي يبني عليه الاسم أحيانا ككم وتاء الضمير، أن يكون الاسم موضوعا على حرف أو حرفين كما هو الأصل في وضع الحروف، دليله :

وَالأَصْلُ فِي الْحُـــرُوف وَضْـــعُـــهَـــا عَلَى
حَـــرْفَـــيْن أَوْ حَـــرْفٍ كَـــوَاوٍ وَكَـــلاَ
وَالأَصْلُ فِي الأَسْـــمَـــاء وَضْـــعُـــهَـــا عَلَى
ثَلاَثَة فَـــصَـــاعِـــداً فَـــحَـــصِّـــلاَ

وحد الشبه الاستعمالي الذي يبنى عليه أيضا كأسماء الأفعال أن يلزم الاسم طريقة من طرائق الحروف كنيابة عن الفعل في العمل بلا تأثره لعامل . وحد الشبه الافتقاري أن يكون الاسم مفتقرا إلى الجملة افتقارا لازما كما أن الحرف يفتقر إلى غيره افتقارا لازما كالموصولات وإذا وحيث ونحوها ويقال في الاسم المبني سواء كان فيه سؤال واحد أو ثلاثة، وفي الفعل المبني أيضا، وفي الحرف سواء كان فيهما سؤالان أو لا سؤال فيهما. ما الدليل؟

إِنْ بُـنِـيَّ الإِسْـمُ عَـلَـى الـسُّـكُـون قُـلْ
فِـــيـــه سُـــؤالٌ وَاحِـــدٌ كَـــمَـــا نُقِلْ
وَإِنْ عَلَـى الْحَـــــرَكَـــاتِ الثَّـــلاَثَهْ
يُـبْـنَـى بِـهِ أَسْـــــــــئِـلَـةٌ ثَـلاَثَـهْ

---

455) مبنيات أبراغ الإفراني، ص : 45.

لَمَ بُنِي، لِمَ تَحَـــــرَّكَ لِمَــــا
كَــانَتْ كَــذَا عَلَى الْخُـصُـوصِ فَــاعْلَمَـا
وَالْفِــعْلُ وَالْحَــرْفُ إِذَا مَــا بُنِيَّــا
عَلَى السُّكُوَن فَــالسُّــؤَال نُفِــيَّــا
وَإِنْ عَلَى حَــــرَكَـــــة فَــــاثْنَان
لِمَ حُــرِّكَتْ، لِمَ اخْــتَــصَّتْ بَيَــانِي)

ويمعن الالغيون في أمثال هذه المباحثات حتى لا يتركون شيئا من جزئيات المسائل إلاّ ألموا به، ولذلك يواخذهم غيرهم (456) بالتعمق وتتبع الدّقائق خاصة في النحو مما يشوش على الطالب فهمه للمتن فضلا عن استيعاب الشروح والتعليقات غير أنهم يعتبرون هذه المناقشات والاستطرادات الكثيرة، والنقد والتحقيق والغوص في المعاني، وقيام الطلبة بالحظ الأوفى من كل ذلك، سبيلا إلى الفهم الدقيق المبني على استثمار المحفوظات بكثرة المحاورة وإيراد الشواهد والإعراب.(457)

* المباحثات العامة : تقترن بكل زمن ومكان خاصة مجتمعات القرية من مآدب وأفراح، فلا يكاد يحضرها الشيخ علي الدرقاوي(458) أو الأستاذ علي بن عبد الله، حتى يلقى إلى جلسائه المسائل، إذ كان حريصا على محاورة الطلبة لأن محافله العامة إن كان فيها الطلبة تمضي كدرس من مجالس المدرسة فلا تخلو من مباحثات ومراجعات، وانتقادات، وتحرير مسائل، من مختلف الفنون».(459)

ومن كبار المباحثين الإلغيين أيضا الأستاذ عبد الله بن محمد الذي عرف عنه «الإمعان في المباحثة إمعانا غريبا فلا تراه في كل المجالس التي تروج فيها المسائل إلاّ كَرَّارًا جوالا طلعة بحاثة، لا يفلت مبحثا مرّ به إلا مدّ إليه فكره ولا يعرض ما يعرض إلا أصلاه بحثه الذي لا يعرف إغضاء، ثم لا يطوي غراره، إلا بعد استطلاع الحقيقة كما هي، فلا يداجي في ذلك ولا يغمض، ولا يعرف إلا الوصول إلى اللبن الصريح من تحت الرغوة، حتى لقبه الأستاذ علي بن عبد الله عن جدارة مفتاح العلوم».(460)

وفي هذه المباحثات التي يغلب عليها الفقه واللغة، ويشارك فيها الطلبة والأساتذة يحاول كل مشارك إثبات صحة رأيه بالاستناد إلى كل ما لديه من براهين وأدلة، وعندما لا

---

456) حدثني الأستاذ الفقيه مُحمد العثماني رحمه الله بذلك عندما جالسته بمنزله بأكادير أواسط عام 1992.
457) الفقيه القاضي امحمد الكثيري لما قابلته يوم 22/ 9/ 1992 .
458) أنظر المعسول 2/ 166 - 167.
459) المعسول 1/ 328.
460) المصدر السابق.

يقتنع أحد الطرفين برأي مناقشه يتم اللجوء إلى من يعتقد فيه الاطلاع على المسألة أو تتم الاستعانة بكتب تنص عليها، ونمثل لذلك بإحدى المباحثات حول مسألة فقهية، أوردها العلامة المختار السوسي على لسان الأستاذ عبد الله بن محمد الإلغي الذي حكى «... أنه كان مرة في ثوى عمه الأستاذ،(461) وفيه الشيخ الوالد(462) يجري ذكر الزكاة وكان الأستاذ عمّه، إذ ذاك يجمع غنم الزكاة، قال فسألني الشيخ والدك هل زكيتم يا عبد الله ماشيتكم؟ فقلت : لا زكاة فيها، فقال : أو ليس غنكم تناهز المائة؟ فقلت : حقا، ولكنني أنا وأخي عبد الرحمان وإخوتنا متشاركون فيها. ولذلك لا زكاة علينا إذ لا يصح لكل واحد منا نصاب في نصيبه، فقال الشيخ ولكن الشركاء في الماشية كالمالك الواحد، فقلت : نعم، ولكن بعد أن يكون لكل واحد نصاب وإلا فليزكّ من له نصاب وحده دون الآخرين، فقال الشيخ : أوَ الفقه المالكي على هذا، قال فاوفقت الشيخ على النص، فقال عجبا إنني نسيت كل هذا فترجمت مجموع الأمير(463) للفقراء على أن الشركاء كمالك واحد مطلقا ولم أفضل هذا التفصيل فقد غاب عني أو نسيته».(464)

ومثل هذه المباحثات هي التي عودت الإلغيين وطلبتهم عدم الاقتناع برأي لا دليل عليه بمجرد أن يكون رأي أستاذ محترم لديهم يدارونه بقبول أقواله، بل ينبرون للتنبيه على الأخطاء لا يمنعهم من ذلك مرتبة أو أي اعتبار آخر كما رأينا في المثال السابق، كل ذلك وهم محافظون على الهدوء والتؤدة والوقار وحسن الاستماع حتي يتبين المخطئ خطأه فينقاد للحق(465) ومن المباحثات الطريفة بين الطلبة الإلغيين تلك التي شارك فيها الحسن بن الحاج الإفراني(466) والبشيرين المدني الناصري(467) اللذان كانا «مرة في بعض الندوات الإلغية فجرى ذكر قول القائل :

اَلْعِلْمُ صيْدٌ وَالْكِتَابَـةُ قَيْـدُهُ   قَيِّدْ صُيُودَكَ بِالْحِبَالِ الْمُوثَقَةَ

فوقعت المحَاورةَ ... في لَفظة الموثقة، أبا اسم فاعل هَي أم باَسم المفعول فذهب هو(468) إلى أنها باسم المفعول، ولجّ في ذلك، فقام سيدي البشير إلى حبل فأوثقه به،

461) الأستاذ علي بن عبد الله الإلغي.
462) هو الشيخ علي الدرقاوي والد العلامة المختار السوسي.
463) كتاب في الفقه المالكي للأمير المصري ترجم الشيخ الدرقاوي الربع الأول منه إلى لسان الشلحة مخطوط خاص.
464) المعسول 2/ 166 ويقصد بالفقراء أتباع الطريقة الدرقاوية.
465) أنظر مقارنة العلامة المختار طريقة مباحثة الإلغيين مع أحوال تباحث بعض الحضريين التي يغلب عليها الانفعال والتعصب في الرسالتان البونعمانية والشوقية ص : 157.
466) أنظر ترجمته بالمعسول 10/ 33.
467) أنظر ترجمته بالمصدر نفسه ص : 34.
468) المقصود الحسن بن الحاج الإفراني.

فقال له أرأيت أن الحبل هو الذي أوثقك الان، يقولان ذلك ويتحاوران والعلامة سيدي الطاهر بن محمد ساكت يتبسم ولا يؤيد هذا ولا ذاك.(469)

وتدخل المباحثة في إطار المنافسة بين الطلبة فلا يمكن أن يلقى المبتدئ أو الشادي من كان فوقه علما إلا ألقى إليه مسألة يختبره بها فإما أن يجيب عنها أو يستفيدها منه كما أن الاقران يتفاخرون بمعرفة المسائل وقدرتهم على تعجيز نظرائهم بها.(470)

ولعل من أهم فوائد المباحثة كون الطالب يبقى حريصا على استذكار دروسه لحاجته الدائمة إليها في أمثال هذه المواقف التي تعتبر امتحانات متواصلة لفهمه، ولقدرته على التحصيل، كما أنها طريقة تربوية ناجعة لمحاربة الخجل الشديد، والانقباض المفرط الذي يغلب على الطلبة، حتى لا يكادون يبينون قولا ولا يستطيعون فهما، وإنما دأبهم الصمت.(471) وما كان الأساتذة الإلغيون ليتركوا طلبتهم على تلك الأحوال بل كانوا يشجعونهم على التعبير عن أفكارهم، ويجرئونهم على المناقشات؛ حتى يزيلوا عنهم تلك العادات، التي لحقتهم مما يواخذون صغارا، أثناء حفظ القرآن الكريم من كثرة الزجر والضرب، ويستعملون لذلك كل الحوافز مثل التشجيع والإرشاد كما في قول الطاهر الإفراني الطالب النجيب للمدرسة الإلغية منبها أحد أبنائه الدارسين على يديه إلى السبيل الأمثل للدراسة : (الطويل)

بُنَيَّ إذَا مَا جِئْتَ لِلدَّرْسِ فَلْتَكُنْ
حَرِيصاً ذَكِيّاً فَارِغَ الْبَالِ
عَقُولاً سَؤُولاً بَاحِثاً مُتَدَبِّراً
مُصِيخاً لمَا يُلْقَى بفَهْمٍ وَإقْبَالِ(472)

وبذلك يتم النجاح في إدماج الطالبَ في العَملية التعليمَية، وتفاعلاتهاَ المستمرة وهذا الإدماج لا يقتصر على تلقى المعلومات، أو الإجابة عن الأسئلة، والقيام بالأنشطة والتداريب المطلوبة، بل يتعداه إلى التدرب على الاستماع المركز، والاصغاء المستمر، والانتباه المتتابع، مع محاولة فهم الخطابات وتحليلها، ثم نقدها نقدا ممنهجا، يعتمد دعائم ومعايير موضوعية، ووسائل إقناعية مضبوطة كالمهارة في المحاجة واستعمال الاستشهادات.(473) وبفضل كل ذلك يتخرج الطلبة من المدرسة وقد وعوا كل ما ألقى إليهم من معارف شاركوا بشكل إيجابي في قراءتها. وإذا جلس أحدهم بعد ذلك إلى غير

---

469) المعسول 10 / 33.
470) أنظر السوسي مدارس سوس العتيقة ص : 81.
471) أنظر مثال ذلك في المعسول 13/ 150.
472) المتوكل عمر الساحلي ـ كناش الساحلي الثاني ص : 103.
473) المصطفى بن عبد الله بوشوك، تعليم وتعلم اللغة العربية وثقافتها ص : 75.

أشياخه الإلغيين ممن يكتفون بالإلقاء والتلقين قانعين من طلبتهم بالاستماع، ما يلبث أن ينصرف عنهم وهو يقول : «إنني أقوم عن ذلك الأستاذ وكأنني بليد موصد القلب، متحجر الذاكرة على حين أعهد من نفسي أنني أستحضر كل ما أخذته عن الأستاذ علي بن عبد الله بعد سنة وكأنني أخذته عنه الساعة».(474)

هـ - السّرد :

يقصد الإلغيون بالسرد التلاوة من كتاب على الغير أستاذا كان أو طالبا وهو يسمع ويصحح ما عسي أن يقع فيه السارد من أخطاء أو لحن كما يشرح له الكلمات الغامضة والأمثال وغير ذلك.(475)

وهذه الطريقة معتادة في التعليم الأصيل، فقد ذكر الحسين بن ناصر أنه ختم مع أخيه محمد، جمع الجوامع في الأصول لابن السبكي على الشيخ علي الشبراملسي الشافعي وهو يسمع بالقاهرة عام سبع وسبعين وألف.(476) ويتخذ الطلبة هذه الطريقة للتبرك أولا وللحصول على إجازة الشيوخ الكبار بالقراءة عليهم إن كانوا في عجلة من أمرهم لا يسعفهم الوقت لدراسة هذه المؤلفات دراسة تحقيق كما هو حال الشيخين الناصريين اللّذان عرجا على القاهرة مرجعهما من الحج.

ولما كان الإلغيون لا يكتفون من المتون العلمية بالسّرد، بل يقتلونها بحثا وحفظا فإنهم خصوا كتب الأدب والتاريخ خارج أوقات الدراسة اليومية المعتادة بهذه التلاوة، فيجلس الطالب وبين يديه كتاب يقرأ منه بصوت مسموع والأستاذ بجانبه يستمع إليه مترصدا زلاته وأخطائه، فيسأل عن إعراب الكلمات ومعانيها ملقيا بالجواب إن عجز عنه السارد معززا بشواهد من الشعر والمنظومات النحوية واللغوية كل ذلك والطالب منتبه لملاحظات أستاذه حريص على فهم ما يلقي إليه منها.

وقد كان الأستاذ عبد الرحمان البوزكارني من المنتصبين بالمدرسة الإلغية لهذا الغرض في أي وقت من ليل أو نهار،(477) وقد احتفظ لنا العلامة المختار السوسي بمثال من هذه الجلسات حيث كان يسرد الكتب عليه أثناء أخذه بمدرسة تانكرت(478) فقال : «وأول كتاب تلوته عليه : كتاب حياة الحيوان للدّميري وكأنني الآن أستحضر إسفار يوم قبل طلوع الشمس أتلو عليه خطبة الكتاب، ويفسر لي تلك الأمثال التي تحتوى عليها كقولهم : تحككت العقرب بالأفعى واستنت الفصال حتى القرعاء كما أنني تلوت عليه أيضا شيئا

---

474) المعسول 1/ 328.

475) أنظر المعسول 3/ 307. الهامش 1.

476) فهرس الحسين بن ناصر تحقيق أحمد السعيدي، ص : 98 .

477) المعسول 10/ 94. وقد خصص لذلك مكانا أمام بيته بالمدرسة يجلس فيه الطلبة فيتلون عليه ولا يزال هذا المحل يعرف بمجلس مولاي عبد الرحمان البوزكارني أنظر الصورة في ص : 363 .

478) أنظر المعسول 10/ 94.

من نفح الطيب ومن الطبقات لابن خلكان ومن قلائد العقيان ومن مروج الذهب وكل سيرة ابن هشام مرتين ... مع مؤاخذتي يحفظ كل ما يستحسن من القطع والقصائد فضلا عن الأبيات المفردة».(479)

وبتكرار أمثال هذه الجلسات السردية يتفوق التلاميذ. إذ يتعودون الإدراك السليم للرموز الخطية بما فيها الحروف والحركات الإعرابية، والقدرة على ترجمتها إلى قيمتها الصوتية المسموعة والمنطوقة ... أي تحويل النص المكتوب إلى صوت مسموع، مع الاعتماد علي التذكر واستثماره مهارة الفهم، للتوصل إلى دلالات النص اللغوية ومضامينه الفكرية، ويتطلب ذلك استغلال مجموعة من الملكات كالتحليل والتركيب والتقويم بتوجيه من الأستاذ وإعانة منه.(480)

إلا أن الإلغيين لا يهتمون كثيرا بتلقين الطالب الطريقة الصحيحة لتلفظ الحروف بمخارجها السليمة، ولعل ذلك راجع إلى البيئة العامة للمدرسة، الموجودة في وسط أعجمي قح بالإضافة إلى أن الأساتذة يكتفون من طلبتهم، بمعرفة العربية وقواعدها واستحضار أدبياتها والقراءة والكتابة السليمتان من اللحن والغلط، دون الاعتناء بمخارج الحروف نتيجة لانعدام دراسة علم التجويد من مناهج الدراسة، ليس في سوس وحده ولكن في أغلبية مناطق المغرب، فكانت قراءة السوسيين والمغاربة عموما للقرآن وقد حفظوه وميزوا قراءته، قراءة لا تستند إلى أية قواعد إلا ما كان من الفلاليين والجباليين وبعض أهل المدن.(481)

و - المكافآت والتعزيرات الجسدية :

تعد التعزيرات الجسدية من الوسائل التربوية السائدة في المدارس السوسية بينما لا تحظى المكافآت والمحفزات بأدنى اهتمام إلا في القليل منها. وقد حاول أساتذة الالغية المواءمة بين هاتين الطريقتين : (الطويل)

بِلُطْفٍ إذَا التِّلْمِيذُ تَابَعَ نَهْجَهُ ... كَمَا يَنْبَغِي أَوْ بِاقْتِسَارٍ إذَا اعْتَسَفْ

كَمَا يَفْعَلُ الطَّبُّ النَّطَّاسِي بِالَّذِي ... يَحِلُّ مَرِيضاً عِنْدَهُ ثُمَّ لاَ أَسَفْ

فَمَا الْقَصْدُ إلاَّ الانْتِفَاعُ وَكُلُّ مَا ... يُؤَدِّي إِلَيْهِ يُسْتَحَبُّ وَإِنْ كَسَفْ(482)

---

479) المعسول 10/ 118 - 119.
480) تعليم وتعلم اللغة العربية وثقافتها ص : 270 - 271.
481) السوسي مدارس سوس العتيقة ص : 34.
482) المعسول 10/ 82.

ويلتحق غالب الطلبة بالمدرسة مرغمين من أبائهم الذين ربما قيدوهم بالكبل خشية فرارهم(483) فيصبح التعلم عملية قسرية يقوم بها الطالب تحت ضغوط سلطوية مما يولد لديه نفورا وجدانيا وكراهية للمدرسة.(484) ولمحاربة هذا الشعور يلجأ الأساتذة إلى تشجيع الطلبة والتنويه بهم ومكافاتهم بإعطائهم مساعدات مادية تأليفا لهم وإعانة فقد كان الأستاذ علي بن عبد الله «يحب نجباء الطلبة ويقوم بضعفتهم، بما يمده إلى كل إنسان منهم بيده فيما بينه وبينه ويشجع كل من آنس منه تقدما في فن من الفنون التي يعنني بها الإلغيون وخصوصا علوم الدين والأدب وما إليها».(485) كما يجعل لبعضهم جوائز مالية عند حفظهم بعض المتون والقصائد.(486)

ويمنح الإلغيون طلبتهم فرصا كثيرة لإظهار نبوغهم ونجابتهم، مثل المحافل العامة حيث يتم سرد الكتب، والندوات الأدبية حيث تتلى القصائد والرسائل التي أنشؤوها(487) كما يعتمدون إزاحة حجب الجمود والتقديس فيما بينهم، فيجالسونهم ويؤاكلونهم وهم أثناء ذلك يتناشدون الأشعار والطرائف ويتباحثون في المسائل، والأريحة تنشر ظلها عليهم جميعا.(488)

إلا أنهم رغم ذلك لا يتجاوزون عن الانحرافات والزلات فيعاقبون على قدر الجرم فإما أن يؤدي المذنب غرامة مالية؛ إن كان الذنب مما يعاقب عليه بالمال، أو يطرد من المدرسة(489) أو يعاقب بالضرب إن شاهد الأستاذ «خروجا عن اللاحب أو آنس ما يخل بالمرؤة أو يهتك سمعة المدرسة فكم ذي لحية كثة وهو عملاق يطاول النخيل، مد أمامه في المدرسة فاختلفت عليه الحبال، حتى يكره إلغ وما إليها، وتمنى لو لم يعرف إليها من سبيل».(490)

ويستعمل الضرب وسيلة لهذا التعزيز بقضيب من الشجر كالزيتون أو حبل «من ليف مفتول مرارا، حتى يغلظ ويشتد، وربما قُمس في الماء حتى جاء وقت العمل، وإذا كان رقيقا طويلا ثني مرتين أو أكثر وجعل كله عقدا متراصة كعقد ذنب الضب».(491)

وعند ضرب المذنب إما أن يحمل من يديه ورجليه ثم ينهال عليه الأستاذ ضربا متواليا على أجنبيه أو رأسه دون أن يبالي بمكان وقوعه، وإما أن يعلق في «الزَّرْكَا» وهي أشد عذابا

---

483) الأستاذ علي بن عبد الله قيد ابنه الطاهر بالكبل بعد فراره من المدرسة أنظر المعسول 2/ 206.
484) بوشوك - تعليم وتعلم اللغة العربية وثقافتها ص : 334.
485) المعسول 1/ 346.
486) المعسول 2/ 200.
487) أنظر المعسول 1/ 346.
488) أنظر معاملة التاجرمونتي لطلبته بالمعسول 9/ 14.
489) أنظر طرد الأستاذ علي بن عبد الله تلميذه محمد بن أحمد الصالحي وسبب ذلك المعسول 2/ 346.
490) المعسول 1/ 346.
491) صالح بن عبد الله الالغي - المدرسة الأولى ص : 37.

وأنكي، وقد وصفها الأستاذ صالح بن عبد الله الإلغي فقال: «يؤخذ حبل متين وإن كان متانته رقيقا فهو أليق وأحق، فيعقد طرفاه في السقف ويدلي ما سواهما فيرفع الصبي وتشبك براجم أصابعه ورواجبها(492) على وسط ذلك الحبل المتدلي، ثم يرسل معلقا في الهواء كما يعلق كبش أريد سلخه، ولا يستطيع أن يخلص يديه من ذلك الحبل إلا إن اعتمد برجله على شيء، أو يرفع إلى فوق لأن ثقل بدنه هوى به إلى الأرض، فلا يرتفع لتنفتح يده إلا بما ذكر، ثم يضرب بعد تعليقه ضربا لا تضربه غرائب الإبل، ويصبح صيحات متواليات تسمع من أقصى القرية، «فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ» فلا أحد يرحمه أو يغيثه أو يرثي له».(493)

وبالإضافة إلى هذا العقاب الذي يشرف عليه الأستاذ أو ينفذه، هناك أشكال أخرى يقوم بها الطلبة أنفسهم، يعاقبون بها المتهاونين منهم لما بينهم من المنافسة الشديدة، خاصة في مراجعة الدروس مناوبة؛ حين يتهرب بعضهم من حضور نوبته ملتمسا المعاذير كأن يتمارض خوفا من افتضاحه عند المباحثة مثلما فعل العربي الساموكني فقد «كانت عنده مرّة نوبة المطالعة، فكأنه راجع الدرس فأكدى فيه، ولم يتبين من ظلمته أي قبس فتمارض، فذهب إليه الطلبة وقد أدرك بعض الداعرين منهم ما وقع فيه فاقترحوا عليه أن يكووه، فمالوا عليه بالكي حتى شووا كل أجنبيه ثم قالوا له : إننا أوقفنا النوبة حتى تبرأ».(494) كما أن الطلبة قد ينهالون على أحدهم بالضرب عقابا له إذا أجرم في حقهم حتى يسقطوه أرضا، دون أن ينهاهم الأستاذ عن ذلك أو يعنفهم عليه.(495)

وقد لخص بعض الإلغيين تصورهم للعقاب البدني وفائدته في أبيات يقول فيها :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَكْبَحْ رَفِيقَكَ مَرَّةً
وَقَدِ اعْتَدَى شَارَكْتَهُ حَيْثُ لاَ تَدْرِي
وَذُوا الاعْتِدَاءِ إنْ عَادَ غَدَتْ لَهُ
خَلاَئِقُ تَبْقَى لاَ تَزُولُ إِلَى الْقَبْرِ

---

492) البراجم والرواجب هي عقد الأصابع الثلاث وقد نظمها محمد بن عبد الله الإلغي في قوله :

رَوَاجِبٌ بَرَاجِمٌ أشَاجِعٌ
ثَلاَثَةٌ مَفَاصِلُ الأَصَابِعْ
فَأَوَّلٌ لأَوَّلٍ ثُمَّ كَذَاكْ
وَالْبَدْءُ مِنْ أَعْلَى فَحَقِّقْ مَا هُنَاكَ

هامش المدرسة الأولي ص : 37.

493) المرجع السابق ص : 37 ـ 38 وما بين مزدوجتين من الآية 43 من سورة يس.

494) السوسي مدارس سوس العتيقة ص : 80 - 81.

495) أنظر ضرب الطلبة محمد أولموش التاغجيجتي، بالمعسول 9/ 14 و 114.

وَنَفْسُ الْفَـتَى جَـمَّـاحَـةٌ لاَ يَرُدُّهَا
سِـوَى كَـبْـحِـهَـا بِالْجَـذْبِ وَالنَّهْـرِ وَالْقَـهْـرِ
وَمَنْ كَـانَ ذَا حَـزْمٍ فَـلاَ بُدَّ أَنْ تَرَى
لَهُ ضَـغْطَةٌ حِـيناً وَإِنْ كَـانَ ذَا صَـبْـرِ
فَـمَـا كُلُّ ذِي دَاءٍ يُدَاوِي بِسُكَّرٍ
فَكَمْ نُغْلٍ لاَبُدَّ فِـيهِ مِنَ الصَّـبْـرِ(496)

ومن هذه الأبيات تتجلى المكانة الرفيعة التي يضع فيها أساتذة المدرسة العقاب البدني، الذي يأتي لديهم في المرتبة الأولى فهو الوسيلة الأولى لمعاقبة المذنبين عما اقترفوا وزجرهم عن العودة، انطلاقا من الاعتقاد بأن النفس البشرية نزّاعة نحو الشر خاصة نفوس الشباب من الطلبة، الميالة إلى الدعة والخمول، المتحفزة إلى الأهواء وتحقيق الرغبات. ومثل هذه النفوس لا يقوِّم النهر والتحذير معوجها بل لابد من قهرها وتحطيم كبريائها وتجريعها مرارة العقاب حتى ترعوي وتسلك السبيل القويم وتتخلى عن تلك الأخلاق الفاسدة.

إلا أن هذا العقاب البدني كان مبالغا فيه، فيعقبه خوف الطلبة الشديد من أستاذهم وسيطرة الخجل الشديد عليهم والتزامهم الذل والمسكنة مما يتنافى والأساليب السليمة للتربية والتعليم.(497)

---

496) لم يذكر العلامة المختار صاحب هذه النتفة واكتفي بقوله «ولبعض الإلغيين...» ولعله هو صاحبها. أنظر المعسول 1/ 346 –ـ 347.

497) أنظر في ذلك المختار السوسي مدارس سوس العتيقة ص : 21 والمعسول 13/ 238.

الباب الثالث
الحركة الأدبية بالمدرسة الإلغية

الفصل الأول
الاهتمامات الأدبية

المبحث الأول : الاهتمامات الأدبية في النصاب الدراسي

أ - الشعر

ب - النثر

المبحث الثاني : الاهتمامات الأدبية الموازية

أ - سرد كتب الأدب

ب - المشاركة في المباريات الأدبية أيام المواسم

جـ - الندوات والمجالس الأدبية

د - التشجيع على معاناة النظم

هـ - المراسلات الأدبية بين الطلبة

و - المواكبة النقدية للإنتاج الأدبي

تـمـهـيـد :

تميزت المدرسة الإلغية بطابعها الأدبي، واهتمامها بفني المنظوم والمنثور مطالعة ومعاناة، منذ عهد مؤسسها محمد بن عبد الله الإلغي. وقد ورثت هذا الاهتمام من المدرسة الإفرانية حيث درس مؤسسها، وحيث كانت كل استفادته من شيخه محمد بن إبراهيم الإفراني. وتمتد سلسلة هذه المشيخة عبر الأديب الكبير أحمد الجشتيمي ووالده العلامة عبد الرحمان بن عبد الله إلى أحمد بن عبد الله الهوزيوي خريج المدرسة الحضيكَية التي ينتهي إليها سند النزعة الأدبية الإلغية. ورغم أن مدرسة الحضيكَي «لا تعير لفتة خاصة إلى الأدب، وإن كانت تدرس من اللغة العربية مادة له كبرى، وكان لعميدها الحضيكَي تمكن كبير في اللغة مذكور»(1) إلا أن خريجها الهوزيوي تولع به كما يدل على ذلك جواب تلميذه الجشتيمي لمن سأله عما يفتح الفكرة ويشحذ الذهن، ذكر فيه أن شيخه كان يشجع الطلبة على حفظ المختار من الأشعار بقوله : «تفهموا الألفاظ التي مرت بكم متى توقفتم عليها... واحفظوا أحسن ما يعجبكم، ولابد من الاختيار، وإلا فإن حفظ ما لا يحسن يضر في الذوق...»،.(2)

وقد انتقل الاهتمام بالأدب عبر المشيخة المذكورة، حتى وصل إلى الأستاذ محمد بن عبد الله الإلغي، فصار ديدنه حث طلبته على تعاطي الأدب وفنونه، ومطالعة كتبه، وقد رسخ لديه مفهوم أشياخه في كونه «يرقق الشعور ويرهف النظر ويحدد الفكر و... كما يؤثر في العلم والنظر يؤثر في الأخلاق، [فنجد المتأدبين] يتفقون ولا يختلفون، ويأتلفون ولا يتشاكسون...».(3)

وقد أسس الأستاذ الإلغي اهتمامه بالأدب على تخصيص أوقات معينة لدراسته والفنون المتعلقة به، سواء ضمن النظام الدراسي اليومي أو في موازاته في أوقات العطل (العواشر)، فيلزم جميع الطلبة بدراسة الأنصبة الأدبية ولو كانوا ممن لا رغبة لهم إلا في الفقه،(4) ويتجاوز المتأدبون الأنصبة إلى مطالعة الكتب والمشاركة في الندوات وحفظ المختارات... من هنا يمكن تقسيم الاهتمامات الأدبية بالمدرسة إلى قسمين : الاهتمامات الأدبية ضمن النصاب الدراسي اليومي، والاهتمامات الأدبية الموازية خارج النصاب.

---

1) سوس العالمة، ص : 90.
2) المعسول 6/ 68.
3) المصدر نفسه.
4) من هؤلاء جامع الأصليتني المجاطي انظر المعسول 9/ 39.

المبحث الأول - الاهتمامات الأدبية في النصاب الدراسي :

ذكرنا من قبل أن(5) الإلغيين قسموا المواد الدراسية التي يستفرغ الطلبة جهدهم في تحصيلها إلى قسمين : قسم إجباري يدرسه كل الطلبة لأهميته، فحصروه في النصاب اليومي، ومن بين مدروساته الفقه والعربية والنحو...، ثم قسم أقل أهمية يتضمن العلوم والفنون التي لا يتسع النصاب لدراستها.

وإذا كانت مدارس سوس تهتم غالبا بتدريس العلوم التي يحتاجها الطلبة في حياتهم العملية بعد التخرج من فقه وفرائض وحساب... وتغفل غيرها مما لا فائدة قريبة ترجى من ورائه، خاصة الأدب؛ وغالب أساتذتها «قلما يعتنون بغير العلم والصلاح والاستقامة، وإيثار الاستعداد للدار الآخرة، وكأنهم كانوا يرون في الاشتغال بالأدب بمعناه المتعارف ضربا من البطالة وتضييعا للوقت فيهجرونه...»،(6) فإن بعضها خصت الأدب بالاهتمام حتى رفعته إلى مرتبة العلوم، ومنها المدرسة الإلغية التي ألزمت طلبتها دراسة الأدب بانتظام بالأنصبة اليومية من خلال نصوص مختارة مع فهمها وحفظها واستذكارها، وقد تردد العلامة محمد المختار السوسي في تحديد هذه الدراسة فذكر في كتابه سوس العالمة(7) أنها يومية ضمن النصاب، بينما قال في المعسول(8) إنها أسبوعية خلال العواشر، وإن النصاب خاص بالعلوم فقط، غير أن اتصالاتي بتلاميذ المدرسة(9) أكدت لي ما سبق ذكره من كونهم درسوا بعض الأدبيات ضمن الدروس اليومية، وتتمثل في :

أ - **الشعر** : وهي مختارات متنوعة شملت أشعار الجاهليين والإسلاميين والعباسيين والأندلسيين والمصريين المتأخرين والمغاربة... ومنها :(10)

* المعلقات السبع.
* لامية العجم للطغرائي وتعرف لديهم بالطغرائية.
* لامية العرب للشنفري.
* قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير.

---

5) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.
6) المعسول 17/ 308.
7) ص : 101 وانظر أيضا اليزيد الراضي - شعر داود الرسموكي ص : 110.
8) 1/ 57.
9) منهم محمد الكثيري، أحمد بن عمر رزقي، أحمد بن زكرياء السكال، محمد بن أحمد العتيق.
10) اعتمدت في تحديد المواد الشعرية والنثرية على : سوس العالمة ص : 101، المعسول 1/ 57 و167. 11/ 13، مدارس سوس ص : 67 بالإضافة إلى جلسات مع تلاميذ المدرسة.

* دالية اليوسي بشرحها «نيل الأماني في شرح التهاني».
* مقصورة ابن دريد بشرح ابن هشام اللخمي.
* لامية عمر بن الوردي.
* قصيدة الشقراطيسية لعبد الله بن يحيى الشقراطيسي في المدح النبوي.(11)
* قصيدتا البوصيري : الهمزية والبردة.

* قصيدة النابغة الذبياني التي مطلعها :

أمِنْ آلِ مَـيَّـةَ رَائحٌ أوْ مُـغْـتَـدِ
جَـذْلاَنَ ذَا زَادٍ وَغَـيْـرَ مُـزَوَّدِ

* قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي مطلعها :

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنْتَ غَـادٍ فَـمُـبْكِرُ
غَـدَاةَ غَـدٍ أمْ رَائحٌ فَـمُـهَـجِّـرُ

* قصيدة الحارث بن عباد التي مطلعها :

كُلُّ شَيْء مَـصِـيـرُهُ لِلزَّوَال
غَـيْـرَ رَبِّي وَصَـالِحُ الأعْـمَـالِ

* قصيدة الكميث بن زيد التي مطلعها :

طَرِبْتُ وَمَـا شَـوْقـاً إلَى البِيضِ أطْرَبُ
وَلاَ لَعِبـاً مِنِّي، وَذُو الشَّـوْقِ يَلْعَبُ(12)

ب – **النثر** : وقد اقتصر الإلغيون على نصين هما :

* مقامات الحريري بشرح الشريشي، وتعتبر مادة ترفيهية وسط الدروس العلمية الجافة، التي يتلقاها الطلبة كل يوم، وقد أشرنا من قبل(13) إلى أنها تدرس قبيل الزوال بعد أن يكون التعب قد حل بالطلبة فيميل بهم أستاذهم إليها ترويحا عن النفس وتجديدا للنشاط، بالإضافة إلى فائدتها المتجلية في اكتساب اللغة وأساليبها الرفيعة. ودراسة المقامات وحفظها من التقاليد الراسخة في سوس منذ القديم؛ حيث نجد العلامة محمد بن

---

11) انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ص : 143.
12) انظر المعسول 11/ 13.
13) الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.

إبراهيم الشيخ التمنارتي يحرص على تدريسها في شيخوخته لما رأى استيلاء العجمة على ألسنة أهل بلده،(14) كما أن العلامة محمد أكنسوس(15) كان يوصي السوسيين بدراستها ويحضهم عليها، من ذلك قوله في رسالة إلى بعض معارفه : «ونحضك على أن تأخذ من قبَلك من الطلبة بمدارسة المقامات فإن ربها صاحب آيات، ولعلهم إن أتقنوا معانيها وَأدركوا مناحيها، واستوعبوا أسرارها وفروها كلها فرارها أن يتعالوا إلى غيرها...».(16)

وقد تلقف الإلغيون هذا الاهتمام فانكبوا على المقامات حفظا وفهما، فلا يخلو أقلهم اهتماما بالأدب من حفظ بعض منها.(17)

* رسالة ابن زيدون الهزلية، وتعرف عندهم بالزيدونية، وهي رسالة كتبها الشاعر الأندلسي جوابا على لسان محبوبته ولادة بنت المستكفى إلى غريمه ابن عبدوس، ويطغى عليها الاستهزاء والسخرية في أسلوب يغلب عليه الإطناب والسجع، وإيراد الحكم والأمثال والأشعار والآيات القرآنية والأخبار التاريخية.(18)

هذه هي المختارات الأدبية التي يدرسها الإلغيون يوميا، والملاحظ أنها تشترك كلها سواء النثرية أو الشعرية في اشتمالها على اللغة والأساليب البيانية العالية خاصة السجع. ولم يكن حرص الأساتذة الإلغيين على تدريسها يهدف إلى تمتيع الطلبة بحس أدبي بياني يقيهم مزالق الاقتصار على الفقه والفرائض فقط، بل يسعى إلى منحهم معرفة أكبر بالعربية باعتبارهم أعاجم نشأوا في مجتمع لا علاقة له بلغة القرآن، وهذا ما دعا إليه العلامة أكنسوس، بل تجاوزه إلى جعل مدارسة الأدب فرض عين على طلبة سوس بقوله : «فالاقتصار على الفقه والفرائض لا غير... ينال بها الطلبة الملازمين كل ضير، فما دخل علينا نحن الفتح أيام الشبيبة، إلا بملازمتنا لهذا الفن نرتع مريعه وخصيبه ولا سيما من كان أعجميا فإنه يجب أن يربض على هذا الفن حتى يفري فيه فريا وذلك فرض عين على طلبة سوس».(19)

---

14) أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي ـ الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، ص : 170 .
15) انظر ترجمته بالمعسول 11/ 276.
16) المعسول 11/ 280.
17) سوس العالمة، ص : 102.
18) مصطفى الشكعة ـ الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص : 593.
19) المعسول 11/ 280.

المبحث الثاني - الاهتمامات الأدبية الموازية :

لم يقتصر الإلغيون على المختارات الأدبية التي يدرسون يوميا، بل خصصوا للأدب مكانا واسعا في نظامهم الدراسي حتى صار شغلهم الشاغل، ولمزهم الجامدون بهذا الولع، وقال عنهم بعض المؤرخين متفكها، ذاكرا اهتمامهم الزائد بفني المنظوم والمنثور : «شنشنتهم كتب الأدب واللغة، فيها يتسامرون وعليها يتكلمون».(20)

وقد خصوا ما فضل من أوقات عن الدراسة، خاصة أيام العطل الأسبوعية وهما يومان: الخميس والجمعة، بالتفرغ للأدب بمطالعة بعض كتبه، بل إنهم تجاوزوا الأسلوب المدرسي التلقيني، فجعلوا من قرية دوكَادير منتدى أدبيا عاما يشارك فيه الأساتذة والطلبة والأدباء سواء الإلغيون أو زوارهم من السوسيين، باجتماعهم في ندواتها ومجالسها الأدبية ومعاطاتهم القوافي والأشعار... وبهذا صارت المدرسة الإلغية قبلة الأدباء في سوس وخارجه ومهوى أفئدتهم، حتى إن أحد تلاميذها لقبها : «دار ندوة السوسيين وسوق عكاظهم».(21)

ومن النشاطات التي تجلى فيها اهتمام طلبة الإلغية بالأدب خارج أوقات الدراسة :

أ - سرد كتب الأدب :

أشرنا فيما مضى إلى أن السرد من بين الطرق التدريسية المعتمدة في المدرسة الإلغية(22) خاصة في ميدان الأدب، وكيفية ذلك عندهم «أن يتلو التلميذ فيرد عليه الأستاذ ويناقشه أحيانا، فيبقى كذلك ولو طوال النهار أو الليل أو هما معا، فيستفيد التلميذ معرفة ضبط ألفاظ اللغة، وتطبيق القواعد، مع زوال الخجل عنه وسرعان ما يتقدم إن ثابر على ذلك...».(23)

ويحرص أساتذة الإلغية على سرد الكتب أيام العطل ويحضون طلبتهم عليه إن تهاونوا، فهذا أحمد بن محمد اليزيدي يلوم خريج المدرسة المحفوظ بن الهاشم الإيغشاني على إهمال هذه العادة نظما بقوله : (الطويل)

أَخَيَّ الصَّفِي الْمَحْفُوظُ مَا لَكَ لَمْ تَزُلْ
عَنِ الغَيِّ وَالأَعْمَارُ أَضْيَقُ مِنْ سَمٍّ

---

20) محمد بن أحمد الإكَراري - روضة الأفنان في وفيات الأعيان ص : 174.
21) أحمد بن زكرياء السكال الباعمراني - أيام خالدات في منفى المختار السوسي - دورية المواهب - عدد خاص بأسبوع المختار السوسي ص : 29.
22) الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.
23) المعسول 3/ 307 هامش رقم : 1.

وَأَنْتَ سَلِيلُ الأَمْــجَــد ابْن مُــحَــمَّــد
نَهَــجْتَ طَرِيقَــاً لَمْ تَلقْ بِذَوِي الْعِلْمِ
فَــإِنَّ الْخَــمِــيسَ لِلْكِتَــابَةِ أَوْ لِسَــرْ
دِ كُــتْــبٍ تُزِيلُ الْهَمَّ عَنْ قَلْبِ ذِي هَمٍّ
مِنَ الْخَــبَــرِ المَأْثُور وَالأَدَبِ الَّذِي
يُنِيــلاَن فِي الْعَلْيَــاءِ أَوْفَــرَ مَــا سَــهْم(24)

ويدل هذا على حرص أساتذة الإلغية على دوام صلة طلبتهم بكتب الأدب حتى بعد التخرج، لكي لا تنقطع صلتهم بالفن شأن الكثيرين عند انشغالهم بأعباء الحياة،(25) مما يؤدي إلى انصرافهم عنه كلية.

ويبدأ الطلبة بالكتب السهلة ويتدرجون حتى يصلوا إلى المرتبة العليا لديهم فـ «يبتدئون بالأسهل كالمستطرف، ومروج الذهب، وابن خلكان، فسيرة ابن هشام، فالمواهب اللّدنية ثم لا يزالون يترقون إلى أن يقعوا بعد أن يشدوا في نفح الطيب الذي هو الكتاب العالي عندهم...».(26)

أما طريقة دراسة النصوص الأدبية ضمن النصاب اليومي فتتلخص في تخصيص الأساتذة أوقاتا يسيرة لها، وقد قسموا كل نص أقساما متساوية، أي أنصبة، يتلى كل نصاب ضمن حصة دراسية يومية، ثم يشرح ويكتبه الطلبة في ألواحهم حتى يتفرغوا لحفظها، وهكذا يتتبعون هذه النصوص، فإذا تمت دراسة قصيدة أو مقامة تلتها أخرى...(27)

ومن أهم الكتب التي يهتمون بمطالعتها سردا :

* «المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشيهي.
* «مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي.
* «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لأحمد بن خلكان البرمكي.
* «السيرة النبوية» لابن هشام : ولا عجب أن اعتبرها الإلغيون ضمن الكتب الأدبية، إذ تشتمل على نتف شعرية وقصائد من العهدين الجاهلي والإسلامي بالإضافة إلى رسائل الرسول ﷺ وأقواله الشريفة.
* «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» للإمام القسطلاني.

---

24) المعسول 3/ 154.
25) انظر نماذج من هؤلاء بالمعسول 2/ 86.
26) المعسول 1/ 57.
27) أخبرني بذلك الفقيه أحمد بن عمر رزقي لما جالسته منزله بأكادير بتاريخ منتصف يوليوز 1992.

* «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»، لأحمد المقري. وهذا هو الكتاب العالي المكانة لدى الإلغيين ما من أحدهم إلا طالعه وحفظ مختارات من أشعاره، وكان إذ ذاك أول ما طبع في أجزائه الأربعة الكبار،فعكفوا عليه حتى استشفوا مضامينه وعرفوا الأندلس وشعراءها وكتابها من خلاله «كما يعرفون أبناءهم ويستحضرون القصائد الطنانة كما يستحضرون تحية الصلاة. فما منهم إلا من درسه مرات...»(28) وقد كان للأديب عبد الرحمان البوزكارني اهتمام زائد به لا يفارق مطالعته، حتى قال عنه تلميذه المختار السوسي : إن النفح «دليل خيراته كاد يحفظه كله كما يحفظ الدليليون في مراكش دلائل الخيرات...».(29)

* «سقط الزند» : ديوان شعر لأبي العلاء المعري يشمل أزيد من ثلاثة آلاف بيت.
* العقد الفريد لابن عبد ربه.
* خزانة الأدب الكبرى للحموي.
* «حياة الحيوان الكبرى» لكمال الدين الدّميري.
* «ريحانة الألباء في طبقات الأدباء» «لأحمد بن محمد الخفاجي.
* «ثمرات الأوراق في المحاضرات» لابن حجة الحموي.
* تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق» لداود الأنطاكي.
* «الوسيط في تراجم أدباء شنجيط» لأحمد بن الأمين الشنقيطي.

وقد أضيفت على عهد المدني بن علي وإخوته كتب أخرى إلى لائحة المدروسات وهي:

* «تنبيه الغافلين» لأبي الليث السمرقندي.
* «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان.
* «زهر الآداب» للحصري.
* «ألف ليلة وليلة».
* «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس.
* «إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس» لمحمد دياب الأتليدي.(30)

وقد كان لمطالعة طلبة الإلغية هذه الكتب، مطالعة موجهة من قبل أساتذتهم، أثر كبير في تغلبهم على صعوبات القراءة بإتقان ضبط الألفاظ وكل ما يتعلق بها نحوا واشتقاقا، حتى اشتهروا بين أقرانهم السوسيين بإتقان القراءة بلا تلعثم ولا لحن في أي كتاب

---

28) مدارس سوس العتيقة ص : 68.
29) نفسه.
30) أخبرني بذلك الفقيه أحمد بن عمر رزقي لما جالسته بمنزله بأكادير منتصف يوليوز عام 1992.

لاقوه،(31) وفي الاطلاع على إبداعات شعراء العربية عبر العصور وكبار كتابها واستيعابها واستغلالها لاكتساب الخبرات لأجل بناء إبداعات أدبية خاصة بهم.

لقد كانت منهجية سرد كتب الأدب طريقة مثالية لتمكين الطلبة من اكتساب خبرات تعينهم على تذوق النصوص الأدبية وإبداء آرائهم فيها، وعلى الإبداع الشعري والنثري، وذلك عبر تنظيم هذه الخبرات تنظيما دقيقا لتشكل إطارا جماليا وخلفية أدبية، بدونهما لا يمكن لأي أديب أن ينتج أو ينتقد.(32) وإذا كانت دراسة علوم الآلة من نحو ولغة وعروض وبلاغة... تمكن أدباء الإلغية من إدراك انسجام الإبداعات الأدبية مع القواعد العلمية، فإن الاحتكاك بهذه الإبداعات منحهم القدرة على الإحساس بجماليتها، والاستفادة منها في التعبير، بمحاكاتها أو استلهامها أو استحضارها.

ب - المشاركة في المباريات الأدبية في المواسم السنوية :

تطرقنا قبل إلى(33) المنافسة التي تشتد بين طلبة المدارس السوسية في بعض المواسم الكبرى بسوس، وتعد هذه المنافسات المحك الحقيقي للمكانة الأدبية للطلبة. إذ يدفعهم الخوف من الإخفاق إلى الإعداد الجيد لها، وقد كان طلبة الإلغية يخرجون منها فائزين غالبا، كما تتاح لهم الفرصة لإظهار مواهبهم الأدبية في الحفظ، والتباري بإنشاد الأبيات، والمساجلة الارتجالية. كما تمكنهم هذه المباراة الحادة أحيانا،(34) من اكتساب الجرأة والشجاعة لمواجهة الخصوم ومحاولة تعجيزهم.

لقد كانت المنافسة في المواسم فرصة لطلبة الإلغية لاستثمار معارفهم الأدبية، خاصة في ميدان الشعر، ولتدريب قرائحهم على ارتجال القوافي على اختلاف موضوعاتها حتى يستطيعوا ضمان التفوق على زملائهم من المدارس المنافسة، وتجنب الفشل وما يتبعه من اتخاذهم هزوءا وسخرية طوال العام حتى الموسم اللاحق. وهكذا صارت هذه المواسم مثل أسواق العرب في الجاهلية «حلقة من حلقات تطور اللغة والأدب، بما أتاحته من حلقات للإنشاد ومنصات الخطابة، ومجالس للحكم، ومسارح للمراجزات، جامعة ذلك كله في إطار شعبي جماهيري أصيل».(35)

---

31) انظر مثالا لذلك في المعسول 13/ 422.
32) مصطفى سويف ـ الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ص : 161.
33) الفصل الرابع من الباب الثاني من هذا الكتاب.
34) انظر حول ذلك المعسول 3/ 270.
35) علي محمد هاشم ـ الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص : 45.

ج - الندوات والمجالس الأدبية :

انفردت المدرسة الإلغية بين مثيلاتها السوسية المهتمة بالأدب العربي كالبونعمانية والأدوزية بعقد ندوات ومجالس أدبية كلما أتيحت الفرصة في أوقات غير منتظمة «لأن العادة استمرت أنه كلما حضرت فرصة أن تستنبط القرائح، فعند كل ولادة لمعتبر عندهم، أو قدوم أديب، أو توديع آخر، أو قيام عرس، أو ختم مؤلف يدرس، أو مناسبة ما تجد القصائد يرمى بها بين يدي رئيس الندوة»(36) وأهم مناسبة لعقد الندوات الإلغية هي زيارة الوفد الإفراني بأدبائه الكبار وعلى رأسهم تلميذ المدرسة الطاهر الإفراني، مرة أو مرتين في السنة،(37) بالإضافة إلى زيارة الأدباء الصحراويين بعد اتصال العلاقة بينهم وبين الإلغيين،(38) وزيارة كبار أدباء وعلماء سوس من أمثال العلامة الهاشمي الأقاوي، ومحمد بن العربي الأدوزي...(39)

وقد كانت هذه الزيارات والوفود المتلاحقة السبب في ازدهار سوق الأدب الإلغية وامتزاج أقوال الصحراويين فيها بالإلغيين وغيرهم من السوسيين، حتى أشبهت قرية دوكَادير سوق عكاظ مما جعل العلامة المختار يسميها عكاظ الثاني،(40) ويشبهها بإشبيلية إبان حكم ابن عباد في قوله : «... كأن النادي الإشبيلي المنطوي يوم احتلال المرابطين لإشبيلية قد انتشر في إلغ، فتقمص الطاهر ومحمد بن الطاهر والعربي وابن الحاج والبشير الإفرانيون، وعبد الله بن محمد ومحمد بن علي والمدني الإلغيون، وأحمد بن محمد ومحمد بن أحمد اليزيديان، وعبد الرحمان البوزكارني، أرواح ابن اللبانة وابن زيدون وابن وهبون وابن عمار وابن خفاجة وابن خاقان وابن بسام، فكان علي بن عبد الله في صدر ناديه الأدبي في منزلة المعتمد، يورد ويصدر في الأفكار، ويذهب ويأتي بالمد والجزر في منتجات المنثورات، ومستحسنات الأشعار، وقد ألقت القرائح كنوزها، وأخرجت الأفكار أثقالها...».(41)

وكان وراء إنجازات الندوات الأدبية، أولئك الذين ترأسوها وأداروا مباحثاتها ومساجلاتها، إذ من المعلوم أنه كان لهذه المجالس أصول وضوابط يسهر رئيسها على مراعاتها للحفاظ على آداب المجالسة، ونجد في إدارة الإلغيين لمجالسهم شبها كبيرا من إدارة الندوات الأدبية في العصور السالفة خاصة العصر العباسي، حيث كان رئيس الندوة

---

36) سوس العالمة، ص : 103.
37) انظر أعضاء هذا الوفد وحضورهم في ندوات إلغ بالمعسول 1/ 373 وما بعد.
38) مترعات الكؤوس في آثار طائفة من أدباء سوس، ص : 125.
39) انظر المعسول 9/ 149.
40) المصدر السابق، ص : 126.
41) انظر المعسول، ص : 114 - 115.

«محافظا على تقاليد آداب المجالسة، لا يقبل العبث ولا التهاون... فلا يبدأ أحد قبله الكلام ولا يجيب إلا بإذن منه ولا يسمح باستعمال الألفاظ النابية، ولا الاسترسال في التندر والضحك، ولا الهذر بغير معنى».(42)

وقد تفاوتت مستويات هذه الندوات وقيمتها حسب توالي الأدباء على رئاستها، ومن أبرزهم عميد الأدب الإلغي علي بن عبد الله الإلغي، الذي نفخ في كل من جاوره وخالطه روحا أدبية فواحة؛ وكانت مجالسه كلها مجالس آداب وعلوم، وقد قضى في زعامة ندوة إلغ الأدبية أزيد من أربعين سنة لا يكل عن إيراد الأشعار وإصدارها تنشيطا للأدباء؛ فكانت آثاره : «بحرا زاخرا، غالبه مقطعات ونتف، وما يرحب به إذا نزل به وفد أدباء، أو ما يودعهم به عند الرحيل، وكانت تلك شيمته التي ثابر عليها طوال حياته، ثم يجيبه المخاطبون كل واحد على حدة، ثم يشارك في ذلك نشء المدرسة، كل بقدر وسعه، ثم يصمد أحد الوافدين إليهم فيجيب كل واحد على عروضه وقافيته، وهكذا دواليك... فتروج البضائع وتتفجر القرائح، حتى من ليس في الشعر في عير ولا نفير...»(43) ثم لما توفي علي بن عبد الله تسلم ابنه المدني لواء الآداب ورئاسة ندواته فحاول القيام بما ألف من والده، إلا أن الأحوال قد تغيرت(44) فقل انعقاد الندوات لقلة الدواعي، وإن ظلت أهم مناسباتها هي زيارة الوفد الإفراني، وبعض الصحراويين مثل كاتب آل كردوس محمد بن عبد العزيز الصحراوي.(45) كما فقدت تأثيرها بسبب خلو المدرسة من الطلبة، وانكماش أدباء المنطقة واشتغالهم بخويصة أنفسهم(46) بعد وصول الحماية إلى المنطقة.

إلا أن الأمور تغيرت، وعادت ندوات إلغ إلى سابق عهدها، ورفعت راية الأدب خفاقة في سمائها بعد نفي العلامة المختار السوسي، فكأنما بعث من جديد عهد عميدها الأستاذ علي بن عبد الله، فما أن وضع تلميذ الأدب الإلغي قدمه على أرض مسقط رأسه، حتى هب الأدباء مرحبين ومواسين، وقد وصف بنفسه هذه الانبعاث الأدبي في كتابه الإلغيات لما قال : «... ثم إن الأدباء الإلغيين ومن إليهم - حياهم الله وبياهم - رحبوا بي على عادتهم حينما يرحبون بكل قادم ببنات القوافي. فأجيب كل واحد منهم بما تيسر فمضت أيام رفعت فيها عقيرة الأدب الإلغي صوتها...».(47)

---

42) علي محمد هاشم - الأندية الأدبية، ص : 78.
43) مترعات الكؤوس، ص : 125.
44) انظر الفصل الثالث من الباب الثاني من هذا الكتاب.
45) المعسول 2/ 136 - 138 وجلسة مع الفقيه أحمد بن عمر رزقي بمنزله بإلغ أواخر غشت 1992.
46) سوس العالمة، ص : 104.
47) 1/ 76.

وكانت تلك السنوات التي قضاها السوسي منفيا بإلغ، حياة جديدة لندواته التي صارت رئاستها بيده، يدير أبحاثها ومناقشاتها، ويحاول ما أمكنه تطعيمها بآرائه وأفكاره الأدبية الجديدة التي تلقاها إبان إقامته بالحواضر المغربية،(48) إلا أنه لم يكد يغادر منفاه حتى أفل نجم الآداب الإلغية، وكانت آخر ندوة تلك التي أقيمت بمناسبة زيارة القاضي محمد الهاشمي الفاسي عام 1945م(49) وهو نفس العام الذي أطلق فيه سراح العلامة السوسي من منفاه كلية، وقد شارك في هذه الندوة، وكان من بين المرحبين بالزائر الأقاوي بقصيدة قال عنها : «وإنما قلت ذلك لأن أدباء إلغ احتفلوا بمقدمة فقدموا إليه قصائد متعددة، كعميد المدرسة سيدي المدني، وأخيه سيدي الطاهر، وشيخنا سيدي عبد الله بن محمد، وأبي العباس الفقيه أحمد البنائي الدياني...».(50)

وتكمن أهمية الندوة الإلغية في كونها مجالا فسيحا لتنشيط الآداب وترويج بضاعتها، وذلك انطلاقا من الخطوات التالية :

1 - عرض الإنتاجات الجديدة شعرية كانت أم نثرية، فتجتمع منظومات الطلبة المبتدئين بقصائد الشعراء البارزين : «فلا تخطر قصيدة جديدة، أو رسالة حديثة كيفما كانت، وإن لم تكن إلا من مبتدئ في خطواته الأولى إلا وتتلى في المجمع والعيون شاخصة والأسماع مرهفة...»(51) والقصد من ذلك تقويم هذه الإنتاجات، وإظهار ما فيها من محاسن، وإرشاد أصحابها إلى ما ارتكبوا فيها من أخطاء، بأسلوب يغلب عليه اللطف والمجاملة، محافظة على شعورهم حتى لا ينكصوا على أعقابهم إن ووجهوا بالنقد الصريح، وقد كان همّ رؤساء هذه الندوات تشجيع المتأدبين وتنشيطهم بالثناء على محاولاتهم «لأن بعض القائلين، قد تبلغ منهم كلمة يحبذ بها ما لا تبلغ جائزة كان غيره يتسلمها من يد ممدوح في بلاط...».(52)

ولا تقتصر الندوة على عرض إنتاجات طلبة الإلغية وتلاميذها القدماء وضيوفهم، بل تعرض ما يرد على أدبائها من رسائل وقصائد من الأدباء السوسيين وغيرهم،(53) من ذلكَ رسالة الحاج مسعود الوفقاوي الذي كاتب أستاذه علي بن عبد الله، فأجابه مشيرا إلى أن رسالته عرضت على مجلس الندوة بقوله : «... وقد وصل كتابك العزيز، وخطابك الوجيز، وذهبك الإبريز، فسقانا القرقف صرفا، فانتشى الندامى وما نطقوا ولو حرفا؛

48) انظر نماذج من ذلك من خلال جزولة 2/ 95 والرسالتان، ص : 171.
49) حدثني بذلك الفقيه أحمد بن عمر رزقي الصالحي بمنزله بإلغ أواخر غشت 1992.
50) المعسول، 9/ 149.
51) سوس العالمة، ص : 103.
52) نفسه.
53) كان لأدباء الإلغية اتصال متين ببعض أدباء المغرب كأحمد سكيرج انظر المعسول 19/ 147.

ووافانا وقد تبركت حضرتنا وتزينت بعدة من العلماء الأعلام؛ هداة الأنام، ومصابيح الظلام؛ وخدمة الأنام، ومعتقلي الكلام : الصدر الأوحد، والفرد الأمجد شافعي وقته علما وشعرا، سيدي الطاهر بن محمد الإفراني، والمدرس الأتقى الأورع الأرقى سيدي بلقاسم التاجرمونتي، والبركة المسداة للخلق والراتق للفتق ولد الأقطاب سيدي البشير بن المدني؛ ونير أفق السيادة؛ وحائز خصال السبق في ميدان المجد والإجادة؛ ممن لا يحلق له غبار في مضمار؛ حامل راية التدريس حال الغدو والتعريس سيدي أحمد بن الحاج محمد اليزيدي ومولانا عبد الرحمان بن الحاج الأحبالي... وقرأ الجميع كتابك، هم يديرون الكأس، فلما عاينوا حلل البلاغة وذاقوا طعم وحلاوة براعته، كانوا كلهم بين طاعم وكاس...».(54)

وتتناول الندوة بالنقد والتمحيص ما يعرض عليها من منظوم ومنثور، وقد كان الأستاذ علي بن عبد الله الإلغي يقرأ الإنتاجات بنفسه «بلسانه الفصيح، ولهجته العذبة، فإن كانت شعرا وهو الغالب، فإنه يكرر كل بيت على حدة ويترنم به فيستحسن بكل إعلان ما كان مستحسنا، ويغض عما رأى من الزلل مع التلويح إلى ما في ذلك من غير تصريح...».(55) وتدور الانتقادات حول الأخطاء اللغوية وهي أول ما يخصون بالاهتمام، فلا يقبلون لحنا أو إخلالا بالقواعد، ثم المعاني البلاغية والسرقات والمآخذ من الشعر العربي،(56) وحتى نقف على كيفية هذه الانتقادات لابد لنا أن نعرض مثالا نجعله سببا لتصور الأحوال التي تمر فيها الندوة، ولعل أحسنها ما قيل في قصيدة للعلامة المختار السوسي إذ عرضت على الحاضرين بحضوره ومطلعها :(57) (الوافر)

أُعَاطِي كُؤُوسَ السَّلْوَى نَدِيمِي
وَبِيَ مَا بِي مِنَ الشَّجْوِ العَظِيمِ

قال معددا بعض انتقادات الإلغيين لها : «فلما وصلوا هذين البيتين :

وَيُتْحِفُهُ عَنْ أَخْلاَقٍ لِطَافٍ
بِأَلْطَفَ مِنْ نَسِيمٍ فِي وَسِيمِ
فَيَحْسِبُهَا لِقَيْسٍ وَابْنِ قَيْسٍ
وَأَيْنَ النَّجْمُ مِنْ مَرْقَى النُّجُومِ ؟

توقف بعض الجالسين في المقصود بالوسيم في الشطر الثاني من البيت الأول، فقال له المترجم(58) إن المقصود : في روض وسيم، كما توقفوا في المقصود بقيس وابن قيس...

54) مترعات الكؤوس، ص : 119.
55) المعسول 1/ 346.
56) حدثني بذلك الفقيه أحمد بن عمر رزقي الصالحي الإلغي وسنتطرق لكل ذلك فيما يأتي.
57) انظر المعسول 10/ 120.
58) يقصد أستاذه الأديب عبد الرحمان الوزكاري.

فقال : أما قيس، فإنه قيس بن عاصم المنقري، المضروب به المثل في الحلم، وابن قيس، الأحنف بن قيس الذي يضرب به المثل في الحلم، ولما وصلوا أيضا هذا البيت :

وَلَكِنْ كَيْفَ - وَاعَجْزَاهُ - دَبْغٌ

وَلَيْسَ بِمُمْكِنٍ، حَلْمَ الأديم

توقفوا في معناه أيضا، فقال لهم إن المراد : كيفَ يمكن دبغ الإنسانَ الأديمَ الحَلَمَ، وذلك بلا ريب ليس بممكن، وحلم الأديم كفرح : أفسدته الحلمة، وهي دودة تقع في الجلد فتاكة، وهو حلم كفرح الإنسان فهو فرح...».(59)

وهكذا تمر التعليقات والانتقادات على ما يعرض في الندوة بهدف التصحيح والتنقيح كيفما كانت، خاصة في عهد الأستاذ علي بن عبد الله، أما خلفاؤه فقد غيروا بعض شكلياتها إذ أصبح صاحب القصيدة أو الرسالة خاصة من الطلبة يقرأ بنفسه إنتاجه أمام الجمع الحافل، فكان ذلك أدعى لاكتساب الشجاعة وانتفاء الخجل والانكماش، كما أن العلامة عبد الله بن محمد الإلغي يصمد للأخطاء كيفما كانت فينتقدها بلا مجاملة ولا التماس الأعذار، فيستوقف القارىء على الخطأ ليناقشه حتى يتم الوقوف على الصواب أو استخراج وجه من وجوه صحته يمكن قبوله.(60) وفي هذه الندوات المتلاحقة يتم الاعتراف بشاعرية الأدباء الناشئين وتفوقهم، حينما يمنحون تزكيات كبار الأدباء الحاضرين، بعد أن ينكبوا على إنتاجهم بحثا ونقدا. ولعل اعتراف شيوخ الندوة بالإجادة لشاعر أو ناثر مما يطمح إليه عامة الطلبة بالمدرسة، فيعتبر ذلك عندهم بمرتبة الشهادات العليا والإجازات الصحيحة؛ وقد كان العلامة المختار السوسي ممن حصل على الاعتراف في إحدى الندوات، قال عن ذلك : «... وفي ذلك المجلس أعلنت الندوة الأدبية الإلغية بلسان الحال والمقال : الاعتراف بأنني ممن ينظر إليهم بين الأدباء الإلغيين، فكانت كالأطروحة التي تنال بها الدكتوراه...».(61)

2 - امتحان الطلبة في سرد الأدب : حيث يجتمع الأدباء لمطالعة الكتب وامتحان مهارة المتأدبين في القراءة بلا تلعثم ولا لحن، مع فهم المقروء وتفسير ما غمض من كلماته وعباراته، أو ما أبهم من معاني أشعاره وأمثاله. ويغلب على الإلغيين اختيار كتابهم المفضل «نفح الطيب» لمثل هذه المناسبات. وقد أورد العلامة المختار السوسي عدة نماذج نقدم منها مثالين :

---

59) المعسول 10/ 120.

60) حدثني بذلك الفقيه أحمد بن عمر رزقي بمنزله بأكادير منتصف يوليوز 1992.

61) المصدو السابق.

المثال الأول : وهو إحدى الجلسات التي كان المختار السوسي من الممتحنين فيها، وقد حضرها كبار أدباء إلغ في دار علي بن عبد الله الإلغي كشيخه عبد الله بن محمد الإلغي، وعبد الرحمان البوزكارني، وأحمد بن محمد اليزيدي، وعبد الله بن إبراهيم السعيدي، ومحمد بن علي الإلغي وغيرهم، قال عنها : «... كان الوقت ليلا، فأحييناها من العشاء إلى منبثق الفجر، وكانت جلسة امتحان لي في إحدى قدماتي إلى إلغ نحو 1343هـ، فكان كتاب يتلى وأحسبه «نفح الطيب» فتتجاذب الأفهام، وكان المترجم(62) واليزيدي معي دائما، فلا أنسى تلك الليلة وما قاما به نحوي ما حييت...».(63)

المثال الثاني : وهو جلسة حضرها كذلك العلامة المختار، وكانت تحت رئاسة علي بن عبد الله الإلغي الذي قام بدور المسير والمنظم لنقاشات الأدباء الحاضرين حتى يتمكن كل واحد منهم من إبداء رأيه عند الخلاف بينهم، قال صاحب المعسول واصفا وقائع الندوة : «كنا نتداول نفح الطيب تلاوة على العادة، ثم نتشعب فيما عسى أن يعرض لنا في الكتاب، إما في المعاني وإما في غيرها، وكثيرا ما نختلف في شيء، فيأخذ الأستاذ قطب المجلس علي بن عبد الله، أصواتنا على الانفراد فيقول كل بحريته التامة ما يظهر له...»(64) وقد كان الغرض من أمثال هذه الامتحانات شحذ همم الطلبة ودفعهم إلى الاطلاع على تجارب وإبداعات فطاحل الشعراء، بالإضافة إلى مراقبة مطالعاتهم وتقويم جديتهم فيها حتى لا يتهاونوا في المحافظة على مواعيدها الثابتة، أيام العطل الأسبوعية.

3 - **المباحثات الأدبية** : لا يجلس أدباء الإلغية مجلسا دون أن يشتغلوا بمناقشة مسألة أو تبين معنى أو إنشاد الأشعار ونقدها،(65) مهتمين بضبط الألفاظ اللغوية والبحث في معانيها... وكانت مجالسهم مجالا للبحث المتأني حتى يدركوا الصحيح من السقيم، ومن بين مباحثاتهم، تلك التي جمعت بين عبد الله بن محمد الإلغي وتلميذه المختار السوسي ودارت حول حكاية مفادها أن أعمى قاده ولده فوصلا جدولا متسعا، فقال أقفزن بالنون الخفيفة، فقفز الأب قفزا خفيفا، فإذا به في وسط الجدول، فمال على ابنه بعد خروجه بالضرب، فقال له : لم تأت بنون التوكيد الشديدة التي يحتاج إليها المقام، لأقفز قفزة كبيرة؟»(66) وقد تناول النقاش مسألة تأكيد النون أصل مدلول الفعل أو كثرته وقلته، فذهب عبد الله بن محمد إلى أن نون التوكيد بنوعيها دالة على درجة وقوع الفعل، باعتبار ما جاء في الحكاية صحيحا لا شك فيه، بينما ذهب تلميذه السوسي إلى التشكيك في

62) يقصد الأديب عبد الرحمان البوزكارني.
63) المسعول 10/ 120.
64) 1/ 169.
65) انظر اهتمام الإلغيين بالمباحثات في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.
66) المعسول 2/ 172.

الحكاية. فالفرق بين تخفيف نون التوكيد وتشديدها - في رأيه - «في كثرة التوكيد لمن يحتاجه من المخاطبين أو قلته، فلا بد إن أريدت إحداهما من شيء آخر يفيدها خارج هذه العبارة...».(67)

وكان كل واحد من المتباحثين يدلي بحججه لإثبات رأيه وعندما يفشلان في الوصول إلى الرأي الصائب يعمدان إلى مراجعة كتب اللغة. وتذكي هذه المناقشات حماس الأدباء وتدفعهم إلى دوام الاتصال بالقواميس وكتب اللغة ومنظوماتها حتى يحافظوا على معلوماتهم من الضياع والنسيان.

وخلاصة الأمر أن المجالس والندوات الأدبية الإلغية كانت بالنسبة لطلبة المدرسة وأساتذتها بمثابة محيط تعليمي لإعانة المبتدئين على اكتساب المهارات وصقلها، بمحاولة تجاوز عوائق البيئة خارج المدرسة، والتي تخلو من كل مظاهر الاعتناء بالأدب أو حتى اللغة العربية. لقد كان هدف المجالس والندوات ربط الأديب بمجتمع محدود من أقرانه وزملائه يعمل على حفظ المكتسبات اللغوية الأدبية، وتعزيز صفوفه بضم أعضاء جدد من المبتدئين تتاح لهم الفرصة للتمرس في الميدان تحت رعاية الشيوخ، وبذلك وفّق أدباؤنا في خلق جو أدبي عربي متميز يأخذ بضبع المبتدئين وينوه بقدر النابغين.

هكذا كانت الندوات الأدبية الإلغية رياضا يجول فيها الأدباء كلما سنحت الفرص باجتماعهم مما لا يوجد في غير إلغ من البيئات، خاصة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري حين نضب معين الأدب في المعاهد العلمية المغربية، فلا شاعر لا ناثر، ولا مطالع لكتب الأدب ولا سارد لها، فليس هناك أدباء كبار يأخذون بضبع المبتدئين إرشادا وتوجيها، وإنما ندوات خاصة بهم، يجتمعون فيها لتبادل الآراء والأفكار حول شتى المعارف والعلوم، بما فيها الأدب، ولعل أهمها في هذه الفترة هو النادي الجنداري بالرباط،(68) وقد يظن ظان أن الزعم بانفراد إلغ بين بوادي المغرب - إن لم يكن بين حواضره - بالريادة الأدبية ضرب من الخيال، غير أنني في هذا الاستنتاج قد اعتمدت على شهادتين اتخذتهما أساسا له :

الأولى : للعلامة المختار السوسي الذي حلّ بمراكش لمتابعة دراسته بعدما غادر سوس، فأدرك لأول وهلة الفرق بين بيئة شيوخه، التي تعج بالأدبيات دراسة وممارسة، وبيئة مدرسة ابن يوسف التي ليس فيها إلا الاهتمام بالعلوم،(69) وقد عبر عن أسفه على فراق مجالس

---

67) المعسول 2 / 172 .

68) انظر حول هذا النادي وأعضائه، د. أحمد الطريسي أعراب ـ الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب، ص : 98 - 99، ود. عباس الجراري ـ مقدمة كتاب الشعر الوطني في عهد الحماية، ص: 9.

69) انظر حول هذه المرحلة من حياته الإلغيات 2/ 223.

إلغ وندواته الأدبية في رسالة بعث بها إلى الأستاذ المدني بن علي الإلغي، مشيرا إلى أن الطلبة هناك في مراكش لا همّ لهم إلا في تحصيل العلوم وإتقانها. قال : «... فيا سيدي إنني فارقتكم كالمفارقة التي قال فيها ابن عنين إذ خرج من دمشق باكي العينين : (الكامل)

فَارَقْتُهَا، لاَ عَنْ رِضًا، وَهَجَرْتُهَا لاَ عَنْ قِلَى، وَرَحَلْتُ لاَ مُتَخَيِّرَا

وبودي ألا أفارق، أيها الأدباء، مجالسكم الحافلة، لكي أستفيد دائما من كل نوع من العلوم مسائله، ولكنني لست بمختار وإن سميت بالمختار، فما أقصر تلك الأيام التي قضيتها عندكم نتهادى بالأدب ونترشف الفوائد فكأنما نترشف ابنة العنب، فها أنذا وحدي الآن هنا في هذه المدرسة اليوسفية التي لا يملؤها إلا الطلبة من الأعراب، وليس منهم من يعرف ولو كلمة من الآداب، فقد كادت فكرتي بعدكم تصدى، حين لم يجد لساني من يذاكره في الأدب، سواء قصد تهامة أو نجدا، وإن كانوا كلهم أفاضل محصلين للعلوم الأخرى حتى برزوا في المحافل...».(70)

الثانية : للأديب تلميذ المدرسة أحمد بن زكرياء السكال الباعمراني الذي حدثني(71) أنه لما وفد على فاس ليدرس العلوم بالقرويين عام 1361هـ، وجد الاهتمام بالأدب بها قليلا جدا أو غير موجود البتة. كما أن بعض الأنشطة الأدبية التي ألف الاشتغال بها في المدرسة الإلغية منعدمة بالكلية كسرد كتب الأدب؛ وقد ذكر في رسالة بعث بها إلى أستاذه المدني بن علي أنه منذ خرج من إلغ لم يحاول النظم، غير قصيدة أرفقها بالرسالة واعتذر عما فيها من أخطاء قائلا : «... وقد خاطبني سيدي محمد بن علي(72) بقصيدة في بحر الرمل فأجبته في بحرها تصله بيد الحامل، أريد منكم أن تنقحوها، فإنه منذ خرجت من إلغ ما جمعت كلمة إلى كلمة غير هذه...».(73)

وهكذا نرى من خلال هاتين الشهادتين اللتين أطلعتانا على حالة دراسة الأدب وفنونه في معاهد المغرب الكبرى، أن المدرسة الإلغية المنعزلة وسط البادية السوسية انفردت بندواتها ومجالسها الأدبية، التي أسست على تشجيع الطلبة على تعاطي الأدبيات، ودفعهم إلى الاحتكاك بآثار كبار شعراء وكتاب العربية، انطلاقا من المؤلفات التي توفرت لهم، وتدريبهم على استثمار معارفهم باستغلالها في المباحثات.

---

70) المعسول 2/ 124.
71) وذلك لما جالسته بمنزله بتارودانت أوائل أكتوبر 1992م.
72) يقصد الأديب محمد بن علي الإلغي.
73) أوراق محمد بن الحسين الصالحي.

د – التشجيع على معاناة النظم :

لم يقتصر أساتذة الإلغية على تلقين طلبتهم الأساليب الرفيعة وتحفيظهم مقطوعات الشعر وقصائده العالية، بل كانوا يواخذونهم باستثمار محفوظاتهم، وقراءاتهم الأدبية، بمحاولة النظم كل حسب قدرته في كل مناسبة تستدعي ذلك، وما أكثر هذه المناسبات في إلغ إذ ذاك، وإن كانت أهمها زيارة الوفود خاصة الوفد الإفراني وختم المتون الدراسية، ومواكبة المناسبات الاجتماعية، والمساجلات في مجالس الشاي التي يحتفل بها الطلبة.(74)

وأصل الحرص على معاناة الطلبة نظم الشعر، مؤسس المدرسة الأستاذ محمد بن عبد الله، الذي كان يحث طلبته على المحاولة والإنشاء وعدم الاكتفاء بقراءة تجارب الآخرين، ويطالب كل واحد منهم في مناسبات مختلفة بأن «يترامى على صوغ الرسائل والقصائد، ثم إن ظهرت فيه أهلية وظهر بقريحة جيدة، فإنه يعتني به في الأدب والإنشاء، وإلا فيكتفي منه بأن يدرك الفضة من القضة، والثمرة من الجمرة...»(75) وقد سن لذلك أساليب وطرقا جعلها سببا لتحقيق هدفه، وتابعه في الأخذ بها أساتذة الإلغية بعده ومن أبرزها :

1 – الحث على تداول الأدبيات خاصة الأشعار إنشاء وإنشادا في المجالس العامة، وكان أساتذة الإلغية أحرص ما يكونون على ذلك عند جلوس الطلبة لشرب الشاي؛ فقد اعتبر مؤسس المدرسة تلك الكؤوس اللذيذة حنظلا إن لم يصاحبها إنشاء الأشعار، ولا يخفي تعجبه ممن حصر عن الإنشاء والإنشاد واشتغل بالشرب، فقال :(76) (مجزوء الرمل)

أَنْشِئُوا يَا خَيْرَ قَوْمْ ... مِلَحاً إِذْ مَا حَضَرْتُمْ

أَدَبُ الْمَجْلِسِ شِعْرٌ ... طِبْقَ مَعْنًى مَا نَشَرْتُمْ

عَجَباً كَيْفَ حُصِرْتُمْ ... وَلِشُرْبِ الْكَأْسِ صِرْتُمْ

إِنَّ كَأْساً دُونَ شِعْرٍ ... حَنْظَلٌ لَوْ قَدْ سَبَرْتُمْ(77)

---

74) انظر حول هذه الحفلات الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.

75) المعسول 1/ 167.

76) المصدر نفسه، ص : 180.

77) في مترعات الكؤوس، ص : 140 ورد الشطر الأول كما يلي : إن كأسا دون علم.

ولا غرابة في ذلك، فالطلبة عند اجتماعهم على الشاي، إما أن يشتغلوا بالهذر واللغو فتضيع أوقاتهم سدى، وإما أن يستغلوها في الترويح عن أنفسهم من عناء الدراسة، ولا شيء أنسب لذلك من تداول الأدبيات أشعارا وطرائف وأمثالا، مع ما فيها من الفوائد.

2 – مساجلة الطلبة وإلزامهم بالرد : وذلك إمعانا في تشجيعهم على قرض الأشعار، فيستغل الأساتذة ما سنح من فرص لاستنهاض الهمم مثل محمد بن عبد الله الإلغي الذي خاطب تلاميذه نظما يستشيرهم في الانتقال من إحدى المدارس، بقصيدة ختمها بقوله، يحثهم على إجابته نظما أو نثرا :(78) (الوافر)

بِنَظْمٍ فَلْيُجِبْ مِنْكُمْ مُجِيبِي
فَعِنْدِي الشِّعْرُ يُنْسِي جَامَ رَاحِ

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ لِلشِّعْرِ سُبْلاً
فَفِي الْمَنْثُورِ مُتَّسَعُ البَرَاحِ(79)

وقد بلغ به حب الأدب والرغبة في نشره، حث أترابه ورفاقه ممن لا يد لهم في القريض إلا تكلفا، مثل الفقيه الحسن بن أحمد التَّيَاسنْتي،(80) إذ كتب إليه مشجعا : (الوافر)

تَكَلَّفْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْقَرِيضِ
فَإِنَّ الدَّبَّ مِنْ بُرْءِ الْمَرِيضِ(81)

فأجاب بأبيات وصفها ناقلها فقال : «لو كان لها معنى مستقيم لقلنا إنها من مجمع الأبحر، ولكن لم أجد لها معنى مستقيما، ولا وزنا متحدا»(82) وقد ذكر ناظمها ذلك بنفسه حيث صدرها بقوله : «... وقد قلت في شأن سيدي نثرا على صورة نظم امتثالا لأمره...»(83) وكيفما كان الحال فإن غرض مؤسس الإلغية، ترويج الأدب وتحريك ساكنه غير مكترث بما يأتي بعد، سواء أجاد الناظم أم لم يجد.

وقد انتقل هذا الاهتمام من محمد بن عبد الله إلى من تولوا أستاذية المدرسة بعده، فكانوا يحرصون على تدريب طلبتهم النابغين على الارتجال ليقولوا ما سنح لهم بلا تنقيح، خصوصا إذا كان هناك ما يستدعي الإسراع كالمساجلة الآنية أثناء المجالس، حتى يألفوا ارتجال الأبيات ويكون النظم لديهم أسهل من النثر. وقد كان الأستاذ الأديب أحمد بن محمد اليزيدي من المهتمين بهذا الأمر، فكان يلقي الأشطر والأبيات على طلبته في كل

---

78) المعسول 1 / 109 .
79) الجام : إناء للشراب من فضة أو ذهب، انظر المعجم الوسيط مادة جـ و م.
80) انظر ترجمته بالمعسول 2/ 5.
81) المصدر نفسه، ص : 9.
82) انظر ترجمته بالمعسول 2/ 5.
83) المعسول 2/ 9.

مناسبة طالبا منهم إجازتها، وقد حدث مرة أن جالس تلميذه محمد الكثيري في مجلس مذاكرة، إذ وقفت عليهما عجوز دردبيس، قال الكثيري : «... فما لبث شيخنا المذكور أن أنشأ على لسانها (البسيط)

إِنِّي مُـــرَابِطَةٌ مِنْ آلِ يَعْـــقُـــوبِ
أَبْرَأُ مِنْ ذِيبِ يُوسُفَ بْنِ يَعْـــقُـــوبِ

فاستجازني فقلت :

وَالدَّهْرُ أَقْـعَـدَنِي كَـمَـا تَرَى وَقَـدِيماً
كُنْتُ فِي نِعْـمَةٍ وَالْحُسْنُ يَزْهُو بِي(84)

3 - تقريظ إنتاجات الطلبة : يتقبل الأساتذة والأدباء الإلغيون عامة، ما ينتجه الطلبة من أشعار بغض النظر عما فيها من أخطاء، فيقابلونها بالتشجيع والإكبار، رغبة في ترقي أصحابها وتقدمهم، مع التنبيه بلطف إلى ما في إنتاجاتهم من أخطاء لإصلاحها،(85) لأن نقد أمثال هؤلاء المبتدئين بضعف منزعهم يردهم على الأعقاب.

ولعل خير مثال لهذا الحدَب الأدبي الفريد، الذي يتوخى تعزيز الثقة بالنفس والتدرج في التكوين، تلكم المعاملة التي كان الأديب الواعية عبد الرحمان البوزكارني يقابل بها تلميذه المختار السوسي بمدرسة تانكرت الإفرانية، إذ كان يحضه أول الأمر على النظم كيفما كان ويشجعه عليه، ولما ترقى صار يأخذه بقول المقبول منه، وقد وصف السوسي هذه المرحلة الأولى من حياته فقال : «... صار يأخذني بقرض الشعر، فصرت أصوغ ما أقدر عليه، وهو يشجعني ويثني علي، حتى قلت يوما قطعة تائية تحتوي على بضعة أبيات اتفق أن كانت كلها متزنة لها معنى يعرف، فقال : ها أنتذا اليوم ابتدأت تصوغ صوغا عربيا، فقلت له : أو لم أكن أقول قبل اليوم ما هو عربي، فقال : إنما كنت تهذي، فأتركك على هذيانك تشجيعا لك لئلا تفتر همتك...».(86)

ويحرص أساتذة الإلغية وأدباؤها على تقريظ أشعار تلاميذهم وامتداح محاولاتهم وإظهار محاسنها، فيرسلون إليهم أبياتا يضمنونها تشجعاتهم دون أن ينسوا التلويح إلى ما في تلك الأشعار من نقص، بصياغة نصائح عامة تدعوهم إلى الاستزادة من العلوم والآداب حتى تتم لهم ملكة الإبداع. ومن هذه الأبيات تلك التي أجاب بها الطاهر الإفراني عن قصيدة لتلميذ الإلغية البشير بن أبي بكر الأغوديدي قالها مرحبا بوفد إفران،

84) أوراق محمد الكثيري ضمن كناشه، والمقصود بآل يعقوب : آل إيمي نتاتلت حيث زاوية محمد بن يعقوب الصنهاجي، انظر ترجمته بالمعسول 16/ 49.
85) سوس العالمة، ص : 103.
86) المعسول 10/ 118.

وقد أثارت هذه القصيدة ضجة كبيرة وسط تلاميذ الإلغية لضعف منزعها وركاكة أسلوبها،(87) إلا أن الشاعر الإفراني تغاضى عن ذلك كله وخاطب صاحبها مادحا ومشجعا بقوله : (الطويل)

أيَا نُزْهَةَ الْحَادي، وَيَا زينَةَ النَّادي
وَيَا طَرْفَةً يَرْتَادُهَا الرَّائحُ الْغَادي
وَيَا ابْنَ أبِي بَكْرٍ بَشِيرُ جَلَوْتَ منْ
بَنَات الْحجَا بكْراً سَنَا حُسْنهَا بَادي
فَلاَزِمْ وَسَدِّدْ سَهْمَ عَزْمكَ وَارْم، لاَ
تَكُنْ وَانِياً فَالْعِلْمُ أفْضَلُ مُرْتَاد
هُوَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، هُوَ الْمُرْشدُ الْهَادي
هُوَ السَّبَبُ الأقْوَى هُوَ الرِّيُّ للصَّادي(88)

هكذا كان شيوخ الإلغية يدركون الفرق بين شعر المران الذي ينتج في مرحلة النشأة الأولى للمبدعين، والشعر الحق، وكانوا يعرفون أن للأول دور المنشط الإبداعي إذ كلما تواتر ولقي التشجيع قوى النشاط الإبداعي وصقل الطبع، فعبر التدرج يتم الانتقال من طور النشأة إلى طور النضج،(89) وما أشبه قول الأديب البوزكارني عن أشعار المران عند تلميذه السوسي، حين سماها هذيانا،(90) بقول جرير عن عمر بن أبي ربيعة «ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر».(91)

وبمثل هذه المعاملة المبنية على الصبر والحدب على الطلبة، برز كثيرون منهم في الميدان الأدبي، وما خرجت الألغية من الأدباء أمثال الطاهر الإفراني، وعبد الرحمان البوزكارني، ومحمد بن الحاج الإفراني، ومحمد الكثيري، وأحمد اليزيدي... وغيرهم من فطاحل الشعراء السوسيين إلا بفضل هذه الأساليب التربوية التي كان لها أبلغ الأثر في نفوس ناشئة الإلغية؛ قال أحمد بن زكرياء السكال متحدثا عن بدايته الأدبية بالمدرسة حينما كان مشمولا بعناية الأدباء الإلغيين، خاصة العلامة المختار السوسي، وما كان يحظى به من تشجيع كلما أرسل إليهم بعض أشعاره : «... ولما توصلت بهذا الجواب البليغ ظننت - وبعض الظن إثم - أني وصلت القمة في نظم الشعر، مع أني يومئذ مازلت طالبا ناشئا في

87) انظر حول ذلك المعسول 3/ 8.
88) المصدر نفسه، ص : 11.
89) توفيق الزيدي - مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع، ص : 80 - 81.
90) ورد هذا القول فيما سبق، ص : 312.
91) محمد بن الحسن الحاتمي - الرسالة الموضحة في سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره، ص : 63.

المدرسة الإلغية، ولم أسلك بعد درب البلاغة الطويل. لكن اكتشفت بعد أن حنكتني التجارب أن أجوبة أستاذنا العالية كان الغرض منها تشجيع الطلبة، وإيقاظ هممهم لإنشاء الشعر وإبداعه، بقطع النظر عن الثغرات التي في أوزانه وأسلوبه...».(92)

وإلى جانب كل هذا كانت المنافسة وحب التفوق يفعلان فعلهما في نفوس الطلبة، فكانوا مسارعين إلى إرضاء أساتذتهم والحصول على تقريظاتهم الشعرية، وكانت هذه المنافسة الأدبية استمرارا للمنافسة العلمية؛(93) فترى الطلبة منقسمين جماعات، كل طالب منهم يدافع عن أعضاء جماعته من حيث تحصيلهم وإجادتهم الأدبية، فيرفع مقاماتهم إرغاما للمنافسين وتنشيطا لهم. وقد تشمل بعض هذه الجماعات تلاميذ من مدارس أخرى تعتبر فروعا للإلغية كالمدرسة الإفرانية، مثل الجماعة التي ضمت المدني بن علي الإلغي ومحمد بن الطاهر الإفراني، وكانت تنافس جماعة أحمد بن محمد اليزيدي وعبد الرحمان البوزكارني، التي انضم إليها الأديبان مَحمد الكثيري والمختار السوسي.(94)

هـ - المراسلات الأدبية :

اهتمت المدرسة الإلغية بالنشأة الأدبية لطلبتها حتى كان الأدب كل شيء فيها، وغيره من العلوم إنما هي تبع له، وقد خصت الشعر بالحظ الأوفر من هذا الاهتمام دون أن تبخس النثر حقه، وكان الطلبة يحتكون بنماذجه العالية عند مطالعة الكتب وأثناء سردها على الأساتذة، ثم يتدربون على الكتابة والتحرير، ولأجل ترقية عباراتهم وأساليبهم وحتى يجدوا أيضا مجالا واسعا في التعبير عن أفكارهم ومكنونات صدورهم، يتخذون مراسلين من طلبة المدارس الأخرى، محاولين محاكاة تلك النماذج الترسلية الراقية التي يطالعونها في كتب الآداب، ومتعالين إلى الترسل الفني حتى في شؤونهم الخاصة.(95)

وقد طبعت المنافسة هذه المراسلات، فيحاول كل طالب جهده أن يظهر تحصيله اللغوي والعلمي في عباراته وألفاظه، مع إيراد السجع وغيره من المحسنات التي تعتبر الأسلوب السامي لديهم،(96) فلا يرضى أحدهم أن يمكن صاحبه من رسالته، إلا بعد أن يكر عليها تصحيحا وتنقيحا لكي لا توصم بالنقصان، وإن لم تبق إلا بعض التعابير التي يظن بصاحبه

---

92) أيام خالدات في منفى المختار السوسي- مقال منشور بمجلة المواهب، عدد خاص بأسبوع المختار السوسي، ص : 33.

93) نظر حولها الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.

94) انظر المعسول 9/ 195.

95) انظر مثلا المعسول 2/ 30 - 31.

96) انظر شعر داود الرسموكي، ص : 58.

الجهل بها أشار إليها، كقول البشير بن الطيب السليماني في آخر رسالة بعث بها إلى بعض أصدقائه مشيرا إلى لفظة «لينصحها» التي استعمل : «... وربما تتشوف إلى معنى قولي : «لينصحها» وقبل أن تراجع الكلمة في القاموس تميل إلى رسالتي لتفضحها، فاعلم أنه يقال نصح الثوب إن خاطه، فسّرت لك ذلك وبيّنت لك معنى النصاحة قبل أن تتطلب ذلك من أخيك، خوف أن تحاول بالتغليط افتضاحه...».(97)

وربما عمد بعض الطلبة الذين لم ترق عباراتهم إلى المستوى الذي يحفظ لهم مكانتهم عند زملائهم، إلى ستر مراسلاتهم، فيكاتبون الأصحاب في المدارس الأخرى سرا، خشية أن يُتخذوا ضحكة في الأفواه وسخرية في المجالس، طالبين منهم ستر رسائلهم مع الإشارة إلى ما فيها من أخطاء. قال الطاهر بن المدني الناصري في آخر رسالته إلى محمد بن الحاج الإفراني : «والمقصود منك أن تجاوبني منها بما ظهر لك، لأني أحب مقارضتك لا معارضتك، فكن لي خير معين، واسقني من لديك من ماء معين، فاستر ما بيننا من المكاتبة، وإلا فأنت تتعرض لحمة المعاتبة...».(98)

وقد أشار العلامة المختار السوسي إلى هذه المراسلات الكثيرة التي يتبادلها الطلبة في قمة ازدهار مدرسة إلغ، فقال : «... فبين أيدينا الآن عشرات وعشرات من رسائلهم، بينها ما فيه براعة فائقة، ولا أثلج للصدر من رسائل كان طلبة المدارس في عنفوان هذه النهضة يتراشقون بها بينهم عتابا أو مودة أو مساجلة، وهي طويلة مسجعة، مفعمة بالأبيات اللطيفة والأمثال الحكيمة. وقد دارت بين الطلبة المتأدبين في مدرسة إلغ وبين مدارس بومروان وإفران وأداي وإيغشان وتنالت وبونعمان وإيغيلالن رسائل من هذا النوع الذي يرمون فيه إلى الترسل الأندلسي الجميل».(99)

و - المواكبة النقدية للإنتاج الأدبي :

تندرج المواكبة النقدية لدى أدباء الإلغية ضمن الاهتمام بالأدب، ونشره وترويج بضاعته، فكانوا في ندواتهم الأدبية، حين تعرض عليهم الإنتاجات الجديدة، يتصدون لاستخراج أخطائها والتنقيب عن عيوبها، تمييزا للغث من السمين، تتساوى في ذلك محاولات المبتدئين وإبداعات الأدباء المتمرسين. ويسود هذه المجالس طابع المجاملة والاحترام، فتعرض الانتقادات بتؤدة، مع الحرص على عدم مس شعور المنتقدين، خاصة من قبل الأساتذة الكبار الذين يغضون الطرف عما في أدب طلبتهم من نقص وضعف.

---

97) المعسول 2/ 30 - 31.
98) مترعات الكؤوس، ص : 201.
99) سوس العالمة، ص : 102، وسأتعرض لدراسة هذه الرسائل في الفصل الثاني من هذا الباب.

أما الطلبة فيتسم النقد فيما بينهم بكثير من الحدة الناتجة عن التهجم والاستخفاف، بسب بتنافسهم الشديد على الإجادة، فيلجؤون إلى التشهير ببعضهم البعض إن زلّ أو تعثر؛ وقد مرّ بنا ذكر الضجة التي أثارتها قصيدة البشير بن أبي بكر الأغوديدي حيث تصدى له زملاؤه بالنقد الصريح والتهجم العنيف.(100)

ولعل ما ينفرد به الإلغيون عن غيرهم في ندواتهم النقدية، تلك الصراحة في إبداء الرأي وسعة صدور المنتقدين، فلا يستحيي المبتدىء أن يرد على المتمرس إن أخطأ أو زلّ، كما أن كبار الأدباء لا يجدون غضاضة في قبول رأي صغار التلاميذ إن ظهر أنهم محقون،(101) وهذه ميزة أخرى قلّ وجودها في غير الإلغية؛ وقد تعجب العلامة المختار من تعاظم الأدباء والعلماء واستعلائهم على النقد، لما وفد على الحواضر المغربية الكبرى، فوجدهم يعادون من يصحح أخطاءهم، ويعتبرون ذلك من قلة الأدب، قال: «... وقد تعجبت كثيرا حين خرجت من إلغ، فأسمع اللحن ثم لا يوجد من يرده ومتى فرط مني ذلك، عن غلط أو عن طبيعة، يقوم مثل الأخ التطواني(102) في وجهي كنصيحة أن لا أتسبب في معاداة الناس، فيا للعجب فهؤلاء شيوخنا كأبي الحسن وأبي محمد الإلغيين وكشيخنا سيدي الطاهر،(103) ما كان أحد الفتيان أمثالنا يستحيي أن يرد على أحدهم».(104)

ويغلب على النقد الإلغي تناول قضايا عامة لا تتعلق بجوهر الأدب والشعر على الخصوص، «فمن حيث الشكل كان نقدهم ينصب على الجوانب اللغوية والبلاغية والعروضية، موضحين رأيهم في عبارة، أو مقترحين تعديل أو حذف صورة بيانية، أو مبرزين ما في القصيدة من خلل الوزن أو تشويش بدخول زحاف أو علة عروضيين. ومن حيث الموضوع يعرضون آراءهم حول مدى توفق الأديب في تناول القضية التي أثارها في إنتاجه الأدبي..»(105) وانطلاقا من هذا الأساس انحصر النقد لدى الإلغيين في محاور محدودة وجزئية، نذكر أهمها وهي:

---

100) انظر حولها هذا المبحث.

101) محمد المختار السوسي- الرسالتان البونعمانية والشوقية، ص: 154، وانظر مثالا بالمعسول 2/ 172.

102) المقصود به محمد داود صاحب تاريخ تطوان، انظر ترجمته في إسعاف الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المحاضرين لمحمد السلمي مطبعة النجاح الجديدة 1992م، ص: 146.

103) يقصد علي بن عبد الله الإلغي وابن أخيه عبد الله بن محمد والشاعر الطاهر بن محمد الإفراني.

104) المعسول 1/ 58.

105) محمد خليل ـ محمد المختار السوسي، حياته وشعره، ص: 251.

1 - **اللغة :**

عرف الإلغيون بتضلعهم في اللغة وعلومها من نحو وصرف واشتقاق... على غرار إخوانهم السوسيين «يكبون على تحصيلها والزيادة فيها، ثم بمقدار إكبابهم عليها تتزحزح العجمة عن ألسنتهم وتتمكن روح الأساليب العربية في أذواقهم...».(106) وزادوا على ذلك بأن جعلوا هذه المعرفة اللغوية المتينة وسيلة للتعالي في سموات الأدب، مع الحرص على سلامتها وحفظها من كل انتهاك لقواعدها؛ وإذا كان لهم أن يسكتوا عن شيء فإنهم لا يسكتون أبدا عن اللحن، ولا يعجز أحدهم عن رده، كبيرا كان أم صغيرا.(107) وقد تناولت الندوة الإلغية بالنقد اللغوي الأشعار المعروضة أمامها، فتقرأ القصائد بيتا بيتا، ولا يُتجاوز أحدها إلا بعد التأكد من خلوه مما يمس القواعد، ومن ذلك انتقاد الإلغيين قول الشاعر الطاهر الإفراني : (الكامل)

أَمَّا الإِمَامُ مُحَمَّدُ الْمُخْتَارُ سَيِّدُنَا فَقَدْ أَنْسَى الذُّكَاء ذُكَاء

لدخول أداة التعريف على ذكاء الأولى، وهي علم على الشمس ممنوع من الصرف»(108) وانتقادهم قول المختار السوسي : (الكامل)

مُتَبَاشِرِينَ جَمِيعُهُمْ قَدْ صَيَّرُوا
خَيْرَ التَّحَايَا بَيْنَهُمْ سُفَرَاءَ

لأن «جميع» لا يكون حالا مع الإضافة كما أنه لا مطابقة بين المفرد «خير» والجمع «سفراء».(109)

2 - **المعاني :**

اقتصر الإلغيون فيما يخص المعاني على النظر في مناسبتها المقام، منصرفين عن تمييز المبتكرة من المجترة المقلدة، بل ربما استهجنوا ابتكارها واستثقلوه، وعدّوا أخذ المعاني واستعارتها من الشعراء السابقين إبداعا يستحق التنويه، ولو كان أخذا باردا،(110) ومن أمثلة انتقاداتهم في هذا الباب :

* انتقاد الأديب البوزكارني حشر الأدعية في الإخوانيات، واختتام القصائد بالصلاة والسلام على النبي ﷺ. قال : «من أقبح القبيح في القريض : الدعاء الكثير، والأدهى والأمر والأشنع ما نقرؤه لهم من كثرة الصلاة على النبي ﷺ في أخريات قصائدهم، مع أنّ

---

106) سوس العالمة، ص : 37.
107) انظر شعر داود الرسموكي، ص : 52.
108) الرسالتان، ص : 144.
109) المصدر نفسه.
110) نفسه، ص : 154.

ذلك ليس مما يعهد من قصائد الأدباء، ومن أراد أن يصلي على النبي فليصل عليه في غير هذا المقام، ولكل مقام مقال...».(111)

* انتقاد أحمد بن محمد اليزيدي إيجاز تلميذه أحمد الإهرييي في الترحيب به شعرا لما زاره بمدرسة أيت وافقا، في مقام يقتضي إطناب المزور في وصف فرحه بالزائر قياما بواجب الضيافة الأدبية، قال اليزيدي : (الطويل)

أَلاَ يَا أَبَا العَبَّاسِ سَلْوَةَ مَحْزُونِ
عَلَيْكَ سَلاَمٌ مِثْلَ وَرْدٍ وَنَسْرِينِ
وَأَنْتَ مَدَحْتَ إِذْ مَدَحْتَ بِنُتْفَةٍ
وَقَلَّلْتَ حَتَّى قُلْتُ هَذَا ابْنُ لَيُّونٍ(112)

ولا يكتفي أدباء الإلغية بانتقاد إبداعاتهم، بل يتناولون كل ما يعرض منَ أشعار غيرهم من الشعراء القدماء والمحدثين؛ فقد عاب الطاهر الإفراني على سعيد العباسي(113) قوله في نونيته التي عارض بها نونية الفشتالي : (الطويل)

تَرَاهُ وَدِيعاً بَيْنَنَا غَيْرَ أَنَّهُ
يَثُورُ إلى الهَيْجَاء كَشَّارَ أَسْنَانِ

وذلك أن قوله : «كشار أسنان يعطي صورة بشعة للممدوح فلا ينبغي أن يقال مَثله في الملوك».(114)

3 - **الوزن :**

درس الإلغيون علم العروض وأتقنوه من خلال منظومته الأساسية عندهم «الرامزة» للخزرجي، كما صقلوا أذواقهم وإدراكاتهم السمعية لأنواع البحور وما يلحقها من تغيّرات، بحفظ المختارات الشعرية، وكثرة مطالعة الدواوين والكتب الأدبية. وكان أكبر همهم الحرص على مراعاة الأشعار قواعد العروض، واكتشاف الأخطاء وتصحيحها؛ وقد كان العروض عقبة كأداء يتجاوزها بعض الشعراء بسهولة، بينما يسقط آخرون دون المدى؛ إلا أن أشعار كلا الفريقين لم تكن تخلو من مآخذ، ويمكن أن نفرق هنا بين مستويين :

المستوى الأول : مستوى المناقشات، حيث يتخذ النقد العروضي شكل مناقشة بين الأدباء فيها أخذ ورد، وكل طرف يدافع عن موقفه وعندما يستحيل الاتفاق يتم تحكيم أديب مبرز يكون حكمه الفصل، ومنها تلك التي جمعت بين أحمد بن زكريا السكال

111) المعسول 10/ 121.
112) المعسول 9/ 98، وابن ليّون من أدباء الأندلس المولعين بالاختصار، انظر الأعلام 3/ 132.
113) من شعراء القرن 11هـ السوسيين انظر التعريف به في مترعات الكؤوس، ص : 68.
114) الرسالتان، ص : 154 وانظر سوس العالمة، ص : 71.

وشيخه محمد بن علي الإلغي، وقد كان الأول في مبادئه متبرما من الأوزان وقواعدها، إذ كان لا يستطيع نظم الشعر دون الإخلال بأوزانه، مما يجلب له النقد والتنقيص؛ قال معبرا عن حاله : (الطويل)

أسِــيــرُ أقُــولُ الشِّــعْــرَ وَالنَّاسُ كَــافَّــةً
يَشِــيــنُونَ شِــعْــرِي لِلْقَــوَافِي ولِلْوَزْنِ
وَلَـوْلاَ رَجَـــــائي مِنْإلَـهِي لَقُلْتُ لاَ
أقُــولُ مَــدَى الأزْمَــان شِــعْــراً لِذَا الشَّــيْنِ
فَـــــلاَ تَدْخُلُوا بَيْنِي وبَيْنَهُـــــإنَّهُ
خَلِيلِي، صَـــــدِيقِي لَوْ تَـنَحَّى عَنِ المَيْنِ
فَـسَــوْفَ يَرَى مِنِّي بَسَــيَــلاً عَلَا عَلَى
قَـــرِينه أخَّـــاذاً بِثَـــأرِ مِنَ الْقَــرْنِ
هُوَ الوَزْنُ حَــقَــاژ لَوْ لَدَى الْوَزْنَ مُــقْلَةٌ
لَصِــرْتُ لَهَــا قَــذىً أجُــولُ عَلَى الجَــفْنِ
ولَكِنْ هُوَ الْقَــذَى الْحَــقِــيَــقِيُّ صَــارَ فِي
جُــفُــونِي فَتَـبـاً لِلْمَــفَـاعِيلِ مِنْ وَزْنِ(115)

غير أن شيخه الإلغي ما لبث أن قام مدافعا عن الأوزان، حاثا تلميذه على دراسة علم العروض وإتقانه حتى يسلم شعره من المآخذ، فالعروض للشعر كالنّبت للزّهر والزّيت والفتيل للمصباح قال : (الخفيف)

إنَّنِي إنْ أرَدْتَنِي طَوْعُ كَـــــفَّــــيْــ
ــكَ، فَــمُــرْنِي أطعْكَ قَــوْلاً وَفِــعْــلاَ
لا تَقُلْإنَّنِي لَوَعْـــــرٌ وَحَـــــزْنٌ
حينَ أنِّي ألْقَى لِـمَنْ قَـــادَ سَـــهْـــلاَ
إنْ تُردْ أنْ تَفُــوزَ بِي فَـــاقْــصِـــدَنْ عِلْـ
ــمِي تَرَ الشِّـــعْـــرَإنْ تُزَاوِلْهُ جَـــزْلاَ
فَـــأدَاةُ الأمُـــور لاَبُدَّ مِنْهَـــا
أتَرَى، دُونَ أنْ تَرَى الْقَطْرَ، سَـــيْـــلاَ
أوْ تَـرَ الـزَّهْـرَ دُونَ نَـبْتِ أو الـنَّـوْ
رِ سِـوَيَإنْ هَيَّـأتَ زَيْتـاً وَفَـتْـلاَ

115) الإلغيات 2/ 165.

فَلَدَيْكَ الْفَـــرَاغُ فَـــاسْـــتَـــعْـــمِلَنْهُ
فِي عَــــرُوضِـي لِكَيْ تَرَى لَكَ طَوْلاً(116)

وقد استغل الأديب الباعمرانيَ فرصة حضورَ العَلامة المختار السوسي بإلغ فعرض عليه قضيته مع شيخه الإلغي الذي انتصب وكيلا عن الأوزان، وكتب إليه عارضا رأيه، فقال : «أنهي لسيدي قضية عويصة ما اعتامتها فكرتي إلا انتشبت في شركها قنيصة؛ وذلك أنني بقول الشعر مغرم؛ لهج بالاشتمال بثوبه المعلم؛ على أنني كثيرا ما أخر فيه لليدين والفم؛ لأن الوزن قلما يفلتني من عثراته، ولا أزال أعجب ممن يأمن من زلاته؛ فمازلت والوزن في مجاذبة شديدة من مدة مديدة؛ وألسنة النقاد تنهشني هنا وهناك؛ حتى كررت عليهم فأصبحت معهم في عراك... وحين أيقنت أن لا شعر إلا بوزن كما لا نظر إلا بعين، نكصت عن قوله أياما كثيرة لأن يدي... في العروض قصيرة، فالآن أريد أن أعرض القضية عليك لعلك تفتي بما رأيت... فقد طعنت طعنة نجلاء من هذا الوكيل الذي حظر علي... أن لا أتصدر لقول الشعر بعد حتى يكون لي من مناهل الوزن ورد...».(117)

وقد أجاب العلامة المختار السوسي طلب الشاعر الباعمراني، فحكم بأن لابد له من إتقان علم العروض، لكون الأوزان ضرورية للشعر، لا وجود له بدونها، فليس هناك مخرج سوى إتقانها بدراسة كتب الفن للإلمام بدقائقه.(118)

المستوى الثاني : النقد العروضي في الندوات الأدبية، حيث يتفحص الإلغيون القصائد والمقطعات المعروضة على الندوة، باحثين عن الاختلال في الأوزان، محاولين إصلاح ما انخرم منها، ومن أمثلة ذلك ملاحظة المختار السوسي ما في بعض قصائد شيخه الإفراني من زيادة السكون في تفعيلاتها خاصة في بحر البسيط «... فربما يقع منها في العروض زيادة ساكن في مثل :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مع أن الواجب في فاعلن الأخير في الشطر الأول من البيت الغير المصرع أن يحذف سكونه، فيقال فعلن...».(119)

4 - **السرقات :**

شجع أدباؤنا بعضهم البعض على النظم والإنتاج الشعري كيفما كان مستوى جودته، مع اشتراط صحة قواعد اللغة والعروض واحترام المقام. فقبلوا القصائد، وإن لم يكن فيها

116) الإلغيات ص : 2 .
117) نفسه، 2/ 166.
118) نفسه، 2/ 168 - 169.
119) المعسول 7/ 91 - 92 وهذا كثير عند شعراء الإلغية كما سنرى لاحقا.

إلا التقليد والاجترار، تنويها بأصحابها. واحتقروا في المقابل المنتحلين وذموهم ونددوا بهم، لادعائهم ما ليس لهم، وشبّهوا منتحل الشعر بسارق المتاع يجب أن يقام عليه الحد، فإذا لزم قطع يد هذا، فقد وجب بتر لسان ذاك، ومن المنتحلين الذين ندد بهم أدباء الإلغية : عبد الله بن محمد السّملالي الذي سطا على قصيدة للحسن بن مسعود لليوسي وجعلها في رثاء أستاذه العربي بن محمد الساموكَني، إلا أنها لم تخف عن الطاهر الإفراني فقال معلقا عليها :

«... القصيدة بتمامها للإمام اليوسي رحمه الله، سرقها هذا المنتحل فنسبها لنفسه ولم يغير منها إلا كلمات تظهر للقارىء بلا تأمل لخشونتها، فليقطع لسانه، رحم الله القادر على ذلك إن فعل».(120)

ويقتصر مفهوم السرقة لدى أدباء الإلغية على انتحال الأشعار بغية الظهور بمظهر الشعراء النابغين، أما أخذ الأبيات لتضمينها أو لإعادة صياغتها فغير مشين، بل هو دلالة على حسن التناول والاستغلال وسعة الاطلاع. وعندما تعرض القصائد الحافلة بالأبيات المأخوذة من الشعراء السابقين، يتبارى المنتدون في استخراج أصولها وإرجاعها إلى أصحابها، مع إبراز ما في تضمينها من لطف الأخذ ومناسبة المقام.(121)

5 - الموازنة :

لم يقتصر الإلغيون في ندواتهم ومجالسهم الأدبية على استعراض القصائد ونقدها، بل احتفلوا بالأشعار الجيدة وأولعوا بالموازنة بينها، فتقرأ كل قصيدة على حدة، ويستخرج أحسن ما فيها، ثم تختار القصيدة الفائزة. وقد تتبعوا مرة القصائد التي ساق العلامة المختار السوسي في كتابه «سوس العالمة» ووازنوا بين ميمية سعيد الحامدي وميمة عبد الله بن يوسف الوادنوني وميمية الحسن الإيلالْني(122) وفضلوا الأولى لقول صاحبها في آخرها: (الطويل)

سَأُنْصِفُ حُرَّ الشِّعْرِ مِنِّي بِمَجْلِس
حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ فِيهِ وَالِي الْمَظَالِمِ...
وَإِنَّ مَكَانَ الشِّعْرِ مِنْ كُلِّ مَاجِد
مَكَانُ الْفُصُوصِ مِنْ حُلِيِّ الْخَوَاتِمِ(123)

---

120) المعسول 9/ 86.
121) انظر الرسالتان البونعمانية والشوقية، ص : 143.
122) انظر هذه القصائد بسوس العالمة، ص : 69، 71، 72.
123) سوس العالمة، ص : 71.

ويبدو من هذه الموازنة أنها مبنية على مقياس وحدة القافية فقط، إذ إن القصائد مختلفة وزنا، فالأولى والثانية على وزن الطويل، والثالثة على وزن الكامل. كما أنها مختلفة في حركة الروي، مما يخرق قواعد الموازنة كما وضعها النقاد القدامى والتي تتلخص في وجوب اتفاق الأشعار الموازن بينها بحرا وقافية وموضوعا....(124) هكذا نرى أن اختيار الإلغيين هذه القصيدة دون تلك، ينبني على الإعجاب بمعنى مفرد دون النظر إليها باعتبارها مجموعة من المعاني ترتبط ببعضها لتشكل بناء فنيا متماسكا.

يبدو من كل ما سبق أن النظرات النقدية الإلغية قد انصبت على الشعر وما يتعلق به، بينما قلّ الالتفات إلى النثر وقضاياه؛ ولم أقف بصدد ذلك إلا على مناقشة مفردة بين العلامة المختار السوسي والأديب الطاهر بن علي الإلغي حول السجع، فكان الأول يمثل الأديب المطلع على الآداب العربية العصرية ممثلة في إبداعات كبار كتابها خاصة في المشرق العربي، بينما جسد الثاني موقف المتكئين على الأدب القديم المعتكفين على مطالعة كتبه بلا التفات إلى ما تعج به الساحة الأدبية من حركة وحياة. لذلك اختف موقفهما من السجع باختلاف خلفيتيهما الأدبيتين، فالسوسي يرى السجع حسنا «.. إلا أن الأحسن والألطف هو النثر المطلق الذي يرفل من البلاغة وسمو الفكر وتحليق الخيال في حلل أخاذة براقة...»(125) أما الإلغي فيراه من أعلى مراتب النثر، فكيف يحسن النثر الخالي من السجع اللذيذ في الأسماع، وإنما قرّب النثر من الشعر وجود السجع فيه.(126)

هذه هي القضايا التي طاف حولها النقد الإلغي، فاكتفى منها بالإشارة دون ملامسة الأساس؛ إذ كان أكبر همّ الإلغيين إتقان اللغة والعروض باعتبارهما أساس الإنتاج الشعري، لذلك ظل هذان الجانبان يلفتان الأنظار أكثر من غيرهما عند تداول القصائد، فيؤاخذ الشاعر بأخطائه فيهما، ولا يلقى بال إلى ما سوى ذلك. وقد لخص العلامة المختار السوسي هذه النتيجة لما تحدث عن إحدى قصائده التي عرضت على ندوة إلغ، في رسالته البونعمانية قائلا : «فماذا تنتقد بدورك منها من جديد ؟ فإن كان هناك ما تنتقد، فانتقد الأسلوب والخلو من المعاني المبتكرة، ومن الوثبات الخيالية. وأما من جهة التركيب العربي اللغوي فقد مرت المسكينة تحت ثقاف لا يرحم...».(127)

---

124) انظر مثلا الآمدي - الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ص : 384.
125) خلال جزولة 2/ 95.
126) المصدر نفسه، ص : 96.
127) الرسالتان الشوقية والبونعمانية، ص : 142 - 143

الباب الثالث
الحركة الأدبية بالمدرسة الإلغية

الفصل الثاني
الإبداعات الأدبية

أولا ـ النثر :

المبحث الأول : الأشكال النثرية وأغراضها.

المبحث الثاني : الخصائص الفنية.

ثانيا ـ الشعر :

المبحث الأول : الأغراض الشعرية.

المبحث الثاني : البنية الشكلية.

المبحث الثالث : البنية الإيقاعية.

المبحث الرابع : البنية التصويرية.

أولا : النثر.

يعتبر النثر قرين الشعر في الآداب، وقد اختلف النقاد في أيهما أسبق، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، إلا أنهم في الغالب فضلوا الشعر على النثر، واهتموا بالأول أشد اهتمام، فيما بقي الثاني في الظل قانعا ببعض النظرات الخاطفة،(128) وهذا ما عبر عنه أحد النقاد المعاصرين قائلا: « .. إن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية فلسنا نجد في كتب النقد تلك الأبحاث المطولة التي يراد بها رد معاني الكتاب إلى مصادرها الأولى على نحو ما فعلوا في درس معاني الشعر، وبيان المبتكر منها والمنقول .. وهذا الذي نقول يبين وجها من الفروق بين النثر والشعر من الوجهة الفنية، فالشعر في نظر النقاد من العرب أكثر حظا .. وأولى بالنقد والوزن. والنثر مهما احتفل أصحابه باتقانه وتجويده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر، ولذلك قلت العناية بتقييد أوابده، والنص على ما فيه من ضروب الابداع والابتكار، ودلائل الضعف والجمود».(129)

وقد صار على هذا النهج تلاميذ الإلغية، فكان أكثر اهتمامهم بالشعر دون النثر، فهم كما قيل، كانوا «.. متصفين بعدم الاهتبال بالنثر كما يهتبلون ببنات العروض، وإن كان من النثريات التي يصدر عنهم ما يعجب.»(130) إلا أنهم مع ذلك اتخذوه وسيلة للتعبير والتواصل حين لا يسعفهم الشعر، وذلك من خلال عدة أشكال نثرية، نذكر منها الرسائل والإجازات العلمية والوصايا والمنشورات السياسية، ولا يعدو نثرهم هذه الأشكال إلا قليلا،(131) ولهذا فسنقتصر في دراستنا عليها.

---

128) جابر عصفور، مقدمة مجلة فصول، عدد خاص بالتراث النثري، مجلد 12 عدد 3 خريف 1993، ص : 5.

129) د. زكي مبارك - النثر الفني في القرن الرابع الهجري 1/ 71.

130) مترعات الكؤوس، ص : 345، وانظر المعسول 2/ 199.

131) وقفت على مقامة حول الشاي لمحمد الكثيري، وكتابة عن السيرة الذاتية لأحمد أبناو في كتابه سر الصباح، وكتابة للعتيق الإلغي حول من لقي من العلماء أثناء رحلته الحجازية، وهي كلها أشكال نثرية لا تمثل الاتجاه العام لتلاميذ المدرسة بل اتجاها فرديا، لذلك اكتفيت بدراسة الأشكال الغالبة .

المبحث الأول ـ الأشكال النثرية وأغراضها :

أ - **الرسائل** : تشكل الرسائل أغلب إنتاج تلاميذ الإلغية النثرية باعتبارها وسيلة الاتصال الوحيدة المتوفرة في سوس، في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، والطريقة الناجعة للحفاظ على الصلات الاجتماعية بين الأدباء بعد تفرق جمعهم من المدرسة، والوسيلة الوحيدة لتبادل الأفكار والمعارف والإفضاء بما في القلوب من عواطف(132) وتعكس الموضوعات التي طرقوا في رسائلهم انشغالاتهم الاجتماعية والفكرية والسياسية، حيث نجد لديهم الرسائل العلمية؛ والتي تضم حواراتهم ومباحثاتهم النحوية والفقهية... والرسائل الإخوانية بمواضيعها المتعددة، كالتهنئة والنصح والمعاتبة والتعزية والتقريظ والإهداء،(133) ومن هنا يمكن التمييز بين محورين عامين :

* **المحور العلمي** : ويتضمن المراسلات العلمية التي كان تلاميذ الإلغية يتناولون فيها ما يعرض لهم من مسائل وقضايا تتعلق بالعلوم، ويتوزعها قسمان : قسم خاص بالعلوم التي أحاطوا بها أو شاركوا فيها كالفقه والنحو والأصول ... ثم قسم يتعلق بالقضايا الثقافية بسوس في هذه المرحلة.

وتجري المراسلات العلمية المحضة على شكل محاورات ومناقشات فيما بين تلاميذ الإلغية أنفسهم، أو بينهم وبين غيرهم من الفقهاء، وتتناول القضايا الملحة في المجتمع، وتدور إما على شكل أسئلة يطلب أصحابها الجواب ممن يظنون منهم العلم بها، أو على شكل مجادلات تقارع فيها الحجة بالحجة، ويحاول كل طرف ضحد الرأي المخالف لرأيه. وقد تنحو شيئا ما نحو السخرية والتنقيص من الخصم كما في رسالة علي بن عبد الله الإلغي إلى المحفوظ الأدوزي،(134) أما موضوعاتها فإنها في الغالب بعض دقائق الفقه ومسائله التي تشبعت مباحثها واختلفت حولها الآراء مثل مسألة بيع الثنيا.(135)

أما النحو وعلوم العربية فقد عرف عن طلبة الإلغية الاهتمام بهما وما كانت مراسلاتهم تخلو من مراجعات ومحاورات في كثير من جوانبهما سعيا منهم وراء إتقانهما وطمعا في إجادة اللغة العربية؛ وهم في مراجعاتهم هذه يستشهدون بأمهات الكتب النحوية والقواميس ومجاميع الآداب ويستحضرون القواعد، ونجد في كتاب الإلغيات بعض هذه المحاورات التي تهتم أكثر بضبط الكلمات وتحديد مصادرها وإعرابها(136)

---

132) جي فانسان ـ نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة حسن عون، ص : 465.
133) انظر حول هذه الموضوعات القلقشندي ـ صبح الأعشى 9/ 59 وما بعد.
134) انظر هذه الرسالة في الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الكتاب.
135) انظر جواب التمكدشتي عن سؤال بن عبد الله الإلغي في هذه الشأن في الفصل الرابع من الباب الثاني.
136) 170 ـ 171.

وتختلف عن سابقتها الفقهية في كونها تجري بلا جدال بل يطبعها الهدوء والاتزان، إلا أنهما تشتركان في السعي لإدراك الحقيقة وعدم الاقتناع إلا بظهور الأدلة والبراهين من مصدر مسلم بصحته، انسجاما مع مبدأ الإلغيين التربوي، القاضي بالبحث عن الصواب وقبوله عند ظهوره والاعتراف بالخطإ، يستوي في ذلك الطلبة والأساتذة.(137)

أما المراسلات المرتبطة بالحياة الثقافية بسوس فقد تناولت بعض ما يشغل أدباءنا من قضايا تتعلق بتطور الثقافة في سوس والتي كانوا يتابعونها بكل حرص؛ فيفرحون بنهوضها ويترحون لتخلفها؛ وقد وقفت على بعض الرسائل التي تناولت هذا الجانب ومنها رسالتان: الأولى للأديب امحمد الكثيري كتبها تشجيعا لجماعة من الأدباء والمثقفين أقدموا على تأسيس ناد أدبي بتافراوت،(138) وهي مؤرخة في السادس عشر من رجب عام 1377 هـ موافق سابع فبراير 1958م، وإدراكا منه لأهمية الخطوة سارع أديبنا إلى مكاتبة أصحابها، مظهرا ما فيها من مزايا ومنافع وما يرجى من ورائها من نهوض بالفكر والثقافة فقال : «أيها الأخوة الكرام سرّنا، وكثير من إخواننا؛ ويحق لنا السرور جميعا ما نشاهد الآن في هذا الحفل العظيم والجمع النبيل من الانبعاث القومي والنهوض الفكري نحو المعالي والفضيلة، وما تشخصه أمامنا من ثورة فكرية وثابة، وتلك الفكرة الوثابة هي التي ابتكرت إنشاء هذا النادي الثقافي بتافراوت، هذا النادي الذي يضم بين جوانحه ثلة من المثقفين، ورجالا متحمسين آخرين متعطشين للارتواء من معين الثقافة والعرفان، وإنها، وأيم الحق، لفكرة سامية شريفة نعقد عليها وعلى أمثالها كل آمالنا، ونرجو في القريب العاجل أن تؤتي أكلها فيقتطف الحاضرون وغير الحاضرين منها كل ما تنتجه من ثمار علمية...».(139)

ثم تطرق أديبنا بعد هذا الشرح لأهمية فكرة إقامة النوادي الثقافة ودورها في تنمية الأفكار وإصلاح المجتمع، ومحاربة كل ما يضرّ به من معتقدات منحرفة، خاصة ما يتعلق بالدين الإسلامي وجوب التعريف بجانبه العلمي ومبادئه السامية التي تمثل لبّه، فقال : «إخواني الأعزاء إن النوادي الثقافية في عصرنا الحاضر تؤدي مهمتها التي التزمت بها وأنيطت بها وهي ترمي إلى.... تغذية الأفكار بالحقائق العلمية أو التاريخية أو المسائل الاجتماعية ... ولتلقيح الأذهان وتشحيذها ولتربية الملكة في نفوس الناشئين، ولتهذيب الأخلاق والتنبيه على مواطن الضعف ومواقع الخلل في المجتمع ... ولنشر المحاسن الاجتماعية وتقبيح العوائد المضرة، والبدع التي فشت في الأوساط الاجتماعية التي لاتمت

137) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا البحث.
138) بلدة صغيرة شرق تيزنيت على بعد حوال مائة كلم.
139) رسالة بخط الكثيري في صفحتين ضمن أوراقه.

إلى الدين الحنيف بأي صلة ... فقد كان الناس يعرفون عن الإسلام كثيرا ولكنهم في الوقت نفسه لا يعرفون عنه إلا قليلا، فهم يعرفون كثيرا من ترّهات وقشور وقليلا من الحقائق العلمية الخالدة والمبادئ السامية، التي تحقق الوحدة والمساواة والإخاء والعدالة بين الأفراد والجماعات، إذن فما أحوجهم إلى من يعرّف لهم الحقائق ويقلع جذور الخرافات والأوهام من قلوبهم المشحونة بالقشور...».(140)

ثم تناول أخيرا طرق عمل النوادي، فهي مدارس تكوين وتعارف وتبادل الآراء وتشخيص أمراض المجتمع وعلله ملحا على أهمية تدوين الأفكار التي تطرح، والآراء التي تتبادل، لإطلاع الغير عليها مما يحقق النفع العميم بها، «إن النوادي الثقافية بمثابة مدرسة تكوين وتحويل في آن واحد ... فهي تبحث في العلوم النافعة، وتقضي على الجهل الضار، وعلى الخرافات والأوهام والتقاليد البالية؛ والعوائد الضالة المضلة، وسائر المصائب التي تصيب الإجتماع أو تضر بالدين الحنيف ... ومن نافلة القول أن نذكركم بأنه قد انبعثت قبلنا بزمن بعيد أمم الشرق والغرب، وثارت ثورة عظيمة في هذا الصدد، فصارت تدون آراءها وأفكارها وأقوالها وأعمالها ... وبهذا ونحوه يتشارك الشاهد والغائب والحاضر والبادي في كل كلمة كتبت في أنحاء العالم...».(141)

ومن خلال هذه الرسالة يتضح لنا حرص أديبنا الكثيري على تطور الحركة الثقافية بسوس وانخراط السوسيين في التحولات الفكرية التي كان المغرب يشهدها في أوائل عهده بالاستقلال.

أما الرسالة الثانية فهي للأديب أحمد بن عمر رزقي كتبها لبعض أصدقائه وهي مؤرخة في الأحد خامس وعشري جمادى الأولى عام 1402 هـ موافق الواحد والعشرين من مارس عام 1982م،(142) وذلك من مهجره بباستيا عاصمة كورسيكا، متعرضا لوفاة الأديب والشاعر الحسن البونعماني وما خلفته في نفسه من حزن وأسى، وفي سوس من خسارة أدبية وعلمية، كما عبر عن اهتمامه بمخلفات هذا الأديب العلمية، أي خزانة كتبه ومؤلفاته وأشعاره، وما كتب حوله وفاته في بعض الجرائد فقال: «فقد علقت عليك الأمل في إلقاء الضوء على ملابسات الأيام الأخيرة لتلك الشخصية العلمية التي رزئت فيها سوس، وعما إذا كان تحت المراقبة الطبية قبل رحيله، ومن أين فاضت نفسه الطاهرة، وفي أية ساعة ومن تولى الصلاة عليه... وهل خزانته كانت بأكادير ونقلها إلى مقره الأصلي وعما إذا كان أوصى ببعضها لبعض الخزانات العامة، وعما إذا عثر على بعض مؤلفاته التي

140) أوراق الكثيري.
141) المصدر نفسه.
142) أوراق أحمد بن عمر رزقي.

لم تر النور قبل وفاته. إلي مثل هذه الفوائد ثم إنه ... سقط إليّ [عدد] من جريدة العلم...(143) فوقفت فيها على كلمة تأبين حارة بعنوان : في جوار الله، للأستاذ عبد الله الجراري الرباطي في فقيد الأدب والفضل، وذكر أنه ضمن بعض أشعاره في مؤلفين له أحدهما : «مجالس أدبية» ومازال مخطوطا - كما قال -(144) وثانيهما مُختارات من الشعر الحديث المعاصر» وهو مطبوع...».(145)

ولم ينس أديبنا إثارة بعض القضايا المرتبطة بالأدب، الذي برز فيه البونعماني؛ فقد جره ذكر صاحب المقال، العلامة المرحوم عبد الله الجراري، لقصيدة ودع بها الشاعر الفقيد الإلغيين، لما زارهم مرة، إلى تذكر أيّام الوفود الأدبية بإلغ، والحديث عن حاضرها وما أصاب دوحتها الأدبية من جفاف رهيب، بحيث لا يوجد من يتصدى لرثاء الفقيد، فقال : «.. وقد اختزنت في ذاكرتي وأنا مازلت ذرية في الكتاب، أوائل الخمسينات من القرن الهجري المنصرم بعض أوصاف تلك الزورات التي كانت إلغ مسرحا لها وبالذات في دار جدي للأم، رحمة الله على الجميع.(146) ويعز على أيها الأخ الكريم أن أقرأ مثل هذه البرود المحبرة، التي عزّ نظيرها للإلغ على صفحات الجرائد الوطنية بمناسبة وفاة ناسجها الشاعر الفحل الفقيد البونعماني، وقد أصاب إلغ جفاف رهيب، ككل بوادي المغرب تحجرت به القرائح التي يرتوي منها الظمآن، وماتت أصول وذبلت فسول تلك الدوحة العظيمة التي يستظل بها الأدباء الوافدون لا من الصحراء وحسب، بل ومن الحواضر...(147) وزاد الطين بلة هجرة البقية الباقية من الأدمغة الشابة التي تكون لديها إمكانيات تصلح للاستثمار ... وعادت إلغ مواتا أو بلقعا يعوي حولها الذئب، وأثارت في أنا... قصيدة البونعماني حميّة إلغية، ووجدتني لا أملك حولا ولا قوة، وقد همشتني الحياة في بحبوحة الأبيض المتوسط، ولا يغير من عجزي حتى وجودي في عقر الدار ثم لا يوجد من أبناء إلغ، أو لم يصل إلى سمعي بعد، من رفع عقيرة أو ذرف بقلمه دمعة، فشرقت بريقي واغرورقت مآقي...».(148)

من خلال هاتين الرسالتين نطلع على انشغال تلاميذ الإلغية بالحركة الفكرية والأدبية بسوس، ورغبتهم في بقائها كما عهدوها حية متأججة، بعد أن انقرض أو كاد ذلكم الجيل

143) العدد : 11541.
144) حققت هذا الكتاب الباحثة عائشة نواير في رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب المغربي بإشراف ابن المؤلف الدكتور عباس الجراري، وهو مرقون بخزانة البحوث بكلية الآداب بالرباط.
145) الرسالة ضمن أوراق أحمد بن عمر رزقي.
146) يقصد الأستاذ علي بن عبد الله الإلغي، أنظر حوله الفصل الثاني من الباب الأول.
147) سنتطرق لذلك في الفصل الخاص بالإشعاع وهو الأخير في هذا الباب.
148) أوراق أحمد بن عمر رزقي.

من العلماء والأدباء الأفذاذ الذين رفعوا راياتها، وذهب بذهابهم الاهتمام بكل أوجه الثقافة، حتى لم يبق من يذكر إنجازاتهم، بله من يترحم عليهم ويرثيهم.

* **المحور الإخواني** : غلبت الصبغة الإخوانية على مراسلات تلاميذ الإلغية، إذ كان الغرض من الرسالة السؤال عن الإخوان والاتصال بهم والاستخبار عن أحوالهم، تعبيرا عن متانة الصداقة والمشاركة الوجدانية.

وقد تنوعت موضوعات هذا المحور وتعددت، ويرى زكي مبارك على عكس ذلك أن الإخوانيات تقتصر على العتاب،(149) غير أن هذا ليس إلا جزءا من كل، يشمل التهنئة والتعزية والمدح والنصح والإهداء والمداعبة والأقوال الهزلية ...(150)؛ فالرسائل الإخوانية هي المعبّر الصادق عن ذات كتابها والممثل الأمين لمشاعرهم وعواطفهم. ولما كان تلاميذ الإلغية يعيشون حياتهم الأدبية في عزلة عن مجتمعهم، أضحت الرسائل الإخوانية، الوسيلة المفضلة لتقوية روابط الصداقة وتمتين صلاتها، والمحافظة على كيان الجماعة المنسجمة المتكاملة بعد تفرق أفرادها وانصرافهم إلى كسب المعاش، بل تجاوزت ذلك إلى ربط الصلات بأدباء جدد ينتمون إلى مناطق أخرى.(151) ولعل الرسائل أسبق من الشعر في المحافظة على كيان الجماعة لكونها أسهل تناولا وإبداعا، ومتيسرة في كل وقت وآن، ولكونها أيضا كثيرا ما تحلى بالأشعار التي أبدعها أصحابها، ولقد تطرقت إخوانيات تلاميذ الإلغية النثرية لكل الموضوعات التي تطرق إليها الشعر، بل أكثر لما كان المجال أرحب. ونجد بين هذه الموضوعات : التودد وشكوى الفراق، والتهنئة، والنصح والإرشاد، والتعزية، والتقريظ، والعتاب، والإهداء الشكر، والاستعانة، وشكوى الزمن ... وغيرها، وحتى نقف على بعض خصائصها سنعمد إلى عرض بعضها.

1 – **التودد وشكوى الفراق** : يعد هذا الموضوع من أكثر ما يطرق المتراسلون، فلا يكفون عن التودد لأصدقائهم والتشوق إلى لقائهم والإكثار من شكوى الفراق واستعجال الاتصال، وقد تقوم رسائل كاملة على هذا الأساس سعيا لتمتين الصداقة وتجديد العهد، ويكمن وراء كل هذا مبدأ يعتبر الأخوة عملا كالولادة، محفوفا بالمشقات «... فالمودة في تصورهم تحتاج إلى ضروب من السياسة العملية لا يصبر عليها إلا الراشدون. والذي يرعى صديقه لا يقل جهدا عن الذي يرعى ولده...»،(152) ويدخل ضمن هذه المراعاة تقصّي أحوال الأصدقاء وإظهار المودة لهم وإبداء كل ما يدخل السرور على قلوبهم، ولا

---

149) النثر الفني في القرن الرابع الهجري 1/ 163.
150) انظر غرض الإخوانيات في الشعر فيما يلي من هذا الفصل، ص : 440.
151) سنتطرق لذلك في الفصل الثالث من هذا الباب والخاص بإشعاع المدرسة.
152) زكي مبارك ـ التصوف الإسلامي 2/ 213 – 214.

أحسن من إبداء الود وإظهار المحبة لتحقيق هذه الغاية، لذلك اهتم بها تلاميذ الإلغية وجسدوها في رسائلهم، من ذلك قول عبد الرحمان البوزكاراني مصورا شوقه إلي صديق: «هذا ولا مزيد على ما يسر البال. وينفي البلبال. ويجلب الفرح. ويدفع الترح. بيد ما عرانا. ومن جلباب الصبر أعرانا. من مكابدة الأشواق. المتضايقة عن حمل أقلها... الأطواق. فمن زفرات تعلو صعدا. وعبرات لا تنقطع مددا ... فالجسم لقي. منذ أعوز اللقا. والقلب سار له الوجوب. موصوفا بالوجوب. فالله يتفضل بالتلاقي. قبل بلوغها التراقي...».(153)

ويمعن الكاتب في إظهار عمق المحبة لصديقه - كما يظهر من النص - حتى ليخيل إلينا أنه إنما يتغزل، ومثله في ذلك محمد بن عبد الله أوبلوش الذي عبر عن مشاعره تجاه صديقه تعبير العاشق المتيم فقال : «.. هذا والأحوال لله الحمد بخير وعافية. غير ما يلفحنا من أوار التوقان إليكم. وتباريح الشوق إليكم. وقد وصل كتاب سيدنا ... فكان يوم إتيانه يوم عيد. والحمد لله على رؤية خطكم السعيد ... فرد بوروده بعض ما جنى البين. ويكحل بإثمد الملاقاة منا العين...».(154)

ويتجلى في هذه الرسائل أيضا حرص المتراسلين على إطراء بعضهم البعض، وتبادل المديح، وقد يكون ذلك انسياقا مع أساليب المجاملة وقد درجوا على الاحتكاك بها في المؤلفات الأدبية التي عنوا بدراستها، إذا نظرنا إلى المسألة من جهة التأثر بالمعاني،أما إذا وضعنا في اعتبارنا الجانب الأخلاقي أي مراعاة الصديق؛ وتلاميذ الإلغية متأثرون بالتصوف إذ غالبهم منتظم في طريقة صوفية معينة، وأكثر ما كان الصوفية يلحون عليه الثناء على الإخوان، وإدخال السرور على قلوبهم مع تجنب ذمهم أو القدح في كل ما يمت إليهم بصلة، علمنا أنهم كانوا يمتثلون لبعض أدبيات الصوفية والتي تنص على أن من الأدب السكوت عن ذم الصديق، «...وأحبابه وأهله وولده، وأن يسكت عن حكاية قدحه فيه، ولا ينبغي أن يخفي ما يسمع من الثناء عليه، فإن السرور به يحصل أولا من المبلغ ثم من القائل، وإخفاء ذلك من الحسد...».(155)

2 - **التهنئة** : ومن شروط الأخوة كذلك لدى أدبائنا، الفرح بفرح الصديق، ووجوب تهنئته إن حلّت لديه مناسبة ما من المناسبات الاجتماعية(156) ولما كانوا لا يقتنعون فيها بغير الشعر، أضحى النثر مجرد مكمل تنحصر مهمته في تقديم القصائد أو الأبيات إتماما

153) المعسول 11/ 109.
154) المعسول 10/ 236.
155) زكي مبارك - التصوف الإسلامي 2/ 22.
156) انظرها عند موضوع التهنئة من غرض الإخوانيات في الشعر.

للمعاني والأفكار المقصودة،(157) إلا أننا نجد أحيانا رسائل خالية من الأشعار إلا ما كان من تضمين بيت أو بيتين كقول الطاهر الإفراني مهنئا ابن شيخه عبد الله بن محمد الإلغي : «... ابن شيخنا المقدس المتقلب في أردية الرضوان، وأودية الروح والريحان، أعز الله مقامه، وأراه من الدهر ابتسامة، وسلام عليه، ومن به إليه : (الطويل)

لِيُهْنِكَ يَا بَدْرَ الدُّجَى مَطْلَعُ النَّجْمِ
بِيُمْنِ الرِّضَى وَالسَّعْد وَالسُّؤْدَد الْجَمِّ

فالله يبارك فيه وينبته النبات الحَسن، وَيبقيك حتى ترى ولدًا شبّ من ولَده، ونهنئ أبا زيد بمثله، ونسأل الله أن يبارك فيه وفي نجله، فوالله قد قرت العين بهما، وطال السرور لمطلعهما، جعلهم الله قرّة عين المتقين، وعلم هداية للمهتدين، آمين».(158)

وتجري كل التهاني على هذا النمط من الإلحاح في إظهار السرور وتعظيم المناسبة، والدعاء للمحتفل بما يليق...

3 - **النصح والإرشاد** : وهما أساس الأخوة، إذ الصديق يحب لصديقه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، يراعيه بالسؤال عنه وعن أحواله، ويعمل على تقويم ما بدا له فيه من نقص. فهو منه بمنزلة الضمير، يكتم ما ساءه وينصحه بإصلاحه، وقد نص الصوفية على أن «... الرجل إذا كره من أخيه خلقا عاتبه فيما بينه وبينه، أو كاتبه في صحيفة ... وهذا لعمري فرق بين النصيحة والفضيحة، فما كان في السر فهو نصيحة. وما كان في العلانية فهو فضيحة».(159)

ويتناول النصح عند أدبائنا جميع مناحي الحياة، خاصة الاهتمام بالعلم، وأغلب تلاميذ الإلغية مدرسون، والعلم في اعتبارهم أجل ما تصرف فيه الأوقات. لذلك نجد الآباء يوجهون أبناءهم إلى استغلال الفرص ومجاهدة النفس وصرفها عن هواها، مع تأنيبهم إن انصرفوا للهو، كقول علي بن عبد الله الإلغي ناصحا أحد أبنائه : «أما بعد فقد أخبرني الحامل أنك مع جيرانك الطلبة تدمنون اللهو، كأنكم ما عرفتم لماذا خلقتم، على أنهم لا يخافون شماتة بين أهليهم يوم يرجعون. وأما أنت فكيف تجالس أقرانك هنا؟ أو كيف تكون بينهم؟ فهل تريد أن يكون بنو أعمامك أحسن منك، ومن لاهمة له يوم التعلم، يتألم في مجالس أقرانه طول عمره غاية التألم، وأنا لست أباك وأنت دونهم، فإن لم تكن خير أقرانك فانظر لك أبا آخر. فقد يحفظ الطلبة متونا إن تركهم أستاذهم في العواشر، وأما

157) انظر مثلا المعسول 9/ 146.
158) المعسول 2/ 188.
159) التصوف الإسلامي 2/ 220.

أنت وأصحابك فلا تعرفون إلاّ اللعب دائما، ولا حول ولاقوة إلاّ بالله، فاغتنم يا بني قبل الفوت، فقد نصحتك إن علمت أنني أبوك والسلام».(160)

كما نجد الأساتذة ينصحون طلبتهم، خاصة النابهين، ولاتكاد رسائلهم تخالف هذا النموذج الذي سقناه، في الحث على التعلم والصبر عليه والانصراف عن تضييع الأوقات، وعدم متابعة المهملين اللاهين.(161)

4 - الاعتذار : يقع أحيانا أن تحدث جفوة بين المتصادقين بسبب تصرف بعضهم بما يغضب الآخرين عليهم، فيتداركون الأمر بالمعاتبة للوقوف على الأسباب، ومعلوم أن ذلك من شروط الأخوة، إذ«.... على الصديق أن يعاتب صديقه إذا وجد ما يوجب ذلك، فمعاتبة الصديق خير من فقده».(162)

والاعتذار مقابل العتاب، فما أن يتوصل أحد أدبائنا برسالة عتاب حتى يبادر إلى مراجعة نفسه، وإظهار أسفه لما بدر منه، كاعتذار محمد بن عبد الله أوبلوش لأحد أصدقائه لما لامه على مغادرته بلا وداع : «.. وبعد فما أقول لك فإنني هنا في قفص، لا أجد من قنص، ولا مناص لي عن إظهار خلاف ما أكن، ولا يعلم إلا الله مقدار حبك في فؤادي ... فالكيس لا درهم فيه ولا دينار ... وقديما قيل :

إجْعَلْ شَفِيعَكَ مَنْقُوشًا تُقَدِّمُهُ
إنَّ الدَّرَاهِمَ تُدْنِي كُلَّ إنْسَان(163)

ومنها أيضا اعتذار أحمد بن محمد اليزيدي لأحد أصدقائه الذي لامه على تجنب زيارته لما حلّ بفاس فكتب إليه عارضا الأسباب : «.. نعم هناك أعذار مختلفة أمامي، دون رؤيتك مؤتلفة، ولكن أحدها العذر الأكبر الذي إذا دققت فيه نظرك السليم الذي يميز الطيب من الخبيث، والصحيح من السقيم، تراه عذرا صحيحا واضحا، يكون لكل ما قد يتوهم مني شارحا، ألا إنه كثرة أهالينا هناك في تلك المدينة، فمتى رأونا حالين بين ظهرانيهم، يظن كل ذي كيس أبجر ظنونه، وأنا والحمد الله ممن لا يتنازل عن مروءته قلامة ظفر، وممن يختار أمام تلك الظنون لو أن الراحة دائما من تلك الناحية صفر، والحر يتعالى عن لمحة تزدريه، فكيف بقولة تعتريه ... وبذلك العذر الكافي حرمت الاتصال بالأخ الصافي، وهو عذر، والله، واضح غير خفي، فمررت مرغما ولم أعج بتلك الديار ... فإذا

160) المعسول 2/ 199.
161) انظر رسالة محمد بن عبد الله الإلْغي إلى تلميذه الطاهر الإفراني في الفصل الثالث من الباب الأول من هذا الكتاب.
162) التصوف الإسلامي 1/ 177.
163) المعسول 10/ 164.

غاب عن سيدي عذري، أثقل بالعتاب ظهري، وقد نسي أن المعول على ما في القلب، وأن الظن كذوب، فاقبل ما لا يتطلب البراهين والحجج ويتطلع من كل ثنية عن أهل اللوى والمنعرج، وها أنذا قد أتيت بها حجة بالغة، وبراهين دامغة، إن وجدت منصفا...».(164)

يتبين لنا بعد هذا النموذج أن الغرض الأكبر من رسائل الاعتذار، هو محو مشاعر الغضب عند الأصدقاء المعاتبين وإبداء الأعذار، لعلها تشفع عندهم فيما ارتكبوه من أخطاء دون قصد، مع التذكير بصدق المحبة ودوام العهد وكثرة التشوق؛ وقد كان أدباؤنا يدركون أهمية هذا النوع من الرسائل في الحفاظ على الصداقة وحمايتها، لذلك كانوا يفيضون في ذكر أعذارهم وتفصيلها مبتغين محو كل شك أو ظن من أذهان إخوانهم، وبذلك تسيطر الوظيفة الإقناعية على هذه الرسائل وهي «... قصد المتحدث إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري والعاطفي عند المتلقي».(165)

5 . شكوى الزمان : يحرص الأدباء على مواساة أصدقائهم والتخفيف عنهم من وقع الأزمات، وعلى الإفضاء إليهم بما يلاقون من مشقة وعنت لعلهم يردون عنهم غائلة الدهر بالإعانة أو بالكلمة الطيبة ومن نماذجها رسالة لعبد الرحمان البوزكارني خاطب بها شيخه علي الإلغي واصفا حاله بعد مغادرة المدرسة الإلغية حين صدف عنه الناس احتقارا، وانتبذ هو عنهم تكرما، فأصابته الفاقة فلا طعام ولا سراج ، قال : «...فهاأنذا ملقى في زاوية الإهمال، غير منظور إليّ لا بعين الإجلال ولا بعين الإذلال، منتبذا عن الناس، سمير الهم والوسواس، فلا راتب ولا جاري، ولا أنيس ولا صديق ولا دار، فالآن صرت غريبا حقا ... فلا أسمع بطروق أخ أو صديق إلا وددت لو لم ألقه، لعجزي عن بره... فلقد طرقني سيدي محمد الباعمراني(166) إذ طرقني، فلو مات أحد من الحياء لمت، إذ لم يجد عندي الضوء فما فوقه، والله للموت من بعض الحياة أهون، فإلى الله وإلى سيدي المشتكى».(167)

من هذه الرسالة يظهر مقدار معاناة بعض الأدباء الذين أدركتهم حرفة الأدب، وأصابهم الدهر بسهامه، فلم يجدوا إلا الكتابة إلى إخوانهم لعلهم يجدون سبيلا إلى التخفيف عنهم، وما أكثر ما كان الأدباء يشكون الزمان والفقد والحرمان، خاصة في هذه المرحلة التي كان فيها اعتمادهم على مزاولة التدريس ... وما يحصلون من ورائه من أجر يعيشون به على الكفاف،(168) إن لم يكونوا ذوي متربة كمحمد العيني الخياطي

164) المعسول 9/ 200.
165) هنريش بليث – البلاغة والأسلوب، ترجمة محمد العمري، ص : 64.
166) ربما كان يقصد محمد بن عبد الله أوبلوش الباعمراني، انظر ترجمته في المعسول 10/ 160.
167) المعسول 1/ 358.
168) انظر الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب.

التازروالتي(169) الذي كتب شاكيا قلة ذات يده وتسلط الجوع، طالبا العون بعد أن أعياه تكفف الناس، قال : «.. فلما أعيانا التطلب.. وزافت مرائي وجوهنا من ذل سؤالنا إياهم قعدنا سائلين الله الكريم، متضرعين إلى الذي بيده أرزاق خلقه أن يسهل أسباب رزقه، وأن يفتح لنا أبواب رحمته، وقد بلغ السيل الزبى ... وعدا سيف الجوع متن الودج، إلا إذا رحمنا الله، فقد تقطعت بنا الحبال، وانحسمت عنا مواد الافضال، وانسدت دوننا أبواب الحيل، فلا بلاغ اليوم إلا بالتي واللّتيا، والحاصل إذا عملت لحساب الذرية فابعث إليهم بالفكاك، قبل الهلاك فهم في معرض الضياع، وعلى شفا التلف، لكونهم ماكثين أياما وليالي، لا يذوقون فيها ذواقا من دقيق الشعير إلا النزر اليسير ... ويا لها من مصيبة، وقد علمت من حالنا لما لا يعلمه غيرك من كوننا قليلي الحيل، ضعيفي الصحة والمال، كالضفادع بين الخلق، بل هي أقوى منا...».(170)

ويظهر من هذا النموذج الذي سقنا في موضوع التشكي من الزمان تصوير الأدباء ما يعانون من قلة المؤونة وعدم الاهتمام، في فترة شهدت تدهور أحوال التعليم العربي في سوس، وتناقص موارد المشتغلين به، فصارت شهادة على هذه المرحلة ودليلا على احتضار الحركة التعليمية السوسية.(171)

هذه بعض الموضوعات التي تناولها أدباء الإلغية في رسائلهم وتدور حول شؤونهم الخاصة، والمعروف دائما عنهم تعاليهم إلى الترسل البليغ، في كل ما يتعلق بهم حتى ما كان يسيرا.(172)

ب - **الوصايا** : ونقصد تلكم النصوص النثرية التي يتركها الأدباء لأقربائهم أو تلامذتهم قبل الوفاة، يجمعون فيها من النصائح والإرشادات ما يودون إبقاءه لهم، باعتباره خلاصة تجربتهم، ومنتهى فكرتهم عن الحياة وهذا الفن قديم في الأدب العربي، ودخل في أكثر أبواب الحياة.(173)

وقد وقفت علي وصيتين لدى تلاميذ الإلغية، فهناك وصية الحسن بن علي الصالحي الإلغي لأبنائه، وقد كتبت بخط متداخل غير واضح، بتاريخ يونيو 1976م، أي قبل وفاة صاحبها بأكثر من اثنى عشر عاما.(174) ثم وصية الحاج مسعود الوفقاوي

169) انظر التعريف به في المعسول 10/ 283.
170) المعسول 10/ 284.
171) انظر حول تطور الحركة التعليمية بسوس، مدخل هذا الكتاب.
172) انظر مكاتبة بين البشير بن الطيب السليماني وبعض أصدقائه حول خياطة سلهام، مثالا على هذا المسعى بالمعسول 2/ 30.
173) انظر التصوف الإسلامي 2/ 87.
174) توفي 5 رجب 1480هـ/ 23 فبراير 1988، انظر شعر داود الرسموكي، ص : 426.

لتلاميذه، ألقاها عليهم وهو يعاني سكرات الموت، وسجلها في آنها بعض نبهائهم.(175)

وتتناول الوصيتان مسائل دينية وأخلاقية تظهر من استعراض فقراتها، فوصية الحاج مسعود الوفقاوي تشمل جانبين إرشاديين، يتعلق الأول بنصائحه لتلاميذه حيث قال : «يا أيها الإخوان اعلموا أنكم أولادي وأنا أبوكم، فإن أباكم وصل آخر منازله، وأنه ذاهب إلى ربه، فمن سمع خيرا فهو خير له، ومن سمع مني شرا فهو خير له، ومن سمع مني كلمة فسينتفع بها دنيا وأخرى إن شاء الله، فاللهم اجعلها له نورا وهدى وتقى، وأنا راض عنكم لا أعزل منكم أحدا، فلا آذن لأحد أن يذهب إلا بعد الموادعة والمسامحة...».(176)

أما الجانب الثاني فيخص ما يجب على طلبته القيام به نحوه بعد وفاته، من حضور جنازته والاستغفار له... قال : «...فلا أحد أحب إليّ من الله ورسوله والشيخ التجاني، واشهدوا واعلموا أني لست من المبتدعين ولا كتبت زورا ولا عقدا يدل على الدّنيا، فاشهدوا لي بذلك فإنّي أواخذ به بين يدي الله، فكونوا ما استطعتم كذلك. ولا آذن لأحد أن يذهب حتى يصلي عليّ لي في مقري كما هو سنة النبي ﷺ. والله مالي قدرة على الكلام ... إلا الآن من شدة الشوق إليكم، فلا يذهب أحد حتي يودع آخاه، فهذا الموت. ولا تقبروني إلا بين إخواني المسلمين وإياكم وبيت سيدي سعيد، وبيت سيدي يحيى(177) مخافة رقص النساء عليّ. وإياكم أن تفضلوني بشيء، فمن فعل فالمؤاخذة لابد منها بين يدي الله، وإياكم وأن يغلبكم العوام، فيفعلون شيئا من ذلك...».(178)

لقد ميّز الحاج مسعود الوفقاوي بين مستويين في وصيته، الأول نصح تلاميذه وإرشادهم إلى ما يرجى فيه خيرهم، وذلك باتباع إرشاداته سواء كانت تنويها أم زجرا، وإعلان رضاه على الجميع، وهو ما كان كل الطلبة يسعون لنيله معتقدين أن من ناله لا تفارقه السعادة، وأن من تعرض للسخط يلازمه سوء الحظ. أما المستوى الثاني فهو ما يرجو أن يقوم به طلبته تجاهه بعد وفاته كدفنه في المقبرة العامة وعدم تمييزه بشيء شكلا ومكانا، حتى لا يتخذه ضعاف العقول فرصة لإقامة البدع.

أما وصية الحسن بن علي الإلغي فقد كتبت قبل زمن طويل من وفاة صاحبها، لذلك تضمنت توجيهات إلى أبنائه تدور حول النصح باحترام الفرائض الدينية خاصة الصلاة.

---

175) انظر المعسول 3/ 82.

176) المعسول 3/ 82.

177) من رجالات هشتوكة الصالحين، انظر حولهما الحسين أفا - شعر الحسن البونعماني.. ص : 103 - 104.

178) المعسول 3/ 82 - 83.

فهو يبدأ وصيته بإبراز أهمية أركان الإسلام مع الاستدلال بآيات قرآنية، قال :«وكلفنا بأركان الإسلام التي قرأناها جميعا فلم يبق لنا عذر في أداء هذه الأركان التي منها اليومية وهي أعظمها بعد التوحيد، وهي أداء خمس صلوات، وهي أخطرها وأشدها عقابا لمن تركها أو تهاون فيها، ﴿حَافظُوا عَلَى الصَّلَوَاة وَالصَّلَواة الْوُسْطَى﴾.(179) ﴿إِنَّ الصَّلَوَاةَ كَانَتْ عَلَى عَلَى الْمُومنينَ كتَاباً مَوْقُوتا﴾ ﴿وَإِنَّهَا لكَبيرَةٌ إلاَّ عَلَى الْخَاشعينَ الَّذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ﴾،(180) والآيات القرآنية والأحاديث النبوية في ذلك كله كثيرة مشهورة وقد قرأتموها جميعا، وقد أنعم الله علينا بنعم غير محصورة، وشكر الله واجب على كل نعمة، ومن شكره تعالى أداء فرائضه..»(181).

ولا يخفي الموصي قلقه وحزنه من تهاون أبنائه في أداء الصلاة فيستفرغ جهده في تذكيرهم بما ينتظر المتهاونين من عذاب شديد، والمجدين من جزاء عميم، مورداً ما يعضد كلامه من براهين، قال : «... واعلموا يا أولادي جميعا أني ألاحظ عليكم جميعا تهاونكم بأداء الصلوات الخمس ويحزنني ذلك ويقلقني دائما وأذكر قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذين آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْليكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئكَةٌ غلاَظٌ شدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أمرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُومَرُونَ﴾(182) وقال تعالى : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحجَارةُ أُعدَّتْ للْكَافرينَ﴾(183) فاتقو الله يأولادي وأدوا ما عليكم من فرائض الله تعالى لتكونوا سعداء في الدنيا والآخرة ولتبقى علينا هذه النعم في جميع الأحوال، ﴿لَئنْ شكَرْتُمْ لأزيدَنَّكُمْ﴾،(184) وإن العبد إذا أنعم الله عليه ولم يشكره بأداء ما افترضه عليه استدرجه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ منْ حَيْثُ لاَ يعْلَمُونْ وَأَمْلي لَهُمْ ...﴾،(185) نسأل الله تعالى أن يوفقنا وأن لا يستدرجنا.(186)

ثم يتجاوز الأديب الإلغي النصح بالتزام الصلاة إلى ضرورة التخلق بكل ما ينص عليه القرآن وسنة الرسول ﷺ من أخلاق باعتبارها سبيل النجاة في الدنيا والآخرة منطلقا من

179) الآية : 238 من سورة البقرة.
180) الآية : 103 من سورة النساء، والآية 45 من سورة البقرة.
181) أوراق عبد الله بن الحسن الصالحي.
182) الآية السادسة من سورة التحريم.
183) الآية : 24 من سورة البقرة.
184) اية السابعة من سورة إبراهيم.
185) الآية : 182 من سورة الأعراف.
186) وصية الحسن بن علي ضمن أوراق ابنه عبد الله بن الحسن الإلغي الصالحي.

الجزء إلى الكل، قال : «... وتخلقوا بأخلاق القرآن، وأخلاق النبي ﷺ ﴿وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾.(187)

ويختم الوصية بالإشارة إلى أنها عهد بينه وبين أولاده، يجب عليهم احترامها والعمل بها وحث أبنائهم على التزامها والتقيد بما جاء فيها : «... وهذا الكتاب عهد فيما بيني وبينكم جميعا وأشهد الله وملائكته عليه فاحفظوا وحافظوا عليه واعلموا به أنتم وأزواجكم وأولادكم وأحفادكم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها «كُلُّكُمْ رَاعٍ وكل راع مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّته»(188) وفقنا الله جميعا لما يحب ويرضى وأعاننا جميعا علىً ما فيه لنا سعادة الدارينَ وَاَلوقاية من شر الدارين بجاه رسول الله القائل «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَق...».(189)

نخلَص من عرض هاتين الوصيتين إلى ارتباط الأولى بوفاة صاحبها، فهو يودع طلبته ويوصيهم خيرا بأنفسهم وببعضهم البعض، وبنفسه عند وفاته فيما يخص جنازته ودفنه... أما الثانية فهي تأملات أب رأى أبناءه نشأوا علي غير ما اعتاد في طور نشأته من إقامة أركان الدين واهتمام بحميد الأخلاق، فكتب لهم هذه الوصية محذرا ومنذرا، مكثرا من الاستشهادات لإعطاء حديثه سندا فكريا وعاطفيا متينا، وتغني هذه الاستشهادات عن الإطناب والاستطراد في التفسير والشرح، كما تلخص عالما كاملا من المعاني المتعددة حول القضية المعروضة.(190) ولا يكتفي بذلك بل يجعل من هذه الوصية عهدا بينه وبينهم، ومن المعلوم أن العهود إنما تطلق على وصايا الملوك(191) إلاّ أن أديبنا الإلغي خرج عن هذه العرف وسمى وصيته «رسالة العهد»،(192) وربما فعل ذلك باعتباره أبا بمنزلة الملك من أبنائه وهم منه بمنزلة الرعية، لا يطيعونه إلا باتباع وصيته وتذكر عهده، كما نلاحظ غياب الحديث عن المسائل المادية المعاشية وحصر الاهتمام في قضايا الدين والآخرة، ولا نستغرب، ذلك، إذ إن هذين العالمين لم يخلفا لأبنائهما مالا يقتسمونه ولا عقارا، بل أسوة علمية وأخلاقية.

جـ - المنشور السياسي : لم يكن للقضايا السياسية العامة حضور كبير في اهتمامات تلاميذ الإلغية كغيرهم من أدباء سوس، غير أن تضعضع كيان الدولة المغربية وظهور

187) الآية السابعة من سورة الحشر.
188) رواه البخاري أول كتاب الأحكام.
189) رواه الإمام مالك في الموطأ في كتاب حسن الخلق.
190) انظر وداد القاضي - صورة من النثر المبكر في اليمن، مجلة الفكر العربي عدد 25، ص : 353.
191) انظر التصوف الإسلامي، ص : 87.
192) كتب ذلك على هامش الوصية المخطوطة مع التاريخ.

الاستعمار الفرنسي، دفع بهم إلى الاهتمام بمصير وطنهم وتأمل ما يطرأ من أحداث، ثم إبداء آرائهم حولها في منشورات سياسية تخبر وتحلل، وقد وقفت في هذا الصدد على ثلاث منشورات : الأول، يتعلق بمبايعة الشيخ أحمد الهيبة، وكاتبُه عبد الله بن محمد الالغي، وهو عبارة عن رسالة كتبها إلى أصدقائه المقبلين على مبايعة الأمير الصحراوي مبنيا رأيه فيها. أما الثاني والثالث فيتصلان بزحف الاحتلال الفرنسي على جبال جزولة وكاتبهما الأديب أحمد الجبلي الوافد على الإلغية من جبالة جوار الريف حيث شارك في ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي، وقد كتب منشوريه تحذيرا للسوسيين مما ينتظرهم من كيد الكفار وبطشهم.

أما المنشور الأول فيتناول وجهة نظر صاحبه في بيعة الأمير الهيبة عام 1330هـ(193) وهو يعلن موقفه الرافض من أول وهله، مستنكرا ما قام به إخوانه من القدوم على هذا الأمير للانضواء تحت لوائه، مستندا على أسباب ذكرها فمنها ما يتعلق بالأمير وما يتصل ببيعته ثم ما يخص الوضع السياسي بالمغرب عامة في هذه المرحلة، أما الأسباب التي تتعلق بالأمير وتجعله غير جدير بالإمارة فهي :

1 - قلة معرفته السياسية : نتيجة لكونه لم ينشأ في وسط سياسي وإنما تربى بين كراسي الإرشاد ومنابر المساجد، وتتجلى مظاهر نقص هذه المعرفة فيما يلي :

* جهله بنفسية مبايعيه خاصة، وأهل القطر المغربي عامة، وما تعلق منها بميلهم إلى الغدر والمكر والاستخفاف بالملك قال : «... لم يدر هذا القطر وغدر أهله ومكرهم لأنهم جميعا من جهلة البرابر ... وأهل المغرب كما قيل قبل، معادن الهمز واللمز والمجون والاستخفاف بنظام الملك، مالم يصل عليهم صاحبه بالصارم المسنون...(194)

* تطلعه إلى الإمارة مباشرة بلا إعداد ولا تخطيط، ومصيره «... أن يندم حين لا ندم نافع، يوم لا ينفع جاه ولا شافع، لكن من صفعته يده لا يعول على ما فعل بنفسه بيده ولا يبكي، ومن ألقى بيده إلى التهلكة وهو ينظر، ما جزاؤه إلا أن تصم دونه بعد المسامع فلا يشكي...»(195)، ويرى أديبنا الإلغي أن الأحسن له لو أراد دوام أمره أن يتستر بالجهاد حتى إذا جمع حوله الناس ونجح في مسعاه طلب الملك، فلا يخطئه، قال : «فيا ليته إن كان لابد له من هذا تستر أولا بالجهاد، فقاد العباد، حتى يتمكن في القلوب ناموسه، إذ يمكن أن ينجح في طلب الملك بعض نجاح، وأن يرجى له في ذلك بعض الفلاح..».(196)

193) انظر حول بيعة الشيخ الهيبة المعسول 4/ 105 وما بعد.
194) المعسول 2/ 175.
195) المصدر نفسه.
196) المعسول 2/ 175 ـ 176.

* استناده في طلب الملك على حسن النية، واغتراره بأن الأمر كان له مقدورا فاطمأن، ولم يتخذ ما يجب من أهبة واستعداد، قال الإلغي : «... فتطاول بحسن نية منه إلى أرائك الملوك وعروشهم بعد أن لم تكفه في مساجد الدراسة والإرشاد الكراسي والمنابر... ولكنه قد اغتر اليوم بما يسمعه من أنه كان سلطانا منصورا وكان أمر الله قدرا مقدورا»(197) ولا شك أن أديبنا كان يشير إلى ما صاحب بيعة الشيخ الصحراوي من دعايات وأراجيف وكشوفات وأحلام حول إمارته واستيلائه على البلاد، لا بالقوة والمغالبة وإنما بالصلاح والتقوى فحلت السبحة عنده محل السيف.(198)

2 - فشل كل من قام لهذا الأمر : من أمثال هذا المتطلع الجديد من أبناء الزوايا، فلم يتم لهم ما أرادوا، وضرب المثل ببعض مشاهيرهم، وأشار إلى أن الخير له الاتعاظ بما حدث لهم، قال : «... وطالما قام قبله لهذا الأمر من أبناء الزوايا رجال، فلم يتم لهم شيء ولا صلح... فلا ينبغي أن ينسى ما صدر من أمثال هذا الذي يتطاول اليوم من العلماء المنتهجين هذا المنهاج الوعر السلوك، المردي لكل من زاحم فيه الملوك، كأبي محلي رحمه الله(199) على أنه قال : أردنا أن نجبر الدين فأتلفناه، والشيخ أبي عبد الله العياشي،(200) والشيخ سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي،(201) والشيخ أبي زكرياء سيدي يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي(202) وغيرهم من العلماء رحمهم الله...».(203)

3 - عدم توافى شروط الإمارة في المتطلع إليها : يرى أديبنا الإلغي أن من تطلع للإمارة إنما يبتغي القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا شروط معينة، أولها أن يكون صاحبه صالحا لائقا للقيام به ... غير أن الأمير الصحراوي، في رأي أديبنا، ليس من هؤلاء وإنما هو منتحل لأعماله بلا استحقاق، يجمع الناس حوله طمعا في الرئاسة قال : «... والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط لم أعلم بعضها اليوم، ولكن الله متم نوره بالصالحين اللائقين لهذا الشأن، دون الأغمار المنتحلين لهذه الطريقة الجالبة للشنار...».(204)

أما ما يتعلق بالقائمين بالدعوة والمبايعين، ومعلوم أنهم من الصحراويين والسوسيين، فيرى أديبنا أنهم لا يرقون إلى المستوى المطلوب بسبب انطوائهم على الغدر والمكر، إذ

197) المعسول 2 / 175 - 176 .
198) انظر المعسول 4/ 180، 119، 148..
199 المقصود ابن أبي محلي الثائر على زيدان ابن المنصور، انظر بعض أخباره عند الناصري في الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، 6/ 26.
200) انظر الاستقصا، 6/ 73.
201) انظر حول ثورته محمد حجي - الزاوية الدلائية، ص : 76، وما بعد.
202) انظر حوله إيليغ قديما وحديثا، ص : 40.
203) المعسول 2/ 177.
204) المصدر نفسه.

الغالب عليهم الجهل لبدواتهم، خاصة فيما يتعلق بشؤون السياسية والإمارة، بل يذهب الإلغي أبعد من ذلك، فيصفهم بأنهم ليسوا سوى همج رعاع وإن كثر عددهم، فلا يستحقون إلا الطّرق بالحصا والقرع بالعصا، إذ أنهم لا يثبتون إن قامت الحرب، أما إذا استوى الملك لأميرهم فيستبدون ويستبيحون المحارم ويأتون المنكرات، قال : «... رعاع همج كالرمل والحصى، فهؤلاء حقا من يطرق لهم بالحصى ويقرع بالعصا، ولكنهم مع ذلك قلما ينتبهون من الضلالات ومذاهبها... هل سكان الفحص الذين بايعوه اليوم الذين يأمن منهم غدا من حوله فرارا؟ أم يقفون له عهدا أو يفون له بوعد؟ أو يعرفون لمثل هذا معنى؟ أم يقدرون أن يحموا بدورهم مغنى؟ بل هم ساعة الوطيس يولون الأدبار لأول وهلة تولية جديس، وأيضا يوم يقر للملك بالفحص قرار، لا تحفظ لنا ولا لعقبنا حرمة، ولا يحمى لنا دمار، يومئذ تستباح هذه الأصقاع السوسية وتغشى بالمناهي والمناكر التي تنالها باستيلاء الملك ودوامه عليها، فيغتالها بالجبايا والمغارم المخزنية. الحذر...الحذر فقد قال الله جل من قائل ﴿**وخذوا حذركم**﴾.(205)

أما الأسباب التي تتعلق بالوضع السياسي بالمغرب عامة فيلخصها الإلغي فيما يلي:

1 - ورود الأخبار بانتصار أهل فاس وجيش السلطان على العدو، وخروجه من المدينة مهزوما، وهو خبر تبيّن فيما بعد أنه كاذب، إلا أن أديبنا بنى عليه الاستنتاج بأن سلطة السلطان عبد الحفيظ مازالت قائمة، مكذبا بذلك القول بوفاته، الذي روّج له مبايعو الشيخ الهيبة، لأنه لم يثبت بالقول الصادق، فمادام السلطان حيّا ومنتصرا على العدو، فبيعته لازالت قائمة في الأعناق. فلو أن العدو استولى على حضرة فاس أو مراكش لحق للصحراويين والسوسيين مبايعة الأمير الجديد، أما وقد ثبت العكس فلا حاجة لهم بكل ذلك، بل الواجب الامساك عنه رعيا للمصلحة، وكفا عن إراقة الدماء، قال : «... وقد حدّث الواردون من الغرب فملأوا بما قالوه لنا ولكم سمعا، وقد تحقق من أخبارهم خروج العدو، وأنه غادر فاسا حين أذاقه أهلها، أعانهم الله، مرارة الحرب وأروه نجدة وبأسا ... فلو دام استيلاء العدو على تلك الحضرتين إلى اليوم ... لقلنا يمكن هذا الذي يحاول اليوم عندنا، أن نجد لنا فيه عذرا، مع ما فيه من الاعتياص. فمن المحقق أن من سعى في إحداث شيء بهده البلاد، إنما سعى في إراقة دماء المسلمين فيما بينهم وفي إفساد العباد، وقد علمتم حفظكم الله ما في إراقة محجة من دم من معصوم الحرمة والذم، فاتضح لكم وضوح الشمس أيها الأعلام، أن الواجب اليوم الإمساك والإحجام، رعيا لمصلحة البلد والقوم، لئلا يكون أحد منكم عونا على العدوان والإثم، وإن طلبتم مني الجواب الأخير في هذا الأمر، فلا أرى إلا التوقف والتريث، ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ**

205) المعسول 2/ 177، الآية : 102، من سورة النساء.

مِنَ الْفَجْرِ ﴾(206) واعتذروا بأن بيعة المولى عبد الحفيظ في الأعناق، لأن موته المتداول لَم يثبت كَما يجب بالعدول، والمسارعة إلى شيء آخر سوى هذا من الانحراف عن الجادة...»(207)

2 – عدّ الحواضر المغربية الكبرى كفاس ومراكش، قاعدتي الملك بالمغرب ومن فيها من القواد والعلماء، وأصحاب المسؤولية الكبرى في اتخاذ القرارات المتعلقة بحماية الدولة، وذلك لكونهم أصحاب الحل والعقد، والسلطان مقيم بين ظهرانيهم، ولأنهم كذلك أصحاب المعرفة بالأمور السياسية وبشؤون الحرب، أما غيرهم فلا ناقة له في ذلك ولا جمل. وينبه أديبنا الإلغي المغترين بقيام الملك بسوس إلى أن هؤلاء الحضريين لا يمكن أن يتركوا الملك يخرج من حضرتهم إلى غيرهم ... فهم محور البلاد، وغيرهم حواش لا قيمة لها، قال : «... وأهل فاس، وأهل المغرب، أهل الحلّ والعقد والتسليم والنقد؛ فهم أهل الدار البيضاء،(208) وأهل النظام والملك، وما سواهم رعع أهل فوضى. أتظنون يخرجون الملك من حضرتهم، وهم ما هم وفاس هي ما هي؟ أم يعدون ذلك عليهم من أعظم المصائب والدواهي؟ كلا إنهم لا يرضون بذلك هم ولا كل من المغرب، وفيه ما فيه من قائد عظيم، وعالم معرب، وغيرهم في الحقيقة جهلة بهذا وسوقة، لا يعرفون كيف يقايضون في هذا الأمر إن دخلوا سوقه، وكذلك جميع الأمم حول المغرب لا تقبل كلاما إلا إذا كان من هؤلاء أو ممن عنهم يعرب، ففاس ومراكش وما حولها. عماد القطر الكبير وأما سوس والأطراف فلا تعد في عير ولا نفير...»(209)

وبسبب كل من تقدم قرر أديبنا الامتناع عن مبايعة الأمير الهيبة، بل إنه تنبأ بانهيار أمره عن قريب،(210) نتيجة لمظاهر الخلل التي لاحظ في سلطانه، قال : «...وكأنني بأمره قد انتقض عن قريب كما انتقض أمر أمثاله المتقدمين».(211)

من خلال هذا المنشور نرى الأديب عبد الله بن محمد الإلغي يتناول الأمور تناولا هادئا، متأملا ومحللا بنظرة عقلية واعية، بعيدة عن هيجان العاطفة كما كان شأن غالب معاصريه، معتمدا على الانتفاع المنطقي ببراهينه وأدلته، محاولا التأثير على المتلقي باستعراض الحقائق المرتبطة بالأطراف المشاركة في القضية التي تحدث عنها. وقد نجح أديبنا في نقل إحساسه بالخطر إلى مخاطبيه، إذ اكتسبت عباراته نبرات انفعالية قوية بما فيها من

206) الآية : 186، من سورة البقرة.
207) المعسول 2/ 177.
208) يقصد بالدار البيضاء القصر السلطاني، وهو رمز السلطة ومظهر من مظاهر الملك.
209) المصدر السابق، ص : 176.
210) المصدر نفسه.
211) المعسول 2/ 176.

استفهام واستنكار وانتقاد وتحذير واستخفاف،(212) بالإضافة إلى استغلال التاريخ، لإثارة الذاكرة إمعانا في التأثير ...(213) فحينما تحدث عن طريقة إعلان الهيبة إمارته، وقال إنه كان الأفضل له التستر بالجهاد حتى ينقاد له الناس، كان يحيل على فعل السعديين لما قادوا الحركة الجهادية ضد البرتغاليين في السواحل، وجعلوا ذلك وسيلة للاستيلاء على الملك وإبقائه في أيديهم، كما أنه حين أشار إلى زوال أمر الشيخ الصحراوي قرنه بغيره من أبناء الزوايا الذين خاضو غمار الصراعات على السلطة دون أن يتم لها المراد، لقلة معرفتهم السياسية وبعدهم عن أساليب المكر والخداع والبطش الذي تواخذ به الأمور وتساس به الرعية. ومن العجيب أن تصدق نظرة أديبنا الإلغي في أمر الشيخ الهيبة، فما لبث أن انهزم فتفرق من حوله المبايعون والأنصار ناجين بأنفسهم مما أدى إلى انفراط عقد إمارته بُعيد التئامه.(214)

أما المنشوران الثاني والثالث، فيأتيان زمنيا بعد الأول بحوالي عشرين سنة، عندما تهيأت قوات الاحتلال للزحف على جبال جزولة.(215) وقد أقام في هذه الفترة بالمدرسة الإلغية أحمد الجبلي نازحا من جبالة وكان شارك في ثورة الريف، ثم في ثورة تافيلالت بقيادة بلقاسم النكادي، وقد لجأ إلى سوس هربا من ملاحقة المستعمرين، وأثناء إقامته بالمدرسة، نشر منشوريه يحذر فيهما السوسيين خاصة الجبليين من زحف الاستعمار على بلادهم، داعيا إلى مبادرته بالقتال.

وقد عنون منشوره الأول بـ «إنذار للعموم، وتحذير من أخطار الوقت المشؤوم»(216) وبناه على ثلاثة محاور :

الأول : استنكار تخاذل السوسيين وتنابذهم، والتحذير مما ينتظرهم من بطش العدو وفتكه، داعيا إلى الاتحاد والتآخي وطرح أسباب الخصام، والسعي للتصدي للمؤامرات التي تحاك خيوط شباكها حولهم وهم لاهون عنها، ظانين أنهم في منأى عن البأساء، مذكرا بما كان لأسلافهم من غيرة وأنفة، وجب الآن احتذاؤهم فيها(217) وبما ينتظر المستكينين المتخاذلين من ذل الدنيا وخزي الاخرة، قال : «..إن فرضنا أنكم تسوّل لكم نفوسكم المروق عن الدين إرضاء لعدوكم واتقاء لشره، فهل ينجيكم من عقاب الله تحملكم هذه الدنايا والمخازي، والاستكانة والانزواء لهذا العدو النازي؟ كلا والله ما أراكم ألا

212) جي فانسان ـ نظرية الأنواع الأدبية، ص : 387.
213) محمد مفتاح ـ تحليل الخطاب الشعري، ص : 130.
214) انظر أحداثها بالمعسول 4/ 150 وما بعد.
215) المنشوران مؤرخان في 25 ذو القعدة و 14 محرم من عام 1351هـ.
216) المعسول 11/ 332.
217) انظر المصدر نفسه.

استعجلتم الخزي في الدنيا قبل الآخرة، وعليه ليكن في علم سيادتكم أنكم إن أبديتم شيئا من التراخي في هذا الأوان، صارت دوركم وأموالكم أثرا بعد عين، وبؤتم بالخسران، لأن للعدو عليكم عيونا راقبة وأفكارا في تحصيلكم ناصبة».(218)

الثاني : شرح الوضع السياسي العالمي المؤثر في تأخر الاحتلال عن بسط سيطرته على جبال جزولة، وهو يتعلق بأحوال أوروبا قبيل الحرب العالمية الثانية، ووضع فرنسا الضعيف فيها، إذ أضحت فريسة للقوى العظمى خاصة ألمانيا وإيطاليا اللتان تتحفزان للوثوب عليها، فهي إذن منشغلة بمشاكلها الساخنة عن اتمام خططها التوسعية، ولا يقف الأديب الجبلي عند عرض هذا الوضع وإظهار ضعف موقف فرنسا بل يدعو مخاطبيه إلى استغلاله للتخلص من الاستعمار، وإن لم يفعلوا فهم بين خيارين إما أن تنتصر فرنسا على أعدائها فيبقوا تابعين لها تستغلهم وتذلهم، وإما أن تنهزم فيكونوا غنيمة لأعدائها يسومونهم العذاب.(219) قال : «...ولأجل هذا نحتكم عباد الله على أن تنتهزوا الفرصة منه مادام على هذا الحال من الضعف والفشل، أما إن تركتموه يستريح ويسعى في الخلاص مما ذكر فعليكم السلام، لاحجة لكم تقبل بعد هذا ولا كلام، وتيقنوا بالبواروالعدم، لأن أحد الأمرين بكم واقع، ماله من دافع، إما أن تنال الدول بغيتها من فرنسا فتكون بلادكم تابعة لها، لأن من قتل قتيلا فله سلبه كما في كريم ذهنكم، وإما أن تتلخص فرنسا ممن تألب عليها، فتكر عليكم ثانيا ولاشك في أن تمحوكم من الوجود، أما بقاؤكم علي هذا الحال فمحال...».(220)

الثالث : إظهار اليأس من انصلاح الأحوال، والحكم بطغيان الجمود على الأذهان، والزهد في مرضاة الله، ويرى أديبنا أن سبب ذلك أمران : أولهما عرقي، وهو خلو المغرب من أبنائه الأحرار إلا قليلا، فأبناء الجنوب من نسل السودان، وأبناء الشمال صقالبة من أبناء الرومان «...لهذا فقدت منهم الغيرة واستولت عليهم الهمجية، حتى لم يوجد من يميز بين الحسن والقبيح، ولابين العليل والصحيح».(221) والثاني خلو الميدان من القادة الأفذاذ الذين يستطيعون إنقاذ البلاد بسبب ما تعرضوا له من قتل أو إذلال من لدن الملوك والرؤساء الخائفين على نفوذهم وسلطتهم، ولاشك أن أديبنا لا يريد بالتعبير عن اليأس نشر الشعور بالهزيمة بين مخاطبيه، وإنما قصد إثارة مشاعرهم لمواجهة الوضع وإلا لما احتاج لمنشوره أصلا.

---

218) المعسول 11 / 332 .
219) نفسه، ص : 333.
220) المصدر نفسه.
221) نفسه، ص : 334.

ولا ينسى الجبلي في نهاية الأمر أن يقدم نفسه متطوعا لقيادة الحركة الجهادية المنتظرة، باعتباره من القلة القليلة من أبناء المغرب الأحرار الشاذين عن أخلاق الذل والخنوع المنتشرة بين العموم، ومن ذوي الخبرة العارفين بكيفية مجاهدة العدو بقوله : «ففي هذه الشواذ المنشورين في بلادكم المتهافتين على أبوابكم من لهم خبرة بذلك، فاطلبوهم تجدوهم متعددين إن أردتم الخلاص من يد المتمردين».(222)

أما المنشور الثاني فقد عنونه بـ (استرعاء بعد الإنذار) وقد صدر عنه بعد أزيد من شهرين من صدور الأول، وهو أكثر تفصيلا حاول فيه استدراك ما فات في المنشور الأول، متناولا أربعة محاور :

الأول : استنكار سكوت مخاطبيه مع إحاطة البلاء بهم، والالحاح على امتلاكهم القوة والدهاء لدفع العدو، ولاشك أن أديبنا كان يقصد التجاهل الذي قوبل به منشوره الأول إذ لم يلق أية استجابة، وذلك بقوله : «فإننا نتعجب من حالكم أيها الإخوان كل العجب، والأسف قد بلغ منا غاية، إذ ساغ لكم السكوت، والبلاء قد أحاط بكم.... فنطلب منكم بإلحاح أن توضحوا لنا في هذا الأمر آراءكم وهل سرّكم هذا أم ساءكم»؟(223)

ويتعجب الجبلي من تجاهل الناس أفكاره المنشورة بينهم، مناقشا بعض الأعذار التي قد يعتذرون بها، كقلة الحيلة، وضعف الشكيمة، فمجال العمل - في رأيه - متسع والخلاص من العدو ممكن والأحوال مساعدة، فلا حاجة إلا إلى استخدام الدهاء وتحمل المشقة وانفاق المال، قال : «... والدفاع عن أعراضكم لازال في استطاعتكم ومجال العمل متسع عندكم، ووسائل الدفاع لديكم متعددة، والظروف لكم مساعدة. فما بينكم وتحقيق الأمل إلا إماطتكم أسمال الكسل، وارتداؤكم ثياب الجد للعمل. فإن تعللتم بعدم السلاح، أو عدم طاقتكم على الكفاح، فإن لديكم براكين من الدهاء إن وفقتم إلى جمع كلمتكم ... فتداركوا الأمر بإنفاق، وإعنات جسم وفكر في مصالحكم وقدر استطاعتكم».(224)

الثاني : عرض المهارات الشخصية في معرفة العدو وطرق محاربته. يستعرض صاحب المنشور بعض معارفه في محاربة الاحتلال، مصرحا بأن ما ينقصه هو المساعدة، مشيرا إلى استعداده لاقتحام الأخطار في سبيل العز، مفندا في نفس الوقت أقوال المرجفين برغبته في الرئاسة وسعيه إلى الإمارة، بكونه غريبا عن هذه البلاد فلا ناصر له بها، قال : «...وإياكم ثم إيّاكم أيها المسلمون أن يخطر ببالكم ما يتبادر عقول ذوي الأوهام من الهواجس

222) المعسول 11/ 335.
223) المصدر نفسه.
224) نفسه.

والأحلام، وهي أن كل من يخاطبكم بهذا يرون أن يترأس عليكم، كلا ومعاذ الله أن يكون لمخاطبكم غرض أن تعرفوه، فضلا عن أن يطلب منكم تولية أمر ما ... لأن الرئاسة عليكم لا تذكي للحرب نارا ولا تدفع عنه عارا، إذ أنتم وهو في غاية الانحطاط، وأنى يتصور ذلك في عقله، وهو منبوذ بأرض شاغرة، لاسكن له بها من جنسية ولا مسكنا، وعلاوة على هذا أنها لازالت مطلوبة للعدو، وقد تداعت للسقوط في قبضته صدقة من أهلها... وكيف تسكن نفس لهذا حتى يحلم بالرياسة عليكم، وهو يرى ما هو محتف بكم وبه حالا من البلايا».(225)

وفي مقابل نفيه السعي وراء الرئاسة يصرح الجبلي بغرضه الحقيقي، ألا وهو إخراج مخاطبيه من عزلتهم، ودفعهم للمعالي، ومكايدة المستعمرين ومن ولاهم بهم، قال: «...نعم، إن لداعيكم غرضا يشبه ما تتوهمونه وهو إنهاضكم وإخراجكم من سكنى الوهاد، وجَلو عقولكم وتنشيطها لطلب المعالي والارتقاء في المجد إلى أعلى مهاد، ويرغم بكم أنوف الأوروبيين ومن عاضدهم من أبناء جلدتكم الغربيين،(226) وينفس بكم الكربات عن إخوانكم الشرقيين،(227) ويعرفكم قيمة أنفسكم وما لها من الشرف لتربأوا بها عن الدنايا، وتتنافسوا في اكتساب المزايا، وتتخلصوا من شرك أعداء الدين، الذين لازالوا لعقيدتكم مفسدين وفي طلب إردائكم مجدين، هذا الذي حمله على مخاطبتكم...».(228)

الثالث: تبين أساس محاربة العدو، وهو عند أديبنا تصحيح العقيدة فقد قام رجال أشداء بمقاومة الاستعمار، غير أنهم جانبوا الصواب بسبب الجهل بالعقيدة وخلو قلوبهم من الإيمان، ويندد في هذا السياق ببعض المعتقدات الفاسدة السائدة، خاصة ذكر الأولياء وكراماتهم، والحديث عن انتظار قدوم الإمام المهدي والاتكال على كل ذلك عوض أداء الواجبات، مما سهل مهمة المحتلين في محاربة الدين، قال: «... وذلك بما أجازه المثبطون له من الأقوال المنكرة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهي حكايات الخرافات بألفاظ مسجعة ينسبها كل أهل بلد إلى أولياء بلدهم وهم براء منها، أو قالوها ولم يأمرنا الله بتصديقهم ولا باتباعهم ... وقد تقرر في يقيني أن هذه المسألة هي التي سرقت المسلمين وأضلتهم عن الجادة. إذ أخذوا يلهجون بذكر الأولياء وما لهم من الكرامات، وغفلوا عن أداء واجباتهم، فاتهز العدو الفرصة منهم بالاتكال على هذه ومسألة الإمام المهدي، فكانتا

225) المعسول 11/ 335.
226) يقصد سكان الغرب وهو في عرف السوسيين، مراكش، وما وراءها إلى الشمال.
227) يقصد المقيمين على الحدود مع الجزائر، والذين وقعوا تحت الاحتلال، أنظر المصدر السابق.
228) المصدر السابق، ص: 336 - 337.

له آله قوية على استئصال الدين من قلوبهم، والتمكن من رقابهم وبلادهم، بدون نفقة مال ولا مقاساة حرب...».(229)

الرابع : اختصاص الأشراف والمرابطين بالخطاب. وجه الجبلي منشوره الأول إلى عامة الناس وكذلك الثاني، إلا أنه خص وجهاء المجتمع كالمرابطين والشرفاء والعلماء لما لهم من تأثير على العامة، وجعلهم مسؤولين عن تبصير الناس بما ينتظرهم من أخطار، قال : «... فعلى أولي النظر في عواقب الأمور أن يتلافوا الأمر بالعمل قدر الوسع، وأن يلفتوا أنظارهم لهذه المسألة، وأن يقدروها، وبالأخص من منحه الله حظا بين المسلمين بسمع كلامه وتعظيم جنابه، كسادتنا الأشراف أهل بيت النبوة ، ومن يليهم من ساداتنا المرابطين الذين أظهر الله فضله على آبائهم وأجدادهم، والعلماء والعظماء الذين فضلهم الله بشرف العقل، وصيّرهم قادة وملاذا لغيرهم، أنتم المخاطبون بهذا والعهدة عليكم قبل غيركم...(230)

كما ينبههم إلى أنهم المقصودون قبل غيرهم بالإذاية من قبل العدو، لتشبثهم بالدين وارتفاع منزلتهم به، أسوة بإخوانهم في المناطق المحتلة، والذين لقوا كل إذلال.(231)

هذه هي المحاور العامة التي أسس عليها الأديب الجبلي منشوريه؛ نستنتج من عرضها اطلاعه الكبير على مجريات الأمور داخل المغرب وخارجه، إذ نجده يصور حالة البلاد من حيث خضوع أهلها وذلهم، سواء من كان بالمناطق المستعمرة أو خارجها، واتكائهم على الخرافات والأوهام عوض الكفاح وفي مقابل ذلك يتحدث عن الوضع السياسي الدولي المتأزم والذي تمثل فيه فرنسا الطرف الضعيف، داعيا إلى الاستفادة منه. وهكذا زاوج الأديب الجبلي بين الاقناع المنطقي والعاطفي، للتأثير في نفوس مخاطبيه خاصة الثاني، باعتبار سلطته على النفس أقوى بحيث «...تتسرب بعمق في كل ثنايا النفس الداخلية، وتستغل كل الوسائل الممكنة لكي تصل إلى الاستمالة والاغراء والتأثير ... في كل إمكانيات الروح الإيجابية، ثم في الخيال وفي الإحساس»،(232) بحيث تتماهى أفكار المرسل في فكر المتلقي، ويشعر هذا أنه لا يستمع إلى صوت مخاطبه بل إلى صوت ذاته، وإمعانا في ضمان نجاح التواصل، ورغبة في التيقن من وصول الرسالة إلى المتلقين لجأ أديبنا إلى الإطناب، فأبدأ في القول وأعاد، ففسر المشكل وبسط الموجز.(233)

إلا أنه رغم استغلال جمع أصناف التأثير والإقناع، لم يصل أديبنا إلى شي، وفشل منشوراه في خلق تجاوب بناء يثمر علاقة تواصله مع المتلقين،وينتج الاستيلاء على المسالك

---

229) المعسول 11/ 336 – 337.
230) المصدر نفسه، ص : 338.
231) نفسه.
232) جي فانسان ـ نظرية الأنواع الأدبية، ص : 385.
233) محمد خطابي ـ لسانيات النص، ص : 302.

المؤدية إلى إرادتهم، ولعل سبب ذلك غياب السياق باعتباره «... الطاقة المرجعية التي يجري القول من فوقها، فتمثل خلفية للرسالة تمكن المتلقي من تفسير المقولة وفهمها، فالسياق إذن هو الرصيد الحضاري للقول، وهو مادة تغذيته بوقود حياته وبقائه»(234) وسياق منشور الجبلي هو طبيعة الاستعمار وخطره على البلاد، فهناك غياب معرفة العالم لدى المتلقين، تكون موازية لمعرفة المرسل،(235) وقد أدى هذا الغياب إلى إعراض الإلغيين عن نداءات الجبلي فلم يلق «... إلا فتورا وإعراضا وجهلا بمقاصد أمثاله، وأنى يعرف أهل هذه الناحية ما يقول مثله إذ ذاك، ولما يذوقوا مرارة الاحتلال، ويروا بأعينهم ما يقوله لهم الناصحون الصارخون بالنصائح».(236)

د - **الإجازة العلمية** : تعتبر الإجازات العلمية تتويجا لمرحلة دراسية حافلة بالجد في التحصيل لدى تلاميذ الإلغية، إلا أن القليل منهم يتعالي إلى طلبها، وبالإضافة إلى الإجازات المنظومة،(237) كتب أساتذة المدرسة إجازات نثرية لطلبتهم، ويبدو أن اختيار هذا الأسلوب أو ذاك يرجع إلى اهتمامات الطالب ومقدرته الأدبية. فإن كان مجيدا في الشعر كان الرد عليه شعرا، أما إذا كان غيرذلك اكتفي بالنثر، وقد تتم المزاوجة بينهما.(238) ولاتكاد الإجازة المنثورة تخالف المنظومة في كيفية صياغتها، إلاّ أن المجال في الأولى أوسع لغياب قيد النظم وزنا وقافية.

وقد وقفت على إجازتين نثرية أجاز بهما علي بن عبد الله الإلغي تلميذيه الحاج مسعود الوفقاوي، ومحمد بن الحاج الحسين بوكرع العبلاوي، ومن خلال دراستهما تبين أنهما تدوران حول فكرتين أساسيتين :

أولا : ذكر أهمية الإجازة واسم المستجيز، قال أبو الحسن الإلغي في إجازة الوفقاوي: «...فإن الإجازة في طرق العلم وإسناده، والإنتظام بالرواية في سلك من أرشدهم الله لإصداره وإيراده، قوم أيدهم الله لدى مناضلة الملحدين بنصرته، وشوقهم لإملاء أدلة الدين والتحلي بنصرته، مما سنّه الأقدمون وأكدوا عليه، ويزكو به علم الرجل، وما من الاستنباطات لديه، ولذلك وبسببه استجازني علامة عصره... الحاج مسعود بن أحمد بن إبراهيم الوفقاوي...».(239)

234) عبد الله الغذامي ـ الخطيئة والتكفير، ص : 8.
235) محمد خطابي، لسانيات النص، ص : 312.
236) المعسول 11/ 331.
237) انظر غرض الإخوانيات في الشعر فيما يلي من هذا الفصل.
238) انظر مثلا إجازة الحاج مسعود الوفقاوي، المعسول 3/ 61-62.
239) المصدر نفسه.

ثم قال في إجازة العبلاوي، معتبرا أنه من «... الذين هجروا في تنقيح العلوم لذيذ المنام، وشهي الطعام، وتركوا أوطانهم، وفارقوا إخوانهم وقطانهم، وكان ممن سلك هذا المسلك، رغبة في الانتظام في سلك العلماء، واعتناء باقتناء ما تتميز به النجباء والحكماء، الأخ في الله ... سيدي محمد بن الحاج الحسين من بني بوكرع، فإنه صاحب وأحسن الصحبة، ونصب في اكتساب العلم، فجعله للعين نصبة..».(240)

ثانيا : التصريح بالإجازة مع ذكر شروطها. إذ يجيز الأستاذ تلميذه مع ذكر الشروط التي اتفق العلماء قبله على ربط الإجازة بها، كتحديد موادها، وإلزام المستجيز بتحري الحق، وإعلان جهل ما خفي عنه أوشك في أمره، وملازمة الأخلاق السليمة كالتقوى والقناعة، قال الإلغي في الإجازة الأولى «... أجزنا أخانا المذكور بما أخذته عن أشياخي الذين فضلهم أشهر من أن يذكر، وقدرهم يعرف ولا ينكر، من جميع مقروآتي ومسموعاتي قراءة أو إملاء، وأخذا أو إذنا، إجازة مطلقة عامة غير مقيدة في جميع فنون العلم... وذلك على الشرط المحرر، والأمر المقرر، من كلمة لا أدري فيما لا يعلمه المسؤول، فإنها للعالم جنة متى أخطأها أصابته جُنة...».(241) وقال أيضا في إجازته الثانية : «... أجزته بما تجوز لي روايته، وتحقق لي درايته، من معقول ومنقول، ومالي من التقارير والنقول، مما أخذته عن أشياخ أعلام، وأفاضل عظام، على الشرط المقرر، والركن المحرر، من كلمة لا أدري في كل ما كان الشك إلى حقيقته يسري، فإنها لذي العلم جُنة، ومن لم يتترس بها أصابته جنة، وأوصيه بالتقوى فإنها السبب الأقوى، وأن ينزه العلم عن أدناس الأطماع فالزهد في الَدنيا لكل خير جماع...».(242)

ولعل الأستاذ الإلغي بقوله هذا يخلي نفسه من أية مسؤولية في تزكية تلميذه المجاز، إذ أن تحديد الإجازة بشروطها يبقى صاحبها مسؤولا عن احترامها، والعلم أمانة لا يجب التفريط فيها بتمكينها ممن لا يستحقها، وينفقها في اقتناص أغراضه وأهوائه.(243)

---

240) المعسول 10/ 214.
241) المعسول 3/ 62.
242) المصدر السابق.
243) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.

المبحث الثاني : الخصائص الفنية

يبنى النص النثري - كما الشعري - على عنصرين أساسيين هما البناء الهيكلي المرتكز على الأجزاء المكونة له، ثم الصورة الفنية المؤسسة على الصياغة اللغوية تصويرا وإيقاعا، وتبعا لذلك يدرس الجانب الفني للنصوص النثري انطلاقا من الهيكل ثم الصورة الفنية :

أ - الهيكل :

ونقصد به بناء النص النثري على أجزاء محددة، هي المقدمة فالغرض ثم الخاتمة، وقد احترمت أغلب النصوص التي بين أيدينا، لتلاميذ الإلغية، هذا البناء سواء الرسائل أو الإجازات أو الوصايا أو المنشورات.

* **المقدمة** : تفنن أدباؤنا في افتتاح منشوراتهم بها، وجعلوها عنوانا لأغراضهم فيها، وحاولوا الملاءمة بينها وبين الغرض محاولين استرعاء انتباه المتلقي والاستحواذ على رضاه توطئة للانتقال به إلى الغرض(244) وذلك من جهتين :

أولا : من جهة الطول أو القصر : فنجد صدر الرسالة على الخصوص موافقا لغرضها في ذلك، فإذا كانت الرسالة طويلة طال الصدر، وإن كانت قصيرة اختصر إلى جملة أو جملتين،(245) غير أن هذه المواءمة ليست مطردة إذ نجد بعض المقدمات تطول حتى تطغى علي النص، كما في رسالتين متبادلتين بين أحمد بن الحاج اليزيدي وعبد الرحمان البوزكارني، حيث جعلا مقدمتي رسالتيهما مجالا للتعبير عن عواطفها الإخوانية، ثم ذكرا، غرض الرسالة في بضعة أسطر، وهكذا صارت المقدمة ثلاثة أرباع النص.(246) ويغلب هذا النمط على الرسائل التي ليست لها وظيفة نفعية من حيث غرضها وإقناعية حجاجية من حيث أسلوبها، أي لا تحمل أفكارا أو أخبارا وإنما هي تأملات وعواطف جياشة تصاغ، وأساليب جميلة منمقة يغلب عليها التوازن الصوتي بهدف التنبيه وإثارة الانفعال.(247)

ثانيا : من جهة مراعاة مضمون النص. فتتكون المقدمة مشعرة به مشيرة إليه،(248) كقول المجاهد أحمد الجبلي في صدر منشوره السياسي الأول مشيرا إلى مضمونه : «معشر إخواننا الأغبياء من المسلمين، الذين لعبت بهم يد الهمجية وصيرتهم طحين الطامعين، وطعمة للمجرمين، أزاح الله الران عن قلوبكم .. وألهمكم رشدكم، وسدد رأيكم،

244) جي فانسان ـ نظرية الأنواع، ص : 398.
245) انظر رسالة لعلي بن عبد الله الإلغي إلى عبد العزيز الأدوزي بالمعسول 5/ 78.
246) انظر المعسول 9/ 184.
247) أحمد أبو زيد ـ التناسب البياني في القرآن، ص : 234.
248) انظر د. حسين نصار ـ نشأة الكتابة الفنية، ص : 75.

ورزقكم الشعور والاحساس، وأنقذكم من وهدة العدم والإفلاس...»(249) وقد أشار في هذا التقديم إلى المحاور التي يطرق إليها في الغرض، كتخلف مخاطبيه وغلبة الجهل عليهم ثم تربص الاستعمار بهم، وسعى أديبنا إلى توعيتهم وإخراجهم مما هم فيه.

ومنها أيضا رسائل التهنئة قول الطاهر الإفراني مهنئا تلميذه عبد الله بن محمد الإلغي بأحد أولاده مشيرا إلى الغرض «...الأخ الذي جلى في محل السيادة وأتى من معجزات الفضل بما خرق العادة، وتكفل له رائد السعد بالبشرى والزيادة...».(250)

ويفتتح أدباؤنا مقدماتهم بحمد الله والصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) والسلام على المخاطب والدعاء له مع ذكر اسمه، وتنتهي بالإشارة إلى الدخول في الموضوع الأساسي باستعمال لفظ : بعد، أما بعد أو اسم الإشارة، هذا،... أو غيرهما مما يدل على الانتقال من موضوع لآخر لفظا أو معنى.

الخاتمة : وهي الإشعار بنهاية النص النثري بعد أداء الغرض المقصود، ويغلب عليها القصر؛ ويتم الانتقال من الغرض إليها بدون إشعارلفظي إلا قليلا، وإنما هو انتقال معنوي، يحس معه القارئ بانتهاء الموضوع الأساسي، وتضم الخاتمة غالبا التحية المختصرة بالسلام، وذكر اسم كاتب النص، وكذلك تاريخ التحرير والدعاء، مع مواءمته للغرض، كما عند المدني بن علي الإلغي آخر رسالة شكر وجهها للقائد عبد الله بن عياد الجراري،(251) وكقول الحسن بن علي الإلغي اخر وصيته داعيا لأبنائه بالصلاح انسجاما مع الموضوع الذي تمحور حول النصح بالتزام أركان الدين :«... من أبيكم العطوف على جميعكم، المريد لكم سعادة الدارين، الكاره لكم شقوة الدارين، الصالحي الحسن أصلح الله جميع أمورنا وأحوالنا، وحسّنها في الدارين آمين...»(252) وقول أحمد بن الحاج اليزيدي في رسالة مقتصرا على السلام في الختام «... وسلام عليه يزري بالمسك الأجم، ورحماته ما شاء أن يترحم، أواسط شعبان 1341هـ»(253) ونتيجة للاحتكاك بالأدب العصري نجد بعض الأدباء يختمون رسائلهم بعبارات غير مألوفة لدى المحافظين على القديم، كقول محمد الكثيري في خاتمة رسالته إلى رواد النادي الثقافي بتافراوت :« وفي الختام أتقدم إلى حضراتكم بخالص التشكرات وأسمى المتمنيات...»(254) وعبارته هذه من المحدثات،

249) المعسول 11/ 332.
250) المعسول 2/ 188.
251) انظرها في الفصل الثالث من الباب الأول.
252) أوراق عبد الله بن الحسن الصالحي الإلغي.
253) المعسول 9/ 188.
254) أوراق الكثيري.

ومما ألف الكتاب المعاصرون استعماله في مراسلاتهم؛(255) ويظهر أن الغرض من الدعاء والسلام إلى جانب اعتبارهما من التقاليد الأدبية في الرسائل والمكاتبات هو تركيز التأثير العاطفي في عبارات الدعاء التي توحي بعمق الصلة بين المرسل والمتلقي.(256)

ب - **البنية الفنية** : استغل أدباؤنا في تعبيرهم النثري كما في الشعري إمكانات اللغة الفنية ومعطيات الألفاظ الصوتية لتحقيق النغم الموسيقي، ولإبراز جمالية التعبير، وإعطاء المعاني زخما فنيا عميقا؛ وقد تجلى ذلك في استثمار وسيلتين بلاغيتين : بيانية وبديعية.

أولا : الوسائل البيانية : وهي المعتمدة لتشكيل الصورة انطلاقا من التشبيه والكناية والمجاز والاستعارة... وغيرها، بواسطتها يحاول الناثر إضفاء صبغة فنية على إبداعه، فيخرج به من مرتبة الخطاب العادي المباشر إلى درجة التخييل والإيحاء. ولعل أول ملاحظة تستحق التسجيل في النصوص النثرية لأدبائنا، قلة التشبيهات مقارنة بالاستعارة، على عكس ما في الشعر؛(157) ومن المعلوم أن التشبيه «يفيد الغيرية ولا يفيد العينية ويوقع الائتلاف بين المختلفات، ولا يوقع الإتحاد. وهذا هو أهم ما يميزه عن الاستعارة التي تتعدى على جوانب الواقع، وتلغي الحدود العملية بين الأشياء، على نحو لا يستطيعه التشبيه...(158)، وعلى هذا فقلة التشبيهات في منثورات أدبائنا راجع إلى غلبة طابع الرسائل عليها، أي أنها خطابية كتبت في مخاطبة متلق واحد أو أكثر ، رغبة في التأثير فيه وإحداث أثر معين في نفسه؛ فجل اعتمادها على المبالغة والتهويل، والتشبيه قاصر في أداء هذه المعاني، خاصة إذا كان بين شيئين مختلفتين كل الاختلاف، كقول محمد بن خالد الرسموكي واصفا أبياتا له بأنها «...كحبل غليظ في عقد، يظن عاقده أنه عقد در على حسناء لم يطرقها فحل ...(259) وقول الطاهر الافراني في تقريظ مؤلف : «...جامع لشتات الفوائد ... ببيان كأنه وشيء الحبر، وأدب كما رف النسيم المبلول...»(260) فالحبل الغليظ المعقود، في المثال الأول، مقابل عقد در الحسناء العذراء، والبيان والأدب في مقابل الوشي والنسيم، فكل شيء في حدوده محتفظ بطبيعته فلا تداخل وإنما مقارنة وتقابل(261) لهذا اعتمد أدباؤنا أكثر علي الاستعارة وجعلوها عنصرا بنائيا في رسائلهم، فتمكنوا بفضلها من تصوير مشاعرهم وأحاسيسهم والتعبير عن أفكارهم بوضوح. ويمكننا أن نفصّل في التعبير بواسطة الاستعارة بين نوعين:

255) انظر أحمد الشايب ـ الأسلوب، ص : 115.
256) جي فانسان ـ نظرية الأنواع الأدبية، ص : 409.
257) انظر القسم الخاص بالشعر من هذا الفصل.
258) جابر عصفور ـ الصورة الفنية...، ص : 176.
259) المعسول 11/ 217.
260) المعسول 9/ 144.
261) الطريسي أحمد أعراب ـ التصور المنهجي ومستويات الإدراك ص : 12.

الأول : الاستعارة المسترسلة وذلك لأنها تتجاوز إطار الجملة لتصير استعارة مبالغة أو سخرية، وبفضل ذلك تصبح أكثر إيحاء(262) وتعبيرا، ومن نماذجها ما جاء في منشور الجبلي الأول لما تحدث عن تربص الدول بفرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية فقال : «فإن فرنسا التي تخشون بأسها قد انتقلت من الذكورية إلى أن صارت فتاة عمومية، وكل دولة تحاول الاختصاص بها، فعدوتها ألمانيا بما لديها مما اشتهرت به من أوصاف اليهودية تريد المساحقة بها عند اشتداد شبق السيطرة بها، وأمريكا تريد الاستمتاع بها تحت مالها عليها من الديون ووفرة دنانيرها وإيطاليا تريد نوشها، إرضاء لمن نقضت عهده من حلفائها، وروسيا تسعى في إتلافها جزاء ما دسته لها من الدسائس إذ ورطتها في تلك الثورة العارمة وفقدت بذلك مالها ورجالها، وهلمّ باقي الدول الضعيفة على هذا النسق.(263)

لقد عمد أديبنا الجبلي إلى التشخيص، أي إضفاء الطبيعة الانسانية علي عناصر معنوية، فألمانيا وأمريكا وإيطاليا وروسيا كلها كائنات إنسانية من الجنس الانثوي وفرنسا كانت من الجنس الذكري، وهذا يحيلنا على حالة القوة والبأس، قبل أن تتحول إلى الجنس الآخر أي حالة الضعف والتي شجعت الأخريات على التحفز للنيل منها. وفي جانب آخر يصور لنا الكاتب الصراع الناشئ بين هذه الدول على شكل نزاع جنسي مكانه الفراش، وموضوعه محاولة كل من هذه الكائنات الفوز بمضاجعة الضحية فرنسا، إنها صورة فنية بليغة تذكرنا بالرسم الكاريكاتوري باعتمادها على السخرية اللاذعة، كما تمنح قوة إقناعية لما تحمل من أفكار، بالإتكاء على تشخيص المعنويات وتجسيدها في كيان إنساني،(264) فليست الدول بحكوماتها ومؤسساتها وجيوشها التي تتصارع وإنما هي هذه النماذج المسكونة بحب السيطرة والامتلاك.

الثاني : الصور الجزئية التي نجدها منبثة في منشورات أدبائنا لتأكيد فكرة معينة أو تكثيف إحساس ما، ومنها ما نجده مكررا مرات عديدة مستغلاّ للتعبير عن عدة معان كاستعارة معاطاة الكؤوس تارة لإظهار عمق المحبة، كقول البوزكارني في رسالة «... السيد الذي عاطيناه أكؤس الإخاء صافية...»(265) وتارة للتعبير عن الإعجاب بأدب صديق، كقول أحمد اليزيدي : «... وسقى من خمر كلامه كؤوس البلاغة مروقة»(266) وتارة للتودد، كقول محمد بن الحاج الإفراني : «...كتب إليك بذلك أخوك خاطبا لعقائل

262) هنريش بليث ـ البلاغة والأسلوبية، ص : 45.
263) المعسول 11/ 333.
264) فايز الداية ـ جماليات الأسلوب، ص : 126.
265) المعسول 11/ 109.
266) المعسول 9/ 184.

ودادك، وجالبا لكؤوس المؤانسة على فؤادك ...(267) وكما نرى فالقصد من هذه الصور المبالغة والتهويل، وهي سمات النصوص الخطابية التي تستهدف التأثير في المتلقي وبهره، لتثبيت المعنى في ذهنه بقوة.(268)

ثانيا : الوسائل البديعية : درج كثير من البلاغيين على عدّ البديع وسيلة زخرفية أي حلية خارجية تجلب لتجميل النصوص ويمكن الاستغناء عنها غير أن بعضهم عدها وسائل إبداعية(269) تبرز جماليتها حسب سياق النص حينما يحسن الكاتب استغلالها في التعبير لتكون عنصرا أساسيا من عناصر البناء.

ولن نسعى هنا إلى تتبع كل الوسائل البديعية التي وظفها أدباءالمدرسة الإلغية، بل سنقتصر على بعضها، التي يبرز من خلالها تعاملهم مع البديع، وهي السجع والتضمين.

* **السجع** : هو الأسلوب العالي للترسل لديهم، فلا تخلو منشوراتهم منه مهما قل شأنها، إذ عدّوه منتهى ما يستطيع الناثر الوصول إليه من أساليب البيان، وهو من النثر بمنزلة القافية،(270) وهم في ذلك مقلدون للقدماء الذين جعلوه من الأصول التي يبني عليها الكلام، لكونه قوام الكلام المنثور ولعلو رتبته،(271) حتى قال السّجلماسي واصفا النثر العاري عن السجع :«...الألفاظ مضرسة، والأجزاء مجمعة، أواخرها غير مسجوعة، ومقاطعها غير مختتمة بحروف واحدة أو متضارعة، فذلك خارج عن البلاغة فمن تكلم على هذا المهيع، وسلك هذا المنهج فليلحق بجنسه من العوام...».(272)

ولا غرابة في هذا الموقف طالما كان السجع بإيقاعه المتميز يشكل سلسلة الوصل بين قطبي العمل الأدبي : القطب الفني المتصل بالنص الذي أبدعه المؤلف من حيث تكثيفه للانفعال، والقطب الجمالي المرتبط بإنجاز القارئ من حيث الجمالية الموسيقية وأثرها في ترسيخ الدلالات وخلق المتعة.(273) إن أهمية السجع تكمن في ما يوفره من رتين نغمي ينطلق من توافق الفواصل وازدواجها للتأثير في النفس عند تلاوة الكلام المسجوع. ويتأتى هذا التوافق من التواطؤ على حرف واحد في نهاية كل فاصلة وعلى التناسب في الطول والقصر، وكلما «قلّت ا لألفاظ كان أحسن، لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع، وهذا الضرب أوعر السجع مذهبا وأبعده متناولا ... لأن المعنى إذا صيغ بألفاظ قصيرة عزّ

---

267) المعسول 10/ 14.
268) كمال أبو ديب ـ جدلية الخفاء والتجلي، ص : 37.
269) انظر ابن الأثير ـ المثل السائر، 1/ 142.
270) انظر خلال جزولة 2/ 95.
271) انظر القلقشندي ـ صبح الأعشى... 2/ 279-292.
272) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص : 508.
273) Wolfgang Iser-L'Acte de lecture, théorie de L'effet esthetique p : 48.

مواتاة السجع فيه، لقصر تلك الألفاظ، وضيق المحال في استجلابه، وأما الطويل فإن الألفاظ تطول فيه ويستجلب له السجع من حيث وليس...».(274)

وإذا نظرنا إلى سجع أدبائنا من هذه الزاوية وجدنا أغلبه من جنس الطويل الفواصل الممزوج أحيانا بفواصل قصيرة بلا انتظام، إلا أن بعض بلغائهم المتمكنين يأتونه كالطاهر الإفراني لما قال: «... بدر هالة المفاخر، ودرة تاج العصر المتأخر، زينة الأيام والليالي، وواسطة قلادة المعالي، بركة الدنيا والدين، وخلف ذلك السلف المهتدين، إلى آخر النسب المتسق والغصن المنبسق، دام عزه، وحفظ حرزه، واتصل فوزه...».(275)

نلاحظ في هذا النموذج نجاح الكاتب في تسخير إيقاع الكلمات بالمناسبة بين أواخر السجعات من الناحية الصوتية وكذلك خلق الانسجام بينهما من ناحية الميزان الصرفي،(276) مما جعلها، باعتبارها صورا ذهنية سمعية، منبهات هامة في «إثارة الانفعال المناسب في نفس المتلقي، وهي بالإضافة إلى دلالتها المعنوية الخاصة بكل لفظة، ذات دلالة إيحائية تشيع في النفس مناخا تخييليّا خاصا يتمشى وحركة النفس، وذبذبتها الشعورية، وينسجم مع إيقاعات موسيقاها الداخلية وأنغامها.(277)

أما الطويل السهل التناول فقد أفاضوا فيه وأجادوا، وإن قصر فيه بعض من كان يتكلف السجعات، ويحشر في آواخر الفواصل من الكلمات ما سنح، سعيا وراء التناسب الصوتي، بل إنه ربما ساق فاصلة بكاملها لأجل ذلك ومن نماذجه قول محمد بن الحسين بوكرع أول رسالة: «زبرقان الدياجر. ومن هو عندي محبة كغزال حاجز. إن القلب قد بلغ الحناجر، ولعنة الله على الفاجر، فلان الذي ملاقاته عندي ماء صدى، ومرعى السعدان، لو سمح لي بذلك السعدان، وناصرني بإسلامهما في ذلك السعدان،(278) ولكن بنو عبد المدان لا يناصرون من في ودان..»،(279) ففي هذه النموذج نطلع على تجشم الكاتب المشاق لتحقيق السجع ولو على حساب المعنى، بإقحام جمل لا معنى لها كقوله «لعنة الله على الفاجر» فقد زج بها بعد فاصلة تنتهي بالجيم للمحافظة على التناسب الصوتي فقط، وفي ذلك تكلف واضح وركاكة معنى، وقس على ذلك سجعاته التالية بما فيها من اقتناص

---

274) ابن الأثير ـ المثل السائر 1/ 240 - 241.
275) المعسول 18/ 391.
276) دفين ستيوارت، السجع في القرآن بنيته وقواعده، مجلة فصول مجلد 13 عدد 3 خريف 1996 ص: 29.
277) أحمد أبو زيد - التناسب البياني في القرآن، ص: 334.
278) يقصد بالسعدان الأول نباتا ترعاه الإبل وبالثاني نجمين في الفلك وبالثالث سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، انظر المعسول 10/ 218.
279) المصدر نفسه.

الجناس والتقاط الغريب. وفي هذه النمط تفقد الفواصل قيمتها من حيث إحداثها الانسجام بين عناصر الخطاب، بتوفير الإيقاع عبر توافق الأصوات وتقابلها، ثم تناسقها مع تسلسل المعاني،(280) وتتحول إلى إيقاع ناشز مفارق للدلالة، لا يعدو كونه محاولة لستر ضعف الخيال وسقم الفكرة.

ولا يجب أن نغفل في حديثنا عن السجع وانتشاره بين تلاميذ المدرسة، اختفاءه من كتابات المتأخرين منهم، الذين احتكوا بالأدب العربي الحديث وتأثروا به، فطرحوا الأساليب القديمة وعلى رأسها السجع، وراحوا يكتبون نثرا مرسلا، وإن كانوا قلة وهم امَحمد الكثيري وأحمد بن عمر رزقي ومحمد بن أحمد العتيق الإلغي، وقد مرت بنا نماذج من نثرهم.(281)

* **التضمين** : هو وسيلة بديعية معنوية، ونقصد به اقتباس النصوص الأدبية نثرية أو شعرية وتوظيفها عند الكتابة، وقد قصره كثير من البلاغيين على الآيات القرآنية وأقوال الرسول ﷺ (282) إلا أنه شمل عند آخرين الأمثال والأشعار.(283) ويمكن اعتبار التضمين مظهرا من مظاهر ثقافة المبدعين، ومجالا لاستثمار المحفوظات الأدبية واستغلالها في التعبير، وإضفاء الجمالية والإيحاء على المعاني، انطلاقا من كونه تناصا في شكله الأكثر بساطة وأدبية.(284) وقد شغف تلاميذ الإلغية بنمط خاص منه وهو اقتباس الأشعار المستحسنة فنجدهم يضمنون البيت أو البيتين أو الشطر بين كل فقرة نثرية وأخرى، وقد يكتفون بتضمين كلمة أو كلمتين منها لثقتهم في معرفة المخاطب لها مما يضفي على هذه الإشارة بلاغة في المعنى وجمالية «لأنها تكسر رتابة السرد، وتحلق بالسامع إلى أفق الشعر...».(285)

فمن أمثلة تضمين بعض كلمات الأبيات اكتفاء، قول محمد بن الحاج الإفراني في رسالة إلى أستاذه أحمد الجشتيمي : «وأسلم على الأولاد الأفذاذ ومن له بذلك المعقل الملاذ، طالبا لنفسي قسطي من الدعاء، فمن تخلف عن الحج بعذر، فكأنه لبى وطاف وسعى»(286) وفي هذا إشارة إلى قول ابن العريف : (البسيط)

280) جون كوهن – بنية اللغة الشعرية، ص : 86.
281) انظر رسالة الكثيري إلى أعضاء نادي تافروات ووصية الحسن بن علي لأبنائه في المبحث الأول.
282) انظر ابن الأثير المثل السائر 2/ 342، النابلسي ـ نفحات الأزهار، ص : 239.
283) عبد الفتاح كيليطو – الأدب والغرابة، ص : 76.
284) Gérard Genette - Palimpsestes ou la litérature au Second degré p : 8.
285) محمد الخاتمي –ـ محمد أكنسوس الأديب، ص : 240.
286) المعسول 10/ 16.

يَاراَحلِينَ إلَى الْمُـــخْـــتَـــار منْ مُــضَــر
زَرْتُمْ جُــسُـــومًـــاً وَزُرْنَا نَحْنُ أرْوَاحـــاَ
إنَّا أقَـــمْنَا عَلَى عُـــذْر وَعَنْ شُـــغُل
وَمُنْ أقَــامَ عَلَى عُــذْر كَــمَنْ رَاحَــا(287)

وقول عبد الله بن محمد الإلغي في أمر الهيبة : «... وكان هذا المتشوف لهذا الأمر الذي انبعث إليه اليوم، ممن باء بإشارة الأصابع إليه بأنه عمر بين القوم».(288) مشيرا إلى قول الشاعر :

إذَا أيْقَظَتْكَ حُرُوبُ الْعدَا فَنَبِّهْ لَهَا عُمَراً ثُمَّ نَمْ(289)

أما تضمين أشطر الأبيات فنمثل لَه ببعض ما جاء في رسالة للبوزكارني، إذ قال : «... وقد قرصتني في الأُخريين بأبر عتاب، إن لم ألق بالا للجواب، ظانا بي الظنون «لأمور تكون أولا تكون»،(290) وليست تلك الظنون من جانبكم لائقة «أعيدها نظرات منك صادقة.»(291) وقد ضمنها الكاتب شطرين شعريين الأول من بيت : (الخفيف)

سَـــهِـــرَتْ عُـــيُـــونٌ وَنَامَتْ عَـــيُـــونٌ
لأُمُــــــــــــورُ تَكُــونُ أوْ لاَ تَكُــونُ(292)

أما الثاني فمن بيت المتنبي في سيف الدولة : (البسيط)

أُعِـــيــــذُهَا نَظَرَات منْكَ صَـــادقَـــةً
أنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ(293)

ونلاحظ هنا سعي البوزكارني إلى التوفيق بين الأشطر المضمنة وما قبلها من عبارات نثرية، باذلا الجهد في البحث في الذاكرة عن الأشعار المناسبة ليمنح النص قيمة تنميقية وجمالية،(294) وقد يتم تضمين الأشطر بدون ابتغاء التناسق الجمالي بل رغبة في الاختصار، كما نجد لدى أحمد بن زكرياء السكال في رسالته إلى شيخه المدني بن علي الإلغي قال فيها : «ثم إنه قدم علينا الخامل فأتحفنا بخبركم وسلامتكم، وَنَحيَا بذَاكِرَاكُمْ إذَا

287) انظر وفيات الأعيان 1/ 151.
288) المعسول 2/ 175.
289) هذه البيت لبشار بن برد في عمرو بن العلاء انظر زهر الآداب للحصري 2/ 350.
290) يقصد رسالتين تسلمهما من مخاطبه.
291) المعسول 10/ 140.
292) انظر المصدر نفسه، هامش : 5.
293) انظر شرح ديوان أبي الطيب لأبي البقاء العكري 3/ 366.
294) عبد الفتاح كيليطو - الأدب والغرابة، ص : 77.

لَمْ نَرَاكُمْ ... البيت»(295) يُحَرِّكُنَا ذكْرُ الأحَاديث عَنْكُمُ»،(296) وإِذَا كَانَ الْقَطْعُ وَالْوَصْلُ لِلَّه»... البيت(297) وأطلب منك سيدي أن تَدعو لي بالخير فإني محتاج إلى أدعيتك الصَالحة...».(298)

أما تضمين الأبيات كاملة فلا تكاد تخلو منه منثورات أدبائنا خاصة الرسائل، إذ يتخيرون منها ما ناسب المقام، بل إن بعض هذه خاصة الرسائل، إذ يتخيرون منها ما ناسب المقام، بل إن بعض هذه الرسائل حفلت بالتضمينات حتى عادت هي الغالبة، وأضحى النثر وسيلة للربط بينها لا غير، وبذلك صار العمل الأدبي مشكلا من خلال نصوص أخرى، وليس انطلاقا من نظرة المؤلف،(299) كقول علي بن عبد الله الإلغي : «... وقد بدا من مربي نعمتنا فلان ما يستغربه كل حاضر وباد، ولا يرضى به أدنى الأوغاد، بله أفضل العباد و«العرق دساس» :

- وأَسْرَعُ مَفْعُول فَعَلْتَ تَغَيُّراً
تَكَلُّفُ شَيْء في طِبَاعِكَ ضِدُّهُ(300)

- مَنْ يَسْمَعُ الْجَفْوَةَ منْ خِلٍّ وَلَمْ
يَغْضَبْ لَهَا فَإِنَّهُ كَمَنْ جَفَا

- مَتَى تُسْدِ مَعْرُوفاً إِلَى غَيْرِ أهْله
رَجَعْتَ وَلَمْ تَظْفَرْ بِحَمْدٍ وَلاَ شُكْرِ(301)

وقال حازم أيضا : (الكامل)

مَن صاحَبَ الإنْسَانَ في الْعُسْرِ كَمَا
صَاحَبَهُ في يُسْرِهِ فَقَدْ وَفَى

---

295) تمامه : أَلاَ إِنَّ تذْكَارَ الأَحبَّة يُنْعشُنَا، ص : 77.

296) تمامه : وَلَوْلاَ هَوَاكُمْ فِي الْحَشَا مَا تحَرَّكْنَا، والبيتان كلاهما لأبي مدين الصوفي المشهور، انظر : الفوائد الجليلة البهية على الشمائل المحمدية لمحمد جسوس مطبعة بولاق 1296هـ ص : 10.

297) تمامه : تَسَاوَى التَّقْرِيبُ وَالإِقْصَاءُ، انظر الهمزية للبوصيري، ص : 22.

298) أوراق محمد بن الحسين الصَالحي.

299) GREIMAS, et COURTES. Intertextualité, in Sémiotique : dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p : 194.

300) البيت لأبي الطيب المتنبي، انظر شرح ديوان المتنبي لأبي البقاء العكبري 2/ 19.

301) انظر الشريف الغرناطي - رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة 2/ 56.

وَمَنْ يُفَــــارِقْـــهُ إذَا مَــــا يُسْــــرُهُ
فَـــارَقَـــهُ فَــمَـــا وَفَى وَلاَ رَعَى(302)

وخير ما أتمثل به فيما وقع من التباعد بيني وبينك، وأوجب على الرغم مني بينك، قول حازم:

يَازَمَناً جَـــفَـــا الْمُنَى منْ بَعْـــدمَـــا
قَـــدْ كَـــانَ وَالَى البِـــرَّ منْهُ وَاحْـــتَـــفَى
قَـــدْ بَلَغَ الْحِـــزَامُ طُبْـــيَـــيْـــه وَقَـــدْ
أفْـــرَطَ حَـــتَّى بَلَغَ السَّـــيْلُ الزُّبَى
أنَأيْـتَ يَادَهْـرُ الْمُنَى منْ بَـعْـــدمَـــا
أدْنَيْـــتَـــهَـــا فَـــمَـــا عَـــدَا مِـــمَّـــا بَدَا
يَـــا هَـــلْ إنِّـــي أبْــلُـــغَ الْــحَـــظَّ الَّـــذي
كَمْ قُلْتُ في تَأمِـــيلِه : يَا هَلْ أنَى؟(303)

والسلام عليكم ورحمة الله»(304)

هذه أنماط التضمين التي استغلها أدباء الإلغية مقلدين في ذلك مقامات بديع الزمان التي كانت تختلط فيها الأشعار بالنثر المسجوع في تناسق عجيب «... جميل وبدل فوق جماله على معرفة الكاتب بأسرار الشعر البليغ»(305) ويندرج اهتمامهم بالتضمين في التعبير بالصورة لتجسيد الأفكار والمشاعر، وخلع الصيغة الجمالية على الإبداعات لتعميق التجربة ومنحها شحنة تأثيرية إثارية، حتى يتجاوب معها المتلقى ويتفاعل مع تناسبها النغمي وتواليها الموسيقي الذي يقربها من الشعر.

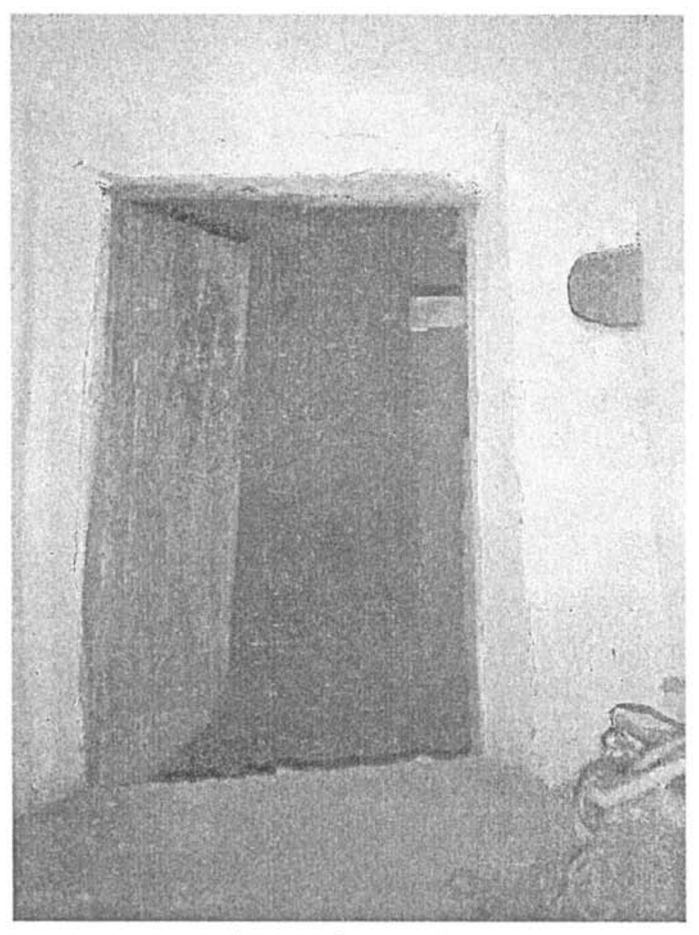
ثانيا – الشعر :

الشعر ميدان اهتمام الالغيين، ومنتهى إبداعهم، لم يفتأوا يتداولونه في محافلهم العامة، ومجالسهم الخاصة، وبه يتخاطبون حتى في أقل شؤونهم، وهو الوسيلة المفضلة عندهم للتعبير عن مشاعر الامتنان والفرح، والحزن، والإعجاب، والحب، ولا يقبلون النثر ممن كان في مقدوره النظم، بل يلومونه على تركه.(306)

302) رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة 12 .
303) نفسه، ص : 45 و 47.
304) المعسول 1/ 360 و 2/ 230.
305) زكي مبارك – النثر الفني... 1/ 107.
306) انظر الإلغيات : 1/ 67.

وقد ظل تلاميذه المدرسة يلهجون بالقريض حتى بعد تخرجهم وانغمارهم في مشاغل الحياة، لهذا ستتضمن الدراسة إبداعات هؤلاء الشعراء في كلا المرحلتين، لأن الاقتصار على دراسة ما صدر عنهم في فترة التلمذة أمر غير ممكن، بسبب قلته، ثم انحصاره في المحاولات الأولية، ولهذا فإن دراسة أشعار تلاميذ الالغية في كل أطوار حياتهم لا يعدّ إخلالا بمنهج البحث، إذ إن المدرسة كانت تربّي في طلبتها الاهتمام بالأدب فظل ملازما لهم دائما.

وحتى نقف على مميزات أشعار تلاميذ الالغية، سندرسها انطلاقا من أغراضها، ثم أشكالها ثم مميزاتها الفنية إيقاعا وصورة.



صورة مجلس عبد الرحمان البوركاني

المبحث الأول ـ الأغراض الشعرية :

تنوعت الأغراض التي تناولها أدباء المدرسة، وتعددت. وإن كانت تطغى عليها الأغراض التقليدية، التي تأثروا فيها بقراءاتهم في كتب الآداب. وتميزت بطغيان الاخوانيات والمدح والرثاء ... غير أن هناك أغراضا أخرى نجدها عند بعض الأدباء الذين تأثروا بالأدب الحديث مشرقيه ومغربيه. فظهر لديهم الشعر الوطني أو النضالي، والفخر، والغزل المتأثر بسمات العصر، وإن ظلت تغلب عليها فنية القديم، ولا غرابة في ذلك، فالانكباب على الأدب القديم في مظانه الغزيرة، والعزلة عن الواقع الخارجي، منع هؤلاء الأدباء من الاحتكاك بعناصر التجديد التي تشربها الأدب المغربي في مرحلة مبكرة من هذا القرن، وإن أردنا التوضيح أكثر، فلابد أن نقسم أدباء الإلغية إلى ثلاثة أقسام :

– أدباء تقليديين : درسوا الأدب القديم وأبدعوا على منواله بوصفه المثل الأعلى، مثل الطاهر الافراني الذي لم يكن منعزلا عن الجو الأدبي العام للمغرب، حيث زار الحواضر واتصل بأدبائها ووجد لديهم ما لديه من احتذاء للقديم.(307)

* أدباء تقليديين منعتهم العزلة والقناعة بما لديهم، من التأثر بالجديد، ومنهم غالب الطلبة الذين أخذوا عن الأستاذ علي بن عبد الله الإلغي وأبنائه من بعده، والذين لم يكونوا يتذوقون الشعر الحديث ولا يستسيغونه، ولا أدل على ذلك من ذكر العلامة المختار السوسي تطور الأدب للأديب أحمد بن الحاج محمد اليزيدي، حيث أنشد له قصائد لكبار شعراء العرب كشوقي وحافظ ومطران والرصافي ... فقال : «وكأنه لم يتذوق مغزى ما يقولون : دعونا وأدبنا وندعكم وما تختارون...»(308) ثم علق السوسي بقوله : «...فعلمت أنه محق لأن شيخنا مثله شبّ إلى أن شابت سود ذوائبه في ذوق أدبي له لون خاص، أفيتحول عنه بسهولة؟.(309)

* أدباء تأثروا بالاتجاه التجديدي في الشعر، خاصة حركة البعث والإحياء تأثيرا متفاوتا. وفي مقدمتهم الشاعر القاضي امحمد الكثيري، ثم كل من أحمد بن زكرياء السكال ومحمد العتيق السليماني...

وهكذا نجد أهم الأغراض التي تطرق إليها شعراء المدرسة منحصرة فيما يلي : المدح، والهجاء، والغزل، والرثاء، والفخر، والشعر الوطني، والإخوانيات وليس معنى« هذا أنهم اقتصروا على هذه الأغراض بل أنهم تناولوا أخرى كوصف الطبيعة ومظاهر العمران والتوسل والاستغاثة والحكمة... إلا أنها قليلة الورود حسبما وقفت عليه من مصادر،

---

307) سنتعرض لهذه الزيارات في الفصل الثالث من بابنا هذا.
308) المعسول 9/ 198.
309) نفسه.

لذلك انصرفت عن ذكرها، كما أنه من نافلة القول الإشارة إلى تداخل الأغراض واشتمال القصيدة الواحدة على أكثر من غرض.

أ - المدح :

وهو من أكثر الأغراض تداولا عند شعرائنا، وقد نتج عن علاقتهم الاجتماعية، يمدحون إعجابا بخصال الممدوح مدحا فيه صدق، أو طمعا في نيل عطائه، أو قضاء غرض من قبله؛ والمدح، كما قال الرافعي، يخاطب «...فطرة الإنسان فيه، فإن الناس متفاضلون في القوة على الأعمال، وهم كذلك متفاضلون في حسهم لهذه القوة، فالواثق بنفسه الذاهب بها مذاهب الغناء والاعتداد يجد في طبعه حركة واهتزاز متى حققت له أعماله تلك الثقة، ولم يكذب وهمه في الاعتداد باطلا، فذلك الاهتزاز هو إحساس الكبرياء الكامنة فيه، وهو الذي يُقصد تصويره ... بالمديح».(310)

وقد تناول شعراء الإلغية بالمدح مختلف الشرائح الاجتماعية البارزة إما بالعلم أو بالسلطة والنفوذ وهي الرؤساء والقواد ثم العلماء ثم السلطان أو الأمير، كما خصوا الرسول ﷺ بمدائح وافرة وحتى نقف على السمات الموضوعية للمدح عند شعرائنا، سنستعرض نماذج من أشعارهم، مع السعي إلى اكتشاف شبكة الموضوعات التي تنتظم تجربتهم في هذا الغرض من خلال قصائدهم المدحية، أي البحث عن الوحدة الموضوعية التي تجمع مجموع أعمال شعراء المدرسة في هذا الغرض؛ إننا نسعى لاكتشاف بنية الغرض وتكوين لشبكة «أشبه ما تكون بالشجرة التي يمثل الموضوع الرئيسي جذعها، وتحتل الموضوعات الفرعية غصونها، وقد يتولد عن هذه الغصون فروع أصغر ...»(311) فجذع الشجرة عندنا هنا هو قصيدة المدح، أما أغصانها فهي موضوعات المدح والشخصيات التي وجه إليها، والتي تتفرع عنها فروع أصغر هي تلك الصفات التي وصفت بها.

إن هذا المنظور يدفعنا إلى عدّ النص الأدبي كلا يجب تفكيكه لأجل سبر كوامنه، في سبيل بنائه من جديد «وهي عملية مزدوجة الحركة، حيث نبدأ من الكل داخلين إلى جزئياته لتفكيكها واحدة واحدة، لنعين تركيبها مرة أخرى كي نصل إلى كل عضوي حي لها، ولكنه يختلف عن الكل الأولي من حيث إن للأخير فعالية نتجت عن القراءة ...للنص».(312) فالغرض من التفكيك اكتشاف وسائل إعادة البناء، التي هي النوى الأساسية للنص،

---

310) مصطفى صادق الرافعي ـ تاريخ آداب العرب 3/ 90.
311) حميد لحمداني ـ سحر الموضوع، ص : 93.
312) عبد الله الغذامي ـ الخطيئة والتكفير، ص : 86.

وليست هنا سوى الفروع الصغرى للشجرة، أي الصفات التي أسبغتها القصيدة على الممدوح، انطلاقا من كونها تتنوع حسب مكانة المخاطب ووضعيته الاجتماعية أو الثقافية أو السياسية.

1 - مدح الرؤساء والقواد :

يعدّ القواد المعينون من قبل السلطان، عند خضوع سوس للسلطة المخزنية، ورؤساء القبائل وعرفاؤها إبان انحصار ظل هذه السلطة، الحكامَ المسيطرين، بيدهم الحل والعقد، والتصرف بلا رقيب ولا حسيب، فكانوا مهوى أفئدة الناس، يقصدونهم لقضاء الأغراض. وكان بعض شعرائنا من هؤلاء يمدحونهم رغبة في العطاء، واستعانة بوجاهتهم وسلطتهم لقضاء مآربهم ثم اعترافا بالجميل وشكرا إن قضيت، سيرا على سنة رد الإحسان بالإحسان، وليس إحسان الأديب إلا رفع عقيرته بالإشادة بمن أكرمه وأحسن إليه، دون أن يلقي بالا بعد ذلك إلى ما يجابه ممدوحه غيره من الناس به، من بطش وظلم وجور. وإلى هذا أشار العلامة المختار لما ساق بعض أمداح الأدباء في القائد الغشوم سعيد ين أحمد الكَيلولي،(313) ومنهم الطاهر الإفراني وشيخه علي بن عبد الله الالغي، بقوله : «...ثم إن هناك قوافي ... في جناب هذا القائد نسوقها ترويجا للأدب، لا لموافقتنا لمدح مثل هذا الإنسان ونحن نعذر هؤلاء إن قالوا في مثله لأن للحاجات أبوابا قد تكون قوافي الأدباء أحد مفاتيحها».(314)

وهكذا تعرض محمد بن الحاج الإفراني لمدح القائد محمد بن إبراهيم التيِيِّوْتي، والرئيس الحسن التييوتي، والقائد الكنتافي وغيرهم. ومدح الطاهر الإفراني القائد المخزني أنفلوس الحاحي، والقائد أحمد الكابّا والباشا الشنكَيطي ... ومدح محمد بن أحمد العتيق الإلغي القائد محمد النكَنافي الحاحي ... وقد تناولوا في مدح هؤلاء عدة معان، تدور حول أخلاقهم وإطراء شمائلهم ووصف أعمالهم وإنجازاتهم وتمجيدها، مما جعل قصائدهم لا تخرج عن النوى الوصفية الأساسية التالية :

* **الكرم والجود** : تفنن الشعراء في وصف ممدوحيهم بهاتين الصفتين وبكل ما يتصل بهما من أوصاف أخرى، ولا غرابة في ذلك مادام الهدف الأول من النظم هو الرغبة في العطاء؛ فالممدوح عند محمد بن الحاج الإفراني بحر جود لا يخيب وارده، وذلك في قوله:(315) (الطويل)

---

313) انظر ترجمته بالمعسول 15/ 205.
314) المصدر نفسه، ص : 218 وانظر أيضا اليزيد الراضي ـ شعر داود الرسموكي ص : 142.
315) المعسول 10/ 21.

وَمَنْ يَنْتَحِ الْبَحْرَ الْخِضَمَّ فَحَاشَ أَنْ
يَؤُوبَ بلاَ وِرْد وَفِي وَجْهِهِ الْبَحْرُ

وهو أيضا أجود من شدت إليه المطايا، تهمى سحب كرمه على زائره : (البسيط)

رَئِيسُ تِيُّوتَ إِبْرَاهِيمُ أَجْوَدُ مَنْ
شُدَّتْ إِلَيْهِ رِحَالُ الأَيْنُقِ الذُّلُلِ
فَهُوَ الذِي تَنْثَنِي سُحْبُ عَوَارِفِهِ
عَلَى مَعَارِفِهِ بِالْوَابِلِ الْهَطِلِ
وَيَنْتَحِي بِضُرُوبٍ مِنْ فَوَاضِلِهِ
نَحْوَ الأَفَاضِلِ لاَ بِالْحُلْيِ وَالْحُلَلِ(316)

ويذهب الشاعر بعيدا، فيعلن أن أكف الممدوحين ما خلقت إلا للعطاء والبدل، فلا يعرف البخل إليها سبيلا، وهذا رأي محمد بن أحمد العتيق : (البسيط)

أَكْرِمْ بِذَا الْقَوْمِ لَمْ تُخْلَقْ أَكُفُّهُمُ
إِلاَّ لإِنْعَاشِ مُحْتَاجٍ وَمَنْكُود(317)

ولا يقتصر الكرم على المال وما في معناه، بل يتجاوزه إلى الإكرام بالأدب إفادة وإنشادا وإنشاء، قال العتيق : (البسيط)

مَا شِئْتَ مِنْ كَرَمٍ، مَا شِئْتَ مِنْ أَدَبٍ
تَلْقَاهُ مِنْهُمْ بِلاَ مَنٍّ وَتَنْكِيد(318)

ولاشك أن المدح بالكرم والجود ماهو إلا حث على الاتصاف بهما، والالتفات إلى الشاعر لقضاء حاجاته، ويستغل لهذا الغرض الفرص والمناسبات ليشير إلى حاجته مكنيا ثم مصرحا إن تمادى أصحابه في عمايتهم، كقول ابن الحاج الإفراني : (الطويل)

لِكُلٍّ مَلاَذٌ إِنْ يَحُمْ حَوْلَهُ عُسْرُ
وَأَنْتَ مَلاَذِي، مَنْ بِهِ يُفْتَحُ السِّرُّ
نَحَيْتُكَ مِنْ أَهْلِي لِتَقْضِيَ حَاجَةً
سِوَاكَ لَهَا يَا ابْنَ الْمَكَارِمِ يَزْوَرُّ(319)

---

316) المعسول 10 / 21 .
317) ديوان العتيق، ص : 65.
318) نفسه.
319) المعسول 10/ 23.

* الشجاعة وشدة الشكيمة : صفة تتجلى عند مقارعة الأعداء، نوه بها الشعراء، وقد كان ممدوحهم من الذين يخوضون غمار المعارك لبسط السلطة على القبائل، وقمع فتن الخارجة منها عن الطاعة، وقد حاولوا تصوير الشجاعة وتجلياتها، كالإيقاع بالأعداء وحصد رقابهم بالسيوف، قال الطاهر الإفراني في سعيد الكَيلولي :(الطويل)

إذَا اشْتَعَلَتْ يَوْماً تَقَحَّمَهَا وَلاَ
يُعَرِّدُ فِيمَنْ كَانَ عَنْهَا مُعَرِّداً

بَصِيرٌ بِسَدِّ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ كُلَّمَا
رَأى بَطَلاً أهْدَى لَهُ تُحْفَةَ الرَّدَى

يَخُوضُ غِمَارَ الْمَوْتِ فَوْقَ مُطَهَّمٍ
كَمَا انْقَضَّ نَجْمُ الرَّجْمِ في أثَرِ الْعِدَا(320)

ويصور محمد بن الحاج القائد الكَنتافي وهو يخوض الغَمَار فاتكا بالأعداء، فريدا في صولته عليهم، وقد كان يكفي الجيش أمرهم لشجاعته وبسالته، قال : (المتقارب)

بَغَوْا وَعَثَوْا وَعَتَوْا فَانْتَحَى
إلَيهِمْ شُجَاعٌ يَقُدُّ الْحَدِيدَا

فَزَعْزَعَ أسْرَابَ طَيْرِهِمُ الْـ
ـبُغَاةَ غَدَاةَ انْتَحَاهُمْ مُرِيدَا

فَقَدْ كَانَ يَكْفِي سَرَابَهُمُ
شَتَاتاً وَإنْ كَانَ فَذاً فَرِيدَا(321)

* ويرفع العتيق الإلغي ممدوحه على أهل بلده شجاعة، ولا يقللَ من شأنه، مادام هؤلاء جميعا معروفين بالشجاعة والأقدام في كل سوس فهم :(البسيط)

أبْنَاءُ عَدٍّ أُبَاةُ الضَّيْمِ منْ قِدَمٍ
شُجْعَانُ حَاحَةَ أهْلُ الْفَضْلِ وَالْجُودِ(322)

* **الجمع بين الندى والبأس** : صفة يحرص الشعراء على وصف ممدوحيهم بها، فهم يكرمون من يستحق الكرم ويبطشون بمن يستحق البطش. قال الطاهر الافراني : (الكامل)

320) المعسول 15/ 219.
321) المعسول 10/ 22.
322) ديوان العتيق، ص : 65.

فَـالْمُـعْـتَـدِي قَـدْ خَـافَ حَـدَّ حُـسَـامِـه

وَرَأى الْمُــحِـبُّ نَدَى يَدَيْه فَــجَـاءَ

بِالسَّــيْبِ أوْ بِالسَّــيْف عَـوْدُ كَـفِّـه

فَـسَـمَـا بِذَلِكَ عَلَى السِّـمَـاكَ عَـلاَءَ

لُطْفٌ وَعُـنْفٌ فِي مَـحَلٍّ وَاحِـد

كَـالرِّيحِ إعْـصَـاراً تُرَى وَرُخَـاءَ

فَـإِذَا هَمَى مِنْ مُـزْنِ رَاحَـتِـه النَّدَا

أَرْوَى عُـفَـاةَ الْمُكْرَمَـاتِ سَـخَـاءَ

وَإِذَا سَطَا يَوْمَ الْكَرِيهَـة سَـيْـفُـهُ

أَفْنَى كُـمَـاةَ الْمُـعْـتَـدِينَ بَلاَءَ(323)

وقال محمد بن الحاج الإفراني : (الطويل)

بِرَبِّ الـنَّدَى وَالْبَـاس يَلْقَـاكَ بِرُّهُ

بَعِـيداً كَـمَـا يَلْقَى الْعُـدَاةَ بِأُخْـدُود(324)

ويستمر الشعراء في تعداد الأوصاف وكيل المديح للرؤساء حتى يقربوهم إلى الكمال، بل إنهم يعلنون بملء أفواههم أنهم فعلا جمعوا كل الخصال الحميدة والصفات المثلى، قال الطاهر الإفراني : (الكامل)

وَشَـمَـائِلٍ كَـالرَّوْضِ صَـافَـحَـهُ النَّدَا

سَـحَـراً فَنَمَّ عَلَى النَّسِـيم ذُكَـاءَ

إنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَـحَـاسِنَ وَالنَّدَى

جُـمِـعَتْ إلَيْـه وعِـفَّـةً وَحَـيَـاءَ(325)

وقال أيضا : (الطويل)

جَـرَى فِي مَـيَـادِينِ الْكَمَـال مُـبَـرِّزاً

إلَى أنْ حَوَى فِي سَبْقِـه قَصَبَ الْمَدَا(326)

---

323) المعسول 15/ 220.
324) المعسول 10/ 22.
325) المصدر السابق،
326) نفسه، ص : 219.

أما وصف أفعال الممدوحين ومآثرهم، فقد أسهب فيه شعراد الإلغية، وتتبعوا بالتسجيل كل ما يرفع قدرهم إلى مصاف العظام، ومنها :

* **حماية الدين وقهر الكفر** : وذلك ناتج عن نيابة هؤلاء عن السلطان، خاصة الرؤساء المخزنيين، لأنه هو حامي الملة والبلاد، وكل من قام ضده فقد قام لإفساد الدين، وقد قام هؤلاء القواد بإخماد كثير من ثروات القبائل اعتمادا على هذا المبدأ كالقائد سعيد بن أحمد الكَيلولي الذي بطش بقبيلة إيصبويا بعدما تلقت العون من الأروبيين، فقال الطاهر الافراني فيه : (الطويل)

تَبَـــــيَّـنَ نُورُ الْحَـقِّ وَاتَّضَـحَ الْهُـــــدَى
وَأَصْـــبَحَ رُكْن الـدِّين رُكْناً مُــشَـيَّـــداً(327)

وقال علي بن عبد الله بنفس المناسبة : (الطويل)

لَكَ الْبُــشْـــرَى وَالْبُــشْـــرَى بفَــتْح به عَنَتْ
وُجُــوهُ الْعُــتَــاة الْعُــمْي لِلْحَقِّ عَنْ قَــهْــرِ
به جَــبَّــرَ الرَّحْــمَـــانُ للدِّين صَــدْعَــهُ
فَــأَصْبَحَ بَعْــدَ الْعُــسْـرِ وَالضِّيقِ في يُسْـرِ
وَقَــرَّتْ عُــيُـــونُ الْمُـــومنينَ به كَــمَــا
به قَـــذَيَتْ عَـــيْنُ الضَّـــلاَلَة وَالْكُفْــــرِ
أقَــمْتَ قِــوَامَ الـدِّينِ بَعْـــدَ اعْـوجَــاجــه
وَأَمَّنْتَ سَــــرْبَهُ الْمُـــــروَّعَ مِنْ ذُعْــــرِ
وَجَـــــدَّدْتَ مِنْ أرْكَـــــانه كُلَّ مَـــا وَهَى
فَـعَــادَتْ بِحَـمْـد اللّه عَـاليَـةَ الْقَــدْر(328)

* **الشهرة وسريان الذكر** : نتج عن الأعمال العظيمة التي قام بها هؤلاء الرؤساء، والمتجلية في كبح جماح الأعداء البغاة، وإقامة الدين واستتباب الأمن، شهرة أصحابها وسريان ذكرهم بين الناس، قال العتيق الالغي : (البسيط)

مَـــازَالَ صِـــيــتُكُمُ يَسْـــري عَلَى مَـــهَلِ
فَطَبَّقَ الْخَلْقَ مِنْ بِيضٍ وَمِنْ سُـــودِ(329)

---

327) المعسول، ص : 219.
328) المعسول 15/ 224.
329) ديوان العتيق، ص : 65.

وقال الطاهر الافراني : (الطويل)

فَــأنْتَ الَّذِي عَمَّ الْمَــغَــارِبَ صِــيــتُــهُ
وَطَبَّقَ مَــا بَيْنَ السَّــوَادِ إِلَى مِــصْــرِ(330)

وقال ابن الحاج : (البسيط)

السَّــيِّــدُ السَّنَدُ الْمَــوْلَى مُــحَــمَّــدُ ابْـ
ـنُ مَنْ سَــرَى ذِكْــرُهُ فِي النَّاسِ كَــالْمَــثَلِ(331)

هذه هي بعض المعاني والأوصاف التي اتكأ عليها شعراؤنا في مدح الرؤساء والقواد، وهي في مجموعها متداولة، حاولوا إعادة صياغتها بطريقتهم الخاصة.

2 - مدح السلطان أو الأمير :

تطرق شعراء الإلغية لمدح السلاطين والأمراء، بوصفهم السلطة العليا في البلاد والمحافظ على كيانها، وإذا أجلنا النظر فيما بين أيدينا من قصائد لهؤلاء الشعراء، نجدهم مدحوا كلا من السلطان عبد الحفيظ ومحمد بن يوسف والحسن الثاني. كما مدحوا الأمير الهيبة والثائرين محمد بن الحسن التوزونيني، وخليفته محمد بن بلقاسم النكادي.(332)
وقد قلّت مدائح شعرائنا في السلاطين لأسباب عدة، أهمها : بعد سوس وعزلته، فلم تكن تتاح فرصة اللقاء إلا عند زيارة السلطان للمنطقة ثم احتجابه عن الناس إبان السنوات الأولى للحماية التي سعت إلى أحكام سيطرتها على البلاد، وما صاحب هذه المرحلة من قيام عدة ثروات تزعمها مجاهدون للدفاع عن الوطن، فعمت القلاقل حتّى ظن كثير من الناس أنه لم يعد للبلاد ملك ولا سلطان.(233)

وقد تفنن الشعراء في أمداحهم، وأجهدوا أنفسهم في الإتيان بما يناسب المقام من أمداح، وقد جعلوا نصب أعينهم النموذج الشعري القديم،(334) الذي ينص أن «مدح الخلفاء... يكون بأفضل ما يتفرع من ... الفضائل وأجلها وأكملها، كنصرة الدين، وإفاضة العدل، وحسن السيرة والسياسة والعلم، والتقى، والورع، والرأفة، والرحمة، والكرم، والهيبة، وما أشبه ذلك، وينبغي أن يتخطى في أوصافهم، من جميع ذلك حدود الاقتصاد

330) المعسول 15/ 220.
331) المعسول 10/ 21.
332) انظر ترجمته في المعسول 16/ 236.
333) انظر اليزيد الراضي ـ شعر داود الرسموكي، ص : 144.
334) عمر محمد الطالب ـ مناهج الدراسات الأدبية الحديثة. ص : 109 - 110.

إلى حدود الإفراط، وأن يترقى عن وصفهم بفعال ما يكون حقا واجبا إلى تفريظهم بما يكون من ذلك نافلة وفضلا...».(235) وانطلاقا من ذلك ركز الشعراء على :

* **كرم الأصل وعتق النسب :**

نوه الشعراء بتفرد الممدوحين بكرم الأصل وعتق النسب العربي، لكونه ميزة لا يشاركون فيها؛ قال الطاهر بن علي الإلغي في السلطان محمد بن يوسف : (الطويل)

سَلِيلُ مُلُوكٍ كَـالْبُـحُـور وكَـالبُـدُور
فِي الْجُـود وَالإرْشَـاد فِي كُلِّ مَـقْـصِـد
وَوَارِث آبَـاءِ مُـلُـوكٍ غَـطَـارِفَ
هُدَاة عظَام سَـيِّـدٌ إثْرَ سَـيِّـد(336)

وقال الطاهر الإفراني مشيدا بالشيخ الهيبة وأصله العربي: (الطويل)

سَلِيلُ الْكِرَامِ الصِّـيْـد أقْطَاب دَارَة الْـ
مَكَارم مَنْ رَاقُـوا وَأَوْجَ الْعُـلاَ رَقُـوا....
أهِلَّةُ أفْـلاَكِ الْحَـقَـائِق مَنْ هُمُ
إذَا سُـوبِقُـوا في حَلْبَـةِ الْمَـجْـدِ سُـبَّقُ
هُمُ الْعَـرَبُ الْغُـرُّ الْمَـيَـامين إنْ دُعُـوا
أجَـابُوا وَإنْ هُمُـو بِأمْـرٍ تَحَـقَّـقُـوا(337)

* **رجاحة العقل :**

وهي صفة لازمة للسلطان، بصفته راعي البلاد والمشرف على تسيير أمورها، لذلك أبرزها الشعراء في أمداحهم؛ قال مَحمد الكثيري في السلطان ابن يوسف : (الطويل)

مَلَكْتَ قُلُوبَ الْعَـالَمِينَ بِفِكْرَة
تُبِـيـدُ ظَلاَمَ الْجَـهْلِ وَالْجُـور وَالْكُفْـرِ
وَسُـدْتَ بِمَـا أُوتِيتَ مَنْ حكْمَـة وَمَنْ
رَزَانَةَ جَـأشٍ فِي الشَّـدَائد وَالْعُـسْـرِ

335) حازم القرطاجني ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص : 170.
336) المعسول 2/ 208.
337) المعسول 4/ 110.

نُصِــــرْتَ بِفِكْرٍ بِالثَّــــبَـــاتِ مُــــسَلَّحٍ
وَبِالْعَـزْمِ وَالإِقْـدَامِ وَالْبِيضِ وَالسُّـمْـرِ(338)

وقال الطاهر الافراني منوها بهذه الخصلة فيه مع صغر سنه، وذلك بعيد توليه الملك : (الطويل)

لَهُ فِي سِنِي عِــــشْــــرِيهِ رَأْيٌ مُــــحَنَّكٌ
يَظُنُّ فَــــلاَ يُخْطِي وَيَأْسُــــو وَيُوسِفُ
جَــلاَلَةُ إِسْــمَــاعِــيلَ فِي رُشْــدِ هَاشِمٍ
وَحُكْمُ سُلَيْــمَــانَ بِعَــدْلٍ يُصَــرَّفُ
أَجَــــارَ عَلَى عِــــلاَتِهِ الْمُلْكَ لَمْ يَزَلْ
يُحَــارِبُ أَوْ يَخْــتَــالُ أَوْ يَتَــأَلَّفُ(339)

* **إقامة الدين** : يعدّ السلطان مقيم الدين والمدافع عنه وعن رعاية مراسيمه وإحياء شعائره، خاصة لما واجهها مكر المحتلين الكفار، قال محمد بن عبد الله أوبلوش البعمراني مشيرا إلى نصرة السلطان محمد بن يوسف للدين بعد أن كان ذليلا حقيرا : (البسيط)

اَللَّهُ أَكْــــبَــــرُ إِنَّ الدِّينَ بَعْـــدَكَ يَا
خَــيْــرَ الأَنَامِ عَــرَاهُ الذُّلُّ وَالْخَــوَرُ
لَكِنَّهُ قَــــدْ أَقَــالَ اللَّهُ عَــثْــرَتَهُ
بِسَــيْفِ فِكْرِكَ وَهْوَ الصَّــارِمُ الذَّكَــرُ(340)

أما محمد العتيق فيصف دعوة الملك الحسن الثاني إلي الصلاح بالدين لا بغيره من الكذب والزور، بقوله : (الخفيف)

تُــصْــلِــحُ الــدِّيــنَ وَالــدُّنَــا بِــعُــلُــومٍ
حُــزْتَ مِنْهَــا بَيْنَ الْمُلُوكِ الْكَثِــيــرَا
فَــــدَعَــــوْتُمْ إِلَى الصَّـــلاَحِ بِدِينٍ
عَــــالِمَــــا أَنَّهُ يُنِيــــرُ الصُّــــدُورَا

---

338) كناش الكثيري، ص : 55.
339) المعسول 7/ 169.
340) المعسول 10/ 237.

عَـــالِمـــاً أنَّ مَـــا يَرُوجُ جِـــهَـــاراً

ضِـــدَّ ذَا الدِّينِ كَـــانَ إفْكاً وَزُوراً(341)

* **الدفاع عن حوزة الوطن**: عاشَ شعراؤنا في حَقبة تكالب الاستعمار على وطنهم، وكانوا في أمداحهم يستشعرون خطره مشيرين إلى ضرورة مقاومته، غير مكتفين بكيل الأمداح والضرب على وتر الغرور، بل كانوا يبينون لممدوحهم ما يرونه خافيا عليهم، من ذلك إشارة الطاهر الإفراني في مدحه للشيخ الهيبة إلى ضرورة الإعداد الجيد للجيوش، وعدم الاعتماد في جني النصر على الأماني والدعاية الخرافية، حيث قال: (الطويل)

فَـــخَلِّ مَـــقُـــولاَتِ الْمَـــلاَحِمِ جَـــانِبـــاً

وَسُلَّ ظُبَاتِ السَّيْفِ فَالسَّيْفُ أصْدَقُ(342)

وَقَـــاتِلْ عَـــدُوَّ اللَّهِ فَـــاللَّهُ نَاصِـــرٌ

وَحَـــاب بِمَـــال اللَّهِ فَـــاللَّهِ يَرْزُقُ

وَسِـــرْ ظَافِـــراً بِالنَّصْـــرِ سَـــيْفُكَ حَيْثُمَـــا

تَوَجَّـــهْتَ وَالْحِـــفْظُ الإلَهِيُّ مُـــحْـــدِقُ

ويسترسل شعراؤنا في المدح حتى يشعروا بأنهم لن يتمكنوا من الإحاطة بأوصاف السلاطين، فيختمون قصائدهم بالاعتذار عن التقصير، قال محمد بن عبد الله أبلوش في محمد بن يوسف، مضمنا بيتين لأبي نواس، لعلها تكون القول الجامع لكل ما أراد التعبير عنه: (البسيط)

أقُـــولُ لَمَّـــا رَأيْتُ الْعَيَّ عَـــاجَلَنِي

مَـــقَـــالَةَ الْحكَمِيِّ خَـــيْـــرِ مَنْ شَـــعَـــرُوا

مُطَهَّـــرُونَ نَقِـــيَّـــاتٌ جُـــيُـــوبُهُمُ

تَجْـــرِي الصَّـــلاَةُ عَلَيْـــهِمْ أيْنَمَـــا ذُكِـــرُوا

مَنْ لَـمْ يَكُـنْ عَـلَوِيّـا حِينَ تَنْسُـــبُـــهُ

فَـمَـا لَهُ مِنْ قَـدِيمِ الدَّهْرِ مُـفْـتَـخَـرُ(343)

أما الطاهر الافراني فيعتذر عن قصور مديحه، بكون مدح السلطان صادقا وطبعا في نفسه، ومدح غيره ليس غير تكلف وصنعة: (الطويل)

341) ديوان العتيق، ص: 26.
342) المعسول 4/ 111.
343) المعسول 10/ 238.

مَـــديحُكُمُ صِـــدْقٌ وَطَبْعُ سَـــجِـــيَّـــةٍ
وَمَــــــدْحُ ســــــوَاكُـمْ مِــــرْيَةٌ أوْ تَـكَلُّفُ

فَـــعَطْفــاً أمِــيـــرَ الْمُـــؤمنينَ فَـــإنَّهُ لـي
أوَاصِـــــــــرَ وُدٍّ نَـقْـــــــــدُهَـا لاَ يُـزَيَّـفُ

وَعُـــــذْراً فَــــإنَّ الْفِكْرَ غَـــيَّضَ مَــــاءَهُ
نضـــوَائبُ مَـــا تَنْفَكُّ بالحُـــرِّ تُجْـــحِفُ

فَـــإنْ كَـــانَ قَـــوْلِي فِي الْمَـــديح مُـقَـــتِّـــراً
فَـــإنَّ فُــؤَادي فِي الْمَـحَـبَّـةِ مُـسْـرِفُ(344)

3 - **مدح العلماء والفقهاء :**

مدح أدباء الالغية هذه الفئة من الناس، انطلاقا من علاقتهم بهم. فهم الذين أخرجوهم من دنيا الجهل إلى نور العلم، فكان مديحهم جملة أوصاف تعدّ خلاصة ما يتصف به العالم المثالي في سوس، وهي :

* **كمال الخلق** : يتجلى الأستاذ في أمداح تلاميذه، والعالم في أشعار محبيه، إنسانا كاملا قد جمع في شخصه كل الأوصاف الحميدة، لا تشوبه شائبة ولا يشينه عيب، يفتخر به مادحه؛ قال محمد بن خالد الرّسموكي في علي بن الحبيب السكَراتي : (الكامل)

فَـــخْـــرِي أبُو الْحَـــسَنِ الإمَـــامُ مَن ارْتَدَى
بِرداَء كُلِّ كَـــــرَامَــــةٍ يُعْنَى بِهَـــــا(345)

ولا يستطيع المادح تعداد هذه الأوصاف لعجزه، إذ لا يُحيط بهَا إحصاء؛ قال الطاهر الافراني في شيخه علي بن عبد الله الالغي : (البسيط)

مَنَاقِبُ ثَقَـــبَّتْ قَلْبَ الْحَـــسُـــود إلَى
مَكَارِمَ لَمْ يُحَطْ بِهِنَّ إحْـــصَـــاءُ(346)

وإذا رام الإحصاء والعدّ، لا يلبث الإعياء أن يلَحَقه وإن كان فصيحا بليغا، قال البوزكارني في شيخه الإلغي أيضا : (الكامل)

344) المعسول 7/ 170.
345) المعسول 11/ 218.
346) المعسول 7/ 114.

أعَــيْتَ مَنَاقِــبُكَ الْبَلِيغَ فَــمَــا عَــسَى

يُجْــدِي وَإِنْ أَطْرَتْ عُــقُــودُ نظَامي(347)

ولا يملك الشاعر إلا أن يسبح بحمد من أولى ممدوحه هذه الخصال كقول محمد بن علي الالغي في الطاهر الافراني : (الكامل)

سُــبْــحَــانَ مَنْ أَوْلاَهُ خُلُقــاً كَــامِــلاً

وَمَــوَاهِبــاً مَــرْفُــوعَــةَ الأَقْــدَار(348)

* **عراقة الأصل** : مدح شعراؤنا العلماءَ بعظمة الآباء، فمن كان آباؤه عظاما لا غرو أن يسير على هداهم، وأن يضيف إلى مجدهم التليد بما ورث من نبوغهم، قال ابن الحاج الإفراني في شيخه أبي الحسن الإلغي : (الطويل)

وَرِثْتَ رِهَانَ السَّبْقِ عَنْ خَــيْــرِ مَــحْــتَــد

بِفَــرْضٍ وَتَعْــصِــيبٍ فَــإِرْثُكَ أَوْثَقُ

عَــرِيقُ الْعُــلاَ جَمُّ السِّــيَــادَةِ ذِكْــرُهُ

لِنَظْمِي طِرَازٌ مِنْ سَنَاهُ مُــونِقُ(349)

وكما ورث عن اباته العلماء فقد ورث عنهم الأدب، فكلهم أديب ابن أديب كمحمد بن الطاهر الإفراني الذي قال فيه تلميذه محمد بن الحاج أحمد اليزيدي : (الكامل)

أَوِ التَّــقِــي وَجْــهُ الأديب ابْنُ الأديــ

ــب ابْنُ الأديب ابْنُ الأديب مُــحَــمَّــد(350)

ولا غرابة في ذلك كله، إذ الأبناء على هديَ الآباء، والفَرعَ إلى أصله ينسب، كما قال عبد الرحمان البوزكارني في شيخه الإلغي : (الكامل)

لاَ غَــرْوَ أَنْ حَــازُوا الْمَقَــامَــاتِ الَّتِي

ظَهَــرُوا عَلَيْــهَــا رَاسِــخِي الأَقْــدَامِ

إِنَّ الأُصُــولَ إِذَا زَكَتْ فَــفُــرُوعُــهَــا

تَزْكُــو، كَــذَاكَ الشِّبْلُ كَــالضِّــرْغَــامِ(351)

---

347) المعسول 10/ 108.
348) المعسول 2/ 196.
349) المعسول 10/ 19.
350) المعسول 9/ 241.
351) المصدر السابق : 108.

* **الانفراد بعلو المنزلة** : ولهذا المعنى ما يسوّغه لدى شعرائنا، فالممدوح أفضل العلماء، فاق أقرانه في بلده وحتى في غيرها من الأقطار والأزمان؛ فإذا ذكر علمه فاق الجاحظ وابن مامة والخليل، وإذا قيست فصاحته أزرى بابن ساعدة، وإن وزن شعره بذّ المتنبي وأبا تمام، أو نثره فما البديع الهمداني أو النّظام؟ إن شعراءنا يعمدون هنا إلى استعراض أسماء العلماء والأدباء الأعلام، وتفضيل ممدوحيهم عليهم، وإقحام أسماء الأعلام هنا ليس اعتباطيا، وإنما القصد منه تكثيف الإيحاء، فهذه الأسماء «تحمل تداعيات معقدة تربطها بقصص تاريخية أو أسطورية، وتشير قليلا أو كثيرا إلى أبطال ...[ينتمون] إلى ثقافات متباعدة في الزمان والمكان».(352)

فاستحضار أسماء الأعلام عند شعرائنا إحالة شعرية إلى كتب التراجم التي تحفل بأدلة النبوغ والعبقرية، واستثارة للذاكرة الجماعية للمتلقين المطلعين عليها.(353) إن حضور اسم الجاحظ مثلا يحيل مباشرة إلى نبوغه الفائق رغم فقرة الشديد في صغره، ودمامة وجهه، قال محمد بن الحاج أحمد اليزيدي في محمد بن الطاهر الافراني :(الكامل)

بَذَّ ابْنَ بَحْـــرٍ وَابّنَ مَـــامَـــةَ وَابّنَ سَـــا
عِـدَهْ وَعَـمْـراً وَالْخَلِيلَ الأحْـمَـدِي(354)

وقال البوزكارني في علي بن عبد الله الإلغي : (الكامل)

فَـــاقَ ابْنَ سَـــعْـــدٍ وَابّنَ مَـــامَـــةَ وَالزَّبِـيْـ
ـدِي فِـي الـنَّـدَى وَالـعِـلْـمِ وَالأَقْـــــــدَامِ
إنْ حَـــاكَ نَظْمـــاً مُـــعْـــجَـــزاً لَمْ يَحْكِه
لاَ ابْنُ الْحُـــسَـــيْنِ وَلاَ أَبُو تَـمَـــامِ
يُنْسِـي البَـــدِيعَ بَدِيعُـــــهُ، وَبَيَـــانُهُ
يُـزْرِي عَلَـى الْحَـــــدْقِيِّ وَالـنَّظَّـام(355)

فالممدوح فاق القدماء والمحدثينَ علما وفهماً حتى افتخرت به بلادُه وباهت، قال الطاهر الافراني :(البسيط)

تَاهَتْ بِوَاحِـــدِهَا إلْغُ فَـــقُلْتُ لَهَـــا
إيه فَـقَــدْ سَلَّمَتْ مِــصْــرُ وَزَوْرَاءُ(356)

352) محمد مفتاح ـ تحليل الخطاب الشعري، ص : 65.
353) المرجع نفسه، ص : 229.
354) المعسول 9/ 241.
355) المعسول 10/ 108.
356) مترعات الكؤوس، ص : 257.

وقال ابن الحاج الإفراني في القاضي موسى الرّسموكي الروداني : (الوافر)

لِتَـبَّـأ عَلَى الْبَسَائط وَالتُّلُول
مَـعَـاًّ بَأواً يَفُـوتُ مَـدَى الْعُـقُـولِ

رُدَانَةُ سُـوسِ الْخَـضْـرَاءُ مَـا بَيْـ
ـنَ جَـارِي الْمَـاءِ وَالرِّيحِ الْعَلِيلِ

فَـمَنْ تَـاهَتْ بِـه دَلاً وَأَضْـحَـتْ
مَـعَـالمُـهَـا مُـشَـيَّـدَةَ الطُّلُول

وَمَـنْ بَاهَـتْ بِـهِ فَـاسـاً وَتَـاهَـتْ
مَـسَـالكُهَـا مُـمْـسكَةَ الذُّيُول(357)

* **التضلع في العلوم** : لعل أفضل ما يمدَح به عالم أستاذ قضى عمرَه في اكتساب العلوم ثم نشرها هو سعة علمه وعمق معارفه، وقد شبه شعراء الإلغية ممدوحيهم ترسيخا لهذا المعنى بالبحر الخضم يرده كل ظمآن، فينصرف عنه ريّانا، قال الطاهر الافراني:(البسيط)

بَحْـرٌ سَـرَى كُلُّ ظَمْـآن لسَـاحله
فَـأَصْـدَرَ الْكُلَّ مِنْ جَـدْوَاهُ رُوَّاءَ(358)

وقال البوزكارني : (الطويل)

وَلاَزِمْـهُ عَنْ صِـدْقِ الطَّوِيَّة وَاطْرَحْ
سَوَاهُ وَرَا، إِذْ لَيْسَ كَـالثَّـمَـد الْبَحْـرُ(359)

والممدوح وإن شابه البحر في العمق إلا أنه جانبه في الملوحَة، إذ إنه عذب مورده، يرحم من يلجأ إليه من الطلبة. فينيلهم ما يبغون من علوم بلا مشقة؛ قال محمد بن الحاج في أحمد اليزيدي : (الكامل)

نَدْبٌ حَكَتْ أَخْـلاَقُـهُ رِيحَ الصَّـبَـا
بَحْـرٌ غَـدَا كَـالنِّيل عَـذْبَ الْمَـوْرد(360)

فهو يسهر على تعليمهم وتبسيط ما صعب من مسائلَ العلوم العويصةَ؛ قال محمد بن خالد الرّسموكي :(الكامل)

357) المعسول 10/ 20.
358) المعسول 7/ 114.
359) المصدر السابق، ص : 103.
360) المعسول 1/ 241.

أوْ شِـــئْتَ مِنْ فَـــهْمٍ يَحُلُّ به الْعَـــوِيـ

ـصَ فَكُنْ أتَيْتَ الْبَـيْتَ مِنْ أبْوَابهَـا(361)

ولتضلع الممدوح وإحاطته بأسرار المعارف، أضحى بمرتبة الطبيب الذي يداوي المرضى من داء الجهل، لذلك يدعو محمد بن الحاج أحمد اليزيدي كل من يشتكي هذا الداء إلى الاتجاه نحو أستاذه حتى يظفر بالشفاء، بقوله :(الكامل)

يَاذَا الَّذي دَاءَ الْجَـــهَـــالَة يَشْـــتَكي

يَمِّمْ فِنَاهُ تَفُـــزْ بطبٍّ مُـــرْشِـــد(362)

ومهما أطنب الشعراء في وصف العلماء والفقهاء فإنهم كما هو حالهم عند مدح السلاطين، يشعرون بقصور أشعارهم عن بلوغ الكمال في الاحاطة بمكارم أخلاقهم، لذلك يعتذرون عن عجز قوافيهم في القيام بواجب تمجيد هؤلاء العلماء والشيوخ، من ذلك قول ابن الحاج الافراني : (الطويل)

وَمَــهْـمَـا أرَدْنَا الْمَـدْحَ فـيك فَـمَنْ لَنَا

بطَوْعِ الْقَـوَافِي بالْمَـدَائِحِ تَعْـبِقُ(363)

وقول محمد اليزيدي : (الكامل)

مَــوْلاَيَ أعَـجَـزَنِي مَـدحُكَ جَـاهِداً

وَالْعُـذْرُ حَقٌّ للْفَـتَى إنْ يُجْـهَـد(364)

بالإضافة إلى ما ذكرنا من معان رائجة في المدائح للعلماء، هناك صفات أخرى تتردد فيها كالحزم، والكرم، والعزم، والسيادة، وهي أوصاف حاول بها الشعراء التعبير عما يكنونه لمدوحيهم من محبة وتقدير.

وهكذا نلاحظ من خلال استعراض النوى الأساسية لقصيدة المدح عند شعرائنا، أنهم كانوا دائما يتجنبون رسم شخصية الممدوح بوضوح، مركزين على وصف الخُلق لا الخلقة، فهم يبدؤون من شخصية سرعان ما تتلاشى وتتجرد، بحيث تتحول إلى ما توصف به من صفات مجردة كالكرم والحزم والشجاعة؛(365) إن شعراءنا ينصرفون عن التجسيد إلى التجريد مما يجعلهم يصفون نفس الممدوح تقريبا، ويعود ذلك إلى أن الصفات المتداولة في

361) المعسول 11/ 218.
362) المعسول 9/ 241.
363) المعسول 10/ 19.
364) المصدر السابق.
365) عبده بدوي ـ ظواهر أسلوبية في شعر المتنبي ـ مجلة فصول المجلد الرابع العدد الثاني يناير ـ فبراير ـ مارس 1984، ص : 202.

قصائدهم، والمستلهمة من الشعر القديم الذي كانوا يحفظون منه الكثير، مخزنة في أذهانهم على شكل أطر منظمة، تضم معطيات جاهزة، يتم استحضارها والاستعانة بها عند الضرورة.(366) فحينما يكون الشاعر بصدد مدح السلطان يستحضر تلك النوى الأساسية التي تناسب مقامه، وهكذا تصبح المعرفة - النموذج المختزنة في الذاكرة أساس لإعادة إنتاجها هي نفسها، أو إنتاج معرفة شبيهة بها.(367) وهذا ما جعل شعراءنا يتجهون في أمداحهم دائما ليس نحو تجسيد الشخصية الممدوحة بل إلى تصوير النموذج الإنساني في محاولة الوصول به إلى حدود الكمال.(368)

4 - مدح الرسول ﷺ.

تناول شعراء الإلغية مدح الرسول ﷺ في مناسبات عدة وجعلوها فرصة لذكره ﷺ وما قام به من أعمال لأجل نشر الاسلام، وفرصة أيضا لاستخلاص العبر والمواعظ من سيرته، ومن أهمها الهجرة النبوية وعيد المولد النبوي. وقد يظن ظان أنهم عند تناول هذا الموضوع كانوا ينظمون في عزلة تامة عن واقعهم وواقع أمتهم، وهذا اعتقاد باطل، إذا إن غالب أمداح الرسول ﷺ لم تُنْظم إلا تحت تأثير ظاهر لما يشغل بال الشعراء من هموم الوطن والأمة،(369) فنجد الطاهر الافراني يلجأ إلى الله ورسوله ﷺ طالبا الفرج من محنة الاستعمار بعد أن سقطت كل محاولات المجاهدين دون المدى فيقول : (البسيط)

يَا سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللَّه حُطْ فَأَنَا
بِصِدْقِ ظَنِّي عَلَى عَلْيَاكَ مَحْمُولُ

فَقَدْ تَكَنَّفَنِي هَمٌّ بِهِ جَلَدِي
وَاهٍ، وَجِسْمِي مَعْلُولٌ وَمَهْزُولُ

فَقُلْ لِجَيْشِ الْعِدَا وَالْهَمِّ إِنْ نَزَلاَ
هَاذَاكَ جَارِي وَإِنْ جَارَ فَمَهْ، زُولُوا

وَارْدُدْ لِدِينِكَ تَأْيِيداً يَكُونُ بِهِ
لِوَجْهِهِ الْيَوْمَ تَبْيِيضٌ وَتَغْسِيلُ

---

366) محمد خطابي ـ لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص : 63.

367) محمد مفتاح ـ دور المعرفة الخلفية في الإبداع والتحليل، مجلة دراسات سيميائية أدبية ـ لسانية، عدد 6، ص : 89.

368) محيي الدين صبحي ـ الرؤيا بوصفها تعبيرا عن جدلية الإبداع والواقع، مجلة الوحدة عدد مزدوج 82/83، ص : 149.

369) انظر مصطفى بن عمر المسلوتي - شرح القصيدة الشقراطيسية دراسة وتحقيق، ص: 6.

نَصْـــــراً يَزُولُ الْفَــــرَنْســـــيسُ اللَّعِينُ بِه
عَنَّا فَـــعـــقْـــدُ اضْطِبَـــارِ النَّاسِ مَـــحْلُولُ
وَيُصْـــبِحُ الثَّـــعْلَبُ الْعَـــدَّاءُ مُنْضَـــوِيّاً
إِلَى الْوِجَـــارِ لَهُ وَخْـــدٌ وَتَغْـــسِـــيلُ(370)

كما نقف لمحمد بن أحمد العتيق على قصيدة بمناسبة الهجرة النبوية لا يكتفي فيها بسرد السيرة النبوية بل يبتغي أخذ العبرة منها كما قال في المطلع :(البسيط)

كَمْ بَانَ فِي هِجْـرَةِ الْمُـخْـتَـــارِ مِنْ عِـبَـرِ
أَمَـــا سَـمِـعْتَ إِلَى الْمَـــرْوِيِّ مِنْ أَثَرِ(371)

أما العبرة المستخلصة فهي الحل المناسب لما رأى الشاعر في مجتمعه من بعد الناس عن الدين واستخفافهم به، دون أن يعلموا مقدار تعب السابقين في نشره وتضحيتهم بكل ما أوتوا في سبيل علوه على سائر المعتقدات، يقول :

فِي هِجْـرَةِ الْمُـصْطَفَى ذِكْـرَى وَمَـــوْعِظَةٌ
وَفِـيـهَـا نُورٌ لِمُـسْـتَـهْـدٍ وَمُـعْـتَـبِـرِ
مُـــحَـــمَّـــدٌ آثَرَ الدِّينَ الْحَنِيفَ عَلَى
أَهْلٍ وَمَـــــــالٍ فَلَـمْ يَـلْـوِ إِلَـى الـزُّهُـرِ
مُـــحَـــمَّـــدٌ هَمُّـــهُ إِسْـــعَـــادُ أُمَّـــتِـــهِ
يَهْـدِي الصَّـغِـيـرَ كَـمَـا يَهْـدِي أَخَـا الْكِبَـرِ
بِالنَّفْسِ ضَـــحَّى وَبِالنَّفِـيسِ كَـيْـمَـا تُرَى
سَـــعَـــادَةُ الدُّنْيَـــا وَالأُخْـرَى بِذَا الْبَـشَـرِ
فَـــقُلْ لِمَنْ يَتَـــعَـــامَى عَنْ شَـــرِيعَـــتِـــهِ
هَلْ رَيْتَ شَمْسَ الضُّحَى تَخْفَى عَنِ النَّظَرِ(372)

إن مدح الرسول ﷺ إذن لم يكن انعزالا لشعرائنا عن واقعهم الذاتي أو الجماعي، بل استنادا إلى ركن شديد، يعتصمون به إن نزلت بهم الهموم والأخطار، إنه يمثل الملاذ الذي

370) المعسول 7/ 196.
371) ديوان العتيق، ص : 22.
372) نفسه.

يجد فيه الانسان غايته من الاتصال بالخالق الأعظم، والعقيدة المتصلة بالروح والنفس وحامل الرسالة«صلى الله عليه وسلم».(373)

فالمدح النبوي يعدّ فرارا من الحاضر الفاسد إلى الزمن النبوي الذي يستعان به لإصلاح المستقبل؛ إن المدح ليس انكفاء على الماضي واجترار الذي يستعان به لإصلاح المستقبل؛ إن المدح ليس انكفاء على الماضي واجترار لأحداثه بل هو استحضار للحظات الكمال الخالدة فيه عبر تقديمها بديلا للوضع الراهن.

ويلاحظ الناظر في أشعار تلاميذ الالغية في هذا الباب أنها تدور حول محورين اثنين :

الأول : محور الإنسان الكامل : يمدح شعراؤنا الرسول ﷺ بصفته الإنسان المثالي الذي يمثل أرقى مستوى يمكن أن يصل إليه إنسان؛ إن النبي الكريم في نظرهم - ولا يجب أن ننسى أن غالبهم، إن لم نقل كلهم قد انتظم ضمن إحدى الطرق الصوفية المنتشرة بسوس خاصة التجانية - كان ولا زال «....نبع إلهام ونداءات ارتفاع، ودعوة للاقتداء وبؤرة للتعليم .... فالرسول عليه الصلاة والسلام هو البطل الديني والقومي والعسكري، وهو المثال أو النموذج التاريخي الذي اعتصمت به الجماعة في سالف العهود، وبمقدورها أن تعتصم به في ... الحاضر. وهو المستقبل كما ينشده الوجدان...»(374) هكذا صارت شخصية الرسول الكريم ﷺ تجتذب اهتمام الشعراء، باعتباره الإنسان الكامل الدائم الاتصال بالملأ الأعلى والمنجي من الهلكات، والشفيع يوم المعاد. وقد تناول مدح الرسول ﷺ في هذا المحور المعاني التالية :

أ - **ذكر صفاته الخلقية والخُلقية** : سعيا وراء استحضار كماله، فالشاعر يحاول بواسطة اللغة الشعرية تَشكيل السيرة النبوية في لمحات إيحائية ترتفع بالأحداث إلى المرتبة الملحمية انطلاقا من :

* وصف خلقة الرسول ﷺ في أدق سماتها لتحقيق الجمال الجسماني الذي هو جزء من الكمال، قال القاضي محمد الهاشمي الأقاوي : (البسيط)

إنَّ الرَّسُولَ جَمِيلُ الْجِسْمِ مُعْتَدِلُ
لَا بِالْقَصِيرِ وَلَا بَانَ بِهِ الطُّولُ
لَكِنَّ أَطْوَلَهُمْ إنْ جَا يُطَاوِلُهُ
يَفُوتُهُ قَامَةً، لِلشَّعْرِ تَرْجِيلُ

---

373) حلمي محمد القاعود - عوامل نهضة الشعر الديني، مجلة عالم الفكر المجلد 20 عدد 2 يوليوز غشت-ـ شتنبر ـ 1989م، ص : 216.
374) محمد رجب النجار ـ بردة البوصيري، ص : 26.

وَأزْهَـرَ الـلَّـوْنِ وَاسِـعُ الْـجَـــــــبِـينِ أزَ
جٌ لِلحَـــوَاجِبِ، لِلْعَـــيْنَيْنِ مَكْحُـــولُ
وَبَادِنٌ مُـــتَــمَـــاسِكٌ وَلَيْسَ بِمُـــسْـ
ـتَــرْخٍ وَمَـــا لَحْـمُـهُ عَلَيْـهِ تَهْـبِـيلُ
وَأجْــــــرَدٌ وَجَلِيلَـةٌ كَـــــرَادِسُــــــهُ
وَخَـــافِضُ الطَّرْفِ بِالإلَـهِ مَـشْـغُـولُ(375)
كَــثَـــاءِ لِحْـيَـتَـــهُ كَـحِـيلَةٌ وَلَهُ
مَـــسْــرَبَةٌ وَلَـهَـــا مِنْ صَــدْرِه طُولُ(376)
مُــخَـــتَّمٌ خَـــاتَمَ الرَّســيلِ مُنْفَـــرِداً
بِـذَلِـكَ دِيـنُـهُ دَائِـمٌ وَمَـــــــــــــأهُـولُ
شَــــــــــذَاهُ لَـمْ يَـحْـكِـهِ وَرْدٌ وَلاَ أرَجٌ
لِلْمَـسْكِ مَـا لَهُـبُـو بِهِ أشَـاكِـيلُ...(377)
لَهُ مُــحَــيَّـــا تُحَـاكِـيـــهِ ذُكَـــاءُ إذَا
مَـا دُونَهَـا غَـيْـمَـــةٌ، لِلوَجْـهِ تَحْـجِـيلُ
مُـــــفلَجُ سِنٍّ ضَلِيعُ الْفَمِّ أفْــــصَحِ مَنْ
فَـاهَ بِضَـادٍ لِنُطْقِـهِ التَّـخَـاجِـيلُ...(378)
إذَا مَــــشَى زَالَ قَلْعـــاً لاَبِذِي خُـــيَـــلاَ
وَجِــسْـمُــهُ لاَ تُرَى لَهُ الأضَـــالِيلُ(379)

هذه هي الصفات الخلقية للرسولِ ﷺ، أوردها الشاعر كما وجدها في كتب السيرة، وتتبع تفاصيلها ساعيا إلى إظهار كمالها قبل التطرق لكمال الأخلاق.

* وصف خُلقه ﷺ وقد اكتفى فيه الشعراء بإشارات موجزة يحمّلونها كل ما يستطيعون إجماله من خصال، فتتوالى الأوصاف تترى وكأن ملكة النظم قد تفلتت من عقال العقل، ووقعت بين يدي العاطفة وأضحى الشاعر حائرا في اختيار الأوصاف راغبا

375) الكرادس مفرده كردوس وهو رأس العظم.
376) المسربة : الشعر الرقيق من الصدر إلى السرة.
377) الأشاكيل : جمع جموع شكل وهو الشبيه والمثل.
378) التخاجيل : جمع تخجيل من الخجل أي الهيبة والوقار.
379) محمد الهاشمي الفاسي ـ نيل المراد في شرح بغية الارفاد ص : 75-103.

في جمعها كلها، إلا أنه يرتبك فيأخذ من هنا وهناك، كأنه ينتهب محفوظا، فتتابع لديه صيغ التفصيل وروابط العطف كقول الطاهر الافراني : (الخفيف)

أحْــمَــدُ الْمُــرْتَجَى وَأكْــرَمُ مَنْ أزْ
جَى مَــشُــوقٌ إلَى نَدَاه النِّيَــاقَــا

أفْـضَلُ الْخَلْقِ، رَحْـمَـةُ الْحَقِّ، عَـيْنُ الصِّـ
ـدْقِ، أوْفَى مَنْ عَــاقَــدَ الْمِــيــثَــاقَــا

أكْــمَلُ الْعَــالَمِينَ أغْــزَرُهُمْ كَـ
ـفّــاً، وَأنْدَاهُمُ نَدًى دَفّــاقــا

إنْ يَصُلْ بِالْحُــسَــامِ جَــدَّلَ مَنْ
لاَقَى، وَإنْ جَــادَ قَــتَّلَ الإمْــلاَقَــا

أوْ يُسَــابِقْ فِي كُلِّ مَكْرُمَــةٍ جَلَّـ
ـى وَأوْفَى قَــدْراً وَحَــازَ السِّــبَــاقَــا

أوْ يُبَــارِي الْغَــمَــامَ وَالْبَــحْــرَ وَالرِّ
يحَ أقَــرَّتْ بِأنَّهُ قَــدْ فَــاقَــا

أوْ يُقَــابِلْ شَــمْــسَــا تَضَــاءَلَت الشَّــمْـ
ـسُ أو الْبَــدْرُ بَزَّهُ الإشْــرَاقَــا(380)

ويعترف أحمد بن محمد بن محمد اليزيدي بعجزه عن الإحاطة بخصال الرسول ﷺ، بعد أن أثنى عليه ربه خير الثناء مما يقعد عنه كل مادح، ويعتبر الطامع في ذلك ساعيا وراء المحال : (الكامل)

أثْـنَى عَـلَيْــه اللّهُ جَلَّ جَــلاَلُهُ
فِي مُــحْكَمِ التَّنْزِيلِ حَقَّ ثَنَائِهِ

أطْرَاهُ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمِ وَلَنْ تَرَى
قَــوْلاً كَــهَــذَا الْقَــوْلِ فِي إطْرَائِهِ

مَنْ لِي بِأنْ أُحْــصِي الثَّنَاءَ عَلَى عُــلاَ
أوْصَــافِــهِ هَيْــهَــاتَ مِنْ إحْــصَــائِهِ

---

380) المعسول 7/ 206.

أرَأيْتَ مَنْ أحْصَى الرِّمَالَ بِعَالِجٍ
كَلاًّ، وَمَنْ يَسْتَطِيعُ وَصْفَ سَنَائِه(381)

وقد عوض شعراؤنا هذا النقص، بالإتجاه نحو تعداد ما اختص به الرسول «صلى الله عليه وسلم» وهو المعجزات التي كانت العمود الفقري لقصائدهم النبوية.

ب - **ذكر معجزاته ﷺ**: تعداد معجزات الرسول «ص» إتمام لكماله، وتفضيل الله له على سائر البشر بل على الأنبياء المصطفين، ولقد صار بهذه المعجزات إنسانا خارقا لسنن الكون، طويت له الأرض، ونطق له الجماد، وأجري الماء، ورد الأعمى بصيرا والملذوغ سليما... ويختلف الشعراء في تعداد هذه الصفات فيعمد بعضهم إلى اختيار واحدة منها تكون ذات دلالة خاصة تغني عن غيرها، وتشير إلى كماله «صلى الله عليه وسلم»، وفضله على سائر البشر عبر الأزمان، ويتجلى هذا الأسلوب لدى أحمد بن محمد اليزيدي الذي اكتفى بالإشارة إلى معجزة الإسراء والمعراج، وما فيها من إعلاء شأنه «صلى الله عليه وسلم» إذ أمَّ كل الرسل وخُص بأسرار لا يعرفها غيره، قال : (الكامل)

فِي مَوْكِبٍ أمَّ الْمُقَدَّسَ بَعْدَمَا
هَدَأتْ عُيُونُ الْخَلْقِ فِي إسْرَائِه
لَمَّا اسْتَوَى فَوْقَ الْبُرَاقِ خَدِيمُهُ
جِبِّرِيلُ، سَارَ الْكُلُّ تَحْتَ لِوَائِه
جُمِعَتْ إلَيْهِ الأنْبِيَاءُ فَأمَّهُمْ
فَهْوَ الإمَامُ وَتَاجُ أصْفِيَّائِه
أوْحَى إلَيْهِ اللَّهُ مَا لَمْ يُحْصِه
قَلَمٌ مِنَ الأسْرَارِ فِي إيحَائِه(382)

ويعمد آخرون إلى ذكر ما يستطيعون منها في إشاراتَ خاطفة إلى أحدَاث تفصيلُها في كتب السيرة؛ فالشاعر يذكر أولا كثرة المعجزات، ثم يمثل ببعضها مكتفيا بالإشارة لإثارة الذاكرة، حتى تستعيد القصص المتعلقة بها، فهي إذن وسيلة إيحاء تربط على نحو متميز بين الحاضر المتردي والماضي المزدهر الظافر،(383) فالرجوع إلى الماضي مرتبط بالتأمل الذي

381) المعسول 9/ 207.
382) نفسه.
383) حلمى محمد القاعود، عوامل نهضة الشعر الديني في العصر الحديث، ص : 227.

«يستخلص العبرة والعظة، فيدعم الحاضر ويقويه ومن هذه الزاوية لا يعالج الشعر [النبوي] الماضي باعتباره شيئا منفصلا انقضى وانفصل عن الوعي نهائيا، وإنما يعالجه باعتباره قوة إيحائية يمكن أن تسري في الحاضر لتوجهه وجهات أفضل، وذلك من خلال الإحالة».(384) كقول الطاهر الافراني : (البسيط)

فَكَمْ وكَمْ لِرَسُولِ اللَّه مُعْجِزَةٌ
عَلَى الْهُدَى غُرَّةٌ مِنْهَا وَتَحْجِيلُ
كَشَقِّ صَدْرٍ وبَدْرٍ، أوْ كَنُورِ عَصَا
وَنُطْقِ ضَبٍّ وَظَبْيٍ وَهْوَ مَحْبُولُ
وَالجِذْعُ حَنَّ وَعُرْجُونٌ حَبَاهُ فَتًى
فَعَادَ في الْحَرْبِ سَيْفاً وَهْوَ مَصْقُولُ
وَرَدُّ عَيْنٍ وكَفٍّ لِمَحَلِّهِمَا
هَذَا وَمَا شَأْنُ تَعْوِيرٍ، وَتَشْلِيلُ
وكَالذِّرَاعِ أذَاعَ السِّرَّ إِذْ خَدَعَتْ
به الْيَهُودُ وكَيْدُ الْكُفْرِ تَضْلِيلُ
وكَمْ به وكَفَتْ سُحْبُ الْحَيَا وكَفَى
ألْفاً عَلَى الْقِلِّ مَشْرُوبٌ وَمَأْكُولُ
وَلِلطَّعَامِ وَلِلْحَصْبَا بِرَاحَتِهِ
بِأفْصَحِ النُّطْقِ تَسْبِيحٌ وَتَهْلِيل(385)

ولم يكتف شعراؤنا بإبراز كمال الرسول «صلى الله عليه وسلم» من خلال خلقه وخلقته ومعجزاته، بل زادوا على ذلك حتي وقعوا في المحذور، فأخرجوه من دنيا البشر ورفعوه إلى مرتبة الألوهية، وذلك انسياقا وراء نظرية الحقيقة المحمدية، التي صار بمقتضاها نور الوجود الأزلي أي النور المحمدي المخلوق الأول قبل آدم المنتقل من زمن لزمن، حتى تجلى في محمد «ص»(386) إنه في هذا الاعتقاد قبضة من نور الله، قال لها كوني محمدا فكانت محمدا يحيا ملكا في عالم الملكوت، وبذلك يكون قديما أزليا وإن كان حادثا من

384) جابر عصفور ـ مفهوم الشعر، ص : 180.
385) المعسول 7/ 193.
386) محمد مصطفى حلمي ـ ابن الفارض والحب الإلهي، ص : 359 وما بعد.

حيث التشخيص الجسماني، فهو الأول والآخر بين الأنبياء.(387) وقد تجلت هذه النظرية في قول الطاهر الافراني التيجاني الطريقة :(البسيط)

يَـا أوَّلَ الـنُّـور يَـارُوحَ الْـوُجُـــــــود ويَـا
سِـــــرَّ الْحَــــقَـــائق أوْ يَا مُــــولِيَ النِّعَمِ

يَا فَـــاتحـــاً كُلَّ مَـــا أُغْلَقَ، يَا خَـــاتَمَ الْـ
أرْسَـــال يَا خَـــيْـــرَهُمْ يَا سَـــيِّـــدَ الأُمَمِ

أنْتَ السِّـــرَاجُ وَأنْتَ الْمُـــسْـــتَـــضَـــاءُ به
إلَى سَـــبِـــيل الْهُـــدَى فِي حَـــالِك الظُّلَمِ

وَأنْتَ أحْـــمَـــدُ وَالْمَـــحْـــمُـــودُ وَالْفَـــرْطُ الشَّـ
ـافِيُّ وَالْمُـــجْـــتَـــبَى الْمُـــخْـــتَـــارُ فِي الْقِـــدَمِ

بِكَ اسْـــــتَـــــغَـــــاثَ أبُوكَ آدَمُ وَبِكَ اسْـ
ـتَـــــغَـــــاثَ نُوحُ وَإبْرَاهِيمُ فِي الضُّـــــرَمِ

وَبِكَ أيُّـوبُ حِينَ مَـــــــسَّـــــهُ ضَـــــرَرٌ
وَبِكَ يُونُسُ فِي أحْـــــشَـــــاءِ مُلْتَـــــقِمِ

وَبِكَ بَشَّـــــرَ عِـــــيـــــسَى وَالْكَلِيمُ وكُـ
ـلُّ الرُّسُل تَبْشِيرَ صِدْق غَيْرَ مُتَّهَمِ(388)

جـ - طلب الشفاعة والعون : إن غرض الشعراء من رفع الرسول «صلى الله عليه وسلم» إلى هذه المرتبة العالية من الكمال في أشعارهم، هو الانصراف بعد ذلك كله إلى الاستغاثة به، وطلب شفاعته وعونه في قضاء حاجات الدنيا والدين، أسوة بمن عاشروه ومدحوه من شعراء العصر الاسلامي، باعتباره خارقا لنواميس الكون والوجود، لا تمنعه قيود أو تقيده عوائق، وقادرا على تطهير الناس من الشرور والمفاسد، وإعانتهم على مصاعب الحياة(389) والدهر، كما كان دأبه في حياته حين كان حاضرا على الأرض بجسده وروحه إلا أنه الآن حاضر بروحه، فهو حي في روضته الشريفة يسمع التحية ويردها وتصله صلاة الناس وسلامهم ويلقاه المتقون مناما والمحسنون يقظة، كما يظن الصوفية. لذلك نرى شعراءنا يقفون بين يديه في قصائدهم فيخاطبون مخاطبة الأحياء،

387) محمد رجب النجار ـ بردة البوصيري، ص : 80-81.
388) المعسول 7/ 182.
389)المصدر السابق، ص : 27.

يعترفون له بالدنوب ويطلبون منه الصفح والغفران والشفاعة، كقول أحمد بن الحاج محمد اليزيدي : (الكامل)

يَا مُصْطَفَى مِنْ قَبْلِ نَشْأةِ آدَمَ
وَأَبُوهُ فِي طِينِ الْكَمَالِ وَمَائِه

هَذَا عُبَيْدٌ صَاغِرٌ يَرْجُو الْحَبَا
وَجِوَارُ أَعْلَى الْخَلْقِ خَيْرُ حَبَائِه

لاَ يَرْتَجِي إلاَّ عُلاَكَ، وَكَيْفَ لاَ
يَرْجُو وَأَنْتَ مُمِدُّ أَنْبِيَائِه

أُمْدُدْ بِضَبْعِي مُذْنِبٍ مُتَألِّمٍ
فَهُوَ الْغَرِيقُ وَأَنْتَ خَيْرُ دَوَائِه

يَامَنْ يَلُوذُ بِجَاهِهِ عَبْدٌ عَصي
وَأَتَى قَبِيحَ الْفِعْلِ مِنْ أَنْحَائِه

أَنَا ذَلِكَ الْعَاصِي وَلاَ يُنْجِي إذَا
أَذْنَبْتُ غَيْرُ تَعَلُّقِي بِرِدَائِه(390)

ولا يكتفون بطلب الشفاعة والغفران، بل نراهم يتجاوزون ذلك إلى طلب العون في الأمور الدنيوية، فهذا الطاهر الافراني يقول : (الطويل)

أَتَيْتُكَ نَضْوَ الْهَمِّ وَالْفَقْرِ فَاكْفِنِي
وَأَغْنِ غِنًى يَرْوِي وَيَمْلاَ وَيُدْهِقُ

وَكُنْ لِي مُجِيراً مِنْ زَمَانٍ صُرُوفُهُ
تُهَدِّدُ حَتَّى كِدْتُ مِنْهُنَّ أصْعَقُ

فَإنْ تَتَدَارَكْنِي فَجُدِّيَّ صَاعِدٌ
وَحَبْلِيَّ مَوْصُولٌ وَبَيْعِيَّ يَنْفُقُ(391)

الشاعر هنا يتجه إلى ذاته التي تكاثرت عليها الهموم والمحن وأحاطت بها صروف الأيام فلم يجد يدا من التماس العون من النموذج المثال، واستلهامه بعد أن عز المعين، إنه

390) المعسول 9/ 207.
391) المعسول 7/ 216.

يلجأ إلى الرسول ﷺ يسأله ويشكو إليه، وقد وجد لديه صفة الخلود الذي لا يزول، والثبات الذي لا ينمحي، وأمام التغيرات الزمنية التي يعايشها ولا يجد فيها أملا حقيقيا يكون الأمل الحقيقي عند الرسول «صلى الله عليه وسلم».(392)

وفي ختام الاستغاثة والاستعانة بالرسول «صلى الله عليه وسلم» نلاحظ ظاهرة فريدة، حيث يختم شعراؤنا خطابهم بذكر أسمائهم، وكأنهم يبغون تعريف المخاطب بأنفسهم حتى يكون ذلك أدعى للاستجابة ، يقول الأقاوي : (البسيط)

عُبَيْدُكَ الْهَاشِمِي الْفَاسِيُّ نَاظِمُهَا
يَبْغِي جِوَارَكَ لاَ يَبْقَى لَهُ سُولُ(393)

ويقول الافراني : (الطويل)

دَعَاكَ الْفَقِيرُ الطَّاهِرُ بْنُ مُحَمَّد
عَلَى أَضْلُعٍ بِالشُّوقِ مُتَّقِدَاتِ(394)

المحور الثاني ـ استحضار المكان والزمان :

يحرص شعراؤنا أثناء استحضار شخصية الرسول «صلى الله عليه وسلم»، على وصف الزمان والمكان اللذين شهدا نشأته وبعثته ثم وفاته، ويرتفع هذا البعدان في أوصافهم إلى المرتبة الملحمية ليصبحا بدورهما مقدسين، فالمكان مقدس بحكم حج المسلمين إليه، وباعتباره الشاهد الخالد على انبثاق الدعوة الاسلامية ودوامها، وقد بلغ تقديسه في نفوس شعرائنا مبلغا عظيما، إذ نجد الطاهر الافراني يذكره ويدعو من حلّ به أن يصون تلك الأرض التي كانت موطئ نعل رسول الله ﷺ عن الدوس بالأقدام، وأن لا يمشي هناك إلا على الجبين إن أمكن، بقوله : (الطويل)

وَصُنْ مَوْطِئَ النَّعْلِ الَتي وَطِئَتْ عَلَى
بِسَاطِ الرِّضَا في قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى
وَلاَ تَمْشِ مَهْمَا اسْطَعْتَ في ذَلكَ الْحِمَى
بِغَيْرِ جَبِينٍ طَالَمَا أَلِفَ الصَّوْنَا(395)

---

392) محمد حلمي القاعود ـ عوامل نهضة الشعر الديني في العصر الحديث، ص : 245.
393) نيل المراد، ص : 189.
394) المعسول 7/ 172.
395) المعسول 7/ 188.

ويتم الشاعر تعلقه بتلك البقاع بالتعبير عن رغبته في زيارتها ومعاينتها بعد أن قرأ أخبارها من مصادر السيرة، وسمعها من الحجاج من معارفه وهو بعد ذلك يتأسف على قعوده وتخلفه عن الزيارة، حتى ليغلبه البكاء شوقا إليها؛ قال أحمد بن محمد اليزيدي:(الكامل)

إنِّي أتُوقُ إلَى الْحِمَى وَيَعُوقُنِي
مَا حَلَّ مِنْ رَيْبِ الزَّمَانِ وَدَائِه
إنِّي اسْتَجَرْتُ مِنَ الزَّمَانِ بِسَيِّدِي
عَلِّي أكُونُ الدَّهْرَ تَحْتَ رِدَائِه
مَا عُذْرُ مَنْ لَمْ يَمْرِ دَمْعَ شُؤُونِه
مَا العُذْرُ لِلْمُشْتَاقِ فِي بَقَائِه
مَا عُذْرُ مَنْ لَمْ يَأتِ رَوْضَةَ أحْمَدَ
مُسْتَعْطِفاً مُتَعَلِّقاً بِرَجَائِه(396)

أما الزمان فيتجلى في انتصار الحق على الباطل، وانتكاس الكفر وأهله إنه زمن الصفاء والنقاء، زمن الحق والخير، زمن كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يعيش بين صحابته ينظّم ويشرع، والوحي يتوالى عليه آمرا ناهيا هاديا ومرشدا زمن الأخوة الصافية المبنية على المحبة الخالصة لا تشوبها المطامع والأغراض : (البسيط)

آخَى النَّبِي بَيْنَ مَنْ آوَوْا وَمَنْ هَجَرُوا
فَآثَرُوهُمْ مِنَ الأمْوَالِ بِالْغُرَرِ
أُخُوَّةُ الدِّينِ لاَ أُخُوَّةُ النَّسَبِ
أنْعِمْ بِهَا كَمْ لَهُمْ تَقْضِي مِنَ الْوَطَرِ(397)

وفي مقابل تراص صفوف المسلمين كانت جموع الكفار مشتتة مفرقة فاستسلموا بعد أن لحقتهم الهزائم. إن زمان الرسول «صلى الله عليه وسلم» هو زمان اندحار الباطل والكفر وكل النواقص، اندحار على مستويين : مستوى الفكر لما سقطت المعتقدات الضالة الفاسدة : (البسيط)

---

396) المعسول 9/ 207.
397) ديوان العتيق، ص : 23.

هُنَاكَ قَامَ الرَّسُولَ دَاعِياً : أَبَنِي
بُطُون مَكَّةَ صَدِّقُوا بِذَا الْخَبَرِ
رَبُّكُمُ اللَّهُ لاَ نَسْرٌ وَلاَ هُبَلُ
فَمَنْ يُؤَلِّهُ تِمْثَالاً مِنَ الْحَجَرِ؟
وَلَيْسَ يَرْضَى بِذَا إِلاَّ ذَوُو سَفَهٍ
ذَوُو الْجَهَالَةِ عُمْيُ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ
فَأَيْنَ أَحْلاَمُكُمْ - قَوْمِي - وَفِطْنَتُكُمْ
أَعَاقِلٌ يَرْضَى مَا تَأْتُونَ مِنْ نُكُرٍ؟
إِنِّي لأَعْجَبُ مِمَّنْ خَلَّقُوا رَبَّهُمْ
وَزَيَّنُوهُ كَمَا يَهْوَوْنَ بِالدُّرَرِ
يَا قَوْمِي رَبُّكُمُ اللَّهُ الْحَلِيمُ الَّذِي
فَطَرَ ذَا الْكَوْنَ طُرّاً لِبَنِي الْبَشَرِ
هَيْهَاتَ يَا أَهْلَ مَكَّةَ السُّجُودَ لِمَا
لَيْسَ بِذِي النَّفْعِ مَا يَبْدُو وَلاَ ضَرَرِ(398)

ثم مستوى القوة الحربية، إذ استطاع المسلمون بإيمانهم وحماسهم العقدي أن يطيحوا بعنهجية الكفرة وتكبرهم، فلحقتهم الهزائم تلو الهزائم حتى استؤصلت شأفتهم. قال الافراني : (البسيط)

أَمَا تَمَادَتْ قُرَيْشُ فِي الْجَفَا أَنَفاً
فَاذْعَنُوا لِصَلِيلِ الصَّارِمِ الذَّكَرِ
أَلَمْ تُبَادِرْهُمُ بَدْرٌ بِفَاقِرَةٍ
جَافَتْ بِهَا جَوْفَهُمْ فِي الأَجْوَفِ الْقَعْرِ..
وَبَعْدَ ذَاكَ اسْتَعَانُوا بِالْيَهُودِ عَلَى
كَيْدٍ فَيَا خَسَرَاتِ الْخَائِنِ الْغَدِرِ

398) ديوان العتيق، ص : 22، جاءت عروضتا البيتين الثالث والرابع تامتين غير مخبونتين، وهذا شائع في البسيط عند بعض شعراء الإلغية، انظر حول ذلك مبحث الإيقاع من هذا الفصل.

فَـــأَنْـزَلَ اللَّهُ جُنْدَ الـنَّصْـــــر مَـنْ مَلَك
وَمِنْ صَـبَــا فَـــأَرَاهُـمْ عِـــزَّ مُـــقْــتَــدِر
وَأَسْلَمّــوا للرَّدَى أحْــلاَفَــهُمْ فَــقَـضَتْ
عَلَى دِمَـــاهُمْ سُـــيُـــوفُ اللَّه بالْهَـــدَرِ
وَيَـوْمَ مَـكَّةَ يَـوْمَ اَلْـفَـــــــتْحِ إذْ نَـزَلَـتْ
عَلَيْكَ مَـنْ رَبِّكَ الآيَاتُ بِـالبُــــشَــــرِ
فَـــجِـــئْتَ بِـالْخَـــيْلِ خَـــيْلِ اللَّه تَرْفُلُ منّ
زَهْو بِعَـــزَّتِهَـــا وَضَـــاحَـــةَ الْغُـــرَرِ
فَـــحَطَّمَتْ مَنْ تَصَـــدَى للنِّضَـــال وَمَـــا
لَطَّمَـــهَـــا غَـيْـرُ حُـمْـرِ الْخُـود بِالْخُـمُـرِ
فَـطَهَّــــــرَ اللَّـهُ بَيْتَ اللَّـه منْ قَــــذَر
وَاقْــــتَصّ منْ دَوْلَة الأوْثَان وَالصُّــــور..
فَـــعَـــادَ مَـــالِكُهُمْ عَـــبْـــدًا وَفَـــرّ بَنُو
نَصْـــرِ فَـــمَـــا نَصْـــرُهُمْ يَوْمًـــاً بِمُنْتَـصِـــرِ
فَـــفَـــاضَ نُورُ الْهُـــدَى وَعَمَّ مُلْكُ رَسُـــو
ل اللَّه منْ سُـــوسَ الأَقْـصَى إلَى تَتَـــر(399)

هكذا نرى من خلال كل ما سبقَ أن المَدح النبوي معبّر عن الإخفاق فيَ الواقع المعاش لشعرائنا، إضافة إلى ما هو معروف لديهم من حب رسول الله ﷺ النابع من تدين قوي وعميق، إنه إخفاق ذاتي يعبرون عنه بالاعتراف بالذنب، والإنابة وطلب المغفرة والشفاعة، وإخفاق جماعي بفساد المجتمع وانقلاب الأحوال، فالدين الذي كان في الماضي عزيزا صار ذليلا، والمسلمون الذين كانوا منتصرين على الكفار أضحوا مهزومين من قبل عدوهم، بل ومهددين حتى في بلادهم. إن شعراءنا يحاولون ربط الصلة بالوجود المثالي الذي يتجلى في مرحلة النبوة بكمالها وبهائها، ولما استحال عليهم تحقيق ذلك في الواقع، أعادوا بناء هذه الصلة في أشعارهم. ونكاد نلمس أسفهم على العيش في هذه المرحلة التاريخية المتأزمة من حياة المسلمين، وكأنما يتمنون العيش في زمن الرسول ﷺ إلى جانبه ينعمون بهديه وحمايته، ويظهر لنا هذا الشعور عند أحمد اليزيدي فيقوله : (الكامل)

399) المعسول 7/ 199.

وَأنَـا أحِـنُّ إلَـى الـذي مَـــــــا مِـــــــثْلُـهُ
بَشَـــــــرٌ وَكُلُّ النَّـاسِ فِـي أضْـــــــوَائِه...
مَنْ لِي بِأنْ يَدْنُو الْبَــعِـــيـــدُ فَـــأجْـــتَلِي
وَجْــهـاً يَرُوقُ الْقَلْبَ حُـسْنُ صَـفَـائِه(400)

إن شعر المديح النبوي هو سعي إلى الاتصال بالنموذج الكامل بوصَفَه قوة الحيوية والخصب والثبات والاستمرار وتجاوز الزمنية، وتؤكد ذلك تلك الأبيات التي تشير إلى ديمومة فعل الرسول«صلى الله عليه وسلم» ومناقبه وأفعاله وتأثيره، وكلها أشكال تمثل تجاوزه للزمن وسموه إلى مرتبة المطلق الذي لا يتغير.(401)

ب – الهجاء :

من الظواهر اللافتة للنظر لدى شعراء المدرسة الإلغية قلة شعر الهجاء قلة ملحوظة، فلم أقف لديهم إلا على بضعة قصائد،(402) ويعود ذلك إلى تعودهم تبادل المجاملات والأمداح مع الأصدقاء، وانصرافهم عن المشاحنات المؤدية إلى التهاجي، إلى جو الصفاء الأخوي الذي يلبي حاجة الانسجام والتآلف، وغض الطرف عن عيوب الآخرين، وفي هذا الجو يستحيل ظهور غرض الهجاء، إذ إن الهجّاء يظهر عند من كان «أكثر وعيا من المألوف بحماقات من حوله وعيوبهم ... فلا يقوى أن يمنع نفسه من إظهار هذه العيوب»(403) ومثل هذا الشخص غير مقبول في الوسط الأخوي، فهو معرض دائما للإقصاء والتهميش بتمهة التكبر أو قلة الأدب.(404) لذلك يوجه الهجاء إلى خارج جماعة الأدباء المتآخين حفاظا على انسجامها، ومن نماذجه ما نظمه بعض الشعراء الذين ثاروا لما مست حقوقهم من قبل عدو حاسد، فترجموا شعورهم هذا شعرا، ومن ذلك قصائد لعلي بن عبد الله الإلغي وابنه المدني، وامحمد الكثيري والطاهر الافراني، ونجد لدى كل واحد منهم طريقة معينة لمواجهة خصومه، فنجد الهجاء المقذع والوعيد بالقتل والفتك لدى كل من الشاعر الإلغي وابنه المدني، والسخرية والتهكم لدى الكثيري وأخيرا التشنيع لدى الافراني.

---

400) المعسول 9/ 207.
401) كمال أبو ديب – الرؤى المقنعة، نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، ص : 494.
402) أخبرني الأستاذ أحمد أبو القاسم المشتغل بجمع شعر أحمد بن زكرياء السكال الباعمراني أنه قد جمع أزيد من ثلاثة الآلف بيت، لم يقف على قصيدة هجاء واحدة ولا حتى نتفة للشاعر، وذلك لما جالسته بمنزله بتزنيت يوم الجمعة 14 مايو 1993.
403) أرثر بولارد ـ الهجاء، موسوعة المصطلح النقدي، مراجعة موسى حمود، مجلة الفكر العربي عدد 26 مارس 1982، ص : 350.
404) المرجع نفسه، ص : 350 – 351.

وحينما ننظر إلى قصيدتي الإلغيين اللتين يهجوان بها آل إيشت ويصمانهم بالغدر والعدوان،(405) نجد الأول يستدعي أحد الرؤساء للإيقاع بهم والثاني يتنبأ بما سيقع لهم من ذل وصغار وقتل وتشريد، وقد رسما خلال ذلك صورة قبيحة لأعدائهما، فهم معتدون ظلمة، أخلاقهم كأخلاق اليهود، قال علي بن عبد الله : (الطويل)

عَلَيْكَ بِأَبْنَاءِ الْيَهُودِ فَإِنَّهُمْ
إِذَا حُقِّرُوا لاَنُوا وَإِنْ عُظِّمُوا طَغَوْا
وَإِنْ سُسْتَهُمْ بِاللُّطْفِ زَادُوا تَجَبُّراً
وَإِنْ عُرِكُوا انْقَادُوا وَإِنْ تُرِكُوا عَصَوْا(406)

وإذا كانوا في أخلاقهم كاليهود، فأفعالهم أفعال الكفار لا يرقبون في مسلم إلاّ ولاذمة، وقد اعتدوا على الإلغيين فسلبوا أملاكهم، وحاربوا بذلك جماعة المؤمنين، ومن يحارب المؤمنين فإنما يحارب الله. قال المدني الإلغي : (البسيط)

عَتَوْا فَعَاثُوا وَجَارُوا في تَحَكُّمِهِمْ
إِذْ يَحْسَبُونَ لَهُمْ فِي الْقَهْرِ مَا حَسِبُوا
قَدْ حَارَبُوا اللَّهَ فِعْلَ الْكَافِرِينَ بِهِ
وَعَادَةُ اللَّهِ فِي الأَعْدَاءِ تُرْتَقَبُ(407)

وهم مع ذلك مثل الأفاعي ناعمة الملمس إلا أن السم في أنيابها ناقع، فوجب الفتك بهم وقتلهم لحسم دائهم، ولا يكتفي الشاعر ابن عبد الله بطلب قتل كبارهم ممن اجترموا الظلم، بل يلح على الفتك بالصغار أيضا، إذ اللؤم والعدوان فيهم فطرة، يرثه الصغير من الكبير ولا يلبث أن يطغى هو أيضا حال بلوغه، قال : (الطويل)

وَلا تَتْرُكَنْ فِيهِم كَبِيراً يُرِيدُ أَنْ
يَكُونَ لَهُمْ شَيْخاً وَلاَ وِلْدَةً نَشْوا
فَكُلُّهُمُ أَفْعَى لأَفْعَى وَإِنْ هُمُ
صِغَارٌ وَمَا أَنْكَا الصِّغَارَ إِذَا عَتَوْا(408)

---

405) انظر سبب هذا الصراع في الباب الأول من هذا الكتاب.
406) المعسول 2/ 134.
407) نفسه، ص : 133.
408) المعسول 2/ 134.

وبالإضافة إلى هذا ينعتهم بالجفاة الأراذل، يعاملون بالشر من عاملهم بالخير، فهم أشرار يضرون أهل الصلاح، لذلك وجب الفتك بهم دون رحمة؛ يقول مخاطبا الرئيس الضارضوري التاغجيجتي يستنهضه لهذه المهمة (الطويل)

فَجَعْجِعْ بِهِمْ وانْهَضْ إِلَيْهِمْ وَلاَ تُبَلْ
بِشَوْكَتِهِمْ فَاللَّهُ يُخْزِي مَنِ اعْتَدَوْا
فَإِنَّا نَجِيشُ بِالدُّعَا وَتَضَرُّعٍ
يُعِينُ لَعَلَّ اللَّهَ يُهْلِكُ مَنْ عَتَوْا
فَلاَ تَرْأَفَنْ إِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ فِعْلَهُمْ
مِنَ الشَّرِّ فِي أَهْلِ الصَّلاَحِ وَمَا أَتَوْا
فَبَادِرْهُمُ بِالسَّيْفِ قَبْلَ انْتِبَاهِهِمْ
فَهُمْ بَيْنَ نَابِ اللَّيْثِ وَالظُّفْرِ قَدْ غَفَوْا(409)

أما الشاعر المدني بن علي فقد انتحى وجهة أخرى لتحقيق غرضه إذ جعل قصيدته فألا للمعتدين، ولما ينتظرهم من مصير، فأدارها على الدعاء عليهم والتوسل إلى الله ورسوله ﷺ وصحبه وصلحاء الأمة، ليحقق ظنه فيهم :(البسيط)

يَارَبِّ بِالْمُصْطَفَى وَالآلِ مَنْ نَزَلَتْ
فِي حَقِّهِمْ آيَةُ التَّطْهِيرِ فَانْتُخِبُوا
وَالصَّحْبُ أُسْدُ الشَّرَى يَوْمَ الْوَغَى لَهُمُ
مِنْ كُلِّ مَنْ حَارَبُوا، الْمَسْلُوبُ وَالسَّلَبُ
وَبِالشَّهِيدَيْنِ سِبْطَيْهِ اللَّذَيْنِ هُمَا
فَاقَا الْوَرَى نَسَباً مَا فَوْقَهُ نَسَبُ
وَبِخَلاَئِفِ أَمْجَادٍ ذَوِي كَرَمٍ
تَرْضَى سُيُوفُهُمُ إِذَا هُمُ غَضِبُوا
حَقِّقْ لَنَا قَوْلَ ذَاكَ الشَّيْخِ عَنْ عَجَلٍ
بِنَسَفِ إِشْتَ وَمَنْ لِجُورِهَا انْتَسَبُوا
وَزَلْزِلَنَّهُمْ فَلاَ يَبْقَى لَهُمْ أَبَداً
ذِكْرٌ فَفِي مِثْلِهِمْ يُسْتَحْسَنُ الْحَرْبُ(410)

409) المعسول 2 / 134 .
410) نفسه ص : 132 ـ 133 والمقصود بالشيخ، الطاهر الإفراني الذي أنشأ أول شطر من القصيدة.

والشاعر واثق من حلول نقمة الله عليهم، فيصور لنا ما سيحدث مستقبلا حين يسقط الظالمون مجندلين تلاحقهم الآفات والنقم ويلازمهم البؤس والفقر والطاعون، قال : (البسيط)

أَقَـرَّتْ إشْتُ عُيُونَ الشَّامِتِينَ بِهَا
وَحَلَّ فِيهَا عَلَى الأعْدَاءِ مَا ارْتَقَبُوا

وَصَيَّرَتْهَا يَدُ الأبْطَال أيْدِي سَبَا
وَحُكِّمَتْ فِيهِمُ الْهِنْدِيَّةُ الْقُضُبُ

وَاسْتَسْلَمَتْ لِلْقَنَا رِقَابُهُمْ فَغَدَتْ
أجْسَادُهُمْ نُهْبَةً، فَالْوَحْشُ يَنْتَهِبُ

أنَّى تَحُلُّونَ حَلَّتْ فَوْقَكُمْ نِقَمٌ
فِيهَا قُلُوبُكُمْ تَلَظَّى وَتَلْتَهِبُ(411)

ومن خلال هاتين القصيدتين نتبين غضبة الإلغيين لما لحقهما من آل إيشت، فكان ردهما هجاء مقذعا أخرج أعداءهم من دائرة المسلمين، المحرمة دماؤهم وأموالهم. وقد استثمروا في ذلك أسلوب الاستخفاف والتحقير فأنزلا أعداءهما إلى مرتبة الحيوان، وقدحا في أعراضهم بنعتهم باليهود، والقصد من ذلك الإيلام؛ فكفاءة الهجّاء لا تكمن في قدرته على الهجاء بل في البراعة التي يظهرها في أثناءه.(412) وربما نتساءل كيف يجعل هذان الفقيهان أعداءهم من أبناء اليهود وأشباه الكفار وهو مسلمون، لاشك أن الجواب واضح، فالإشتيون باعتدائهم على أملاك الإلغيين ظلما وغصبا أخرجوا أنفسهم من دائرة الإسلام وأخلاقه، فلا حرج في سبهم وهجائهم ولا في قتلهم، إذ لا عقيدة لهم، فهم في عداد الكفار، لا يصان عرض ولا يقال لهم عثار.(413)

أما الشاعر الكثيري فقد وقفت له على قصيدة واحدة في الهجاء، نظمها ساخرا من الوشاة الذين يختلقون الأكاذيب ليوقعوا به، لما كان قاضيا بتافراوت، قال

411) المعسول 22/ 132، وقد علّق المختار السوسي على هذا البيت بقوله : في البيت الأول كسر في الوزن في تفعيلته الأولى ويستقيم بقولنا : قَدْ أقرّت..
412) أرثر بولارد، الهجاء، موسوعة المصطلح النقدي، ص : 353.
413) انظر شعر داود الرسموكي ص : 149 - 150.

في تصديرها : «في الأيام الأخيرة بلغني أن بعض المغرضين اختلق وأذاع خبرا، الغاية منه إغاظتي وإساءتي مع علمه ببراءتي من افتراءاته الحانقة، فقلت في المقام ما يلي...».(414)

فالشاعر يواجه بعض الوشاة الذين نقموا عليه مكانته، ولذلك يعمد في قصيدته إلى إظهار سبب نقمتهم مسفها رأيهم، ولا يكتفي بهذا بل يتهمهم بما حالوا وصمه به، قال : (مجزوء الكامل)

مَـانَقَـمُـوا مِنِّي شَـيْءٌ تَـعَـالَـى عَـنْـهُـمُ
لَوْ أدْرَكُـوا مَـا نَقَـمُـوا لاَسْـتَـكْبَـرُوا وَتَـعَـظَّمُـوا
شَـأْوِي بَـعِـيـدٌ عَـنْـهُـمُ هَـلْ أنَّـهُـمّ لَـمْ يَـعْـلَـمُـوا
كَـسْـبُ الْفَـضِـيلَـة مَـيْـسَـمِي حُـبُّ الـرَّذِيـلَـة مِـنْـهُـمُ(415)

فهذا التفاوت بين الشاعر والوشاة حنقهم عليه فلم يجدوا سبيلا إلى إذايته إلا بالتقول عليه، ولو صدقوا لاعترفوا بفضله، قال :

يَـتَـقَـوَّلُـونَ عَـلَـيَّ مَـا عَـنْ قُـرْبِـهِ أتَـكَـرَّمُ
لَـوْ يَـصْـدُقُـونَ لأعْـلَـنُـوا فِي جَـمْـعِـهِمْ مَـا يُعْـلَمُ
لَـوْ يَـصْـدُقُـونَ لأعْـلَـنُـوا أنِّـي بِجِـدٍّ مُـغْـرَمُ(416)

ثم ينتقل بنا إلى تصوير حالتهم وهو يتقلبون على حقد دفين يأكل أحشاءهم، ويعمي أبصارهم عن رؤية الحق، فتركوا العنان لأهوائهم لتقودهم. قال :

414) أوراق محمد الكثيري، قصيدة مرقونة.
415) المصدر نفسه، قصيدة مرقونة.
416) نفسه.

لَكِنَّهُمْ لِضَغِينَة

فِي صَدْرِهِمْ قَدْ أوْهَمُوا

عَاشُوا عَلَى حِقْدٍ دَفِيـ

ـنٍ نَارُهَا تَتَضَرَّمُ(417)

وهذه الضغائن هي التي دفعت الوشّاة إلى البهتان، فيصفهم لنا الشاعر مجتمعين للكيد له، زاعمين أنه يخشاهم ويخاف مكرهم مما قوى عزمهم لمهاجمة شرفه، إلا أنهم لم يجرؤوا، فنقضوا عزمهم وكتموا الأمر :

زَعَمَ الْوُشَاةُ بِأَنَّنِي

أخْشَى إذَا مَا هَمْهَمُوا

فَتَأَلَّبُوا وتَكَالَبُوا

وتَخَيّلوا أنْ يَهْجُمُوا

لَكِنَّهُمْ قَدْ أحْجَمُوا

نَقْضاً لِمَا قَدْ أبْرَمُوا

وتَفَرَّقُوا عَنْ جَمْعِهِمْ

وتَحَالَفُوَ أنْ يَكْتُمُوا(418)

وفي مقابل حال الوشاة المترددين بين الإقدام والإحجام، والذين تتحطم قلوبهم غيظا لمّا لم يستطيعوا تحقيق أغراضهم، نجد حال الشاعر يغلب عليه الهدوء وعدم الإكتراث بما يحاك ضده، قال مصورا هذا الوضع :

أيْنَ الشَّجَاعَةُ مِنْهُمُ

فَلْيُقْدِمُوا لاَ يُحْجِمُوا

قَدْ بَاتَ قَلْبِي هَادِئاً

وَقُلُوبُهُمْ تَتَحَطَّمُ

قُلْ لِلْعِدَا فَلْتَخْسَأوا

فِي غَيْظِكِمْ مَا عِشْتُمُ

---

417) أوراق محمد الكثيري.

418) نفسه.

مَنْ ذَا يُبَالِي بالطَّغَا
م وإنْ هُمُ قَدْ حَمْحَمُوا(419)

أما الطاهر الإفراني فقد تصدى للدفاع عن طريقته التجانية في وجه ابن المؤقت الذي هاجم رؤساء الطرق في كتابه «الرحلة المراكشية»، وقد زاوج بين هجاء مؤلفه ومدح أحمد سكيرج الذي رد على ابن المؤقت،(420) فالشاعر يقف مدافعا عن عقيدته الصوفية مسفها رأي جاحدها الذي أراد أن يصلح فأفسد وهوى في الخسران، قال: (الكامل).

قَدْ رَامَ أنْ يَنْهَى وَيَأْمُرَ غَيْرَةً
لَكِنْ تَجَاوَزَ حَوْمَةَ الْمَيْدَانِ
وَجَرَى جُمُوحُ جَوَاده طَلْقاً إلَى
حَدٍّ تَعَدَّاهُ إلَى الطُّغْيَانِ
خَبَطَتْ به عَشْوَاؤُهُ في ظُلْمَةٍ
سَقَطَتْ به في هُوَّةِ الْخُسْرَانِ
فَرَمَى الْبَرِيءَ بِذَنْبِ مُقْتَرِفٍ وَكَمْ
يَرْقُبْ عُهُودَ اللَّه في إنْسَانِ(421)

وقد ألف الشاعر أن يسمع فينة بعد فينة الطرقيين ينتقد بعضهم بعضا ويحط بعضهم من مشايخ البعض، إلا أن انتقاد الجميع هاله، فرفع صوته بالتشنيع على صاحبه وتذكيره بأنه ليس محتسبا حتى يتصدى لانتقاد الناس بل عليه الاقتصار على خويصة نفسه ومحاسبتها:

جَرَحَ الْمَشَايِخَ كُلَّهُمْ وَعَدَا عَلَى
أهْلِ الْهِدَايَة مِنْ أولِي الْعِرْفَانِ
وَأبَاحَ أعْرَاضاً تُصَانُ مُنَدِّداً
بالطَّعْنِ في الأنْسَابِ وَالأبْدَانِ
وَسَمَا إلَى الأشْرَافِ آلِ الْبَيْتِ مَنْ
قَدْ طُهِّرُوا مِنْ صِحَّةِ الأرْدَانِ

419) أوراق محمد الكثيري.
420) ابن المؤقت: محمد بن محمد بن عبد الله المراكشي (ت:1953م) انظر التعريف به عند الزركلي - الأعلام 7/ 84، ط: 7.
421) المعسول 7/ 142.

مَـــا هَكَذَا مَـــا هَكَذَا يَا ابْنَ الْمُـــؤقـ
ـــت تُـورَدُ الآبَـالُ فـي الْـغُــــــــــدْرَان
مَـــا أنْتَ مُـــحْـــتَـــسبٌ عَلَى كُلّ الْوَرَى
فَعَلَى شُخَيْصكَ فَاحْتَسبْ يَاجَان(422)

ويبدو لنا الشاعر من خلال شعره هادئا متزنا، لايخرجه الغضَب عن طَوره بل يتصدى لمهجوه بهدوء واتزان، ولا تعليل لذلك إلا وقوفه على كتاب سكيرج الناقض لكتاب ابن المؤقت، وشعوره أنه قام بالواجب في تأديب هذا المجترىء.

لَكنْ شَـــفَى وكَـــفَى وَدَافَعَ عَنْ حـــمَى الْـ
إيمَان مُـــحْـــتَـــسبٌ جَـــرْءُ جَنَان
فَـــرَمَى لَكَ «الْمـــرْآتَ» رَمْـــيـــاً كَـــاســـراً
بصُـــخُـــور مَـــقْت للْبَـــغـــيض الشَّـــان
بحـــجَـــارَة مَـــقْـــتَـــيَّـــة تَنْقَضُ دَا
مـــغَـــةً لرَأس بَرَاهـن الْفَـــتَّـــان(423)

إلا أنه مع هذا الهدوء لايمتنع عَن التشهير بَمهجوَه وتَشبيه فعله بأفعالَ الكفرة الذين راموا إخفاء صوت الحق، فشبهه بالنمرود حين أوقد النار لإحراق إبراهيم الخليل، وبالسحرة الذي سحروا أعين الناس بحضرة فرعون، إلا أن الله قيض لهم من أحبط أعمالهم فأخمدت نيران النمرود وبطل عمل السحرة، وكذلك عمل ابن المؤقت قال الإفراني :

لَمَّـــا رَآكَ عَـــدَوْتَ طَوْرَكَ جَـــدَّ في
إخْـــمَـــاد مَـــا أوْقَـــدْتَ منْ نيـــرَان
وَرَمَى الْعَـــصَـــا منْ كَـــفّـــه فَـــتَلَقَّـــفَتْ
مَـا صُـغْـتَـهُ منْ سـحْـركَ الشَّـيْطَاني(424)

وهكذا نرى أن شعراءنا استهدفوا في أهاجيهمَ ردعَ أولئكَ الذين ابتغَوا الإضرار بهم، وذلك عبر تحريك المتلقين لهذه الأشعار نحو نقد المهجو وإدانته، ودفعهم «نحو عواطف شتى تتراوح بين الضحك والهزء والاحتقار والغضب والكره، أما المشاعر المستثارة فتعتمد

422) المعسول 7/ 142.
423) نفسه، والمقصود بالمرآة كتاب ابن المؤقت : «الرحلة المراكشية أو مرآة المساوي الوقتية».
424) نفسه.

على جدية العيوب موضع الهجوم، كما تعتمد على الموقف الذي يتخذه المؤلف نفسه والنظرة التي يحملها عن الفرق بين المثالي والواقعي، وتكون هذه المشاعر متناظرة مع سلسلة النبرات التي [تنحو نحو] السخرية الشرسة».(425)

ج - الغزل :

من الملاحظات التي يجب تسجيلها حول هذا الغرض كونه غالبا على مقدمات القصائد وتقل تلك، التي خصت به بوصفه غرضا مستقلا، فأضحى وسيلة للافتتاح والتوطئة، وربما يعود ذلك إلى ما كان هؤلاء الشعراء يحاطون به، وكلهم من الفقهاء، من جلال ووقار، فلم يكن بإمكانهم التعبير عن عواطفهم بكل حرية وإلا رموا بخرق سجف الحياء، لذلك كانوا يتخذون مقدمات القصائد متنفسا للتعبير دون أن ينالهم قدح أو تقريع، غير أن التحرز لم يكن يفارقهم، فترى أحدهم يقول بعد أن ذهب في التغزل كل مذهب، وذكر الوصال والقبل وارتشاف الرضاب وكأنه يعتذر لمن يرمونه بالنظر الشزر : (الكامل).

يَا قَلْبُ مَالَكَ لاَتُفِيقُ منَ الْهَوَى
أبه الشَّرِيعَةُ أُرْسِلَتْ بكِتَابِهَا
أمْ أجَازَ ذَا أهْلُ الْغَرَامِ فَتَقْتَفِي
مَا جَاءَنَا منْ عُذْرَةَ لعَرَابِهَا(426)

ومما يشير إلى اتخاذ شعرائنا هذه المقدمات سبيلا للتعبير عن عواطفهم :

* خلو كثير من قصائدهم، خاصة المدحية أو الإخوانية، من مقدمات غزلية، مما يؤكد أنها لم تكن تقليدا يجب على الشاعر البدء به، أي أنها كانت أمرا اختياريا لا يرغم عليه وإنما يلجأ إليه لإبراز عواطفه.

* طول بعض المقدمات الغزلية حتى زاد عدد أبياتها على أبيات غرض القصيدة كما في قصيدة محمد الرّسموكَي التي مدح بها الفقيه الأديب علي بن الحبيب السكَراتي،(427) فعدد أبياتها سبعة عشر منها عشرة في الغزل وخمسة فقط في المدح وبيتان ختاميان، وقصيدة للطاهر الإفراني في مدح أستاذه علي الإلغي،(428) صدرها بمقدمة غزلية عدد أبياتها خمسة عشر بيتا بينما بلغت أبيات الغرض ثلاثة عشر بيتا. ويلح

---

425) أرثر بولارد - الهجاء...، ص : 3535.
426) المعسول 11/ 218.
427) المعسول 7/ 113.
428) المعسول 7/ 113.

الشعراء في تناولهم لهذا الغرض على أمرين اثنين يشكلان النوى الأساسية لقصيدة الغزل لديهم، الأول : تصوير موضوع الخطاب أي الحبيب المتغزل به واستجلاء جماله الفتان، فنرى بعضهم كمَحمد الكثيري يصف جسم غيدائه وتناسق أجزائه مصورا أثر ذلك في نفسه، قائلا : «الكامل».

غَيْدَاءُ غُصْنُ الْبَان في حَجَلاَنه
لَمَّا بَدَتْ وَالْوَرْدُ في الْبَهْرِ
ذَاتُ الْجَمَالِ مَعَ الْجَلاَلَ مَعَ الْكَمَا
ل مَعَ الدَّلاَل مَعَ السَّنَا الْبَدْرِي
هَيْفَاءُ أفْحَمَت الْعَذُولَ بوَجْهِهَا
وَأتَتْ بعُذْر في الْهَوَى الْعُذْري
حَوَّاءُ مِعْطَال يَحَارُ الْكُحْلُ في
آمَاقِهَا وَالدُّرُّ في النَّحْرِ
عَيْنَاءُ يَعْشَقُ خِصْرُهَا أرْدَفَهَا
فَانْظُرْ ذُبُولَ الْعِشْق في الْخِصْرِ(429)

ويحاول الشاعر الإحاطة بكل الأوصاف إلا أنه يحس بالعجز فتتوالى الأوصاف على لسانه متلاحقة :

نَكَّاثَةٌ، نَفَّاثَةٌ، هَارُوتَ مَع
مَارُوتَ تَحْتَ لِوَائهَا السِّحْرِي
وَهْنَانَةٌ، فَيْنَانَةٌ، فَتَّانَةٌ
تَسْبي الْخَليَّ بخَدِّهَا الْجَمْري(430)

أما النواة الثانية فهي تصوير الذات، إذ إن الشاعر وهو يرسم صورة محبوبته فإنه في الوقت نفسه يعطي لنفسه صورة تدور، حسب ما يقتضيه الغرض،(431) حول وصف عذابات الهوى كالتوله، والتنهد وذكر الحبيب، عند سجع الحمام أو هبوب ريح الصبا، وما يصاحب ذلك ممن لوم العذال، واستحالة السلوان؛ قال محمد بن أحمد اليزيدي يرد على لائميه : (الكامل)

429) المعسول 9/ 261.
430) المصدر نفسه.
431) عبد الفتاح كيليطو - الأدب والغرابة، ص : 74.

دِينُ الصَّـــبَـــابَةِ وَالْهَــوَى مُـــتَـــقَلَّدِي
إنَّ الصَّـــبَـــابَةَ نَهْجُ هَادٍ مُـــهْـــتَـــدِ
يَا آمِــرِي بِالصَّـبْــرِ كَـيْفَ تَصَـبُّـرِي
وَالصَّـبْـرُ فِي شَـرْعِ الْهَـوَى لَمْ يُحْـمَـدِ
إنَّ السُّـلُوَّ - وَمَــا السُّلُوُّ بِمَــذْهَـبِي
دَأْبُ الَّذِي بِصَـــبَـــابَةٍ لَمْ يُعْـــهَـــدِ(432)

وقول البوزكارني يصف ما يكابد من آلام بعد أن سلى فعاوده الحنين لمّا هبت عليه الأنسام : (الطويل)

تَذَكَّـرَ فَـانْهَلَّتْ مَـدَامِـعُـهُ الْحُـمْـرُ
وَأَضْـحَتْ تَلَظَّى فِي جَـوَانِحِـهِ الْجَـمْـرُ
مُـحِبٌّ تَسَلَّى مَـا تَسَلَّى فَـمُـذْ هَفَـا
نَسِـيمُ الصَّـبَـا خَـانَ التَّـجَلُّدُ وَالصَّـبْـرُ
سَـــرَى فَـــأَثَارَ مَــا أَثَارَ وَغَـــادَرَ الْـ
ـجَـوَى بَيْنَ أَحْـشَـائِي يُؤَجِّـجُـهُ الذِّكْـرُ
سَـــرَى بِرَوَائِحِ الأَحِـــبَّـــةِ بِالْحِـــمَى
فَـيَـا حَـبَّـذَا الْمَـسْرَى وَيَا حَـبَّـذَا النَّشْـرُ
فَـــبُـــحْتُ بِلاَ سِـــرٍّ لَدَيَّ وَهَلْ فَـــتَى
رَمَـتْـهُ الْمَـهَـا بِاللَّحْظِ، يَبْـقَى لَهُ السِّـرُّ ؟(433)

وإذا اجتمع الشاعر بمحبوبه بعد طول عذاب رقص فرحا، وراح يصور سعادته بعدما أنسته لذة اللقاء مرارة الهجر بإيقاع راقص، كقول الكثيري : (مجزؤ الرمل).

زَارَانِي يَـخْـتَـالُ تِيــهــاً
وكَــــذَا دَأْبُ الْجَـــمَــــالِ
بِمُـــحَـــيَّـــا كَنَهَـــارٍ
وَلِبَـــاسٍ كَـــاللَّيَـــالِي

---

432) نفسه، ص : 240.
433) المعسول 10/ 102.

قَــــــــدْ رَثَى لِـي إذَا رَآنـي
عَـلَـمَ الـلَّـهُ بِـحَـــــــالِـي
فَـــانْبَـــرَى ضَـــمّـــاً بِرِفْقٍ
بَــيَـــمِـــيــنٍ وَشِـــمَـــال
فَـــأقَـــمْنَا نَنْسَخُ الْهَـــجْـ
ـرَ بِوَصْلٍ ذِي اقْـــتِـــبَـــال
وَطَفِــقْنَا نَشْـــتَكِي الْبَـــيْـ
ـنَ بِشَـــرْحٍ مُـــسْـــتَطَال
قَـــالَ عَـــهْـــدِي بِكَ قِـــدْمــاً
غَـــيْــرَ سَـــالٍ غَـــيْـــرَ قَـــال
كَـــيْفَ لا تَشْـــرَحُ مِـــثْلِي ؟
قُلْتُ عُـــــذْرِي فِي مَـــــقَـــــالِي
لَـذَّةُ الْـوَجْـــــــدِ قَـــــــدْ أنْسَتْ
سَـــوْرَةَ الْهَـــجْـــرِ بِبَـــالِي(434)

ويظـل الشاعــر يذكــر هــذا الوصــال ويتـمنى العــود، كـقـول الطاهر الإفـراني : (الطويل).

عَـــرَانِيَ مِنْ نَحْـــوِ الْحَـــبِـــيب بِسَكْرَة
زَمَـــانَ سَـــقَـــانِي مِنْ لَمَـــاهُ بِخَـــمْـــرَة
رَضَـــــيتُ بِذُلٍّ مِنْ بَرَاعَـــــة حُـــــسْنِه
وَمِنْ حُـــبِّـــهِ بالسُّـــقْمِ فِي اللَّحْظِ مَـــوْتَتِي
بِإعْطَائِه الْمَـــعْـــرُوفَ، حَـــاتِمَ طَيٍّ
يُبَـــخِّـلُ، لَكِنْ ضَنَّ عَنِّي بِوَقْـــفَـــة
يُعَـــذِّبُنِي بِالْبُـــعْـــدِ أنْ كُنْتُ لاَطِفَـــاً
كَـأخْـلاَقِـهِ، بِذَاكَ خُـفِّـفْتُ لَوْعَـتِي(435)

---

434) المعسول 9/ 264 وكناش الشاعر، ص : 98.
435) نفسه، ص : 67.

ومن خلال استعراض هذه النماذج الغزلية نلاحظ مقدار توفق شعراء الإلغية في فن الغزل، بما ظهر لنا من صدق عواطفهم وشفافية أحاسيسهم، وبعدهم عن التصنع والتقليد، إلا أنه يحق لنا التساؤل حول ما إذا كان الغزل عندهم من خلال نواتيه الأساسيتين : وصف المرأة ووصف الذات عبر استعراض عذبات الهوى، يعبر بأمانة عن مشاعرهم الواقعية.

إن شعراءنا يصفون جمالية المرأة كما حددها الشعراء الأسلاف، فالمرأة التي وصفها مَحمد الكثيري مثلا، هي نفسها التي وصفها أبو الربيع سليمان الموحدي الذي أحب «كغيره من شعراء الغزل في الجاهلية والإسلام... في المرأة، الوجه الوردي، والعنق الطويل، والجبين الوضاح، والفم العذب، والرائحة العطرة، والقوام الرشيق، والخصر النحيل، والرِّدف الثقيل...»(436) وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن المرأة الموصوفة ليست شخصا بعينه، وإنما هي نمط إنساني، مثلما رأينا في المدح، فالشعراء كلهم في نهاية الأمر يصفون المرأة نفسها.(437)

ويطرح هذا الأمر إشكالا في تعامل شعرائنا مع الغزل. فما علاقة هذا الغرض عندهم بالبيئة الواقعية ؟ أي إلى أي حد يصدق وصف المرأة في أشعارهم على المرأة في مجتمعهم؟

نستطيع أن نجزم أن هناك تناقضا بين صورة المرأة في الشعر والتي يطغى عليها طابع الجمال المترف، فهي هيفاء وهنانة فينانة، والمرأة في الواقع التي سلبتها الأعمال الشاقة في البادية سماتها الجمالية.

إن شعراءنا لا ينطلقون من نظرة شخصية واقعية، بل من الذّاكرة(438) ومما يفرضه الغرض الشعري في تصوير شخصية المحبوب وشخصية المحب،(439) كما أن شعر الغزل الذي ينشد في منتدياتهم ليس موجها إلى المرأة الغائبة عنها، وإنما هو موجه للرّجال الذين يستمتعون بتلقيه وسيحكمون عليه بالإجادة أو القصور.(440) من هنا كان شعراؤنا واقعين تحت سلطان النوع الغزلي، إذ كانوا يصفون الذات والآخر المجسدين في الموروث الشعري الغزلي الذي احتكوا به في كتب الأدب.

ويمكن إجمال كل ذلك في الخطاطة التالية :

الشاعر | ← الموروث الغزلي | ← المرأة

---

436) د. عباس الجراري ـ الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي، ص : 190.

437) عبد الفتاح كيليطو ـ الأدب والغرابة، ص : 67.

438) GREIMAS (A.J) et (J) Courtes : sémiotique. dictionnaire raisonné de la THEORIE du Langage p : 194.

439) عبد الفتاح كيليطو ـ الأدب والغرابة، ص : 72.

440) المرجع نفسه.

د - الرثاء :

أكثر شعراء الإلغية من القول في الرثاء، فكان هذا الغرض من بين أكثر المواضيع طروقا في أشعارهم، ولعل سبب ذلك أمران إثنان :

الأول : اتساع صلاتهم الاجتماعية وكثرة معارفهم، لذلك كانوا يتصدرون لرثاء هؤلاء المعارف أو الأقارب...

الثاني : كون الرثاء من الواجبات التي تلتزم كل من يستطيع قول الشعر ولا تسقط مهما كانت الأسباب، فالرثاء في عرف أدبائنا بمنزلة التعزية التي تعتبر من واجبات المسلم نحو إخوانه، وكما يعتبر إحجام المسلم عن التعزية في فقيد إخلالا بالواجب، فإن صمت الشاعر الإلغي يفسر بالكيفية ذاتها إذ هو نكران الجميل ونسيان للعهد خاصة من قبل الأقرباء والأصدقاء، لهذا كله لا غرابة في أن كثيرا من قصائدهم الرثائية تصدّر بقولهم : «.. وقد رثيته بشبه أبيات أداء لبعض ما يجب على ولم أكن أهلا لذلك...».(441)

وانطلاقا من إلزامية الرثاء فإن اللوم ينصب على كل من أصابه حصر أو عيّ من الشعراء، ولم يبادر إلى التعبير عن مشاهر الحزن والأسى، كالشيخ عبد الله بن محمد الإلغي الذي ليمَ على سكوته عن رثاء أستاذه العربي الساموكَني، بينما تسابق القائلون إلى رثائه وسكتَ هو وقد كان للفقيد عليه منة التربية،(442) فرجع شاعرنا إلى قريحته يستحثها عله يسكت الألسنة التي صارت تقدح في برّه شيخه، فكان أول ما قال : (البسيط).

قَالُوا وَلِمْ لَسْتَ تَرْثِي سَيِّدِي الْعَرَبِي
وَأَنْتَ أَوْلَى بِه فِي الْعُجْمِ وَالْعَرَبِ

فَقُلْتُ مَا ذَاكَ أَنِّي مَا أُصَبْتُ بِه
وَحَاشَ لِلَّه أَوْ مِنْ سُوءَةِ الأَدَبِ

فَعَاوَدُونِي وَقَالُوا : شَأْنُ شَأْنِكَ إِنْ
أَهْمَلْتَ قَوْلَكَ فِيهِ وَهْوَ خَيْرُ أَبِ(443)

وبسبب هذا العرف السائد لدى أدبائنا نلاحظ انقسام الرثاء لديهم إلى قسمين لكل قسم سمته الخاصة :

---

441) المعسول 7/ 278 وانظر أيضا الجزء 10/ 104.

442) المعسول 9/ 82 وانظر أيضا لوم المختار السوسي الأديب المدني بن علي الإلغي على تعزيته نثرا لما توفي أخوه أحمد بالإلغيات 1/ 95-96.

443) المصدر السابق.

الأول : يغلب عليه صدق العاطفة وجيشان الأحاسيس، وانطلاق الشعراء ملء أفواههم يذرفون الدمع على الفقيد ويبكون فراقه بلا تكلف لأنهم يقضون بقوله حقوقا لهم سلفت فيشعرون عن سجية،(444) فصدق العاطفة وجيشانها «يكثف اللّغة ويشكلها، ويضع خصائصها الشكلية في الأمامية، ونتيجة لذلك تتقهقر إلى الخليفة كل خصائص اللغة الإخبارية والتعاقبية».(445)

الثاني : يغلب عليه التكلف والتصنع حتى تصير القصيدة تعزية أو رثاء منظوما لا عاطفة فيه، فالشاعر هادىء متزن ينظم أفكاره ويعدد مناقب الفقيد منظمة مرتبة دون استثارة كوامن الأحاسيس والعواطف، إنه عبارة عن جمل منظومة لذات النظم «أي أنها خبر منظوم وكلام عدل الكاتب عن أن يقوله منثورا في رسالة أو في خطاب إلى أن يقوله على وزن شعري».(446) ويضطر الشاعر إلى استعمال الصيّغ الجاهزة المبتذلة والعبارات المكرورة، وذلك رغبة في مسايرة الناس وعدم مصادمتهم، فالقول المتكلف المصطنع الصحيح اللغة والوزن خير لدى شعراء الإلغية من السكوت المؤدي إلى الظنون السيئة.

وإذا نظرنا إلى هذه الأشعار من ناحية معانيها وجدنا أصحابها يسيرون على ما اعتاد الأقدمون، من البكاء على فراق الأحباب، وتصوير الفاجعة، والبرم بالدنيا والدهر الخؤون... وما إلى ذلك مما كثر تداوله(447) ووجدوا فيه ضالتهم للتعبير عن عواطفهم، وإن ركزوا على معان معينة بعينها نفصلها فيما يلي :

* ذكر الدهر ومصائبه وعدم استقراره على حال، والحياة وتقلبها وخيانتها من اطمأن إليها من ذوي الشأن، كالملوك والأباطرة الذين بلغوا من السلطان والسطوة مبلغا كبيرا، إلا أن الموت لم ينسهم، ولم يغفلهم الهلاك، بل شربوا كلهم من كأسه. وممن تناول هذا المعنى الطاهر الإفراني الذي عدّد أصحاب السلطان مشيرا إلى ما لحق كل واحد محسنا كان أم مسيئا، قال : «الطويل).

فَمَا الْمَوْتُ إلاَّ مِثْلَ دَيْن مُرَتَّب
عَلَى كُلِّ حَيٍّ وَالْمَغَارِمُ تُقْتَضَى

فَذُو الْوَفْرِ وَالإقْلاَلِ وَالْجَهْلِ وَالْحِجَا
سَوَاءٌ، كَمَا سِيَّان نَذْلٌ وَمُرْتَضَى

---

444) مصطفى صادق الرافعي - تاريخ آداب العرب 3/ 104.
445) عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير، ص : 129.
446) المرجع نفسه، ص : 104.
447) ابن رشيق، العمدة 2/ 150.

فَلَيْسَ بِمُنْجٍ حَاتِماً جُودُ كَفِّهِ
وَلاَ دَفَعَ الصَّمْصَامُ عَنْ عُمْرِهِ الْقَضَا

وَلاَ نَفَعَتْ سَيْفَ ذِي يَزَنَ قُصُو
رُ غُمْدَانِهِ الشُّمُّ الَّتِي اخْتَارَ وَارْتَضَى

وَلاَ رَدَّ عَنْ كِسْرَى الْمُلُوكَ جُنُودُهُ
وَلاَ صَانَهُ مَا بِالْمَدَائِنِ بَيَّضَا

وَلَمْ يُغْنِ شَيْئاً عَنْ كُلَيْبِ بْنِ وَائِلٍ
وَعَمْرِو بْنِ هِنْدٍ مَا اسْتَجَاشَا وَقَيَّضَا

وَلاَ صَرَفَتْ صَرْفَ الرَّدَى عَنْ جُذَيْمَةً
هَنَاةُ قَصِيرٍ حِينَ كَنَّى وَعَرَّضَا

وَلاَ عَنْ بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ نَعِيمُهُمْ
بِوَجْهِ سُرُورٍ بِالْخَوَرْنَقِ أَبْيَضَا

أَتَى حَادِثُ الدَّهْرِ الْمُشِتُّ عَلَيْهِمُ
وَحَثَّهُمُ حَادِي الْفَنَاءِ وَحَرَّضَا(448)

والشاعر أحمد بن محمد اليزيدي الذي احتذىَ المثال واستهل قصيدته بإظهار غدر الدهر ومكره، بقوله : (السريع).

اَلدَّهْرُ مُولَعٌ بِنَقْضِ الذِّمَامْ
وَإِنْ صَفَا يَوْماً تَكَدَّرَ عَامْ

كَمْ آنِسَ مِنْ فَتْكَةِ آمِنِ
رَمَاهُ عَنْ قَوْسِ الرَّدَى بِالْحِمَامْ

بَيْنَا الأَنَامُ فِي فُنُونِ الْمُنَى
قَوَّضَهُمْ رَيْبُ الْمَنُونِ الْخِيَامْ

اَلدَّهْرُ لاَ يَبْقَى عَلَى حَالَةٍ
لاَ تَغْتَرِرْ مِنْ وَجْهِهِ بِابْتِسَامْ

---

448) المعسول 5/ 218.

إنْ سَـــــرَّ سَـــــاءَ، أوْ تَدَانَى نَأى

مَـــا نَالَ مِنْهُ أحَـــدٌ مِنْ مُـــرَامْ

وَإنْ أتَى بِالْمُـــشْـــتَـــهَى نَيْلُهُ

أعْـــقَـــبَـــهُ فِي الْحَـــالِ بِالانْصِـــرَامْ

أوْ أضْـــحَكَ الْمَـــرْءَ بِمَـــا نَالَهُ

أبْكَاهُ أوْ خَـفَّـرَ شَـخْـصاً يُضَـامْ(449)

وحتى يبرهن الشاعر على صدق حديثه يمثل ببعض من خانهم الدهر واغتالهم الموت، رغم ما بلغوا من قوة وبأس وعظمة، قال : (السريع).

أيْـنَ الْـفَـــــــــرَاعِـنُ وَأيْـنَ الْـألَـى

قَـــــدْ غُـــــبِّـــــرُوا وَهُـمْ مُلُوكٌ عِـظَامْ

أيْـنَ الَّـذِي رَفَّـعَ أهْـرَامَـــــــــــهُ

وَأيْـنَ ذُو الْقَـــــرْنَيْـنِ أقْـــــوَى الأنَـامْ

أيْـنَ الأكَـــــاسِـــــرُ الْـعِـظَامُ وَمَـنْ

شَـــادُوا الْخَـــوَرْنَقَ الرَّفِـيعَ الْمَـــقَـــامْ

وَأيْـنَ شَـــــدَّادُ الَّـذِي قَـــــدْ بَـنَى

إرَمَ ذَات عَـــــمَـــــدٍ مِنْ رُخَـــــامْ

أيْـنَ سُلَيْـــــمَـــــانُ الَّـذِي مُلْـكُـهُ

جَـلَّـى، فَـلَـوْ يَبْـــــقَـى مَـلِـيكٌ لَـدَامْ

وَأيْنَ مَـنْ أسْـــــرِي بِـه لِلسَّـــــمَـــا

فَـــحَـــازَ أنْوَاراً بِهَـــا الْقَلْبُ هَامْ(450)

إن الشعراء يحيلون على أحداث التاريخ قاصدين المناسبة بينها وبين مقاصد أشعارهم مستشهدين على الجديد بالقديم؛(451) إنهم يحاولون المواءمة بين نوعين من الخطاب : الشعر بخصائصه الفنية، والتاريخ بسرده الحكائي،(452) إلا أن مقصدية التصبر والتعزي

---

449) المعسول 9/ 79-80.

450) المصدر نفسه.

451) جابر عصفور ـ مفهوم الشعر، ص : 180.

452) محمد مفتاح ـ تحليل الخطاب الشعري، ص : 130.

وتهوين مصيبة الموت، تدفع بالشاعر إلى إعادة إنتاج النصوص التاريخية عبر انتقاء الصور والمواقف المأساوية، والتعابير ذات القوة الإيحائية،(453) وتحويلها إلى رموز لغوية تتميز بسمتين هامتين هما الإيجاز والاختصار من خلال تقاطع ثنائية الحياة والموت.

وتقوم أسماء الأعلام والأماكن بمهمة إثارة الذاكرة، فأسماء : كليب وائل، وعمرو بن هند، وجذيمة، وقصير، والفراعن، وإرم ذات العماد... تبنى عالم الحياة الذي يعج بكل معاني السلطة والقوة والخصوبة والنعيم، والتي تكررت عبر التاريخ على اختلاف صورها، وتكون النهاية دائما الاندثار تحت سطوة الموت.

وهكذا ترد الرموز اللغوية، عند شعرائنا، على شكل لمحات في غاية الإيجاز في سياق شعري رثائي لتعمق فيه الجانب الدرامي المأساوي، إنها «تحمل وظائف جمالية عندما تسهم في تشكيل تجربة الشاعر على نحو مؤتلف مع مكونات النص الفني».(454)

* تعداد مناقب الفقيد وما عرف عنه من أعمال خيّرة، وما تميز به من واهب وملكات فقدت بفقده، كقول العتيق الإلغي راثيا محمد بن الشيخ علي الدقاوي،(455) مكررا لفظة «فقدنا» التي صارت لازمة تتكرر أول كل بيت : (البسيط).

فَقَدْنَا فِيهِ كَرِيماً وَأَبِيّاً إِذَا ... أَمْحَلَتَ الأَرْضُ أَوْصَالَ الْعِدَا بِيَدِ

فَقَدْنَا فِيهِ أَنَاةً لاَ تُزَعْزِعُهُ ... خُطُوبُ دَهْرٍ وَإِنْ جَلَّتْ عَنِ الْعَدَدِ

فَقَدْنَا فِيهِ عُلُوماً كَانَ يُتْقِنُهَا ... فَازْدَادَ مِنْ فَهْمِهَا قُرْباً إِلَى الأَحَدِ

فَقَدْنَا فِيهِ خِصَالاً اسْتَقَلَّ بِهَا ... فَكَانَ مِنْ أَجْلِهَا فَرْداً بِلاَ فَنَدِ(456)

وكقول محمد بن علي الإلغي في رثاء أخيه المدني : (البسيط).

مَنْ لِي بِهِ مِنْ فَقِيهٍ أَيِّدٍ نَدِسٍ ... إِمَامِ مَنْ قَدْ هُدِي فِي الدِّينِ أَوْ رَشَدَا

453) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص : 130 .
454) فايز الداية ـ جمالية الأسلوب، ص : 175.
455) توفي 11 شعبان 1391هـ/ 2 اكتوبر 1971م. انظر ترجمته بالمعسول 2/ 233.
456) ديوان العتيق، ص : 41.

مَنْ لِي بِهِ مِنْ أديبٍ مُصْقِعٍ حَذِقٍ
يَفْرِي فَرِيَّ كَمِيٍّ لاَبِسٍ زَرَدَا

مَنْ لِي بِهِ مِنْ أديبٍ مُفْلِقٍ خَضِرٍ
مُخْلِفٍ إِيعَادَهُ وَافٍ بِمَا وَعَدَا

مَنْ لِي بِهِ مِنْ مُحَقِّقٍ إذَا ذُكِرَتْ
أَبْحَاثُ قَوْمٍ فَبَحْثُهُ غَدَا السَّنَدَا(457)

* استعظام مصيبة الموت، ووصف اضطراب الأمور بعد وفاة الفقيد والتهويل في ذلك، تعبيرا عن التفجع وعمق التأثر، كقول الطاهر بن علي الإلغي في رثاء الطاهر الإفراني، مبرزا أن مصيبة موته عمت الناس كلهم وانقلبت لها الأرض ظهرا لبطن : (الطويل).

وَإنْ قُلُوبَ الْمُؤْمنِينَ بِمَوْتِه
تَئِزُّ أزيزاً مِثْلَ مَا أزَّتِ الْقِدْرُ

وَقَدْ رَابَنَا الْيَوْمُ الَّذي قَدْ قَضَى به
وَحَقاً أتَتْ فِيهِ الْمَصَائِبُ وَالأمْرُ

تَبَدَّلَت الأيَّامُ وَارْتَفَعَ الْهُدَى
وأظْلَمَت الدُّنْيَا كأن لَمْ يَكُنْ فَجْرُ(458)

وقول امحمد الكثيري يرثي شيخه علي بن عبد الله الإلغي ويصف مصابه الذي عم الخافقين وساد العالمين : (الكامل).

وَرَزِيَّةٍ تَمْرِي ضُرُوعَ مَدَامِعٍ
كُلُّ الرَّزَايَا عِنْدَهَا لاَ تُذْكَرُ

عَمَّتْ وَخَصَّتْ كُلَّ ذي أدَبٍ فَمَا
تَلْقَاهُ إلاَّ حَائِراً يَتَفَجَّرُ

يَاعَاذِلِي وَمُؤَنِّبِي في عَبْرَتِي
إنَّ الرَّزَايَا فِي الأكَابِرِ تَكْبُرُ

---

457) المعسول 2/ 151، والأيّد : القوي، والندس : الذكيّ والفطن.
458) المعسول 7/ 228.

هَلْ بَعْدَ فَقْدِكَ يَافَقِيهَ الْعَصْرِ منْ
عَيْش يُرَجَّى أوْ مُنًى تُتَذَكَّرُ
طَمَّ الْمُصَابُ وَعَمَّ أبْنَاءَ الْوَرَى
فَتَحَيَّرُوا منْ وَقْعِه وتَحَسَّروا(459)

التعبير عن الحزن لوفاة الفقيد ووصف مشاعرَ الأسى الَتيَ خلفها في النفوس، كقول عبد الله بن أحمد بن سعيد الأكماري متألما لفقد عمته (الطويل).

فَأف وَأف لاحْتِمَال غَضِيضَة
مِنَ الدَّهْرِ لاَيَقْوَى لَهَا كُلُّ أضْلُعِ

***

ولَمَّا سَمِعْتُ الصَّارخَات عَشِيَّةً
يَنُحْنَ لِمَوْت قَاطِعٍ كُلَّ مَنْخَعِ
سَكِرْتُ وَمَا سُكْرٌ لِمِثْلِيَ عَادَةٌ
ولَكِنْ لِحُزْن مُدْقِعٍ مُتَبَزِّعِ
فَبِتُّ كَأنِّي سَاورَتْني ضَئِيلَةٌ
أوَ أنِّيَ مِمَا بَيْنَ الْوَشِيج الْمُزَعْزِع(460)

وقول أحمد بن زكرياء الباعمراني يتألم لفقد أحمدَ بن عَلي الدرقاوي، وَيصور مشاعر الحزن التي تنتابه : (البسيط).

خَطْبٌ ألَمَّ فَأضْنَاني وَأنْحَلَني
وَمُرُّ بَيْن تَغَشَّاني فَأذْهَلَني
قَدْ أضْرَمَ الْحُزْنُ نِيرَاناً عَلَى كَبِدي
بِمَوْت أحْمَدَ، واَكَبْدِي مِنَ الْحَزَنِ

***

فَرُزْؤُه جَلَّ عَنْ دَمْعي وَتَسْليَتي
فَمَا الْبُكَاءُ يُسَلِّي قَلْبَ ذِي شَجَنِ

***

459) المعسول 1 / 381 .
460) المعسول 11/ 117.

قَــدْ خَلَّفَ الْحُــزْنَ أَضْعَــافـاً تَأَوُّبُنِي
ضَــاقَ لِهَــوْلِهِ رَحْبُ السَّــهْلِ وَالْحَــزَنِ
يَا نَفْسُ ذُقْتِ فِــرَاقــاً مَــالَهُ أَمَــدٌ
حِينَ فَــقَــدْتِ حَــبِــيبَ الْقَلْبِ وَالْبَــدَنَ
فَــحُــزْنُهُ حَلَّ أَحْــشَــائِي وَأَوْقَــدَ فِي
صَدْرِي بِجَمْرِ الْغَضَا مَا صَارَ يَصْهَرُنِي(461)

* تعزية المصابين في وفاة الفقيد، وتتناول حثهم على الصّبر والتسلي وتهوين الأمر والتذكير بما خص الله بن الصابرين من عظيم الأجر. كقول عبد الله بن إبراهيم السعيدي في تعزية ابن عمه المختار السوسي في وفاة أخيه أحمد: (الطويل).

بَنِي شَــيْـخِنَا صَـبْـراً عَلَى فَـقْـدِ أَحْـمَـدَ
كَـرِيمِ السَّـجَـايَا ذِي السِّــيَـادَةِ وَالْفَـخْـرِ
فَـإِنْ تَـصْـبِـرُوا لَنْ تَعْـدَمُـوا أَجْـرَ صَـبْـرِكُمْ
وَإِنْ تَجْـزَعُـوا تَبْـقَـوْا جَـمِـيـعـاً بِلاَ أَجْـرِ
«وَعُــوِّضْتَ أَجْـراً مِنْ فَـقِــيـدٍ فَـلاَ يَكُنْ
فَـقِـيـدُكَ لاَ يَأْتِي وَأَجْرُكَ فِي خُـسْـرِ»(462)

ويتجاوز محمد بن أحمد العتيق السّليماني تعزية خاصة أهل الفقيد، إلى تعزية العدالة والدفاتر والعلماء والقضاة لما أصيبوا بموت القاضي الحسن بن مبارك الواسلامي، لما قال: (الوافر).

قُــضَــاةَ الْقُـطْرِ أَرْبَابَ الْـمَــزَايَا
عَــزَاءً فِي الَّـذِي مِـنْـكُـمْ قَــرِيـبُ
عَــزَاءً لِلْعَــدَالَةِ فِي فَــقِــيـدٍ
لَهُ فَــهْـمٌ وَتَقْــرِيرٌ مُــصِــيبُ
عَــزَاءً لِلدَّفَــاتِرِ فِي فَــقِــيـهٍ
لَهُ شَــغَفٌ بِقُنْيَــتِــهَــا عَـجِـيبُ
عَــزَاءً لِلأَحِــبَّــةِ فِي حَــبِــيبٍ
يَضُــرُّ النَّفْسَ كَيْ يَرْضَى الْحَــبِــيبُ

---

461) الإلغيات 1/ 99.
462) نفسه.

عَـــــزَاءً لـلْبَنِينَ لَهُ صـــــغَـــاراً
تَـذُوبُ لَـهُمْ - وَحَـــــقّكُمُ - الْـقُـلُوبُ
عَـــزَاءً فـــيـــه للْعُلَمَـــاء طُرّاً
فَكُلُّهُمُ لفُـــرْقَـــتــه كَـئـيبُ(463)

ويعلن محمد بن علي الإلغي رضاه بالقَدَر وصبره على مَصيبة طَالما كان الصبر ترياقا : (الطويل).

رَضِـــينَا بِمَــا قَـــدْ قَــدَّرَ اللَّهُ إِنَّهُ
سَـيَــأجُـرُنَا عَنْ فَــادِحِ الْوَقْعِ أعْظَمَــا
فَـصَـبْـراً أخِي صَـبْـراً جَـمـيـلا فَـإِنَّمَـا
دَوَاءُ الْمُـصَــاب الصَّـبْــرُ مَـهْـا تَحَتَّـمَـا
فَنَرْجُـــو لَهُ الرُّحْـــمَى مِنَ اللَّه مِنَّةً
بجَــاه النَّبي صَلَّى عَلَيْــه وَسَلَّمَــا(464)

وعلى العموم يُلاحظ على مَرَاثي تلاَميذ الإلغية الشعراء غلبة الهدوء والاتزان، فيواجهون مصيبة الموت بالصبر والاحتساب، ولا تجد عندهم أثرا للسخط وإنما هناك التوجع والتحسر وخصوصا الإلغيين منهم، إذ إن «مما اختصت به إلغ أن لا نياحة في جنائزهم، فكل ما هناك بكاء النساء والصبيان داخلا، حتى إن الخارجين لا يسمعون بكاء الداخلات المفجوعات وطالما حضرنا أمثال هذه المواقف، فلا نحس إلا لوعة في الصدور، أو دموعا تترقرق مغالبة في العيون، مع تجلد المصابين...»(465) وقد حرص الشعراء على احترام هذا العرف العام، محترسين من الاصطدام والسنة النبوية التي تنص على تحريم النياحة وما يصاحبها من عادات، فكانت مَرثياتهم تنحو منحى الصبر والتجلد وتجنب المعاني الدالة على السخط على القدر وتحويل ما قاربها إلى التعبير عن الجزع والضعف أمام المصيبة.(466)

وقبل أن نختم حديثا عن غرض الرثاء، نشير إلى ملاحظة تبين بعض خصائصه عند شعراء الإلغية، ونقصد خصيصة جنوح بعض الشعراء إلى الإيجاز في مقام يقتضي الأطناب عند ذكر الفقيد وتعداد مناقبه، والتحسر على فراقه، ويرجع هذا إلى أمرين :

---

463) ديوان العتيق، ص : 45.
464) المعسول 2/ 123.
465) المعسول 1/ 35.
466) انظر حول مذاهب الرثاء، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها 1/ 429.

* نضوب المعاني من ذهن الشاعر، فلا يستطيع النظم بحرية لسبب من الأسباب، كأن يكون مصابه جللا حتى إن القول لا يستوي له، أو يتعمد النظم مجاراة للعرف القاضي بوجوب الرثاء، وأكثر ما يحدث هذا عند رثاء النساء والأطفال، وقد أشار النقاد القدماء إلى هذه الظاهرة؛ قال ابن رشيق : «... أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة، لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات...»،(467) ويتجلى لنا هذا الأمر في قصيدة للشاعر عبد الرحمان البوزكارني رثى بها زوج أستاذه الطاهر الإفراني، فما زاد في ذكرها عن بيت واحد، مع أن القصيدة في ستة عشر بيتا، قال فيه : (الخفيف)

وَتَعَزَّ عَمَّنْ دَهَتْهَا الْمَنَايَا
وَثَنَاهَا بَاقٍ لِيَوْمِ التَّنَادِي(468)

وأيضا في مقطوعة للشاعر الطاهر الإفراني، عزى فيها شيخه علياً الإلغي في وفاة صبي له صغير، من خمسة أبيات، صدّرها بالدعوة إلى الصبر والرضا بقضاء الله، ثم ذكر وفاة الصبي في بيت ودعا لأبيه بأن يعوضه الله خيرا منه، قال : (البسيط)

مَوْلاَيَ لِلَّه مَا أعْطَى وَمَا أخَذَا
وَالصَّبْرُ أجْمَلُ، إمَّا مُبْرَمٌ نَفِدَا

فَفِي الرِّضَا بِقَضَاء اللَّه مُحْتَسِباً
مَا يَزَعُ النَّفْسَ عَنْ رُزْء وَإنْ وَقَذَا

مَضَى بُنَيُّكَ لِلْفِرْدَوْس حِينَ رَأى
أنَّ الْمُقَامَ بِذِي الدُّنْيَا بَلاَ وَأذَى

فَاللَّهُ يَخْلُفُهُ فَضْلاً وَيُرْدِفُ آ
لاَء تَسُرُّ وَتُقْذِي الْحَاسِدِينَ قَذَى(469)

* ميل الشعراء إلى الإجمال تقليدا للشعراء الأقدمين،(470) ورغبة في وقوع مراثيهم موقعا حسنا من السامعين، وبقائها عالقة بأذهانهم. فيحاولون إجمال صفات المرثي في بيت أو بيتين، كقول محمد بن الحاج الإفراني في رثاء محمد بن العربي الأدوزي : (الخفيف)

---

467) العمدة 2/ 154.
468) انظر المعسول 10/ 104.
469) عبد الله درقاوي ـ الطاهر الإفراني، حياته وشعره، ملحق الشعر، ص : 377-378.
470) انظر العمدة 2/ 150.

رَحِـمَ اللَّـهُ غُــــــرَّةَ الدَّهْـرِ مَنْ قَـــــدْ
بالنَّعِـــيمِ الْمُـــقِــيمِ فِي الْخُلْدِ جُـــوزِي
ذَاكَ شَـــيْخُ الشُّـــيُـــوخِ وَالْعَلَمُ الْمَـــرْ
فُـــوعُ في رُتْبَـــةِ الرُّسُـــوخِ الأدُوزِي(471)

فالشاعر يجمل رثاء الأدوزي في صورتَين متلازمتَين، الأولى تركز على صفات المرثي حيا، فهو شيخ الشيوخ، والعلم المرفوع، وغرة الدهر، وكلها تلح على مرتبته العلمية الرفيعة، أما الثانية فتشير إلى صفته ميتا وما يرجوه الشاعر له من إقامة في النعيم الخالد في الآخرة. فبواسطة هاتين اللحظتين الشعريتين استعاض الإفراني عن رثاء الأدوزي بتعداد مناقبه والتأسف على فراقه... في أبيات كثيرة وقصيدة ممتدة.

هـ - الفخر :

أقل الأغراض وجودا لدى شعراء الإلغية، إذ لم أقف لهم على شيء يدل على وجود هذا الفن لديهم، إلا ما كان من قطعتين للشاعر الكثيري... وبيت واحد للشاعر السكال الباعمراني، فيه إشارة فخرية، ولا شك أن سبب ذلك :

* استهجان السوسيين عامة، والشعراء خاصة مدح المرء نفسه وافتخاره بأجداده وآبائه، فيعتبرون الفخر مرذولا «يدل على سقوط الهمة وعلى فسولة الرأي، وعلى أن المرء يزور من نفسه لسانا غير مخلوق، وهذا أدخل في باب المذلة والضعة منه في باب الفخر والحمية...».(472) ويرون أن افتخار المرء بأعماله لا بقوله، فتكون مآثره لسان مدح يعلي شأنه لمّا سكت عنه بيانه.

* مخالفة النزوع للافتخار الجوَّ الإخواني الذي يعيش فيه الشاعر من تلاميذ الإلغية، متبادلا عواطف المحبة والمودة والاحترام والتبجيل مع أصدقائه وشيوخه وتلاميذه، مما لا تسنح معه الفرصة للافتخار الذي ينتج دائما عن عدواة وخصام وضغينة، وهي ما كان بينهم مفقودا، ولا نقصد أنهم لم يكونوا يعادون أو يخاصمون أحدا، وإنما لكونهم لم يسمحوا لهذه العواطف بالظهور في منتدياتهم، فما بالك بأشعارهم، بحكم انسجامهم الفكري والعاطفي، وتحقق حالة «النحن» أي الجماعة السيكولوجية المنسجمة بحيث اتحدت أنواتهم لتشكيل قاعدة للاستقرار، وتحقيق التوازن النفسي الذي لا يمكن معه ظهور الفخر باعتباره اعتدادا بالنفس وتضخيما للذات، والذي ينتج عن تصدع حالة «النحن»

---

471) المعسول 5/ 219.
472) الرافعي ـ تاريخ آداب العرب 3/ 99.

بشدة؛(473) وعلى عكس ذلك، كان شعراؤنا يلحون في التواضع إلى حد بعيد في مطارحاتهم الإخوانية شعرا أو نثرا؛ فإذا نظم أحدهم قصيدة ختمها بوصف قلة بضاعته وضعف شعره، طالبا القبول والصفح عما بها من عيوب، وهذا نراه مبثوثا في إنتاجاتهم بكثرة، كقول أحمد بن زكرياء الباعمراني يمدح إخوة أستاذه المدني بن علي : (الخفيف)

فَخُذُوا هَذِه الْقَصِيدَةَ مِنِّي
يَا بَنِي إِلْغَ وَاسْتُرُوا كُلَّ عَيْبِ
واعْذُرُوا مُبْضِعاً لِخَيْبَر تَمْراً
يَبْتَغِي مِنْكُمُ جَوَاباً لِصَبِّ(474)

وقول الطاهر الإفراني في ختام مدح شيخه علي بن عبد الله الإلغي : (الكامل)

وَإِلَيْكَهَا مِنْ فِكْرَةٍ قَدْ أذْهَبَتْ
أَيْدي النَّوَائِب مَاءهَا الْمُسْتَعْذَبَا
بُعِثَتْ إِلَيْكَ وَهِيَ أَنْفَرُ بِالنَّوَى
مِنْ قَبْرِ حَرْب، بِرِقٍّ لَفْظ خَلَّبَا
فَاسْتُرْ مَسَاوِي وَجْهِهَا وَتَلافَهَا
بِمَحَاسِن الإغْضَا لِئَلاَّ تَرْهَبَا(475)

لهذا ندر أن ترى في أشعارهم أبياتا في الفخر، بل إن بعض من وقعت في أشعارهم معانيه سجية يعمد إلى حذفها واستبدالها، كما نرى عند السكال الباعمراني في تعليقه على بيت من قصيدة مدح بها الإلغيين وضمنها رسالة أرسلها إليهم وهو قوله : (الخفيف)

قَدْ بَعَثْتُمْ إِلَيَّ تَرْتَادُونَ الشِّعْـ
ـرَ وَإِنِّي لَذُو قَوَافٍ تُصِيبُ(476)

قال معلقا عليه : «... ولقد حاولت أن أبدل قولي وإنِّي لذو قواف، لما فيه من شبه الافتخار فأبت القريحة أن تبض بقطرة...».(477)

---

473) مصطفى سويف ـ الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، ص : 126.
474) شعر أحمد بن زكرياء السكال، جمع وتحقيق وتقديم، د. أحمد أبو القاسم، رسالة الدكتوراه في الأدب المغربي نوقشت في 17 فبراير 2004، ص : 33 – 38 . كلية الآداب الرباط، والقصيدة وردت في رسالة مؤرخة في 24 صفر 1370هـ/ 5 دجنبر 1950م.
475) المعسول 7/ 107.
476) المصدر السابق.
477) أوراق أحمد أبو القاسم الباعمراني.

وإذا عدنا إلى الأديب الكثيري المنفرد بالافتخار من بين شعراء الإلغية، وجدناه قد خالف القاعدة العامة التي سطرنا من قبل لسببين :

الأول : نظم قصيدته الوحيدة في هذا الباب، خارج سوس بمدينة الجديدة وسط تحرش الخصوم واستخفاف الحاقدين بشعره، بعيدا عن جو الأخوة المألوف بإلْغْ، حيث يلقي القول على عواهنه فيتصدى إخوانه الأدباء لتقريظه، وقد قال مصدرا قصيدتَه هذه : «... وللكاتب مستشعرا انتقاد بعض الحساد، وانتقاص بعض من انتُقض زاده من الأوغاد».(478) فكان الشاعر بذلك في بيئة مشجعة على الافتخار، بإظهار المحامد تعريضا بالحساد وإرغاما لأنوفهم.

الثاني : تأثر الشاعر بالشعر الحديث، خاصة حركة البعث والإحياء وغيرها من الاتجاهات الشعرية، التي تعد الشعر معبرا عن عاطفة صاحبه فرحا وترحا حلما وغضبا، ووسيلة لمجابهة الواقعة وأحداثه.

وقد نظم الشاعر قصيدته أصلا - كما في كناشه - في تسعة وعشرين بيتا، غير أنه عاد إلى تنقيحها واختصارها فنشرت في صيغتها الجديدة بالمعسول، في تسعة عشر بيتا مع إضافة بيتين جديدين.(479) وإذا راجعنا الأبيات المحذوفة في الأصل، وجدناها تضم مشاعر فخرية عميقة ناتجة عن تأجج العاطفة، فكانت ردا منفعلا على حساده، في حينها، توحد فيه القلب والعقل... والوعي واللاوعي بقوة الخيال.(480) ثم لما جاء وقت النشر عاد إليها الشاعر بعد فترة وقد مسح الزمان من نفسه أثر الأحداث التي أفرزتها، فنظر إليها نظرة عقلية منطقية يلفها التواضع والتحرز، فعمد إلى تلك المبالغات وأسقطها، ومنها قوله مفتخرا بمنزلة قومه : (الطويل)

وَأَحْـمِي حِـمَى قَـوْمِي وَأَطْوِي عَلَى الظَّمَـا
إلَى أَنْ أُرَوِّيَ مِـنْ عَـــدُوِّي سِنَـانِيَـــا

* * *

فَـــإِنِّيَ مِنْ قَـــوْمٍ كِـــرَامٍ أَعِـــزَّةٍ
صُـــــدُور إِذَا حَـلَّ الْـكِـرَامُ النَّـوَادِيَـا

كَـأَنَّ الْمَــعَـالِي لاَ تُبَـاحُ لِغَـيْـرِهِمْ
فَكَمْ أَبْعَـدُوا فِي الْمَكْرُمَـاتِ الْمَرَامِـيَـا

---

478) كناش الكثيري، ص : 93.
479) انظر المعسول 9/ 265.
480) الطريسي أحمد أعراب ـ الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب ص : 39.

مَـــــحَـــــافِلُهُمْ لِلْعِلْـمِ وَالْحِلْـمِ وَالنَّدَى
وَأَفْكَارُهُمْ كَـــالصُّـــبْحِ تُجْلِي الدَّيَاجِـــيَـــا
مَـنَـالٌ يَـعِـــــــــــزُّ أنْ يُـنَـالَ وَإنَّـمَـــــــــا
مَـقَــامَــاتُهُمْ أضْـحَتْ لِقَـوْمٍ أمَـانِيَـا(481)

وقوله أيضا مفتخرا بتجلده للدهر وصبره على مصائبه :

يَظُنُّ زَمَـــانِي أنَّنِي مِـــثْلَ مَـــعْـــشَـــرٍ
إذَا سَـــامَـــهُمْ خَـــسْفٌ أبَلُّوا المَآقِـــيَـــا
وَلَـمْ يَدْرِ أنَّ لِي مِنَ الْعَـــــزْمِ مُـــصْلَتـــاً
إذَا جُـرِحَ اسْتَـوَى مِنَ الْعِـزِّ قَـاصِيَـا(482)

أما المعاني التي بنى عليها شاعرنا قصيدته فتضمها فكرتان أساسيتان :

الأولى : الافتخار بالشاعرية وقوتها وجودة معانيها، فشعره فيض لا يغيض، وفكره جوال في ميدان المعاني، حوام في كل جو، وأمداحه تنير وجه الليل وتنشر الأيام الدارسة، قال وهو أول القصيدة :

أتَحْـــسِبُ أنِّي لاَ أجِـــيـــدُ الْقَـــوَافِـــيَـــا
وَأنِّـيَ لاَ أبْدِي وَإنْ جَـلَّ مَـــــــــابِيَـــــــا
ألاَ إنَّ شِـــعْـــرِي فَـــيْـــضُـــهُ غَـــيْـــرُ غَـــائِض
فَـــمَـــالِيَ لاَ أجْـــرِي الْقَـــوَافِيَ مَـــالِيَـــا
مَـــتَى جَـــالَ فِكْرِي فِي خَـــيَـــال تَـسَـــابَقَتْ
إلَيْـــه مَـــعَـــان تَسْـــتَـــفِـــزُّ الرَّوَاسِـــيَـــا
وَإنْ حَـــامَ فِي جَـــوِّ الصَّـــفَـــاء سَـــمَتْ بِه
إلَـى الأوْجِ آمَـــــــــالٌ تُـنَـاجِـي الـدَّرَارِيَا
فَلَوْ صُـــرِفَتْ مِنِّي إلَى اللَّيْلِ مِـــدْحَـــةٌ
لَبَـــيَّضَ مَـــدْحِي الْفَـــذُّ تِلْكَ اللَّيَـــالِيَـــا

481) كناش الكثيري، ص : 93.
482) المصدر نفسه.

وَلَوْ قُمْتُ فِي التَّارِيخِ أَنْشُرُ طَيَّهُ

لَجَدَّدْتُ مِنْ دَهْرِي السِّنِينَ الْبَوَالِيَا(483)

الثانية : افتخاره بسمو همته واستبداله عشق المعارف بحب الغواني، وسعيه وراء المعالي التي تلقنها في المهد صبيا؛ فهو ماجد ابن ماجد، ورث الشرف عن آبائه الكرام؛ والشاعر في هذه الفكرة يسير على خطى القدماء، كما سطرها ابن رشيق؛ إذ افتخر بآبائه كما جعلهم يزدادون به شرفا.(484) كما لم ينس الشاعر أن يشير إلى سبب انتقاص الحساد له، فهم يرون له شفوفا لا يستطيعون إدراكه، قال :

وَلَكِنْ شُفُوفِي عِنْدَ قَوْمٍ جَرِيمَةٌ

وَذَلِكَ شَيْءٌ لاَ يَضِيرُ الْمَعَالِيَا

رَأَوْا عَطْلَ أَجْيَادِهِمْ فَتَنَكَّدُوا

بِمَا قَدْ رَأَوْا جِيدِي بِفَضْلِيَ حَالِيَا(485)

و – الشعر الوطني :

تدخل ضمن هذا الغرض كل الأشعار التي تدل على ارتباط الإنسان بأرضه وموطنه، والتي تتعلق بمشاكله وقضاياه، وتمجد مثله السامية وتناضل لأجل بقائها واحترامها؛(486) وانطلاقا من هذا المفهوم اهتم شعراء الإلغية بمشاكل وطنهم رغم بعدهم عن مركز الأحداث في شمال المغرب وتابعوها، خاصة وأنهم عاشوا في حقبة شهدت تكالب الاحتلال الأوربي، وتدخله في شؤون البلاد مهددا مقوماتها «... فتراث الوطن أصبح هدفا للتشويه، والدين مرمى للطعن، والأرض منجما للاستغلال، وأبناء الوطن عرضة للتفرقة».(487) فسلّ شعراؤنا من قريضهم سيفا للذّب عن حياضه؛ ثم لما نزلت المصائب وحل الاحتلال بين أظهرهم سكتوا حينا، وإن لم يكونوا يفلتون المناسبات للتعبير عن تعلقهم بوطنهم، وكرههم للمحتلين، بمدح السلاطين العلويين الذي كانوا رمز الوطن والدين؛ ولما انجلى ظل هذه الظلمة قاموا مغتبطين بالتحرر فرحين به، ثم واكبوا بعد ذلك متغيرات الواقع المغربي بعد الاستقلال وخطواته للمّ الشتات، وتحرير ما تبقى من أراضيه.

483) المعسول 9/ 265.
484) انظر العمدة 2/ 145.
485) كناش الكثيري، ص : 93.
486) انظر الشعر الوطني في عهد الحماية، ص : 65.
487) نفسه، ص : 66.

وتنبث هذه المشاعر الوطنية في قصائد ومقطعات ونتف قصيرة؛ ويمكن تلخيص المحاور التي تناولوها فيما يلي :

1 - **الدعوة إلى الجهاد** : لم يكن شعراؤنا منعزلين عن قضايا المغرب ومهمات أموره، بل كانت تصلهم أصداء كيد المستعمرين ومناوشتهم لأطراف البلاد، ولما احتلت الدار البيضاء قام الطاهر الإفراني منذرا المغاربة للانتباه للغزاة المحتلين ووجوب المسارعة إلى قتالهم، قال : (الطويل)

فَـقَـدْ أَنْشَبَ الْكُفْـرُ الْمُـداهِنُ نَابَهُ
وَمَـدَّ إِلَى سَـرْحِ الْهُـدَى كَفَّ مُـفْسِـدِ
وكَـادَ بِـأَنْـوَاعِ الْـمَـكَـايِـدِ أهْـلَـهُ
وَصَـارَ يُنَادي : خَـامِـرِي وتَلَبَّـدي
أسَـرَّ احْـتِـسَـاءً في ارْتِغَـاءِ وَمَـالَهُ
سِوَى الدِّينِ منْ مَـرْمىً يُرَامُ وَمَـقْـصَـدِ(488)

وينظـر الشاعـر إلى أبنـاء وطنـه فيـجدهم لاهين عن فريضة الجهاد، غاضين الطرف عن انتهاكات الكافرين، فهان عليهم دينهم ووطنهم، ولم يقتفوا آثار آبائهم الأولين الذين أذاقوهـم الهزيمـة والهـوان كلمـا راموا إذلالهم، فراح يتساءل مستنكرا هذا الواقع، غير راض به، ملحا على كون القتال السبـيل الوحيـد للحفـاظ على الدين والعرض. قال :

فَـأَيْنَ مَـسَـاعِـيـرُ الْوَغَى وَفَـوَارِسُ الـ
ـلِّقَـا وَمَـصَـابِيحُ الْعَـجَـاجِ الْمُـعَـقَّـدِ
وَأَيْنَ الألى صَـوْتُ الصَّـرِيخِ إلَيْـهِـمُ
أَلَذُّ وَأَشْـهَى مِنْ سُـلاَفَـةِ صَـرْخَـدِ
وَأَيْنَ الألى قَـدُّ الْجُـسُـومِ عَلَيْـهِـمُ
هَبَـاءٌ إِذَا مَـا الْعِـرْضُ غَـيْـرُ مُـقَـدَّدِ
وَمَـا لَهُمُ لَـمْ يَثْـأَرُوهُ وَقَـدْ هَوَى
بِهِ الْـكُفْـرُ مَطْـلُولَ الدِّمَـاءِ وَلَـمْ يَدِ

---

488) المعسول 6/ 111.

لَقَـــدْ حَقَّ لِلْإِسْـــلاَمِ إِذْ مَـــاتَ أَهْلُهُ
وَخَلَّوْهُ أَنْ يَدْعُـــو بِوَيْلِ مُـــرَدَّدِ(489)

وقد تأكد لشعرائنا اعتقادهم بوجوب قتال الكفار المحتلين، لما رأوهم يلتهمون أرض المغرب جزءا فجزءا، فصار من اللازم تعبئة الناس في ظل أمير يقودهم إلى الجهاد؛ ولما بويع الشيخ الهيبة، قام بعضهم بتهنئته مشيرين إلى ما ينتظر منه من المبادرة إلى القتال؛ قال محمد التونلي التملي مخاطبا الأمير الجديد : (الكامل)

دُمْ نَاصِـــراً وَمُـــجَـــدِّداً رُكْنَ الْهُـــدَى
بِسُـــيُـــوفِ بِيضِ الْهِنْدِ رَابِحَ مَكْسَبِ
وَأَرِحْ قُلُوبَ الْمُـــومِنِينَ فَـــمَـــا عَـــسَى
يُجْـــدِي سِـــوَى حَـــزْمٍ وَعَـــزْمٍ أَصْـــوَبِ
بِكَتَـــائِبٍ كَـــالسُّـــحْبِ إِمَّـــا أَقْلَعَتْ
كَـــأُسُـــودِ غِـــيلِ الْقَـــفْـــرِ مَـــهْـــمَـــا تَطْلُبِ
تَذَرُ الْعِـــدَا صَـــرْعَى تَحُـــومُ حَـــوَائِمُ الْـ
ـــعِـــبَّـــانِ تَفْـــرِي هَامَـــهُمْ فِي السَّـــبْـــسَبِ
مِنْ كُلِّ قَـــرْمٍ لِلْحُـــرُوبِ يَـــرُودُ مَـــا
يُزْرِي لَدَى الْهَـــيْـــجَـــا بِبَـــرْقٍ خُلَّبِ
يَغْـــدُو وَيُصْـــبِحُ لِلْوَغَى غَـــضْـــبَـــانَ لاَ
يُعْنَى بِغَـــيْـــرِ مُـــدَرَّعٍ وَمُـــذَرَّبِ(490)

كما واكب شعراؤنا الثورات الشعبية في مناطق المغرب، خاصة في الجنوب وعضدوها بمدح زعمائها قادة الجهاد، ولعل من أبرز الشعراء الذين قاموا بهذا الواجب الطاهر الإفراني، الذي ما إن سمع بثورة مبارك بن الحسين التوزونيني(491) بمنطقة تافيلالت وقتاله للفرنسيين، حتى أرسل إليه قصيدة يمدحه فيها لقيامه على ساق الجد، بينما استسلم غيره، قال : (الطويل)

وَبَعْـــدُ فَـــدِينُ اللَّه يَشْكُرُ مَـــا بِهِ
أَتَيْتَ مِنَ السَّـــعْيِ الْمُـــوَفَّقِ لِلرُّشْـــدِ

489) المعسول 6/ 112 ـ 113.
490) المعسول 4/ 117.
491) انظر ترجمته بالمعسول 16/ 263.

سَـــعَــيْتَ لِإنْقَـــاد الْهُــدَى منْ مَــعَـــرَّة الـ
ـضَّـــلاَلَة إذْ سَـــامَــتْـــهُ بِالْعكْسِ وَالطَّرْدِ
وَقُـــمْتَ بِمَــفْـــرُوضِ الْجِــهَـــادَ تَوَكُّــلاً
عَلَى اللَّه لَمْ تَهْــتَفْ بعَــمْـــرٍ وَلاَ زَيْد(492)

ثم يسترسل شاعرنا ناصحا الثائر بوجوب التيقظ في محاربة الأعداء والانتباه إلى حيلهم ومكائدهم مع الثقة في نصر الله بقوله :

فَــثِقْ يَا وَلِيَّ اللَّه بِالنَّصْـــرِ وَاسْـــتَــعِنْ
بربِّكَ وَانْبُـــذْ لِلْعِـــدَا كُلَّ مَـــا عَـــهْـــدِ
وَلاَ تَتَـــهَـــيَّبْ كَـــثْـــرَةَ الْعَـــسْكَرِ الَّذي
تَرَاهُ فَنَصْــــرُ اللَّه خَـــــيْــــرٌ منَ الْجُنْدِ
وَلاَ تَخْشَ إلاَّ اللَّـهَ فَـــــاللَّـهُ كَـــــالِيءٌ
فَــمَنْ يَعْــتَــصِمْ بِاللَّه لَمْ يَخْشَ مَــا يُرْدِي
وكُنْ مُـــسْـــتَــعِـــيناً بِالتَّـــيَـــقُّظ حَـــاذِراً
خِـدَاعَ الْعِـدَا بِالْمَكْرِ وَالخَـتْلِ وَالْكَيْـده(493)

ولما مات الثائر التوزونيني وقام مقامه محمد بن بلقاسم النكَادي، عاد الإفراني إلى مدحه بعد أن سار سيرة سابقه في جهاد المحتلين، قال : (الكامل)

مَنْ قَـــامَ مُـــحْــتَـــســبـــاً فَــجَـــاهَدَ أُمَّـــةً
عَـــــمَّتْ وَطَمَّتْ كَـــــالظَّلاَمِ الْعَـــــاتِمِ
مُـــتَــــدَرِّعـــاً بِالصَّـــبْـــرِ لاَ وَكَـــلاً وَلاَ
هَـيَّــــــابَةً يُصْــــــغِي لِلَوْمِ اللاَّئـمِ
بَلْ صَـــالَ ضِـــرْغَـــامـــاً وَصَــمَّمَ صَـارِمـــاً
وَمَــضَى مُــشَـيِّــحـــاً كَـــالشِّــهَـــابِ الرَّاجِمِ
فَـــشَـــفَى صُـــدُورَ الْمُـــومنينَ وَبَاءَ عَنْـ
ـهُ الْكَـافِـــــرُونَ بِكُـلِّ أَنْفٍ رَاغِـمِ(494)

492)المعسول 16 / 312 .
493) ترجمته بالمصدر نفسه
494) نفسه ص : 313 .

ولم يكتف شعراء الإلغية بالدعوة إلى القتال وتمجيد الانتصارات، بل كانوا أيضا يعايشون هزائم المجاهدين، وينبرون لمواساتهم وحضهم على الصبر وعدم اليأس، كالشاعر محمد بن الحاج الإفراني الذي رفع قصيدة إلى الأمير الهيبة بعد انهزامه في مراكش يدعوه إلى الصبر والتفاؤل رغم المصائب، فيصور له الهزيمة وكأنها عثرة يدعو له بالقيام منها : (الطويل)

لَعاً يَا أمِيرَ الْمُسْلمينَ لَعاً لَعاً
سَتُبْصِرُ عَنْ قُرْبٍ لِنَصْرِكَ مَطْلَعَا

فَلاَ تَبْتَئِسْ مِمَّا رَأيْتَ فَطَالَمَا
تَقَلَّمَ نَبْتُ الرَّوْضِ ثَمَّتَ أمْرَعَا(495)

أو سجدة سجدها فليس بعدها إلا القيام، بقوله :

فَمَا تِلْكَ إلاَّ سَجْدَةٌ بَعْدَهَا الْقِيَا
مُ فَانْهَضْ وَأَعْلِ الرَّأسَ بِالأمْرِ وَارْفَعَا(496)

ثم ينصحه بالصبر على المصاعب :

فَلَوْلاَ الْعَنَا مَا كَانَ نَصْرٌ يُجْتَنَى
وَلَوْلاَ الْوَغَى مَا كَانَ أنْفٌ لِيُجْدَعَا

فَبِالصَّبْرِ نَيْلُ النَّصْرِ، مَنْ يَصْطَبِرْ يَنَلْ
مِنَ النَّصْرِ نُوراً كَالصَّبَاحِ أنْصَعَا

وبعد نيل الاستقلال وتنظيم الجَيش المغربي وظهوره بمظهر المدافع عَن الوطن والمحافظ على أمنه، خاصة بعد استرجاع الصحراء والقضاء على كيد الكائدين، وقف شعراؤنا مادحين الجيش المجاهد مشيدين ببسالته كقول محمد بن أحمد العتيق الإلغي منوها ببلائه في حرب الصحراء وحفاظه على ما عرف لدى الأجداد من شجاعة وإقدام : (الخفيف)

هُوَ جَيْشٌ يَرَى الْخُطُوبَ رُخَاءً
لاَ يَخَافُ الرَّدَى شِتاً وَهَجِيرَا

كُلُّ فَرْدٍ فِي الجَيْش إنْ عَنَّ بُؤْسٌ
يَتَرَاءَى فِي الْحَرْبِ لَيْثاً هَصُورَا

495) المعسول 16 / 313.
496) المعسول 10/ 17.

هَكَذَا جَيْشُنَا حَدِيثاً وَقِدْماً
لَيْسَ يُخْطِي لَدَى الطِّعَانِ النُّحُورَا
بَارَزُوا فِي الْوَغَى شُجَاعاً كَمِيّاً
ثُمَّ عَادَ الْكَمِي مَهِيناً حَقِيرَا...
أنْتَ، لاَشَكَّ فِي الْجِهَادِ مُقِيمٌ
هَلْ تَرَى لِلْجِهَادِ - صَاحِ - نَظِيرَا(497)

2 - العرشيات :

يعد عيد العرش في فترة الحماية مناسبة لتضامن المغاربة، وتأكيد تمسكهم بمقومات البلاد الدينية والتاريخية، والتي كان المحتلون يسعون إلى طمسها؛ ولما نالت البلاد استقلالها اهتزت عواطف الشعراء فرحا وترنموا بالنصر الذي جاء بعد عناء، وأضحى عيد العرش مناسبة لتخليد ذلك التّضامن الوطني والتعبير عن الامتنان لكل من أسهم في انجلاء الاستعمار، خاصة السلطان، وإظهار الفرحة والاستبشار بالاحتفالات التي تدوم الأيام المتوالية، وهكذا كانت العرشيات قصائد مناسبات تحاول تقديم الصوت العام من خلال نبرة الصوت الخاص،(498) أي تعبير الشاعر عن هموم الجماعة. وقد واكب الشعراء هذه الأفراح والاحتفالات بقصائدهم على واجهتين :

الواجهة الأولى : الرسمية. حيث ينصرف الشعراء إلى مدح السلطان وتهنئته بالعيد، وتعداد منجزاته طيلة السنة، وإظهار ما فيها من نفع للوطن، ووصف فرح الشعب بهذه المناسبة وترقبه لها كل عام، من ذلك قصيدة للشاعر العتيق الإلغي نظمها بمناسبة احتفالات عيد العرش لعام 1976، ولمّا كان استرجاع الصحراء أعظم الأحداث التي شهدها العام، فقد برزت في شعره. قال منوها بها باعتبارها خطوة توحيدية : (الخفيف)

وَحْدَةٌ أُلْهِمَ الْمَلِيكُ مَدَاهَا
فَلِذَا كَانَ بِالأُمُورِ بَصِيرَا
وَدَعَا الشَّعْبَ لِلْمَسِيرَةِ خَضْرَا
ثُمَّ لَبَّى النِّدَاءَ بَرّاً شَكُوراً بَرّاً

* * *

497) المعسول 10 / 17، وج 4/ 161 ـ 162.
498) ديوان العتيق، ص : 25 ـ 26.

وَحْـــــدَةُ الْمَـــــغْـــــرب الْعَظِيم مَنَاناً
كُلُّ فَــــرْدٍ بِهَــــا تَغَنَّى فَــــخُــــوراَ
وَحْـــدَةٌ لَوْ بَذَلْنَا فِـــيـــهَـــا نُفُـــوَسَـــاً
وَنَفِـــيـــســـاً لَكَانَ ذَاكَ يَســـيـــراَ(499)

ولا ينسى الشاعر وصف غبطة المواطنين بقدوم عيد العرش خاصة وقد صادف توحيد البلاد قائلا :

ألِفَ الشَّـــعْبُ كُلَّ ذكْـــرَى سُـــرُوراً
تَتَـسَـــامَى به النُّفُـــوسُ شُـــعُـــوراَ
أيُّهَـــا الْحَـــــفْلُ هَلْ هُنَاكَ مَـــزِيدٌ
لِيَـــزيدَ لِحَـــفْلنَا الْيَـــوْمَ نُوراَ ؟
كُلُّ عِـــيـــدٍ يَحِقُّ فِـــيـــهِ احْـــتِــفَـــالٌ
عَـــيـــدُنَا الْعَـــامَ يَسْـــتَـــحِقُّ الْكَثِـــيـــراَ
كَـــيْفَ لاَ وَهُوَ عِـــيـــدُ عَـــرْشٍ جَـــدِيدٌ
بَعْـــدَمَـــا نَالَ وَحْـــدَةً لَنْ تَبُـــوراَ(500)

ثم يولي وجهته ليخاطب ملك البلاد، مبينا ابتهاج الناس بالاحتفال بإظهار علامات الزينة، فقال :

يَا مَلِيكاً مُـــوَفَّـــقـــاً في أمُـــور
حَـــارَ عَـــمْـــرٌ لَهَـــا ونَادَى قَـــصِـــيـــراَ
شَـــعْـــبُكَ الْيَـــوْمَ عَـــاشَ عِـــيـــداً سَـــعِـــيـــداً
وَالنَّوَادي تَفُـــوحُ عِطْراً عَـــبِـــيـــراَ
حَـــيْـــثُـــمَـــا زُرْتَ تَلْقَ حَـــفْـــلاً بَهِـــيـــجـــاً
وَالْجَـــمِـــيعُ يُبْـــدِي لِذَاكَ سُـــرُوراَ
أبْـدَعَ الْقَـــوْمُ فِي الَّذي أظْهَـــرُوهُ
وَالسَّـــمِـــيـــرُ يُعَـــاطِي حُـــبّـــاً سَـــمِـــيـــراَ

499) حسام الخطيب ـ القصيدة العربية بين الحاضر والمستقبل... مجلة الوحدة عدد 82/ 83 يونيو – غشت 1992م محرم – صفر 1412هـ، ص : 113.
500) ديوان العتيق، ص : 26.

مَـنْـظَـرٌ شَــــــــــــيِّـقٌ بِـكُـلِّ مَـكَـان

مِـنْ نِظَـامٍ يَحْـكِـي لَنَـا أَزْدَشِـــــــيــــرَا

تَتَـــبَــــاهَى بِعَــــيــــدِ عَــــرْشِكَ وَهْناً

مُـــدُنٌ وَقُــــرىً فَـــبَــــانَتْ بُدُورَا(501)

الواجهة الثانية : الشعبية، يواكب الشعراء الحفلات الشعبية واصفين احتفال الناس وفرحهم بالذكرى، مجسدين فرحهم في مهرجانات محلية وأمسيات ثقافية وفنية، وقليل هم الشعراء الذين صوروا بدقة وتفصيل هذا الفرح الشعبي حيث كان غالبهم يكتفون بإشارات عامة، بينما انفرد الشاعر أحمد بن زكرياء السكال بنظم قصائد عرشية فكاهية مواكبة للمناسبة، تستهدف تسلية المجتمعين في المحافل الشعبية، وبما أن شاعرنا كان أستاذا بالمعهد الإسلامي بتارودانت، فقد كان يلقي قصائده من هذا النوع في حفلاتها، ومنها أرجوزة يقول عن الغرض منها : (الرجز)

وَقَـــصْـــدُنَا تَقْـــضِـــيَّـــةُ الأَعْـــيَـــاد

فِـي فَــــــــــــرَحٍ يُـوصَـفُ بِـازْدِيَـادِ

وَأَكْــــلُ أَنْـــــوَاعٍ مِـــــنَ الــــزَّرْدَات

تَــجْـــــــــــــمَعُ أَلْـوَانـاً مِـنَ الـلَّـذَّات

مَــــا بَيْـنَ لَحْـمِ الْبَـــقَـــرِ الْمَطْبُـــوخ

أو الـدَّجَـــاجِ الأَبْيَضِ الْـمَنْفُـــوخِ(502)

ثم يصف مكان الاحتفال وما فيه من زاربي مبثوته ووسائد، يجتمع عليها موظفو المؤسسة التعليمية لتتبع خطاب الملك بقوله :

وَبَعْــــدَ هَذَا فَلْنَعُـــدْ لِلْعـــيـــد

نَذْكُـــرْ مَـــا فِـــيـــهِ مِنَ السُّـــعُـــود

لاَسِـــيّـــمَـــا وَالْعِـــيــدُ عِـــيــدُ الْعَـــرْش

نَجْلِسُ فِـــيــــهِ فَــــوْقَ هَذَا الْعَــــرِيش

مِـنَ الـزَّرَابِـيِّ الَّـتِي قَــــدْ وُضِـــعَــتْ

مِنْ فَـــوْقِـــهَـــا وَسَـــائِدٌ قَـــدْ وُزِّعَتْ

501) ديوان العتيق، ص : 26.
502) شعر أحمد السكال، ص : 142 .

أَلاَ تَرَى مِنْ فَوْقِهَا الأَسَاتَذَهْ
يَنْتَظِرُونَ الأَكْلَ فَوْقَ الْمَائِدَهْ
بَعْدَ انْتِهَاءِ الأَكْلِ يَشْرَبُونَا
أَنْوَاعَ مَشْرُوبٍ وَيُنْصِتُونَ
لِكُلِّ مَا يُتْلَى مِنَ الأَخْبَارِ
وَكُلِّ مَا يُقْرَأُ مِنْ أَسْطَارِ
لاَسِيَّمَا خِطَابُ قَائِدِ الْبِلاَدْ
وَمَا حَوَاهُ مِنْ عِظَاتٍ وَرَشَادْ(503)

وبعد انتهاء خطاب العرش يخرج الناس للتفسّح والتمتّع بمشاهدة زينات المدينة، وحفلاتها المتعددة، حيث الأهازيج والألحان الموسيقية :

بَعْدَ السَّمَاعِ يَخْرُجُ الْجَمِيعُ
لِكَيْ يَرَوْا مَا أَبْدَعَ الْبَدِيعُ
وَكُلُّنَا نَخْرُجُ لِلْمَدِينَهْ
حَيْثُ نَرَى مَا لُبِسَ مِنْ زِينَهْ
كَأَنَّهَا عَرُوسَةٌ مَجْلُوَّهْ
لِبَعْلِهَا فِي كِسْوَةٍ وَجَلْوَهْ(504)

ثم يصف حال المتجولين المجتمعين على أصحاب المعازف ساخرا بقوله :

فِي كُلِّ مَيْدَانٍ تَرَى الأَلْوَانَا
مِنْ كُلِّ فَنٍّ يُعْجِبُ الإِنْسَانَا
مِنْ كَثْرَةِ الأَنْوَاعِ وَالأَنْوَارِ
وَمِنْ سَمَاعِ كَثْرَةِ الأَخْبَارِ
مَا بَيْنَ أَجْوَاقٍ تُغَنِّي لَحْنَا
وَبَيْنَ صَوْتِ الْمُوسِيقَى الْمُغَنَّى
وَبَعْضُنَا تَرَاهُ شَاخِصَ الْبَصَرْ
كَأَنَّهُ لَمْ يَرَ قَطُّ مَا ظَهَرْ

---

503) شعر أحمد السكال، ص : 98 .
504) المصدر نفسه.

وَبَعْضُنَا تَرَاهُ فَاتِحاً فَمَهْ
مُشَرَّدَ الذِّهْنِ مُصَاباً بِالْكَمَهْ
وَكُلٌّ هَذَا فِي جُمُوعٍ تَجْرِي
كَأَنَّهَا لِقَصْدِهَا لاَ تَدْرِي(505)

ولما كان اليوم يوم فرح وسرور، وضحك وحبور، قصد الشاعر إلى الهزل لتسلية مستمعيه وإضحاكهم، كقوله واصفا الولائم التي تقام بهذه المناسبة وما يتناول فيها من أطعمة رخيصة وغالية معرضا بالإشارة إلى بعض المظاهر الحادثة خاصة الغلاء، فقال :

وَكَانَ مِنْ غَرَضِنَا أَكْلُ الشِّوَا
لَكِنَّهُ غَلاَ غَلاَءً كَالدَّوَا
وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَكْلَهُ الْمُوَظَّفُ
لاَ سِيَّمَا الصَّغِيرُ وَالْمُطَرَّفُ
وَلَيْسَ لِلْمِسْكِينِ إلاَّ الْبَقَرَهْ
أو الْكُرُوشُ ذَاتُ رِيحٍ مُنْكَرَهْ
تِلْكَ الَّتِي بَاتَتْ لَدَى الْجَزَّارِ
حَتَّى اسْتَحَالَ لَوْنُهَا كَالْقَارِ
وَرِيحُهَا يَضْرِبُ مِنْ بَعِيدِ
كَرِيحِ ذَاكَ الشَّيْخِ مِنْ قُرُودِ
وَنَسْأَلُ اللَّهَ بِأَنْ يَقِينَا
مِنْ أَكْلِ مَا ذَكَرْتُهُ يَقِيناً(506)

ويختم الشاعر أرجوزته بمدح ملك البلاد، واصفا ترنم الناس له بالتهاني والدعاء بقوله:

وَكُلُّهَا تَصْدَحُ بِالتَّهَانِي
لِقَائِدِ الأُمَّةِ وَالأَوْطَانِ
قَائِدِ نَهْضَةِ الْبِلاَدِ الْحَسَنُ
ذَاكَ الَّذِي اجْتَبَاهُ هَذَا الْوَطَنُ

---

505) شعر أحمد السكال، ص : 98 وما بعد.
506) المصدر نفسه.

لأنَّهُ اسْتَطَاعَ أنْ يَجُوزَا
رئَاسَةَ الْقُدْسِ وَأنْ يَحُوزَا

ثقَةَ كُلِّ قَائدَ منْ عَجَم
وَعَرَب منْ كُلِّ هَذي الأمَم

وَكَانَ منْ حَقِّه كُلُّ هَذَا
وَفَوْقَ ذَا لكَوْنه أسْتَاذا

وَكَوْنه منْ قَادَة الْبُلْدَان
ممَّنْ لَهُمْ قَدْرٌ عَظيمُ الشَّان

وَكَوْنه منْ أمَّة عَظيمَهْ
قَدْ جَمَعَتْ مَحَاسناً كَريمَهْ(507)

3 - **شعر الدعوة إلى التعليم** : كان لأدباء المدرسة الإلغية اهتمام بنشر العلوم، فقد قضوا حياتهم في التعليم بالمدارس العلمية في سوس وخارجه، وكانوا يوالون نصح تلامذتهم بالإقبال على الدراسة والصبر عليها حتى ينالوا المرغوب، بقصائد نذكر منها قصيدة أحمد بن سعيد الإكماري التي مطلعها : (المتقارب)

أعِيرُوا السَّمَاعَ بُدُورَ الأنَامْ
لِنُصْحٍ يَزِينُ بِدُرِّ الْكَلاَم(508)

وأخرى لعبد الله بن محمد الإلغي مطلعها : (المتقارب)

إذَا كُنْتَ تَبْغِي دَوَامَ الشَّبَعْ
وَتَلْبَسَ أجْمَلَ ثَوْب صُنعْ(509)

وتندرج هذه القصائد ضمن الشعر الإخواني التربوي الذي يستهدف الرعاية والنصح، ولم تكن ذات بعد وطني إصلاحي غير أن بعض الشعراء الذين اتصلوا بالشعر الوطني في الحواضر المغربية المواكب للحملة الإصلاحية، والتي تزعمها المصلحون لنشر العلم والوعي، ودعوة الناس إلى نفض غبار الخمول والجهل عنهم،(510) حملوا قبسا من هذه الدعوة إلى سوس المنعزل عن باقي البلاد، وما فيها من حركة إصلاحية دائبة. يقول الشاعر محمد الكثيري داعيا الشباب السوسي لعمارة مدارسه : (الكامل)

---

507) شعر أحمد السكال، ص : 98 وما بعد.
508) المصدر نفسه.
509) المعسول 11/ 110.
510) المعسول 2/ 184.

أشَــبَــابَ سُــوس بَادر التَّــعْليــمَــا
وَذَر الْخُــمُــولَ وَعَــانق التَّنْظيــمَــا
صَــافحْ مَــعَــاهدَكَ الَّتي قَــدْ طَالَمَــا
تَشْكُو منَ الْهَجْر الْمَديد إلَيْهَا عَظيمَا
ثم يدعوهم لتعلم العربية وإتقانها وإضافة اللغات الأجنبية ومختلف العلوم إليها :
وَتَعَلَّمُــوا شَــتَّى الْعُلُوم وَحَطِّمُــوا
قَــيْــدَ الْجَــهَــالَة عَنْكُمْ تَحْطيــمَــا
وَتَلاَحَــقُــوا بالرَّكْب إنْ لَمْ تَسْــبــقُــوا
وَتَدَاركُــوا مَــا قَــدْ وَهَى تَرْمــيــمَــا
وَتَسَــابَقُــوا للْمَكْرُمَــات وَصَــمِّــمُــوا
في شَــيْــد صَــرْح عُــلاَكُمْ تَصْــمــيــمَــا
وَتَكَلَّمُــوا خَــيْــرَ اللُّغَــات وَزَاحــمُــوا
في غَــيْــرهَا أهْلَ اللُّغَى تَعْــمــيــمَــا(511)
ويقول محمد بن أحمد العتيق مهنئا أهل ماسة ببناء مدرسة وافتتاح التعليم بها في عام 1960م، مبينا أهمية العلم وضرورة رعايته : (البسيط)
بُشْــرَى لمَــسَّــةَ نُورُ الْعلْم ضَــاء بهَــا
فَــأدْبَرَ الْجَــهْلُ في حَــزْنٍ وَفي حَــرَد
هَل الْحَــيَــاةُ سِــوَى علْم وَمَــعْــرفَــة
هَلِ الْعَظيمُ سِــوَى دَاعٍ إلَى الرَّشَــد
مــثْلَ بُنَاة الْعُــلاَ وَالْمَــجْــد مَنْ سَكَنُوا
ذَا الْقُطْرَ منْ كُلِّ ذي فَــضْلٍ وَذي جَلَد
قَــامُــوا بتَــشْــيــيــد ذَا الْمَــعْــهَــد حَينَ بَدَتْ
في الْعلْمِ رَغْــبَــةُ مَنْ لَيْــسُــوا ذَوي كَــمَــد
بُشْــرَى لَكُمْ فَــثــمَــارُ الْغَــرْس يَانعَــةٌ
يُشْــفَى بهَــا مَــا أصَــابَ قَبْلُ منْ كَــبَــد(512)

511) الشعر الوطني، ص : 79 وما بعد.
512) نفسه.

ثم نوه بجهود قائد المنطقة المقاوم عبد العزيز الماسي لأجل نشر التعليم مكرها الناس عليه، بقوله :

عَبْدَ الْعَزِيزِ أَتَدْرِي مَا تُشَيِّدُ مِنْ
بُنْيَانِ عِزٍّ بِذَا الْوَادِي وَذَا الْبَلَدِ
أدْرَكْتَ عَبْدَ الْعَزِيزِ أنَّ مَسَّةَ لاَ
يُعْلِي لَهَا الشَّأْنَ إلاَّ الْجِدُّ فِي الرَّشَدِ
فَصِحْتَ فِيهَا : ألاَ لِلْعِلْمِ فَانْتَبِهُوا
ألاَّ أَصُولَ عَلَيْكُمْ صَوْلَةَ الأسَدِ
مَنْ كَلَّفَ النَّاسَ إصْلاَحاً فَلَيْسَ لَهُ
ذَنْبٌ وَلَوْ نَالَهُمْ عَنْهُ بِمَدِّ يَدِ
دَعَا الْمَلِيكُ إلَى التَّعْلِيمِ فَانْبَعَثَتْ
إِلَى الإجَابَةِ مِنْكَ هِمَّةُ السَّنَد(513)

4 - **أشعار مواكبة الأحداث الوطنية** : تتبع شعراؤنا تطور الأحداث الوطنية، وعبّر ذلك عن غيرتهم الوطنية وحبهم لبلادهم، وخوفهم من سقوطها في مخالب الاحتلال، فكانوا يحزنون إذا مست مقدساتها أو من يناضل دونها، ويفرحون إن اجتازت المصاعب وذلّلت العوائق. ومن الأحداث التي واكبوها :

* أحداث الأزمة المغربية عقب مؤتمر الجزيرة الخضراء عام 1906م وما تلا ذلك من غليان شعبي عام أدى إلى عزل السلطان عبد العزيز باعتباره عاجزا عن الاستجابة لمطالب المقاومة المتمثلة في ضرورة ردّ العدوان وإنشاء نظام دستوري،(514) فاستبشر شعراء الإلغية بذلك، وبتعيين السلطان الجديد وقبوله البيعة المشروطة، فكتب الطاهر الإفراني إلى أستاذه علي بن عبد الله الإلغي مهنئا بانعقاد البيعة الحفيظية بقوله : (الطويل)

أمَوْلاَيَ نَصْرُ اللَّهِ قَدْ جَاءَ وَالْفَتْحُ
وَقَامَ بِإعْزَازِ الْهُدَى السَّيْفُ وَالرُّمْحُ
وَزَالَ عَنِ الدِّينِ الضَّنَى وَتَتَابَعَتْ
بَشَائِرُ نَصْرٍ لاَ يُحِيطُ بِهَا شَرْحُ

513) ديوان العتيق، ص : 64.
514) نفسه.

فَـــــهُنِّيتَ بَدْرَ الدِّينِ بِالْخَـــبَـــرِ الَّذي
به عَـــزَّ دِينُ اللَّهِ وَانْكَشَفَ الْبَـــرْحُ(515)

فأجابه أستاذه معبرا عن فرحه وشكره للسلطان الجديد لعزمه : (الطويل)

هَنِيـــئـــاً لَنَا قَـــدْ زَالَ عَنْ دِينِنَا الْبَـــرْحُ
وكَـــانَ عَلَى رَغْمِ الْعِـــدَاةِ لَهُ الْفَـــتْحُ
وَعَمَّ جَـــمِـــيعَ الْمُـــسْلِمِينَ اعْـــتِـــزَازُهُ
كَـــمَـــا عَمَّ أَهْلَ الْكُفْـــرِ كُلَّهِمُ الْقَـــرْحُ
فَـــهَـــذَا هُوَ الْيَـــوْمُ الأَغَـــرُّ الْمُحَـــجَّلُ الَّـ
ـذِي سَـــامَـــهُمْ مَـــا لَيْسَ يُظْهِـــرُهُ شَـــرْحُ
يَحِقُّ عَلَيْنَا شُكْرُ مَـــوْلًى تَتَـــابَعَتْ
بِبَـــيْـــعَـــتِـــهِ الآلاَءُ وَاتَّصَلَ النُّجْحُ(516)

* نفي الزعماء الوطنيين من قبَل سلطات الاحتلال : واكب شعراؤنا تتابع الأحداث الوطنية، ونضال الزعماء والمصلحين الوطنيين لنيل الحقوق السياسية، أو لإصلاح المجتمع، ومكر الفرنسيين بهم لسجنهم نفيهم، ولما كان العلامة المختار السوسي، أحد هؤلاء، فقد نُفي إلى مسقط رأسه إلغ، بعد أن صار نشاطه الكبير في مراكش مصدر قلق وإزعاج لإدارة الحماية وأذنابها من الإقطاعيين.(517) وقام الشاعر محمد الكثيري محتجا على هذا النقل القسري الذي يلحق الوطنيين المخلصين بينما يرتع غيرهم من الأذناب ويمرحون، فقال : (الكامل)

أَتُرَى الزَّمَـــانَ يَحُلُّ عَـــقْـــداً أَبْرَمَـــا
أَمْ قَـــدْ تَآمَـــرَ رَأْيُهُ أَنْ يَهْـــضِـــمَـــا
أَكَـــذَا الزَّمَـــانُ يَخُـــونُ أَعْـــلاَمَ الْوَرَى
وَيَصُـــونُ ذَنَبـــاً أَعْـــجَـــمَـــا وَأَبْكَمَـــا
فَلِمِـــثْلِ ذَا تَتَـــفَطَّرُ الأَكْـــبَـــادُ أَوْ
تَنْشَقُّ بِالدَّمْعِ الْعُـــيُـــونُ تَرَحُّـــمَـــا(518)

515) الدكتور عباس الجراري - النضال في الشعر العربي بالمغرب، ص : 136 مجلة المناهل عدد 3.
516) مترعات الكؤوس، ص : 129 وانظر أيضا حول تناقل أخبار الجهاد المعسول 7/ 110.
517) المصدر نفسه.
518) انظر تفاصيل هذه الأحداث في الإلغيات 1/ 5-59.

ويبين الشاعر للمتمالئين على نفي المختار، أثر إبعاده باعتباره معلما ينشر العلم ويفقه الناس في دينهم فكان جزاؤه الإبعاد قال :

قُلْ لِلَّذِينَ تَأَلَّبُوا في نَفْيِهِ
أنْ حَلَّ بَيْنَهُمْ ذَكِيّاً مُعَلِّماً
هَدَّمْتُمُ رُكْنَ الْعُلاَ وَصَرَمْتُمُ
رَجُلاً كَرِيماً حَقُّهُ أنْ يُكْرَمَا
أنَفَيْتُمُ إلاَّ الدِّيَانَةَ وَالنُّهَى
عَنْ أرْضِكُمْ، أعْظِمْ بِهَذَا مَأْتَمَا
أقَسَتْ قُلُوبُكُمْ فَهَلاَّ تَرْحَمُوا
ذَاكَ الْغَرِيبَ الألْمَعِيَّ الأحْزَمَا(519)

ثم يلتفت الشاعر إلى المنفيّ فيتحدث عن خصاله ومناقبه وأعماله خاصة نشر العلم والدين والاعتناء بهما، قال :

عَهْدِي بِهِ لِلْعِلْمِ يَنْشُرُ طَيَّهُ
بَيْنَ الْعُفَاةِ مُخَصِّصاً وَمُعَمِّمَا
عَهْدِي بِهِ رَجُلَ الدِّيَانَةِ يَعْتَنِي
بِدُرُوسِهِ فَمُتَمِّماً وَمُنَظِّمَا
شَتَّانَ بَيْنَ مَنِ اعْتَنَى بِدُرُوسِهِ
وَمَنِ اعْتَنَى بِضُرُوسِهِ أنْ تَقْضِمَا(520)

ثم يختم قصيدته بوصف وضع مراكش بعد نفي المَختار وحزنَ أهلها على إبعاده، فقال:

مُرَّاكُشُ لَبِسَتْ ثِيَابَ حِدَادِهَا
مُذْ فَارَقَتْ ذَاكَ الزَّعِيمَ الأعْظَمَا
مُرَّاكُشُ بِالأمْسِ رَوْضٌ زَاهِرٌ
وَالْيَوْمَ عَادَ نَهَارُهَا قَدْ أظْلَمَا(521)

---

519) كناش الكثيري، ص : 118.
520) المصدر نفسه.
521) نفسه.

* **نيل الاستقلال** : هو مناسبة أبدى فيها شعراؤنا مشاعر الفرح والاستبشار بالمستقبل المرتجى، قال العتيق الإلغي معلنا سعادته بالحدث : (الطويل)

أَلاَ إِنَّ الإِسْتِقْلاَلَ مُعْتَرَفٌ بِه
عَلَى رُؤُوسِ الأشْهَادِ، فَاطْرَبْ وَانْشُدِ
فَبُشْرَى فَقَدْ عَادَ السَّنَاءُ لِشَعْبِنَا
وَآبَ إِلَيْهِ كُلُّ مَجْدٍ مُبَعَّدِ
فَلاَ غَرْوَ أَسْبَابُ النَّجَاحِ تَبَشَّرَتْ
بِهِمَّةِ مَلْكِنَا الْعَظِيمِ مُحَمَّدِ(522)

وقال محمد بن عبد الله أوبلوش البعمراني : (البسيط)

الْحَمْدُ لِلَّه زَالَ الذُّعْرُ وَالْحَذَرُ
وَجَاءَ مَا كَانَتِ الآمَالُ تَنْتَظِرُ
وَانْقَشَعَ الْحُزْنُ وَالأفْرَاحُ زَائِدَةٌ
فَلْيُوفِ لِلَّه أقْوَامٌ بِمَا نَذَرُوا
إذْ ثَبَتَ النَّصْرُ وَاسْتِقْلاَلُ مَغْرِبِنَا
فَالْقَسْرُ مُنْتَثِرٌ وَالنَّصْرُ مُنْتَشِرُ
بَعْدَ الَّتِي وَاللَّتَيَّا الشَّعْبُ مُسْتَلِمٌ
رَجَاءَهُ ثُمَّ زَالَ الشَّكْوُ وَالْحَذَرُ(523)

5 - **الدفاع عن المقومات الإسلامية** : نتج عن اتصال المغرب بالغرب الأوربي، سواء بالحماية، أو العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تسرب كثير من الأفكار والمبادىء المذهبية المناقضة للإسلام، خاصة أوائل الاستقلال. فظهرت في المجتمع المغربي بعض العادات والتقاليد الطارئة عليه، وشاع التساهل والاستهتار بالدين والإخلال بأركانه الأساس، بعد أن كانت الدعوة إلى الرجوع إلى الدين الصحيح من أكثر الشعارات الوطنية رواجا في فترة الحماية. وأضحى التنقيص من شأنه ديدن الجيل الشاب - آنذاك - المتأثر بالفكرين الماركسي والليبرالي، وقد شعر الرواد المصلحون بالخطر المحدق بالبلاد من جراء الاستهتار بالمقومات الإسلامية للشخصية المغربية. فقاموا يدافعون عنها، ومن

522) ديوان العتيق، ص : 78 .
523) المعسول 10 / 237 .

بينهم بعض شعراء الإلغية أمثال محمد بن أحمد العتيق، ومَحمد الكثيري، والسّكال البعمراني...

هكذا نرى الشاعر العتيق يندهش مما تواجه به عقيدة الإسلام من تكذيب وازدراء، خاصة من قبل طلبة الجامعات الذين تشربوا الفكر المادي الإلحادي، من اطلاعهم على أفكار أصحاب مذاهبه خاصة كارل ماركس فيقول مستنكرا حالتهم هذه : (البسيط)

فَقُلْ لِمَنْ يَتَعَامَى عَنْ شَرِيعَتِهِ
هَلْ رَيْتَ شَمْسَ الضُّحَى تَخْفَى عَنِ النَّظَرِ

إنْ لَمْ تَرَوْهَا فَلَيْسَ ذَلِكُمْ عَجَباً
عَمَى الْبَصِيرَةَ أدْهَى مِنْ عَمَى الْبَصَرِ

شَبَابَنَا الْجَامِعِيَ إنِّي أعِيذُكُمُ
بِاللَّه أنْ تَزْدَرُوا بِالدِّينِ فِي السُّمَرِ

كَمْ سَاءَنَا أنْ نَرَى الأقْوَالَ عَالِيَةً
مِنَ الشَّبَابِ بِمَاذَا الدِّينُ مِنْهُ بَرِي(524)

ولا يكتفي الشاعر بالاستنكار، بل يناقش هؤلاء الشباب المارقين، طالبا منهم مقارنة شخصية الرسول ﷺ بغيره من المفكرين والمصلحين، لإدراك الفرق وفهم الأسباب. ثم يتحداهم بأن يأتوه بما في الإسلام من خلل إن وُجد، منبها إياهم إلى عدم الانشغال عن كتاب الله بأقوال زعماء المذاهب الملحدة، وضرورة فهم الإسلام والدفاع عنه في وجه كل متفيهق، قال :

بِرَبِّكُمْ قَارِنُوا - بَعْدَ تَفَهُّمِهِ
مُحَمَّداً بِسِوَاهُ مِنْ ذَوِي الْفِكْرِ

أرُونِي فِي شِرْعَةِ الْمُخْتَارِ مِنْ خَلَلِ
لَنْ تَجِدُوا فَدَعُوا التَّزْوِيرَ فِي الْخَبَرِ

لاَ يُلْهِكُمْ عَنْ كِتَابِ اللَّه مَا قَالَهُ
«مَرْكَسْ» وَ«مُوسِلُ» إنَّ الْكُلَّ فِي سَقَرِ(525)

---

524) ديوان العتيق، ص : 24.

525) كارل ماركس : (1818 ـ 1883م) فيلسوف ألماني، ورائد مذهب الإشتراكية المادية، بنتوموسوليني: (1883 ـ 1945م) سياسي إيطالي، زعيم الحزب الفاشي وحليف الزعيم النازي الألماني هتلر. انظر حولهما : Petit Larousse illustré 1981. p 1508 X 1542.

تَفَــــهَّـــمُـــوا يَا بَنِي الإسْـــلاَمِ دِينَكُمُ

وَجَـــادِلُوا عَنْهُ جَـــهْـــراً كُلَّ ذِي هَذَرِ(526)

أما محمد الكثيري فينتقد بعض مظاهر الانحلال التي لحقت أخلاق الشباب من جراء اشتغالهم باللهو وتزجية الأوقات بلا طائل، وذلك في نصحه ابن أخته المنشغل بالسينما عن طلب العز والمعالي، قائلا : (الخفيف)

يَا ابْنَ أخْـــتِي دَعَـــتْكَ صَـــبْـــوَةٌ

لأمُـــــــورٍ تَـؤُولُ بِـالْـعِـــــــزِّ ذُلاً

قَـــدْ دَعَـــتْكَ لِلسِّـــينمَـــاءِ وَلِلَّهْـ

ـوِ فَـــهَـــلاَّ صَـــرَمْتَ لِلَّهْـــوِ حَـبْـــلاَ

أبْتَـــــغِـي مِنْكَ إنْ دَعَــــاكَ ضَـــــلاَلٌ

قُلْتَ كَـــلاَّ فَلَنْ أطِيـــعَكَ كَـــلاَّ(527)

ويلفت الشاعر نظر قريبه إلى تفاهة ما يقضي وقته في متابعته، فهو ضلال وسراب لا نفع وراءه، قال :

إنَّمَـــا السِّـــينمَـــاءُ عِنْدِي خَـــبَـــالٌ

وَخَـــيَـــالٌ مَـــا جَلَّ حَـــتَّى اضْـــمَـــحَـــلاَّ

هِيَ فِـــيـــهَـــا نَفْعٌ لِقَـــوْمٍ كَـــخَـــمْـــرِ

إثْمُـــهَـــا نِسْـــبَـــةً إلَى النَّبْعِ جَـــلاَّ(528)

و حينما نعى الشاعر على ابن أخته الاشتغال بتضييع الوقت، وجهه هو وأمثاله من الشباب إلى المنهاج الصحيح والسبيل القويم الذي يجب عليهم السير فيه لينفعوا به مجتمعهم ووطنهم، قال :

نَحْنُ أحْـــوَجُ لِلْحَـــقِـــيـــقَـــةِ وَالدِّينِ

المَتِينِ مِـنَ الْـخُـــــرَافَـــــاتِ تَـجَلَّى

---

526) ديوان العتيق، ص : 24.

527) كناش الكثيري، ص : 108.

528) نفسه.

نَحْنُ أحْوَجُ لِلْمَعَارف وَالْعُلاَ
الْمُبِيدِ الْجَهْلَ يُمْلَى ويُتْلَى
هَذه فكْرَةٌ فَإنْ تَغْتَنمْهَا
تَلْقَ في الْعُمْرِ عِزَّةً لَيسَ تَبْلَى(529)

ويصف الشاعر أحمد بن زكريا السكال الباعمراني حال التضعضع الذي وصل إليه المسلمون، حتى ليتساءل قائلا : (الخفيف)

أيُّهَا الْمُنْتَدُونَ هَلْ نَحْنُ حَقّاً
أمَّةُ الْمُسْلمينَ وَالْمُسْلمَات
هَلْ صَحِيحٌ بِأنَّنَا أمَّةُ الْعَدْ
لِ الْمُزِيلِ كَثَافَةَ الظُّلُمَات
فَادِّعَاءُ الإسْلاَمِ منَّا خِدَاعٌ
أكَّدَتْهُ تَعَاقُبُ السَّنَوَات(530)

وينطلق شارحا أسباب انحطاط المجتمع، وأولها التخلي عن الدين والتفريط في أركانه، واحتقارها، خاصة شعيرة الصلاة، فيقول :

فَقَلِيلٌ مِنَّا يُصَلِّي وَلَكِنْ
سِفْلَةُ الْقَوْمِ تَزْدَرِي الصَّلَوَات
تَدَّعِي أنَّهَا طُقُوسٌ وَلاَ مَعْـ
ـنَى لخَفْضِ الرُّؤُوسِ فِي الرَّكَعَات
فَبَنُونَا جَهْراً أبَوْا أنْ يُصَلُّوا
وَيُطِيعُوا مُدَبِّرَ الْحَرَكَات
لَوْ فَتَحْنَا أسْمَاعَنَا لَسَمِعْنَا
لَنَحِيبِ الْمَسَاجِدِ الْبَاكِيَات(531)

ويشخص شاعرنا أعراض المرض، فيرى أنها تتجلى في تخلي الناس عن الأخلاق الحميدة، وما أمر به الإسلام من خصال الحياء والعفاف، وباعتباره أحد أسرة التربية

529) كناش الكثيري ص : 108 .
530) شعر أحمد السكال، ص : 45 - 49 .
531) نفسه.

والتعليم يصور لنا تبرج النساء عامة، والفتيات التلميذات خاصة، وتغافل الآباء والأولياء عن ذلك، فلا لوم ولا استنكار، يقول :

فَانْظُرُوا لِبَنَاتِنَا كَيْفَ يَخْرُجْـ
ـنَ وَكَيْفَ يَمْشِينَ كَالْعَارِيَات
قَدْ تَرَكْنَا لَهُنَّ كُلَّ مَجَال
دُونَمَا رُقْبَةٍ عَلَى الْخَلَوَات
قَدْ لَبِسْنَ مِنَ الثِّيَاب رَقِيقاً
بَانَ مَا تَحْتَهُ مِنَ الْهَنَوَات...
قَدْ قَصَصْنَ الشُّعُورَ دُونَ حَيَاء
وَزَجَجْنَ حَوَاجِبَ الْغَانِيَات
وَتَرَاهُنَّ كَالرِّجَال يُخَالِطْـ
ـنَ جَمِيعَ الأَجْنَاسِ وَالْجِنْسِيَات
هَكَذَا حَالُنَا مَعَ الْبِنْتَ وَالأُخْـ
ـت وَالأمِّ وَسَائِر الْعَائِلاَت(532)

ويرى الباعمراني أن كل هذا راجعَ إلى أسلوب التربيَةَ والتعليم الذّي يجيز الاختلاط، ويقبل جلوس الفتى مع الفتاة في مقعد واحد، مما يؤدي إلى أوخم النتائج :

قَدْ أَبَحْنَا لِكُلِّ مَنْ هَبَّ أَوْ دَ
بَّ الْجُلُوسَ بِجَانِب الْفَتَيَات
قَدْ جَمَعْنَا فِي مَقْعَد بَيْنَ بَارُو
د وَنَار فَأَحْدَثَا الثُّغُرَات
وَرَفَعْنَا الْحِجَابَ وَانْحَلَّ مَا كَا
نَ مَصُوناً مِنْ حُرْمَةِ الْوَجَنَات
وَأزِيلَتْ عَرَاقِلُ وَأبِيحَتْ
حُرُمَاتٌ لِكُلِّ بَاغٍ وَعَات(533)

---

532) شعر أحمد السكال، ص : 45 - 48 .
533) نفسه.

لذلك ينصح المشرفين بتدارك الأمر ومحاربة هذه المظاهر والأخلاق المستوردة، صيانة لمستقبل الأمة، وتربية للشباب على صحيح الخصال، قال في قصيدة أخرى، واصفا تلاميذ المدارس : (البسيط)

يَا أيُّهَا السَّاهِرُونَ عَنْ مَدَارِسِنَا
عَلَيْكُمُ نَحْوَهَا بِكَثْرَةَ السَّهَرِ
كَيْلاَ تَضِيعَ جُهُودُ الْعَامِلِينَ بِهَا
سُدًى وَيَنْشَرِحَ الشَّيْطَانُ بِالْغَرَرِ
مِنْ ذَاكَ ظَاهِرَةُ التَّشْبِيهِ بَيْنَ أَبِي
زَيْد وَعَائِشَةَ فِي الشَّكْلِ وَالصُّوَرِ
تِلْكَ الْمَظَاهِرُ فِي أَبْنَائِنَا ظَهَرَتْ
أَمَّا الْبَنَاتُ فَلاَ تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ
فَبَعْضُهُمْ أَطْلَقُوا شُعُورَهُمْ فَهُمُوا
مِثْلُ «الْخَنَافِس» فِي وَصْفٍ وَفِي نَظَرِ(534)

ولا يخفي دهشته من كل ما يراهَ ماثلا بين عيَنيه مما وَصف منٌ أخلاق. فيتساءل إن لم يكن خَرفا خانه نظره فلا يرى إلا خيالات أو أحلاما تصورها له ظنونه. وذلك من شدة اصطدامهَ بهذا الواقع الذي لم يألفه، وهو الذي تربى على قيم أصيلة في ظل تربية إسلامية أساسها العلم والأخلاق. يقول :

أَلَيْسَ هَذَا صَحِيحاً تَشْهَدُونَ بِهِ
أَمْ أَنَّنِي خَرِفٌ قَدْ خَانَنِي بَصَرِي(535)

نستخلص من كل ما سبق مدى مدافَعة شعراَء الإلغية القيم المستوردة التي يرونها منافية لما يؤمنون به من أفكار ومبادىء إسلامية، تربوا عليها وأخذوها عن أشياخهم وآبائهم، غير أنهم فوجئوا بتغيّر المقاييس وسقوط مثلهم الأعلى أمام الأجيال الصاعدة، فكانت قصائدهم محاولة لتصحيح هذا الواقع الفاسد ودعوة إلى العودة للسبيل الصحيح.

وإذا نظرنا جملة إلى شعرهم الوطني وجدناهم لا يفرقون بين تحرير الأرض بقتال الأعادي، وتحرير العقول بالتربية الصالحة المحافظة على القيم الإسلامية الثابتة، والداعية

---

534) شعر أحمد السكال، ص : 45 – 48 . ويقصد الشاعر بالخنافس فرقة الغناء الإنجليزية «البيتلز» التي كانت مشهورة عند الشباب في تلك المرحلة.
535) نفسه.

إلى تحصيل العلوم بأنواعها، والتمكن منها لتقدم الوطن، وتمكنه من مواجهة الأعداء المتربصين؛ كما نلاحظ أن شعراءها رغم استقرار أغلبهم بسوس لم يكونوا منعزلين عن قضايا وطنهم، قانعين بتبادل العواطف فيما بينهم في جلساتهم الإخوانية، بل كانوا يحملون همّ وطنهم ومجتمعهم، مراقبين ما يجري، فإن كان خيرا نوّهوا به، وإن كان شرا عرّضوا به وانتقدوه، باعتباره ضارا بمقومات الوطنية كما يتصورونها.

ز - الإخوانيات :

انتشرت الإخوانيات وفشت موضوعاتها بين شعراء الإلغية أسوة بمن سبقهم من أدباء سوس، متأثرين بما كان سائدا بالمغرب منذ قرون،(536) غير أن هذا لا يعني أنهم كانوا مجرد مقلدين لا أصالة لهم، بل هناك خصائص بيئية واجتماعية ونفسية أدت إلى تضخم الاهتمام بها لديهم. ويمكن تلخيصها فيما يلي :

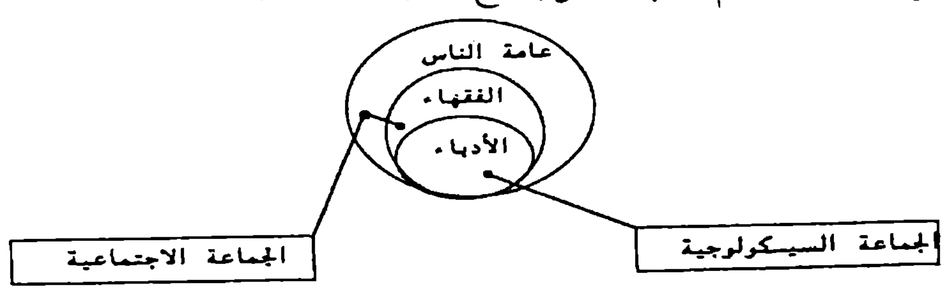
أولا : اعتبار الإخوانيات استمرارا للتقاليد المدرسية الحاثة على التمرس في فنون القول؛ فعندما كان الطلبة مقيمين بمدرستهم، كان أساتذتهم وبعض الشعراء الزائرين يدفعونهم إلى النظم دفعا، بمقطوعات تتضمن التحية أو التهنئة أو الألغاز... فيجدون أنفسهم ملزمين بالإجابة احتراما لشعور مخاطبيهم وأداء للواجب، وعندما يتخرجون ويغادرون المدرسة إلى ميدان المعاش، يهجر أكثرهم الأدب والشعر خاصة، ولا يتناوله أحدهم إلا إذا فوجىء بمن يخاطبه فيضطر إلى عرك القريحة للقيام بواجب الرد؛ من هنا صارت مهمة الإخوانيات ترويج الأدب وتشجيع القول تجسيدا للإيمان الشديد بالأدب ومنفعته في تفتح الأفكار.(537)

ثانيا : عزلة الأدباء في مجتمعهم؛ فقد كانوا جماعة من متقني العربية وعلومها وآدابها مع التمرس في الإبداع شعرا ونثرا، وحفظ آلاف النماذج من إبداعات السابقين وهم مع ذلك يعيشون وسط مجتمع أعجمي لا يفقه من العربية إلا شيئا ضئيلا مما يتصل بشؤون الدين، عباداته ومعاملاته. هكذا كان شعراؤنا يواجهون قطيعة تامة مع مجتمعهم،(538) فلم يكن لهم حظ في ترويج إبداعاتهم إلا داخل جماعة أدبية شكلوها فيما بينهم، فيتناوبون كل بدوره على الإبداع والتذوق، وليس أنسب لهذا من الإخوانيات، فهي وسيلة للتخلص من العزلة، بالاتصال بالشعراء الآخرين للاجتماع على الود والصداقة وعلى الاهتمام بالأدب(539) ومعاطاته، مع حضور المعنى القديم للأدب الذي يعني حسن

536) انظر مثلا الإخوانيات عند القاضي عياض في : «القاضي عياض الأديب» 237 .
537) مترعات الكؤوس : 114 .
538) المختار السوسي، السلطة العلمية... ضمن الذاكرة المستعارة : 10 .
539) لسانيات النص : 48 .

الخلق وخفة الروح والأريحية والسعي إلى «إظهار القدرة التعبيرية... والترويح عن النفس وتبادل العواطف مع الآخرين...».(540) مما يحقق لهم هدفين اثنين :

* التغلب على العزلة وسط المجتمع الأعجمي الذي لا يعير الشعر أية قيمة بوصفه رموزا غير مفهومة، ووسط مجتمع الفقهاء الملمين بالعربية مع تفاوت مراتبهم فيها، إلا أنهم مجمعون على اعتبار الأدب تافها لا يشتغل به إلا أهل البطالة.(541) والصواب في رأيهم الإقبال «على الفقه إقبالا كليًا حتى يعرف منه كل ما يحتاج إليه، فإنه علم كبير والله لا يعبد إلا بالعلم...»؛(542) نستنتج من هذا أن شعراءنا لم يكونوا في مواجهة عائق العجمة في المجتمع، بل كانوا يواجهون عقبة احتقار الأدب والسخرية من أصحابه، فكانوا بذلك صفوة الصفوة، إذ يمكن عد الفقهاء صفوة لإلمامهم بعلوم العربية خاصة، والأدباء صفوة الفقهاء بتعاطيهم الأدب. ويمكن إيضاح ذلك بالخطاطة التالية :



ومن هنا كان الإبداع الأدبي عندهم محاولة للحفاظ على وجودهم الثقافي المتميز في قلب العزلة الثقافية، من خلال القول ومن خلال الاتصال، إنه «سباق ضد الساعة مع الموت، مع فقدان الذاكرة، مع العي...».(543)

* تشكيل جماعة منسجمة يسعى أفرادها إلى إنشاء تكامل اجتماعي فيما بينهم، بعد أن استعصى تحقيق هذا التكامل مع المجتمع. ويتجلى الانسجام بين هؤلاء الأدباء في مجالسهم وندواتهم الأدبية التي يتطارحون فيها إبداعاتهم واهتماماتهم الأدبية، في جو أخوي تغلب عليه المجاملة، وقد كانت هذه المجالس الأدبية تنتشر في كل مكان وزمان عندما يفقد الأدب قيمته داخل المجتمع لسبب من الأسباب، ففي أوربا انتشرت الصالونات الأدبية لما سيطرت البورجوازية وصارت الثقافة مجدية بقدر قيمتها التجارية «... وقد نتج عن ذلك انعزال الشعراء المبدعين الذين اعتبروا لاعبين ولاهين لا فائدة ترجى منهم؛ وقد شعر هؤلاء بانعزالهم فليس هناك من يقدر إنتاجهم ويتذوقه فكان المثقف يعتبر نفسه روحا شاذة أو

540) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه : 20.
541) المعسول : 2/236.
542) نفسه 2/ 236.
543) حرقة الأسئلة : 10 ـ 11.

غريبا في عالم غريب، كان عبارة عن «أنا» و«الآخرين» غير أن دوام هذا الموقف غير محتمل، ولابد أن توجد حالة توازن تضم الأنا في «نحن» فتحقق له الاستقرار، وليس من سبيل إلى تكوين النحن لا مع أبناء الطبقة الدنيا ولا مع أبناء الطبقة الوسطى من العاديين. والسبيل إذن أن يتجمع هؤلاء المثقفون ذوو الثقافة الضخمة وأن يقرأ بعضهم لبعض وأن يتذوق بعضهم لبعض، وهكذا وجدت الصالونات وحققت «مناخا سيكولوجيا» صالحا لحياة الأدباء، ولم يكن الأدباء يحتملون الانصراف عن هذه الصالونات ففي خارجها الجهل والتخبط والانصراف عن كل ما يمت إلى الثقافة بصلة...».(544)

ونلاحظ أن حال أدباء الإلغية لم تكن تخالف كثيرا حالة الأدباء في أوربا، إذ كانوا يعدون أيضا أصحاب بطالة لا يساوى ما يشتغلون به - في اعتقاد الكثيرين - من أشعار شيئا، في مقابل الفقه الذي يعطي صاحبه ما شاء من مال وجاه. وتعد الإخوانيات الوسيلة الكبرى للمحافظة على انسجام الجماعة بتحقيق الحاجات الاجتماعية الراقية المبنية على التكامل والفعالية الواعية(545) حيث يلقي أحد أفرادها قصيدة أو نتفة فينبري أصدقاؤه لتقريظها وإظهار ما فيها من بلاغة وجمال، غاضين الطرف عما فيها من ركاكة وضعف لأن الغالب عليهم قبول الإخوانيات كيفما كانت(546) وهكذا يتحقق الوجود الثقافي لأدبائنا باعتباره من مكونات شخصيتهم، في جماعتهم السيكولوجية التي تمنحهم ميلادا ثانيا هو الميلاد الأدبي.(547) وقد تعرض شعراء الإلغية لموضوعات متنوعة في قصائدهم الإخوانية من أهمها :

1 - **التهنئة** : يترقب الشعراء المناسبات للتعبير عن فرحهم وسرورهم بما نال أصدقاءهم من خير، وكانت أحسن وسيلة لذلك قصائد ومقطوعات التهنئة التي تناولت عدة مناسبات، كالزفاف والميلاد والأعياد والحج وهي مناسبات اجتماعية، وكالقدوم من سفر والنجاح في امتحان أو تسلم وظيفة أو صدور كتاب أو إصلاح مسجد.

أ - المناسبات الاجتماعية :

إذا كان عامة الناس يحملون معهم عند قدومهم على المحتفل ما تيسر من هدايا وطرف، فإن الأديب لا يقبل منه مثله إلا تهنئة شعرية حتى صار ذلك واجبا لا يسقط إلا بالأداء(548) وهكذا هنأ الشعراء بعدة مناسبات منها :

544) الأسس النفسية للإبداع الفني : 144.

545) Renald Le Gendre. Dictionnaire de l'éducation p : 63.

546) انظر حول تساهل أدباء الإلغية في الإخوانيات المعسول 11/ 117.

547) TZVETAN Todorov; Mikhail Bakhtine : Le principe dialogique p : 52.

548) انظر المعسول 11/ 115 و 7/ 269 والإلغيات 1/ 119.

* **الاحتفال بالعقيقة** : يحرص الشعراء على إبداء الفرح والسرور فيستهلون قصائدهم في المناسبة بالتعبير عن سعادتهم للحدث، كقول موسى بن الطيب السليماني مهنئا أستاذه علي بن عبد الله الإلغي بولد : (البسيط)

جَــاءَ الْبَــشِــيــرُ فَطَارَ الْقَلْبُ مِنْ طَرَبِ
فَــزَالَ مَــا فِــيــهِ مِنْ سُــقْمٍ وَمِنْ نَصَبِ
فَــارْتَحْتُ مِنْ بَعْــدِ أَنْ قَــاسَــيْتُ مِنْ نُوَبِ
دَارَتْ عَلَى الْقَلْبِ فِي الأَضْــلاَعِ بِالْكُرَبِ
مَــا أَوْمَــضَتْ فِي دَيَاجِي اللَّيْلِ بَارِقَــةٌ
إِلاَّ وَهَــيَّــجَ بَــلاَئِــي مِــنْ أَذَى الــنُّــوَبِ
فَــالْيَــوْمَ طَارَ سُــقَــامِي حِينَ أَذْكُــرُ مَنْ
بِنُورِهِ يَسْــتَــضِيءُ كُلُّ ذِي وَصَبِ(549)

ويتجاوز محمد بن علي الإلغيَ التعَبير عن فرحه الذَاتي بأن جَعل الكونَ كله مستبشرا بالحدث السعيد، فالنور عمّ السماء والأرض مزهوة ضاحكة، قال : (الطويل)

تَهَلَّلَ وَجْــهُ الدَّهْرِ وَابْتَــسَمَ الثُّــغْــرُ
وَوَافَى الْمُنَى وَالسَّــعْــدُ أَقْــبَلَ وَالْبِــشْــرُ
وَمَــدَّ عَلَى وَجْــهِ التُّــرَابِ مَطَارِفــاً
مِنَ الرَّوْضَــةِ الغَنَّاءِ نَمَّــقَــهَــا الزَّهْرُ
وَعَمَّ السَّنَا أُفْقَ السَّــمَــاءِ كَــأَنَّمَــا
بِهِ ازْدَهَرَتْ فِي اللَّيْلِ أَنْجُــمُــهُ الزُّهْرُ(550)

ثم يعمد الشعراء إلى التهنئة بالمَولود الجديدَ موجهينَ الخطاب إلى والده، كقول أحمد بن عمر رزقي مهنئا الطاهر بن علي الإلغي : (الخفيف)

فَــهَنِيــئــاً لِشَــيْــخِنَا الطَّاهِرِ الْفَــرْ
دَ فَطَرْفُ الْمُنَى إِلَيْــهِ رَكِــيضُ(551)

وقول محمد بن أحمد اليزيدي مهنئا محمد بن علي الإلغي : (البسيط)

549) المعسول 2/ 42.
550) الإلغيات 1/ 111.
551) المعسول 11/ 114

يَا سَـــيِّـــداً فَـــضْلُهُ الـمـــأثُور عَـــزَّ مَنَا
لَهُ فَـــأقْـــصَـــرَ عَنْهُ الْعُـــجْمُ وَالْعَـــرَبُ
يَهْنَاكَ نَـجْلٌ تَبَـــدَّى إذْ بَدَا قَـــمَـــراً
فَـأسْـرَعَتْ نَحْـوَهُ تَشْـتَـاقُـهُ الرُّتَبُ(552)

وغالبا ما يختمون قصائدهم بالدعاء للمولود بالحفظ والصون من كل بلاء وضرر، وما أشد ما كان يلحق الأطفال حديثي الولادة من أمراض،(553) لذلك ندر أن نجد تهنئة لا تختتم بالدعاء، كقول الطاهر الإفراني داعيا لمحمد ابن أستاذه علي بن عبد الله الإلغي : (الطويل)

فَـــلاَ زَالَ مَـــحْـــفُـــوظَ الْجَنَاب مُـبَـــارَكـــاً
يُسَـــدِّدُ مَـــا يَخْـــفَى مِنَ الأمْـــرِ أوْ يُبْـــدِي
مَـــصُـــوناً بِلُطْف اللَّه مِنْ كُلِّ حَـــاسِـــد
وَمِنْ مَـــاكِـــر غَـاوٍ وَمِنْ كُلِّ مَـا كَـيْـد(554)

وربما جعل بعض الشعراء قصائد التهنئة دعاء كلها كقول عبد الله بن محمد الإلغي داعيا لعبد السلام ابن أخيه محمد بن علي الإلغي بالسلامة والعمر المديد والشفوف على الأقران :

حُـــفِظْتَ مِنْ كُلِّ هَامَـــهْ
عَـــبْـــدَ السَّـــلاَمِ وَلاَمَـــهْ
وَنِلْتَ عُـــمْـــراً طَويلاً
مُـــهَنَّئَـــاً بِالْكَرَامَـــهْ
تَنْشَـــأ مَـــا بَيْـنَ أمّ
وَوَالـد بِالسَّـــلاَمَـــهْ
مُـــشَـــمِّـــراً سَـــاقَ جِـــدٍّ
مُـــجَـــانِبـــاً لِلسَّـــآمَـــهْ

---

552) المعسول 9/ 242.
553) انظر الفصل الثاني من الباب الأول من هذا الكتاب.
554) المعسول 2/ 191.

حَـــــــتَّـى يَـنَـالَ غِـــــــرَارٌ

نَـافِـــــرُ دَهْـراً مَـنَـامَـــــهْ(555)

* **الاحتفال بالزفاف** : قلّت تهاني شعراء الإلغية بهذه المناسبة لضيق مجال القول فيها ولقلة المعاني، فتراهم يعوضون ذلك بمدح الزوج وإظهار فضله أو بمدح والده إن كان من الوجهاء، وبإظهار الفرح والسرور العارم، أما المرأة فلا ذكر لها في الأشعار؛ قال عبد الرحمان البوزكارني مهنئا شيخه علي بن عبد الله بزفاف ابنه محمد، واصفا حال المحتفلين من الضيوف : (الطويل)

يُشَـيِّــدُونَ إنْشَـادَ التَّـهَـانِي بِنِعْـمَـةٍ

بِهَـا انْقَـادَتِ الْآمَـالُ فِي زَيِّ أَعْـبُـدِ

بِإمْـلاَكِ سِـرِّ الْفَـضْلِ نَجْلِكُمُ الرِّضَـا

قَـرِيعِ الْعُـلاَ بَدْرِ الْكَمَـالِ مُـحَـمَّـدِ(556)

وقال محمد بن أحمد العتيق واصفا فرحه وسعادته بزفاف ابن شيخه عبد العزيز بن محمد المختار السوسي : (الكامل)

إمْـلاَكُ سَـعْـدٍ هَيَّجَ الأفْـرَاحَـا

فَـازْدَدْ بِهِ عَـبْـدَ الْعَـزِيزِ صَـلاَحَـا

فَـاهْنَأْ فَـقَـدْ نِلْتَ الْفَـضِـيلَةَ وَالْمُنَى

وَابْشَـرْ فَـسَـوْفَ بِهِ تَنَالُ فَـلاَحَـا

عَـبْـدَ الْعَـزِيزِ سُـرُورُنَا بِكَ كَـامِلٌ

هَزَّ الْجُـسُـومَ وَأَنْعَشَ الأرْوَاحَـا

لاَ لَـوْمَ إنْ نَرْقُـصْ فَـإنَّ الأنْـسَ قَـدْ

أدْنَى السُّـرُورَ وَأبْعَـدَ الأتْرَاحَـا(557)

* **التهنئة بالحج** : الحج أعظم الشعائر لدى المسلمين لكونه فرصة لزيارة منازل الوحي، والديار التي شهدت حياة الرسول ﷺ، وانطلاق الدعوة الإسلامية، والأرض التي ضمت أعظمه ﷺ، لذلك كانت الرحلة إليها رحلة في الزمان والمكان، ينال بها المرتحل أعظم

---

555) المعسول 2/ 182.
556) المعسول 10/ 109.
557) ديوان العتيق، ص : 61 .

القربات، خاصة من أقصى المغرب، على بعد المسافة وكثرة المصاعب والمعوقات؛ ويحتفل عامة الناس بالحاج فيزورونه جماعات، يبتغون منه الدعاء، ويقبل الشعراء على التهنئة،(558) خاصة إن كان من الأدباء الذين يقدّرون الأدب وأهله، وقد ركز شعراؤنا في تهانيهم على تذكير الحاج بعظم نعمة الله عليه لما يسر الله له أداء الفريضة، قال امحمد الكثيري مبشرا أحد الحجاج بنيل المنى بعد زيارة تلك البقاع : (البسيط)

بُشْرَاكَ قَدْ ظَفَرَتْ بِالْيُمْنِ يُمْنَاكَ
إِذْ نَظَرَتْ لِبِقَاعِ الْوَحْيِ عَيْنَاكَ
لَبَّيْتَ لِلَّهِ إِذْ نَادَى لِصَفْوَتِه
بُشْرَاكَ يَاقَائِدَ الْخَيْرِ وَنُعْمَاكَ
كَمْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ الْمَوْلَى عَلَيْكَ وَكَمْ
أَوْلاَكَ كُلَّ الْمُنَى وَالْعِزِّ مَوْلاَكَا(559)

و يذكر بعض الشعراء أحوالهم التي عاقتهم عن الارتحال للزيارة، فهم ما بين سعي وراء المعاش، وانغماس في مشاغل الحياة، معبرين عن حبهم وتعلقهم بتلك المعاهد الحجازية، وتشوقهم لزيارتها لولا العوائق، قال محمد بن علي الإلغي معبرا عن هذا المعنى عند تهنئة أحمد بن البشير الناصري : (الطويل)

تَنَشَّقْتُ طِيبَ الطَّيِّبَيْنِ ذَوَيْ مَجْد
وَهَلْ كَانَ يَخْفَى الطِّيبُ عَنْ كُلِّ ذِي وَجْد
وَكُنْتُ إِذَا حَامَ الْخَلِيُّ بِلَيْلَة
أرِقْتُ لِتَشْوَاقِي إِلَى سَاكِنِي نَجْد
أَلِفْتُ الْبُكَا الْمَمْدُودَ مُنْذُ تَقَاصَرَتْ
أَحَادِيثُهُمْ مِنْ زَائِرِيهِمْ ذَوِي الْوُدِّ
فَهَيْهَاتَ يَا خِلِّي الْحِجَازُ وَأَهْلُهُ
إِذَا لَمْ تُبَاعِدْ مِنْ دُنَاكَ وَمِنْ وُلْد(560)

ولا ينسى المهنىء ذكر شعائر الحج، ووصف قيام الحاج بها والأجر العظيم الذي وعده الله به، خاصة زيارة الرسول ﷺ وشرب ماء زمزم، وزيارة بقية الأماكن، قال الطاهر الإفراني مهنئا الشيخ علي بن أحمد الدرقاوي : (الطويل)

558) انظر شعر داود الرسموكي، ص : 134.
559) كناش الكثيري، ص : 80.
560) المعسول 10/ 74.

فَــيَـــا فَـــوْزَ مَنْ أمْـــسَى بطيــبَــةَ نَازلاً
بخَــيْــر رَسُـول كَــانَ للضَّــيْف حَــافــيَــا
يَرُوحُ ويَغْــــــدُو في مَــــسَـــــارح جَنَّة
ويَجْني بهَــــا تَمْــــرَ الْمَكَارم دَانيَــــا
يُقَلِّدُ جــيــداً عَــاطلاً عــقْــدَ مَــفْــخَــر
ويَلْبَس ثَوْبَ الْعــزِّ أسْــبَغَ ضَــافــيَــا
ويَغْــــــسلُ قَلْبــــــاً سَـــــوَّدَتْهُ ذُنُوبُهُ
ويَشْـرَبُ مَـاء الْمَـجْـد أغْـزَرَ صَـافـيَـا(561)

ب – مناسبات أخرى :

هنأ بها الشعراء، كتسلم وظيفة، والنجاح في امتحان، والإبلال من مرض، والقدوم من سفر، وإصدار كتاب، وإصلاح مسجد، ولا يزيدون عما رأينا من قبل من إظهار الفرح والسرور والابتهاج بالمناسبة وتهنئة صاحبها والدعاء له، فإذا هنأوا باستلام وظيفة أظهروا ما في التولية من رفعة للقدر كتهنئة محمد بن علي الإلغي مَحمدا الكثيري بولاية القضاء، مظهرا ما في ذلك من عز وشرف خاصة لما أنعم عليه السلطان بظهير التعيين، قال : (الكامل)

حَــلاَّهُ مَـــوْلاَنَا الشَّـــريفُ مُــحَــمَّــدُ
بظَهــيــره فَــسَــمَــا به وَارْتَاحَــا
نعْمَ الظَّهــيــرُ تَضَــوَّعَتْ أنْبَــاؤُهُ
في جَــوِّ سُــوس مــثْلَ مــسْك فَــاحَــا
وتَنَشَّــــقَتْ منْهُ الْمَــسَــــامعُ بالَّذي
يُنْسي الْجَــوَاهرَ قــيــمَــةً ورَبَاحَــا
وتَضَــاءلَتْ لبُــرُوزه شَــمْسُ الضُّــحَى
يُعْــشي عُــيُــونَ مَن اغْــتَــدَى أرْوَاحَــا
وتَشَـــــرَّفَتْ أحْكَامُـــــهُ وتَزَيَّنَتْ
أنْ صَــادَفَتْ كُـفُـؤاً لَهَــا وَضَّــاحَــا(562)

561) المعسول 1/ 297.
562) أوراق امحمد الكثيري، قصيدة بخط صاحبها.

وسار على النهج نفسه العتيق الإلغي لما هنأ الحسن البونَعماني بتعيينه باشا على أكَادير: (البسيط)

رَبُّ الْمَـــزَايَـا وَرَبُّ السَّـــيْف وَالْـقَلَم
أهْلاً فَـــأنْتَ بـجَـيْشِ الْعَـــدْل ذُو عَلَمِ
بُشْــرَى فَـــقَــدْ بَزَغَتْ شَـمْسُ الْعَــدَالَةَ في
أصْــقَـــاع سُــوسٍ بهَـــذَا الْحَــسَنِ الْعَلَمِ
فَــتىً سَــمَــا للْعُــلاَ طفْــلاً فَــأدْرَكَــهَـــا
وَهَلْ يَـنَالُ الْـعُــــلاَ إلاَّ ذَوُو الْـهِـــمَمِ
للَّه همَّــــةُ مَلْكنَا فَـــقَـــدْ وُفِـــقَتْ
في بَعْـثــه صَــادعــاً بـالْحَقِّ في الظُّلَم(563)

أما التهنئة بالإبلال من المرض فتصور هلع الشعراء، وخوفهم على حياة المريض إبان مرضه، خاصة إن كان أديبا عالما، فإذا شفي قام السرور مقام التَّرح، إذ إنّ المرض لم يلمّ بعالم أديب فقط، وإنّما حل بالعلم والمجد والهدى، فيتجاوزون بذلك تهنئة المريض إلى تهنئة العلم والقرطاس والقلم؛ قال الطاهر الإفراني لما شفي الشيخ محمد بن عبد السلام كَنون من مرض : (البسيط)

لِيَـــهْنَإِ الْـعلْمُ وَالْقِـــرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
فَـــقَـــدْ أبَلَّ الْإمَـــامُ الْعَـــالِمُ الْعَلَمُ
وَصَحَّ إذْ صَحَّ جِــسْمُ الْمَــجْـد وَانْكَشَــفَتْ
عَنْ طَلْعَـة الْبَـدْرِ في أفْقِ الْعُـلا الظُّلَمُ(564)

ويعد شفاء المريض شفاء لذويه وإخوانه مما بهم من هم وخوف على حياته. وذلك ما عبر عنه محمد بن الحسين بوكرع البعمراني بعد إبلال شيخه بلقاسم التاجرمونتي بقوله : (الطويل)

هَنيـــئـــاً بِإبْلاَلِ الْفَـــقِـــيــه إمَـــامنَا
فَنلْنَا بـذَاكَ الْبُـــرْءِ مُــجْـتَـــمَعَ الْمُنَى

563) ديوان العتيق، ص : 79.
564) المعسول 7/ 125 ومحمد بن عبد السلام كَنون (تـ 1326هـ) من علماء فاس الأفذاذ، انظر التعريف به عند محمد بن الحسن الحجوي ـ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي 4/ 145.

فَـمَـا أنْتَ إلاَّ الْمَـجْـدُ كَـيْفَ تُرَى يُرَى
ابْتِـهَـاجـاً وَحُـزْناً وَالتَّـقْـوَى وَالضَّنَا(565)

ومن المناسبات أيضا الاحتفال ببناء أو إصلاح المؤسسات الدينية العلمية، فنرى أحد شعراء الإلغية يهنىء الإلغيين وهو في المهجر بجزيرة كورسيكا بإصلاح مسجد أيت سليمان، وأداء أول جمعة به، مرحبا بهذه المبادرة التي تسنمت بها القرية ذروة الشرف، قال أحمد بن عمر رزقي الإلغي : (السيط)

مَـرْحَى، تَبَـوَّأَ إلْغُ ذرْوَةَ الشَّـرَف
وَاجْـتَـمَـعَتْ فِي قُـرَاهُ أجْـمَلُ الطُّرَفِ
وَسَـائِلُ الدِّينِ وَالدُّنْيَـا تَسَـابَقُ فِي
هَذَا الْبَـسِـيطِ وَذَا مِنْ أحْـسَنِ الصُّـدَفِ
مَـدَارِسٌ وَمَـسَـاجِـدٌ مُنَوَّعَـةٌ
مِنْ طَارِفٍ وَتَلِيـدٍ بِالْعُلُومِ حَـفِي(566)

ويعرج الشاعر على ذكر المشرفين على إصلاح الجامع وإقامة الجمعة به شاكرا أعمالهم، قال :

بَنِي سُلَيْـمَـانَ صَـانَ اللَّهُ مَـجْـدَكُمُ
فَـأنْتُمُ لِذَوِيكُمْ أحْـسَـنُ الْخَلَفِ
رَشَـدْتُمُ فَـوَكَلْتُمْ أمْـرَ مَـسْـجِـدِكُمْ
لِلرَّاشِـدِيِّ فَـشَـادَ أرْوَعَ التُّـحَفِ
لِلَّهِ مِنْهُ عِـصَـامِيٌّ تَحَـمَّلَ مَـا
يُوهِي الْجِـبَـالَ فَلَمْ يَعْيَ وَلَمْ يَخَفِ
حَـتَّى بَنَى جَـامِـعـاً يَزْهُو بِرَوْعَـتِـهِ
يَاقُـوتَةٌ انْجَلَتْ فِي بَاطِنِ الصَّـدَفِ(567)

---

565) المعسول 9/ 17.
566) ورقة الوالد محمد السعيدي حفظه الله.
567) المصدر السابق، والراشدي هو إبراهيم بن الحسن السليماني، انظر ترجمته بالمعسول 2/ 374. توفي رحمه الله يوم الجمعة 18 صفر 1425هـ، موافق 9 أبريل 2004م.

ويتتبع الشاعر بخياله وهو بعيد عن موطنه إقامة شعائر الجمعة فيصفها وكأنه يراها رأى العين فيصف توارد الناس على الجامع وتلاوة ما تيسر من القرآن ثم الاستماع إلى خطبة الجمعة وأخيرا قيامهم للصلاة، قال :

يَرْتَادُهُ مِنْ عِبَادِ اللَّه مَنْ رَغِبُوا
فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلاَ ضَوْءاً وَفِي السَّدَف
يُتَابِعُونَ الْخُطَا مِنْ بَعْدِ مَا سَمِعُوا
قَوْلَ النَّبِيِّ فَذَاكُمُ الرِّبَاطُ خَفِي
وَقَرَءُوا مِنْ كِتَابِ اللَّه مَوْعِظَةً
فِي النُّور لَمْ تُلْهِهِمْ تِجَارَةُ السَّخَف
وكَانَ أَوَّلُ مَنْ أَمَّ الْحُضُورَ بِه
عَتِيقُ بَلْدَتِنَا مِنْ أَطْهَرِ النُّطَف
وَجَاءُوا مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ إِلَى
سَمَاعِ خُطْبَتِه حَتَّى بَنِي الْجُرُف(568)
فَصَالَ بِالْوَعْظِ وَالإِرْشَادِ رَائِدُهُ
أَنْ يَفْهَمَ الْجَمْعُ مَا يُنْجِي مِنَ التَّلَف(569)
وَأَنْصَتُوا مُخْبِتِينَ بِالْوَقَارِ وَهُمْ
مُجَلَّلُونَ بِرُوحِ الْوَعْظِ وَالْوَجَف
مِنْ بَعْدِ هَذَا تَرَاصُّوا بِالصُّفُوف كَمَا
أَصَابِعُ الْيَدِ لاَ تَرْنُو لِمُخْتَلِف
وَانْتَشَرُوا بَعْدَ أَنْ أَدَّوْا صَلاَتَهُمُ
يَسْعَوْنَ لِلرِّزْقِ بَادِيهِمْ وَمُعْتَكِف(570)

وخلاصة القول أن التهنئة باختلاف موضوعاتها، لا تخرج عن إبداء الفرح والسرور للمناسبة، وتهنئة صاحبها والدعاء له بدوام الأفراح قياما بالواجب وأداء لحق القرابة أو الأستاذية أو التلمذة، ولا تخرج الموضوعات التي أغفلتها عن هذا الخط...

568) هو محمد بن أحمد العتيق الإلغي، انظر ترجمته بالمعسول 2/ 370.
569) يقصد قرية تاكَنزا، انظر الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث.
570) المصدر السابق.

2 - **الإجازة والاستجازة** : جرت العادة أن يطلب الطلبة من أشياخهم شهادات بخطوط أيديهم، تكون بمثابة اعتراف من العالم بتحصيل تلميذه للعلوم باختلافها، مع الدراية بأسانيدها وبلوغ مرتبة الإتقان حتى تكون هذه الشهادات أساسا يستند إليه الطالب المتخرج في بناء مجده العلمي الشخصي. وقد جعل بعض تلاميذ الإلغية الشعر وسيلة لطلبها بوصفه أقرب وسيلة إلى نفس أستاذه، الذي يعمد إلى نظم الإجازة ردا على طالبها بالمثل.

وعندما نجيل النظر فيما بين أيدينا من استجازات، نراها تسير على نمط واحد ولو اختلفت طولا وقصرا. حيث يستهل شعراؤنا استجازاتهم بمدح أستاذهم وإظهار فضله وسعة علمه، ثم يتطرقون للغرض فيظهرون الخضوع والتذلل، ويصفون قلة علمهم، وعدم أهليتهم لطلب الإجازة والاعتذار بأن الرغبة في التبرك والانخراط في سمط الساعين لخدمة العلم هي ما جرأهم على ذلك، كقول أحمد بن الطاهر الزكري(571) مستجيزا العلامة المختار السوسي : (الطويل)

فَمُنْذُ اسْتَفَاقَ الْقَلْبُ جِئْتُكَ سَيِّدي
وَإِنِّي عَلَى قَصْدِ التَّبَرُّكِ عَاكِفُ
أَرُومُ اسْتِفَادَاتِ الْعُلُوم بِنِيَّة
لَعَلَّ فُؤَادِي مِنْ بِحَارِكَ غَارِفُ(572)

وقول محمد بن الحاج الإفراني مخاطبا الشيخ علياً بن عبد الله الإلغي : (الكامل)

وَالْعَبْدُ مِنْ مَوْلاَهُ رَاجٍ نُجْحَ مَا
يَبْغِي من اذْن في الْفُنُون لِيَقْتَدي(573)
مِنْ سَائِرِ الْمَقْرُوء وَالْمَرْوِي وَالْإِنْـ
ـشَاد وَالْإِنْشَا الْقَوِيِّ الْمُسْنَدِ
بِالْمَنْهَجِ الْمَعْرُوف عِنْدَ ذَوِي النُّهَى
وَبِشَرْطِه الْمَشْرُوط عِنْدَ الْقُصَّدِ

حتى قال معتذرا عن عدم أهليته للاستجازة، وإن كان شيخه أهلا للإجازة :

571) انظر ترجمته بالمعسول 11/ 150.
572) المصدر نفسه، ص : 153.
573) المعسول 10/ 8.

حَـاشَـا لِفَـضْلِكَ أَنْ أُخَـيِّبَ وَإِنَّ لِي

ظَنّاً جَـمِـيـلاً عِنْدَ ذَاكَ الْمَـشْـهَـدِ

هَـذَا وَإِنْ أَنَـا لَـمْ أَكُـنْ أَهْـلاً لِـذَا

فَلَأَنْتَ أَهْلٌ لِلْأَمَـانِي الْخُـرَّدِ(574)

أما الإجازات فإنها تتضمن إنكار الشيخ ما نَسب إليه تلَميذه من سعة العلم والفضل، ملحا على عدم الأهلية للإجازة لقلة البضاعة، إلا أنه يقبل على تلبية طلب تلميذه تحقيقا لحسن ظنه، كقول علي بن عبد الله الإلغي مجيبا تلميذه ابن الحاج الإفراني : (الكامل)

هَذَا وَإِنَّ الْعَـبْـدَ لَيْسَ لِمَـا بِه

حَلَّيْتَ أَهْلاً مِنْ شُـفُـوفِ الْمَـقْـعَـدِ

حَـطَّتْ لَـهُ أَقْـدَارَهُ أَقْـدَارُهُ

وَزَرَتْ بِـهِ أَوْزَارُهُ وَسَـطَ الـنَّـدِي

كَـسَـرَتْـهُ بَاءُ بِطَالَـةٍ أَنَّي لَـهُ

رَفْعٌ بِفِـعْلٍ فِي التُّـقَى لَمْ يُوجَـدِ

لَكِنْ لِحُـسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ رَأَيْتَـهُ

بَاباً وَمِنْهَـاجـاً لِنَيْلِ الْمَـقْـصَـدِ

وَطَلَبْتَ كَـتْبَ إِجَـازَةٍ قَـدْ أُطْلِقَتْ

مِنْهَـا حَـقِـيـقَـتُـهَـا مَـجَـازَ الْمُـسْنَدِ

تَرْوِي بِهَـا عَنْ جِلَّةٍ مِنْ شَـيْـخَـةٍ

غُـرّاً يُرَوِّي عَـذْبُهَـا الْقَلْبَ الصَّـدِي(575)

وقول الطاهر الإفراني مجيزا محمد الهاشمي الفاسي الأقاوي : (الكامل)

وَافَى يُطَالِبُ أَنْ أُجِـيـزَ وَلَـمْ أَكُنْ

أَهْلاً، وَهَلْ يَشْـفِي الْمَرِيضُ مِنَ الضَّنَى؟

أَنَّى لِمِـثْلِي أَنْ يُجِـيـزَ وَإِنَّمَـا

هَاتِيكَ شِـيـمَـةُ ذِي الْمَـعَـارِفِ لاَ أَنَا

574) المعسول 8 / 10 .

575) المعسول 10/ 9.

بَيْنِي أخَيَّ وبَيْنَ مَا ظَنَّيْتَهُ
بَوْنٌ بَعِيدٌ مَا حَلَلْتُ لَهُ فَنَا
لَكِنْ لِمَا لَكَ فِي الْفُؤَاد مِنَ الْهَوَى
لاَبُدَّ لِي مِنْ أنْ أقُولَ وَأعْلِنَا
أنِّي أجَزْتُ السَّيِّدَ الْبَرَّ الْفَقِيـ
ـهَ الْهَاشِمِيَ الْفَاسِي الْأقَاوِي مَسْكَنَا
فِي كُلِّ مَنْقُول وَمَعْقُول وَمَسْـ
ـمُوع مِنَ الشُّمِّ الشُّيُوخ ذَوِي اعْتِنَا(576)

ويردف الأساتذة إجازاتهم بإسداء النصح والحث على العمل بالعلم واتقاء الله، والزهد في متاع الدنيا، ومن أهم ما يتكرر في هذه النصائح، النصح بعدم ادعاء العلم والاحتماء بجنة «لا أدري». قال علي بن عبد الله الإلغي في إجازة الطاهر الإفراني : (الطويل)

لَكُمْ مَا لَنَا مِنْ حُرْمَة وَعَلَيْكَ مَا
عَلَى مِثْلكُمْ مِنْ كُلِّ شَرْط بِهِ تَدْرِي
فَمِنْ ذَاكَ رَعْيُ الْحَقِّ فِي كُلِّ مَجْلس
وَكلْمَةُ «لاَ أدْرِي» مَتَى مُشْكَلٌ يَجْرِي
وَمِنْهُ لُزُومُ الدَّرْسِ فِي الْعُمْر كُلِّه
وَلُطْفٌ إلَى الْجُلاَّسِ مَا لَمْ يَكُنْ يُزْرِي
وَتَقْوَى الْإلَه الْزَمْ وَجَانبْ خلاَفَ مَا
عَلَيْه انْقَضَتْ أيَّامُ أسْلاَفكَ الْغُرِّ(577)

وقال الطاهر الإفراني أيضا مجيزا الهاشمي الفاسي وناصحا مرشدا : (الكامل)

فَعَلَيْه بالتَّقْوَى وَبالْعَمَل الرِّضَا
وَالزُّهْد جُهْدَ الْوُسْعِ فِي عَرَضِ الدُّنَا
وَيَقُولُ لاَ أدْرِي فَمَنْ يَلْزَمُهُ فِي
يَوْمِ الْوَغَى فَقَد اسْتَجَنَّ مِنَ الْقَنَا

576) المعسول 9/ 141.
577) المعسول 7/ 75.

فَـــاعْــمَلْ بعِلْمِكَ مُــخْلِصــاً وَاقْـــصِــدْ به
أخْـــرَى لِتَـــسْـــعَـــدَ مِنْ هُنَاكَ وَمِنْ هُنَا
وَاذْكُـــــرْ أخَــــاكَ لَدَى الدُّعَــــاءِ فَــــإنَّهُ
عَــبْــدٌ فَــقِــيــرٌ لاَ صَــلاَحَ وَلاَ غِنَى(578)

3 - **وصف مجالس الأتاي** : شغف السوسيون - خاصة الأدباء - **بالأتاي** وجعلوه من أركان مجالسهم حين يجتمعون لمذاكرة المسائل العلمية والإبداعات الأدبية.(579) وقد كانت هذه المجالس فرصة لانطلاق الشعراء على سجيتهم يطرحون وقار الفقهاء، ويجتمعون على تناشد الأشعار وسرد الأدبيات، وتذهب بهم الأريحية كل مذهب، فيتخيلون أنهم في مجلس شرب يتنافسون في وصف الخمر وعتاقتها، والكأس وصفائها، والساقي وجماله، وأنى لهم ذلك وقد حرمت عليهم الخمر ثم إنهم علماء وصفوة أقوامهم، وحفظة القرآن ورجال الديانة منهم، غير أنهم وجدوا في الأتاي منيتهم فأضحت مجالسهم ناقصة بدون شربه وتداول كؤوسه، فإذا تناول أحدهم كأسه تخيل أنه أبو نواس في حانه يصف الراح ويمتع سمع مجالسيه بذكرها، ولا يكتفي شعراؤنا بالإنصات بل يشاركون في النظم مساجلة، فتأتي القصيدة معبرة عن أحاسيس الجماعة وعواطفها، وذلك بضم الجهد الشخصي المتجلي في التعامل مع اللغة، إلى الجهد الغيري عبر تحقيق التواصل والانسجام بين المتساجلين.(580) من ذلك مساجلة بعض الأدباء في مجلس بمنزل الطاهر الإفراني بتانكرت؛ قال المضيف داعيا الساقي إلى إدارة الكأس لعلها تشفي الجلوس من الهموم : (البسيط)

أدِرْ فَـــقَـــدْ سَـــاعَـــدَ الْإمْكَانُ يَاسَــــاقِي
وَارْقِ الْهُــمُــومَ بِهَــا فَــحَــبَّــذَا الرَّاقِي

ثم قال محمد بن الحاج الإفراني مشترطا أن تكون راحا معتقة تسوق مرتشفها للفرح :

رَاحَــاً مُــعَــتَّــقَـــةً في الدُّنِّ كَــافِلَةً
بِكُلِّ مَـــا فَـــرَحٍ لِلشُّــــرْبِ مُنْسَـــاقِ

578) المعسول 9/ 141.
579) انظر شعر داود الرسموكي، ص : 122 وما بعد، وكتاب نفحات الشباب في المعسول 18/ 313 و314.
580) محمد السرغيني، الشعر والتجربة، ص : 130. مجلة الوحدة. عدد 82/ 83.

ثم قال الشيخ الإفراني أيضا واصفا جمال منظر الخمر وكأسها :

وَعَـــاطِهَـــا مِـــثْلَ دُراذَابَ فِي صَـــدَفِ الْـ
ـبِلَّوْرِ قَـــــدْ حُلِّيَتْ بِالْحَـــــبَبِ الرَّاقِي

فمحمد بن الحاج مادحا الندامى المشاركين في الشرب :

لاَ سِـــيَّــمَـــا بَيْنَ إخْـــوَانِ الصَّـــفَـــا بِهِمُ
أَوْرَقَ غُـــــــصْنُ الأَمَــــــانِي أيَّ إيـرَاقِ

ومحمد بن الطاهر الإفراني مذيلا قول سابقه :

مِنْ سَـــادَةٍ نُبَـــهَـــاءِ الْعَـــصْـــرِ مَنْ بِهِمُ
إذَا شَكَوْتَ جَـــوَى الأَحْـــشَـــاءِ تِرْيَاقُ

ثم محمد بن الحاج أيضا :

مِـنْ كُـلِّ رَيَّـانَ مِـنْ مَـــــــاءِ الْـمَكَارِمِ ذِي
فَـــضْلٍ إلَى غَـــايَةِ الإِحْـــسَـــانِ بَاقِ

ثم قال البشير الناصري :

لَازِلْتَ لاَزِلْـتَ يَاخَـــيْـــرَ الْـمَكَارِمِ فِي
سَـــعْـــدٍ وَمَـــجْـــدُكَ فِي زَيْدٍ وَإشْـــرَاقِ

وختم أحمد اليزيدي بقوله :

وَلاَ بَرِحْتَ بِبَـــحْـــرِ الْعِلْمِ مُـــغْـــتَـــرِفـاً
وَلاَ انْزَعَـجْتَ إذَا مَـا السَّـاقُ بِالسَّـاقِ(581)

وزيادة على التساجل حول الأتاي، اهتم شعراؤنا بآداب شربه وتعرضوا لتفاصيلها، خاصة شروط مدير الكأس، فشرطوا فيه النظافة واللطف والكياسة وأن يكون من المتأدبين، قال أحمد بن الحسن أبناو من أرجوزة :

لاَبُدَّ فِـــهِي الْمُـــدِيرِ مِنْ نَظَافَـــهْ
وَمِنْ لَطَافَـــةٍ وَمِـنْ ظَرَافَـــهْ
وَأَنْ يَكُونَ طَاهِـرَ الأَعْـــضَـــاءِ
مِنْ وَسَخٍ وَظَاهِـرَ الإِغْـــضَـــاءِ

---

581) كناش عمر المتوكل الساحلي الثاني، ص : 195، وانظر أخرى في المعسول 2/ 46.

بِكُسْـــــوَةٍ حَـــــسَنَة نَقـــــيَّــــــهْ
وَبِزَّةٍ مَـــغْــــبُـــوطَةٍ مَـــرْضِـــيَّــــهْ

فَــــإِنْ يَـكُـنْ مُـــــتَّـــــسِخَ الأَبْـدَان
فَـــــمَـــــا لَـهُ فِي الْـمُنْتَـــــدَى يَدَان

لِـأَنَّـهُ مَـــــجْلَبَـــــةٌ لِـلتَّـــــرَح
مَـــبْـــخَـــرَةٌ مَـــدْفَـــعَـــةٌ لِلْفَـــرَح

وَأَنْ يُـــرَى أَهْـــلاً لِـــسَـــــــــرْدِ أَدَب
مُـنَـاسِـب لِـشُـــــــــرْبِ أَهْـلِ الـرُّتَـب

مُـــرَاعِـــيــاً مِنْ مُـــقْـــتَـــضَى الْمَـــقَـــام
وَالْحَـــال مَـــا يُفْـــضِي إِلَى الْوِئَام(582)

كما ناقشوا بعض المسائل المتعلقة بإعداده ووقفوا طويلا عند مسألة «تَشْحيره» هل تجوز أم لا ؟ قال الطاهر الإفراني مدليا برأيه في المسألة : (الرجز)

فَـــاعْلَمْ بِأَنَّ صَنْعَـــةَ التَّـــشْـــحِـــيــرِ قَـــدْ
أَحْـــدَثَهَـــا ذَوُو الْمَـــجَـــانَةِ فَـــقُـــدْ

أَمَّـــا الطِّبَـــاعُ الْمُـــسْـــتَـــقِـــيــمَـــةُ فَـــلاَ
تَرْضَـى بِأَنْ تَفْـــعَلَهَـــا أَوْ تَقْـــبَـــلاَ

ويحدد الشاعر أسباب رفضه فيجعلها أربعة، فالأول إفساد نظافة «البراد» بتسخيمه :

لِـأَنَّـهَـــــا تُـسَـــــخِّمُ الْبَـــــرَّادَا
وَرُبَّمَـــــا تُـفْـــــسِـــــدُهُ إِفْـــــسَـــــادَا

وَالْكَأْسُ قَـــــدْ شَـــــرَطَ أَهْلُ الـظَّرْف
فِـــيــهَـــا النَّقَـــاء وَصَـــفَـــاء الظَّرْف

أما الثاني : فتغيير رائحة الأتاي من الطيبوبة إلى النتن :

وَرِيحُـــــهُ إِذَا غَـــــلاَ أَسْـــــهَـكُ مِنْ
حُـــوتٍ رَمَـــاهُ الْبَـــحْـــرُ صَـــيْـــفـاً فَنَتَن

582) نسب العلامة المختار السوسي هذه الأرجوزة لعبد الله بن محمد الإلغي في المعسول 2/ 186، ووردت منسوبة لأحمد أبناو في كتابه سر الصباح، ص : 188.

وَشَـــــــــرْطُ طِيـبِ الـكَّـأْس طِـيـبُ الأَرَجِ
فَـــــضَـــــدُّهُ إذَنْ تَمَـــامُ الْحَـــرَجِ(583)

أما الثالث : تحول طعمه وتغيره :

كَـــمَـــا اسْـــتَـــحَـــالَ لَوْنُهُ وَشَـــمُّـــهُ
كَـــذَاكَ أَيْضـــاً يَسْـــتَـــحِـيلُ طُعْـمُـــهُ

أما الرابع : فيأتي من تشبيه الأتاي بالخمر؛ فإذا كانت هذه يشينها الطبخ فكذلك هو، ويستشهد شاعرنا هنا بقول أئمة الصناعة قائلا :

قَـــــالَ فَـــــتَى الـظَّـرْف أبُـو نُـوَّاسِ
وَهْوَ كَـــمَـــا قَـــيلَ إمَـــامُ الْكَاسِ
فِي وَصْفِ خَـــمْـــرٍ لَمْ يَشِنْهَـــا الطَّاهِي
بِالطَّبْخِ، فَـــافْـــهَـمْ لاَ تَكُنْ بِالسَّـــاهِي
فَـهْـوَ كَـمَـا سَـمِـعْتَ سَـمَّى الطَّبْـخَـا
شَـيْناً، فَـهَـلاَّ تَتْـبَـعَنَّ الشَّـيْـخَـا
إنْ قُلْتَ إنَّ قَـــوْلَهُ فِي الْخَـــمْـــرِ
قُلْتُ وَمِـــثْلُهَـــا الأتَايُ فَـــادْرِ(584)

ويجمل الشاعر بعد ذلك رأيه في المسألة كلها، ملخصا رأيه في منع «التشحير»، إلا إذا اقتضته الضرورة مع ما فيه من نقص، قال :

فَـــالقَـــصْـــدُ أنَّ الطَّبْخَ شَـــيْنُ الْكَأْسِ
بِالنَّصِّ وَالإجْـــمَـــاعِ وَالقِـــيَّـــاسِ
فَـــصَحَّ أنَّ صَنْعَـــةَ التَّـــشْـــحِـــيـــرِ
قَـــذِيٌ بِعَـــيْنِ الأنْسِ يَاسَـــمِـــيـــرِي
لَـاهُـمَّ إلاَّ أنْ يُـخَـــــافَ الْبَـــــرْدُ
جِـــــدّاً عَلَى البَـــــرَادِ إذْ يَشْـــــتَـــــدُّ

583) المعسول 1/ 53-54.
584) المعسول 1/ 54.

أوِ اقْـــتَـــضَــــاهُ سَـــبَبٌ فَـــلاَ حَـــرَجْ

إذَنْ عَلَى مَـــا كَـــانَ فِـــيـــه منْ عـــوَجْ(585)

هذه بعض القضايا التي كان أدباؤنا يثيرونها في مجالسهم الأدبية والعلمية، قاصدين من ورائها التسلية والمتعة النفسية، المبنية عل طرح الجمود والوقار، وإطلاق النفس على سجيتها عكس ما ألفته من كثرة التحرز عند لقاء عامة الناس.

4 - **المداعبة والأقوال الهزلية** : ينصرف شعراء الإلغية في أشعارهم الإخوانية أحيانا إلى المزاح والهزل ومداعبة بعضهم بعضا، تعبيرا عن المودة وتوثيقا لها، ومن مداعباتهم نستعرض مثالين :

الأول : أهدى العربي الساموكَني وهو مشارط بالمدرسة الإيغشانية صديقه الطاهر الإفراني ثوما وحُرْفا وكتب معها أن الهدية على قدر «المهدى له»، فأجابه الإفراني بقوله هازلا : (السريع)

يَاأيُّهَـــا الْمُـــتْـــحفُ منْ جَـــهْله

بِـالأنْتَنَيْـنِ الْـفُـــومِ وَالْـحُـــرْفِ

مَـــا إنْ لَـمَـــا أهْـدَيْـتَ مِنْ ثَـالـث

أخْـــبَـــثُ فِـي الْـمَـطْـعَـمِ وَالأنْـفِ

مَـــا هَـكَـذَا، يَامُـــزْدَرِيَ صَـــاحِب

يُـكْـرِمُـــــهُ، هَـدِيَّـةُ الإلْـفِ

لَكِنَّهُ طَبْـــعُكَ مِنْ خُـــبْـــثِـــه

يَسْـتَـحْـسِنُ الْمَـيْلَ إلَى الصِّنْفِ

فَـــمَـــا تُرَى تَـنْفَـكُّ في حَـــالَةَ

عَنْ صِـــفَـــتَـــيْنِ النَّذْلِ وَالْجِلْفِ(586)

فكتب الساموكَني إلى شيخه علي بن عبد الله الإلغي مستنجدا به، طالبا المنافحة عنه، فكتب إلى الإفراني مهددا متوعدا :

مَـــالَكَ لاَ تُغْـــمِـــدُ سَـــيْفَ الْعِـــدَا

عَنْ مُـــحْـــتَمٍ بِنَـا مِنَ الْحَـــيْفِ

585) المعسول 1 / 54 .

586) المعسول 9/ 61.

فَــــهْـــوَ لَنَا جَـــارٌ وَحَقُّ الْجِـــوَارْ
رُوَّاتُـهُ تَـسْـــــمُــــــو عَـنِ الـزَّيْـفِ

لاَبُدَّ مِنْ تَبْـــيِـــيضِ مَـــا سَـــوَّدَتْ
مِنْ عِـــرْضِـــهِ قَـــصِـــيـــدَةُ الْحُـــرْفِ

إنْ لَـمْ تُبَـــادِرْ بِـالثَّنَاءِ كَــــمَــــا
بَــادَرْتَ بِـــالـــذَّمِّ عَـــلَـــى الإلْـــفِ

فَــــاعْلَـمْ بِأنَّـا فِي مُـــحَـــارَبَةٍ
يَلْهُـــو بِهَـــا نِصْـــفُكَ عَنْ نِصْفِ(587)

فبادر الإفراني بالاستسلام بقوله مخاطباً الشيخ الإلغي :

لَوْلاَكَ لاَ أمْـسِي عَنْ صَـاحِـبِي
حَـتَّى يَذُوقَ سَـوْرَةَ الْحَـتْفِ

هُـوَ الَّـذِي سَـــــاوَرَنِـي أوَّلاً
جَـــرَّعَنِي الإقْـــذَاعَ بِالْقَـــذْفِ

وَالْحُـرُّ لاَ يُغْـمِـدُ سَـيْفَ الْعِـدَا
عَنْ مُـعْـتَـدٍ يَسُـومُ بِالْحَـيْفِ

أقْـــــسِمُ لَـوْلاَ أنَّـهُ لاَئِـذٌ
بِالْحَـــرَمِ الْمُؤَمَّنِ مِنْ خَـــوْفِ

لاَسْـتَـرْسَلَ الفِكْرُ عَلَى طَبْـعِـهِ
جَـــرْيَ جَـــوَادٍ سَـــابِقٍ طِرْفِ

حَـــتَّى يَرَى أنْ لاَ تُقَـــاوِمَ فِي الْـ
ـمَعْـرَكِ عُكَّازَتُهُ سَـيْفِي(588)

الثاني : قام جماعة من أدباء تارودانت بزيارة الأديب المؤرخ عبد الحميد مرادي البعمراني بمنزله بأيت ملول بضاحية أكادير، دون أن يخبروا الشاعر أحمد بن زكريا السكال، فكتب إليهم يعاتبهم ويصب جام غضبه على صديقه الحاج محمد هرماس الذي كان ضمن الوفد واعتبره المؤتمر على كتمان أمر الزيارة عنه، قال : (الخفيف)

587) المعسول 9 / 63 .
588) شعر أحمد السكال، ص : 88 .

أَيُّهَا الزَّائِرُونَ عَبْدَ الْحَمِيد
قَدْ أَصَبْتُمْ مُرَادَكُمْ مِنْ جَدِيدِ
بَعْدَ شَوْقٍ وَرَغْبَةٍ فِي اتِّصَال
وَاجْتِمَاعٍ بِذَلِكَ الصِّنْدِيدِ
وَتَرَكْتُمْ أَخَاكُمُ دُونَ عِلْم
لَوْ فَعَلْتُمْ لَكُنْتُ ضِمْنَ الشُّهُود
لِمَ لاَ تُعْلِمُونَنِي ؟ غَيْرَ أَنِّي
عَارِفٌ مَنْ أَبَى لَكُمْ كَحَسُود
إِنَّهُ ذَلِكَ الْمُسَمَّى بِهَرْمَا
سَ تَعَارَضَنِي لِخَوْفٍ شَدِيدِ(589)

ثم قال هازئا بصديقه مشنعا فعلته :

لَوْ لَمْ أَكُنْ خَائِفاً لأَفْسَدَ مَا قَدْ
كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنْ حُدُودِ
لَهَجَوْتُ الْبَخِيلَ هَجْواً قَبِيحاً
وَأَرِيهِ جُدُودَهُ مِنْ جُدُودِي
غَيْرَ أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَقْلَقُوا مِـ
ـنِّي إِذْ مَا ضَرَبْتُهُ بِالْعَمُودِ
فَوْقَ صَلْعَتِهِ الْعَرِيضَةِ حَتَّى
تَسْمَعُوا مِنْهُ صَرْخَةَ الْمَجْلُود(590)

ويختم الشاعر قصيدته بالاعتذار لأصدقائه والقول إن قصده إنما هو المداعبة والهزل لا غير :

إِنَّ قَصْدِي هُوَ الْحِوَارُ وَلاَ شَيْ
ءَ سِوَى ذَاكَ مِنْ حِوَارٍ صَفِيد
إِنَّ هَرْمَاسَ لَمْ يَكُنْ رَغْمَ مَا قَدْ
قُلْتُ فِيهِ سِوَى صَدِيقٍ مَجِيدِ

589) شعر أحمد السكال، ص : 88 .
590) نفسه.

غَـــيْــرَ أنِّي أثِيـــرُ مِنْهُ خَـــبِـــيــئـــاً

من كَــلاَم نكَاث وَمُــزَاح حَــمــيـــد(591)

هذه إذن بعض الموضوعات التيَ تناولتها اَلإخوانيّات، وخلاصة اَلأمر أن شعراءنا كانوا يجنحون فيها إلى التعبير نظما عن كل ما كان النثر وسيلة لقوله، بل إن بعضهم تغالوا في ذلك حتى نظموا عقود البيع والشراء،(592) ولم تكن الإخوانيات مع ذلك مقتصرة على الشؤون الخاصة والاجتماعية التي تدور حول تبادل العواطف، بل تجاوزت كل ذلك إلى الاهتمام بالقضايا الوطنية والدينية كما أشرنا من قبل.(593)

591) شعر أحمد السكال، ص: 88.
592) انظر المعسول 9/ 289.
593) انظر غرض الشعر الوطني من هذا الفصل.

المبحث الثاني - البنية الشكلية :

بعد دراسة موضوعات الشعر من خلال أهم أغراضه لدى شعراء الإلغية، نتطرق في هذا المبحث إلى دراسة الشكل العام لهذا الإنتاج الشعري من خلال العناصر التالية :

1 - بنية القصيدة :

درج شعراء الإلغية في أغلب قصائدهم على السير على منوال الأقدمين، تقليدا لهم، واتباعا للنمط الذي ألفوا مطالعته في الكتب الأدبية المقررة لديهم في الدراسة، باعتبارها النموذج الأمثل الذي يجب احتذاؤه، لا تعصبا، وإنما لعدم اتصالهم بالأدب الحديث اتصالا وثيقا. إذ نرى بعضهم ممن استطاعوا الاطلاع على الآداب العربية الحديثة، خاصة من الجيل اللاحق،(594) يتجاوزون الأنماط التقليدية، كأن يتناولوا موضوعاتهم مباشرة بلا مقدمات.

ويغلب على أشعار أدبائنا الانقسام إلى ثلاثة أقسام في بنيتها الداخلية الشكلية : المقدمة والغرض والخاتمة، إلا أن بعضها لم يحترم هذا البناء كبعض المقطوعات وكقصائد الهجاء، حيث لم يعد هناك مجال لالتماس الوسائط؛ فالتوتر الناتج عن الانفعال الشديد، لا يمكن التحكم فيه ولا إرجاؤه، بل ينطلق مزمجرا معبرا عن مشاعر البغض والكره.

ويتميز كل قسم من أقسام القصيدة بخصائص موضوعية نستعرضها فيما يلي :

1 - **المقدمة** : توسل شعراؤنا بالمقدمات لتناول أغراضهم الشعرية وجعلوها وسائل للإيحاء والتأثير في المستمع، وقد تنوعت موضوعاتها ولم تقتصر على النسيب كما قد يتبادر إلى الذهن، بل شملت المدح والوصف والوقوف على الأطلال، والخمريات، والتشكي من الدهر؛ ولا تقتصر المقدمة على موضوع واحد بل قد تجمع بين اثنين أو أكثر.

* **المقدمة الغزلية** : تنقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول وهو المقدمة الغزلية التي تكون المرأة موضوعا لها، ويغلب عليها الوصف واستحضار جمالها الفتان بكل تفاصيله، مع ذكر عذابات الهوى ومعاناة الشاعر منها...(595) أما القسم الثاني فيختص بالقصائد النبوية، ويخالف الأول في ميل الشاعر إلى الاقتصار على ذكر لواعج العشق والغرام، والتركيز على المعنويات، وذلك لشعوره بأن مدح الرسول ﷺ لا يتناسب مع التهتك، ولا يتخذ هذا الغزل إلا سببا للرمز على سبيل الإيحاء المكثف كما سنوضح، ولعل خير مثال على ذلك المقدمة التي افتتح بها الطاهر الإفراني موازنته لبانت سعاد. يقول في أولها متشكيا من بعد المحبوب وقلة الحيلة للوصول إليه : (البسيط)

594) انظر المبحث الأول من هذا الفصل.
595) ذكرنا هذا عند غرض الغزل في المبحث الأول.

حَلَّتْ سُعَادُ حِمىً نَاء تَكَنَّفُهُ
أسْدُ الْعِدَا دُونَهَا مِنَ الْقَنَا غِيلُ
كَيْفَ الْوُصُولُ وَلاَ جَرْدَاءُ سَابِحَةٌ
تُدْنِي إلَيْهِ وَلاَ قَوْدَاءُ شَمْلِيلُ
لاَ الطَّيْفُ مِنْهَا مُلِمٌّ بِي وَلاَ عِدَةٌ
يَوْماً تُعَلِّلُنِي مِنْهَا الْأَبَاطِيلُ(596)

وبعد هذا التعبير عن الشوق يقطع الشاعر مسارَ غزله ليشير إلى أن عشقه لم يكن لفتاة حسناء، بل هو لمدينة الرسول ﷺ طيبة، لقد رمز للمدينة بالفتاة وكنى بها عنها؛ إنه لا يعشق فتاة ولا يسعى إلى رشف لماها المعسول، وإنما يهفو إلى ارتشاف رضاب معشوقته الحق طيبة؛ قال معترفا بهذا ومصرحا : (البسيط)

أسْتَغْفِرُ اللَّهَ كَمْ أكَنِّي وَأكْتُمُ مَنْ
بِهَا فُؤَادِيَ مَشْغُوفٌ وَمَشْغُولُ
مَا هَاجَ وَجْدِيَ لاَ خُودٌ مُخَدَّرَةٌ
«وَلاَ أغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ»
وَلاَ أرِقْتُ لِطَيْفٍ مِنْ سُعَادَ سَرَى
وَلاَ لِرَشْفِ لَمَاهَا وَهْوَ مَعْسُولُ
لَكِنْ لِطَيْبَةَ خَيْرِ الْعَالَمِينَ هَفَا
قَلْبِي، فَرَشْفُ لَمَى زَرْقَائِهَا السُّولُ(597)

يتبين لنا أن المقدمة الغزلية في القصائد النبوية ليست إلا رمزا أو كناية عن حب الشاعر للرسول ﷺ، وكل ما يتجلى فيه من أبعاد مكانية أو زمانية، أو يرتبط به من معان سامية مثل السعادة التي اشتق منها الشاعر اسم الحبيبة سعاد؛(598) إننا هنا أمام رمز مكثف تتجلى فيه الحركة الدائبة بين دلالته اللغوية المألوفة، ودلالته الخاصة التي أثارت انفعال الشاعر وفكره؛(599) لقد ارتفعت الدلالة من المحدود «سعاد» المرأة المحبوبة محور الغزل، إلى مساحة خاصة حملت أحلام الشاعر بالارتحال إلى المكان – الرمز المحبوب طيبة.

596) المعسول 7/ 191.
597) المصدر نفسه.
598) انظر رمزية هذا الاسم في قصيدة كعب بن زهير عند الدكتور أحمد الطريسي ـ الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب، ص : 123.
599) فايز الداية ـ جماليات الأسلوب، ص : 177 ـ 178.

أما القسم الثالث فيفتتح به الشعراء قصائدهم الإخوانية في تقريظ الأشعار أو الكتب، ويرتفع أيضا إلى مستوى رمزي، إذ يصف الشاعر محبوبته متغزلا ويتفنن ما شاء له التفنن، ثم ينبهنا قبل تطرقه لغرض القصيدة إلى أنه لم يعشق فتاة حسناء وإنما سبت عقله غادة فكرية أو شعرية بنت القوافي : (الكامل)

لَكِنْ سَبَتْنِي غَادَةٌ فِكْرِيَّةٌ
زَهْرِيَّةُ الأَلْحَاظِ وَالنِّشْرِ
حَيَّتْ فَأَحْيَتْ بِالتَّحِيَّةِ مُذْنَفاً
يَابَرْدَ مَا أَبْدَتْ عَلَى صَدْرِي(600)

* **مقدمة التشكي من الدهر** : وتنقسم أيضا إلى قسمين، حسب موضوعات القصائد التي تنتمي إليها، الأول في ارتباطها بغرض الرثاء ارتباطا وثيقا لما بينهما من تداع، فالشاعر يعبر عمّا لحقه من مصائب بالشكوى من الدهر الذي انتزع منه المرثي، وقد أكثر شعراؤنا من افتتاح قصائد الرثاء بهذه المقدمات، بذكر مكر الدنيا بأهلها... وغير ذلك من المعاني المتأملة في الوجود المستسلمة للقدر كما رأينا من قبل.(601) أما القسم الثاني فيرتبط بتعبير الشعراء عن معاناتهم الذاتية، وما يلاقون في حياتهم من كد وعناء، وقد تغلب النبرة الحزينة المنبثقة من هذه المعاناة على بعض القصائد التي قيلت في أغراض تستدعي الأفراح والمسرات، كقصيدة المدني بن علي الإلغي في تهنئة صديقه المختار السوسي بمولد طفل، صدرها بالتشكي من الزمان، فقال في مقدمتها : (الخفيف)

إِنَّ دَهْرِي لَمُنْعِمٌ بِالتَّلاَقِي
بَعْدَ تَجْرِيعِهِ كُؤُوسَ الْفِرَاقِ
يَعْتَدِي أَزْمُناً بِكُلِّ حُسَامِ
أَوْ بِطَعْنٍ مِنَ الرِّمَاحِ الرِّقَاقِ
كُلَّمَا أَنْهَلَتْ يَدُ الدَّهْرِ صَفْواً
صَيَّرَتْهُ فِي الْحِينِ مُرَّ الْمَذَاقِ
هَكَذَا دَأْبُهُ يُسِيءُ وَيَأْسُوا
خُلُقٌ لَيْسَ فِيهِ طَبْعُ نِفَاقِ(602)

600) المعسول 9/ 261، وانظر أيضا شعر داود الرسموكي، ص : 136.
601) انظر غرض الرثاء في المبحث الأول من هذا الفصل.
602) الإلغيات 1 / 121.

إن مقدمة التشكي من الدهر تعبر، مقارنة مع غيرها من المقدمات، عن نظر الشاعر إلى ذاته، إلى همومه الشخصية، في سياق شعري يلزمه دائما بالتوجه نحو الآخر ومقاسمته الأفراح والأتراح، إنها لحظة تأمل كثيفة، ليس فيما جرى للآخرين، ولكن فيما يلحق الذات من عوادي الزمن ومصائبه. وقد بلغ من كثافتها وزخم الانفعال بها أن فرضت نفسها على مطلع قصائد التهنئة والمدح، لتصبح رؤية مأساوية رمزية فريدة في سياق شعر تلاميذ الإلغية «تصعد من أغوار القلب الإنساني حيث الجذر المشترك الذي تلتقي في آلام وآمال كل بني البشر».(603)

- **مقدمة وصف الطبيعة** : استهل بعض الشعراء قصائدهم بوصف الطبيعة وما فيها من جمال وتناسق، ولا يقتصرون على مجرد الوصف بل يلبسون الطبيعة حلة من الفرح والسرور، فالنسيم عليل، والغصون لعبت بها صبا الأسحار، والحمائم طارت بينها طربا، كقول محمد بن علي الإلغي : (الكامل)

غَنَّى الْحَمَامُ بِرَوْضَةٍ غَنَّاء
وَتَجَاوَبَتْ طَرَباً بِحُسْنِ غنَاء
فَتَقَتْ بِهَا أَزْهَارُهَا وَتَفَجَّرَتْ
أَنْهَارُهَا يَا حُسْنَهَا لِلرَّائِي
فَقَضَيْتُ مِنْ أَنْهَارِهَا وَزُهُورِهَا
عَجَباً، وَقَدْ أَزْرَتْ بِزَهْرِ سَمَاء
وَتَرَى بِهَا مُلْدَ الْغُصُون كَأَنَّهَا
نَشْوَانَةٌ مِنْ خَمْرَةِ الأَنْدَاء
أَرْسَى الرَّبِيعُ بِرَوْضِهَا فَكَأَنَّمَا
عِقْدُ الْجُمَان بِلَبَّةِ الْحَسْنَاء(604)

فالشاعر يستعمل وصف الطبيعة مقدمة للتعبير عن فرحه وانشراحه بلقاء صديق أو قريب أو أستاذ.(605) إن اللغة هنا تتحول «من كونها انعكاسا للعالم أو تعبيرا عنه أو موقفا منه، إلى أن تكون هي نفسها عالما آخر، ربما بديلا عن ذلك العالم، فهي إذا «سحر البيان»... وما السحر إلا تحويل للواقع وانتهاك له، يقلبه إلى «لاواقع» أو هو «تخييل»...

603) الطريسي أحمد أعراب ـ التصور المنهجي ومستويات الإدراك ص : 49.
604) المعسول 2/ 194.
605) أنظر أيضا المعسول 9/ 22.

أي تحويل العالم إلى خيال».(606) فوصف الطبيعة لم يعد نقلا أمينا للواقع، وإنما خلق واقع آخر تطغى عليه السمات الإنسانية.

المقدمة الخمرية : يندر استعمالها لدى شعرائنا، فلم نقف عندهم إلا على مقدمة واحدة للطاهر الإفراني صدّر بها قصيدة في تهنئة أستاذه بزفافه قال : (الطويل)

تَـرَشَّـفْ لِدَاءِ الْـهَـمِّ ثَـغْـــــرَ ابْنَةِ الْكَـرْمِ
وَفُضَّ إِلَى مَكْنُونِهَـــــا طِينَـةَ الْخَـــتْمِ

وَنَحِّ لِثَـــامَ الدَّنِّ عَنْ حُـــرِّ وَجْـــهِـهَــا
تَرَ الْبَــــدْرَ فِي جُنْحِ الدُّجَـــا لَيْلَةَ التَّمِّ

يُرَوِّي غَلِيلَ النَّفْسِ رَشْفُ مِـــزَاجِــهَـــا
وَيُذْكِي الْهَـــوَى رِيحٌ لَهَـا طَيِّبُ النَّسْمِ(607)

والظاهر أن الشاعر استعمل هذه المقدمة تظرفا وتفكها، وتعبيرا عن ابتهاجه بزفاف شيخه، ومحاكاة لنماذج شعرية قديمة، خاصة من العصر العباسي، حيث نجد أبا نواس رائد المذهب.(608)

- **مقدمات أخرى** : بالإضافة إلى ما تقدم افتتح شعراء الإلغية قصائدهم بموضوعات أخرى طريفة، فنرى الشاعر محمد بن علي الإلغي يفتتح قصيدة في مدح شيخه الطاهر الإفراني بمدح خادمه مبارك بن سالم مشيدا بإخلاصه وتفانيه في خدمة سيده، فقال : (الكامل)

لِلَّهِ دَرُّكَ يَا مُـــبَـــارَكُ طَالَمَـــا
أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ خِـدْمَـةَ الأَخْـيَـارِ

فَكَفَـيْـتَـهُمْ كُلَّ الشُّـؤُون فَــلاَ تُرَى
إِلاَّ بِصُـحْـبَـتِـهِمْ مِنَ الأَسْـفَـارِ

فِي شِـقَّـةِ الأَسْـفَـارِ تَبْـدُو حَـالَةَ الْـ
أَصْـحَـابِ مِنْ خُـيُـرٍ وَمِنْ أَشْـرَارِ

دُمْ خَـــادِمـــاً لِلْعِلْمِ تَحْتَ ظِلاَلِ مَنْ
خَضَعَتْ لِهَيْبَتِهِ طِلاَ الأَحْرَارِ(609)

---

606) عبد الله الغذامي ـ الخطيئة والتفكير، ص : 26.
607) المعسول 7/ 113.
608) انظر حولها حسين عطوان ـ مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول، ص : 99 وما بعد.
609) المعسول 2/ 196.

كما نقف على مقدمة طللية للطاهر الإفراني قدم بها قصيدة في مدح الشيخ الأمير الهيبة بن ماء العينين؛ ولم يكن اختيار شاعرنا لهذه المقدمة اعتباطيا، بل لمناسبتها للممدوح الذي قضى أغلب حياته في الصحراء، يعيش حياة بدوية لا تكاد تخالف عيشة القدماء في شيء، فهناك انتجاع مواطن الكلإ أو الماء، والمرور بالأطلال وركوب النوق والجمال،(610) لذلك كان اختيار هذه المقدمة موفقا لأنه يذكر الشيخ الصحراوي بموطن صباه ومقام أهله : (البسيط)

هَذي مَرَابِعُ لَيْلَى فَاقْضِ مَا وَجَبَا
وَبُثَّ مِنْ سِرِّ مَا الْعَيْنَيْنِ مَا احْتَجَبَا
وَارْبَعْ عَلَى الرَّبْعِ وَاذْكُرْ جِيرَةً رَحَلُوا
وَخَلَّفُوا الْوَجْدَ وَالأشْوَاقَ وَالْكُرَبَا
وَرَوِّ بِالدَّمْعِ إنْ شَحَّ الْحَيَا دِمَناً
سَاعَدَ فِيهَا عَلَى اللَّذَّاتِ شَرْخُ صِبَا(611)

ونلاحظ في الأخير أن المقدمة لدى شعرائنا تحتل مرتبة مهمة، فيحرصون على تجويدها، حتى تكون لائقة بافتتاح قصائدهم، كما يتخذونها مجالا للتعبير الصادق عن عواطفهم التي لا يسمح مقامهم في المجتمع بإبرازها كالغزل.(612)

2 - **الغرض** : تعرضنا في المبحث السابق للأغراض التي تناولها الشعراء غير أننا لابد أن نتفحص هنا الطريقة التي استعملوا للانتقال من المقدمات إلى الأغراض وهو ما يعرف لدى البلاغيين بالخروج أو التخلص أو التوسل.(613) ويسعى الشاعر من خلاله إلى خلق الانسجام والتلاؤم بين أجزاء النص انطلاقا من استمداد الجزء محاسنه من الكل المنسجم المترابط.(614)

وقد فرق النقاد القدماء بين نوعين منه : الأول الخروج المنفصل والثاني المتصل،(615) وقد توسل بكليهما شعراؤنا على اختلافهما جودة ورداءة.

---

610) انظر حول ذلك الدكتور عباس الجراري ـ شعر الصحراء مجلة دعوة الحق عدد 273، ص 122.
611) المعسول 4/ 112.
612) انظر غرض الغزل في المبحث الأول من فصلنا هذا.
613) انظر العمدة 1/ 236.
614) محمد خطابي ـ لسانيات النص، ص : 149.
615) أنظر، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول، ص : 252.

* **الخروج المتصل** : يرى النقاد أنه أجود وأحسن وسموه لذلك بحسن التخلص، وهو أن ينتقل الشاعر من مقدمة قصيدته إلى غرضها «بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد...».(616)

ومن أمثلة هذا النوع المستحسن، ما جاء في قصيدة المدني بن علي الإلغي مهنئا أخاه محمد بولد له حيث افتتحها بشكوى الفراق والتشوف إلى الأحباب ووصف عذاب البين إلى أن قال متخلصا : (الطويل)

فَبَيْنَا أنَا مَا بَيْنَ بَاكٍ وَوَالِه
أرِيغُ سَلْواً مُعْوِزاً أوْ تَجَلُّدَا
إذَا بِتَبَاشِيرِ السُّعُودِ تَوَارَدَتْ
تُهَنِّىءُ بالنَّجْلِ الْمُبَارَكِ أحْمَدَا(617)

ومنها كذلك قول محمد بن عبد الله أوَبلوش الباعمراني فيَ قصيدة استهلها بالغزل ثم تخلص لمدح صديقه أحمد الأكَماري، فقال بعد وصف حبيبته وفعل هواها في نفسه : (السريع)

لاَ بَلْ سَبَتْ عَقْلِي وَكُلُّ فَتىً
يُعْجِبُهُ حُسْنُ الرَّشَا الأغْيَدِ
فِي سُنْدُسٍ تَمْشِي وَاسْتَبْرَق
مُخْتَالَةً كَالْغُصْنِ الأمْلَدِ
بِنْتٌ لِفِكْرٍ فَارِعٍ قَدْ عَلاَ
مُفَارِقَ الْعَوَاءِ وَالْفَرْقَدِ
اَلْبَارِعِ الْبَحْرِ الْهُمَامِ الَّذي
ضَمَّ عُلاَهُ لِعُلاَ الْمَحْتِدِ(618)

* **النوع الثاني** : التخلص المنفصل وهو أقلَ قيمة لكونه ينبنَي عَلى الانتقال المفاجىء من معنى لآخر بلا واسطة، ومن أمثلته ما جاء في قصيدة عبد الرحمان البوزكارني مادحا شيخه الإلغي : (الكامل)

---

616) ابن حجة الحموي ـ خزانة الأدب، ص : 149.
617) المعسول 2/ 137.
618) المعسول 10/ 236 ـ 237.

يَاذَا الَّذي أوْدَى الزَّمَـــانُ بصَـــبْـــره
وَلَيُــــغْلَبَــنَّ مُــــغَــــالبُ الأيَّامِ
إنْ رُمْتَ حُـــــسْــنَ تَـخَلُّص منْـهُ فَلُذْ
- هَـذَا هُدًى - بـالسَّـــادَة الأعْـــلاَمِ
لُـذْ بـالأَلَى أضْـــحَى الزَّمَـــانُ بـأَيْده
دُونَ الْوَرَى منْ جُــمْلَة الخُــدَّام(619)

ومنها قوله أيضا في مساجلة بيتية مع أحمد اليزيدي: (الكامل)

فَـــدَعِ التَّـــغَـــزُّلَ عـــفَّـــةً وَتَخَلَّصَنْ
منْهُ إلَى مَــدْحِ الْهُـــمَـــام الألْمَـــعي(620)

وكـما نـرى، هناك انفصـال شعوري بين المقدمة والغرض، فيكون الانتقال منها إليه انتقالا قسريا، ولعل شعراء الإلغية كانوا يقلدون في ذلك شعراء الجاهلية والمخضرمين الذين كانوا ينتقلون بين أقسام قصائدهم دون أن يلقوا بالا للتخلص المتصل.(621)

3 - **الخاتمة**: اهتم الشعراء على مر الزمان بختم القصائد باعتباره «آخر ما يبقى في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما، لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه».(622)

غير أن شعراء الإلغية لم يحترموا هذا المفهوم وختموا غالب قصائدهم بأبيات لا تمت بصلة إلى الميدان الشعري ومنها:

* **الدعاء**: عدّه ابن رشيق مما كرهه حذاق الشعراء لأنه ملتمس أهل الضعف،(623) وتابعه في ذلك الأديب البوزكاري، وإن بقي انتقاده نظريا فربما وقع فيه هو نفسه.(624) ومن أمثلته لدى شعرائنا قول محمد بن الحاج الإفراني، خاتما استجازته العلامة محمد بن العربي الأدوزي: (البسيط)

لاَزِلْتَ دَهْرَكَ فِي سَـــعْـــد وَفي سَـــعَـــة
وَدَامَ صِـــيـــتُكَ فِي زَيْدٍ وَتَنْويهِ(625)

---

619) المعسول 10/ 106.
620) المعسول 9/ 184.
621) انظر مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ص: 252.
622) المرجع نفسه ص، 239.
623) نفسه، ص: 241.
624) انظر المعسول 10/ 121.
625) المصدر نفسه، ص: 9.

وقول البشير بن المدني الناصري في مساجلة :

لاَزِلْـتَ لاَزِلْـتَ يَـاجَـمَّ الْـمَـكَـارِمِ فـي
سَـعْـد وَفَـضْلُكَ في زَيْد وَإِشْـرَاقِ(626)

ولا يكاد يتجاوز هذا الدعاء البيت أو البيتين، ولعل شعراء الإلغية متأثرون بالتقليد السني الذي بمقتضاه تختم كل مجالسهم بالدعاء، ولما كانت أشعارهم تنشد في المجالس صار الدعاء في غالب الأحيان من لوازم الانتهاء.

* **بعث التحية** : غلب الختم به على القصائد والمقطوعات التي كان الشعراء يتراسلون بها فيما بينهم وهم متباعدون، فكان النظم فرصة للتعبير عن الأشواق وبعث التحية إلى الأصدقاء في ختامه، قال الطاهر بن المدني الناصري(627) مختتما قطعة في وصف قبة الضيوف بمنزل الشيخ علي الدرقاوي الإلغي : (الطويل)

عَلَيْكَ سَـلاَمٌ مَـا تَقُـومُ عَلَى الْهُـدَى
فَتَـهْدي بِمَا أوتيـتَـهُ منْ سَنَا الرُّشْـد(628)

وقال أحمد بن عمر رزقي الإلغي في آخر قصيدة تهنئة : (الخفيف)

وَعَـلَيْـه منّي سَـلاَمٌ لَطيفٌ
فَـالعُـلاَ جَـمَّـةٌ وَضَـاقَ الْقَـريضُ(629)

ولا يقتصر بعث التحية على الأصدقاء الأحياء بل يتجاوزهم إلىَ الأموات في ختام مراثيهم. قال الطاهر الإفراني في رثاء صديقه العربي الساموكني : (البسيط)

منّي عَلَيْكَ سَـلاَمُ اللَّه مَـا نَدبَتْ
وُرْقٌ عَلَى غُصُن في الرَّوْض مَـيَّـاس(630)

* **الصلاة على النبي ﷺ** : وهي أيضا من الخواتم التي كثرت لدى أدبائنا، وذلكَ لعدة أسباب :

- انتماء أغلبهم إلى طرق صوفية، ومعلوم أن هذه الطرق قد جعلت من أذكارها الصلاة على النبي ﷺ لما فيها من الأجر الكثير، كما ورد في الأثر،(631) كما كان من عادة المريدين ختم مجالس الذكر خاصة، وعموم مجالسهم بها.

---

626) كناش الساحلي، ص : 195.
627) انظر ترجمته بالمرجع السابق، ص : 79 وما بعد.
628) المعسول 1/ 296.
629) المعسول 11/ 115.
630) المعسول 9/ 79.
631) انظر حول الصلاة على النبي ﷺ في شعر السوسيين شعر داود الرسموكي، ص : 162 .

- تأثر الإلغيين بالمنظومات التعليمية والقصائد النبوية كالهمزية والبردة التي تختتم بالصلاة على النبي ﷺ...(632)

وقد سار شعراؤنا على خطى شعراء النبويات البارزين في ربط الصلاة على النبي ﷺ بما يضمن لها الكثرة والتعدد والاستمرار، حرصا على الأجر الكثير،(633) مثل قول الطاهر الإفراني في ختم قصيدة نبوية : (البسيط)

صَلِّ صَـــلاَةَ الرِّضَـــا عَلَى النَّبِيِّ وَأَصْـ
ـحَـــابِ النَّبِيِّ صَـــلاَةً ذَاتَ تَرْدَادِ

مَـا حَثَّ حَـادِي الْهَـوَى رَكْبَ الْحِجَـازِ وَمَـا
أَذْكَى لَهِيبَ الْجَـوَى طَيْرُ الْحِمَى الشَّادِي

وَمَـــا تَلَذَّذَتِ الأَفْـــوَاهُ مِنْ شَـــغَفٍ
بِمَـــدْحِـــهِ بَيْنَ إِنْشَـــاءٍ وَإِنْشَـــادِ

فقد قرن الشاعر صلاته على النبي ﷺ برحيل الركبان لزيارة الحرم، وتذكر المشتاقين لتلك المعاهد، وتلذذهم بذكرها ومدح قطينها، فهي دائمة مادامت هذه الأفعال، ومنها أيضا قول التاجرمونتي : (الطويل)

وَثَمَّ عَلَى الْمُـــخْـــتَـــارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
صَـــلاَةٌ سَـــلاَمٌ بِالدَّوَامِ مَعَ الْبَـــقَـــا

وَآلِـهِ وَالأَصْـــحَـــابِ طُراًّ وَكُلِّ مَنْ
بِسُنَّتِـهِ قَـدْ حَـازَ فَـخْـراً بِالارْتِقَـا(634)

ويظهر من هذا الختم وأمثاله أن شعراء الإلغية كانوا يقحمون الصلاة على النبي ﷺ في أشعارهم بدون داع إلا ما كان من الرغبة في استحضارها، وقد كثر أمثال هذا عند شعرائنا حتى قام أحدهم يعيب عليهم التمسك به، مشيرا إلى أنه من نتائج التقليد الذي لا يراعي المقام.(635)

* **التاريخ الشعري** : هو أن يختم الشاعر قصيدته بالإشارة إلى تاريخ حادثة ذكرها فيها، ويكون بحساب الحروف، وقد تسرب ذلك إلى شعرائنا من المنظومات التاريخية

---

632) محمد رجب النجار، قصيدة البوصيري : 56
633) المعسول 7/ 187.
634) الإلغيات 1/ 166.
635) انظر المعسول 7/ 104، والمعسول 10/ 121 والمنتقد هو عبد الرحمان البوزكارني.

والعلمية،(636) فأخذوا به وقلدوه، وإن تفاوت نجاحهم فيه. فمنه نظم عبد الله بن محمد الإلغي تاريخ وفاة خاله الشيخ الدرقاوي آخر مرثيته : (السريع)

أَرِّخْ وَفَــــاتَــهُ بِذِي حِـــــجَّــــة
قَــد انْقَـضَى الْـخَـيْــرُ وَحَــادَ الْكَمَــالْ(637)

وقول محمد بن أحمد العتيق مؤرخا وفاة الشيخ الصوفي إبراهيم الماسي : (الكامل)

أَرِّخْ إِذَا شِـــئْتَ الْوَفَـــاةَ وَقُلْ لَقَـــدْ
نَادَى الشَّـــهِـيـدَ رَبُّهُ فَـتَـشَـهَّــدَا(638)

والتاريخ في قوله : «نادى الشهيد قريبه» مما يساوي عام 1393هـ.

وقول أحمد بن عمر رزقي مؤرخا إعادة بناء مسجد أيت سليمان بإلغ عام 1400هـ : (البسيط)

رَابِعُ شَــــوَّالَ لاَ يَـنْسَــــاهُ تَـارِيـخُنَا
فِي عَـــام تَاء وَشِين بِالرُّمُــوز تَفِي(639)

وتسجيل التاريخ وظيفة خارجَ إطار الشعر، لهَا مَحَلاتها في الكَنَانيش والمقيدات وكتب التراجم، إلا أن شعراءنا كانوا يحرصون على تسجيل بعض الأحداث الهامة التي تمر بهم حتى لا تضيع تواريخها، والنظم خير وسيلة، في نظرهم، لهذه المهمة. ولا أدل على ذلك مما جاء في رسالة بعث بها رزقي الإلغي إلى محمد بن أحمد العتيق معتذرا فيها - كما زعم - عن ضعف قصيدته في التهنئة بإصلاح مسجد أيت سليمان حيث قال :

«... نظمت كلمات في الموضوع إن كانت الآذان تمجها فأرجو أن تلتهمها حوصلة التاريخ التي تستحلي كل غث وسمين، لتخرج من بين فرثها ودمها معالم من نور يستكشف بها الخلف أثر السلف...».(640)

* **رد الصدر على العجز** : أولع تلاميذ الإلغية بهذا النمط، فختموا به قصائدهم، وذلك بأن يأخذوا صدر مطلع قصيدتهم فيجعلوه في عجز البيت الأخير منها، وهو مما اقتفوا فيه الشّعراء الأقدمين، والمغاربة منهم بالخصوص؛ فهذا أحد شعراء الزاوية الدلائية وهو محمد بن محمد المرابط يولع به، فيقول في قصيدة : (الكامل)

---

636) انظر حول ذلك الرافعي، تاريخ آداب العرب 3/ 396 وما بعد، والمنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب 2/ 355.
637) المعسول1/ 320 والتاريخ هو : 1328هـ.
638) ديوان العتيق، ص : 54.
639) ورقة الوالد محمد السعيدي حفظه الله.
640) أوراق العتيق الإلغي.

حَقَّ الْهَنَاءُ وَحَقَّ لِي التَّبْشِيرُ
مَادَامَ رَضْوَى قَائِماً وَثَبِيرُ

ثم يقول آخرها :

حَتَّى أقُولَ مُصَرِّحاً وَمُنَوِّهاً
حَقَّ الْهَنَاءُ وَحَقَّ لي التَّبْشِيرُ(641)

ونجد مثل ذلك عند فحل الإلغية الطاهر الإفراني لما أجاب مَحمد بن علي الإلغي بقصيدة مطلعها : (الكامل)

أمُحَمَّدُ يَا ابْنَ الْكِرَامِ الصِّيدِ
يَا مَنْ دَنَا لِعُلاَهُ كُلُّ بَعِيدِ

وختم بقوله :

مِنِّي عَلَيْكَ تَحِيَّةٌ مَوْصُولَةٌ
أمُحَمَّدُ يَا ابْنَ الْكِرَامِ الصِّيدِ(642)

وعند امحمد الكثيري في قصيدة يتشوف فيها إلى مسقط رأسه قال في مطلعها : (الطويل)

حَنِيناً لِأوْطَانِي فَدَمْعِي رَقْرَاقُ
وَقَلْبِي مِنْ ذِكْرَى الأحِبَّةِ خَفَّاقُ

وقد ختمها بقوله :

وَإِنِّي لاَ أنْفَكُّ أنْشِدُهَا هُنَا
حَنِيناً لأوْطَانِي فَدَمْعِيَ رَقْرَاقُ(643)

ويظهر لي أن الشعراء استعملوا هذا الأسلوب لتعميق المعاني الواردة في النص، في دورة فكرية شعورية حولها(644) فما يكاد النص ينتهي حتى يبدأ من جديد، إذ يحيل الختام على المطلع وهكذا دواليك، فالشاعر يبدأ بطرح فكرته الأساسية، ثم يتناول الأسباب المؤدية إلى خلقها، لينتهي بما بدأ به وهذا ما يدفع إلى التركيز على الأفكار نفسها والشعور نفسه، دون نمو ولا تطور. فتصبح القصيدة ذات مسار دائري متكرر.(645)

---

641) عبد الجواد السقاط ـ الشعر الدلائي، ص: 277.
642) المعسول 2/ 197.
643) المعسول 9/ 269.
644) عبد الله الغذامي ـ الخطيئة والتفكير، ص : 283.
645) انظر عبد الله راجع ـ القصيدة المغربية بنية الشهادة والاستشهاد 1/ 198 وما بعد.

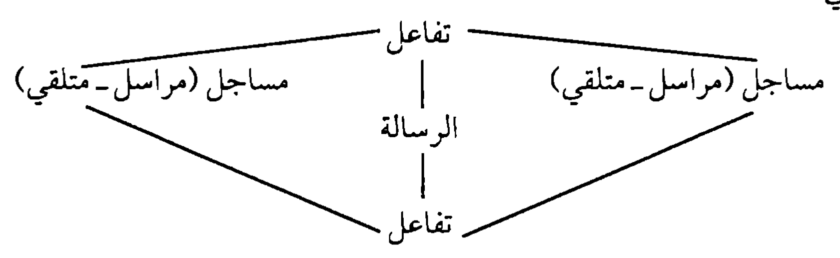
ب - الأشكال الإبداعية :

استند شعراء الإلغية في إبداعاتهم الشعرية على عدة أشكال، زيادة على نمط القصيد المعتاد، واتخذوها سبيلا للتعبير تنويعا وارتيادا لآفاق جديدة، ومن هذه الأشكال :

1 - المساجلة : بُني الأدب الإلغي من أول يوم على الاهتمام بفنونه وتشجيع الممارسين بعضهم بعضا على متابعته، وكانت الوسيلة الناجعة للوصول إلى هذا الهدف إذكاء روح المنافسة والتباري بين التلاميذ - باعتبارهم مبتدئين - والشعراء الكبار. ومنها نشأت المساجلة وتطورت حتى طغت على أدبهم. فقلّ أن نجد قصيدة أو قطعة لم تكن سببا لها.

لقد كانت المساجلات في هذه المرحلة، الوسيلة الناجعة لتحقيق تلك الجماعة المنسجمة المتكاملة، المكتفية بنفسها في تلبية حاجيات أعضائها النفسية والأدبية(646) بتحقق جماعية الإبداع، فالنص ينتج عن الاشتراك بين طرفين أو أكثر في إنشائه «فهو ليس نصا يحدث من مؤلف فرد ويتجه إلى جمهور مطلق، ولكنه نص يحدث بالمباشرة، مباشرة الخطاب ومباشرة الاستماع، وهذا الاستماع ليس استماعا سلبيا واستهلاكيا، ولكنه شرط لحدوث النص وتناميه، مع تبادل الأدوار فيما بين الإنشاء والاستماع، فالمنشىء يصبح مستمعا، والمستمع يتحول إلى منشىء في الوقت نفسه».(647)

إن هذا الواقع الجديد يشكل تحديا كبيرا لمسلمات نقدية : كمفهوم المبدع ومفهوم المتلقي، ومفهوم الرسالة، فليس في المساجلة مرسل أو متلق، وإنما علاقة بين طرفين مبدعين في تطور وتشكل مستمر لا تلبث متغيرة في مسار الاتصال... كما أنه ليست هناك رسالة تامة كاملة، وإنما رسالة متكونة في مسار التواصل بين المتساجلين، بالإضافة إلى أنها غير مرسلة من الأول للثاني بل تتشكل بينهما، باعتبارها قناة فكرية جمالية بنيت في مسار تفاعلها.(648) ومن ثم تصبح الخطاطة المجسمة للمساجلة باعتبارها عملا أدبيا كالتالي :



646) انظر غرض الإخوانيات في المبحث الأول من هذا الفصل.
647) عبد الله الغذامي ـ القصيدة والنص المضاد، ص : 124 ـ 125.
648) Tzvetan Todorov - Le principe dialogique p : 88.

وإمعانا في السعي وراء التجويد، وضع الإلغيون لمساجلاتهم شرطين :

الأول : ضرورة الرد على المساجلة : إسهاما في الاهتمام بالأدب وتنشيطا للحركة الأدبية الإلغية، ولم يكونوا يقبلون للمتأخرين منهم عذرا فإذا خوطب أحدهم شعرا وجب عليه الرد وإلا رمي بالعي وضعف الملكة. وكان كبار أدبائهم يحرصون على مراعاة هذا الشرط، فهذا العلامة المختار المتأثر بهم يقوم بهذه المهمة، فيمعن في حث المتخلفين لعلهم يتداركون الموقف، فيرسل أبياتا إلى المدني بن علي الإلغي، وقد أمسك عن رثاء أحمد بن علي الدرقاوي شعرا واكتفى بالنثر، يلومه فيها : (الكامل)

أَيْنَ الْقَــــرِيضُ وَأَنْتَ مِنْ فُــــرْسَــــانه

أَيَجُــولُ ذُو لَسَنٍ بِغَــيْــرِ لِسَــانه(649)

وهكذا أضحى القول الشعري فعلا إجباريا في منتديات شعراء الإلغية، يدفعون إليه دفعا؛ فيأتي لا بدافع داخلي ناتج عن انفعال وتأثر ذاتيين، بل بدافع خارجي. وهذا ما يفسر غلبة الضعف بل الركاكة أحيانا على أشعار المساجلات، وخاصة في موضوع الإخوانيات، وقد غض شعراؤنا الطرف عن هذا الضعف وتساهلوا فيه، مكتفين بالمطالبة بصحة الوزن وسلامة اللغة،(650) وذلك لإدراكهم مقدار العنت الذي يلاقيه الشاعر عندما يريد النظم بلا دافع داخلي، مع سعيهم الجاد إلى تنشيط الحركة الأدبية بإِلْغْ، إلا أن بعضهم بالرغم من هذا التساهل لم يستطيعوا احترام شرط وجوب الرد، إذ كانت تمر عليهم أوقات لا يقدرون فيها على الإتيان ولو ببيت واحد؛ فهذا المدني بن علي يقول معتذرا عن تهنئة صديق بمناسبة «... ثم إن القرائح صادفها الوقت شتائية، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وأنا والله مازلت أعالجها ولا أدري ماذا يؤول إليه أمرها...»(651) كما نجد أحمد بن الحسن أبناو الإيغشاني يطلب من أخيه محمد إجازة بيت، فيرد عليه معتذرا بعجزه قائلا : (البسيط)

أَعْــذُرْ فَــقَــدْ عَــاقَنِي يَاسَــيِّــدِي حَــصَــرٌ

يَمْنَعُنِي الْقَــوْلَ إِنْ أَكْــثَــرْتُ إِطْرَاقَــا(652)

الثاني : النسج على منوال النص الأول بحرا وقافية، وهو من القواعد الأساسية لدى شعراء الإلغية، ويعد الإخلال به إسقاطا لركن أساس من أركان المساجلة. ولما كانت هذه ميدانا للمنافسة والتباري اتخذ هذا الشرط مقياسا أدنى للإبداع الأدبي.

649) الإلغيات 1/ 95.

650) انظر المعسول 11/ 117.

651) المصدر السابق ص : 119.

652) المعسول 3/ 172، وسر الصباح، ص : 25.

وقد ساهم هذان الشرطان في تشجيع الشعراء على التساجل سعيا وراء إبداع نص شعري إبداعا جماعيا، مع المحافظة على وحدة الفكرة وتسلسل المعاني وسلامة المقومات البنيوية لغة ووزنا... وإما إلى إبداع نصين متقابلين متجانسين معنى وبحرا وقافية، يكون أولهما نموذجا يحتذيه الثاني ويجيب عليه ملتزما قواعده، والغرض من ذلك تأكيد القدرة الشعرية والتمكن من فن القول مصداقا لقول أحد الطلبة الإلغيين : (الطويل)

إذَا قُلْتَ شِعْراً فَالْتَمِسْ لِمُوَافِق

بِبَحْرٍ وَبِالْمَعْنَى وَلاَ تَتَضَخْضَخِ(653)

وقد اتخذ الشعراء المساجلات وسيلة لتبادل العواطف ومواكبة المناسبات الاجتماعية والسياسية والأدبية والعلمية،(654) ووسيلة أيضا للتباري وإظهار البراعة. فقد يحدث أن يتنازع إثنان من الشعراء حول مقدرتيهما الشعريتين فيتخذان المساجلة وسيلة للتنافس وإظهار البراعة، ثم يعرضانها على من يرتضيان حكمه من ذوي البصر بالشعر ليظهر المجلّى من السّكيت؛ ومنها تلك التي جمعت بين عبد الرحمان البوزكارني وأحمد بن محمد اليزيدي الذي قال عن ملابساتها : «... وسبب ذلك أنّا تنازعنا كؤوس الأدب وإذا ذكر الشعر انتهبت وانتهب. فادعى أن شعره فائق. وأن نفسه رائق. وهو والله كذلك. إذ هو مالك وما كل فتى كمالك. فقلت : إن صدقت فيما ادعيت. وأردت أن أسلم ما انتحيت. فانظم لأنسج على أسلوبك البديع. ونفسك الرفيع. فإن ميز الفحول بين النسجين، فقد ألقيت السلاح. وإلا فللظفر حلاوة وارتياح. ثم قال : أنسج أنت لأبني على أساسك...»(655) وكانت نتيجة هذه المساجلة قصيدة من أربعة عشر بيتا مطلعها : (الكامل)

بَرْقٌ تَأَلَّقَ مُوهِناً بِالأَجْرَعِ

فَجَرَتْ وَلَمْ تَرْفَقْ سَوَابِقُ مَدْمَعِي(656)

وقد ارتضى المتباريان الأديب عبد الله بن محمد الإلغي حكما بينهما ليتأمل القصيدة ويميز قول كل واحد إن استطاع، بظهور ضعف منزع أحدهما عن الآخر، إلا أنه لم يستطع، فسقط بذلك ادعاء عبد الرحمان البوزكارني علوّ منزلة شعره وظهرت مساواة صاحبه له.(657) فالتساجل تبار في بناء نص إبداعي، وكل مشارك في هذه المنافسة اللغوية يدرك

---

653) المعسول 10/ 156.

654) انظر المساجلات الشعرية في العهد اليوسفي لمحمد احميدة - دعوة الحق عدد 273، مارس 989 ص : 293وما بعد.

655) المعسول 9/ 183.

656) المصدر نفسه، ص : 184.

657) نفسه.

أنه فاعل أساسي، واستجابته للتحدي «تعني قبوله للّعبة ورضاه بشروطها، ومن ثم فإنه يدخل في منافسة تضاهي الأول، وتسابقه على الابتكار وتنمية النص... ولذلك فإن نوعية الاستجابة... ليست مجرد استقبال وتلقي ولكنها إبداع مواز، والأصل والفرع فيها متساويان بل إنهما يتنافسان».(658) ومن ثم يصبح التساجل تفاعلا إبداعيا يلغي الحدود بين المبدع والملتقي لأجل تحقيق بناء النص.

2 - **الأرجوزة** : قلّ تعاطي الرجز عند شعرائنا بالنسبة إلى القصيد، ولعل ذلك راجع إلى أمرين :

* مجاراة القدماء في استهجانه والحط من شأنه، باعتباره شعرا شعبيا لا أدبا نبيلا،(659) فصاروا يردّدون مع المعري القول بأن الرجز أخفض طبقة من الشعر،(660) كما أن النزوع النثري فيه من أهم أسباب الحط من شأنه،(661) خاصة إذا كان منهوكا أو مشطورا، إذ يشبه الأسجاع وتتغلب فيه الجملة على البيت.(662)

* شعورهم بأن الرجز سبيله المنظومات العلمية التي ألفوا دراستها وحفظها، ولاحظوا الفرق الكبير بينها بصبغتها التعليمية الجافة وبين الأشعار ذات الطابع الإيحائي الشعري، إذ إن «الرجز غالبا ما يطبعه عنصر السرد والاستعراض، بعيدا عن مواطن التأمل والتحليل».(663)

ونتيجة لهذين الأمرين قلّ اهتمام أدباء الإلغية بالرجز، وتجنبوه في أدبياتهم، فلا يلجؤون إليه إلاّ لضرورة مع الاعتذار عن إتيانه، خاصة في الإخوانيات، إذ نجد محمد بن علي الإلغي يهنىء صديقه القاضي الفاسي الأقاوي بأرجوزة صدرها بقوله معتذرا : «...واسمع مني شبه أبيات من الرجز، على أنه كما قيل ليس من الشعر، ولكن لا أقل من السلام عليكم وحمد السلامة لكم، وسامح فإنا لو نظمنا في مدحكم الزاهر لئالىء الدر الباهر لما أدينا الواجب».(664)

وانطلاقا من هذا التصور الذي يعد الرّجز مفارقا للشعر، خص شعراؤنا هذا الوزن بالموضوعات التي لا تناسب القصيد، وإن لم يحترموا دائما هذا التخصيص كلية، وحتى

658) عبد الله الغذامي ـ القصيدة والنص المضاد، ص : 125 ـ 126.
659) مصطفى الجوزو ـ الرجز والشعر وموقف القدماء والمحدثين منهما. مجلة الفكر العربي عدد 25 فبراير 1982، ص : 318 ـ 328.
660) رسالة الغفران، ص : 367.
661) تيسير شيخ الأرض ـ الشعر والجمال والواقع، مجلة الوحدة عدد مزدوج 82/ 83، ص : 147.
662) د. محمد العمري، اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي، ص : 88.
663) عبد الجواد السقاط ـ دراسة حول الأرجوزة في الأدب المغربي ـ مجلة المناهل، عدد 35 دجنبر 1986، ص : 292.
664) المعسول 9/ 146.

نقف على جلية الخبر ندرس الموضوعات التي تناولتها أراجيزهم، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام.(665)

أ - **الموضوعات الأدبية التقليدية** : حيث يقوم الرجز مقام القصيد في أغراضه كالمدح والهجاء والتهنئة،(666) وذلك لأغراض خاصة، فقد اختار محمد المقدم السلامي مخاطبة قاض وتهديده رجزا بعدما انتزع منه وثائق ملكية أراضيه، وبما أن إدراكات هذا القاضي الأدبية ضعيفة، شأن غالب قرنائه الفقهاء، صار الرجز خير وسيلة للتعبير والتبليغ.(667)

وقد تجاوزوا ذلك إلى تناول الموضوعات النثرية رجزا حيث نظم الأديب علي بن الطاهر الرسموكي رسالة إلى صديقه محمد بن أحمد الإكراري المؤرخ قال في أولها :

هَذي رِسَالَةٌ إلَى فَخْرِ الزَّمَنْ
اللَّوْذَعِي الإِكْرَارِي أزْكَى مَنْ فَطَنْ
مُحَمَّدٌ نَجْلُ أبِي الْعَبَّاس
مَن النَّدَى وَعِلْمُهُ يُوَاسِي
بَقِيَّةٌ صَالِحَةٌ للسَّلَف
بَرَكَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْخَلَف(668)

كما نجد العتيق الإلغي نظم رحلته إلى مدينة إفني في أرجوزة من خمسة وستين بيتا بعد المائة، مطلعها :

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي يَسَّرَ لي
زَوْرَةَ إِفْني مَعْ صَدِيقي الأفْضَلِ(669)
بيَبٌ شَهْرَ رَجَب يَوْمَ الأحَدْ
عَامَ طَوَى (شَمْسَ الأدَى) كُلُّ فَنَدْ(670)

665) انظر هذا التقسيم عند عبد الجواد السقاط ـ دراسة حول الأرجوزة ... مجلة المناهل عدد 35، ص:295.

666) انظر مثلا المعسول، 2/ 381، 10/ 25،1/ 180 وانظر أراجيز في أغراض الشعر في المباحث السابقة.

667) انظر في المعسول 10/ 153.

668) المعسول 14/ 6.

669) يقصد صديقه إبراهيم جمالي، وكانت الرحلة يوم الأحد 12 غشت 1973 موافق 12 رجب 1393هـ

670) ديوان العتيق، ص : 11.

وصف فيها بكل دقة وتفصيل أحداث هذه الرحلة، والأماكن التي زارها، وما رأى خلالها من عبر وعظات، معقبا ومعلقا على بعض ما شهد من أحداث، مما يمكن معه القول إن هذه الأرجوزة رحلة في الزمان والمكان، ورحلة في فكر صاحبها وعواطفه ومشاعره. ولسنا في حاجة إلى إيراد أمثلة أخرى لنستدل على كون الرجز لم يضف شيئا جديدا إلى هذه الموضوعات. فقد ظلت المنظومات محكومة بالنزوع إلى الضبط والتحديد، إذ إنها تبدأ كأي موضوع نثري، بمقدمة تمهيدية وتختم بخاتمة قاطعة للتعبير.(671)

ب - **الموضوعات الطريفة** : ضمّن شعراء الإلغية الأراجيز موضوعات قلّ تناولها في الأشعار عامة، فقد نظم الطاهر الإفراني أرجوزة خصّصها للحديث عن «تَشْحير» الأتاي، كما نظم أحمد بن الحسن أبناو في نفس الموضوع متعرضا للشروط الواجبَ توَفرها في مديره؛(672) أما محمد بن سعيد الأكَماري فقد ذهب مذهبا آخر لما حاول إضفاء مسحة من الجمالية الشعرية على نوع من الكتابات المنطقية التقريرية الجامدة، وهي كتابة العقود، فنظم عقد بيع كتاب لأحد أصدقائه في أرجوزة من خمسة عشر بيتا لا بأس بإيرادها هنا لطرافتها، قال :

كَاتِبُ هَذَا الْعَقْدِ أمْضَى الْبَيْعَا
في حَالَةِ الْجَوَازِ بَتّاً قَطعَا

فِي شَرْحِ مَا أَلَّفَهُ الْحَرِيري
رَئِيسُ أهْلِ الْفَضْلِ وَالتَّحْرِيرِ

مِمَّا رَوَى الثَّبْتُ عَنِ السَّرُوجِي
اَللَّوْذَعِي السَّمَيْدَعِ الْغَمْلُوجِ

شَرْحِ الأدِيبِ أحْمَدَ الْقَيْسِيِّ
ثُمَّ الشَّرِيشِيِّ الرِّضَا الْعَلِيِّ

خَطُّهُ بِالْمَطْبَعَةِ الأنِيقَهْ
ذَاتَ الْحُرُوفِ الْعَذْبَةِ الرَّشِيقَهْ

فَهَاؤُهَا أوْ يَاؤُهَا غَرِيبُ
ألِفُهَا اعْتِدَالُهَا عَجِيبُ

---

671) عبد الله الغذامي - الخطيئة والتكفير، ص : 90.
672) انظرها في غرض الإخوانيات من المبحث الأول من هذا الفصل.

نُونَاتُهَا حَوَاجِبُ الْمَعْشُوق
وَاوَاتُهَا الأَصْدَاغُ مِنْ مَعْشُوقِ

سِينَاتُهَا أَزْرَتْ بِكُلِّ طُرَّة
عَلَى الْجِبَاه فَاعْمَلَنْ بِنِيَّة

كُلُّ حُرُوفِهَا حُرُوفُ صِحَّة
فَلَيْسَ فِيهَا مِنْ حُرُوف عِلَّة

أَمْضَيْتُ فِيهَا الْبَيْعَ لِلْمَحْبُوب
فَتْحِ الْكَرِيمِ فَضْلِهِ الْمَوْهُوب

اَلْجِهْبِذِ الْمُطَّلِع الْوَجِيه
الأَلْمَعِي الْفَهَّامَةِ النَّبِيه

قَاضِي الْقُضَاة سَيِّدِي وَسَنَدِي
وَعُمْدَتِي وَعُدَّتِي وَعَدَدِي

هُوَ الْإِمَاأخ الْحَنَفِيُّ الرِّضَيُّ
وَالِدُهُ عَلاَّمَةٌ عَلِيُّ

مُحَمَّدٌ نَجْلُ سَعِيد كَتَبَهْ
فَلْيَغْفِرِ الْغَفَّارُ وِزْراً كَسَبَهْ

حُقَّ لِتَارِيخِهِ أَنْ يَكُونَ فِي
آخِرِهِ فِي رَأْيِ كُلِّ مُنْصِف(673)

جـ - الموضوعات العلمية المتنوعة : تعد الأراجيز المجال الفسيح للنظم العلمي التعليمي فلا جرم أن يحاول شعراء المدرسة ارتياد هذا الميدان، وقد قضوا سنوات في حفظ هذه الأراجيز واستظهارها، وقد تجلى اهتمامهم هذا في منظومات عدة، نذكر منها أرجوزة لمحمد الكثيري نظمها في ذكر شيوخه ممن تعلم على أيديهم قدم لها بقوله : «منظومة في أشياخي وحياتي المدرسية»(674) أشار فيها إلى خمسة ممن أخذ عنهم وهم أحمد بن محمد اليزيدي وعلي بن عبد الله الإلغي والطاهر الإفراني فابنه محمد وأخيرا

673) المعسول 9/ 289 - 290.
674) كناش الكثيري، ص : 81.

عبدالرحمان البوزكارني، ويرتبط هذا الاهتمام بالفهرسة العلمية وذكر الأسانيد... قال الكثيري في مطلع أرجوزته :

حَمْداً لِمَوْلاَنَا عَلَى مَا أَنْعَمَا
شُكْراً لَهُ عَلَى الَّذِي قَدْ عَلَّمَا

قَدْ عَلَّمَا الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمِ
أَمَدَّهُ مِنْ فَيْضِهِ بِالْمُعْظَمِ

وَصَلَوَاتُهُ عَلَى خَيْرِ الْوَرَى
وَالآلِ وَالصَّحْبِ أَنْجُمِ الثَّرَى

وَبَعْدُ فَاعْلَمْ أَنَّ لِي أَشْيَاخَا
قَدْ أَرْضَخُوا لِي سِرَّهُمُ إِرْضَاخَا(675)

قَدَ أَجْهَدُوا أَنْفُسَهُمْ تَعْلِيمَا
وَأَوْرَدُوا مِنْ عِلْمِهِمْ تَسْنِيمَا

جَمَعْتُهُمْ هُنَا بِنَظْمٍ مِنْ رَجَزْ
فِيهِ وَإِنْ قَلَّ سَدَادٌ مِنْ عَوَزْ(676)

أما في مجال السيرة النبوية فنقف على أرجوزة لأحمد بن محمد اليزيدي نظم فيها أجداد الرسول ﷺ، وقد أورد بعضها العلامة المختار السوسي، واكتفى منها بالمطلع والخاتمة، قال في أولها :

أَحْمَدُ رَبِّي وَهْوَ أَهْلُ الْحَمْدِ
وَالْمُسْتَحِقُّهُ وَأَهْلُ الْمَجْدِ(677)

أما النحو واللغة فقد اهتم بهما مؤسس المدرسة محمد بن عبد الله الإلغي، غير أننا لا نجد لديه أرجوزة تامة، وإنما هي أبيات ينظم فيها بعض القواعد أو التعريفات اللغوية حتى يسهل على طلبته حفظها، وقد قيد كثيرا منها في تقريراته على شرح السيوطي على الألفية. (678) ومنها قوله ناظما قاعدة عود الضمير على الأقرب إلا لاقتضاء الدليل له :

---

675) أرضخ : أعطى قليلا من كثير، المعجم الوسيط مادة رضخ.
676) كناش الكثيري ص : 81 .
677) المعسول 9/ 205 - 206.
678) مخطوط بخزانة محمد بن الحسين الصالحي الإلغي.

كَـــوْنُ ضَــمِــيــرٍ عَـــائداً للأقْـــرَبِ

غَـــيْـــرَ مُـــضَـــافٍ لَهُ ذَلكَ اجْـــتَـــبِي

إلاَّ إذَا الدَّلِـيلُ يَقْـــتَـــضِـــيـــهِ

كَـــهَـــذَا عَـــبْـــدُ جَـــعْـــفَـــرٍ يَرْمِـــيـــهِ(679)

وقد تابعه طلبته في ذلك وكذلك طلبة أخيه علي، كالمدني بن علي(680) وعبد الله بن محمد الإلغي والطاهر الإفراني.(681)

أما الفقه، فالطاهر الإفراني من المكثرين من أراجيزه، إذ نجد له ثلاث منظومات، نظم في الأولى بعض مختصر خليل وأولها، وهي في ستمائة بيت :

يَخْـــتَـــصُّ بِالْـمُطْلَقِ رَفْعُ الْـحَـــدَثِ

عَلَى الـدَّوَامِ مَعَ حُكْمِ الْـخَـــبَثِ

وَهْوَ، أي الْمُطْلَقُ، مَـــا قَـــدْ صَـــدَقَـــا

عَلَيْـــهِ مَـــاءٌ دُونَ قَـــيْـــدٍ لَحِـــقَـــا(682)

أما الثانية : فقد نظم فيها رسالة الإيجي في علم الوضع، في مائة بيت، قال في أولها :

هَذَا وَإنَّ غَـــرَضِي وَمَـــقْـــصِـــدِي

نَظْمُ رِسَـــالَةِ الإمَـــامِ الْعَـــضُـــدِ

أعْنِي الَّتِي قَـــدْ وُضِـــعَـــتْ فِي الْوَضْعِ

فَـــإنَّهُ الْـفَـنُّ الْجَـلِـيلُ الـنَّـفْـعِ(683)

أما الثالثة : فقد نظم فيها الحكم العطائية في التصوف، في أبيات كثيرة.(684) وبالإضافة إلى كل ما سبق من علوم، نضيف منظومة إرشادية للعتيق الإلغي،(685) في ثمانية وسبعين بيتا، خصصها لتوجيه حجاج بيت الله، إلا أنه لم يهتم كثيرا بالمسائل الفقهية. بل تطرق لما يجب على الزائر إعداده من لوازم : كوثائق السفر، والنقود، والملابس والزاد، وطرق التعامل مع الناس الذين يلقاهم، خاصة موظفي الأسفار والمطوفين، ملحا على ضرورة تجنب أماكن الزحام والمشاكسة، وكلها نصائح نابعة من تجربته الخاصة، ومطلع هذه المنظومة :

679) شرح السيوطي على الألفية، مخطوط ص : 75 .

680) انظر كناش الساحلي الثاني، ص : 210 .

681) انظر شرح الأجرومية لصالح بن عبد الله الإلغي في مواضع متفرقة منه.

682) عبد الله درقاوي ـ الطاهر الإفراني حياته وشعره 1/ 77.

683) المرجع نفسه.

684) نفسه ص : 92.

685) منظومة مرقونة في ثلاث صفحات سلمني نسخة منها أستاذ المدرسة الشيشاوية أحمد أبو العقل جزاه الله خيرا.

يَـامَـنْ تَـوَجَّــــــــهَ لِـبَـــــــيْتِ الـلَّـه
مِــنْ كُـلِّ بَــرٍّ فَـــــــــــــاضِـــلٍ أوَّاه
هُنِّئْتَ هَـذِي فُـــــرْصَـــــةٌ ثَمِـــينَهْ
لَيْسَ لَهَـــا فِي الْفَـــضْلِ مِنْ قَـــرِينَهْ
نَرْجُـــو الْكَرِيمَ أَنْ يُيَـــسِّـــرَ الذَّهَابْ
بِـفَـــــضْـلِـه وَأنْ يُـسَـــــهِّلَ الإِيَّـابْ

3 - **القافية الشلحية** : من الإبداعات الطريفة في سوس، تلكم الأشعار العربية المقفاة أو المصرعة بكلمات من اللغة الأمازيغية الشلحية،(686) وأقدم قصيدة معروفة من هذا الجنس هي الأرجوزة التي نظمها أحمد بن محمد بن يعزى التاغاتيني الرّسموكي،(687) وقد ذاعت بين الناس لطرافتها ومطلعها :

بِـاسْـمِ الْـإِلَـه فِـي الْـكَـلاَمِ إِيـزْوَارْ
وَهْوَ عَلَى عَوْنِ الْعُبَيْـدِ إِيزْضَـارْ(688)

ومن هذا النمط قصيدة طويلة مهلهلة النسج مختلطة البحور لسعيد بن محمد التّملي الرّجراجي سماها «نزهة الأحباب في مدح الطّبْلة» تقع في إثنا عشر ومائة بيت وقد جعل لها قافية مكررة وأولها :

حَـــــــمِـــــــــدْتُ إِلَـهِـي ثُـمَّ صَـلَّـيْـتُ أَوَّلاَ
عَلَى الرَّسُـولِ الْمُصْطَفَى لَمْ نَرَ «زُنْدنَتَّا»(689)

ويعد هذا الشكل نمطا جديدا في التعبير يمكن الشعراء السوسيين من المزاوجة بين اللّسانين العربي والأمازيغي السوسي، وإبداء المهارة وقوة العارضة في التوفيق بينهما، كما تعد تجليا للازدواج اللغوي الذي يعيشونه،(690) إذ يسمحون لرطانتهم أن تتحد باللغة الأساسية في المعرفة وبذلك تتبادلان الأدوار، فالعربية عندهم هي لغة العلم والشعر والعقود... أما اللغة المحلية فتواصل مع المجتمع، وعند النّظم يرتقون بالخطاب اليومي إلى

686) المقصود بالقافية هنا الكلمة الأخيرة من البيت، انظر عبد الله الغذامي، تشريح النص، ص : 25.
687) انظر ترجمته بالمعسول 18/ 281 وما بعد.
688) انظرها في سلسلة تيفاوين 4 تحقيق عمر أمرير، ص : 15 وعند بومهاوت الوسخيني في منار السعود، ص : 167.
689) مجموع الأمسناتي، خزانة الحاج عبد الرحمان الرملي الهواري بهوارة، والأرجوزة نظمت بتاريخ 11 محرم 1294هـ وزُنْدنْتـا بمعنى : مثله.
690) انظر تمام حسان - الإزدواج اللغوي ـ مجلة المناهل عدد 16 دجنبر 1979م.

مرتبة الجمالية الأدبية على سبيل التفكه والتظرف والممازحة، وهي كلها من تجليات العلاقات الحميمة مع الأصدقاء والأحباب، ويذكرنا صنيع السوسيين في هذا بما كان شائعا في العصر العباسي، حينما كان الشعراء، خاصة ذوي الأصول غير العربية ورئيسهم في ذلك أبو نواس، يدخلون الكلمات الأعجمية نبطية وفارسية في أشعارهم على سبيل التظرف والتملّح.(691)

ونجد لشعراء الإلغية قطعا ونتفا قصيرة في هذا الباب، اقتداء ببعض معاصريهم ممن كانوا كلفين بهذا النمط،(692) ومنهم عبد الله بن محمد الإلغي الذي نظم أرجوزة يودع بها زائره محمد بن أحمد المانوزي(693) فقال :

مُحَمَّدُ بْنُ أحْمَدَ (بأوَالاَ) ... مَتَى تَدُورُ فِي ذُرَاكُمْ (تَاوَالاَ)

وَأسْألُ اللَّهَ الْكَرِيمَ (أديَاوي) ... يَوْمَ زِيَارَة يُدَاوِي (الْحِبْنِيوِي)(694)

فَتَشْتَفِي الأحْشَاءُ مِنْ (أَمَارْكَي) ... وَالْعَيْنُ مِنْ دَمْعٍ بِهَا (كَإنْكَي)

وَتَرْتَوي أكْبَادُنَا مِنْ (إيرِيفِي) ... وَتَنْزَوِي عَنَ الْقُلُوب (تَاغُوفِي)

لَوْلاَ الضَّرُورَةُ لَمَا (رَاكْ أجْغِي) ... تَذْهَبُ إذْ وُدُّكَ بِي قَدْ (إمَّغِي)

لَكِنَّنِي أودِعُ قَلْبِي (تُولْغِيوِينْ) ... لَكُمْ وَإنْ قَدْ طِرْتُمُ (بِتِيفْرَاوِينْ)

ثُمَّ عَلَيْكَ مِنْ سَلاَمِي - (كِيكَانِيَ) ... يَاسَيِّداً مُطَهَّراً مِنْ (إرْكَانِي)(695)

---

691) انظر شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص : 122.

692) هو الإيكَراري المؤرخ، انظل المعسول 13/ 324.

693) المعسول 3/ 345.

694) أوَالاَ : مسقط رأس المانوزي، تَاوَالاَ : النوبة، أديَاوي : أن يأتي الحِبْنيوي : حبيبي.

695) أمَارْكَي : شوقي، كَأنْكَي : مثل السيل، إيريفي : الظَمأ تَاغُوفي : الَغمة، - رَاكْ أجْغي : أتركك إمْغِي: نَبَت ـ تُولْغِيوِينْ : الأمَداح، تِيفْرَاوِينْ : الأجَنحة، ـ كِيكَانِيَ : كثيرا، ـ إرْكَانِي : الأدران.

وقد ترد هذه القوافي في بيت مفرد وسط قصيدة معربة، كقول الطاهر الإفراني مختتما قصيدة في التهنئة :

فَـــهَــاهُوَ مَـــحْــسُــوبٌ عَلَى كُلِّ حَــالِه
عَلَيْكُـمْ عَـسَاكُمْ (أَدْفَلَّسْ أرْتَفْكيمْ مَـايَنَّا)(696)

وقول محمد بن أحمد العتيق ضمن رحلته إلى إيفني :

مَـــــــــرَرْنَـا فِـي الـطَّرِيـق عَـنْ (تَـكَـنْـت)
وَقْتَ الْـهَـجِـيـرِ إِذْ حَـمَتْ (تَفُـوكْت)(697)

وقد يورد أحدهم هذه الألفاظ الشلحية غير أنه يعمد إلى تحويرها حتى تصبح على وزن العربية، كأن يضيف إليها ضميرا متصلا، كقول الطاهر الإفراني يصف صديقه العربي الساموكني وهو على المائدة :

لِلَّه دَرُّكَ فَـــارِســـاً يَـفْـــري بِسَــــيْـ
ـفِ السِّنِّ لَحْمَ الشَّـاء عَنْ (إِخْسَـانِهَـا) (698)

يظهر من هذا كله، أن نمط القافية الشلحية يمثل الحد الأقصى لتساهل الإلغيين في تناول المقومات الأدبية للإبداع الشعري، بانتظامها ضمن الإخوانيات، ومن ثم قيامها بوظيفة هامة في مجالسهم الأدبية إنشاء أو إنتاجا، وهي بعث روح الفكاهة بين المجتمعين، ونشر جو من الأريحية والممازحة الأخوية.

4 - **الموازنة والتخميس** : الموازنة شكل من أشكال المجاراة والتقليد في الأدب العربي، هدفه احتذاء نص شعري معين يسمو إلى مرتبة الإتقان رغبة في الاقتراب من المثل الأعلى في طرق موضوع مشترك، «ولما كان الوصول إلى هذا المثل الأعلى في ذاته أمرا غير ممكن، وكان هذا المثل الأعلى إنما يتجلى في نماذج بعينها تجليا ناقصا، كما يتجلى كل نظام في عيِّناته الجزئية... فإننا نفهم أن يتجه الشعراء إلى نماذج معينة من الشعر العربي ويتخذوا معارضتها سبيلا إلى المثل الفني الأعلى، باعتبارها تمهد السبيل لذلك الوصول بما فيها من سمو في ذاتها...».(699)

وإذا نظرنا إلى معارضات الإلغيين وجدناها تنحصر في مجال واحد : المديح النبوي، حيث وقفت على معارضتين لقصيدة بانت سعاد، لكل من الطاهر الإفراني ومحمد

696) معناها : عساكم ألا تسلموه انظر المعسول 2/ 214.
697) ديوان العتيق، ص : 11 وتَكَنْتْ : الغابة، تَفُكْتْ : الشمس.
698) إخسَانْ : العظام، انظر المعسول 1/ 47.
699) محمد الهادي الطرابلسي ـ معارضات شوقي... مجلة فصول عدد 1 دجنبر 1982م، ص : 89.

الهاشمي الأقاوي، ومعارضة للبردة للإفراني أيضا، وتتجاوز هذه المعارضات صبغتها اللغوية الشعرية، أي إظهار البراعة، إلى رغبة أخرى ذات صبغة دينية، وهي الرغبة في الخلاص فإذا كان كعب بن زهير قد نال الأمان، وقبل منه الرسول ﷺ توبته وألبسه البردة، وإذا كان البوصيري قد برىء من مرضه بفضل رؤية منامية للرسول ﷺ فإن شاعرينا جعلا المعارضة طريقا إلى طلب بعض ما نال النموذجان من نجاة وخلاص دينا ودنيا، والإشارة إلى هذا واضحة فالهاشمي الأقاوي ينكر إظهار البراعة، ويعترف بقصور باعه قائلا : (البسيط)

لَسْتُ أضَاهِي الأبُوصِيرِيَّ مُنْشِدَكُمْ
بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ
نَضْوِي قَصِيرٌ عَنِ الأحْبَابِ قَدْ سَفَرُوا
أرْجُو الْوُصُولَ بِمَنْ إلَيْهِ تَرْحِيلُ(700)

وذهب الإفراني المذهب نفسه فقال : (البسيط)

وَازَتْ قَصِيدَةَ كَعْبٍ في الْعَرُوض وَلَـ
ـكَنْ هَلْ يُقَابَلُ شَمْسَ الصَّحْو قنْديلُ
فَكَعْبُ كَعْبُكَ يَاخَيْرَ الأنَام عَلاَ
إذْ نَالَهُ مِنْكَ تَأمينٌ وَتَنْويلُ
لَكِنْ طَوَيْتُ رَجَائي في رَجَاهُ لِكَيْ
لاَ يَعْتَرِي قَصْدِيَ الْمَصْدُوقَ تَعْطِيلُ(701)

وإذا نظرنا إلى معارضة الشاعرين الإلغيّين من جهة كونها مجرد تقليد وسلخ للنموذج، أو محاولة ناجحة في محاورته واستلهامه للتعبير عن انشغالات وهموم خاصة بصاحبها، فسنخلص إلى وجود مستويين يتعلقان بالقدرة الشعرية، إذ كان الطاهر الإفراني أنجح من الأقاوي في هذا المجال لعلو كعبه وتمكنه الشعري العميق، فنجده في معارضة بانت سعاد يتجاوز النموذج في الافتتاح، فلا يجعل سعاد رمزا لسعادته كما عند ابن زهير(702) بل يجعلها رمزا لمدينة الرسول ﷺ،(703) ومن مظاهر احتفاظه بشخصيته مع

700) نيل المراد على بغية الأرفاد، ص : 180.
701) المعسول 7/ 196.
702) انظر الدكتور أحمد الطريسي – الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب، ص : 123.
703) انظر رمزية الغزل في غرض الغزل من المبحث الأول من هذا الفصل.

تأثره بقصائد أخرى، خاصة البردة والهمزية، تخصيص أكثر من نصف القصيدة لذكر معجزات الرسول ﷺ ومناقبه وأعماله... ومنها أيضا التفاته إلى واقع مجتمعه الذي يغلب عليه الانقسام والفساد زيادة على نزول بلاء الاستعمار به.(704)

ونستنتج على العموم أن معارضات الإلغيّين لم تنزل إلى درجة التقليد بل استلهمت النصوص المعارضة وجعلتها مصدرا للإلهام على مستوى المعاني، وللبناء على مستوى الأسلوب واللغة، ولم يمنعها الاحتفاظ بمعالم واضحة من القصائد التي احتذتها، من التفرد بخصوصياتها أي بهموم مبدعها. وخلاصة الأمر أن معارضاتهم لم تقم «على النسخ ولا السلخ ولا المسخ، ولا كانت ترجمة مجردة للنصوص من لغتها القديمة إلى لغتهم الحديثة وإنما كانت... بمثابة ما يسمى اليوم بالقراءة الجديدة للموضوع المشترك أو المتقارب».(705)

أما التخميس فيكون الشاعر فيه أقل حرية، إذ يلتزم الإتيان «بخمسة أقسمة على قافية، ثم بخمسة أخرى في وزنها على قافية غيرها كذلك إلى أن يفرغ من القصيدة...».(706) إلا أن له علاقة متينة بهدف المعارضة، أي أن يظل منحصرا في المجال الديني متوجها نحو التبرك بالنص المخمس، ويظهر هذا من النصوص الشعرية التي وقفت عليها لشعرائنا، فهناك تخميس الطاهر الإفراني قصيدة الشيخ الهيبة بن ماء العينين(607) وتخميس جماعة من أدباء إلغ وهم عبد الله بن محمد الإلغي، والمدني بن علي الإلغي، وأخوه محمد، وأحمد بن زكرياء السّكال، والحسن بن علي الإلغي، أبياتا أرسلها إليهم الشيخ أحمد سكيرج ذاكرا أنه قالها في المنام في مدح آل البيت طالبا منهم تخميسها؛(708) فالتخميسات قليلة عند شعرائنا، في مقابل القصائد العمودية، إذ ظلت مجرد تنويعات على النموذج الشعري سمح المناخ الثقافي بوجودها إلى جواره في تعايش وتساكن.(709)

فالطاهر الإفراني تصدى لتخميس قصيدة الشيخ الصحراوي في مدح الرسول ﷺ متبركا، باعتبارها صادرة عن رجل تولى إمارة المؤمنين، وتصدى لقيادة المجاهدين. أما الإلغيون فقد خمسوا أبيات الشيخ سكيرج باعتبارها صادرة عن قطب من أقطاب الطريقة التجانية التي ينتمون إليها، ولأنها نظمت في مدح آل بيت الرسول ﷺ في ظروف غير عادية خلال النوم، عند غياب الوعي وارتفاع الروح عن عالم المادة. فهي نتيجة للإلهام والكشف الصوفي. هكذا نرى أن التخميسات عند شعرائنا مثلها مثل المعارضات تسعى

---

704) تعرضنا لذلك عند حديثنا عن الشعر الوطني.
705) محمد الهادي الطرابلسي - معارضات شوقي، ص : 89.
706) العمدة 1/ 180.
707) انظر المعسول، 4/ 222 وما بعد.
708) انظر المعسول، 19/ 154.
709) محمد ماكَري، الشكل والخطاب، ص : 176.

إلى الاتصال بنصوص متميزة إما بسبب أصحابها أو الأحوال التي تم فيها إبداعها، ومن نماذج تخميساتهم قول عبد الله بن محمد الإلغي : (البسيط)

يَاطَالِباً لِلنَّجَاةِ يَوْمَهُ وَغَدَا
وَرَاحِلاً لِلْمَعَالِي يَبْتَغِي رَشَدَا
وَسَالِكاً قَاصِداً إِلَى طَرِيقِ هُدَى
(خُذْ سُنَّةَ اللَّهِ بَيْنَ خَلْقِهِ أَبَدَا
وَلْتَجْعَلَنَهَا لَدَيْكَ خَيْرَ قُسْطَاسِ)
وَدِنْ بِدِينِ رَسُولِ اللَّهِ مُذَّكِراً
صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا ذُكِرَا
وَعَظِّمَنْ صَحْبَهُ وَآلَهُ الأُمَرَا
(مَا عَظَّمَ الْمَرْءُ آلَ الْبَيْتِ دُونَ مِرَا
إِلاَّ وَعُظِّمَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ)
إِنْ كُنْتَ تَرْغَبُ أَنْ تُذْكَرَ ذِكْرَهُمُ
وَأَنْ يُشَاهِدَ مِنْكَ الْقَلْبُ نُورَهُمُ
وَأَنْ تُؤَدِيَّ حَقَّهُمْ وَشُكْرَهُمُ
(فَالْحَظْ بِعَيْنِ كَمَالِ الْفَضْلِ قَدْرَهُمُ
وَاخْضَعْ لَهُمْ دَائِماً بِالْقَلْبِ وَالرَّاسِ)(710)

وتظهر من خلال هذا النموذج محاولة الشاعر المجانسة بين الأبيات التي ابتدعها، والتي خمسها من الناحيتين اللفظية والمعنوية، إلا أن مجال الابتكار يبقى، رغم ذلك، فسيحا أمامه، إذ تصبح الأبيات الأصيلة كلمة متميزة في جملته الشعرية. يعطيها بالاستعمال والتركيب مدلولات جديدة لم تكن مقصودة في الاستعمار الأول، لذلك نعتبر قول الأديب مصطفى صادق الرافعي بأن التخميس «أشبه بالزيادة في تراب الميت لا يجدد موته ولكنه وسواس وعبث»(711) تعميما، إن غلب على النماذج الضعيفة النسج فلا ينسحب على الأشعار الجيدة السبك المتينة البناء، إذ إن النص المخمس يصبح بمثابة «جملة إشارية حرة» علاقتُها بالمعنى علاقة إمكان فقط، وهو إمكان غرسه

710) المعسول 19/ 154.
711) تاريخ آداب العرب 3/ 406.

صاحب النص(712) وتركه للشعراء المخمسين ليعيدوا بناءه في تخميساتهم الدالة على أثره في نفوسهم. وبهذا تكتسب هذه الجملة الإشارية الحرة معاني جديدة ومتعددة، باختلاف قرائها مع احتفاظها بالمعنى الذي كانت تحمله.(713) فتخميس عبد الله بن محمد الإلغي ليس إلا قراءة شخصية لأبيات سكيرج إلى جوار قراءات زملائه من تلاميذ الإلغية.

جـ – البنية اللغوية :

أشرنا من قبل إلى أن طلبة الإلغية وأدباءها اهتموا أشد اهتمام باللغة دراسة وحفظا وفهما،(714) وكان من أول شروطهم في قبول أي إبداع احترام قواعدها، لذلك قل أن تجد أخطاء لغوية في أشعارهم، خاصة تلك التي عرضت على ندوتهم الأدبية حيث مرت، كما قيل تحت ثقاف لا يرحم،(715) وحتى نطلع على مميزات لغة إنتاجاتهم سننظر إليها من خلال :

1 – **الأسلوب** : ليس من قبيل التعميم الحديثُ عن سمات عامة للأسلوب لدى أدباء الإلغية، رغم أنه سمة شخصية لكل أديب على حدة «إذ نرى لكل منهم طابعا خاصا – في تفكيره وتعبيره وتصويره – ممتازا به عن الآخر في هذه العناصر»(716) إلا أنهم يشتركون في صفات عامة نجدها عندهم على اختلاف مستوياتهم الإبداعية بسبب وحدة التكوين والاشتراك في النهل من معين الأدب الإلغي، والاتكاء عند الإبداع على نماذج معينة من الشعر العربي القديم.

وإن الناظر في أشعار أدباء الإلغية وأساليبها يقف على بعض الظواهر العامة فيها، من أهمها :

* **تفاوت أساليبهم جودة ورداءة** : ونقصد تفاوت أسلوب كل واحد منهم، فنجده ذا نفس عال مرة، ومجرد ناظم لألفاظ باردة لا روح فيها مرة أخرى. وإذا كانت هذه المسألة بارزة في إنتاج كل الشعراء القدماء منهم والمحدثين، إلا أنها تطرح بحدة لدى شعرائنا، حيث نلحظ تفاوتا واسعا بين مستوياتهم الإبداعية وبروز نمطين أسلوبيين : الأول نمط متين ينبني على قوة التراكيب وجزالة العبارات واتساق الألفاظ، وأكثر ما يظهر في أمداح

712) عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، ص : 95.
713) JULIA KRESTEVA. SEMANALYSE, P : 39
714) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني.
715) محمد المختار السوسي، الرسالتان، ص : 143 – 153.
716) أحمد الشايب، الأسلوب، ص : 121.

السلاطين والرؤساء وغيرهم من الوجهاء، وكانت تلقى بمحضر العلماء والأدباء مما يستدعي حسن النظم وطول النظر فيها حتى تبرز في أحسن حلة، حفاظا على المكانة العلمية والأدبية، وحرصا على الظهور بما يليق أمام الأقران. ويمكن أن نتخذ أمداح الطاهر الإفراني مثالا واضحا على هذا النمط.(717)

أما النمط الثاني فهو بسيط، تغلب عليه رقة التراكيب حتى ليقترب من الخطاب العادي، ولا يكاد يخالفه إلا في كونه منظوما، وأكثر ما يظهر هذا في الإخوانيات، التي يتحرر فيها شعراؤنا من واجب الإجادة فيلقون القول على عواهنه بلا تمحيص قياما بواجب المشاركة، ونكتفي بمثال واحد للشاعر أحمد بن عمر رزقي مودعا أحد أصدقائه : (الوافر)

أحَقّاً مَا سَمِعْنَا منْ وَدَاعٍ
أنُهْجَرُ هَكَذَا وَبِلاَ دَوَاعِ
أإنْ مَهَّدْتُمُ للْحُبِّ حَتَّى
تَعَمَّقَ في الْقُلُوبِ بِألْفِ بَاعِ
فَأزْمَعْتُمْ رَحِيلاً سَوْفَ يُغْرِي
حَرَائِقَ شَوْقِنَا بِالانْدِلاَعِ
وَقَدْ كُنَّا، وَمَا بِالْعَهْدِ طُولٌ
نَوَدُّ مُقَامَكُمْ لِلانْتِفَاعِ(718)

وقد يجتمع هذان النمطان عند بعض الشعراء في القصيدة نفسها، فيتراوح مستواها بين التحليق في سماوات الشعر الحقيقي المعبر عن مشاعر النفس بصدق وإيحاء، وبين الالتصاق بأديم النظم القسري المركب تركيبا غير منسجم. ولعل خير مثال على ذلك قصيدة عبد الرحمان البوزكارني التي مدح بها شخيه الإلغي، وقال عنها هو نفسه : «قصيدة ممتزجة، فيها أحيانا نفس منسجم حلو، كما أن فيها أيضا بضاعة مزجاة».(719)

فمن المقاطع التي علا فيها نفسه قوله متحدثا عن همومه، متشكيا من الدهر واصفا الخيبة التي لازمته : (الكامل)

يَا هَلْ تَعُودُ لَنَا لَيَالِينَا الَّتي
سَلَفَتْ لَنَا بِالْجَزْعِ كَالأحْلاَمِ

---

717) انظرها في المعسول، 7/ 164 و 6/ 110 وما بعد.
718) أوراق أحمد بن عمر رزقي.
719) المعسول 10/ 108.

أمْ حَــالَ دُونَ مُنَاكَ دَهْرٌ لَمْ تَزَلْ
غَــارَاتُهُ قُــدُماً عَلَى الأنَامِ
مَالِي وَلِلأيَّامِ مَا اسْتَعْطَفْتُهَا
إلاَّ قَسَتْ، مَالِي وَلِلأيَّامِ
مَا دَأْبُهَا إلاَّ مُعَارَضَتِي وَمَا
عَامَلْنَنِي إلاَّ بِضِدِّ مَرَامِي
إنْ رُمْتُ نَقْضاً أبْرَمَتْ نَقْضِي وَإنْ
أبْرَمْتُ عَاقَبَ نَقْضُهَا إبْرَامِي
أبْغِي افْتِكَاكِي جَاهِداً، وَتَجِدُّ مَعْ
فُقْدَانِهَا الْمِثْلَيْنِ فِي إدْغَامِي
حَتَّى مَتَى عُتْبَى وَلاَ عُتْبَى لَهَا
لَكِنْ تُحَاوِلُ جُهْدَهَا إيلاَمِي
وَإلَى مَتَى - وَالْمَرْءُ يَعْجَزُ - أشْتَكِي
مِنْ غَيْرِ إشْكَاءٍ جَوَى أسْقَامِي(720)

إلا أن هذه الجمالية والجزالة لا تلبثان أن تخليا مكانهما لنظم بارد لا روح فيه نتيجة لتراخي التوتر الانفعالي،(721) عند قول الشاعر مادحا أبناء شيخه :

لِلَّهِ أبْنَاءٌ لَهُ مَا فِيهِمُ
إلاَّ يَذُودُ عَنِ الْعُلاَ وَيُحَامِي
مَنْ مِثْلَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ مَنْ تَبَـ
ـدَّى فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ بَدْرَ تَمَامِ
طَابَتْ شَمَائِلُهُ كَمَا قَدْ صَافَحَتْ
رِيحُ الصَّبَا وَهْناً زُهُورَ كِمَامِ
وَكَذَا الْفَتَى الْمَدَنِيُّ مَنْ ألْقَتْ لَهُ
أقْرَانُهُ رَغْماً يَدَ اسْتِسْلاَمِ

720) المصدر نفسه، ص : 106.
721) عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، ص : 294.

مَـــــازَالَ يَسْـــــعَى لِلْعُـــــلاَ حَــــتَّى تَبَـ

ـوَّأ مِنْ مَــــرَاتِبِــــهَـــــا أعَـــزَّ مَــــقَــــامِ

وَكَـــــــذَاكَ سَـــــــائِرُهُمْ فَكُلُّهُمُ كـــــَرَا

مٌ مَـــاجِــــدُونَ لِمَــاجِــدِينَ كِـــرَامِ(722)

وإذا استقصينا أسباب تفاوت المستوى الشعري لشاعرنا، وسائر شعراء الإلغية، نجد أهمها صدق العاطفة، فعندما عالج البوزكارني مثلا انفعالاته الذاتية وهمومه الشخصية سما شعره وتدفقت أفكاره تبعا لجيشان العاطفة. أما عندما يتعلق الأمر بموضوعات أخرى، كالرد على أشعار الإخوان ومعاطاتهم الآداب، تطالعنا التعابير المعتادة المتكلفة التي لا روح فيها، فليست إلا ضربا من المجاملة. ولا شك أن هذا النوع من الأشعار هو الذي قصده محمد بن علي الدرقاوي بقوله منتقدا: «إن الشعر الإلغي الذي تسمونه شعرا ليس بشيء، ولا روح فيه. وهي عبارات تكررونها بأوزان مختلفة، وكلها أمداح مزخرفة فيها من المبالغات ما تعد به سمجة. وزيادة على ذلك إنما هي تملقات يعلم القائل والمقول فيه أنها رياء وسمعة وكذب وبهتان».(723)

ولا شك أن صدق العاطفة يتوقف بدرجة كبيرة على الاستعداد للإبداع الشعري، وقد ذكرنا أن شعراء الإلغية كانوا يتكلفون النظم دون رغبة صادقة فيه، مجاملة لإخوانهم وأصدقائهم ومساهمة في تنشيط الأدب فيكتفون بما سنح عفوا بلا تمحيص، فأضحى ضعف الأشعار ظاهرة طاغية على إخوانياتهم التي استنفذت قواهم الإبداعية، فكانوا يركنون إلى تكرار المعاني بل واجترار التراكيب اللغوية نفسها. أما إذا خاضوا في غيرها فإن نفسهم الشعري يسمو ويتجاوز الضعف والركاكة. وقد لاحظ ذلك العلامة المختار السوسي فقال: «إن الإلغيين لو خاضوا في غير الإخوانيات... فإنهم ستتجلى مقدرتهم غاية التجلي».(724)

* **ظاهرة التكرار**: يعد التَّكرار وسيلة فنية، معينة على تعميق المعنى بهدف التأثير في المتلقي من ناحية تقوية العواطف،(725) وقد أكثر أدباء الإلغية من استعماله قاصدين به التهويل والمبالغة، وخاصة اللفظي منه،(726) ويمكن أن نميز فيه بين تكرار الألفاظ وتكررار الحروف:

---

722) المعسول 10/ 107 ـ 108.

723) المعسول 2/ 249.

724) المصدر نفسه، ص: 133.

725) انظر عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها 1/ 495، وانظرا أيضا المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع للسجلماسي ت د، علال الغازي، ص: 476.

726) د. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص: 39.

* **تكرار الألفاظ** : تأكيدا للمعنى وإبرازا له، مثل قول محمد العتيق معبرا عن لوعته وحزنه العميق لفقدان أحد أقربائه، مكررا لفظة «واكبدي» الدالة على التفجع، وقد أشبهت نشيج الحزين الباكي في امتداد النفس من خلال واو الندبة أول كل بيت، بالإضافة إلى تكرار لفظة «كبدي» آخر صدر البيت الأول، والتي ساهمت في تقوية الجرس الموسيقي، وقصد الشاعر تقرير المعاني التفصيلية التي تدور حول وصف أثر المصيبة في نفسه، مما يتم به المعنى الإجمالي،(727) الذي هو إظهار التفجع والحزن. فقال : (البسيط)

وَاكَبِدي مِنْ مُصَابٍ قَدْ بَرَى كَبِدي
فَتَّ فِي عَضُدِي وَهَدَّ مِنْ جَلَدِي
وَاكَبِدي لِفِرَاقِ مَنْ أُحِبُّهُمُ
مَضَوْا إِلَى رَبِّهِمْ وَعِشْتُ فِي كَبَدِ
وَاكَبِدي مِنْ حِمَامٍ غَالَ أَفْضَلَنَا
خَلِيفَةَ الشَّيْخِ فِي التَّهْذِيبِ وَالرَّشَدِ(728)

ونجد المسألة نفسها عند محمد بن علي الإلغي في رثاء أخيه المدني لما قالَ : (البسيط)

مَنْ لِي بِهِ مِنْ فَقِيهٍ أَيِّدٍ نَدِسٍ
إِمَامِ مَنْ قَدْ هُدِي فِي الدِّينِ أَوْ رَشَدَا
مَنْ لِي بِهِ مِنْ أَدِيبٍ مُصْقَعٍ حَذِقٍ
يَفْرِي فَرِيَّ كَمِيٍّ لاَبِسٍ زَرَدَا
مَنْ لِي بِهِ مِنْ أَدِيبٍ مُفْلِقٍ خَضِرٍ
مُخْلِفٍ إِيعَادَهُ وَافٍ بِمَا وَعَدَا
مَنْ لِي بِهِ مِنْ مُحَقِّقٍ إِذَا ذُكِرَتْ
أَبْحَاثُ قَوْمٍ فَبَحْثُهُ غَدَا السَّنَدَا(729)

فالشاعر يستغل تكرار الاستفهام «من لي به» للمبالغة في التعبير عما أصيب به من فقد أخيه، ووصف الخسارة التي لحقت العلوم والآداب بفقده، تقوية لمعنى الفجيعة.

* **تكرار الحروف** : خاصة تلك الدالة على الاستفهام أو النفي أو الإنكار، وقد أكثر شعراؤنا من استعمالها في معرض تقريظ القصائد، حيث يستعينون بتكرار النفي مثلا، لتأكيد ما بعده تهويلا ومبالغة، كقول الطاهر الإفراني : (البسيط)

727) انظر حول المعنيين التفصيلي والإجمالي، المرشد إلى فهم أشعار العرب 1/ 560.
728) ديوان العتيق، ص : 41.
729) المعسول 2/ 151.

مَـــا وَرْدُ رَوْضٍ زَهَا بِحُـــسْنِ خُـــضْـــرَتِه
وَلاَ مُـــحَـــيَّـــا سَـــبَـــاكَ نُورُ نُضْـــرَتِه
وَلاَ عَلِيلُ نَسِـــيمٍ هَبَّ مُـــبْـــتَكِراً
عَلَى الْمُـــصَـــابِ فَـــجَلَّى دَاءَ صَـــبْـــوَتِه
وَلاَ وِصَـــالُ حَـــبِـــيبٍ سَـــاعَـــدَتْكَ بِه الْـ
أَيَّامُ فَـــانْقَـــادَ سَـــمْـــحـــاً بَعْـــدَ مَنْعَـــتِـــه
وَلاَ سُـــلاَفٌ إِذَا مَـــا ظَلْتَ تَشْـــرَبُهُ
غَـــدَا لِـلُبِّكَ سَـــلاَّباً بِسَـــوْرَتِه
وَلاَ زَوَاهِـرُ أَزْهَـارٍ تَـطِـيبُ لَـهَـــا
نَفْسُ الْحَـــزِينِ فَـــتَـــهْـــدَا نَارُ كُـــرْبَتِـــه
أَحْلَى وَأَطْيَبَ مِنْ سِـــحْـــرٍ بَعَـــثْتَ بِه
نَظْمـــاً يُنَسِّي الشَّـــجِيَّ بُرْءَ عِلَّتِـــه(730)

أما الاستفهام، فيستعمل في غالب الأحيان مبالغة في إظهار العجب من جودة الشعر المقرظ والإعلاء من منزلته، كقول الحسين بن إبراهيم الصالحي مخاطبا خاله البشير بن أبي بكر الأغوديدي : (الكامل)

مِـــسْكُ النَّوَافِجِ فَـــاحَ أَمْ رَوْضُ الرُّبَى
حَـــيَّـــاهُ غِبَّ الْمَـــحْلِ طَلُّ سَـــمَـــاءِ...
أَمْ أَنْجُمُ الْجَـــوْزَاءِ أَرْخَتْ عِـــقْـــدَهَا
فَـزَهَتْ بِهَـا الْخَـضْـرَاءُ عَلَى الْغَـبْـرَاءِ...
أَمْ صَـــدْرُ غَـــانِيَـــةٍ تَنَظَّمُ وَسْطَهُ
دُرَرٌ مِنَ الْبَـيْـضَـاءِ لِلْحَـمْـرَاءِ...(731)

أما تكرار الحروف الدالة على الحض، فيستعان به على النصح والتوجيه، كما عند أحمد بن سعيد الأكماري مخاطبا تلاميذه، يحثهم على الجد في طلب العلم قائلا : (المتقارب)

730) المعسول 7/ 163.
731) المعسول 2/ 78-79.

أعِيرُوا السَّمَاعَ بُدُورَ الأَنَامْ
لِنُصْحٍ يَزِينُ بِدُرِّ الْكَلاَمْ
ألاَ مَنْ طِلاَبُ الْعُلاَ هَمُّهُ
فَإِنَّ الْعُلُومَ أجَلُّ الْمَرَامْ
ألاَ هَلْ سَمِعْتُمْ بِنَيْلِ الْعُلُوم
بِشُرْبِ الْمُدَامِ وَفَرْطِ الْمَنَامْ

* * *

ألاَ فَاخْدُمُوهُ بِعَزْمٍ صَرِيح
وَجِداً وَكَدّاً وَصَبْرِ الْكِرَامْ

* * *

ألاَ فَاعْلَمُوا وَاعْمَلُوا تَظْفَرُوا
بِأجْرٍ جَزِيلٍ وَنَيْلِ الْمَرَامْ(732)

فالشاعر تعمد تكرار «ألا» الدالّ هنا على العرضَ والتحضيض، أي طلب الشيء بلين أو بحث،(733) لاستنهاض طلبته.

* **إقحام المعارف العلمية** : يعد أدباء الإلغية فقهاء أولا، ألـمّوا بالعلوم التي يحتاج إليها في مجتمعهم كالنحو، والفقه، والفلك، والأصول، والمنطق... وغير ذلك، فتسربت لأجل ذلك كثير من تعابير واصطلاحات العلوم إلى أشعارهم، وهي ظاهرة شاعت لدى شعراء العربية في كل عصر حتى لدى كبارهم كأبي الطيب المتنبي وأبي العتاهية،(734) وإن نسب ذلك إلى الشعراء الفقهاء دون غيرهم، وقد ساعد على انتشار هذه الظاهرة لدى أدبائنا أمران اثنان :

الأول : احتكاكهم الدائم بالمنظومات التعليمية حفظا وفهما وإقراء وشرحا أثناء قيامهم بالتحصيل ثم التدريس، وكانت بعضها ذات مستوى تعبيري عال خاصة في مطالعها، «حيث الصناعة غاية في الانسجام والبلاغة، بحيث تجعل الطالب يتلقى حقائق العلوم وهو متأثر بسحر البيان، ومأخوذ بسر الفصاحة...».(735)

الثاني : تأثرهم بالأندلسيين الذين كان لهم ولع خاص باقتناص اصطلاحات العلوم واستعمالها استعمالا بلغيا طريفا. وقد تابعهم المغاربة في ذلك، ولعل أولهم الأديب

---

732) ورقة بخط تلميذه الحسن بن علي الإلغي ضمن أوراق محمد بن الحسين الصالحي والمعسول 11/ 110.
733) انظر ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص : 97.
734) عبد الله كَنون ـ أدب الفقهاء، ص : 11-12.
735) المرجع نفسه، ص : 237.

ابن زنباع الذي اشتهر قوله في قصيدة في الربيع، وقد جمع عدة مصطلحات فقهية في بيت واحد : (الكامل)

فَكَأَنَّهُ فَـــرْضٌ عَلَيْـــه مُـــؤَقَّتٌ
وَوُجُــوبُهُ مُـتَـعَلِّقٌ بوُجُــوبهَــا(736)

أما العلوم التي متح منها شعراء الإلغية، وأقحموا مصطلحاتها في إبداعاتهم فهي تلك التي تعلموها كما أشرنا من قبل، وإن ركزوا على الفلك، فكانت أسماء النجوم والمنازل... مما يكثر دورانه في أشعارهم حتى قلّ أن تجد قصيدة أو نتفة لم يذكر فيها القمر أو الشمس وصفا أو كناية عن علو المكانة ورفعة القدر، أو أحد منازلها، من ذلك قول العربي الساموكَني : (الوافر)

أَنَـجْلَ الـشَّـــيْخِ يَابَدْرَ الْكَمَـــال
وَيَا فَـــرْدَ الْمَـحَـــاسِنِ وَالْخِـــلاَل(737)

والطاهر الإفراني في قوله : (الطويل)

أَهَلَّ هِلاَلُ الْمَـــجْـــد في مَنْزل السَّـــعْـــد
فَـأَذْهَبَ غَـيْنَ الْغَيِّ عَنْ أَعْـيُن رُمْـد(738)

أما أسماء النجوم فنذكر منها الفرغ في قول الإفراني أيضا : (الطويل)

يَـحِـنُّ إلَـى تِـلْـكَ الْـمَنَـازل إنَّـهَـــا
مَنَـازلُ بَدْر التَّمِّ لاَ مَنْـزلُ الْفَـــرْغِ(739)

والغفر والنسر في قول محمد بن علي الإلغي : (الطويل)

وَيَغْـــدُو يُشَـــيِّـــدُ الدِّينَ مِـــثْلَ أصُـولـه
وَيَعْلُو عُلُواًّ دُونَهُ الْغَـــفْـــرُ وَالنَّسْـــرُ(740)

والثريا في بيت لمحمد الكثيري : (الكامل)

أيْـنَ الـثُّـــرَيَّـا مِـنْ يَـدَيْـكَ تَـنَـاوُلاً ؟
أَمْ أيْنَ نُورُ الشَّـــمْس لِلنِّبْـــرَاس(741)

---

736) محمد بن تاويت- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى 1/ 32.
737) المعسول 9/ 56، وانظر حول مواقع النجوم منظومة لأحمد أبناو في كتابه سر الصباح، ص : 273-274.
738) المعسول 2/ 214.
739) المعسول 1/ 63.
740) الإلغيات 1/ 112.
741) المعسول 9/ 194.

والفرقد وكيوان والشعرى... وغير ذلك مما لا نستطيع حصره هنا.(742)

كما لم تخل أشعار أدبائنا من مصطلحات علمية أخرى، ففي الفقه استعاروا المذهب، والفرض والتعصيب والشرع... كما في الأبيات التالية:

- لِمَ حَكَّمْتَ وَأَنْتَ قَاضٍ بِمَطْلِ
فِيهِ، وَالْمَطْلُ مَا اقْتَضَاهُ بِسَاطِي(743)

- خَيْرُ الْخَلاَئِفِ أَحْمَدُ الْمَوْلَى الَّذِي
مَا إِنْ لَهُ فِي الْكَوْنِ ثَانِي الْمَذْهَبِ(744)

- يَا فَرَضِيّاً لَهُ فَرْضٌ وَتَعْصِيبُ
فِي كُلِّ عِلْمٍ وَتَهْذِيبٌ وَتَذْهِيبُ(745)

أما في النحو فمصطلحات الجمع السالم والتكسير والرفع والعطف والوصل والاشتغال، فيما يلي:

- سَلاَمٌ عَلَى الْجَمْعِ الْمُذَكَّرِ إِنَّهُ
سَلِيمٌ مِنَ التَّكْسِيرِ فِي كُلِّ مُفْرَدِ(746)

- عَهِدْتُهُمْ مِنْ نُحَاةِ الْعَصْرِ قَدْ قَرَءُوا
أَبْوَابَ عَطْفٍ، وَبَابَ الْوَصْلِ قَدْ نَظَرُوا
فَمَا لَهُمْ لَزِمُوا بَابَ اشْتِغَالِهِمُ
عَنِّي وَمِضْمَارَ شَوْقِي وَسْطَهُ حَضَرُوا(747)

وفي التصوف وظفوا مصطلحات القطب والإمام ومنهج القوم وخرق العوائد والسر والأمداد:

- قُطْبُ الْوُجُودِ أَبُو الْعَبَّاسِ سَيِّدُنَا
غَوْثُ الْوَرَى مَنْ أَتَى مِنْهُمْ وَمَنْ كَانَا(748)

- وَإِمَاماً غَدَا عَلَى مَنْهَجِ الْقَوْ
مِ فَنَالَ بِذَاكَ أَوْجَ السِّيَادَهْ(749)

742) انظر المعسول 9/ 57 – 241، 7/ 148، 10/ 19، الإلغيات 1/ 115.
743) المعسول 2/ 181 والبيت لعبد الله بن محمد الإلغي.
744) المعسول 4/ 116. والبيت لمحمد التونلي التملي.
745) كناش الكثيري، ص: 66.
746) المعسول 9/ 147.
747) المعسول 1/ 362.
748) المصدر السابق، ص: 142.
749) نفسه، ص: 72.

- أهْلاً بِمَنْ خَــرَّقَ الْعَــوَائدَ فَــضْلُهُ
وَسَــمَــا بِفَــضْلِ فِــعَــاله وَأصُــوله(750)

- إرْشَــادِ خَلْقِ اللّه لِلدِّين الْمَــتِــيـ
ـنِ فَــعَــمَّــهُمْ بِالسِّــرِّ وَالإمْــدَاد(751)

كما وظفوا مصطلحات منطقية وطبية وعروضية،(752) وهكذا نرى أن شعراءنا استعملوا ألفاظ العلوم أداة للتعبير، لإعطاء لغتهم بعدا تصويريا عميقا وإن تفاوتوا في الإجادة وحسن الاستغلال.

2 - **المعجم** : إن متأمل أشعار تلاميذ الإلغية بتمعن يلاحظ اشتراك أصحابها في مجال معجمي واحد، يقتبسون منه ألفاظهم وعباراتهم، حتى ليعد إنتاجهم الضخم صياغة لنموذج شعري واحد بسبب اشتراكهم في الأخذ بالمدرسة الإلغية، ذات المنهج التعليمي الأدبي المعتمد على دراسة مصنفات أدبية معينة. فكانت هذه المطالعات الموحّدةَ للمجال المشترك لدى هؤلاء الأدباء، بالاطلاع على الإبداعات العربية والاستفادة منها في تشكيل إطارهم المعجمي اللغوي، فكان بديهيا اشتراكهم في استغلال معجم واحد على اختلاف مواضيع شعرهم وأغراضه. ونستطيع أن نقول إن المعجم اللغوي لدى تلاميذ الإلغية ينقسم إلى ثلاثة محاور تبدو بارزة بوضوح في إبداعاتهم وهي المحور الطبيعي، المحور الديني، المحور الغزلي، ومنها كانوا يستقون ألفاظهم. وستمكننا دراسة كل محور من الوقوف على طرق تعاملهم مع اللغة.

المحور الطبيعي : تتجلى لنا من خلاله علاقة الشاعر بالطبيعة بما هي مجال عيشه، أرضا وسماء، نباتا وحيوانا، رقة وعنفا، ترددت كلها في الأشعار خاصة في انسجامها وجماليتها، للتعبير عن مشاعر الود والأخوة، ولما كانت الإخوانيات المجال المتاح أكثر والذي استنفذ فيه شعراؤنا جهدهم. فقد طغى عليه المحور الطبيعي، فكثر ذكر النسيم والصبا وما يرادفهما، وأنواع الأزهار من ورد ونسرين وزهر ونوار... وروائحها الطيبة. والأشجار وأغصانها، وأوراقها، والأنهار وجريان مياهها، والأنوار وسطوعها، واحتفال الرياض بكل ذلك في موكب جمالي أخاد، يستحضره الشاعر كلما أراد التعبير عن فرحه

750) المعسول 1/ 362.
751) الإلغيات 1/ 115.
752) انظر ديوان العتيق، ص : 59، المعسول 2/ 181، مترعات الكؤوس، ص : 351.

وحبوره. إلا أن المسألة المطروحة هنا هي كون هؤلاء الشعراء - خاصة الإلغيين - لا يستندون إلى طبيعة حية في مجالهم المعيشي في إلغ القفر(753) بل إلى الإبداعات الشعرية التي تغنت بوصف الطبيعة وما فيها من جمال، خاصة المجاميع الأدبية الأندلسية وعلى رأسها «نفح الطيب»، ومن هنا استعار أدباؤنا صورهم الشعرية المرتبطة بالمحور الطبيعي. فاستحضار الوجود لا يتم عبر الاحتكاك بالواقع بل عبر الرجوع إلى النصوص القديمة، من هنا يصبح الإبداع عند شعرائنا قلبا أو تعضيدا لنصوص أخرى،(754) كقول علي بن صالح الإفقيري : (الكامل)

شَمْسُ الْهُدَى بَزَغَتْ بِكُلِّ فَخَار ... وَشُعَاعُهَا مِنْ رَوْضَةِ الأَنْوَار
فَتَفَجَّرَتْ أَنْهَارُهَا وَتَأَنَّقَتْ ... أَشْجَارُهَا مُفْتَرَّةَ الأَنْوَار
وَسَرَتْ صَبَا الْبَهَجَات في أَنْحَائِهَا ... مِسْكِيَّةً فَيَّاضَةَ الأَسْرَار(755)

وأحمد بن الحسن أبناو : (الكامل)

مَا رَوْضَةٌ مَمْطُورَةٌ تَشْدُو بِهَا ... وُرْقُ الْحَمَام عَلَى غُصُونِ الْبَان
فَتَدَفَّقَتْ أَنْهَارُهَا وَتَفَتَّقَتْ ... أَزْهَارُهَا بِنَسِيمِهَا الْوَهْنَان
وَتَعَطَّرَتْ أَرْجَاؤُهَا بِذَرُور نَرْ ... جِسِهَا النَّدِي وَعَبِيرِهَا الرَّيْحَان(756)

وتتوالى الألفاظ الدالة على الطبيعة معبرة عن عواطف الشاعر، وليست هذه الطبيعة منظرا جامدا موصوفا لذاته وإنما هي محور معجمي يستعان به للتعبير عن خوالج النفس ومشاعرها الفياضة، إذ نجده في عدة أغراض كالمدح والغزل والإخوانيات...، كما يدل هذا الحضور المكثف على رهافة حس أدبائنا وشعورهم الرقيق بالجمال أينما كان.

753) انظر الفصل الثاني من الباب الأول من هذا الكتاب.
754) محمد مفتاح ـ دور المعرفة الخليفة في الإبداع والتحليل، مجلة دراسات، عدد 6، ص : 86.
755) الإلغيات 2 / 152 .
756) سر الصباح، ص : 105.

المحور الديني : نشأ شعراء الإلغية نشأة دينية إسلامية ودرسوا العلوم الإسلامية من عقيدة وفقه وأصول وتفسير وحديث... فصارت جزءا من شخصيتهم، ومكونا هاما من مكونات نظرتهم إلى الحياة والكون، فكان طبيعيا أن تبرز السمة الإسلامية وتطغى على إبداعاتهم، فنجدهم يتداولون مجموعة من الألفاظ تمتح من هذا المحور الواسع القوي الدلالات. وقد زاد من حضوره في إبداعات شعرائنا اعتناق غالبهم الطرق الصوفية ومحافظتهم على أداء أورادها، وزيارة أقطابها الأموات منهم والأحياء، ولعل خير مثال لحضور هذا المعجم في إبداعاتهم كثرة الصلاة على النبي ﷺ وما يتفرع عنها من دلالات.(757) ومن الألفاظ التي كان حضورها كبيرا عندهم نجد : الصلاة، الكعبة، الآخرة، النبي ﷺ ، الهدى، الورع، الفضيلة، الصحابة، الذنوب، النعم، الدين، رسول الله ﷺ ، المصطفى، الرحمة، الإمام، القطب، الجنة، جنة الخلد، شمس الهدى، الولاية، القبلة، المغفرة، الروضة الفيحاء، الوجد، الحشر، البعث، رجس، الشفاعة... إلى غير ذلك مما لا نستطيع الإحاطة به لكثرته وانتشاره في أدبياتهم العديدة.

المحور الغزلي : وهو كسابقه الطبيعي نجده في أشعارهم على اختلاف أغراضها، فنجده في الإخوانيات حاضرا حضورا قويا، إذ تتكرر ألفاظ معينة تدور حول وصف جمال المرأة خلقا وخلقة وكل ما يتعلق بها من ألفاظ الحب والوصل... ولم يتم استعمال هذا المعجم بصفته المباشرة، كما في قصائد الغزل البحت، بل حور عن مقصديته ليتخذ صفة رمزية، وليعبر عن مشاعر لا ترتبط بالمرأة، فنجد أدباءنا يستغلونه في تقريظ الأشعار والتنويه بها،(758) بل يجعلونه مكان المعجم الإخواني، فيخاطب أحدهم صديقه خطابا غزليا تقليدا للأدباء القدماء الذين كانوا ينصحون المبتدئين بالقول : «... واكتب إلى صديقك كما تكتب إلى حبيبك، وقال بعض الكتاب غزل المودة أرق من غزل الصبابة... إني لألذ للمؤانسة كلذتي للملامسة».(759) وهي نصيحة وإن كان مجالها النثر إلا أنها تصدق على الشعر أيضا، ويتجلى ذلك في كثير من إخوانيات شعرائنا والتي تخاطبوا بها فيما بينهم،(760) وفيها ينزاح المحور الغزلي عن دلالاته بحيث لا يمكن التعرف على نوعية الخطاب انطلاقا من المعجم، وتبعا لذلك يصبح التسليم بأن لكل خطاب معجمه الخاص(761) أمرا مشكوكا فيه.

---

757) تطرقنا لذلك في أول هذا المبحث.
758) أنظر غرض الغزل في المبحث الأول .
759) الصولي ـ أدب الكتاب، ص : 236 ـ 237 .
760) أنظر غرض الإخوانيات في المبحث الأول .
761) أنظر محمد مفتاح ـ تحليل الخطاب الشعري، ص : 58 .

المبحث الثالث - البنية الإيقاعية :

يعتبر الإيقاع من أهم عناصر الشعر، وأكثرها تأثيرا في النفس بل وفي «وظائف الجسم، من سرعة النبض إلى سرعة التنفس وانتظامه وإلى توتر العضلات...» لذلك كان الإيقاع عميق التأثير في المتلقي «فالجرس في الكلمات، والنبر في الحروف، وتساوق الأصوات في الحركات، والنغم في الجملة الشعرية، بالإضافة إلى موسيقى الوزن والقافية والروي» كلها وسائل نغمية مؤدية إلى التجاوب مع الإيقاع أولا، وما تحمله الألفاظ والجمل من دلالات وأفكار ثانيا، عن طريق إحداث «تأثيرات نفسية ووجدانية حيث تتلقى الأذن الصوت فتتأثر حاسة السمع، ثم تتأثر بقية الحواس، فينتقل الأثر بذلك إلى النفس فيحدث الانفعال، ومتى تم هذا التأثر المزدوج العضلي والنفسي، أو الموضوعي الخارجي والذاتي الباطني كانت الموسيقى جميلة...».(762)

وقد فطن أدباء الإلغية لأهمية الإيقاع في الشعر فاهتموا بدراسته من جهتين :

أولا : إتقان علم العروض، عن طريق دراسة بعض منظوماته واعتبار ذلك من أول ما يجب تعلّمه على المتطلع إلى نظم الشعر.(763)

ثانيا : الاحتكاك بنماذج مختارة من الشعر العربي حفظا أو مطالعة للاطلاع على الموسيقى الشعرية من خلال الإبداعات الحية، بعد إتقان مصطلحات العروض وتقنياته والاطلاع على تلويناته الإيقاعية. وإذا رغبنا في الإحاطة بخصائص الإيقاع عند تلاميذ الإلغية من الشعراء، لابد لنا من دراسته من خلال جانبين،(764) يتعلق الأول بالهيكل والوزن والقافية وهو الإيقاع الخارجي. أما الثاني فهو الإيقاع الداخلي من خلال خصائص اللغة الموسيقية كالتكرار والجناس والترصيع...

الجانب الأول : الإيقاع الخارجي :

أ - **الهيكل** : احترم شعراء الإلغية الهيكل العام للقصيدة العربية، باعتبارها مجموعة أبيات، كل بيت مكون من شطرين متساويين، احتذاء للنماذج التي كانوا يحتكون بها، ورغم أنه كان لهم اطلاع كبير على الآداب الأندلسية من خلال مصادرها الحافلة بالموشحات، إلا أنهم لم يحاولوا النسج على ذلك المنوال، إذ لم نقف لهم على ما يؤخذ بعين الاعتبار في هذا المجال. وأفضل ما استطاعوا القيام به في مجال التنويع الهيكلي هو

---

762) محمد عماد فضلي ـ بين الأدب والموسيقى، مجلة فصول، المجلد الخامس عدد 2 مارس 1985م، ص : 112.

763) د. أحمد الطريسي ـ الرؤية والفن...، ص : 148.

764) د. عباس الجراري ـ فنية التعبير عند ابن زيدون، ص : 27.

التخميس. نستنتج من هذا أن أدباء الإلغية حافظوا بحرص على النمط الشعري دون تغيير يذكر.

ب - **الوزن** : يعتبر الوزن أساس الموسيقى الشعرية وعمودها «لأنه يضبط المستويات الصوتية للحروف والكلمات وما تكوّن من مقاطع وأجزاء، وينظم العلاقات التنغيمية بينها، ويبرز مختلف أنواع النبر والنقر وينسق الاهتزازات الإيقاعية، والانسجامات الصوتية والموجات الموسيقية».(765)

وقد أدرك أدباء المدرسة هذه الأهمية، واقتفوا في النظم سبيل الشعر العربي القديم، فأتت أشعارهم في غالبها على الأوزان الطويلة، وهي الطويل والبسيط والوافر والكامل والخفيف. ويعتبر الطويل صاحب النصيب الأوفر من أشعارهم وليس ذلك بغريب، إذ «ليس بين بحور الشعر ما يضارع البحر الطويل في نسبة شيوعه، فقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربي القديم على هذا الوزن»(766) وحتى نقف على جلية الأمر بوضوح، نورد مثالا لاستعمال البحور الشعرية لدى أحد شعراء المدرسة المتميزين وهو الطاهر الإفراني، المنفرد بتجربته الواسعة وإنتاجه الشعري الهائل الذي ناف على عشرة آلاف بيت،(767) شملت أغلب البحور خاصة الطويل المختص بأكثر من نصفها، وكان شاعرنا يميل إلى استعمال البحور الطويلة لأنها توفر له كثرة المقاطع وامتداد النفس،(768) وعلى غراره سار بقية تلاميذ الإلغية، فنجدهم ينسجون القصائد الطويلة على البحور الطوال، بينما يميلون إلى البحور المتوسطة في الأبيات المفردة والنتف والمقطعات،(769) وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن مدى تناسب موضوعات الأشعار مع الأوزان، ولا نقصد بذلك ما ذهب إليه بعض النقاد من أن هناك بحورا تناسب الهزل والرشاقة، وأخرى تنسجم مع الفخامة وثالثة مع الحزن والكآبة،(770) بل إن الأوزان مرتبطة بدرجة الانفعال شدة وضعفا، إذ «كلما زاد الانفعال كان الميل إلى البحور الطويلة ذات المقاطع الكثيرة».(771) ونجد هذا واضحا جليا لدى شعرائنا في مختلف الأغراض. ففي الرثاء نقف على قصيدتين لعبد الله بن محمد الإلغي رثى بهما ابن عمه المدني بن علي، الأولى على بحر المجتث، وهو بحر قصير تقمصته التجربة الشعرية لأنه كما قال إبراهيم أنيس، «يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد

765) د. عباس الجراري - فنية التعبير عند ابن زيدون، ص : 32.
766) إبراهيم أنيس - موسيقى الشعر، ص : 69.
767) المعسول 7/ 95، وانظر اليزيد الراضي - شعر داود الرسموكي، ص : 32.
768) عبد الله درقاوي - الطاهر الإفراني، حياته وشعره 2/ 315.
769) انظر مثلا الجزء الأول من الإلغيات.
770) انظر السجلماسي - المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص : 407.
771) فنية التعبير عند ابن زيدون، ص : 32.

النبضات القلبية، ومثل هذا الرثاء الذي قد ينظم ساعة الهلع والفزع لا يكون عادة إلا في صورة مقطوعة قصيرة...»(772) وهذا حال شاعرنا الذي نظم منفعلا قصيدة من خمسة عشر بيتا مطلعها : (المجتث)

يَاعَيْنُ جُودِي بِدَمْعِ
مُطَّرِدٍ كَالْفَرِي
مُنْسَجِمٍ كَانْسِجَامِ
تَهْطَالِ جُودِ الْوَلِي
لِفَقْدِ مَوْلَى الْمَوَالِي
خِدْنِ الصَّفَاءِ الْوَلِي(773)

أما القصيدة الثانية فقد نظمت في بحر البسيط، وهو من البحور الطويلة، ويبدو أن شاعرنا قد نظمها بعد أن هدأت انفعالاته واستكانت نفسه، فكان هذا الوزن مناسبا لهذا الهدوء يقول : (البسيط)

لَقَدْ أصِبْنَا بِمَوْتِ السَّيِّدِ الْمَدَنِي
فَذِّ الْمَعَالِي أبِيِّ النَّفْسِ غَيْرِ دَنِي
لَئِنْ مَضَى مَا مَضَتْ مِنْ بَعْدِهِ جِدَةٌ
تُفَتِّتُ الْقَلْبَ وَالأحْشَاءَ مِنْ حَزَنِ(774)

أما في الغزل فنقف على قصيدتين لمحمد الكثيري، الأولى نسجت على وزن مجزوء الرمل وهو من البحور القصيرة «نغمته خفيفة جدا وتفعيلاته مرنة للغاية... وفي رنته نشوة وطرب».(775) ويظهر أن شاعرنا عبّر بها عن لحظة سرور وفرح عارم بلقاء الحبيب بعد طول هجران، لذلك جاءت على هذا الوزن القصير الراقص.

أما الثانية : فهي على وزن البسيط الطويل المقاطع يتحدث فيها الشاعر عن عواطفه في هدوء وتأمل عكس الأولى، ولا أنسب لهذا المقام من وزن البسيط، باعتباره طويلا ينسجم مع ما في القصيدة من عنصر الحنين،(776) ومطلعها :

---

772) موسيقى الشعر، ص : 196.
773) المعسول 2/ 151.
774) المعسول 2/ 152.
775) د. عبد الله الطيب ـ المرشد إلى فهم أشعار العرب.. 1/ 118.
776) المرجع نفسه، ص : 438 وانظر أيضا غرض الغزل في المبحث الأول.

لَـمْ أدْرِ قَــبْلَ غَــرَامِي أيُّهَـا الْغـيـدُ
أنَّ الْجُـفُـونَ شـبَـاكُ صَـيْـدها الصِّـيـدُ
صَـادَتْ فُـؤادِي بَيْـضَـاءٌ مُـهَـفْـهَـفَـةٌ
تَسـيـرُ تَحْتَ لوَاهَا الْبـيضُ وَالسُّـودُ(777)

هكذا نرى أن تفاوت الانفعالاتَ شدة وضعفاً هي التَي حددت لدى شاعرينا نوعية الأوزان المعتمدة في قصائدهم الشعرية طولا وقصرا،(778) إذ إن الإيقاع «ليس قالبا جاهزا عاما وإنما هو مجرد مادة تتشكل بحسب مقصدية الشاعر واجتماعيته، يأتي بطيئا أو سريعا، طويلا أو قصيرا».(779)

جـ - **القافية** : هي الركن الثاني للإيقاع الخارجي للفن الشعري وهي «فاصلة موسيقية تنتهي عندها موجة النغم في البيت، وينتهي عندها سيل الإيقاع، ثم يبدأ البيت من جديد كالموجة تصل إلى ذروتها وتنتهي من جديد... وعلى هذا تكون القافية ختام السيل النغمي، وعندها تتوقف المعاني مع أمواج النغم المتدافعة في التفعيلات، فيكون لهذه الوقفة القصيرة أثرها في تثبيت معنى البيت».(780)

ومثلما تابع أدباء الإلغية شعراء العربية في استعمال الأوزان الشعرية، نسجوا على منوالهم في استعمال القوافي، واستعانوا بكل حروف المعجم في صياغة الروي حتى القليلة والنادرة الاستعمال، إلا ما كان من حرف الخاء فلم أقف عليه، وإن كنت لا أستبعد وجوده عندهم. وهكذا استعملوا مختلف القوافي؛ الذلل والحوش والنفر، وإن كان النوعان الأخيران قليلان وإنما ركبهما شعراؤنا مضطرين أو ممتحنين مقدرتهم اللغوية والشعرية. وتعتبر حروف الراء واللام والميم والنون والباء والدال والسين والعين والقاف والكاف والهمزة والحاء والفاء والياء والجيم من أكثر ما استعمل عندهم،،(781) وليس هذا بغريب إذا وضعنا في الاعتبار كونها من أكثر الحروف تداولا في قوافي الشعر العربي.(782) أما الحروف القليلة الورود أو النادرة فقد استعملها شعراؤنا، ولم يجاوزوا فيها المقطوعات القصيرة أو النتف بسبب نفورها وتكلف ما يأتي معها من أشعار، وقد

---

777) المعسول 9/ 264.
778) إبراهيم عبد الرحمان - من أصول الشعر العربي القديم، الأغراض والموسيقى، مجلة فصول المجلد 4 عدد 2 يناير فبراير مارس 1984، ص : 33.
779) محمد مفتاح ـ دينامية النص، ص : 63.
780) محمد زغلول سلام - تاريخ النقد العربي... 1/ 40.
781) انظر فهارس القوافي في المعسول وخلال جزولة والإلغيات... القصائد الخاصة بتلاميذ المدرسة والمنبثة فيها.
782) إبراهيم أنيس - موسيقى الشعر، ص : 275.

شعروا بهذا النقص واعترفوا بوقوفه حجر عثرة أمام نظمهم، وقد صرح بذلك علي بن عبد الله الإلغي، الذي قال مجيبا على قصيدة غينية بعثها إليه تلميذه الطاهر الإفراني : (الطويل)

وَلَوْ سَاعَدَتْنِي الْغَيْنُ فِي مَدْحِكُمْ كَمَا
تُسَاعِدُنِي أَوْصَافُكَ الْغُرُّ فِي النَّبْغِ

لَجِئْتُ بِمَا يُنْسِي الْقَلاَئِدَ وَبِمَا
تُسَرُّ بِهِ نَفْسُ الشَّجِيِّ مِنَ الْمَرْغِ(783)

وتتحدد مهارة الشاعر في التعامل مع القوافي، في قدرته على وضع القافية في مكانها المناسب دون تكلف، وهي القافية المتمكنة «التي يُبني البيت من أوله إلى آخره عليها، فإذا ختم البيت بها، نزلت في مكانها ثابتة فيه، متمكنة في محلها، قد رسخت في قرارها ودفعت إلى مركزها فهي لا تتزحزح منه»(784) أما إذا أخفقت في ذلك، صارت قافية قلقة بادية النشوز غير منقادة للبيت الذي ينتهى بها، وما أكثر هذا النوع عند شعراء الإلغية، خاصة عندما يتم المعنى دون تمام البيت، فيضطر الشاعر إلى البحث عن الفظة أو أكثر تغطي هذا النقص،(785) كما في بيت لأحمد بن محمد اليزيدي قال فيه (البسيط)

وَلَمْ أَزَلْ مُنْذُ نَأَى أَطْوِي الضُّلُوعَ عَلَى
دَاءٍ دَفِينٍ، وَأَنْوَاعٍ مِنَ الْعِلَلِ(786)

فقد انتهى المعنى عند ذكر الداء الدفين، وليس ما بعده سوى حشو أريد به إقامة الوزن والإتيان بالقافية، ومنه أيضا قول علي بن عبد الله الإلغي : (البسيط)

فَالْمَوْتُ كَأْسٌ بِكُلِّ الدَّهْرِ دَائِرَةٌ
تَسْقِي الْوَرَى، وَجَمِيعُ النَّاسِ قَدْ شَرِبُوا(787)

إذ تم المعنى عندما قال تسقي الورى وما بعده زيادة لا تضيف إلى المعنى شيئا وإنما أريد به الإتيان بالقافية، ومنه أيضا بيت للعتيق الإلغي سيق عجزه كله لهذا الغرض، قال : (مجزوء الكامل)

---

783) المعسول 7/ 109.
784) الصفدي ـ الغيث المسجم في شرح لامية العجم 1/ 13.
785) محمد العمري ـ تفاعل الصوت والدلالة في البنية الإيقاعية للشعر، مجلة دراسات عدد 4، ص:66.
786) المعسول 9/ 181.
787) المعسول 2/ 77.

أَكَـــــذَا يُجَـــازَى عَـــــبْـــــدُكُمْ

يَاسَــادَةً سَــاسُــوا الْعَــبِـيــدْ(788)

إلا أن هذا القصور في صياغة بعض القوافي لم يحل دوَن إجادة شعراء المدرسة في أشعارهم، وكون كثير من قوافيها متمكنة لا قلق فيها من حيث انتظامها وترددها النمطي الذي يجعلها منبها صوتيا يتفاعل مع النفس الإيقاعي للشعر.(789)

الثاني - الإيقاع الداخلي :

ثاني أطراف الإيقاع وهو «موسيقى خفية تنبع من اختيار الكلمات بما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات، ويتمثل اختيار الحروف في أن يكون تكرار حرف ما... في النسبة الغالبة من كلمات قصيدة ما مصدر موسيقى خاصة، تشيع جوا فنيا موحيا لهذه القصيدة».(790)

إن الإيقاع الداخلي يرتبط باللغة الشعرية وما في ألفاظها من جرس ورنين، وما يحدث بينها من انسجام واتساق يحقق لها جمالية نغمية منتظمة. وتتجلى مهارة الشاعر في قدرته على تأليف تسلسل لفظي موسيقي تتحد فيه الألفاظ بجرسها والأشكال بدلالاتها مكونة «تشكيلا صوتيا له أبعاد متميزة وملامح خاصة»(791) وقد استعان شعراؤنا لتحقيق هذا الغرض بعدة وسائل صوتية فنية نذكر منها :

أ - **التكرار** : أسلوب ترنمي يلجأ إليه الشعراء لخلق نغم موسيقي يضفي على أشعارهم جمالا وجلالا، والمطلع على أشعار تلاميذ الإلغية يلاحظ أن التكرار لحق - كما ذكرنا من قبل - الحروف والكلمات.

* **الحروف** : يوفر تكرار الحروف نغما خاصا للأشعار، كقول محمد الكثيري مكررا المد وحرف اللام والميم والعين : (الكامل)

ذَاتُ الْجَــمَــالِ مَعَ الْجَــلاَلِ مَعَ الْكَمَــا

لِ مَعَ الـدَّلاَلِ مَعَ الـسَّنَا الْبَــــدْرِي(792)

ولا يخفى ما في هذا التكرار منَ جرس وامتدَاد أعطى البيت إيقاعا انَسيابيا متصلا. أما قول علي بن عبد الله مكررا حرف الشين على الخصوص : (البسيط)

---

788) ديوان العتيق، ص : 82.

789) محمد ماكري ـ الشكل والخطاب، ص : 134.

790) محمد عماد فضلي ـ بين الأدب والموسيقى، مجلة فصول مجلد 5 عدد 2 ص : 112.

971) د عباس الجراري ـ فنية التعبير عند ابن زيدون، ص : 27 - 28.

792) المعسول 9/ 261.

جَــاءتْ تُبَــشِّــرُ أنْ جَـاء الْبَــشِـيــرُ فَــبُــشْــ

ــرَى نَفْسٍ طَاوِي الْحَشَا وَجْداً عَلَى لَهَبِ(793)

فقد منح بيته نغما رخوا مهموسا يمتد معَه النفَس امتدادا متوسطا في انسَجام مع دلالة الفرح والابتهاج السائدة في معناه.

وكثيرا ما يوافق تكرار حرف ما في قصيدة دلالتها العامة، كتكرار حرف العين عند الكثيري في رثاء والده، قال في المطلع : (البسيط)

رَعَــيْتَ أمْــرِي فَــمَنْ بَعْــدَكَ يَرْعَــاهُ

يَا مَنْ أضَـاعَ جَـمِـيلَ الـصَّـبْـرِ مَنْعَـاهُ(794)

وفي تكرار صوت العين انسجام مع جو الحزن والأسى الذي يلفَ البيت، إذ إن حرف العين «يتميز بمخرجه الحلقي المعبر عن المرارة وبما لجرسه ووقعه على الأذن من قرع خاص، قوي التمثيل لانفعال الروع والجزع والفزع والهلع، كبير الملاءمة لمشاعر التوجع والتفجع، له في الرثاء أثر كبير على خلق الجو الانفعالي الذي يبتغي الشاعر أن يهيئه».(795)

ومثل ما سبق يقال في حرف الحاء المكرر لدى الطاهر الإفراني في مطلع قصيدة رثى بها الشيخ علي الدرقاوي : (الطويل)

أمِنْ حَــادِثٍ بِكْرٍ جَــرَى مِنْهُ مَــا جَــرَى

حَرَى دَمْعُكَ الْقَانِي فَقَرَّحَ مَحْجَرَا(796)

وفي تكرار النون عند أحمد بن زكرياء السكال راثيا أحمَد بن علي الدرقاوي : (البسيط)

خَطْبٌ ألَمَّ فَــــأضْنَانِي وَأنْحَلَنِي

وَمُــرُّ بَيْنٍ تَغَــشَّــانِي فَــأذْهَلَنِي(797)

* **الكلمات** : ذكرنا من قبل(798) أهميةً تكرار الكلمَات في ترسيخَ الدلالات، وهو إلى جانب ذلك يوفر إيقاعا نغميا داخليا بإبراز رنة الوزن وتقوية جرس الألفاظ،(799) وبقدر ما يوفق الشاعر في توزيع الكلمات المكررة في البيت، بقدر ما يوفر لها انسجاما

793) المعسول 10/ 112.
794) كناش الكثيري، ص : 74.
795) فنية التعبير عند ابن زيدون، ص : 42.
796) المعسول 1/ 377.
797) الإلغيات 1/ 99.
798) انظر البنية اللغوية في المبحث الثاني من هذا الفصل.
799) المرشد إلى فهم أشعار العرب.. 2/ 520.

وقوة نغمية. والملاحظ أن انسجام تكرار الكلمات لا يتم إلا عندما ينظم الشاعر تحت ضغط نفسي، أي عندما يكون صادق العاطفة غير متكلف، ومن هذه الأشعار التي نقف فيها على هذا الانسجام، قول البوزكارني متشكيا من الدهر : (الكامل)

مَــالِي وَلِلأَيَّامِ مَـا اسْـتَـعْطَفْـتُـهَـا
إلاَّ قَـسَـتْ، مَـالِي وَلِلأَيَّامِ(800)

حَـتَّى مَـتَى عُـتْـبَى وَلاَ عُـتْـبَى لَهَـا
لَكِنْ تُـحَـاوِلُ جُـهْـدَهَا إيلاَمِي

وهناك نمط آخر تتوالى فيه لفظة واحدة عدة مرات للمبالغة في المعنى، والتلذذ بالجرس المتواصل للحروف والأصوات نفسها، ومن أمثلته لدى شعرائنا :

- أوِ التَّـقِي وَجْـه الأديـبِ ابْنِ الأد
يبَ ابْنَ الأَديبَ ابْنَ الأديبِ مُـحَـمَّـد(801)

- أنْـتَ الْـكَـرِيمُ ابْـنُ الْـكَـرِيمِ ابْـنُ الْـكَـرِيـ
ـمِ ابْنُ الْـكَـرِيمِ الأَلْـمَـعِي الأطْوَعُ(802)

- اَلْمُـهْـتَـدِي ابْنُ الْمُـهْـتَدِي ابْنُ الْمُـهْـتَـدِي ابْـ
ـنُ الْمُهْتَدِي ابْنُ الْمُـهْتَدِي ابْنُ الْمُهْتَدِي(803)

فتكرار الكلمات نفسها ينشىء إيقاعا نغميا متصلا يخرق الإيقاع المعتاد في الأبيات قبله محطما رتابتها ومجددا موسيقاها.

ب - **الجناس** : اعتبره البلاغيون القدماء ضربا من المحسنات اللفظية، وهو أدخل في باب البلاغة منه في الإيقاع، إلا أن له تأثيرا نغميا لا يجحد، بما يوفر من تقارب الأصوات بهدف «إحداث تأثير رمزي عن طريق الربط السببي بين المعنى والتعبير، حيث يصبح الصوت مثيرا للدلالة [فهو تلاعب محبب] بالعلاقة الصوتية بين الدّوال، حيث ترد دوال متشابهة لأداء مدلولات متغايرة».(804)

---

800) المعسول 10/ 106.
801) المعسول 9/ 241. والبيت لمحمد بن أحمد اليزيدي.
802) المعسول 1/ 321 والبيت لأحمد بن محمد اليزيدي.
803) المعسول 6/ 320 والبيت للهاشمي الفاسي الأقاوي.
804) صلاح فضل ـ بلاغة الخطاب وعلم النص، ص : 210 - 211.

ويرى الأستاذ عبد الله الطيب أن الجناس ضربان : ازدواجي ويخص التقارب الوزني بين الألفاظ، وسجعي وينظر إلى المماثلة الصوتية بينها.(805) وإذا نظرنا في إنتاجات شعرائنا وجدناهم استغلوا كلا النوعين.

فنقف على الجناس الازدواجي في أبيات الكثيري الغزلية : (الكامل)

نَكَّاثَةٌ، نَفَّاثَةٌ، هَارُوتُ مَعْ
مَارُوتَ تَحْتَ لِوَائِهَا السِّحْرِي

وَهْنَانَةٌ، فَيْنَانَةٌ، فَتَّانَةٌ
تَسْبِي الْخَلِيَّ بِخَدِّهَا الْخَمْرِي

مَنْ لِي بِهَا ذَهَبِيَّةٌ، فِضِّيَّةٌ
بَدَوِيَّةٌ حَضَرِيَّةُ الْمِصْرِ

مَنْ لِي بِهَا شَمْسِيَّةٌ، بَدْرِيَّةٌ
شَرْقِيَّةٌ غَرْبِيَّةُ الْقُطْرِ(806)

ففي البيتين الأول والثاني كلمات : نكّاثة، نفّاثة، فتّانَة، وكلها ألفَاظ على صيغة المبالغة «فعال». أما في الثالث والرابع فهناك ألفاظ على صيغة النسبة : ذهبيَّة، فضيّة، بدويّة، حضريّة، شمسيّة، بدريّة... وبين ألفاظ كل صيغة توازن من ناحية الصرف كما العروض، وهذا يسمى بالتوازن الكامل،(807) الذي يوفر إيقاعا وزنيا يشعر به المتلقي من خلال الحركات والسكنات اللّفظية، منسابا، فهناك تكرار خفي تجاوز الدلالات والأصوات إلى الأوزان الصرفية والعروضية وأحدث متعة جمالية تآلف فيها الصوتي والدلالي.(808)

أما الجناس السجعي فهو أبرز وأظهر، وما أكثره في أشعار تلاميذ الإلغية، خاصة وأن بعضهم جعل كل همه اقتناصه وحشره في الأشعار، فإذا نزل في مكان مناسب أغنى الإيقاع وأضفى عليه رونقا، كقول الطاهر بن علي الإلغي في مدح السلطان ابن يوسف : (الكامل)

أبْرَزْتُهَا مِنْ كَامِلٍ فِي كَامِلٍ
فَتَكَامَلَتْ بِكَمَالِهَا الأَوْزَانُ(809)

---

805) المرشد إلى فهم أشعار العرب... 2/ 571 - 572.
806) المعسول 9/ 261.
807) المرجع السابق، ص : 577.
808) تيسير شيخ الأرض ـ الشعر والجمال والواقع ـ مجلة الوحدة، عدد 82/ 83 ص : 145.
809) أوراق عبد الله بن الحسن الإلغي، قصيدة مرقونة.

والكثيري في رثاء والده : (البسيط)

لَقَــدْ جَــزِعْتُ وَهَذَا الْكَوْنُ أضْــحَى مَــعِي
فِـي جَــــزَعٍ تُزْعَـجُ الأحْـــــلاَمَ بَلْوَاهُ(810)

وعبد الرحمان البوزكارني : (الكامل)

إنْ رُمْتُ نَقْـــضـــــاً أبْرَمَتْ نَقْــــضِي وَإنْ
أبْرَمْتُ عَــاقَبَ نَقْــضُــــهَـــا إبْرَامِي(811)

ومثل هذا كثير في أشعارهم، والقصد منه جعل التجانس بين الأصوات وسيلة لإحداث المماثلة الصوتية.(812)

جـ - القوافي الداخلية : إمعانا في العناية بالإيقاع الداخلي للأشعار، سعى شعراؤنا إلى تقطيع أبياتهم فقرات نغمية متساوية، لكل منها قافيتها الخاصة، وتكرار تلك القافية يحدث كثافة إيقاعية صوتية لعناصر النص، مما ينتج متوالية موسيقية ذات رنين تضفي على الأبيات روعة وبهاء نجدهما في قول العتيق الإلغي :

إذَا أرَدْتَ الْهُــــدَى وَالْعِـــزَّ وَالرَّشَـــــدَا
فَـعُجْ إلَى مَنْ غَـدَا بِعِلْمِـهِ صَمَـدَا(813)

وعند عبد الله بن محمد الإلغي : (الكامل)

بَحْـــرُ النَّدَى، وِرْدُ الْهُـــدَى، غَـــيْظُ الْعِـــدَا
نَجْمُ الْهُـــدَى لِلسَّـــالِكِ الْمُــتَـحَــرِّجِ
بَـدْرُ الدُّجَـى، عَلَـمُ الْـحِجَى، غَـــوْثُ الْـ
ـرَّجَاءِ، حِصْنُ النَّجَا مِنْ مَارِدٍ مُتَدَجِّجِ(814)

والطاهر بن علي الالغي : (الطويل)

حَـــبَـــاءٌ لِمُـــعْـــتَفٍ، نَكَالٌ لُمُعْـــتَـــدِ
ضِـيَـاءٌ لِمُـسْـتَـهْـدٍ، إمَـامٌ لِمُـقْـتَـدِ(815)

---

810) كناش الكثيري، ص : 74.
811) المعسول 10/ 106.
812) جون كوهن ـ بنية اللغة الشعرية، ص : 82.
813) ديوان العتيق، صفحة غير مرقمة.
814) أحمد أبناو – سر الصباح، ص : 107.
815) المعسول 2/ 208.

فهذه الأبيات «متساوية المقاطع متماثلة القوافي، منسجمة الأسجاع، منتظمة النغم، حسنة الايقاع ... تساوت حركتها وسكناتها، واتحدت فواصلها فشكلت سجعات لطيفة».(816) تعلق بالأسماع وتستلذها الأذواق مع ما فيها من تنبيه لجانب الدلالة وتعميق له في نفس السامع.

هكذا نرى أن تعامل شعرائنا مع عناصر الموسيقى الداخلية تجلى في «بث مجموعة من الأصوات المكررة في نسيج الخطاب لإثارة طاقتها الإيحائية الكامنة وتفجير إمكاناتها الوافرة».(817)

د - **الأخطاء العروضية** : رغم اهتمام تلاميذ الإلغية بالعروض خاصة الوزن والقافية، دراسة وممارسة، إلا أنهم كانوا يقعون في أخطاء تظهر في ثنايا أشعارهم فتشينها، وتقع منهم هذه الهفوات إما سهوا دون شعور كما عند فحولهم، أو عن جهل بقواعد العروض كما عند مبتدئيهم، أو عمدا تظرّفا وممازحة.

* **أخطاء السهو** : مثل زيادة ساكن في عروض البسيط والأصل فيها الخبن «فعلن» ومثال ذلك قول علي بن عبد الله الالغي :

بَعَثْتَ لِي مِنْ بَنَاتِ اَلْفِكْرِ مَا لَمْ أَكُنْ
أَهْلاً لَهُنَّ وَمَا الْعِيَانُ كَالْخَبَرِ(818)

0//0/ 0//0/0/ 0//0/ 0//0//

متفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

وقول أبي القاسم السليماني :

لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ خِلٍّ أَتَى زَائِراً
مِنْ بَعْدِ طُولٍ، خَلِيلاً كَانَ يَهْوَاهُ(819)

0//0/ 0//0/0/ 0/// 0//0/0/

مستفعلن فعلن مستفعلن فاعلن

وقول الطاهر الإلغي :

---

816) اليزيد الراضي - شعر داود الرسموكي، ص : 195.
817) صلاح فضل - بلاغة الخطاب وعلم النص، ص : 211.
818) المعسول 1/ 384.
819) الإلغيات 2 / 152 .

وَإِنَّـهُ حَـكَـمٌ عَـــــــــدْلٌ رَضِـــــــينَـا بـه

فَـــلاَ يُعَـــقَّبُ مَـــا كَـــانَ أَرْضَـــاهُ(820)

// 0 // 0 / 0 /// 0 / 0 / 0 // 0 / 0 // 0

مـتـفـعلـن فـعلـن مـسـتـفـعلـن فـاعلـن

ويظهر أن هذا القصور في احترام الأوزان العروضية ناجم عن تأثر التجربة الإبداعية للشاعر بانفعالات النفس في انطلاقها وتلقائيتها، مما يجعل إيقاع التجربة يتجاوز إيقاع الوزن ويصبح مرتبطا بالدفقة الشعورية للشاعر.(821)

*أخطاء القصور : ونجدها لدى المبتدئين الذين لم يتمرسوا بعد في ميدان الشعر كالحسن بن علي الالغي، الذي نظم قطعة على وزن البسيط ومطلعها :

بُشْـــرَى فَـــورُوْقُ الْحِـــمَى غَنَّتْ عَلَى فَنَنِ

مُـعْـرِبَةً بِوُصُـولِ السَّـيِّـدِ الْمَـدَنِي(822)

غير أنه خرج عنه إلى وزن المحدث في بعض الأبيات وذلك عند قوله :

هُـمْ بُدُورُ الدُّجَى، هُـمْ غُـــيُـــوثُ الرَّجَـــا

هُمْ حُـــصُـــونُ النَّجَـــا فِي السِّـــرِّ وَالْعَلَنِ

هُمْ سُـيُـوفُ الْعِـدَا، هُـمْ شُـمُـوسُ الْهُـدَى

هُمْ بُحُـــورُ النَّدَى فَـــخْـــرٌ لِذَا الزَّمَنِ(823)

* أخطاء متعمدة : يتعمد بعض الأدباء الإتيان بأخطاء عروضية تظرفا ومزاحا، من ذلك تعمد الطاهر بن علي الإلغي حشر بعض عيوب القافية في قصيدة ردّ بها على الأديب محمد سالم الصحراوي الذي كان مدحه بقطعة، فقال موردا الإيطاء والإقواء : (الكامل)

أَوْ كَـانَ مَـدْحـاً خَـالِصـاً فَـجَـوَابُهُ

مَـاقَـالَ سَـيِّـدُنَا النَّبِيُّ مُـحَـمَّـدُ

أَحْـــثُـــوا التُّـــرَابَ بِأَوْجُـــهِ الْمُدَّاحِ ذَا

كَ مِـــثْلُكَ يَافَـــصِـيحُ مُـحَـمَّـدُ...

---

820) الإلغيات 2 / 152 .

821) أحمد المعداوي ـ البنية الإيقاعية الجديدة للشعر العربي، مجلة الوحدة، عدد 82/ 83، ص : 53 .

822) المصدر السابق.

823) المعسول 7/ 286 والمقصود المدني بن الطاهر الإفراني.

لاَ تَأْخُذَنَّ الشِّعْرَ في إيطَائه
فَنَظِيرُ شَعْرِكَ في الْوَرَى لاَ يُوجَدُ
أنَّى يُرَى أبْنَاءُ مَمَّسَ في الْقَوَا
في مِثْلَ أبْنَاء لعَبْلَةَ مُجَّد(824)

فالإيطاء في تكرار كلمة محمد مرتين، أما الإقواء ففي اختلاف حركة الروي في البيت الأخير عن بقية الأبيات. وقد علق المختار السوسي على ذلك بقوله: «انتهت المداعبة في إقوائه التي فاكه به الإلغيان،(825) ذاك الأديب الشنكيطي اللطيف الفكه. فإن كانت الهلهلة في هذا الشعر زيادة على الإيطاء والإقواء قذاة في عين القارىء فذلك كله مقصود عمدا، وإلا فما يقعقع لأديب إلغي في ذلك بشنئان».(826)

824) نسخة القصيدة المخطوطة من أوراق عبد الله بن الحسن الصالحي، وقد عمد المختار السوسي إلى إصلاح هذه الأخطاء، انظر المصدر السابق.
825) مترعات الكؤوس، ص: 352 ـ 353.
826) يقصد الطاهر الإلغي وأديبا إلغيا آخر شاركه ولم يذكر المختار السوسي اسمه.

المبحث الرابع - البنية التصويرية :

يعتبر التصوير أحد دعائم الإبداع الشعري، إذ هو «الوسيط الأساسي الذي يستكشف به الشاعر تجربته، ويتفهمها كي يمنحها المعنى والنظام... فالشاعر الأصيل يتوسل بالصورة ليعبر بها عن حالات لا يمكن له أن يتفهمها ويجسدها، بدون الصورة... [إنها] وسيلة حتمية لإدراك نوع متميز من الحقائق، تعجز اللغة الادبية عن إدراكه، أو توصيله...»،(827) والخيال هو العنصر الفعال والخلاق في هذه العملية إذ بانطلاقه يستغل الشاعر إمكاناته في الملاحظة والاستذكار للنفاذ إلى عمق الواقع المادي وفهمه وإدراك تفاصيله الدقيقة وأبعاده الجوهرية.(828) ولعل الأساس المحدد لنوعية استعمال الصورة الفنية بالنسبة لأي شاعر هو موقفه من التراث الشعري وطريقة استفادته منه، فإما أن تبقى إبداعاته ظلا له وتجليا لما فيه من أساليب الإدراك وطرق التصوير، وإما أن يتجه إلى الكشف عن التقاليد الفنية الجوهرية فيه لتفكيكها وتعديلها للوفاء بالحاجات الروحية والجمالية الناشئة.(829)

أ - الاستعارة والتشبيه :

وإذا وقفنا على طريقة تعامل شعراء الإلغية مع الصورة الفنية بصفة عامة، نجدهم احترموا موقف القدماء منها والتزموا ما حدد هؤلاء من أساليب وطرق، وكان جل اعتمادهم، مثل عامة شعراء سوس، على التشبيه والاستعارة باعتبارهما أساس الصورة الشعرية.(830) وقد وفقوا أحيانا في بناء صورهم إلا أنهم أخفقوا أحيانا أخرى خاصة عندما يتكلفون النظم مجاراة لتقاليدهم الإخوانية، فأضحت صورهم سمجة لا روح فيها كما في أبيات محمد بن علي الإلغي يرثي شيخه الطاهر الإفراني : (الطويل)

دَفَاتِرُهُ مِثْلَ الْمَدَارِس أوْحَشَتْ
كَجِذْعِ النَّبِي عَنْهُ تَعَوَّضَ مِنْبَرَا

تَرَى زُمَراً مَحْشُورَةً لِصَلاَتِه
أَقَامَتْ مُصَلًّى ذَكَّرَ النَّاسَ مَحْشَرَا

تَرَى زَائِرِيهِ الْيَوْمَ مِثْلَ حَيَاتِه
كَأَنْ لَمْ يَمُتْ وَإِنْ تَغَيَّبَ فِي الثَّرَى(831)

---

827) جابر عصفور ـ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ص : 383.
828) بنية التعبير عند ابن زيدون، ص : 60.
829) عبد المنعم تليمة ـ مدخل إلى علم الجمال الأدبي، ص : 77.
830) انظر اليزيد الراضي ـ شعر داود الرسموكي، ص : 183 والحسين أفا ـ شعر الحسن البونعماني، ص: 318.
831) المعسول 7/ 229.

فقد أخفق الشاعر في تصوير أثر وفاة شيخه في نفسه، إذ نجده استعاض عنه بوصف عناصر خارجية عن ذاته وصفا ليس فيه أثر للإدراك الفني للواقع، إنها «مجموعة من العناصر الخارجية التي يؤتى بها... لتغطية العجز في المشاعر والملكة الشعرية، وإخفاء القصور في استكناه أعماق النفس الإنسانية»(832) نتيجة للإخفاق في المواءمة بين الواقع المحسوس وأعماق الشعور النفسي.(833)

وإضافة إلى ذلك تغلب الوصفية على صور تلاميذ الإلغية والتي «يراد بها مطلق التجسيم والتكبير بصرف النظر عن ارتباطها بالوجدان، أو رمزها لحالات نفسية خاصة، ومجال عمل هذه الصورة في المحسوسات، حيث يلحق الأقل بالأكثر والأخفى بالأظهر... وتعتمد... على إدراك التماثل الخارجي بين الأشياء...».(834) ويدخل في هذا الإطار إلحاق المحسوس بالحسوس أو المعقول بالمحسوس، ففي التشبيه نقف على قول عبد الله بن محمد الإلغي مهنئا بولد : (الطويل)

وَمَا هُوَ إلاَّ الْبَدْرُ أَشْرَقَ نُورُهُ
فَأَشْرقَت الأَنْوَارُ أُفْقَ الْبَصَائِرِ

أَوِ السَّيْفُ يَفْرِي فِي غَدٍ كُلَّ شُبْهَةٍ
بعرْفَانه فَرْيَ الطَّلَى وَالأَبَاهِرِ

أَوِ الْوَرْدُ فِي رَوْضٍ نَضِيرٍ تَفَتَّقَتْ
كَمَائِمُهُ غِبَّ الْغَوَادِي الْمَوَاطِرِ

أَوِ النَّجْمُ يَهْدِي فِي مَهَامِهِ ضِلَّةٍ
لوَجْهِ الْمَعَالِيَ كُلَّ سَارٍ وَحَائِرِ

بَلِ الْبَحْرُ بَحْرُ الْعِلْمِ يَقْذِفُ مَوْجُهُ
بدُرًا نَفِيسٍ قَيِّمٍ وَجَوَاهِرِ(835)

فالشاعر شبّه الولد بالبدر والسيفَ والوردَ والنجمَ والبحرَ وهو إلحاق محسوس بمحسوس، ولتأكيد أوصافه عمد إلى حذف أداة التشبيه، فصارت تشبيهاته مؤكدة.

كما نقف على قول الطاهر الإفراني مشبها قصيدة شعر بفتاة حسناء : (الخفيف)

---

832) د. أحمد الطريسي ـ الرؤية والفن...، ص : 159.
833) فايز الداية ـ جماليات الأسلوب، ص : 72.
834) عبد الفتاح محمد عثمان ـ الصورة الفنية في شعر شوقي الغنائي، مجلة فصول المجلد 3 عدد 1، دجنبر 1982، ص : 150.
835) المعسول 2/ 185.

زَانَهَـــا مِنْ حُلِيٍّ مَـــدْحكَ وَشْيٌ

صَـــانَ مَنْ حُـــسْنه لَهَـــا كُلَّ ذَامٍّ

فَــتَــبَــدَّتْ كَــأَنَّهَــا الْخُــودُ حُــسْناً

قُـلِّـدَتْ بِـنَـفِـــــيسِ دُرِّ الْكَـلاَمِ

يَحْـسبُ الْعَـاشِقُ الْمُـتَـيَّمُ مَـهْـمَـا

تُلِيَتْ، لَفْظَهَـا عَـتِـيقَ الْمُـدَامِ(836)

وقول علي بن عبد الله الإلغي مَخاطبا صديقه : الطَويل)

طَلَعْتَ طُلُوعَ الْبَـــدْرِ فِي حَنْدَسِ الدُّجَـــا

ألاَ فَـاعْـجَـبُـوا لِلْبَـدْرِ في الْغَـرْبِ قَـدْ طَلَعْ

نَزَلْتَ نُزُولَ الْغَـيْثِ في وَسْطِ مُــجْـدِب

فَـأَزْهَرَ رَوْضُ الْعِلْمِ، وَالْفَـضْلُ قَـدْ نَبَعْ(837)

فهذه التشبيهات تنتقل بين المعقول والمحسوس كما عند الإفراني لما شبّه القصيدة بالغادة الحسناء، وألفاظها بالخمر المعتقة. وبين المحسوس والمحسوس كما في المثال الآخر. فشعراؤنا يكتفون بالنظرة المجملة ولا يجشّمون أنسهم عناء الملاحظة والتفكر بهدف النفاذ إلى حقيقة الأشياء قانعين بتقديم أفكار سريعة وسطحية عنها.(838)

ونجد مثل هذا الفهم في التعامل مع الاستعارة، إذ جعلوها وسيلة لتشخيص المجردات وإلحاقها بعالم المحسوسات كقول أحمد بن محمد اليزيدي مشبها قصيدة بغادة حسناء، مستعيرا صفاتها معبرا عن أهدائها بالتزويج في إطار استعاري : (الكامل)

أَوْحَتْ إِلَيَّ بِطَرْفِـــهَـــا النَّعَـــاس

وَزَهَتْ وَمَـــالَتْ تَحْتَ لَيْلٍ عَـــاسِ

قَـــادَتْ حُلُومَ النَّاسكِينَ إِلَى الْهَـــوَى

مُـسْتَـهْـتَـرِينَ، بِقَـدِّهَا الْمَيَّـاسِ...

أَتَرُومُ وَيْحَكَ نَظْرَةً تُذْكِي الْجَـــوَى

وَتُعَـــمِّـــدُ الْقَلْبَ الْجَلِيـــدَ الرَّاسِي ؟

---

836) المعسول 7/ 128.

837) المعسول 3/ 363.

838) جابر عصفور ـ الصورة الفنية.. ص : 188.

وَتُثِـيـرُ أشْـجَـاناً وَتُذْرِي عَـبْـرَةً
وَتَؤُجُّ بِالنِّيـرَانِ فِي الأنْفَـاسِ
خَلِّ الْهَـوَى، وَخَـلاَكَ ذَمٌّ، فَـالْهَـوَى
مُـسْتَـبْـهَمُ الأرْجَـا، أشَمُّ رَوَاسِي...
لَا تَرْتَضِي كُفْءاً سِـوَى الْقَـبَّـاجِ مَنْ
يُنْمَى، إذَا انْتَسَبُوا، إلَى الْعَبَّاسِ(839)

فالشاعر نقل القصيدة الشعرية من عالم المجردات إلى عالم المحسوسات مستغلا «الاستبدال والانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة، فالمعنى لا يقدم فيها مباشرة، بل يقارن أو يستبدل بغيره على أساس من التشابه».(840) فعوض أن يعمد إلى وصف أجزاء القصيدة وتشبيهها بأعضاء الحسناء، انتقل بالدلالات من مجال الغزل إلى مجال التقريظ، مشكلا بذلك إيحاءات وتلميحات تغني عن الوصف المسهب. ونجد هذا التشخيص عند محمد بن الحاج الإفراني الذي صور العلا فرسا جموحا لا يمتطيها إلا الأبطال، والحمد صرحا لا يبني معالمه وأركانه إلا عزيز، فقال : (البسيط)

هِيَّ الْمَكَارِمُ لاَ تَعْنُو لِمُـخْـتَـالِ
وَلاَ الْمَـفَـاخِـرُ تَعْـزُوهَا لِمُـخْـتَـالِ
وَلاَ الْعُـلاَ يَمْـتَطِي صَـهْـوَتَهَـا بَرِمٌ
كَـلاَّ وَلاَ سَـاوَمَـتْـهَـا كَفُّ بَطَّالِ
لاَ يَنْبَـغِي الْحَـمْـدُ أنْ تُبْنَى مَـعَـالِمُـهُ
وَأنْ يُجَـدِّدَ مِنْ أرْكَـانِهِ الْبَـالِي
إلاَّ لِمَنْ يَحْـتَـمِي الْعِـزُّ الرَّفِـيعُ بِنَا
ءِهُ الْمَنِيعَ عَلَى مَـمَـرِّ أحْـوَالِ(841)

والطاهر الإفراني مشخصا الدهر مذنبا يلتمس العفو من ممدوحه والملك عاصيا يرجو الثواب : (الكامل)

وَاغْـفِـرْ لِدَهْرِكَ مَـا جَنَى وَاقْـبَلْ لَهُ
مَـا كَـانَ أبْدَاهُ مِنَ الأعْـذَارِ

839) المعسول 9/ 193 ـ 194.
840) المعسول 3 / 201.
841) المعسول 13/ ,400

فَــالْـمُلْكُ جَــاءكَ تَائِبــاً وَلَئِنْ عَـــصَى

فَـإِلَيْكَ قَـدْ أَلْقَى عَـصَى التِّـسْيَـار(842)

فالاستعارة إلى جانب التشبيه وسيلة لبناء صورة شعرية لا تكاد تتجاوز الجانب المرئي المادي القائم «على النظرة البصرية المباشرة للأشياء الموجودة في الخارج أو المسترجعة، ولكن في حدود الاسترجاع».(843) إذ نرى غالب صور تلاميذ الإلغية تنتقل بين المعقول والمحسوس، أو المحسوس والمحسو س، دون الاقتراب من مجال التجريد بنقل المعقول إلى المعقول أو المحسوس إلى المعقول. ولا شك أن هذه مرتبة لا تتيسر إلا للأدباء المنطلقين في سماوات الإبداع،(844) وإن كنّا نجد لدى بعض أدبائنا المتأثرين بالأدب العصري صورا منه ممثلة في النوع التشخيصي، وهي صور «يستخدمها الشعراء في تشخيص مظاهر الطبيعة الصامتة والمتحركة بحيث تضحى الطبيعة شخوصا عاقلة تتفاعل وتتجاوب».(845) ومنهم مَحمد الكثيري الذي قال متأملا مظهرا من مظاهر الطبيعة : (الكامل)

عَــجَــبــاً لِغُــصْنٍ قَــدْ تَمَــايَلَ هِزَّةً

فِي رَوْضَــــةٍ تَذَرُ النَّســـيمَ عَلِيـــلاَ

يَاغُـــصْنُ مَـــالَكَ لاَ تَمَلُّ تَمَــايُلاً

مَــا كَــانَ ضَــرَّكَ لَوْ سكَنْتَ قَلِيـــلاَ

أَسُــلاَفَــةٌ دَبَّتْ بِجِــسْـمِكَ أَمْ سَــبَــا

مِنْكَ النُّهَى زَهْرُ الرِّيَاضِ بَلِيـــــلاَ ؟

أَمْ قَــدْ عَـشِــقَتْ، وَلاَ أَخَــالُكَ خَــالِيــاً

وَأَظُنُّ قَـــدَّكَ بِالْغَـــرَامِ هَزِيلاَ(846)

فقد خلع الشاعر مشاعره على الطبيعة، وجعل الغصن عاشقا متيما هزل جسده من عذابات الغرام، أو ثملا سكر من الخمر لما دبت في أوصاله فاضطربت لذلك حركته. هكذا صارت مظاهر الطبيعة كائنا نابضا بالحياة يتحرك ويشعر،(847) وبهذا ارتقى مَحمد

---

842) المعسول 4/ 190.

843) فنية التعبير عند ابن زيدون، ص : 61.

844) انظر عبد الفتاح محمد عثمان – الصورة الفنية في شعر شوقي الغنائي، مجلة فصول... ص : 147.

845) المرجع نفسه، ص : 146.

846) المعسول 9/ 265.

847) فايز الداية ـ جماليات الأسلوب، ص : 127.

الكثيري بصوره هذه إلى مرتبة سامية خرجت عن المألوف لدى زملائه. ويظهر لي أن شعراءنا لم يكونوا عاجزين عن الوصول إلى هذا المستوى من التجديد، وإنما كانوا يستهجنونه ويستثقلونه إن ظهر في أشعارهم،(848) انسجاما مع نظرتهم إلى الشعر القديم باعتباره نموذجا ساميا، مجاراته وحسن تقليده أقصى ما يتمنون، ونذكر بهذا الصدد بيتا للطاهر الإفراني في موازنته لبانت سعاد قال فيه : (البسيط)

وَازَتْ قَصِيدَةَ كَعْبٍ فِي الْعَرُوضِ وَلَـ
ـكِنْ هَلْ يُقَابِلُ شَمْسَ الصَّحْوِ قِنْدِيلُ(849)

فالتراث الشعري العربي القديم شمس ساطعة وليس إبداع شعرائنا بجانبه إلا قنديلا ضعيفا.

ب – البديع :

وإلى جانب الاعتماد على التشبيه والاستعارة وغيرها من الوسائل نجد تلاميذ الإلغية مهتمين بالجانب الجمالي البديعي لأشعارهم، مستعملين مجموعة من المحسنات بطرق متفاوتة، فإما أن تكون من صميم العمل الشعري، منسجمة مع نسيجه العام لا يمكن الاستغناء عنها،(850) وإما أن «تأتي بشكل مضاف، وذلك يعني التكلف الذي يفقدها دورها وفاعليتها وربما جعلها مقبحات».(851) وما أكثر النوع الأخير في أشعار أدبائنا، ولنستعرض بدءا النوع الأول الذي انسجمت فيه عناصر البديع مع النصوص الشعرية :

*__تجاهل العارف__ : «وهو أن يسأل المتكلم عن شيء يعرفه سؤال من لا يعرفه ليوهم أن شدة الشبه الواقع بين المتناسبين أحدثت عنده التباس المشبه به بالمشبه، وفائدته المبالغة في المعنى».(852) ويكثر استعماله عند تقريظ الأشعار خاصة، كقول علي بن عبد الله الالغي مخاطبا تلميذه الإفراني (الطويل)

وِصَالُكَ هَذَا أَمْ بَدَا صُبْحُ إِسْفَارِ
وَوَجْهُكَ أَمْ شَمْسٌ دَهَتْ نُورَ أَبْصَارِ
وَفَضْلُكَ فَاضَ فِي جَوَانِبِ أَقْطَارِي
أَمِ السُّحْبُ بَعْدَ خَلْفِهَا ذَاتُ أَمْطَارِ

848) انظر الرسالتان البونعمانية والشوقية، ص : 154.
849) المعسول 7/ 196.
850) محمد الولي ـ الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ص : 288.
851) قصي سالم علوان ـ المحسنات البديعية، مجلة الفكر العربي العدد 46 يونيو 1987، ص : 43.
852) عبد الغني النابلسي ـ نفحات الأزهار على نسمات الأسحار، ص : 43.

وَعُـرْفُكَ هَذَا أمْ صَبَـا قَـدْ تَصَافَـحَتْ
بأَنْدَى رَجـاً وَهْناً مَـفَـارِقَ أزْهَارِ
وَخُلْقُكَ هَـذَا أمْ خَلُوقٌ تَعَطَّرَتْ
بأَرْوَاحِـه لَبَّـاتُ صَقْـعِي وأَقْطَارِي
ونَظْمُ لَئَالِ في نُحُـورِ خَرَائد
أرَى أمْ نظَاماً فَاقَ رُتْبَةَ أشْعَارِي(853)
وعلي بن صالح الأوفقيري : (الكامل)
أمِنَ الْحِـمَى يَسْرِي نَسِيمُ شَمَال
أمْ لاَحَ مِنْ نُعْمَانَ بَرْقُ وِصَال
أمْ هَذِه وَرْقَاءُ فِي نَغَمَاتِهَا
تَشْدُو عَلَى الأفْنَانِ في الآصَال(854)
التقسيم : وهو «ذكر أحوال الشيء مضافا كل من تلك الأحوال إلى ما يليق به.»(855) ومنه قول الطاهر الإفراني في مدح الشيخ الهيبة : (الطويل)
هُمُ الْعَرَبُ الغُرُّ الْمَيَامِينُ إنْ دُعُوا
أجَابُوا، وَإنْ هُمُو بِأمْرٍ تَحَقَّقُوا
وَإنْ عَاهَدُوا وَفُوا وَإنْ قَدَرُواْ عَفَوْا
وَإنْ مَلَكُوا عَفُوا، وَمَنُّوا وَأرْفَقُوا(856)
ومحمد بن الحاج أحمد اليزيدي : (البسيط)
قَـوْمٌ إذَا وَعَدُوا وَفَوْاْ أوْ قَدَرُوا
عَفَوْا، وَإنْ سُئِلُوا جَادُوا وَإنْ تَربُوا(857)
* **التوشيع** : « وهو أن يأتي المتكلم باسم مثنى في حشو العجز، ثم يأتي بعده باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى يكون الآخر منهما قافية بيته ... كأنهما تفسير له».(858) ومثاله قول الطاهر الافراني :

853) المعسول 7/ 263.
854) المعسول 2/ 71.
855) النابلسي ـ نفحات الأزهار، ص : 210 وانظر السيوطي ـ شرح عقود الجمان، ص : 119.
856) المعسول 4/ 110.
857) المعسول 9/ 242.
858) نفحات الأزهار، ص : 143.

يَا أَيُّهَــــا الْمُـــتْـــحَفُ مِنْ جَـــهْلِه

بالانْتَنَيْنِ الْفُـــومِ وَالْحُـــرُفِ

فَـــمَـــا تُرَى تَنْفَكُّ فِي حَـــالَةِ

عَنْ صِـفَـتَـيْنِ النَّذْلِ وَالْجِلْفِ(859)

وعند علي بن عبد الله الالغي : (البسيط)

فِي طَيِّـهَـا كُلُّ مَـعْنًى كَـادَ يَشْـرَبُهُ

بِحُسْنِه الْوَاعِيَّانِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ(860)

* **التعـقيب** : وهو إيراد الأوصاف يأخذ بعضها بأذيال بعض،(861) ومنهـا قـول الطاهر الإفراني مادحا السلطان ابن يوسف : (الطويل)

جَـلاَلَةُ إِسْـمَاعِـيلَ فِي رُشْـدِ هَاشِم

وَحِلْمُ سُلَيْـمَــانَ بِعَـدْلٍ يُصَـرَّفُ

ذَكَــاءٌ وَإِقْــدَامٌ وَمَـجْـدٌ وَعِـزَّةٌ

وَهَيْـبَـةُ إِجْـلاَلٍ رَسَتْ، وَتَعَطُّفُ(862)

والعتيق الإلغي في رثاء شيخه المدني بن علي : (الكامل)

ذَهَبَ الإِمَـــامُ اللَّوْذَعِـيُّ الأَلْمَــعِي

الأَرْيَحِي اللَّدُنِي الْهُـمَـامُ الأَوْرَعُ...

قُطْبُ النَّدَى وَالْمُنْتَـدَى، شَـمْسُ الْهُـدَى

هَادِي الْوَرَى لِذَوِي الضَّـلاَلَةِ يَقْـمَعُ(863)

والقصد من هذه البديعيات تعميق المعاني والميل إلى الإثارة والابهار، وغالبا ما يتم عبر تحقيق تراكب الصور الدلالية والصوتية بتقابل معاني الألفاظ وتوازنها.(864)

أما التكلف واقتناص الزخارف وتصيدها فما أكثره عند شعرائنا، خاصة عند تكلف النظم وتحول الإبداع إلى فعل عقلي محض، يتم خلاله رص الألفاظ بحثا عن توافق بلاغي

---

859) المعسول 9/ 242 .
860) المعسول 1/ 362.
861) العمدة 2/ 25.
862) المعسول 7/ 169.
863) ديوان العتيق، ص : 43.
864) محمد العمري ـ إتجاهات التوازن الصوتي في الشعر، ص : 53.

لا يتم إلا في غياب التأثير الدلالي،(865) فتصبح الأدوات البديعية ناشزة لا تضيف إلى النص الشعري أي شيء كما عند البورزكارني متصيدا الجناس : (الكامل)

سُـبْـحَـانَ مَنْ أَوْلاَهُ مَـا أَوْلاَهُ، مَـا
أَوْلاَهُ أَنْ يُثْنِي عَلَى الإِنْعَـامِ(866)

وعند الكثيري أيضا : (الكامل)

بِتَنَاسُقٍ وتَسَـابُقٍ وتَرَافُقٍ
وتَدَفُّقٍ فِي الطَّبْعِ كَالْبَحْـرِ(867)

والهاشمي الأقاوي في التعقيب : (الطويل)

عَلِيمٌ كَـرِيمٌ لاَ يَمَلُّ جَلِيسُـهُ
إِذَا جِئْتَـهُ يُغْنِيكَ بِالْعِلْمِ وَالْقِـرَى
تَرَى حَـاتِمًا مِنْهُ عَلَى خُلُقٍ أَحْنَفُ
وَعِلْمَ الْغَزَالِي فِي لِسَانِ الْقَبَعْثَرَى(868)

من خلال كل ما مر، نخلص إلى أن ملكة التصوير عند شعرائنا تتفاوت قوة وضعفا، كما أنها بقيت أسيرة النموذج القديم، محصورة في تجسيم المعنوي وتقديم الحسي مما يدل على ضيق مجال الخيال لديهم. فالتصوير لا ينقل الصور من الواقع المحسوس إلى النص الشعري بالاعتماد على دقة الملاحظة وثقوب الذهن بل بالاتكاء على الذاكرة لاستحضار نماذج تراثية جاهزة تتم صياغتها جديدة،(869) لهذا ترسخت القطيعة بين الشعراء وبيئتهم المحلية الحافلة بما يغني المجال التصويري الشعري.(870)

---

865) صلاح فضل ـ بلاغة الخطاب وعلم النص ص : 162.
866) المعسول 10/ 107.
867) المعسول 9/ 262
868) المعسول 1/ 382.
869) د. الطريسي أحمد أعراب ـ الرؤية والفن... ص : 165.
870) انظر عبد الله درقاوي ـ شعر الطاهر الإفراني 2/ 293 .

الباب الثالث
الحركة الأدبية بالمدرسة الإلغية

الفصل الثالث
الإشعاع الأدبي للمدرسة الإلغية

تمهيد :

المبحث الأول : إشعاع المدرسة في سوس.

أ - التباري في المواسم السنوية.

ب - فروع الإلغية.

ج - المراسلات الأدبية

د - اتصال أدباء المدرسة بالأدباء السوسيين.

المبحث الثاني : إشعاع المدرسة على الصحراء المغربية.

أ - زيارة الأدباء الصحراويين لإلغ.

ب - مشاركة تلاميذ الإلغية في الحركة الأدبية حول الشيخ أحمد الهيبة.

المبحث الثالث : إشعاع الإلغية على الحواضر المغربية.

أ - زيارة أدباء الإلغية للحواضر المغربية.

ب - زيارة بعض أدباء الحواضر لسوس.

تمهيد :

أسست المدرسة الإلغية من أول يوم على الاهتمام بالأدب وتشجيع معاطاته، وجعلت لذلك مناسبات عدة يلتقي فيها التلاميذ والأساتذة بالزائرين، فتروج الأشعار والمنثورات وتتداول الرسائل والمقطعات حتى أن من نافلة القول الإشارة إلى أن المدرسة تعلم الأدب قبل أن تعلم العلم،(871) وأن تلاميذها على الأدب مجتمعون شنشنتهم كتبه فيها يتسامرون وعليها يتكلمون،(872) في وقت كان الاشتغال بالأدب فيه يعتبر صنعة البطّالين والخاملين.(873)

ولم يكتف أساتذة المدرسة وتلاميذها بتداول الأدبيات فيما بينهم وزائريهم من الأدباء بل جعلوها لهم شعارا يحملونه أينما حلوا وارتحلوا. إليه يدعون وبه يبشرون، فانتشرت بفضلهم للأدب أسواقه؛ ونفقت بضائعه، سواء في سوس حيث استقروا في المدارس والمساجد، أو في الصحراء، لـمَّا اتصلوا بأهلها قبل ثورة الشيخ الهيبة وإبانها، وأخيرا الحواضر المغربية الكبرى التي ارتحلوا إليها، إما للزيارة أو الإقامة النهائية أو المؤقتة بها، فوجدوا في الاتصال بمحبي الآداب من أبنائها، فرصة لإظهار ما عندهم في هذا الميدان، ومن ثم كانت هذه المناطق الثلاث مواقع إشعاع للمدرسة. بفضل جهود تلاميذها ثم تلاميذهم، الذين أعادوا للأدب مكانته في المجتمع، حتى صار يتطفل على ميدانه كل من هب ودب، من الذين قال عنهم صاحب المعسول أنهم : «... قلما يعتنون بغير العلم والصلاح والاستقامة، وإيثار الاستعداد للدار الآخرة، وكأنهم كانوا يرون في الاشتغال بالأدب، بمعناه المتعارف، ضربا من البطالة، وتضييعا للوقت فيهجرونه، حتى إذا احتاجوا إليه للتعبير عن خوالج أنفسهم صاروا يجمعون كلمات فيسمونها شعرا. ومن لا يمارس الفن ويأخذه عن أربابه فأنى يواتيه متى احتاج إليه».(874)

---

871) أنظر المعسول 3/ 236.
872) أنظر الإكراري - روضة الأفنان، ص : 174.
873) أنظر المعسول 2/ 236.
874) المعسول 17/ 308.

المبحث الأول : إشعاع المدرسة في سوس.

منطقة سوس هي المحيط الجغرافي للمدرسة الإلغية، والميدان الذي انتشر فيه تلاميذها وملأوها مراسلات وجلسات ومحاورات أدبية، فهي التي حل فيها إشعاع المدرسة أولا وأثر فيها قبل أن ينتشر منها شمالا وجنوبا.

ويجدر بنا قبل أن نتتبع مظاهر هذا الإشعاع في سوس، تفحص أثره في مقر المدرسة، قرية دوكَادير إلغ وجوارها. ويتجلى هذا الأثر فيما يلي :

* تحول القرية إلى ناد أدبي يحفل بالأقوال المنظومة والمنثورة فلا يخطر حدث ما أو مناسبة اجتماعية، إلا تصدى الأدباء لتخليدها نظما أو نثرا تعزية، أو تهنئة، ترحيبا أو توديعا، بل أضحت هذه المناسبات، لاسيما السَّارة منها، مجالا لعقد الندوات وإثارة المباحثات، وزاد من استفحال هذه القاعدة قدوم الوفود الأدبية خاصة الوفد الإفراني،(875) وكان هذا النادي الأدبي الإلغي موزعا بين ثلاث أماكن هي أثافي إنائه، فهناك دار الأستاذ علي بن عبد الله الإلغي التي لاتخلو من أدباء فما أن يرحل فوج منهم حتى يحل آخر، وهو ما بين قصيدة تتلى أو كتاب يسرد أو مسألة تبحث، ثم هناك الزاوية الدرقاوية مقر الشيخ علي بن أحمد الدرقاوي الذي تأثر بهذه الحركة الأدبية. وصارت زوايته الصوفية، إبان حياته وحتى بعد وفاته، لما استقر بها منفيا ابنه محمد المختار السوسي، وهي «... المشهورة بالعبادة والتربية السلوكية.. دار ندوة السوسيين وسوق عكاظهم ما بين غاد ورائح...»،(876) وأخيرا هناك دار الإيغشانيين الرؤساء، وقيدومهم الحاج إبراهيم الإيغشاني المحب للإلغيين المنافح عنهم، والتي كانت مكان تساجل الأدباء بين يدي هذا الرئيس الأريحي،(877) خلال الأسابيع الأدبية التي كان يحضرها إلى جانب الإلغيين الإفرانيون وتلاميذهم.(878)

ففي هذه المنازل الثلاث قامت للأدب بـإلْغَ سوق نافقة، قال صاحب المعسول : «...فتتلاطم أمواج القريض في دار الأستاذ(879) وفي دار الإيغشانيين، وفي دار الوالد حين كان لا يزال حيا إلى مختتم عام 1328هـ».(880)

875) أنظر الفصل الأول من بابنا هذا.
876) أحمد بن زكرياء السكال الباعمراني - أيام خالدات في منفى المختار السوسي، دورية المواهب، ص: 29.
877) أنظر المعسول 3/ 138.
878) أنظر الرسالتان، ص : 138.
879) يقصد علي بن عبد الله الإلغي.
880) المعسول 1/ 374.

* شارك في هذه الحركة الأدبية الأساتذة والطلبة وحتى ذوو الاهتمامات البعيدة عن الأدب، فهذا الشيخ علي بن أحمد الإلغي كبير الصوفية الدرقاوية لم تمنعه تلاوة الأذكار ولا تربية المريدين ولا جولات الوعظ والدعوة عن مغازلة ربّة الشعر ومساجلة الأدباء، قال عنه ابنه المختار : «... مجاور الأدباء ومجالسهم لابد أن تطيب أردانه بشذاهم وأن تفوح من أثوابه بنفحاتهم نسمات، وإن كانت وجهتهم غير قبلته التي يوليها وجهه، كذلك كان هذا الشيخ الصوفي الذي يجاور هؤلاء الأدباء ويجالسهم، فقد رأينا بعض آثار من ذلك، ليس من الإنصاف أن ينسى في سجلهم، كما كان لا ينسى مقوله بين مقاولهم في المساجلات، ثم له وراء ذلك من رحلته(881) ما يحمد القراء، ويقولون قد كان لنا منه حظ، ولم يستبد به كله الفقراء، والكامل من يمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك...».(882)

كما نال إشعاع المدرسة من ليس من الأدب في شيء وقد مر بنا حث الأستاذ محمد بن عبد الله الإلغي أقرانه، حتى الذين لا علاقة لهم بالأدب، على النّظم(883) فصارت الأدبيات على كل لسان وفي كل كتاب، (... فيدور ذلك في محاوراتهم وفي أسمارهم فتجد رسائلهم مشحونة بذلك، حتى رسائل بلدائهم ومحاورات أشبه العامة من متطلبتهم وهذا كله شائع ذائع عنهم...»(884) ومن أمثلة هذا التأثير رسالة كتبها أحد طلبة إلْغَ وحلاَّها ببيت شعري تقليدا لما كان لدى كبار الكتاب قال :

«... سَلاَمٌ كَمَا فَاحَتْ بِرَوْضٍ أزَاهِرُ
يُضِيءُ كَمَا لاَحَتْ بأفْقٍ زَوَاهِرُ

على الولد الأبرّ السيد محمد بن أحمد ورحمة الله وبركاته أما بعَد، ونَحن جَميعا لا بأس عندنا، لله الحمد وله الشكر، وعسيتم كذلك، وإنّ الرسالة وصلت وفهمناها، أعانكم الله آمين».(885)

ومن هنا نستنتج أثر اهتمام المدرسة الإلغية بالأدب ونزوع عامة طلبة إلْغَ إلى التشبه بالأدباء الكبار سواء في النثر والشعر، ونتيجة لهذا نقول إن المدرسة لم تكن منقطعة عن وسطها بل ارتبطت به حتى صار عامة الناس يتابعون كل ما يقع من مساجلات بين الطلبة خاصة، فيعلون من قدر المتفوقين، وويل للمتأخرين من ألسنتهم، فهذا البشير بن أبي بكر

---

881) يقصد الرحلة الموسومة : أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد وهي مطبوعة عام 1961 بعناية وتصحيح ابنه المختار السوسي.
882) مترعات الكؤوس، ص : 134 - 135.
883) أنظر الفصل الأول من بابنا هذا.
884) سوس العالمة، ص : 102.
885) رسالة مخطوطة كتبها المحفوظ بن محمد الإلغي على لسان أحمد بن إبراهيم السعيدي مؤرخة في ذي الحجة عام 1386هـ احتفظ بها ضمن أوراق الوالد محمد بن أحمد السعيدي.

الأغوديدي سقط دون المدى في قصيدة قالها في الترحيب بالوفد الإفراني، فأثار حوله أقرانه ضجة بسببها «حتى سرى ذلك إلى خدور الغواني، فتحدثن به في منتديات النساء. وقد حدث أن سيدة من مرابطينا عايرت امرأة أغوديدية من إحدى زوجات آل صالح، فما ملكت هذه المرابطية أن قالت لصاحبتها فيما قالت : هل فيكن قط أيتها الأغوديديات إلا النقص الشائن دائما ؟ فهذا ابنكن البشير بن أبي بكر، جاء بشعر افتضح بين العلماء وصار به ضحكة بين الأقران...».(886)

وقد تجاوز إشعاع المدرسة بسيط إلْغ وانتشر إلى جميع جهات سوس وتجلى في مظاهر نجملها فيما يلي :

أ - **التباري في المواسم السنوية** : تحدثنا فيما قبل عن هذه المباريات باعتبارها مظهرا تتجلى فيه علاقة طلبة المدارس بعضهم ببعض،(887) ثم شكلا من أشكال الاهتمام بالأدب في المدرسة،(888) ونتعرض لها هنا باعتبارها تجليا لإشعاعها الأدبي، فقد كان تلاميذها كما قيل «فحول الإنشاء من طلبة دُّوكَاديرْ الخاصة بتخريج فرسان ذلك الميدان منذ أسست جدرانها...»(889) وقد تسنموا هذه المَرتبة بتفوقهم الدائم في المباريات إذ كانوا غالبا ما يعودون منها بقصب السبق، وكان عموم الطلبة الحاضرين في المواسم يتابعون باستحسان تفوقهم، وكثيرا ما كانت أسماء علي بن عبد الله الإلغي وعبد الرحمان البوزكارني والطاهر الإفراني والعربي السّاموكَني على أطراف الألسنة عندما يتحدث الطلبة عن «تفوق الأديب الفلاني الذي فاضت قريحته بالارتجال...»(890) مما يذكي روح المنافسة فتجد بعض المدارس التي لاتهتم بالأدب ولا تدرسه يحاول طلبتها مجاراة المتبارين كمدرسة تاهالة.(891)

ب - **فروع المدرسة** : وهي تلكم المدارس «... التي كان المتخرجون من المدرسة الإلغية تصدروا للتدريس فيها، فاتبعوا في الدراسة وموادها برامج المدرسة الأم، وطريقتها في التلقين، واختيار المادة وكتب المطالعة الحرة، تلك المطالعة التي كان لها أثر عميق في تثقيف الطالب وتقويم لسانه وسعة اطلاعه..».(892)

---

886) أنظر المعسول 3/ 8.
887) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الكتاب.
888) أنظر الفصل الأول من هذا الباب.
889) الحسن البونعماني ـ أيام عكاظ في تازروالت، مجلة الثقافة المغربية عدد دجنبر 1942 ص : 99.
990) المصدر نفسه، مجلة الثقافة المغربية عدد اكتوبر 1942، ص : 58.
891) أنظر سوس العالمة، ص : 102.
892) محمد العثماني ـ محمد المختار السوسي في حياته الخصبة بين انطلاق وجمود، دورية المناهب، عدد خاص بذكرى المختار السوسي، ص : 10، وانظر أيضا أعمال ندوة تكريمية للمختار السوسي مرقونة بالمجلس العلمي بتزنيت ص : 85.

وهكذا نقل هؤلاء التلاميذ منهج التدريس، ممثلا في إدخال المواد الأدبية ضمن النصاب الدراسي اليومي والاهتمام بالسرد في المجاميع الأدبية أيام العطل الأسبوعية، وحث الطلبة على قرض الشعر وكتابة الرسائل، وعقد ندوات لنقد إنتاجاتهم وإرشادهم إلى أساليب الإبداع الجيدة... وبهذا الحدب خرجت هذه الفروع أفواجا من الأدباء الذين أسسوا بدورهم فروعا لمدارسهم لهجوا فيه بحب الأدب والكلف به حتى قال أحدهم : «... نعوذ بالله ممن لم يرم في الأدب وأريحيته، ويعبس ويبسر في المقام الذي يقطرون فيه بشاشة، تخلقا بأخلاق الأجلاف وانتباذاً عن طريقة الأدباء من أفاضل الأسلاف وميلا إلى النسك الأعجمي، ونعوذ بالله من قوم خلقوا من الكثافة فلا تجد روح الأدب إليهم متسربا...».(893)

وقد اشتهرت عدة مدارس بكونها فروعا للإلْغية نذكر منها مدارس تانكرت الإفرانية وإيغشان وأيت وافقا، وإغيلالن، وبويزكارن وسيدي محمد الشّيشاوي.. وغيرها(894) وهي كل مدارس وفقت لتخريج الأدباء وحمل لواء الآداب إلى جانب ربّة نعمتها الإلْغية، وحتى نذكر مقدار مساهمتها في ذلك نمثل بمدرتسين منها :

* **مدرسة تانكَرْت** : وهي أعظم فروع الإلْغية قدراً وأكثرها إسهاما في نشر الآداب بسوس، استقر بها العلامة الأديب الطاهر الإفراني مدة أربعة وعشرين عاما بعد تخرجه مجازا من قبل شيخه علي الإلْغي، وقد درس عليه هناك عدد كبير من الطلبة ينيفون على السبعين(895) منهم أدباء كبار كعبد الرحمان البوزكارني وداود الرسموكي ومحمد بن الطاهر الإفراني ومحمد الحامدي ومحمد بن الطيب التيزي... وغيرهم.(896)

وهذه المدرسة وإن كانت من فروع الإلْغية أخيرا إلا أنها أصل ما كان في هذه من علوم إذ إن مؤسس الإلْغية محمد بن عبد الله الإلغي لم يجاوزها في أخذه على الشيخ محمد بن إبراهيم الإفراني، فكان أن رد جميل شيخه بإقراء ابنه الطاهر حتى صار من كبار الأدباء فمن مدرسة تانكرت استمدت مدرسة إلْـغَ أولا مجدها، قال المختار السوسي : «... إن كانت للمدرسة الإلْغية شهرة كبرى في إحياء الأدب الأندلسي حتى صارت أنباؤها والجة كل آذان بلا استئذان، ملموسة آثارها بين المؤلفات في كل يد، فإنما كان لها ما اقتبسته من هذه المدرسة».(897)

---

893) محمد المختار السوسي ـ الشريدة الناغية للعصيدة مخطوطة ضمن كناش الساحلي الخامس، ص: 66.
894) أنظر جردا بالمدارس التي استقر بها تلاميذ الإلغية في الفصل الرابع من الباب الأول.
895) المعسول 7/ 220 وما بعد.
896) أنظر حولهم المعسول 10/ 425.
897) خلال جزولة 2/ 237.

وقد تميزت مدرسة تانكرت باقتفاء أثر الإلْغية في ترويج الآداب فهناك الطاهر الإفراني وعمله على تنشيط تعاطي الأدب، فلا يفتأ مواليا المقوطوعات على طلبته أيام العواشر، أو عند ختم الفنون، أو في الندوات والمجالس.(898) وكذلك في اجتماع الأدباء حوله فنجد هناك الأدباء : العربي السَّاموكَني، ومحمد بن الحاج الإفراني، والبشير بن المدني النَّاصري وأخاه الطاهر، والبشير العزيّي، بالإضافة إلى من يحلون هناك فينة بعد فينة فاستحق وادي إفران أن يسمى وادي الأدباء «... لأنه منبع الأدب العربي الطافح وتحت ظلاله الظليلة، وبين نسائمه العليلة يحيا كثيرون من أدباء زانوا القطر السوسي كله...».(899)

وفي هذا الجو الأدبي المتميز ترعرع كبار الأدباء من تلاميذ الإفراني وحملوا مشعل الأدب إلى مناطق أخرى، ولعل أبرزهم وأنشطهم في ذلك الشاعر داود الرّسموكَي،(900) الذي أقام بعدة مدارس خاصة مدرسة تيّيوت،(901) وترسم في تدريسه خطي أشياخه الإفرانيين فقد كان «... يميل مع طلبته إلى الأدب، ويعمل جاهدا من أجل عقد صلة وثيقة بينهم وبين الشعر والنثر، ويستغل جميع الفرص المتاحة لإخراجهم من وقار الفقهاء إلى أريحية الأدباء...»(902) وبهذا رسّخ تلك التقاليد الأدبية بين تلاميذه وتخرج على يديه جيل جديد من الأدباء كانوا جميعا ثمرة البذرة الإلغية الأولى، وكانوا صفوة أدباء سوس نذكر منهم الشاعر الحاج إسماعيل السُّكْتَاني نزيل تَاليوينْ(903) والشاعر الفحل الحسن البُونَعْمَاني الآخذ أيضا عن فرع الإلْغية بإيَغيلاَلْنْ(904) والأديب الأريحي الحاج محمد هرماس.(905) فهؤلاء تلاميذ تلميذ وَاحَد لمدرسة تانكرت فإذا نظرنا نظرة عامة إلى غيره حق لنا أن نقرر أن دورها في نشر إشعاع الإلْغية يضاهي غيرها من الفروع بل لا مثيل له على الإطلاق.

* **مدرسة سيدي مَحمد الشّيشاوي** : وهي من المدارس الواقعة بهشتوكة أقام بها الأديب الأستاذ محمد بن أحمد العتيق السليماني الإلْغي منذ عام 1368هـ بعدما أخذ

---

898) أنظر حول ذلك عبد الله درقاوي ـ الطاهر الإفراني حياته وشعره 1/ 71 وما بعد.

899) خلال جزولة 11 .

900) جمع شعره وحققه ودرسه أستاذنا اليزيد الراضي في رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بإشراف الدكتور عباس الجراري، وقد طبع هذا البحث القيم بعناية جمعية إيليغ للتنمية والتعاون.

901) أنظر شعر داود الرسموكي، ص : 102.

902) المصدر نفسه، ص : 109.

903) أنظر ترجمته بالمعسول 18/ 198 وما بعد. شعر إسماعيل السكتاني جمع وتحقيق ودراسة، د. عمر بزهار رسالة الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بإشراف الدكتور عباس الجراري نوقشت سنة 2003 .

904) أنظر حوله الحسين أفا ـ شعر الحسن البونعماني، جمع ودراسة وتحقيق 1/ 142.

905) أنظر التعريف به في شعر داود الرسموكي، ص : 106 .

بالإلْغيــة بين يدي الأستــاذ المدني بن علي الإلْغي وبمراكش عن العـلامـة المخـتــار السوسي(906) فهو من الجيل المتأخر الذي أضاف إلى أدب الشيوخ الأساتذة وعلومهم بعضا من معارف العصر، فأقبل على التدريس «...بهمة إلْغيّة، وجد سُليماني، وعزيمة لا تكون إلا لمن ذاق حلاوة المعارف حق الذوق، فقد أكب أكبابا أطار له شهرة ما فتئت أن عادت طنانة، فسالت إليه البطاح بالمتعطشين إلى الأخذ، فسرعان ما اتسعت هالته وعتقت راحته فظهرت نجابة تلاميذه ظهورا يذكر في كل النواحي السوسية في مختلف العلوم...»،(907) وكان ديدنه الاهتمام بالأدب والسير على نهج شيوخه الإلْغيين، وإن أضاف إلى ذلك بعض ما اختار من مناهج جديدة مثل تكليف الطلبة بتحرير إنشاء أدبي حول موضوع يختاره، وإضافة بعض الكتب الحديثة البسيطة ضمن المسرودات كنور اليقين في سيرة سيد المرسلين،(908) كما كان يستغل كل الفرص لاستثارة قرائح طلبته سعيا وراء إتقانهم فنون المنظوم والمنثور، كما أشار تلميذه الحسين بن مبارك المزاري(909) قائلا: «... ولم نكن نحلم من ذي قبل بإنشاد الشعر فضلا عن إنشائه لولا أن أستاذنا الحازم كلفنا ذلك، وإن لم يكن في الوسع، رجاءً منه - حفظه الله - أن يرانا نبغاء العصر...».(910)

ومن المناسبات التي خلدها تلاميذ الشيشاوية بأشعارهم، احتفال القاضي الحسن بن مبارك البَعْقيلي(911) بعقيقة، فأقبل أدباؤنا الشبان على تهنئته بإيعاز من أستاذهم، وقد جمع تهانيهم أحد نبهائهم وقدم لها بقول: «... وقد رأينا أيها القاضي، أن نجمع هذه الكلمات وأن نسميها عواطف المدرسة الشّيشاوية، وأن نقدمها هدية إذ لم يكن لدينا ثراء، وإليكم ذلك الكلام الملفق في مدحكم وتهنئتكم، الذي ظنناه شعرا».(912) وقد شارك في هذه التهاني كل من الحسين بن مبارك فهمي المزاري،(913) والحسين بن أحمد السّليماني

906) المعسول 2/ 372 وقد حدثني الحسين بن أحمد السليماني شقيق الأستاذ العتيق أن المختار السوسي هو الذي أرسله إلى هذه المدرسة باتفاق مع أصحابها.

907) المعسول 2 / 372 .

908) أخبرني بذلك تلميذه الوالد محمد بن أحمد السعيدي حفظه الله.

909) من الآخذين عن العتيق الإلغي اشتغل بعد الاستقلال بالتعليم الابتدائي حتى تقاعده.

910) الحسن بن مبارك المزاري - عواطف المدرسة الشيشاوية نحو القاضي الجليل الفقيه النبيل الحسن بن مبارك سدده الله آمين، ص : 3، مخطوط.

911) عمل عدلا في بويكَرة أيام الحماية ثم قاضيا بعد الاستقلال بالمحكمة الإقليمية بأكادير حتى تقاعده، توفي أوائل العقد التاسع من هذا القرن، رواية الوالد محمد بن أحمد السعيدي.

912) عواطف المدرسة الشيشاوية، ص : 3.

913) درس على والده مبارك الدرقاوي القرآن وبعد تخرجه من الشيشاوية التحق بسلك التعليم الابتدائي ثم الثانوي.

الإلْغي(914) وياسين بن إسماعيل النّومْري،(915) وأحمد بن مسعود كمال الزّينبي البَلْفاعي،(916) وعلي بن أحمد غُفران الرّزاني،(917) والحسن بن أحمد العبّادي العَلاَّلي،(918) ومحمد بن مبارك اليقين الماسي،(919) ومحمد بن الحسن زكي الإفرْياني،(920) والحسين بن الحسن بوزُّمان الحاحي(921) ولا بأس أن نسوق مطالع بعض قصائدهم(922) نموذجا لما كان يروج بالشّيشاوية من أشعار، فمن ذلك قصيدة للحسين بن أحمد السّليماني الإلْغي مطلعها (الطويل).

إلَيْكَ أبَا الْعَلْيَـــــاء أبْدي عَـــــواطفي
وَأهْدي ثَـنَـاءً عَـــــــــاطِـراً دُونَـهُ الـنَّـدُّ
يَمِـــينَا بِمَنْ أوْلاكَ مَـــا تَبْـتَـغِـيـــه مِنْ
مَــقَـامَـــات عِـــزٍ، إنَّكَ الْمَـــاجِــدُ الْفَـــرْدُ

ثم قصيدة لياسين بن إسماعيل النّومري، مطلعها : (الوافر).

بَدَا قَــمَـــرُ الْكَمَـــال بأفْق سَــعْـــد
وَأنْسُ الـصِّـحَـاب طُرّاً في ازْديَاد(923)

وأخرى لعلي بن أحمد غُفران الرّزاني، مطلعها : (المتقارب).

---

914) ولد عام 1935م تعلم القرآن على يد إبراهيم الساحلي ثم التحق بالشيشاوية حيث لبث سبع سنوات ثم بكلية ابن يوسف عام 1956م ثم انخرط بسلك التعليم الابتدائي حيث لا يزال.

915) درس القرآن على أخيه مبارك بأيت نومر ناحية تزنيت ثم بالشيشاوية، فإلى فاس حيث أصيب بمرض عقلي لازمه حتى وفاته حوالي عام 1988م.

916) تخرج من الشيشاوية فالتحق بكلية ابن يوسف ثم انخرط بسلك التعليم حيث لا يزال.

917) درس بالشيشاوية ثم بكلية ابن يوسف وبعدها بالمدرسة العليا للأساتذة ومنها تخرج أستاذا بالتعليم الثانوي، ثم التحق بإدارته بتارودانت حيث بقي حتى تقاعده.

918) قضى بالشيشاوية أزيد من خمس سنوات ثم التحق بجامعة القرويين بفاس ثم بالتعليم الثانوي بالمعهد الإسلامي بتارودانت عام 1960هـ وتقلب بعد ذلك في عدة وظائف آخرها أستاذ بكلية الشريعة بأيت ملول فرئيسا للمجلس العلمي لتارودانت وأكادير ثم عضوا بالمجلس العلمي الأعلى.

919) تخرج من الشيشاوية والتحق بسلك التعليم الابتدائي ولبث به حتى عام 1984 لما التحق بالثانوي، ثم أدرك التقاعد عام 1992.

920) قرأ القرآن على محمد بن إبراهيم ثم التحق بالشيشاوية ومنها إلى التعليم الابتدائي فالثانوي بالمعهد الأصيل بتزنيت حتى تقاعد ولا زال لهجا بالشعر متفردا بين تلاميذ الشيشاوية.

921) شارط بعد تخرجه من الشيشاوية ببعض المساجد ثم بمدرسة أبي البركات العتيقة بإدا وكازوا.

922) استقيت هذه التراجم من الأستاذ الحسين بن أحمد السليماني لما جالسته بمنزله بإنزكان يوم 16/12/93.

923) عواطف المدرسة الشيشاوية، ص : 3.

لَقَــــدْ جَـــــادَ رَبِّي بِصِنْوِ أَغَـــــرٍّ

فَـــبُـــشْــــرَى بِهِ طَالَ مَــــا يُنْتَظَر

لِيَــــهْنَاكَ يَا سَـــيِّـــدِي نَجْـــمـــــهُ

فَلِلّهِ ذَاكَ الطَّالِع المُعْـــتَـــبَــــر(924)

وأخيرا قصيدة لجامع التهاني الحسين بن مبارك المزاري ومطلعها (الكامل) :

يَامَنْ أَدَامَ عَلَى الْمَـــعَـــالِي عُكُوفَـــهُ

أَبْشِرْ فَإِنَّكَ حِلْفُ حَدْسٍ قَدْ صَدَقْ(925)

وقد كانت مساهمات الطلبة ومحاولاتهم الشعرية والنثرية تعرض على ندوة أدبية على غرار الندوة الإلْغية لتقويمها، كما يظهر من رسالة رفعها الحسين بن مولود الباعمراني إلى أستاذه مهنئا بازدياد مولود صدرها بقوله : «... وجهت إليك ياسيدي وإلى الحاضرين هذه الأبيات، لتصلح ما حاد فيها من اللفظات على طريق الصواب، ولتنظر بعين الرضى والصواب، ومن المعلوم أني لست ممن يخوض في هذا العوم، بل ممن يخوض كلام القوم بتبديل كلام رائق بغير لائق ظنا منه أنه شاعر، بل لم يكن متشاعرا فضلا عن الشاعر، لكنني فعلت ذلك لأمرين دعت الضرورة لهما وإن لم أكن أهلا لهما أحدهما، أريد أن أعد فيهم وإن لم أكن أنسب إليهم... والثاني امتثال أمرك وإن لم أكن أهلا لما هنالك...».(926)

يتبين لنا من كل هذا ترسم العتيق الإلْغي خطى أساتذته في مدرسة إلْغ وعمله على اهتمام طلبته بالأدب ومعاناة فنونه، فخلف بدوره جيلا جديدا من الشباب المتذوق للأدب المتفنن في مجال القول.

وبمثل هذه العناية وهذا الحدب، استطاعت مختلف فروع المدرسة الإلْغيْة نشر عشق الأدب بين الطلبة وإنشاء أجيال جديدة من محبي الأدب ومتذوقيه، إن لم يكونوا من الشعراء المبدعين، وإذا عددنا هذه الفروع وعرفنا أنها عشرات، عرفنا مقدار تأثيرها في من مروا بها من الطلبة ومن جاورها من الفقهاء والأدباء وعلمنا أنه كان لها أكبر الفضل في إبقاء جذوة الأدب ملتهبة بمختلف بقاع سوس.

ج - **المراسلات الأدبية** : يعتبر طلبة المدرسة الإلْغيّة محور الحركة الأدبية أينما حلوا بسوس، بسبب تكوينهم الأدبي المتين، ومنزعهم العالي، وذوقهم السامي في فنونه. فكان

---

924) عواطف المدرسة الشِّيشاوية، ص : 4 .

925) نفسه.

926) نفسه، ص : 5.

محبو الأدب والمتطلعون إلى حياضه لايكفون عن مراسلتهم مساجلة أو استفادة. ففيمايخص المساجلة نجد أدباء سوس يتحينون الفرص لملاقاتهم، ونجد مصادر التاريخ بسوس حافلة بهذه المراسلات (927) التي توجه إلى تلاميذ المدرسة، باعتبارهم أعمدة الأدب وفحوله، طلبا للشهرة. ولا يتوانى أدباؤنا بدورهم عن الرد عليها قياما بالواجب، مركزين على تشجيع المخاطب والتنويه بأدبه شعرا كان أو نثرا استنهاضا وتشجيعا له.(928) أما مراسلات الاستفادة فيوجهها أدباء سوس عارضين بعض قصائدهم، طالبين إبداء الرأي فيها وتصحيح ما عسى أن يظهر لهم فيها من أغلاط وأخطاء ونعرض هنا ثلاثة نماذج :

الأول : إرسال الشاعر الفحل مُحمد العثماني نسخة من قصيدة نظمها في خطاب أستاذه العلامة الحاج الحبيب البوشواري إلى الأديب المدني بن علي الإلغي طالبا منه بعث ما يظهر له فيها من ملاحظات وذلك في رسالة قال فيها : «... وجدني كتابك في أثناء معالجة قصيدة خاطبت بها أستاذنا العلاّمة السيد الحاج محمد الحبيب. وعلما منه بفرط اشتياقكم إلى الاطلاع على الآثار الأدبية أحببت أن أبعث إليكم بنسخة... وبكل احترام نرجو من سماحتكم أن تكتبوا إلينا بما ظهر لكم فيهما من الملاحظات خدمة للعلم والأدب...».(929)

الثاني : إرسال الأديب عبد الحميد الصوفي(930) قصيدة قالها بمناسبة تقاعد الفقيه الحاج أحمد أعمو(931) من القضاء مفتتح عام 1394هـ، إلى الأديب محمد بن أحمد العتيق الإلْغي ومطلعها : (الطويل).

أعَمُّو لَكَ الْبُشْرَى وَحَقَّ لَكَ الشُّكْرُ
قَدِ انْجَلَتِ الظَّلْمَاءُ وَانْبَلَجَ الْفَجْرُ(932)

طالبا منه الاطلاع عليها وتفحصها بقوله في رسالته : «قلت القصيدة التي سترونها صحبته وإليكموها لتطلع عليها قبل أي أحد، فإن أصبت فرمية من غير رام، وإن أخطأت فكم من مخطىء قبلي...»(933) وجدت على نسخة هذه القصيدة تصويبات بخط العتيق الإلْغي، إذ غيّر مثلا لفظة الوشاة بالواشون واليقين بالتّحقيق في قول الصوفي : (الطويل).

---

927) أوراق العتيق الإلغي.
928) أنظر مئات منها في المعسول 1، 7، 8، 9، 10، 11... وروضة الأفنان وكناش الإيكراري وكناش الكثيري وديوان العتيق وتحلية الطروس للسجراتي... وغيرها.
929) أنظر مثلا صنيع الطاهر الإفراني مع غيره من الأدباء في : الطاهر ؤةفراني حياته وشعره 1/ 76.
930) المعسول 17/ 189.
931) أنظر ترجمته بالمعسول 15/ 166.
932) أنظر ترجمته بالمعسول 13/ 234.
933) قصيدة مرقونة من ستة عشر بيتا، بخزانة العتيق الإلغي.

وَقَــدْ يَفْــرَحُ الْوُشَــاةُ حينَ اسْــتَــرَحْــتُمُ
فَلَوْ عَلمُــوا الْيَــقينَ أَشْــجَــاهُمْ الأَمْــرُ(934)

الثالث : إرسال المختار السوسي رسائل لأستاذه البوزكارني ضمنها قصائد طالبا منه تفحصها وانتقادها، من ذلك رسالة قال فيها : «... وهاك قصيدة ارمقها وانتقدها كأخواتها...»(935) وقال في أخرى : «... وهذه جملة مما صدر عني أخيرا بين يديك فاقلب فيه عينيك ثم اصدع بالحق، فالحق أحق...».(936)

وقد كان أدباؤنا يجيبون عن هذه الاستفسارات مبدين ما في الأشعار المعروضة عليهم من إبداع، مع الإشارة إلى ما قد يكون فيها من أخطاء، ويغلب عليهم في كل ذلك طابع المجاملة والحرص على إرضاء المستفسر، من غير جرح مشاعره تمشيا مع العرف السائد لديهم في ندواتهم الأدبية.(937)

وإضافة إلى مراسلة كبار الكتاب بعد التخرج، كان الأساتذة بالمدرسة يشجعون طلبتهم على مساجلة طلبة مدارس أخرى(938) مراسلة، ترويجا للأدب وزرعا لروح المنافسة بينهم، وكانت هذه الرسائل تتضمن الأشعار والمنثورات، وترمي إلى إظهار التفوق والبراعة دفاعا عن سمعة المدرسة، ومن أمثلتها تلكم المنافسة التي جرت بين مدرسة تانكرت ومدرسة أداي؛ فقد كان محمد بن الطاهر الإفراني في الأولى والي الرسائل على محمد بن علي الإلغي ورفاقه في الثانية، دون أن يستطيعوا الجواب، فكان أن تدخل الأستاذ علي بن عبد الله الإلْغي طالبا منه التريث ريثما يحفظون المقامات، ليستعينوا بها باعتبارها عماد الذوق الأدبي عندهم، وذلك في رسالةقال فيها : «... هذا وقد طلبت منه أن يكف عنكم، معشر طلبة أداي، وأن لا يبعث إليكم سريات القصائد، علما مني بعجزكم عن مقابلتها وقد استشفعت إليه بوالده، وقد علمتم أن شفاعتي عنده مقبولة. فوعد بذلك بشرط الأجل ستة أشهر حتى تحفظوا المقامات حفظ إتقان، فحينئذ تبعث السرايا».(939)

د - اتصال أدباء المدرسة بالأدباء السوسيين : ما كادت المدرسة الإلْغية تخرج أول فوج من طلبتها المتأدبين، حتى برزت بين نظيراتها السوسية، وظهر خريجوها في الميدان العلمي والتعليمي، فصاروا قبلة أقرانهم لمطارحة الآداب وتعاطي الأشعار، وذلك في مناسبتين :

---

934) أوراق العتيق الإلغي.
935) البيت الخامس من القصيدة.
936) المعسول 10/ 134.
937) المصدر نفسه، ص : 137.
938) أنظر الفصل الأول من الباب الثالث.
939) أنظر سوس العالمة، ص : 102.

* **زيارة أدباء المدرسة مختلف مناطق سوس** : كان تلاميذ الإلغية يتنقلون في مناكب سوس سعيا وراء المعاش، أو طلبا للقاء أكابر العلماء، وكانوا كلما زاروا حاضرة أو بادية سألوا عن أدبائها وزاروهم وساجلوهم. وقد كان غالب هؤلاء الأدباء في جوار الرؤساء الكبار، ولعل تارودانت من أكثر الأماكن التي أقبل أدباؤنا على زيارتها بسبب ما شهدت من حركة أدبية نشيطة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري.(940)

وممن حلّوا بها نذكر علي بن عبد الله الإلْغي، والطاهر الإفراني والعربي الساموكَني ومحمد بن الحاج الإفراني، ولم يكونوا في حاجة إلى البحث عن أدباء المدينة إذ إن سمعتهم وشهرتهم الأدبية والعلمية جعلت محبّي الأدب يسعون للقائهم. فهذا علي بن عبد الله لما حلّ هناك سعى القاضي موسى بن العربي الرّسموكَي للقائه،(941) وكان من الشعراء الأريحيين فأرسل إليه قصيدة يحييه فيها ويمدحه، منوها بمكانته وبشهرة الإلْغيين، قال فيها (الطويل).

وَبَعْدُ فَإنَ الْعَبْدَ يَطْلُبُ مِنْكُمَا
مُصَاحَبَةً تَمْشِي عَلَى أفْضَلِ السُّنَنْ
وَإنْ كَانَ فِي الإمْكَان تَشْرِيفُ بَيْتِه
فَذَلِكُمُ الْمَأمُولُ مِنْكُمْ، أبَا الْحَسَنْ
فَوَصْلُ بَنِي الْعِرْفَان فَرْضٌ مُحَتَّمٌ
وَأمْثَالُكُمْ يُرْجَوْنَ حَتَى مِنَ الْقُنَنْ
فَإنْ لَمْ تَكُونُوا يَابَنِي إلْغَ مَأمَلاً
لأمْثَال هَذَا الْعَبْد بَيْنَ الْوَرَى فَمَنْ(942)

ولما زار الطاهر الإفراني المدينة اتصل به أيضا واستدعاه لزيارته في بيته،(943) وكان ديدنه مع أدبائنا المفاكهة وإنشاد الأشعار مشمولة بالأريحية، كما اتصل الإفراني بالباشا الأديب البيضاوي الشنقيطي، ومدحه بعدة قصائد أعجب بها أيّما إعجاب «... لدرجة أنه كان يأمر رفيق الإفراني البشير النّاصري بقراءتها أربع مرات في قبة بدار الشنقيطي مرة في كل زاوية من زواياها الأربع، وإذا انتهى من القراءة ينتفض الشنقيطي طربا ويردد : والله الطاهر شاعر».(944)

940) مترعات الكؤوس، ص : 120 - 121.
941) أنظر حولها شعر داود الرسموكي، ص : 72.
942) أنظر ترجمته بالمعسول 18/ 5 وما بعد.
943) المعسول 18/ 20، وقد كان بصحبة الأستاذ الإلغي الرئيس إبراهيم الإيغشاني لذلك خاطبهما القاضي الرسموكي بضمير المثنى.
944) المعسول / 159.

أما الأديب محمد بن الحاج الإفراني فقد اتصل بالقاضي الرّسموكَي، وبباعث الحركة الأدبية بتارودانت القاضي الفاطمي الشرّادي الفاسي، والذي كان «... أديبا شاعرا ينشد الشعر ويتذوقه، ويطرب لنماذجه الجيدة، وتنتعش نفسه إذا أحيط بالنفحات الشعرية العبقة».(945) ومدحهما بعدة قصائد طنانة.(946)

وبالإضافة إلى تارودانت كانت مجالس كبار الرؤساء والعلماء مجالا لأدبائنا للاتصال بزملائهم السوسيين، وإظهار مكانتهم من الأدب. فكانت مجالس أمثال الكَتافي، ومحمد بن إبراهيم التييوتي، وسعيد الكَيلولي، وعياد الجراري فرصة لترويج الأشعار والتعرف على الأدباء، وعقد الصداقات، وإثارة الأدبيات.(947)

* **وفادة أدباء سوس على إلْغَ** : سعى كثير من أدباء سوس لزيارة مدرسة إلْغ للوقوف على منبع الحركة الأدبية التي زخرت بها المنطقة. وكان عدد منهم يتابعون أخبار أساتذتها وطلبتها عبر ما يتساقط إليهم من أشعار ومسجالات. وكان لزيارتهم لها أكبر الأثر في اشتغالهم بالأدب وإدمان تعاطيه، نذكر منهم هنا ثلاثة أمثلة :

- **الأول** : الأديب المؤرخ محمد بن أحمد المانوزي، الذي زار إلْغ أول مرة إبَّان أخذه بمدرسة تاهلة، فرأى طلبة مدرسته يلهجون بالأدبيات ويحرصون على مطالعة كتب الأدب وحفظ نماذج من مختاراتها، فأقبل هو الآخر عليها حرصا على تحصيل ما حصلوا، حتى صار شاعرا متمكنا.(948)

- **الثاني** : الأديب عبد الرحمان الإيسي الذي كانت له مصاحبة مع الإلْغيين فسرى إليهم منهم حب الأدب، قال عنه المختار السوسي: «.... وله مصاحبة مع كل علماء جهته فيكاتبهم ويزورهم خصوصا جيرانه الإلْغيين، وقد حبب إليه الخوض في علم الأدب مجاراة لهم فيرسل القوافي ويساجل من يسنح له منهم».(949)

- **الثالث** : الطيب بن إبراهيم الإكَماري، الذي كان له اتصال وثيق بالإلْغيين إذ كان من مريدي الزاوية الدرقاوية الإلْغية، إلا أن تصوفه لم يمنعه من الإعجاب باهتمام أدباء المدرسة بالأدب، حتى أنه بعث بعض أولاده للأخذ بها، قال عنه صاحب المعسول : «...وقد كان للمترجم اتصال وثيق بالفقهاء الإلْغيين خصوصا علي بن عبد الله، يجاذبهم الأدبيات...

---

945) اليزيد الراضي ـ شعر داود الرسموكي، ص : 81 وترجمة البشير الناصري بالمعسول 10/ 34.
946) المرجع نفسه، ص : 74.
947) أنظرها بالمعسول 10/ 20ـ21.
948) أنظر المعسول 15 / 219، 19/ 199، 10/ 21 وما بعد.
949) أنظر المعسول 3/ 292 و 417.

ولذلك حرص على إرسال بعض أولاده للمدرسة.. وكان يتذوق الأدب، ويحاول الإجادة في صوغ القريض».(950)

هذه إذن بعض مظاهر الإشعاع الإلْغي في سوس لم نستقصها كلها لضيق المجال عن تتبع الجزئيات في هذا المقام، وجملة القول إن إشعاع المدرسة شمل كل المنطقة؛ حتى عادت الآداب مزدهرة نشيطة؛ بسبب انتشار تلاميذ الإلْغية وتلاميذهم بكافة جهاتها؛ ونشر مذهب أساتذتهم الأدبي، ثم سعي غيرهم إلى التشبه بهم، فكان لهذه الحركة الأدبية الإلْغية المنشإ، أثر كبير في تحريك الهمم. فصار المتأثرون بإشعاعها يلزمون أنفسهم بدراسة الأدب وممارسته، بينما قنع آخرون، ممن انحاشوا إلى هذه النهضة تقليدا، بالإغارة على نثر الإلغيين أو شعرهم ينسبونه إلى أنفسهم تجملا وتزينا،(951) «فكم فقيه يلج الحلبة بين هؤلاء فيتخذ متندر المحافل ما شاء الله..».(952)

هكذا صارت المدرسة الإلْغية قبلة محبي الأدب في سوس حتى شهد بذلك كبارهم؛ فهذا القاضي الأديب موسى الرّسموكَي يقول للأستاذ علي بن عبد الله الإلْغي لما زاره بتارودانت : «لم تبق رائحة الأدب إلا في حضرتكم»،(953) ونتيجة لذلك نقول مع أستاذنا الدكتور اليزيد الراضي، إنه «... يمكن للمرء إذا نظر إلى استمرار عمل الإلْغيين في تلامذتهم وتلامذة تلامذتهم أن يقرر بكثير من الاطمئنان أن سوس كلّها مدينة – وإن بدرجات متفاوتة – في ازدهارها الأدبي الذي عرفته في هذه الفترة، لمدرسة إلْغ ولزعيمها بالخصوص، محمد بن عبد الله وأخيه أبي الحسن، فبفضل تلامذتهما المباشرين وغير المباشرين، زودت سوس بدم أدبي جديد، فانتشعت وانتبهت من غفوتها، وألقت عنها ما اعترى غالب مناطقها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين من خمول وركود».(954)

---

950) المعسول 18/ 431.
951) المعسول 12/ 232.
952) أنظر انتحال إبراهيم بن مبارك الصوابي رسالة للطاهر الإفراني بالمعسول 17/ 308 ـ 309 وقارن بما في الجزء 2/ 23.
953) سوس العالمة ص : 102.
954) المعسول 18/ 21.
954) المعسول 18/ 21.

المبحث الثاني - إشعاع المدرسة على الصحراء المغربية :

لم ينحصر إشعاع المدرسة الإلْغية في منطقة سوس، بل جاوزها جنوبا نحو الصحراء، فقد اتصل أدباء الإلْغية بالصحراويين، وقد حلّت طائفة كبيرة منهم بسوس عندما حل به الشيخ ماء العينين، وهم الذين يغلب عليهم حب الشعر والولع به حتى قال عنهم محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين : «... وأما فنون الآداب في سائر أنحائها والأشعار والمحاضرات فهي جبلة في كثير منهم لا يحتاجون فيها كثير معاناة فهي من باب السجايا والغرائز..»،(955) فتآلفوا مع الإلْغيين على الأدب وتداول فنونه وذلك من خلال مناسبتين :

أ - زيارة الأدباء الصّحراويين إلْغ وإقامة بعضهم بها مدة من الزمان. توثقت الصلات بين زعماء إلْغ الأدبية والأدباء الصحراويين؛ بعد اشتهارهم وإضافتهم وجاهة الرئاسة إلى السمعة العلمية، وذلك حتى قبل قيام الشيخ الهيبة برسم الإمارة، إذ كان أدباء الصحراء يفدون على إلْغ فيقيم بها بعضهم مددا قد تصل إلى عدة سنوات، بينما يزورها آخرون فينة بعد أخرى،(956) ومن المقيمين نذكر الأديب محمد بابا الصحراوي الذي كان «... في أخريات حياته لا يطيب له المقام، في كثير من الأوقات، إلا في إلْغ لما رأى في أهله من الدين والفضل، ولما لهم به من حفاوة وإعجاب كبير»،(957) والشيخ سيديا الصّحراوي المقيم ضيفا على أبي الحسن الإلْغي عدة سنوات،(958) ثم محمد سالم العلوي الصّحراوي الذي سكن «...عند الأستاذ سيدي المدني في داره ويقاسمه ما تيسر مع ضيق ذات اليد.. نحو ثلاث سنوات».(959)

أما الأدباء الزائرون فمنهم محمد بن يحيى الولاتي المقيم هناك حوالي خمسة عشر يوما أخذ فيها الطلبة بعض دروس البيان،(960) ومحمد الإمام، وماء العينين بن العتيك، والمحفوظ الحضرمي، ومحمد بن عبد العزيز،(961) وقد شارك كل هؤلاء في حركة إلْغ الأدبية، فكان لهم وفدهم الأدبي الذي يوازي وفد إفران، بما يواكب مقدمه من قصائد ومقطعات، وقد يحدث أن يلتقي الوفدان هناك فتهتزّ جنبات ذلك البسيط الإلغي بمطارحاته،(962) وتتوالى الأشعار الإخوانية، ويجارى الصحراويون، ذوو الأقوال المتينة،

---

955) شعر داود الرسموكي، ص : 70، وأستاذنا الراضي هو مقترح الاشتغال بهذا البحث حول المدرسة الإلغية فله جزيل الشكر.

956) الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنقيط... ص: 40 - 41.

957) أنظر د. عباس الجراري ـ شعر الصحراء، مجلة دعوة الحق عدد 273، ص : 115.

958) المعسول 3/ 29.

959) المصدر نفسه ص : 26.

960) نفسه، ص : 35.

961) أنظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.

962) انظر حولهم المعسول 4/ 284 وما بعد.

الإلْغيين في إلقاء الشعر على عواهنه على عادتهم في الإخوانيات فتأتي قصائدهم على غير ما هو معهود منهم من علو النفس وجودة القصائد ومتانتها، فهذا محمد بابه قال عنه المختار السوسي مشيرا إلى هذه الظاهرة بعد أن عرض بعض أشعاره : «تلك بعض آثار المترجم الإلْغية، وأحسبه تأثر ببيئتهم حتى صار ما يقوله، لا يشبه ما يقوله المفوّهون من شدق آل كردوس»،(963) وقال أيضا عن محمد سالم الصحراوي «كان في الإلْغيات يسف كثيرا... [و] ... ما قاله في الإلغيين لا يمت إلى الشاعرية التي يعرف بها...(964)

وبالإضافة إلى ذلك كان للصحراويين نصيبهم من المشاركة في الندوات الأدبية الإلْغية بتعاطي الأدبيات والمباحثات اللغوية(965) وسرد كتب الأدب،(966) في انسجام عجيب حتى لقد سمّاها بعض المؤرخين ندوة الأدباء العجم والعرب،(967) لجمعها بين أدباء إلْغ الشلحيين وأدباء الصحراء الأعراب.

وقد تمخض عن هذا الاتصال الوثيق إعجاب كل طرف بصاحبه، خاصة الصحراويين، الذين لم يجدوا في سوس من رحب بهم واستضافهم كالإلغيين، الذين احتفلوا بهم لعلمهم، وجعلوهم المرجع في كثير من المسائل والقضايا اعترافا بفضلهم واحتراما لقدرهم، ومن أمثلة هذا التقدير ما جرى في ندوة من الندوات الإلْغية، إذ «.. جرى بحث كلمة لغوية... فقال أبو الحسن بن عبد الله : أيفتى ومالك بالمدينة ؟ أيمكن لأحد أن يقول، وهنا الشيخ سيديا الذي إليه الأعنة ؟ فكل الصيد في جوف الفرا..».(968)

أما الصحراويون فقد نظموا الأشعار في مدح إلْغ وأهلها منذ محمد يحيى الولاتي الذي قال :

يَا أَهْلَ تَحْتِ الْحِصْنِ أَنْتُمْ فَوْقَهُ
مَعْنًى وَحِصْنُكُمْ بِعِلْمٍ يَشْرُفُ
مَا ضَرَّ مَنْ بِالْفَوْقِ مَعْنًى وَصْفُهُ
إنْ كَانَ فِي حُسْنٍ بِتَحْتٍ يُوصَفُ

963) المعسول 4/ 284 و 3/ 26.
964) المعسول 3/ 33.
965) نفسه، ص : 36 – 37.
966) نفسه، ص : 27.
967) المعسول 4/ 300.
968) نفسه، ص : 286.

فَـــارْقَـــوْا بِجِـــدٍّ وَاجْـــتِـــهَـــادٍ لِلْعُـــلاَ
تَرْقَـــوْ مَـــعَـــالِي حَـــدُّهَا لاَ يُوصَفُ(969)

مرورا بمحمد بابا، ومحمد الإمام، وابن العتيق الذي قال (الطويل) :

بَنُو إِلْغَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْمَـــجْـــدِ وَالْفَـــضْلِ
يَصْـــدُقُ فِـــيهِمْ كُلُّ مَـــا مُـــسْـــهِبٌ يُمْلِي
عُـلُـومٌ وَآدَابٌ وَجُـــــــــــودٌ وَخِـلَـةٌ
صَـفَتْ كَـرَحِـيقِ كَـأْسٍ أَوْ شَـهْـدَةِ النَّحْلِ
وَدِينٌ وَدُنْيَـــا وَالشَّـــهَـــامَـــةُ كُلَّمَـــا
يُثَـــارُ إِذَا جَـــدَّ النِّضَـــالُ إِلَى النَّصْلِ
وَجُـــــــودٌ فَـــــــمَنْ يَلْمُمْ بِهِمْ يَرَ أَنَّهُ
وَإِنْ لَـمْ يَكُـنْ مِنْ أَهْـلِهِمْ، أَحَـــــدُ الأَهْـلِ
نَسِـيمَ الصَّـــبَـــا سَلِّمْ عَلَى إِلْغَ مِنْ فَـتَى
يَرَى كُلَّ إِلْغِيٍّ لَهُ مُـــــخْلِصُ الخِلِّ(970)

كمـــا سجّـل أثر هـــذا الإتصـال بـين الإلْغَيــين والصحراويين على الأدب وما نتج عنه من إحياء مواته، وإذكاء جذوته، الشاعر الحسن البونعماني في قصيدة قال فيها : (الكامل).

حُـــيِّـــيتِ إِلْغُ فَـــمَـــا أَجَلَكِ مَـــجْـــمَـــعـــاً
لِوُفُـــودِ شِـــعْـــرٍ أَيْنَ مَنْ يَسْـــتَنْكِفُ
عُلَمَـــاءُ صَـــحْـــرَاءَ الْفَـــسِـــيـحَـــةَ جَـــدَّدُوا
فِـــيـــهَـــا عُكَاظاً لِلنُّهَى تَسْـــتَـــوْقِفُ
أَحْـــيَـــا الْوَلاَتِي فِي الْمَـــوَاتِ حَـــدَائِقـــاً
غُلْبَـــاً، بِفِكْرٍ فِي الْمَـــعَـــارِفِ، تُقْطَفُ
وَابْنُ الْعَـــتِـــيقِ مُطْرِبٌ بِقَـــرِيضِـــهِ
وَعَلَيْـــهِ أَعْـــلاَمُ الْبَـــيَـــانِ تُرَفْـــرِفُ

---

969) المعسول 3/ 27.
970) نفسه، 1/ 64.

وَعَلَيْـــهِـــمَـــا نُبَـــغَـــاءُ إلْغ أغْـــدَقُـــوا
كَـــرَمـــاً وَآدَاباً وَمَـــا يُسْـــتَطْرَفُ
هُـمْ أفْـــعَـــمُـــوا منْ كُلِّ فَن أكْـــؤُسـاً
للْوَافِـــدينَ وَبِالنَّوَادر أتْحَـــفُـــوا
صِفْ بِالْمَـــفَـــاخِـــرِ إلْغَ فَـــهْيَ جَـــديرَةٌ
وَأنَا بِإلْغَ فِي الْمَـــفَـــاخِـــرِ أعْـــرَفُ(971)

ب - **مشاركة تلاميذ الإلغية في الحركة الأدبية حول الشيخ الهيبة** : من المناسبات التي شهدت بروز أدباء الإلغية في المحافل الأدبية قيام حركة الشيخ الهيبة، إذ التف حولها غالب أدباء سوس وشايعوها مسوقين بعاطفتهم الوطنية الجيّاشة «ففجرت قرائحهم، وشحذت أذهانهم، وألهمتهم قصائد شعرية جيدة، بحيث نستطيع أن نقرر مطمئنين أنها كما هزت سوس سياسيا هزته أدبيا، وكما التف حولها السوسيون يحملون السلاح ويناضلون عنها، تثبيتا لسلطتها، ونشرا لنفوذها، التفوا حولها يحلون جيدها بعقود ثمينة من شعرهم».(972)

وقد ساهم أدباء الإلْغية مساهمة فعالة في هذه الحركة، وكانت قصائدهم ورسائلهم وخطبهم تتوالى في نصرتها ومنهم الطاهر الإفراني الذي كان «... بلبل هذه الحركة الصداح، فقد تغنى بمجد الأسرة المعينية وأشاد بالهيبة وخليفته من بعد، ووشح صدريهما بأوسمته الشعرية الرائعة وخلد مآثر هذه الأسرة بقصائده الطنانة.(973) ومحمد التّونلي التّملي(974) ومحمد بن علي الإلْغي، وأحمد أبناو الإيغشاني، وأحمد بن سعيد الأكَماري(975) وأخيرا علي بن عبد الله الإلْغي الذي اشتهر «بذلاقة لسانه وبلاغة بيانه وتدفق عباراته، التي تتدفق كلما قام في مجمع من مجامع القبائل».(976)

وقد لفت مستوى أدباء الإلْغية المتميز أنظار الصحراويين، واهتموا بمشاركتهم الأدبيات في مسجالات نثرية وشعرية إعجابا بهم، ويتجلى هذا الإعجاب في مثالي :

971) المعسول 4/ 298، وانظر قصائد محمد بابا ومحمد الإمام في المعسول 1/ 66 و 4/ 287.
972) الحسين أفا ـ ديوان الحسن البونعماني، ص : 475 .
973) شعر داود الرسموكي، ص : 43.
974) المرجع نفسه، ص : 44.
975) انظر المعسول 4/ 116.
976) ذكر المختار السوسي في خلال جزولة 2/ 187 أن هناك مؤلفا تحت عنوان بحور البدائع المحتوية على درر الأشعار المصطفوية «لابن العتيق، ضمنه قصائد هؤلاء الشعراء في مدح الأمير الصحراوي.

أولا : إعجاب الشاعر ابن العتيق الصحراوي بتقريظ وتخميس الطاهر الإفراني قصيدة للشيخ الهيبة في المدح النبوي، مما دفعه إلى احتذائه وتناول القصيدة المعينية تخميسا وتقريظا.(977)

ثانيا : موازنة الشيخ الهيبة بين الأديبين علي بن عبد الله الإلْغي والطاهر الإفراني وتفضيل أولهما في النثر وثانيهما في النظم، فقد سأل الأديبَ أحمد بن الحاج محمد اليزيدي الموازنة بينهما فأجابه بقول الشاعر : (البسيط).

كِلاَهُمَا حِينَ جَدَّ الْجَرْيُ بَيْنَهُمَا

قَدْ أَقْلَعَا وَكِلاَ أَنْفَيْهِمَا رَابِي

«فقال له صدقت، غير أن الأستاذ الإلْغي في النثر أبرع ولا يشق له فيه غبار، وليس دون وادي أم الربيع إلى شنقيط من يوازيه في الترسل، والأديب الإفراني شاعر مصقع، فرع في براعته وبلاغته كل من يتعالى إلى النزاع في القوافي في الغرب كله».(978)

ويدل رأي الشيخ الهيبة على إجلاله وإكباره لهذين الأديبين وتقديره لفنهما ومبلغ تأثيرهما في نفسه وفي عامة الأدباء الصحراويين الذي كانوا من جملة حاشيته.

ويمكن أن نقول أن قوة عارضة أدباء الإلْغية وأريحيتهم الأدبية أسهمت في لفت انتباه الصحراويين إليهم فاهتبلوا بهم، إذ وجدوا فيهم قرينا ينافسونه ويحتكون به ويبارونه في جلسات أدبية وعلمية كثيرة، كانت تعقد إما في مجلس الشيخ الهيبة وآله وشعراء حاشيته من الصحراويين،(979) وإما في إلْغ، في بيت الأديب الكريم علي بن عبد الله الإلْغي، وقد كانت حصيلة كل هذا الإشعاع؛ مئات القصائد والمقطعات تعبر عن استفادة كل طرف من صاحبه، وعن مجاراة الصحراويين للإلْغيين في مجال القول، نتيجة لما كانوا يتعرضون له من حث واستنهاض، وبهذا أساهموا بحظهم الوافر في إثراء الأدب العربي في سوس والصحراء(980) في وقت كان من الممكن، لولا إشعاع الإلغية، أن لا يتناولوا الأدب بمثل هذا الاهتمام فيتجاهلوه كلية، أو يقتصروا على تعاطي فنونه فيما بينهم لو وجدوا السوسيين لايهتمون بغير الفقه وما وراءه من علوم.

---

977) المعسول 1/ 342.

978) انظر المعسول 4/ 222، 242.

979) المعسول 1/ 349.

980) انظر مساجلات هذا النوع بالمعسول 4/ 276 - 277.

المبحث الثالث - إشعاع الإلغية على الحواضر المغربية :

مثلما انتشر إشعاع الإلْغية جنوبا نحو الصحراء، امتد شمالا نحو الحواضر الكبرى شمال جبال الأطلس، نتيجة لاتصال تلاميذها بأدباء هذه المدن واحتكاكهم بهم، واطلاع كل طرف على ما لدى قرينه من علوم وآداب، وقد أتيحت لهم فرصة هذه اللقاءات في مناسبتين :

أ - زيارة أدباء الإلْغية لهذه الحواضر التي كانت عبر الأزمان مراكز جذب للطلبة والعلماء السوسيين، إذ كانوا يفدون عليها إما للازدياد من العلوم من معاهدها، وإما لزيارة من بها من كبار العلماء والصلحاء، أو لخدمة المخزن بشغل الوظائف الرسمية.(981)

وهكذا شد الرحال إلى هذه المراكز الكبرى عدد من تلاميذ الإلْغية فهناك من رحل لزيارة الصلحاء ثم استغل سفرته للقاء العلماء والأدباء والتبرك بهم، كالطاهر الإفراني الذي كان في طليعة المسافرين، فقد زار فاسا أول مرة للوقوف على ضريح شيخ الطريقة التجانية التي ينتمي إليها.(982) وأتيح له لقاء كثير من علمائها وأدبائها كعلال بن شقرون، ومحمد بن عبد السلام كَنون، والغالي بن موسى بن معزوز، ومحمد بن العربي الزرهوني.. وجال بعد ذلك في حواضر أخرى كالرباط وسلا حيث لقي بعض تلاميذ العربي بن السائح، كأحمد بن موسى السلوي، ومحمد بن موسى بن محمد عواد السلوي، والصويرة لدى القاضي الأديب أحمد بن المامون البلغيثي، وسطات عند القاضي أحمد سكيرج، ومكناس لدى النقيب عبد الرحمان بن زيدان. ومراكش حيث لقي محمد بن إبراهيم المراكشي، والقاضي إدريس الورزازي، وجماعة من تلاميذ تلميذه المختار السوسي.(983) وإلى جانب الطاهر الإفراني هناك أحمد بن الحاج محمد اليزيدي الذي كان له اتصال بالحضريين «فهناك قواف بينه وبين النقيب العلامة الأديب المؤرخ... ابن زيدان وبينه وبين الأديب الشاعر الحاج أحمد سكيرج وبينه وبين الأديب القباج...».(984)

وإلى جانب هؤلاء الأدباء الإلْغيين الذين زاروا الحواضر، هناك آخرون أقاموا بها إما مؤقتا كالأديب القاضي مَحمد بن محمد الكثيري الذي غادر موطنه بسوس عام 1354هـ، بعد أن سجن ظلما من قبل سلطات الاستعمار، واستقر بمدينة الجديدة حيث اشتغل بالتجارة،(985) دون أن يصرفه ذلك عن الاتصال بأدباء المدينة وعلمائها كمحمد

981) انظر شعراء داود الرسموكي، ص : 42 وما بعد.
982) انظر مدخل البحث.
983) انظر المعسول 7/ 27.
984) المصدر نفسه، ص : 102 وما بعد.
985) المعسول 9/ 193.

ابن المامون الجديدي،(986) ومحمد بن أحمد التادلي الرباطي الجديدي، والعلمي بن إدريس الجديدي،(987) ومحمد الخطاب الجديدي،(988) وهناك أدباء آخرون أقاموا بالحواضر بصفة دائمة كعبد الرحمان البوزكارني.. الذي استقر بالرباط حتى وفاته منقطعا إلى مصاحبة كبار أدبائها(989) وعلمائها، كالشيخ المدني بن الحُسني(990) والحاج محمد بن عبد الله ملين،(991) والعلامة عبد الله الجراري.(992)

ب - زيارة بعض أدباء الحواضر لسوس نتيجة للقائهم بالأدباء السوسيين واطلاعهم على ما لديهم من تعمق في العلوم وذوق عال في الآداب، فأدركوا أن في هذه المنطقة الممتدة وراء الأطلس الكبير، أمة من الناس ديدنها الاهتمام بالعلوم العربية على اختلاف أنواعها، فقصدوها للاطلاع عن كثب على أحوالهم ولقائهم في بلادهم، ومن هؤلاء نذكر القاضي أحمد سكيرج الذي دوّن مشاهداته في رحلة منظومة سماها «تاج الرؤوس، بالتفسح في نواحي سوس،(993) والنقيب ابن زيدان الذي وصل حتى إفران حيث زار الأديب الإفراني بمدرسته،(994) ودوّن رحلته أيضا في كراسة.(995)

وقد مكنت اللقاءات، من خلال هاتين المناسبتين، أدباء الإلْغية من التعرف على أدباء الحواضر، والاتصال بهم والحفاظ على هذه الصلات حتى بعد مفارقة المدن، وكان الأساس الذي بنيت عليه هو تعاطي الأدبيات والتباحث في المسائل العلمية خاصة اللغوية، مما مكن أدباء الإلْغية من إغناء تجاربهمم الإبداعية وتطويرها مسايرة للأدب الحضري إذ

---

986) المعسول 9/ 258.

987) أصله من زمور ولد حوالي عام 1917 كان يعمل مؤذنا بأحد مساجد الجديدة.

988) سألت الفقيه الكثيري عنهما فأجاب بأنه لم يعد يذكر أي شيء عنهما.

989) أستاذ ببعض المؤسسات التعليمية الثانوية بالجديدة، وخطيب بأحد مساجدها وصهر القائد العيادي قائد الرحامنة، وكان عمره عندما لقي الفقيه الكثيري ما بين الخمسين والستين سنة. (سجلت هذه التراجم عن الفقيه الكثيري لما جالسته بضيعته بأولاد داحو صباح يوم 16 يونيو 1994م).

990) انظر المعسول 10/ 150.

991) انظر ترجمته بأعلام العدوتين 200/ 201.

992) المصدر نفسه، ص : 169.

993) انظر ترجمته عند ابنه د. عباس الجراري ضمن شخصيات مغربية رقم : 7.

994) طبعت هذه الرحلة بعناية مؤلفها بفاس في 64 صفحة بالإضافة إلى الفهارس.

995) ذكر الإفراني ذلك في قصيدة يلوم فيها سكيرج على عدم زيارته، وذلك في قوله :

مَا ضَرَّهَا لَوْ أَنَّهَا جَادَتْ عَلَى ... بَغْت وَعَدَّتْنَا مِنَ الإخْوَانِ

وَحَكَتْ بِمنَّتِهَا الْجَمِيلَةَ فِعْلَ مَوْ ... لاَنَا أَبِي زَيْد الرِّضَا الزَّيْدَانِي

لَمَّا أَتَانَا زَائراً فِي سَاعَةٍ ... أَنْسَت لِدي ذُنُوبَ كُلَّ زَمَانِ

انظر القصيدة بتمامها في المعسول 7/ 144.

«... إن الإلتحاق بالحواضر، والاحتكاك بثقافتها وحضارتها وأخلاق أهلها، يلقح الأديب، ويصقل قريحته وينمي ملكته، ويرقق أحاسيسه، ويقوم لسانه على مالذ وطاب من أفانين القول...»،(996) كما كان من أثر هذا الاتصال أيضا امتداد إشعاع المدرسة الإلْغية إلى أدباء هذه الحواضر، ويمكن أن نجمل مظاهره فيما يلي :

* **المظهر الأول** : المساجلة الأدبية. كانت حصيلة التعارف بين أدباء الإلْغية وأقرانهم الحضريين مئات القصائد التي تعاطوها، يتساجلون بها فيما بينهم في إطار تنافس شريف على الإجادة في فنون القول وإعلاءً لراية الأدب، وتعبيرا عن عواطفهم الإخوانية العميقة تجاه زملائهم، ولسنا بصدد عرض هذه المسجالات لكثرتها ولكون بعضها مدونا بالمعسول(997) سنكتفي بنماذج منها للأديب الكثيري الذي أقام بالجديدة وكانت له صلات وطيدة بأدبائها رغم انشغاله بالتجارة، خلدها بقصائد ومقطعات لا تزال مخطوطة في كناشه، من ذلك قوله مادحا محمد بن أحمد التادلي، ومنوها بمودته في 13 يناير 1939م بقصيدة مطلعها : (الكامل)

اَلْآنَ أعْلِنُ غِبْطَتِي إعْلاَنَا
فَأبيتَ ضِدَّ كَآبَة جَذْلاَنَا

قال فيها مخاطبا صديقه : (الكامل).

وَلَقَدْ بَلَوْتُ النَّاسَ في أخْلاَقِهِمْ
وَجَرَيْتُ في آثَارِهِمْ مَيْدَانَا
وَشَهِدْتُ مِنْ أحْوَالِهِمْ مُتَبَايِناً
وَرَأَيْتُ مِنْ آرَائِهِمْ ألْوَانَا
وَدَرَسْتُ مِنْ تَارِيخِهِمْ أقْدَارَهُمْ
وَنَصَبْتُ في تَقْدِيرِهِمْ مِيزَانَا
فَغَلَبْتَ يَا ابْنَ التَّادلِيِّ جُمُوعَهُمْ
وَرَجَحْتَهُمْ عِنْدَ الْعُلاَ رُجْحَانَا
أدَبٌ وَعِلْمٌ عُنْصُرَان تَمَازَجَا
فِي شَخْصِكُمَ فَتَوَحَّدَا جُثْمَانَا(998)

---

996) سوس العالمة، الإهداء، وشعر داود الرسموكي، ص : 47.
997) شعر داود الرسموكي، ص : 45.
998) انظر المعسول 7/ 115 وما بعد و 9/ 193-261.

كما قال في تهنئة صديقه محمد بن المامون الجديدي بالقدوم من سفر قصيدة مطلعها : (الكامل).

أأقُــــولُ أمْ أطْوِي بِسَـــــاطَ مَــــقَــــالِي ؟

وَأكَنِّي أمْ أبْدي ضَــمِــيــرَ خَــيَــالي(999)

ولما توفي صديقه محمد الحطّاب عام 1359هـ رثاه بقصيدة مطلعها : (الكامل).

عَــجَـــبــاً لِدَهْرِي جَــدَّ في وَثَبَـــاتِه

فَـأبَاحَ مِنْ مَـجْـدَي عَظِيمَ حُـمَـاته(1000)

وقـال في رده على العلمي بن ادريس الجديدي الذي داعبه فلقبه أمير القوافي : (الكامل).

حَــسْبُ الْقَــوَافِي أنْ أكُـــونَ أمِـــيـــرَهَا

وَأبِيتَ نَدْمَــانَ الْعَــرُوضِ سَـمِـيـرَهَا(1001)

هكذا كان تلاميذ الإلْغية يسعون أينما حلوا وارتحلوا للحفاظ على معارفهم الأدبية بتداولها والمداومة على المساجلة مع من يلاقون من الأدباء ولعل من أطرفها تلك التي جمعت بين تلميذ المدسة أحمد بن عمر رزقي الإلْغي والقاضي عبد الغني المومي، إذ كان كلاهما مغتربا بفرنسا، فالأول عمل عدلا موثقا بقنصلية المغرب بباستيا عاصمة جزيرة كورسيكا. أما الثاني فكان مستشارا قانونيا مكلفا بالتنسيق التوثيقي بسفارة المغرب بباريس،(1002) فكانت المساجلة الأدبية عن طريق المراسلة وسيلتهما المفضلة للتعارف أولا،(1003) ثم لتضميد جراح الغربة ثانيا. وهكذا صارت تلكم المراسلات التي ألف الموثقون تبادلها وحشرها بمسائل التوثيق وقضاياه، رسائل طافحة بالأدبيات تحفل بالأمثال والأبيات والمقطعات والقصائد والمباحثات اللغوية. وتخليدا لهذه المساجلات الفريدة نسوق مطالع بعض ما ورد فيها من قصائد، فمنها قول القاضي عبد الغني المومي مجيبا عن قصائد شعرية للأديب الإلغي : (الطويل)

---

999) كناش الكثيري، ص : 70.

1000) المصدر نفسه، ص : 82،

1001) نفسه، ص : 95.

1002) نفسه، ص : 100.

1003) عبد الغني المومي : أصله من صفرو، تخرج من القرويين بفاس، ثم اشتغل بالقضاء، فكان رئيس غرفة الاستئناف بمراكش ثم الجديدة، ثم مشرفا مكلفا بالتنسيق بين العدول بفرنسا حتى عودته إلى المغرب حوالي عام 1985. (رواية شفوية لأحمد رزقي الإلغي لما جالسته بمنزله بأكادير يوم 10 يونيو 1994).

عَلَى رِسْلِ خِدْنِ الشِّعْرِ إنِّي أرَانِيَا
به منْ قَدِيمِ الْعَهْدِ كُنْتُ مُبَاهِيَا
وَإنِّي وَإنْ صِرْتُ الْقَدِيمَ زَمَانُهُ
لأطْرَبُ منْ شِعْرٍ به صِرْتُ حَادِيَا

وقد صدرها بالتنويه بأشعار صديقه قائلا : «... توصلت برسالتكم الشعرية تتلوها النثرية، فحركت الكوامن، وأثارت الدفائن، وجلبتا ما ندري وما لا ندري، وإليكم الجواب...»(1004) فأجابه رزقي الإلْغي بقصيدة تقريضية صدرها بالاعتذار عن ضعف شعره قائلا : «.. ثم إن تلك الحماسة حفزتني إلى جمع كلمات مستعينا، في جلها بتلك القلادة العصماء، وقفوت نهجها بحراً وقافية ليسهل الاتكاء عليها...»(1005) قال (الطويل).

قِلاَدَةُ جَوْهَرٍ تَحَلَّى بِهَا صَدْرِي
فَتِهْت بِهَا فَخْراً وَقَوَّمْتُ غَالِيَا
أتَتْنِي مِنْ بَارِيزَ تَلْمَعُ رَوْعَةً
فَقُلْتُ لِمُهْدِيهَا كَفَانِي كَفَانِيَا
تَلَوْتُ سُطُوراً بِالْمَعَانِي مُضَادَةً
يَسِيلُ بِهَا سَيْبُ الْبَلاَغَةِ صَافِيَا....(1006)

وخلاصة القول، حول المساجلة الأدبية، إنها كانت وسيلة للتعارف بين أدباء الإلْغية وأدباء الحواضر، وقد نتج عنها اطلاع الحضريين على مقدار تمرس أقرانهم السوسيين بالأدب، مما أسهم في تغييب نظرة التنقيص التي طالما صدروا عنها،(1007) ثم كانت أيضا وسيلة للاستفادة وتبادل الأفكار وإغناء التجارب، فقد أغنت الأدب العربي بالمغرب «...لأنها خلقت جو المنافسة الشريفة بين الأدباء، وأضافت بذلك إلى الثروة الأدبية المغربية قصائد كثيرة ورسائل عديدة..».(1008)

* **المظهر الثاني** : الإعجاب المتبادل بين الحضريين والإلْغيين، وقد تجلى هذا الإعجاب في عدة ملامح.

1004) حدثني بذلك رزقي الإلغي بتاريخ منتصف يوليوز 1992.
1005) أوراق أحمد عمر رزقي.
1006) المصدر نفسه.
1007) نفسه.
1008) انظر المبحث الثالث من المدخل.

أولا : إعجاب الحضريين بأدباء الإلْغية. وهو إعجاب اختلط فيه الإكبار بالاستغراب وتجلى في :

- **الترجمة** : حيث ترجموا ضمن مؤلفاتهم حول الأعلام، لمن أعجبوا به من أدباء الإلْغية، فقد ترجم محمد بن العباس القباج في كتابه «الأدب العربي في المغرب الأقصى» للطاهر الإفراني وتلميذه المختار السوسي،(1009) وأعلن عن عزمه الترجمة لآخرين من طلبته.(1010) كما ترجم العلامة عبد الله الجراري لعبد الرحمان البوزكارني في كتابه «أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا»،(1011) وفي هذا اعتراف بعبقرية هؤلاء المترجمين واستحقاقهم أن يصنفوا ضمن الأعلام المبرزين.

- **التعبير عن الإعجاب** : كان أدباء الحواضر يتتبعون باهتمام بالغ إبداعات بعض أدباء الإلْغية، ومكانتهم الرفيعة في الآداب، خاصة الطاهر الإفراني وتلميذه البوزكارني. وعبروا عن الإعجاب والتقدير لهم ومنهم :

* الأديب عبد الكريم بن الحُسْني الرباطي، الذي قال عن اهتمامه وإعجابه بشاعرنا : «... وقد كنت مولعا بهذا الشاعر السلس التعبير منذ لمحت إحدى درره أعقاب «الدرر الفاخرة» للشريف الرضي نقيب مكناس، فنبهتني غريزته إلى صاحبها بحسن سبكها، ومتخير لفظها ووزنها... ونفسه الغريب إذ ذاك.. فجعلت أتتبع نفثاته ولا أكتفي بالنتف التي عثرت عليها تقريظا في آخر الابتهاج، ومديحا أواسط «عواطف الشعراء» وأمثلة في «الأدب العربي» وغير ذلك مما أقتطفه من بعض المذكرات الخاصة...».(1012)

* الأديب النقيب عبد الرحمان بن زيدان الذي فضّل الأديب نفسه على كثير من معاصريه كما حدّث الحسن البونعماني عنه بقوله : «... حتى ليعليه فيما حكى حاك عن كثيرين، وسمى أناس لأنهم وإن اتحدوا في المشاركة في العلوم فإن الإفراني قد برع في الذي يرسله من الشعر الذي إن توفر عليه لا يشق له غبار، هذا ما يقوله النقيب... الذي لاتمنعه المعاصرة ولا تربية الحاضرة... من أن لا تكون منه إغماضات عن الاعتراف بهذا الأديب الذي تزدهي به اليوم البادية...».(1013)

1009) شعر داود الرسموكي، ص : 47.
1010) 1/ 19 ـ 2/ 60.
1011) 1/ 26.
1012) 6-2/ 340.
1013) من تقريظه للمعسول انظر الجزء 20/ 329.

* الأديب محمد القباج الذي أظهر إعجابه بالإفراني أيضا واستغرابه نبوغ هذا الشاعر المفلق في وسط أعجمي لا علاقه له بالعربية إلا قليلا، قال : «... هذا الشاعر ممن لا يزال إلى الآن يرزق في بحبوحة غربي القطر المراكشي، وفي سرة الشعب البربري حيث لايوجد من يعرفه كلمة واحدة من اللغة العربية، ولا من يلقي لمغزاها ولا إلى معرفة مفرداتها أذنا سامعة ولا قلبا واعيا...».(1014)

* الأديب العلامة عبد الله كَنون، الذي تابع القباج في استغراب صدور الأشعار العربية المبينة عن شاعر نشأ في سوس، فقال بعدما أورد قصيدة للإفراني : «...ويزداد إعجابنا إذا علمنا أنه من بادية سوس في صميم بلاد البربر...».(1015)

* الأديب القاضي أحمد سكيرج، الذي نسج على منوال القباج، فقال عن أدباء إلْغ الذين قرظوا رحلته السوسية : «... وإني لمعجب بسحرهم الحلال الذي يعرضونه في مرسح التمثيل المعجب، وإبدائهم له في إبداع غريب، فلله در السوسية وما أنجبت. وما كنت أظن أن يوجد مثل هؤلاء الأدباء الأفاضل بين من ينطلق باللغة الشلحيّة بأفصح منطق».(1016)

* العلامة عبد الله الجراري، الذي أعجب بمكانة صديقه عبد الرحمان البوزكارني من الأدب، بعدما صاحبه زمنا، فقال : «... ذلك مما أصبح له أبو زيد الأخصاصي علما من أعلام الأدب الكبرى، فأينما حلّ وسار فالأدب مرافقه يسوق راحلته ويقودها ملأى بالأدبيات الشعرية وغرر الحكم مع المجاراة الكبرى في شتى الفنون..»،(1017) والعلامة الجراري في رأيه هذا إنما ينوب عن علماء العدوتين الذين أطالوا، كما قال المختار السوسي، «.... العجب في استحضاره خصوصا في الأدب واللغة والسيرة وشواهد الأبيات...».(1018)

ثانيا : إعجاب أدباء الإلغية بالحضريين : وتجلى هذا الإعجاب في تلكم التقاريظ النثرية والشعرية لعدد من المؤلفات، فاز بالحظ الأوفى منها الطاهر الإفراني،(1019) وقد أثار مؤلفان إثنان اهتمام أدباء الإلغية أكثر من غيرهما :

1014) المعسول 7/ 98 .
1015) الأدب العربي في المغرب الأقصى 1/ 19.
1016) أحاديث عن الأدب المغرب الحديث، ص : 35.
1017) المعسول 19/ 152.
1018) أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا، 2/ 342.
1019) المعسول 10/ 150.

أولهما : كتاب «الأدب العربي في المغرب الأقصى»، فقد قرظه كل من أحمد بن الحاج محمد اليزيدي(1020) ومَحمد الكثيري.(1021)

وثانيهما : كتاب القاضي سكيرج «تاج الرؤوس»، وقد احتفى به أدباؤنا أكثر من غيره بسبب كونه مؤلفا حول سوس وعلمائه ورؤسائه. وهكذا قرظه الطاهر الإفراني،(1022) وأحمد بن الحسن أبناو الإيغشاني،(1023) وعبد الله بن محمد الإلْغي، والمدني بن علي الإلْغي، وأخواه محمد والحسن، وأحمد بن زكرياء السّكال الباعمراني.(1024) ويظهر أن هذه التقاريظ لم يكن الغرض منها إظهار الإعجاب فقط، وإنما عرض المهارات والقدرات الأدبية مما ساهم في التعريف بالمدرسة الإلْغية ونشر إشعاعها.

* **المظهر الثالث** : التكوين الأدبي. ساهمت المدرسة الإلْغية في التكوين الأدبي لبعض مشاهير أدباء الحواضر بواسطة تلامذة تلاميذها، خاصة بمراكش، فقد نقلوا اهتماماتهم بالأدب وطرق تدريسه إليها ورسخوها هناك، فكانت نتيجتها ظهور جيل جديد من الأدباء المتميزين المختلفي الاتجاهات، ومن العجيب أن يكون تلامذة الطاهر الإفراني أعمدة هذا الإشعاع وأدواته، وأقصد ثلاثة منهم : فهناك أحمد بن الحسين بيبيس الأخصاصي،(1025) وداود الرّسموكَي،(1026) ثم أجلهم قدرا محمد المختار السوسي فقد كان للأخصاصي والرّسموكَي يد بيضاء في نشأة شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم المراكشي الذي تلقى العربية عن الأول إذ «... شارطه له أبوه، وكان لهذا إلمام ببعض أشعار سيدي الطاهر الإفراني، فمن هنا تسربت إليه البذرة الأولى ثم لم يزل يتعهد الفن ويترقى بالمزاولة...»،(1027) أما الثاني فقد استفاد منه المراكشي بالمجالسة والمباحثة، قال الرّسموكَي : «... تعرفت بالشاعر ابن إبراهيم الذي كان شاعرا كبيرا بعدي، وهو إذ ذاك مبتدىء في الفن.. ولم ألق هناك من يتعالى إلى الأدب [غيرَه]... يحرس على أن نذاكره في الأدب، وكثيرا ما نجتمع معه وهو إذ ذاك كما ابتدأ يأخذ عن أساتذة ابن يوسف..».(1028)

1020) انظر المعسول 7/ 100.
1021) انظر المعسول 9/ 193.
1022) انظر المصدر نفسه، ص : 269.
1023) المعسول 7/ 143.
1024) سر الصباح، ص : 105.
1025) انظر المعسول 19/ 148.
1026) انظر ترجمته بالمعسول 8/ 134.
1027) انظر حوله : شعر داود الرسموكي، ص : 93 وما بعد.
1028) المختار السوسي ـ ذكريات، ص : 52.

أما العلامة المختار السوسي الذي نشأ في جو مدرسة إلْغ،(1029) دون أن يدرس بها،(1030) إذ اقتصر على التلمذ لتلاميذها بمدارس أخرى من فروعها الأدبية، فقد نقل طرق التدريس ومواده التي تلقنها إلى مراكش حيث أسس مدرسته بزاوية الرميلة، واجتمع حوله كثير من الشباب دفعهم إلى الاهتمام بالأدب بتخصيص أوقات لدراسة كتبه،(1031) قال في المعسول : «... فغالب من أخذوا عنا هناك، كالشاعر الحسن التناني، والمفوه عرفة الفاسي، والنابغة عبد الحي البزيوي، والمنطيق الجريء محمد بن العربي الأسفي، وشوقي أحمد بن محمد بن العربي الدكالي، ومحمد الروداني النابغة، وإبراهيم الأخ الإلْغي، وابن العم إبراهيم بن أحمد وآخرين أشربوا حب الأدب من بين تلك الدروس الأدبية التي كانت تلفت أنظارهم أكثر من غيرها...».(1032)

وكانت نتيجة عمله أن شهدت مراكش ازدهارا ثقافيا وأدبيا منقطع النظير خلال القرن الرابع عشر الهجري،(1033) كما أن تلامذة مدرسة الرميلة برز من بينهم أفذاذ أسهموا إساهما فعالا في بناء صرح الأدب المغربي الشامخ.(1034)

هذه هي بعض المظاهر التي تجلى فيها إشعاع المدرسة الإلْغية على الحواضر المغربية الكبرى، والذي استطاعت من خلال البروز باعتبارها مركزا أدبيا فذا، رغم انعزالها في البادية السوسية البعيدة، إذ ذاك، عن الحضارة والتمدن حيث كانت جماعة من الشلحيين يرابطون لقراءة العربية ومعرفة قواعدها، وإتقان علومها، والارتقاء بعد ذلك إلى درجة الإبداع فيها، حتى يصبحوا وكأنهم من أبنائها الأصلاء،(1035) فإذا سابقوا أقرانهم من الحضريين سبقوهم. بل إن العجيب حقا هو أن كثيرا من هؤلاء لم يعرفوا أدبهم العربي وجمالية لغتهم إلا نتيجة لإعلاء أدبائنا لشأنها وافتخارهم بالانتماء إليها كما أوضحنا فيما مر.

1029) المعسول 18/ 342.

1030) انظر محمد العثماني ـ محمد المختار السوسي... دورية المواهب، ص : 10.

1031) ذكر محمد خليل أن المختار السوسي درس بالإلْغية على أحمد البولوقتي التزنيتي، وهذا غير صحيح فقد درس عليه بالزاوية الدرقاوية. انظر محمد المختار السوسي دراسة لحياته وشعره، ص: 73 وقارن بما في الإلغيات 2/ 217، وتابعه في هذا الوهم الأستاذ عمر أفا في ترجمته لمحمد المختار السوسي بمعلمة المغرب.

1032) انظر محمد المختار السوسي، دراسة لحياته وشعره، ص : 158 وما بعد.

1033) المعسول 13/ 446. وانظر ذكريات، ص : 64.

1034) انظر شعر داود الرسموكي، ص : 33.

1035) انظر محمد خليل ـ محمد المختار السوسي...، ص : 86.

خاتمة :

نصل في نهاية هذه الدراسة إلى تقويم عام للمدرسة الإلْغية من خلال الأركان الثلاثة التي انبنى عليها الكتاب وهي تاريخ المدرسة، فالمنهج التربوي، ثم الإبداع الأدبي، ونستطيع من خلال ما سبق أن نقول مطمئنين إن نتائج هذه الدراسة تزكي كلها دور المدرسة الإلْغية وما قامت به في تعزيز الاهتمام بالتعليم العربي الإسلامي أولا، ثم الأدب العربي ثانيا.

فمن خلال الباب الأول : بفصوله الأربعة نخلص إلى أن مؤسس المدرسة قام بمجهود جبار لتحقيق مشروعه الطموح إذ واجه كثيرا من المصاعب والمتاعب بدءا بضعف قبيلته، ثم ضيق ذات يده عن القيام بالمدرسة وقسوة الأحوال الاقتصادية للمنطقة. ولولا إصراره لما ظهرت إلى الوجود هذه المؤسسة التي استطاعت في مدة وجيزة إيجاد مكان لها في محيطها العلمي بين زميلاتها السوسية، سواء بالمنافسة العلمية والأدبية أو بالتخريج والتكوين، فقد برز تلاميذها في المباريات الموسمية بتحصيلهم واجتهادهم، وفي إعمار المدارس حيث غدت الكثير منها فروعا للإلْغية تعتمد على مناهجها في التدريس والتربية.

أما الباب الثاني : فنخلص منه إلى كون الإلْغية إلى جانب غيرها من المدارس العتيقة بسوس تستند في مهمتها التربوية التعليمية على مناهج مستقاة من الفكر التربوي العربي والتجربة المنبنية على العمل الدائب لأساتذتها، فإلى جانب الجزاء والعقاب اعتمدوا لتلقين العلوم على التحفيظ والسرد والمباحثة والمراجعة، وجعلوا المنافسة وقود العملية التعليمية بشحن الطلبة كلّما غلبهم التعب أو الملل. كما نستنتج أيضا أن أساتذة المدرسة الإلْغية عملوا كل ما بوسعهم من أجل تلقين تلامذتهم العلوم المشهور تداولها في سوس، فكانوا يستدعون الأساتذة المبرزين في بعضها للتدريس بالمدرسة أو يرسلون طلبتهم إلى المدارس المشهورة بإجادة البعض الآخر منها.

أما الباب الثالث : فقد وقفنا فيه على المكانة المتميزة التي وضع فيها الأدب لدى أساتذة الإلْغية إذ جعلوا له دروسا ضمن المواد المتدارسة يوميا، واهتموا به أيام العطل الأسبوعية، وحثوا طلبتهم على حفظ إبداعاته الراقية، وعلى قراءة كتبه والاهتمام بكل ما يمت إليه بصلة من العلوم، مما جعل هؤلاء الطلبة يتجاوزون مرحلة معرفة اللغة العربية وإتقانها؛ إلى مرتبة الإبداع فيها نثرا وشعرا، ورأينا أن هذين الفنين عبّرا لديهم بصدق عن انشغالاتهم الدينية والوطنية والإخوانية، كما تناولا حتى أبسط مشاغلهم اليومية. أما من الناحية الفنية فقد ظهر لنا أن أدباء الإلْغية كانوا دائما يتطلعون إلى الإتقان في صناعتهم الأدبية، وقد ظلوا كغيرهم مترجّحين بين الإجادة والإسفاف وهذا ما لم يسلم منه حتى أعظم الشعراء، ولن نغالي فنصف أدباءنا بما ليس فيهم، ولكن يكفينا أنهم انسجموا مع مقاييس بيئتهم

وعرفها الأدبي السائد، وبذلك ماثلوا أقرانهم في مختلف مناطق المغرب مما استدعى إعجاب هؤلاء بهم.

كما استنتجنا كون أدبائنا منفتحين على البيئات الأدبية المغربية الأخرى بواسطة إشعاع المدرسة، فاتصلوا بزملائهم في سوس والصحراء والحواضر الكبرى بالتزاور والتراسل والتساجل، وكان لهم الفضل في إذكاء جذوة الأدب أينما حلوا وارتحلوا فصدر عنهم عشرات التلاميذ، ظهرت لهم آثار لا تجادل في نشر الآداب وإعلاء راياتها، وفي الواجهة الأخرى نجد اعتراف أعلام الأدب المغربي بجودة إنتاجاتهم وروعة منزعهم، مما يمكننا معه أن نقول، إن المدرسة الإلْغية كانت في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة مؤسسة فريدة من نوعها في كل المغرب في اتجاهها الأدبي واهتمامها بفني المنظوم والمنثور، وأنها إحدى الركائز التي قام عليها الأدب المغربي في هذه الفترة.

ملحق الظهائر والوثائق

1 – مرسوم سعيد بن محمد الكيلولي لعلي بن عبد الله الإلغي.
2 – مرسوم سعيد بن محمد الكيلولي للقائد مبارك المجاطي.
3 – ظهير الشيخ أحمد الهيبة لعلي بن عبد الله الإلغي.
4 – ظهير آخر لأحمد الهيبة في تحرير المرابطين.
5 – ظهير أحمد الهيبة في تعيين علي بن عبد الله الإلغي قاضيا.
6 – ظهير أحمد الهيبة في توقير واحترام أملاك الإلغيين.
7 – رسالة من الشيخ الهيبة إلى الأستاذ علي بن عبد الله بشأن المدرسة.
8 – رسالة أخرى في الموضوع نفسه.
9 – حكم الشيخ الهيبة في قضية نزاع عبد الله بن محمد وعمه الأستاذ علي بن عبد الله على المدرسة.
10 – ظهير مربيه ربه للمدنى بن علي بشأن تجديد ظهائر أسلافه.
11 – ظهير مربيه به في تولية المدنى بن علي رئاسة المرابطين.
12 – لائحة الطلبة المذاكرين بالمدرسة الإلغية بتاريخ 14-8-1377هـ.

الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

[illegible] يعلم من كتابنا هذا أسعد الله بتقواه [illegible] أن حاملة [illegible] المرابط [illegible]
ذا السيد الكامل والمرابط الواصل بتجديد ... [illegible] ... وهكذا [illegible] [illegible]
[illegible] السيد [illegible] بأمور [illegible] بذكر على [illegible] بعاملين
[illegible] من [illegible] التعظيم وذاكرين [illegible] التوقير [illegible] عن غيرهم من [illegible]
[illegible] بها [illegible] [illegible] بغير ذلك [illegible] وأمضينا لهم [illegible] الله [illegible]
التي [illegible] والاحترام وتنفيذ الحكم ما [illegible] ما بأيديهم من [illegible] سيدنا [illegible]
[illegible] يسامون بأدنى تكليف ولا يطالبون بأقل [illegible] غير ذلك [illegible] المعتاد من [illegible]
[illegible] المخزنية وأداء [illegible] إلا ما [illegible] [illegible] سوى ما [illegible]
[illegible] من أداء [illegible] [illegible] التي للعلم والتي للفقراء [illegible] التعاون على البر
والتقوى و[illegible] الإثم والعدوان [illegible] عن ذلك [illegible] سبيل [illegible] العمال الذين
[illegible] ونأمرهم بالوقوف عند حدود الله سرا وعلانية [illegible] سلفهم
وأن [illegible] [illegible] [illegible] أيضا [illegible] [illegible] [illegible]
صفوف [illegible] [illegible] الوارثين [illegible] الأكبر [illegible] أرباب الزوايا
[illegible] العلمية والفقراء [illegible] السيد [illegible] [illegible] [illegible] الصالح [illegible]
الشيخ [illegible] العلماء [illegible] العلماء [illegible] [illegible] عبد الله [illegible]
[illegible] [illegible] الشيخ [illegible] [illegible]
[illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] العلم [illegible]
[illegible] في الناس [illegible] من النصح والعلم [illegible]
أمور الإسلام ومن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
العلم [illegible] [illegible] الهدى [illegible] أمر الله [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] المسلمين [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] المخزنية [illegible]

[illegible] 13[illegible]

أحمد بن محمد [illegible]

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله

السلام والرحمة والبركة على الفاضل مبارك بن الحسن الجملي وبعد فلا تعرض
للمرابطين أولاد [illegible] عبد الله بن سعيد [illegible] وكل شيء [illegible] وأعلمه
[illegible] امتثالهم لطلبة العلم بمدرسة [illegible] بن عبد الله [illegible]
علامة على البر والتقوى والسلام [illegible] في جمادى الأولى عام 13[illegible]

الظهير رقم: ٤

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

[illegible] العلي أدام الله علاه أن [illegible] الواصل السيد عبد الله بن [illegible] من أيت [illegible] يعاملون بالإجلال
والاحترام والتبجيل والإكرام [illegible] من [illegible] كل [illegible] وأولاده [illegible]
ذا الأمر [illegible] يستثنون [illegible] من الأمور المخزنية [illegible]
شيء [illegible] ولا تنقيص [illegible] النقيصة [illegible] عليهم من [illegible]
عسكر [illegible] تنظيما للرفاق [illegible]
السيد [illegible] يكون [illegible] العامل [illegible]
وعيننا [illegible] عسكر من ذكر [illegible] بالله [illegible]
جوف الكلاية [illegible] المال [illegible] الأمر [illegible] المسئول عنه [illegible]
تعرض [illegible] حدود الله [illegible]
والواقف عليه [illegible] بالله [illegible]
من رجب الفرد عام 1330

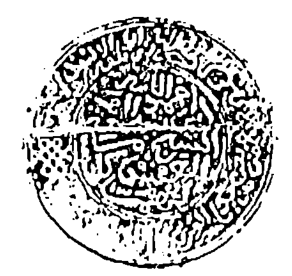
الظهير رقم 3

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله

يعلم من كتابنا هذا أننا قد حررنا أولاد سيدي عبد الله بن سعيد النازلين بسلا وجددنا لهم حسن
الاحترام والتوقير بحيث لا يطالبون بما تطالب به العوام عدا ما أوجب الله عليهم من الزكاة
والأعشار بحيث [illegible] إذ لا سبيل لأحد عليهم إلا بالحق [illegible] صدر في
رجب الفرد عام 1330

الظهير رقم : 4 .

الحمد لله وحده



وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته أننا ولينا الفقيه الأرضى السيد علي
ابن عبد الله الإلغي الشقوري خطة القضاء بقبائل مجاطة وما والاها وأسندنا إليه أمورها
الخاصة والعامة راجين من الله أن يجري على يديه الفضائل والعدل وأن يستقيم وأذنا له
في مباشرة الرسوم وفصل الخصوم والحكم بمشهور مذهب الإمام مالك رحمه الله أو الراجح أو
ما به العمل وأمرناه أن يسوي في مجلس حكمه بين المشروف والشريف ويأخذ الحق من القوي
والضعيف وألا تأخذه في الله لومة لائم ولا تصده عن الحق صولة ظالم وعليه بتقوى الله في السر
ومراقبته في سره ونجواه والله يوفقنا وإياه لما فيه رضاه والسلام صدر به أمرنا في سابع وعشري
شهر رجب الفرد عام 1350

الظهير رقم: ٥٠.

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله

كتابنا هذا أعز الله قدره يعلم منه أننا أمرنا حامليه الفقيه الأجل العلامة السيد
علي بن عبد الله الإلغي وأمرنا ابن عمه الولي الرباني العلامة السملالي المرشد أدكامل
ببلده السوس تعامل بالجميل والتعظيم والتوقير والاحترام ونرجو من العمال والنواب
الجزئية ومن وكلائه بالبلد المذكور بعمل ما بعد أمر كتابنا من التبجيل والتكريم والسلام
صدر به أمرنا في عاشر شعبان عام 1365

الظهير رقم 6

الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

ابننا الأبر الأغر الأنور الفقيه العلامة السيد علي بن عبد الله الأنجري أمنك
الله ورعاك وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد وصل كتابك الأعز وفهمنا ما شرحت
فيه جزيت خيرا ووفيت شكرا أما ما ذكرت من أمر الهدية فالكلام فيه هو
الذي قدمنا وقلنا لسيدي بريشة بحضرة جمع غفير من الناس لا تقبل ولا تتغير بحول
الله وقد وصل كتاب الشيخ أحمد بن إبراهيم الغساني وبيدك جوابه تصله على يديك
وما ذكرت من قدومكما أنت وأخوك فقد علم [illegible] لكما أهلا وسهلا أصلحكما الله
ووفقكما لما يرضيه والسلام في 10 رمضان عام 1277

وجزى الله الفقيه السيد الحاج بن عثمان عنا وعن أصحابه جزاء
فقد بلغ عنه من الوقوف [illegible] الجميلة ما لا مزيد
عليه حسنات [illegible] كذلك [illegible] منا [illegible]
من [illegible] بأنواع [illegible] الخير

الوثيقة رقم: 7

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

أحبنا الأبر الأرضى الأخير الأنور الفقيه العلامة السيد أبو عبد الله الملالي أمنكم
الله ورعاكم وسلام عليكم ورحمة الله وبعد فقد وصل كتابكم الزاهي واستفدنا جميع
ما فيه من الخبر حرفيا حرفيا وفهمنا ذلك وقد كتبنا إلى مرابطين إليه ونذكركم أنه ينبغي
السعي في الخوض بأن يكف عن ذلك ولا يسعى إلا في الخير والإصلاح لما
من المناسب لا سيما بين ذوي الأرحام لا الخيار أبناء السادة الكرام المعول عليكم في كامل
الهمة والإكرام وقد علمت البال بذلك يا أدام الله فيكم عليكم وأمن بينكم في كل ما تريد
ووفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه والسلام في ١٥ رمضان عام 1333 هـ

الرسالة رقم ٤

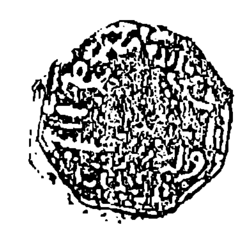
الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

يعلم من مسطورنا هذا أسمى الله بالله قدره وخلد في العالمين
ذكره ونشره أننا بعدما تحاكم لدينا الفقيه الشريف سيدي بن عبد الله الملغي وأبي
أخيه الفقيه السيد عبد الله في أمور بينهما وثبت عندنا وفي بيته بأنها
علمنا ونيته أقررنا بيد الفقيه السيد علي المذكور وأسندنا إليه النظر
في جميع أمورها جلبا ودفعا وأخذا وعطاء لما علمنا من علمه وورعه واهتمامه
بأمور المسلمين ولقوله صلى الله عليه وسلم البركة مع الأكابر وأمرنا
السيد عبد الله المذكور بالكف عنه أصلح الله الجميع والسلام صدر به أمرنا
المعتز بالله تعالى في 7 شوال عام 1333

الظهير رقم : 9



وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم



أما بعد فليعلم من يقف عليه أننا جددنا لحامله ابننا المدرس الفقيه السيد الحسن بن المرحوم بالله الفقيه السيد علي بن عبد الله ما بيده من ظهائر من قبلنا من أسلافنا الكرام والتحلل من قبض أعشار خدام زاويته التي هي تحت الحكم المحصورة فيهم على الكيفية المرضية في الشرع استمرارا له لذلك وإنزالا له منزلة والده فيها ومن أراد حمله على غير المرتبة التي جعلناها له فدعواه باطلة والله وكيلنا عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل صدر به أمرنا المعتصم بالله تعالى في أربعة من جمادى الأخيرة من عام 1342 هـ

الظهير رقم: 50.



وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

يعلم من مسطورنا هذا أسماه الله [illegible] وخلد في الصالحات ذكره ونشره أننا أنلنا ابننا البركة الشريف المرضي منزلة الولد وجددنا له ما بيده من الظهائر وأسندنا إليه النظر في جميع أمور ما احتوت عليه ظهائر أبيه جملة وتفصيلا وأقررناه [illegible] على الزاوية [illegible] علما وقدرا وصيانة كما نوصيه بتقوى الله [illegible] الله علينا وعليه جميع [illegible] ونصره من كلام العلم [illegible] صدر به أمرنا المعتز بالله في رابعة من جمادى الأخيرة عام 13[illegible]

المرحوم بالله الفقيه السيد [illegible] بن عبد الله

[illegible]

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده

عدد الطلبة المذاكرين بها بالمدرسة الالفية م 1-8-1397 الى 5-4-58

الطاهر بن علي قيم المدرسة الالفي

احمد بن الحسن بن علي الالفي

محمد بن الحسين بن علي الالفي

محمد بن عبد الله بن ابراهيم الالفي

احمد بن الحسين الجبوطي

سيدي محمد الامين الطاهري

محمد الطاهري

ابراهيم بن الحسن بن ... التيلي

علي بن احمد بن مسعود الالفي

المحفوظ بن محمد الجنبلاسي

عبد الله بنسالكت

محمد بن الحسين ازنابدا تي

جامع بن المحفوظ الجنبيلي

احمد بن عبد الله السملالي

محمد بن المحفوظ السملالي

الطلبة وسنة اوالا ببركة

الفهـارس العامـة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

فهرس الصور
والخرائط والجداول

فهرس الأشعار

مناقب ثقبت قلب الحسود إلى	إحصاء	الطاهر الأفراني	البسيط	376
تاهت بواحدها إلغ فقلت لها	وزوراء	الطاهر الإفراني	البسيط	378
بحر سرى كل ظمآن لساحله	رواء	الطاهر الإفراني	البسيط	379
اما الإمام محمد المختار سيدنا	ذكاء	الطاهر الإفراني	الكامل	318
متباشرين جميعهم قد صيروا	سفراء	محمد المختار السوسي	الكامل	318
فالمعتدي قد خاف حد حسامه	فجاء	الطاهر الإفراني	الكامل	370
وشمائل كالروض صافحه الندا	ذكاء	الطاهر الإفراني	الكامل	370
مسك النوافج فاح ام روض الربى	سماء	الحسين بن إبراهيم الصالحي	الكامل	497
خير الخلائف احمد المولى الذي	المذهب	محمد التملي التونلي	الكامل	500
يا فرضيا له فرض وتعصيب	تذهيب	امحمد الكثيري	البسيط	500
إني مرابطة من آل يعقوب	يعقوب	أحمد بن محمد اليزيدي	البسيط	313
عتوا فعاثوا وجاروا في تحكمهم	حسبوا	المدني بن علي الإلغي	البسيط	395
يا رب بالمصطفى والآل من نزلت	فانتخبوا	المدني بن علي الإلغي	البسيط	396
أقرت إيشت عيون الشامتين بها	ارتقبوا	المدني بن علي الإلغي	البسيط	397
قالوا ولم لست ترثي سيدي العربي	والعرب	عبد الله بن محمد الإلغي	البسيط	407
جاء البشير فطار القلب من طرب	نصب	موسى بن الطيب السليماني	البسيط	445
يا سيدا فضله المأثور عز منا	العرب	محمد بن احمد اليزيدي	البسيط	446
هذي مرابع ليلى فاقض ما وجبا	احتجبا	الطاهر الإفراني	البسيط	470
فالموت كأس بكل الدهر دائرة	شربوا	علي بن عبد الله الإلغي	البسيط	509
قوم إذا وعدوا وفوا او قدروا	تربوا	محمد بن الحاج الإفراني	البسيط	525
والدهر أقعدني كما ترى وقديما	يزهو بي	امحمد الكثيري	البسيط	313
فخذوا هذه القصيدة مني	عيب	احمد بن زكرياء السكال	الخفيف	418
قد بعثتم إلي ترتادون الشعر	تصيب	احمد بن زكرياء السكال	الخفيف	418
أجيبوا واتركوا الجواب فما	التجاوب	محمد المقدم السلامي	الطويل	165
خليلي إن الربح في العلم فاتركن	الكواذب	محمد بن سعيد الميرغتي	الطويل	192
فيا سيدي جد بالرضا وأتم ما	اللب	الطاهر الإفراني	الطويل	256
طربت وما شوقا إلى البيض أطرب	يلعب	الكميت بن زيد	الطويل	296
ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتي	يوهب		الكامل	161
بأبي وامي والطريف وتالدي	اجتبا	إبراهيم الأدوزي	الكامل	254
وإليكها من فكرة قد أذهبت	المستعذبا	الطاهر الإفراني	الكامل	418
دم ناصرا ومجددا ركن الهدى	مكسب	محمد التملي التونلي	الكامل	423
قضاة القطر أرباب المزايا	قريب	محمد بن احمد العتيق	الوافر	414
أيها المنتدون هل نحن حقا	المسلمات	أحمد بن زكرياء السكال	الخفيف	439

فقليل منا يصلي ولكن	الصلوات	أحمد بن زكرياء السكال	الخفيف	439
فانظروا لبناتنا كيف يخرجن	كالعاريات	احمد بن زكرياء السكال	الخفيف	532
قد ابحنا لكل من هب او دب	الفتيات	احمد بن زكرياء السكال	الخفيف	440
وواس بأعلا السفل أهل تعلم	زموتة	عبد العزيز الرسموكي	الطويل	40
لما قد رأيت من فجور وظلمة	ردانة	عبد العزيز الرسموكي	الطويل	57
وسل عن قراءة العلوم وسيرها	القبيلة	عبد العزيز ارسموكي	الطويل	548
دعاك الفقير الطاهر بن محمد	متقدات	الطاهر الإفراني	الطويل	390
عراني من نحو الحبيب بسكرة	بخمرة	الطاهر الإفراني	الطويل	405
يا راحلين إلى المختار من مضر	أرواحا	ابن العريف	البسيط	360
امولاي نصر الله قد جاء والفتح	والرمح	الطاهر الإفراني	الطويل	433
هنيئا قد زال عن ديننا البرح	الفتح	علي بن عبد الله الإلغي	الطويل	434
إملاك سعد هيج الأفراحا	صلاحا	محمد بن احمد العتيق	الكامل	447
حلاه مولانا الشريف محمد	وارتاحا	محمد بن علي الإلغي	الكامل	449
إذا ما هب من إفران ريح	جنوح	محمد بن عبد الله الإلغي	الوافر	96
بنظم فليجب منكم مجيبي	جام راح	محمد بن عبد الله الإلغي	الوافر	312
إذا قلت شعرا فالتمس لموافق	تتضخضخ	احمد بن محمد اليزيدي	الطويل	-165-479
ملك الملوك أسامع فانادي	عوادي		الكامل	136
سلام على الجمع المذكر إنه	مفرد	الطاهر الإفراني	الطويل	500
إرشاد خلق الله للدين المتيـ	الإمداد	الطاهر الإفراني	الكامل	501
اكرم بذا القوم لم تخلق اكفهم	ومنكود	محمد بن احمد العتيق	البسيط	368
ما شئت من كرم ما شئت من ادب	تتكيد	محمد بن احمد العتيق	البسيط	368
أبناء عد أباة الضيم من قدم	والجود	محمد بن احمد العتيق	البسيط	369
مازال صيتكم يسري على مهل	ومن سود	العتيق الإلغي	البسيط	371
فقدنا فيه كريما وأبيا إذا	بيد	محمد بن احمد العتيق	البسيط	411
من لي به من فقيه أيد ندس	رشدا	محمد بن علي الإلغي	البسيط	411
بشرى لمسة نور العلم ضاء بها	وفي حرد	محمد بن احمد العتيق	البسيط	432
عبد العزيز أتدري ما تشيد من	البلد	محمد بن احمد العتيق	البسيط	433
صل صلاة الرضا على النبي وأصـ	ترداد	الطاهر الإفراني	البسيط	474
يا طالبا للنجاة يومه وغدا	رشدا	عبد الله بن محمد الإلغي	البسيط	491
واكبدي من مصاب قد برى كبدي	جلدي	محمد بن احمد العتيق	البسيط	496
من لي به من فقيه أيد ندس	رشدا	محمد بن علي الإلغي	البسيط	496
وتعز عمن دهتها المنايا	التنادي	الطاهر الإفراني	الخفيف	416
أيها الزائرون عبد الحميد	جديد	احمد بن زكرياء السكال	الخفيف	462
لو لم اكن خائفا لأفسد ما قد	حدود	احمد بن زكرياء السكال	الخفيف	462
امن آل مية انت رائح او مغتد	مزود	النابغة الذبياني	الطويل	296
أيا نزهة الحادي ويا زينة النادي	الغادي	الطاهر الإفراني	الطويل	314

إذا اشتعلت يوما تقحمها ولا	معردا	الطاهر الإفراني	الطويل	369
برب الندى والباس يلقاك بره	بأخدود	محمد بن الحاج الإفراني	الطويل	370
جرى في ميادين الكمال مبرزا	المدا	الطاهر الإفراني	الطويل	370
تبين نور الحق واتضح الهدى	مشيدا	الطاهر الإفراني	الطويل	371
سليل ملوك كالبحور وكالبدور	مقصد	الطاهر بن علي الإلغي	الطويل	373
فقد أنشب الكفر المداهن نابه	مفسد	الطاهر الإفراني	الطويل	422
فأين مساعير الوغى وفوارس اللقا	المعقد	الطاهر الإفراني	الطويل	422
وبعد فإن الدين يشكر ما به	للرشد	الطاهر الإفراني	الطويل	423
فثق يا ولي الله بالنصر واستعن	عهد	الطاهر الأفراني	الطويل	424
ألا إن الاستقلال معترف به	وانشد	محمد بن احمد العتيق	الطويل	436
فلا زال محفوظ الجناب مباركا	يبدي	الطاهر الأفراني	الطويل	446
يشيدون إنشاد التهاني بنعمة	أعبد	عبد الرحمان البوزكارني	الطويل	447
تتشقت طيب الطيبين ذوي مجد	ذي وجد	محمد بن علي الإلغي	الطويل	448
عليك سلام ما تقوم على الهدى	الرشد	الطاهر بن المدني الناصري	الطويل	473
أهل هلال المجد في منزل السعد	رمد	الطاهر الإفراني	الطويل	499
لم ادر قبل غرامي أيها الغيد	الصيد	امحمد الكثيري	الطويل	508
إليك أبا العلياء أبدي عواطفي	الند	احمد السليماني الإلغي	الطويل	539
او التقي وجه الأديب ابن الأديب	محمد	محمد بن الحاج احمد اليزيدي	الكامل	377
بذ ابن بحر وابن مامة وابن سا	الأحمدي	احمد بن الحاج محمد اليزيدي	الكامل	378
ندب حكت أخلاقه ريح الصبا	المورد	محمد بن الحاج الإفراني	الكامل	379
يا ذا الذي داء الجهالة يشتكي	مرشد	محمد بن الحاج احمد اليزيدي	الكامل	380
مولاي أعجزني مدحك جاهدا	يجهد	محمد اليزيدي	الكامل	380
دين الصبابة والهوى متقلدي	مهتد	محمد بن احمد اليزيدي	الكامل	404
والعبد راج من مولاه نجح ما	ليقتدي	محمد بن الحاج الإفراني	الكامل	453
هذا وإن العبد ليس لما به	المقعد	علي بن عبد الله الإلغي	الكامل	454
أرخ إذا شئت الوفاة وقل لقد	فتشهدا	محمد بن احمد العتيق	الكامل	475
أمحمد يا ابن الكرام الصيد	بعيد	الطاهر الإفراني	الكامل	476
أو كان مدحا خالصا فجوابه	محمد	الطاهر بن علي الإلغي	الكامل	516
وإماما غدا على منهج القو	السياده	الطاهر الإفراني	الخفيف	500
بغوا وعثوا وعتوا فانتحى	الحديدا	الطاهر الإفراني	المتقارب	369
أكذا يجازى عبدكم	العبيد	محمد بن احمد العتيق	مجزوء الكامل	510
تكاثرت الضباء على خداش	يصيد		الوافر	137
بدا قمر الكمال بأفق سعد	ازدياد	ياسين النومري	الوافر	539
مولاي لله ما أعطى وما اخذا	نفذا	الطاهر الإفراني	البسيط	416
عهدتهم من نحاة العصر قد قرأوا	نظروا	علي بن عبد الله الإلغي	البسيط	500
الله أكبر إن الدين بعدك يا	والخور	محمد بن عبد الله ابلوش	البسيط	374

أقول لما رأيت العي عاجلني	شعروا	محمد بن عبد الله أبلوش	البسيط	375
كم بان في هجرة المختار من عبر	من أثر	محمد بن احمد العتيق	البسيط	382
في هجرة المصطفى ذكرى وموعظة	معتبر	محمد بن احمد العتيق	البسيط	382
آخى النبي بين من آووا ومن هجروا	بالغرر	محمد بن احمد العتيق	البسيط	391
هناك قام الرسول داعيا أبني	الخبر	محمد بن احمد العتيق	البسيط	392
اما تمادت قريش في الجفا أنفا	الذكر	محمد بن احمد العتيق	البسيط	392
الحمد لله زال الذعر والحذر	تنتظر	محمد بن عبد الله أوبلوش	البسيط	436
فقل لمن يتعامى عن شريعته	النظر	محمد بن احمد العتيق	البسيط	437
بربكم قارنوا بعد تفهمه	الفكر	محمد بن احمد العتيق	البسيط	437
يا أيها الساهرون عن مدارسنا	السهر	أحمد بن زكرياءالسكال	البسيط	441
أليس هذا صحيحا تشهدون به	بصري	أحمد بن زكرياء السكال	البسيط	441
في طيها كل معنى كاد يشربه	البصر	علي بن عبد الله الإلغي	البسيط	526
تصلح الدين والدنا بعلوم	الكثيرا	محمد بن أحمد العتيق	الخفيف	374
هو جيش يرى الخطوب رخاء	هجيرا	محمد بن أحمد العتيق	الخفيف	425
وحدة الهم المليك مداها	بصيرا	محمد بن أحمد العتيق	الخفيف	426
ألف الشعب كل ذكرى سرورا	شعورا	محمد بن أحمد العتيق	الخفيف	427
يا مليكا موفقا في امور	قصيرا	محمد بن أحمد العتيق	الخفيف	427
عليكم تحية استماع إلى الخبر	بلا نكر	الحسن بن أحمد التمكدشتي	الطويل	159
فإن أهيل الحصن لا علم عندهم	الأباعر	طلبة مدرسة تهالة	الطويل	164
جزى الله إخوان الصفا بكل ما	القبر	علي بن عبد الله الإلغي	الطويل	249
أتى طالبا مني إجازتكم وما	الأمر	علي بن عبد الله الإلغي	الطويل	256
إذا أنت لم تكبح رفيقك مرة	لا تدري	بعض الإلغيين	الطويل	289
متى تسد معروفا إلى غير أهله	ولا شكر		الطويل	361
ومن ينتح البحر الخضم فحاش أن	البحر	محمد بن الحاج ا لإفراني	الطويل	368
لكل ملاذ إن يحم حوله عسر	السر	محمد بن الحاج الإفراني	الطويل	368
لك البشرى والبشرى بفتح به عنت	عن قهر	علي بن عبد الله الإلغي	الطويل	371
ملكت قلوب العالمين بفكرة	والكفر	امحمد الكثيري	الطويل	373
تذكر فانهلت مدامعه الحمر	الجمر	عبد الرحمان البوزكارني	الطويل	404
وإن قلوب المؤمنين بموته	القدر	الطاهر الإفراني	الطويل	412
بني شيخنا صبرا على فقد أحمد	والفخر	عبد الله السعيدي	الطويل	414
تهلل وجه الدهر وابتسم الثغر	البشر	محمد بن علي الإلغي	الطويل	445
لكم ما لنا من حرمة وعليك ما	تدري	علي بن عبد الله الإلغي	الطويل	455
ويغدو يشيد الدين مثل أصوله	النسر	محمد بن علي الإلغي	الطويل	499
امن حادث بكر جرى منه ما جرى	محجرا	الطاهر الإفراني	الطويل	511
دفاتره مثل المدارس أوهت	منبرا	محمد بن علي الإلغي	الطويل	519
وما هو إلا البدر أشرق نوره	البصائر	عبد الله بن محمد الإلغي	الطويل	520
وصالك هذا ام بدا صبح إسفار	أبصار	علي بن عبد الله الإلغي	الطويل	524

عليم كريم لا يمل جليسه	القرى	الهاشمي الأقاوي	الطويل	527
اعمو لك البشرى وحق لك الشكر	الفجر	محمد بن أحمد العتيق	الطويل	541
وقد يفرح الوشاة حين استرحتم	المر	محمد بن أحمد العتيق	الطويل	542
فارقتها لا عن رضا وهجرتها	متخيرا	ابن عنين	الكامل	310
سبحان من اولاه خلقا كاملا	الأقدار	محمد بن علي الإلغي	الكامل	377
غيداء غصن البان في حجلانه	البهر	الطاهر بن محمد الإفراني	الكامل	403
نكاثة نفاثة هاروت مع	السحري	امحمد الكثيري	الكامل	403-513
ورزية تمري ضروع مدامع	تذكر	امحمد الكثيري	الكامل	412
لكن سبتني غادة فكرية	النشر	امحمد الكثيري	الكامل	467
لله درك يا مبارك طالما	الأخيار	محمد بن علي الإلغي	الكامل	469
حق الهناء وحق لي التبشير	ثبير	محمد المرابط الدلائي	الكامل	476
شمس الهدى بزغت بكل فخار	الأنوار	علي بن صالح الاوفقيري	الكامل	502
واغفر لدهرك ما جنى واقبل له	الأعذار	الطاهر الإفراني	الكامل	522
بتناسق وتسابق وترافق	كالبحر	امحمد الكثيري	الكامل	527
لقد جاد ربي بصنو أغر	ينتظر	احمد غفران الرزاني	المتقارب	540
يا عين جودي بدمع	كالفري	عبد الله بن محمد الإلغي	المجتث	507
وعاذل عنفني	المتجرا	امحمد الكثيري	مجزوء الرجز	185
رحم الله غرة الدهر من قد	جوزي	محمد بن الحاج الإفراني	الخفيف	417
إذا ما اعتز ذو علم بعلم	باعتزاز		الوافر	265
فراقكم صادتي صعب المذاق فما	ناس	محمد بن احمد اليزيدي	البسيط	246
مني عليك سلام الله ما ندبت	مياس	العربي الساموكني	البسيط	473
أين الثريا من يديك تناولا	للنبراس	امحمد الكثيري	الكامل	499
اوحت إلي بطرفها النعاس	عاس	أحمد بن محمد اليزيدي	الكامل	521
أصيلات المدارس من جبال	نسيس	الحسن البونعماني	الوافر	62
الحمد لله رب العالمين قضى	عوضا	محمد ايندو التامري	البسيط	197
فهنيئا لشيخنا الطاهر الفرد	ركيض	احمد بن عمر رزقي	الخفيف	445
وعليه مني سلام لطيف	القريض	احمد بن عمر رزقي	الخفيف	473
امرتك شرق ثم غرب فإن تجد	فانفض	محمد بن عبد الله الإلغي	الطويل	97
فما الموت إلا مثل دين مرتب	تقتضى	الطاهر الأفراني	الطويل	408
تكلف ما استطعت من القريض	المريض	محمد بن عبد الله الإلغي	الوافر	312
لم حكمت وأنت قاض بمطل	بساطي	عبد الله بن محمد الإلغي	الخفيف	500
إذا غاب ملاح السفينة وارتمت	الضفادع		الطويل	127
فأف وأف لاحتمال غضيضة	أضلع	عبد الله بن أحمد الإكماري	الطويل	413
لعا يا أمير المسلمين لعا لعا	مطلعا	محمد بن الحاج الإفراني	الطويل	425
طلعت طلوع البدر في حندس الدجا	قد طلع	علي بن عبد الله الإلغي	الطويل	521

برق تألق موهنا بالأجرع	مدمعي	أحمد بن محمد اليزيدي	الكامل	479
ذهب الإمام اللوذعي الألمعي	الأروع	محمد بن احمد العتيق	الكامل	526
أحقا ما سمعنا من وداع	دواع	أحمد بن عمر رزقي	الوافر	493
يحن إلى تلك المنازل إنها	الفرغ	الطاهر الإفراني	الطويل	499
ولو ساعدتني الغين في مدحكم	النبغ	الطاهر الإفراني	الطويل	509
مرحى تبوأ إلغ ذروة الشرف	الطرف	احمد بن عمر رزقي	البسيط	451
بني سليمان صان الله مجدكم	الخلف	احمد بن عمر رزقي	البسيط	451
يرتاده من عباد الله من رغبوا	السدف	أحمد بن عمر ررزقي	البسيط	452
رابع شوال لا ينساه تاريخنا	تفي	أحمد بن عمر رزقي	البسيط	475
يا أيها المتحف من جهله	الحرف	الطاهر الإفراني	السريع	460
لولاك لا أمسي عن صاحبي	الحتف	الطاهر الإفراني	السريع	461
مالك لا تغمد سيف العدا	الحيف	علي بن عبد الله الإلغي	السريع	460
بلطف إذا ما التلميذ تابع نهجه	اعتسف		الطويل	287
له في سني عشريه رأي محنك	وبوسف	الطاهر الإفراني	الطويل	371
مديحكم صدق وطبع سجية	تكلف	الطاهر الإفراني	الطويل	376
فمنذ استفاق القلب جئتك سيدي	عاكف	أحمد بن الطاهر الزكري	الطويل	453
جلالة إسماعيل في رشد هاشم	يصرف	محمد بن بوسف	الطويل	526
من صاحب الإنسان في العسر كما	فقد وفى	حازم القرطاجني	الكامل	361
يا زمنا جفا المنى من بعدما	واحتفى	احزم القرطاجني	الكامل	362
يا اهل تحت الحصن أنتم فوقه	بشرف	محمد يحيى الولاتي	الكامل	548
حييت إلغ فما اجلك مجمعا	يستتكف	الحسن البونعماني	الكامل	549
ادر فقد ساعد الإمكان يا ساقي	الراقي	الطاهر الإفراني	البسيط	456
لازلت لازلت يا جم المكارم في	إشراق	البشير بن المدني الناصري	البسيط	473
أعذر فقد عاقني يا سيدي حصر	إطراقا	احمد بن الحسن أبناو	البسيط	478
احمد المرتجىو اكرم من از	النياقا	الطاهر الإفراني	الخفيف	385
إن دهري لمنعم بالتلاقي	الفراق	المدني بن علي الإلغي	الخفيف	467
سليل الكرام الصيد أقطاب دارة الـ	رقوا	الطاهر الإفراني	الطويل	373
فخل مقولات الملاحم جانبا	أصدق	الطاهر الإفراني	الطويل	375
ورثت رهان السبق عن خير محتد	اوثق	محمد بن الحاج الإفراني	الطويل	377
ومهما أردنا المدح فيك فمن لنا	تعبق	محمد بن الحاج الإفراني	الطويل	380
أتيتك نضو الهم والفقر فاكفني	يدهق	الطاهر الإفراني	الطويل	389
وثم على المختار من آل هاشم	البقا	بلقاسم التاجرمونتي	الطويل	474
حنينا لأوطاني فدمعي رقراق	خفاق	امحمد الكثيري	الطويل	476
هم العرب الغر الميامين إن دعوا	تحققوا	الطاهر الإفراني	الطويل	525
يا من ادام على المعالي عكوفه	صدق	الحسين المزاري	الكامل	540
بشراك قد ظفرت باليمن يمناك	عيناك	امحمد الكثيري	البسيط	448

زاراني يختال تيها	الجمال	امحمد الكثيري	مجزوء الرمل	404
كل شيء مصيره للزوال	الأعمال	الحارث بن عباد		296
أريد من خير إخوان وصفوتهم	بالعمله	علي بن عبد الله الإلغي	البسيط	249
يا سيدي يا رسول الله حط فانا	محمول	الطاهر الإفراني	البسيط	381
نصرا يزول الفرنسيس اللعين به	محلول	الطاهر الإفراني	البسيط	382
إن الرسول جميل الجسم معتدل	الطول	محمد الهاشمي الأقاوي	البسيط	383
فكم وكم لرسول الله معجزة	تحجيل	الطاهر الإفراني	البسيط	387
عبيدك الهاشمي الفاسي ناظمها	له سول	الهاشمي الفاسي الأقاوي	البسيط	390
حلت سعاد حمى ناء تكنفه	القناغيل	الطاهر الإفراني	البسيط	466
استغفر الله كم اكني واكتم من	مشغول	الطاهر الإفراني	البسيط	466
لست أضاهي الأبوصيري منشدكم	متبول	الهاشمي الأقاوي	البسيط	489
وازت قصيدة كعب في العروض ولـ	قنديل	الطاهر الإفراني	البسيط	489
ولم ازل مذ نأى أطوي الضلوع على	العلل	احمد بن محمد اليزيدي	البسيط	509
هي المكارم لاتعنو لمحتال	لمختال	محمد بن الحاج الإفراني	البسيط	522
إنني أن اردتني طوع كفيك	وفعلا	محمد بن علي الإلغي	الخفيف	320
يا ابن اختي قد دعتك صبوة	ذلا	امحمد الكثيري	الخفيف	438
إنما السنيماء عندي خيال	اضمحلا	امحمد الكثيري	الخفيف	438
نحن احوج للحقيقة والدين	تجلى	امحمد الكثيري	الخفيف	438
أرخ وفاته بذي حجة	الكمال	عبد الله بن محمد الإلغي	السريع	475
ألا أيها الشبي إن كنت بارعا	تفصل	طلبة الإلغية	الطويل	165
فمن كان ذا روح فسمه ميتا	يحمل	طلبة ازاريف	الطويل	166
قضى الله ألا أقضي الدهر بين ذا	عادل	عبد الله الرسموكي	الطويل	188
بني إذا ما جئت للدرس فلتكن	البال	الطاهر الإفراني	الطويل	285
رئيس تيبوت إبراهيم اجود من	الذلل	محمد بن الحاج الإفراني	الطويل	368
بنوا إلغ أهل العلم والمجد والفضل	يملي	ماء العينين بن العتيك	الطويل	549
علامة العلماء واللج الذي	ساحل		الكامل	160
عجبا لغصن قد تمايل هزة	عليلا	امحمد الكثيري	الكامل	523
امن الحمى يسري نسيم شمال	وصال	علي بن صالح الأوفقيري	الكامل	525
أأقول ام أطوب بساط مقالي؟	خيالي	امحمد الكثيري	الكامل	556
الغيث في مارس بعـ	الجميل	محمد المختار السوسي	مجزوء الرجز	109
لتبأ على البسائط والتلول	العقول	محمد بن الحاج الإفراني	الوافر	379
انجل الشيخ يا بدر الكمال	الخلال	العربي الساموكني	الوافر	499
أعيذها نظرات منك صادقة	ورم	المتنبي	البسيط	360
يا اول النور يا روح الوجود ويا	النعم	الطاهر الإفراني	البسيط	388
رب المزايا ورب السيف	ذو علم	محمد بن احمد العتيق	البسيط	450

ليهنأ العلم والقرطاس والقلم	العلم	الطاهر الإفراني	البسيط	450
انشنوا يا خير قوم	حضرتم	محمد بن عبد الله الإلغي	الرمل	311
الدهر مولع بنقض الذمام	تكدر عام	أحمد بن محمد اليزيدي	السريع	409
أين الفراعن وأين الألى	عظام	احمد بن محمد اليزيدي	السريع	410
ألا أيها الإرغي زن لي كليمة	دريتم	طلبة الإلغية	الطويل	164
وأنتم بحمد الله أجدر قائل	يعلم	جامع المجاطي	الطويل	164
وكنت أرى زيدا كما قيل سيدا	اللهازم		الطويل	165
أيا من رمانا باليراعة واختفى	الصوارم		الطويل	165
أيا سيدي إني إليك لملتج	يسمو	محمد بن الحسين بوكرع	الطويل	182
اخي المحفوظ ما لك لم تزل	من رسم	أحمد بن محمد اليزيدي	الطويل	299
سأنصف حر الشعر مني بمجلس	المظالم	الحسن الإيلالني	الطويل	322
ليهنك يا بدر الدجى مطلع النجم	الجم	الطاهر الإفراني	الطويل	334
رضينا بما قد قدر الله إنه	أعظما	محمد بن علي الإلغي	الطويل	415
ترشف لداء الهم ثغر ابنة الكرم	الختم	الطاهر الإفراني	الطويل	469
أعيت مناقبك البليغ فما عسى	نظامي	عبد الرحمان البوزكارني	الكامل	377
لا غرو أن حازوا المقامات التي	الأقدام	عبد الرحمان البوزكارني	الكامل	377
فاق ابن سعد وابن مامة والزبيـ	الإقدام	عبد الرحمان البوزكارني	الكامل	378
من قام محتسبا فجاهد امة	العاتم	الطاهر الأفراني	الكامل	424
أشباب سوس بادر التعليما	التنظيما	امحمد الكثيري	الكامل	432
وتعلموا شتى العلوم وحطموا	تحطيما	امحمد الكثيري	الكامل	432
أترى الزمان يحل عقدا أبرما	يهضما	امحمد الكثيري	الكامل	434
قل للذين تألبوا في نفيه	معلما	امحمد الكثيري	الكامل	435
عهدي به للعلم ينشر طيه	معمما	امحمد الكثيري	الكامل	435
مراكش لبست ثياب حدادها	الأعظما	امحمد الكثيري	الكامل	435
يا ذا الذي أودى الزمان بصبره	الأيام	عبد الرحمان البوزكارني	الكامل	472
يا هل تعود لنا ليالينا التي	كالاحلام	عبد الرحمان البوزكارني	الكامل	493
لله أبناء له ما فيهم	يحامي	عبد الرحمان البوزكارني	الكامل	494
سبحان من اولاه ما اولاه ما	الإنعام	عبد الرحمان البوزكارني	الكامل	527
إذا أيقظتك حروب العدا	ثم نم		المتقارب	360
أعيروا السماع بدور النام	الكلام	أحمد بن سعيد الإكماري	المتقارب	-431-497
حفظت من كل هامه	لامه	عبد الله بن محمد الإلغي	المجتث	446
ملئت مدرستي المقاما	المراما	عبد الله عاطفي التتكي	مجزوء البسيط	203
ما نقموا مني	عنهم	امحمد الكثيري	مجزوء الكامل	398

يتقولون علي ما	أتكرم	امحمد الكثيري	مجزوء الكامل	398
زعم الوشاة بانني	همهموا	امحمد الكثيري	مجزوء الكامل	399
أعاطي كؤوس السلوى نديمي	العظيم	محمد المختار السوسي	الوافر	306
ويتحفه عن اخلاق لطاف	في وسيم	محمد المختار السوسي	الوافر	306
قطب الوجود أبو العباس سيدنا	من كانا	الطاهر الإفراني	البسيط	500
لا تخضعن لمخلوق على طمع	بالدين		البسيط	215
اجعل شفيعك منقوشا تقدمه	إنسان		البسيط	335
خطب ألم فأضناني وأنحلني	فأذهلني	أحمد بن زكرياء السكال	البسيط	-413 511
لقد أصبنا بموت السيد المدني	غير دني	عبد الله بن محمد الإلغي	البسيط	507
شرط الجاهلون شتى شروط	السابقينا	عبد الله عاطفي التتكي	الخفيف	183
واستحبوا بل اوجبوا كونه الكاهن	الطامعين	عبد الله عاطفي التتكي	الخفيف	194
سهرت عيون ونامت عيون	تكون		الخفيف	360
عليك إذا رمت الهدى وطريقه	تدين	محمد بن احمد العياشي	الطويل	265
ألا يا أبا العباس سلوة محزون	نسرين	أحمد بن محمد اليزيدي	الطويل	319
تراه وديعا بيننا غير أنه	أسنان	سعيد العباسي	الطويل	319
أسير أقول الشعر والناس كافة	وللوزن	احمد بن زكرياء السكال	الطويل	320
وصن موطيء النعل التي وطئت على	او ادنى	الطاهر الإفراني	الطويل	390
هنينا بإبلال الفقيه إمامنا	المنى	محمد بن الحسين بوكرع	الطويل	450
فها هو محسوب على كل حاله	ما بنا	الطاهر الإفراني	الطويل	488
وبعد فإن العبد يطلب منكما	السنن	موسى بن العربي الرسموكي	الطويل	543
ودخلت جامعها الكبير فهالني	الحيطان	احمد سكيرج	الكامل	65
قد رام أن ينهى ويأمر غيرة	الميدان	الطاهر الإفراني	الكامل	400
جرح المشايخ كلهم وعدا على	العرفان	الطاهر الإفراني	الكامل	400
لكن شفى وكفى ودافع عن حمى الـ	جنان	الطاهر الأفراني	الكامل	401
لما رآك عدوت طورك جد في	نيران	الطاهر الأفراني	الكامل	401
وافى يطالب أن أجيز ولم اكن	الضنى	محمد الهاشمي الفاسي	الكامل	454
فعليه بالتقوى وبالعمل الرضا	الدنا	الطاهر الأفراني	الكامل	455
ما روضة ممطورة تشدو بها	البان	احمد بن الحسن أبناو	الكامل	502
أبرزتها من كامل في كامل	الوزان	الطاهر بن علي الإلغي	الكامل	513
الآن أعلن غبطتي إعلانا	جذلانا	امحمد الكثيري	الكامل	555
ولقد بلوت الناس في أخلاقهم	ميدانا	امحمد الكثيري	الكامل	555
أهلا بمن خرق العوائد فضله	أصوله	الطاهر الإفراني	الكامل	501
لازلت في سعد وفي سعة	تنويه	محمد بن الحاج الإفراني	البسيط	472
ما ورد روض زها بحسن خضرته	نضرته	الطاهر الإفراني	البسيط	497

رعيت أمري فمن بعدك يرعاه	منعاه	امحمد الكثيري	البسيط	511
وأسرع مفعول فعلت تغيرا	ضده		الطويل	361
العلم صيد والكتابة قيده	الموثقه		الكامل	284
فخري أبو الحسن الإمام من ارتدى	يعنى بها	محمد بن خالد الرسموكي	الكامل	376
او شئت من فهم يحل به العويص	أبوابها	محمد بن خالد الرسموكي	الكامل	380
أثنى عليه الله جل جلاله	ثنائه	أحمد بن محمد اليزيدي	الكامل	385
في موكب ام المقدس بعدما	إسرائه	أحمد بن الحاج محمد اليزيدي	الكامل	386
يا مصطفى من قبل نشأة آدم	ومائه	أحمد بن الحاج محمد اليزيدي	الكامل	389
إني اتوق إلى الحمى ويعوقني	ودائه	احمد بن محمد اليزيدي	الكامل	391
وانا احن إلى الذي ما مثله	أضوائه	احمد بن محمد اليزيدي	الكامل	394
يا قلب ما لك لا تفيق من الهوى	بكتابها	محمد بن خالد الرسموكي	الكامل	402
أين القريض وأنت من فرسانه	لسانه	محمد المختار السوسي	الكامل	478
لله درك فارسا يفري بسيـ	إحسانها	العربي الساموكني	الكامل	788
فكأنه فرض عليه مؤقت	بوجوبها	ابن زنباع	الكامل	499
عجبا لدهري جد في وثباته	حماته	امحمد الكثيري	الكامل	556
حسب القوافي أن اكون أميرها	سميرها	امحمد الكثيري	الكامل	556
أفاد ابن آجروم قدس سره	النحو	عبد العزيز الرسموكي	الطويل	263
عليك بأبناء اليهود فإنهم	طغوا	علي بن عبد الله الإلغي	الطويل	395
ولا تتركن فيهم كبيرا يريد أن	نشوا	علي بن عبد الله الإلغي	الطويل	395
فجعجع بهم وانهض إليهم ولا تبل	اعتدوا	علي بن عبد الله الإلغي	الطويل	396
واحمي حمى قومي واطوي على الظما	سنائيا	امحمد الكثيري	الطويل	419
يظن زماني أنني مثل معشر	المآقيا	امحمد الكثيري	الطويل	420
أتحسب أني لا اجيد القوافيا	ما بيا	امحمد الكثيري	الطويل	420
ولكن شنوفي عند قوم جريمة	المعاليا	امحمد الكثيري	الطويل	421
قلادة جوهر تحلى بها صدري	غاليا	احمد بن عمر رزقي	الطويل	557
على رسل خدن الشعر إني أرانيا	مباهيا	امحمد الكثيري	الكامل	557

الأراجيز:

وكان من غرضنا أكل الشوا	كالدوا	أحمد بن زكرياء السكال	الرجز	430
وكلها تصدح بالتهاني	الأوطان	أحمد بن زكرياء السكال	الرجز	430
كون الضمير عائدا للأقرب	اجتبى	محمد بن عبد الله الإلغي	الرجز	485
حمدت إلهي ثم صليت أولا	زندنتا	سعيد بن محمد التملي الرجراجي	الرجز	486
يختص بالمطلق رفع الحدث	الخبث	الطاهر الإفراني	الرجز	485
وقصدنا تقضية الأعياد	بازدياد	أحمد بن زكرياء السكال	الرجز	428
وبعد هذا فلنعد للعيد	السعود	احمد بن زكرياء السكال	الرجز	428
فاعلم بأن صنعة التشحير قد	فقد	الطاهر الإفراني	الرجز	458

أحمد رب وهو أهل الحمد	المجد	احمد بن محمد اليزيدي	الرجز	484
هذا وإن غرضي ومقصدي	العضد	الطاهر الإفراني	الرجز	485
تكلف الأسفار للأوطار	المطار	محمد بن عبد الله الإلغي	الرجز	97
له همم لا منتهى لكبارها	الدهر		الرجز	277
يا أيها الناظر في المساطر	المساطر		الرجز	277
باسم الإله في الكلام ايزوار	ايزضار	احمد بن محمد التاغاتيني	الرجز	486
يا طالب العلم باشر الورع	الشبع		الرجز	277
بعد السماع يخرج الجميع	البديع	احمد بن زكرياء السكال	الرجز	429
كاتب هذا العقد أمضى البيعا	قطعا	محمد بن سعيد الإكماري	الرجز	482
من يسمع الجفوة من حل ولم	كمن جفا		الرجز	361
لا بد في المدير من نظافه	ظرافه	احمد بن الحسن أبناو	الرجز	457
ثنائي على المولى أقدم اولا	العلا	الزقاق	الرجز	266
والأصل في الحروف وضعها على	وكلا		الرجز	282
إن بني الاسم على السكون قل	كما نقل		الرجز	282
الحمد لله الذي يسر لي	الأفضل	محمد بن احمد العتيق	الرجز	481
محمد بن احمد بأولا	تاوالا	عبد الله بن محمد الإلغي	الرجز	487
حمدا لمولانا على ما أنعما	علما	امحمد الكثيري	الرجز	484
أعوذ بالله من الشيطان	الإنسان		الرجز	276
فالحركات لالتقاء الساكنين	معنيين	أبراغ الإفراني	الرجز	281
في كل ميدان ترى الألوانا	الإنسانا	احمد بن زكرياء السكال	الرجز	429
هذي رسالة إلى فخر الزمن	من فطن	محمد بن احمد الإكراري	الرجز	481
فالفتح للاتباع والموافقه	المفارقه	أبراغ الإفراني	الرجز	282
يا من توجه لبيت الله	اواه	احمد بن محمد العتيق	الرجز	486

فهرس الأعلام والقبائل والأسر

فهرس الأماكن

فهرس المدارس والمراكز العلمية

فهرس المصادر والمراجع

أولا المخطوطات :

– إجازة محمد التملي التسكَدلتى.
محمد بن أحمد الحضيكي، خزانة خاصة.
– أوراق أحمد أبو القاسم الباعمرانى.
– أوراق أحمد رزقي الإلغي.
– أوراق أحمد الراضي الزكراوي.
– أوراق عبد الله بن الحسن الصالحي الإلغي.
– أوراق محد بن الحسين الصالحي الإلغي.
– أوراق الوالد محمد بن أحمد السعيدي الإلغي.
– أوراق محمد بن أحمد العتيق السليماني الإلغي.
– أوراق مَحمد بن محمد الكثيري.
– إيضاح الأسوار المصونة في الجواهر المكنونة.
أحمد بن سليمان الرسموكي، خزانة الإمام علي بتارودانت تحت رقم كـ : 52.
ضمن مجموع.
– ترجمة الحسن بن عبد الله الوردي السملالي.
بخط يده ضمن رسالة عبد الله المؤذن الشريف البودرقاوي المؤرخة في 30 مارس 1993م.
– تقريرات علي شرح السيوطي على الألفية.
محمد بن عبد الله الإلغي، مخطوط بخزانة خاصة بتزنيت.
– الثريدة المناغية للعصيدة.
محمد المختار السوسي مصورة، عندي نسخة منها.
– الحضيكَيون.
عبد الرحمان الجشتيمي، مخطوط خاص.
– رسالتان إلى العتيق الإلغي.
محمد المختار السوسي، خزانة العتيق الإلغي.
– رسالة إلى القبطان فلورنى.المدني بن علي الإلغي خزانة خاصة.
– رسالة علماء تارودانت إلى السلطان محمد بن يوسف.
لدي نسخة منها.
– رسالة في آداب التعليم.
محمد بن أحمد الحضيكَي، خزانة خاصة بتارودانت.

- رسالة في تعليم الصبيان.
محمد بن يدير الجزولي، خزانة خاصة بهوارة.
- رسالة الأستاذ التجاجتي عميد مدرسة أيت وفقا المؤرخة في 13 نونبر 1992م.
- رسالة الأستاذ أحمد يحيى التجاجتي المؤرخة في 14 يناير 1993م.
- الرغاب في معرفة الفرائض والحساب.
أحمد بن سليمان الرسموكي، خزانة الإمام علي بتارودانت رقم كـ 52. ضمن مجموع.
- رحلة الحضيكَي الحجازية.
محمد بن أحمد الحضيكَي، الخزانة الملكية رقم 104.
- رحلة الولاتي.
محمد بن يحيى الولاتي، مصورة على الشريط رقم 373، الخزانة العامة للوثائق بالرباط.
- شرح الأجرومية.
صالح بن عبد الله الإلغي، مصورة أحمد بن عمر رزقي.
- شفاء القلوب ومواهب علام الغيوب في ناقب الشيخ سيدي محمد بن يعقوب.
أحمد بن إبراهيم الركني. مخطوط مصور عندي نسخة منه.
- عواطف المدرسة الشيشاوية.
جمع الحسن بن مبارك المزاري مخطوط خزانة العتيق الإلغي.
- فهرس الحسين بن ناصر.
مخطوط الخزانة الخالدية الرسموكية بتزنيت.
- فهرس اليوسي.
الحسن بن مسعود اليوسي، مخطوط الخزانة العامة للوثائق بالرباط، رقم : 1427.
- قصيدة عبد العزير بن أبي بكر الرسموكي.
نسخة منقولة عن خزانة أزاريف بخط الأستاذ الطيب عمري بتزنيت.
- قصيدة نزهة الأحباب في مدح الطبلة.
سعيد بن محمد التملي الركَراكَي، مخطوطة ضمن مجموع بخزانة خاصة بهوارة.
أبو علي صالح بن أبي صالح. مخطوط الخزانة العامة للوثائق بالرباط رقم : 985. ق.
- كناش الساحلي الثاني.
مخطوط مصور بخزانة خاصة بتارودانت.
- كناش أحمد العوفي.
مخطوط خزانة خاصة بتزنيت.

- كناش الكثيري.
محمد الكثيري، بخزانته الخاصة عندي صورة منه.
- كناش المعتصم.
محمد بن إبراهيم الباعمراني بخزانته الخاصة عندي صورة منه.
- كناشة الوفيات.
للجد أحمد بن إبراهيم السعيدي الإلغي، عندي صورة منه.
- مترعات الكؤوس في آثار طائفة من أدباء سوس.
محمد المختار سوسي، مخطوط خاص.
- مجموع تقاييد وأنساب سوسية.
مخطوط خاص.
- قصيدة الميرغتي في ذم البحث عن الكنوز.
مجموع مخطوط بخزانة المختار السوسي العامة بتزنيت رقم : 280.
- مختصر طبقات الشعراني.
عبد الرحمان التغرغرتي، مخطوط خاص.

ثانيا - المطبوعات :

- الابتهاج بنور السراج.
أحمد بن المامون البلغيثي، القاهرة، 1901.
- ابن أبي زيد ورسالته.
محمد سحنون، ضمن ندوة الإمام مالك، مطبوعات وزارة الأوقاف، 1404هـ - 1983.
- ابن أجروم.
عبد الله كَنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب عدد : 20 ط. معهد مولاي الحسن (د.ت).
- ابن الفارض والحب الإلهي.
محمد مصطفى حلمي، دار المعارف مصر، 1971.
- أبو عمران الفاسي.
عبد الله كَنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب عدد : 34 ط : معهد مولاي الحسن.
- أبو موسى الجزولي.
عبد الله كَنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب عدد : 19 ط : معهد مولاي الحسن.

– اتجاهات التوازن الصوتى في الشعر العربي.
د. محمد العمري. منشورات درسات، سال. (د. ت).
– أحاديث عن الأدب المغربي الحديث.
عبد الله كَنون – مطبعة النجاح الجديدة – ط 2. الدار البيضاء، 1978.
– أدب الفقهاء.
عبد الله كَنون، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، (د. ت).
– الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه.
مصطفى الشكعة ط : 3. دار العلم للملايين – بيروت 1975.
– الأدب العربي في المغرب الأقصى.
محمد القباج – مطابع فضالة – المحمدية 1400هـ – 1979.
– الأدب والغرابة.
عبد الفتاح كيليطو، الشركة المغربية للناشرين المتحدين. ط ؛ 2 – 1983م.
– الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه.
د. عباس الجراري، مكتبة المعارف، ط : 2، الدار البيضاء.
– أدب الكتاب.
الصولي – صححه وعلق عليه محمد بهجت الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة 1341هـ.
– ارتباط الحضارة المغربية بالصحراء.
إبراهيم حركات، مجلة دعوة الحق عدد 6 السنة 17.
– الازدواج اللغوي.
تمام حسان، مجلة المناهل عدد 16 دجنبر 1979م.
– أسباب انتشار المذهب المالكي بالمغرب.
د. عباس الجراري، ضمن أعمال ندوة الإمام مالك، مطبوعات وزارة الأوقاف. 1404هـ – 1983م.
– الاستقصا في أخبار المغرب الأقصا.
أحمد بن خالد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1955.
– الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة.
مصطفى سويف – دار المعارف، مصر 1959م.
– الأسلوب.
أحمد الشايب. ط : 4 مكتبة النهضة المصرية (د. ت).
– الأعلام، قاموس تراجم.
خير الدين الزركلي. ط : 2 (د. ت). وط : 7 دار العلم للملايين 1979.

- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام.
العباس بن إبراهيم المراكشي، تقديم عبد الوهاب بمنصور، المطبعة الملكية - الرباط 1974م.
- آمال والأم، ديوان شعر، عبد الله التتكي العاطفي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2002.
- أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا.
عبد الله الجراري، ط : 1 مطبعة الأمنية، الرباط 1391هـ - 1971م.
- أفوس. (مادة).
محمد الكَير - معلمة المغرب، تصدرها الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ج : 2،1 مطابع سلا. 1410هـ - 1989م.
- أكنسوس الأديب.
محمد الحاتمي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. مرقونة بخزانة البحوث، كلية الآداب، الرباط.
- الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية.
ميشال زكرياء، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت - لبنان ط: 1، 1402هـ - 1982م.
- إلْغ، (مادة).
مصطفى ناعمي - معلمة المغرب، تصدرها الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر مطابع سلا 1410هـ - 1989م.
محمد المختار السوسي، 3 أجزاء، مطبعة النجاح، الدار البيضاء 1382هـ - 1963م.
- ألفية ابن مالك.
ضمن شرح ابن عقيل تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت لبنان (د.ت).
- ألواح جزولة.
مَحمد العثمانى، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا مرقونة بخزانة دار الحديث الحسنية بالرباط، وتم طبعها بوزارة الأوقاف - المغرب.
- إمارة بني يدر بسوس.
محمد المنونى - مجلة دراسات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكَادير - العدد الأول. 1987.
- الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي.
د. عباس الجراري، ط : 2، دار الثقافة، الدار البيضاء 1404هـ - 1984م.

- أنساب شرفاء أيت بودرقة.
عبد الله بن محمد المؤدن البودرقاوي. مرقونة عندي نسخة منها.
- الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري.
علي محمد هاشم، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1402هـ / 1982م.
- الأندلس المطرب بروض القرطاس.
ابن أبي زرع، دار المنصور، الرباط 1973م.
- أيام خالدات في منفى المختار السوسي.
أحمد السكال الباعمراني، ضمن مجلة المواهب، عدد خاص عن المختار السوسي، أصدرها معهد محمد الخامس، بتارودانت 1395هـ - 1975م.
- أيام عكاظ بتازروالت.
الحسن البونعماني مجلة الثقافة المغربية، أكتوبر 1942م، ودجنبر 1942م.
- إيليغ قديما وحديثا.
المختار السوسي، تقديم وتعليق محمد بن عبد الله الروداني المطبعة الملكية 1966.
- بردة البوصيري.
محمد رجب النجار، حوليات كلية الآداب - الكويت 1986م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.
جلال الدين السيوطي، طبعة الخانجي. 1326هـ.
- بلاغة الخطاب وعلم النص.
صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة رقم 164 الكويت.
- البلاغة والأسلوب.
هنريش بليث، ترجمة محمد العمري، منشورات دراسات سال ط : 1 الدار البيضاء 1989م.
- بنية اللغة الشعرية.
جون كوهن. ترجمة محمد الوالي ومحمد العمري، دار توبقال ط : 1، الدار البيضاء 1986م.
- البنية الإيقاعية.
أحمد المعداوي مجلة الوحدة عدد مزدوج 28/83 يوليوز - غشت 1991م.
- بين الأدب والموسيقى.
محمد عماد فضلي مجلة فصول عدد : 2 مجلد 5 مارس 1985م.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.
- محمد بن عذاري المراكشي تحقيق كولان وبروفنصال، ط : 2 بيروت 1980.

- تاج الرؤوس بالتفسح في نواحي سوس.
أحمد سكيرج. المطبعة الجديدة فاس (د.ت)
- تاريخ أداب العرب.
مصطفى صادق الرافعي. ج : 3. صححه محمد سعيد العريان، مطبعة الإستقامة ط. 3، القاهرة 1373هـ - 1953م.
- تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى.
محمد عبد الرحيم غنيمة، نشر معهد مولاي الحسن، تطوان 1953م.
- تاريخ النقد العربي.
محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.
- التاريخ في الزمن المعسول.
أحمد التوفيق، ضمن المختار السوسي الذاكرة المستعادة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1986.
- تجليات الأصالة في الشعر الحديث.
د. عبده بدوي، مجلة عالم الفكر المجلد 12 عدد 3 يناير - فبراير - مارس 1992.
- تحفة الحكام بمسائل التداعي والأحكام.
علي بن القاسم التجيبي الزقاق، ضمن المجموع الكبير للمتون.
- تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص.
د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط : 2 الدار البيضاء 1986م.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
القاضي عياض. ج : 8 تحقيق سعيد أعراب، نشر وزارة الأوقاف 1403هـ - 1983م.
- الترياق المداوي في أخبار سيدي الحاج علي السوسي الدرقاوي.
محمد المختار السوسي، المطبعة المهدية - تطوان 1960م.
- تشريح النص.
د. عبد الله الغذامي. ط : 1 دار الطليعة بيروت - لبنان 1987م.
- التشوف إلى رجال التصوف.
الزيات، تحقيق أحمد التوفيق منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط. 1984م.
- التصور المنهجي ومستويات الإدراك في العمل الأدبي والشعري.
د. الطريسي أحمد أعراب، شركة بابل الرباط 1989م.
- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق.
د. زكي مبارك. ط 2، دار الكتاب العربي بمصر 1373هـ - 1954م.

- تعليم وتعلم اللغة العربية وثقافتها.
د. المصطفى بن عبد اله بوشوك ط : 1، الهلال الغربية للطباعة والنشر، الرباط 1411هـ - 1990م.
د. محمد العمري، مجلة دراسات سيميائية، أدبية، لسانية عدد 4 شتاء 1990م.
- تفسير الجلالين.
السيوطي والمحلي، المكتبة التجارية الكبرى مصر (د. ت).
- التلخيص في علوم البلاغة.
القزويني. شرحه عبد الرحمان البرقوقي، دار الكتاب العربي بيروت (د. ت).
- تمام النصيحة في إرشاد الطلبة.
يبورك بن عبد الله السملالي دراسة وتحقيق عبد السلام الخلد، بحث لنيل دبلوم مركز المفتشين، مرقون بخزانة المركز بالرباط. 1987.
- التناسب البياني في القرآن.
د أحمد أبو زيد، منشورات كلية الآداب الرباط 1996م.
- الثقافة والفنون في القرنين الخامس والسادس.
حسن التريكي، ضمن مذكرات من التراث المغربي ج : 2. لوغانو الرباط 1986.
- الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنقيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط.
محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين. مطبوعات دار العلم 1376هـ - 1957م.
- جامعة القرويين.
عبد الله العمراني، مجلة البحث العلمي عدد 11 - 12. السنة 4 جمادى الأولى 1387هـ - دجنبر 1967م.
- جدلية الخفاء والتجلي، دراسة بنيوية في الشعر.
كمال أبو ديب، ط : 3 دار العلم للملايين. بيروت - لبنان 1984م.
- جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي.
فايز الداية ط : 2، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان 1990م.
- حاشية على شرح المنوفي لرسالة ابن أبي زيد.
علي الصعيدي، ج : 1، مكتبة القاهرة. (د. ت).
- حرقة الأسئلة.
عبد اللطيف اللعبي، ترجمة علي تيزلكاد، دار توبقال، الدار البيضاء 1986م.
- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين.
د. محمد حجي، منشورات دار المغرب، الرباط 1977هـ - 1978م.
- الحوض، في الفقه المالكي باللسان الأمازيغي.
محمد بن علي الهوزالي ج : 1، تحقيق عبد الله الرحماني الجشتيمي ط : 1.

مطابع دار الكتاب، الدار البيضاء. 1397هـ - 1977م.
- خزانة الأدب.
ابن حجة الحموي، مصر 1240هـ.
- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية.
د. عبد الله الغذَّامي. كتاب النادي الأدبي الثقافي ط : 1، جدة 1405هـ - 1985م.
- خلال جزولة.
محمد المختار السوسي. تطوان المغرب (د. ت).
- الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري.
محمود إسماعيل عبد الرزاق، دار الثقافة - الدار البيضاء 1976م.
- دراسة حول الأرجوزة في الأدب المغربي.
عبد الجواد السقاط. مجلة المناهل عدد 35 دجنبر 1986م.
- الدر الثمين والمورد المعين في شرح المرشد المعين.
محمد بن أحمد ميَّارة. المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان (د. ت).
- الدعوة الموحدية بالمغرب.
عبد الله علام، دار المعرفة، القاهرة 1964م.
- دليل الفارض ومفتاح الفرائض.
أحمد بن سليمان الرسموكي، تحقيق صالح بن عبد الله الصالحي الإلغي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1410هـ - 1990م.
- دور المعرفة الخلفية في الإبداع والتخييل.
د. محمد مفتاح، مجلة دراسات سيميائية - أدبية - لسانية عدد : 6 خريف - شتاء 1992م.
- دينامية النص.
د. محمد مفتاح، ط : 1، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء 1987م.
ديوان الحسن البونعماني.
د. الحسين أفا، جمع وتحقيق ودراسة، منشورات كلية الآداب بالرباط 1996.
- ديوان العتيق.
محمد العتيق الإلغي، مرقون بخزانته الخاصة.
- ديوان قبائل سوس.
إبراهيم علي الحساني، تحقيق عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1989م.
- ذكريات.
محمد المختار السوسي، مطبعة الساحل الرباط 1405هـ - 1984م.

- الرسالتان البونعمانية والشوقية.
محمد المختار السوسي، الطبعة المهدية - تطوان. (د. ت).
- رسالة الغفران.
أبو العلاء المعري، تحقيق عائشة عبد الرحمان، دار المعارف مصر، ط : 5.
- الرسالة الموضحة في سرقات أبي الطيب.
محمد بن الحسن الحاتمي، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت 1965م.
- رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة.
الشريف السبتي، مطبعة السعادة بمصر 1344هـ.
- الرؤيا بوصفها تعبيرا عن جدلية الإبداع والواقع.
محيي الدين صبحي، مجلة الوحدة عدد مزدوج 82/83 يوليوز - غشت 1991م.
- الرؤى المقنعة، نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي.
كمال أبو ديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986م.
- الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب.
د. الطريسي أحمد أعراب، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع الدار البيضاء 1987م.
- رحلة العبدري.
محد العبدري، تحقيق محمد الفاسي - الرباط 1986م.
- رجالات العلم العربي في سوس.
محمد المختار السوسي، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر طنجة 1409هـ - 1989م.
- الرجز والشعر وموقف القدماء والمحدثين منهما.
مصطفى الجوزو، مجلة الفكر العربي عدد 25 يناير - فبراير 1986م.
- روضة الأفنان في وفيات الأعيان.
محمد الإكراري، تحقيق أنوش حمدي رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، مرقونة بخزانة كلية الآداب، بالرباط.
- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي.
د. محمد حجي. المطبعة الوطنية، الرباط 1384هـ - 1964م.
- الزاوية المغربية منتدى للفكر والإشعاع.
عبد العزيز بن عبد الله، مجلة دعوة الحق، عدد : 249. يونيو 1986م.

- زهر الآداب وثمر الألباب.
إبراهيم الحصري. ضبطه وشرحه زكي مبارك، راجعه محيي الدين عبد الحميد ط : 3، المكتبة التجارية، القاهرة 1373هـ - 1953م.
- السجع بنيته وقواعده.
ديفين ستيوارت ترجمة محمد بربري، مجلة فصول المجلد 12 عدد 3 خريف 1993م.
- سحر الموضوع.
حميد لحمداني، منشورات دراسات، سال، الدار البيضاء 1990م.
- سر الصباح.
أحمد بن الحسن أبناو، ط : 1، مطبعة لينو النخلة، الدار البيضاء 1993م.
- سوس العالمة.
محمد المختار السوسي، ط : 1، مطبعة فضالة - المحمدية 1380هـ - 1960م.
- شرح ديوان المتنبي.
أبو البقاء العكبري. تحقيق مصطفى السقا وآخرين، شركة مصطفى البابي الحلبي 1355هـ - 1936م.
- شرح عقود الجمان في علم المعانى والبيان.
جلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي 1358هـ - 1939م.
- شرح قصيدة الشقراطيسية.
عبد الرحمان المقدسي. تحقيق مصطفى المسلوتى. بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا مرقون بخزانة البحوث دار الحديث الحسنية، الرباط.
- شرح منظومة ابن عاصم.
أبو الحسن علي المنوفي، ط حجرية، فاس 1289هـ.
- شعر أحمد السكال الباعمراني، جمع وتحقيق وتقديم : أحمد بن مبارك أبو القاسم. رسالة دكتوراه في الآداب نوقشت بكلية الآداب بالرباط. سنة 2004.
- شعر إسماعيل السكتاني، جمع وتحقيق ودراسة، عمر بزهار رسالة الدكتورة نوقشت بكلية الآداب بالرباط سنة 2003.
- شعر داود الرسموكي.
اليزيد الراضي، منشورات جمعية إيليغ للتنمية والتعاون 1992م.
- الشعر الدلائي.
عبد الجواد السقاط. مكتبة المعارف ط : 1، الرباط 1985م.
- شعر الصحراء.
د. عباس الجراري، مجلة دعوة الحق عدد : 273 جمادى الأولى والثانية 1409هـ يناير - مارس 1989م. ص : 114.

- الشعر والتجربة.
د. محمـد السرغيني، مجلة الـوحـدة، عدد مـزدوج 82/83 يـوليـوز – غشت 1991م.
- الشعر والجمال.
تيسير شيخ الأرض. مجلـة الـوحـدة عـدد مـزدوج 82/83 يـوليـوز – غشت 1991م.
- الشعر الوطني في عهد الحماية.
د. إبراهيم السولامي – مطبعة النجاح، الدار البيضاء.
- الشك والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتى.
محمد ماكَري، المركز الثقافي العربي، ط :1، الدار البيضاء 1991م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا.
أبو العباس أحمد القلقشندي، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1993هـ – 1915م.
- صحيح البخاري.
محمد بن إسماعيل البخاري. المطبعة العثمانية مصر 1351هـ – 1932م.
- صورة الأرض.
ابن حوقل، دار مكتبة الحياة – بيروت، لبنان.
- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي.
محمد الولي، ط : 1، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – 1990م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي.
د. جابر عصفور، ط : 2. دار التنوير بيروت – لبنان 1983م.
- الصورة الفنية في شعر شوقي الغنائي.
عبد الفتاح عثمان، مجلة فصول المجلد : 3 عدد : 1 دجنبر 1982م.
- صورة من النثر المبكر في اليمن.
د. وداد القاضي، مجلة الفكر العربي. عدد : 25 يناير – فبراير 1982م.
- الطاهر الإفرانى حياته وشعره.
عبد الله درقاوي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا مرقون بخزانة البحوث كلية الآداب الرباط.
- طبقات الحضيكَي.
محمـد بن أحمد الحضيكَي، تحقيق : أحمد بومـزكو، مطبعـة النجاح الجديـدة، الدار البيضاء 2006.
- ظواهر أسلوبية في شعر المتنبي.
عبده بدوي، مجلة فصول مجلد 4 عدد : 2 يناير – فبراير – مارس 1984م.

- علي بن أحمد الإلغي (مادة).
عبد الله درقاوي، ضمن معلمة المغرب، تصدرها الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. ج : 1 و 2 مطابع سلا 1410هـ - 1989م.
- العمدة في محاسن الشعر ونقده.
ابن رشيق، تحقيق محيي الدين عبد الحميد. ط : 2، مطبعة السعادة مصر 1374هـ - 1955م.
- عوامل نهضة الشعر الديني.
حلمي محمد القاعود. مجلة عالم الفكر مجلد 20 عدد : 2، يوليوز - غشت - شتنبر 1989م.
- الغيث المسجم في شرح لامية العجم.
صلاح الدين الصفدي، المطبعة الأزهرية 1305هـ.
- الفصل في الملل والنحل.
ابن حزم، صححه عبد الرحمان خليفة. مصر 1348هـ.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي.
محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، المطبعة الجديدة، فاس (د. ت).
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي.
شوقي ضيف، دار المعارف ط : 10، مصر 1978م.
- فنية التعبير عند ابن زيدون.
د. عباس الجراري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1977م.
- فهرس أحمد المنجور.
تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1976م.
الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي، تحقيق د. اليزيد الراضي مطبوعات السنتيسي، الدار البيضاء 1999.
- القاضي عياض الأديب.
عبد السلام شقور، دار الفكر المغربي، طنجة 1983م.
- القصيدة العربية بين الحاضر والمستقبل.
حسان الخطيب. مجلة الوحدة عدد مزدوج 82/83 يوليوز - غشت 1991م.
- القصيدة المغربية المعاصرة.
عبد الله راجع، منشورات عيون، الدار البيضاء 1987م.
- القصيدة والنص المضاد.
د. عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1994م.

– قيام دولة المرابطين.
حسن أحمد محمود، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م.
– كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم.
برهان الدين الزرنوجي، تحقيق، مروان القباني، المكتب الإسلامي بيروت – لبنان، 1981م.
– كتاب العبر وتاريخ المبتدأ والخبر.
عبد الرحمان بن خلدون. دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان 1956م.
– كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.
حاجي خليفة، دار سعادت (د. ت).
– كيف نشأت التقاليد العلمية بسوس.
محمد زنيبر مجلة البحث العلمي عدد : 3 شتنبر 1964م.
– لسان العرب.
ابن منظور المصري، ترتيب يوسف خياط. دار لسان العرب، بيروت.
– لسانيات النص.
محمد خطابي، ط : 1 المركز الثقافي العربي الدار البيضاء 1991م.
– لمحات من تاريخ سوس.
عبد الحميد مرادي الباعمراني، مرقون خزانة خاصة تزنيت.
– مآثر السلف ومفاخر الخلف.
أحمد بن علي التجاجتي، منشورات جمعية إيليغ للتنمية والتعاون. 1991م.
– المبنيات.
محمد أباراغ مرقون.
– مثلث قطرب.
عبد الله كَنون، مجلة المناهل عدد 3 يونيو 1975م.
– المثل السائر في أدب الناثر والشاعر.
ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، شركة البابي الحلبي 1358هـ – 1939م.
– المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. اينولتان.
أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، ط : 2، الرباط 1403هـ – 1983م.
– المحسنات البديعية.
قصي سالم علوان، مجلة الفكر العربي عدد 46 يونيو 1987م.
– محد المختار السوسي حياته وشعره.
د. محمد خليل، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر الدار البيضاء 1406هـ – 1985م.

- محمد المختار السوسي في حياته الخصبة بين انطلاق وقيود.
محمد العثماني، مجلة المواهب عدد خاص بمحمد المختار السوسي صدرت عن معهد محمد الخامس بتارودانت 1395هـ - 1975م.
- مدارس سوس العتيقة، نظامها أساتذتها.
محمد المختار السوسي، هيأه للنشر رضى الله عبد الوافي، طنجة 1987م - 1407هـ.
- مدخل إلى علم الجمال الأدبي.
عبد المنعم تليمة، ط : 2، منشورات عيون، الدار البيضاء 1987م.
المدرسة الأولى
صالح بن عبد الله الإلغي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1998.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها.
د. عبد الله الطيب، ط : 1، دار الفكر بيروت 1970م.
- مسألة النقود في تاريخ المغرب.
عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة ط : 1 الدار البيضاء 1408هـ - 1988م.
- المساجلات في العهد اليوسفي.
محمد احميدة، مجلة دعوة الحق، عدد 273 جمادى الأولى والثانية 1409هـ يناير - مارس 1989م.
- المصادر العربية لتاريخ المغرب.
محمد المنونى 2 ج، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1989م.
- معارضات شوقي.
محمد الهادي الطرابلسي، مجلة فصول المجلد 3 عدد : 1 دجنبر 1982.
- معجم المؤلفين.
عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي، دمشق 1961.
- المعجم الوسيط، إعداد إبراهيم مصطفى وآخرين، مطبعة مصر 1380هـ - 1960م.
- المعسول.
محمد المختار السوسي، الأجزاء 1، 2، 3، 5، 6، 7، 8، 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20. مطبعة النجاح الدار البيضاء. 1960، 1962، 1963.
الأجزاء. 9، 10، مطبعة الشمال الإفريقي الرباط 1961 الجزء : 4 مطبعة فضالة - المحمدية 1960.
- المعهد الإسلامي بتارودانت والمدارس العتيقة بسوس.
عمر المتوكل الساحلي. 4 ج دار النشر المغربية الدار البيضاء ج 1 - 1985م، ج 2 - 1986. ج 3 - 1990، ج 4، 1991م.

- المغرب في ذكر إفريقية والمغرب.
البكري. مكتبة المثنى، بغداد.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب.
ابن هشام الأنصاري، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، راجعه سعيد الأفغانى ط 5، دار الفكر بيروت 1979م.
- مفهوم الأدبية في التراث النقدي.
توفيق الزيدي. ط : 2 منشورات عيون، الدار البيضاء 1987م.
- مفهوم الشعر.
د. جابر عصفور، ط : 2. دار التنوير، بيروت 1982م.
- مقدمة.
د. جابر عصفور، مجلة فصول المجلد 12 عدد 3 خريف 1993م عدد خاص عن: تراثنا النثري.
- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول.
حسين عطوان، ط : 2، دار الجيل، بيروت 1407هـ - 1987م.
- الممتع في شرح المقنع،
محمد بن سعيد الميرغتي. طبعة فاس الحجرية.
- من أصول الشعر العربي.
إبراهيم عبد الرحمان، مجلة فصول المجلد 4 عدد : 2، يناير - فبراير - مارس 1984م.
- منار السعود عن تافراوت المولود ومدرستها العتيقة.
محمد بومهاوت الوسخيني، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ـ 1994م.
- مناقب البعقيلي.
محمد بن أحمد المرابط البعقيلي، مطبعة الساحل ط : 1، 1480هـ - 1987م.
- مناهل الدراسات الأدبية الحديثة.
د. محمد عمر الطالب. دار اليسر ط: 1، الدار البيضاء 1988م.
- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع.
- أبو القاسم السجلماسي، تحقيق د. علال الغازي، دار المعارف الرباط 1980.
- منظومة العمل الفاسي.
ـ منظومة إرشادية للحج،
محمد بن أحمد العتيق السليمانى، مرقونة سلمني نسخة منها الفقيه أحمد أبو العقل أستاذ مدرسة سيدي امحمد الشيشاوي بإقليم شتوكة أيت باها.
ضمن المجموع الكبير للمتون ط : 3، دار الفكر بيروت 1993هـ - 1973م

- المنهل العذب الحاوي في شرح أرجوزة الزواوي.
أبو زكرياء يحيى البعقيلي، دار الطباعة الحديثة الدار البيضاء (د. ت).
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء.
حازم القرطاجني. تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة. ط : 3 دار الغرب الإسلامي 1986م.
- موسيقى الشعر.
إبراهيم أنيس ط : 4، دار القلم بيروت 1972م.
- الموطأ.
الإمام مالك بن أنس، صححه ورقمه وأخرج أحاديثه. فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية 1370هـ - 1951م.
- المؤسسات التعليمية الأولى بسوس.
محمد المنوني، مجلة المناهل عدد : 34، يوليوز 1986م.
- ناظر الوقف.
محمد بن عبد الله، مجلة دعوة الحق، عدد : 271، محرم - صفر 1409هـ، شتنبر - اكتوبر 1988م.
- النثر الفني.
د. زكي مبارك، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط : 2.
- نشأة الكتابة الفنية.
د. حسين نصار. ط : 2. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1966م.
- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب.
د. أمجد الطرابلسي. منشورات عيون. الدار البيضاء 1986م.
- نظم الجمان.
ابن القطان، تحقيق محمود المكي، المطبعة المهدية - تطوان.
- نظرية الأنواع الأدبية.
جي فانسان، ترجمة حسن عون، منشأة المعارف الأسكندرية 1978م.
- نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار.
عبد الغني النابلسي، مطبعة بولاق عام 1299هـ.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج.
أحمد بابا السوداني، إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة. منشورات كلية الدعوة الإسلامية ط : 1، طرابلس - ليبيا 1989م.
- نيل المراد في شرح بلغة الأرفاد في موازنة بانت سعاد.
محمد الهاشمي الأقاوي الفاسي. المطبعة العصرية فاس، 1366هـ.

- نص جديد عن فتح العرب للمغرب.
ليفي برونفصال، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد المجلد الثاني العدد 1 و 2، 1954م.
- النضال في الشعر المغربي المعاصر.
د. عباس الجراري. مجلة المناهل عدد 3، يونيو 1975م.
- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى.
محمد بن تاويت، ط : 1، دار الثقافة الدار البيضاء 1403هـ - 1983م.
- وفيات الرسموكي.
الرسموكي، مطبعة الساحل - الرباط، ط : 1، 1408هـ - 1988م.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.
ابن خلكان البرمكي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت (د. ت).
- الهجاء موسوعة المصطلح النقدي.
ارثر بولارد، مجلة الفكر العربي عدد 26 مارس 1982م.

المراجع الفرنسية :

- L'ACTE de lecture, Théorie de L'effet Esthetique.
Wolfgang ISER. Pierre Mardaga Bruxelle 1976.
- Dictionnaire Actuel de l'éducation.
Renald le gendre. Ed. Larousse 1988.
- Histoire d'une tribus maraboutique de l'Anti-ATLAS, les Ait Abdalah ou Said.
- Jean Chaumeil, hespéris, Tome 39, , 2 Tri 1952.
- LE MAROC HORISON 2000. (Agenda 1990).
D. Aguerd Mohamed et Ourara Mohamed. Ed. OKAD RABAT 1989.
- LE MAROC SAHARIEN des origines à 1670.
JAQUES-MEUNIE, Librairie KLINCKSIECK, 1982.
- MCKHIL BAKHTINE, LE PRINCIPE DIALOGIQUE.
TZVETANT TODOROV. Ed. Le Seuil 1981.
- Palimpsestes ou la litterature au Second degré.
Gerard Genette, Ed le Seuil 1982.
- PRECIS de Geologie.
E, SAAIDI. Ed. S.M.E.R. 1987 Rabat.
- Sémanalyse.
JULIA KRESTEVA. Ed. Le Seuil 1968.
- Semiotique, dictionnaire raisonné de la Théorie du language.
GREIMAS et COURTES. Hachette. Paris.

فهرس المحتويات

مطبعة فضالة
3، زنقة ابن زيدون ـ المحمدية (المغرب)
الهاتف: 45 46 32 023 الفاكس: 43 46 32 023